المكتبة الأهلية . بمصر



غرائب الغرب

كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي أدبي

فيه كلام على مدنية : فرنسا ، وانكلترا ، والمانيا ، وايطاليا ، واسبانيا ، وسويسرا ، والبلجيك ، وهولاندا . والنمسا . والمجر ، والبلقان ، واليونان ، والاستانة ، ومصر ، والشام ومقالات في علائق الشرق بالغرب ، والغرب بالشرق ، منذ الزمن الاطول ، ولا سيما صلات الغرب مع العالم الاسلامي ، والعربي منه خاصة . في جنوبي ايطاليا وفرنسا والاندلس .

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

— الجزء الاول —

الطبعة الثانية

١٣٤١ هـ المطبعة الرحمانية — بمصر ١٩٢٣ م

غرائب الغرب

الطبعة الثانية

مقدمة الكتاب

هذه فصول ومقالات بل آهات وتأوهات كتبتها فى وصف معالم الغرب وما لقيته فيه وقد زرته ثلاث مرات الاولى فى شتاء سنة ١٣٢٧ (٨و١٩٠٩) والثانية فى شتاء سنة ١٩١٣ — ١٩١٤ م والثالثة فى سنة ١٣٤٠ (١٩٢١ — ١٩٢٢) وأنا على مثل اليقين بأنها لا تحمل فى مطاويها من تلك المدنية الساحرة الا بقدر ما تصل اليه يد عابر سبيل ويتفطن له فكر النزيل والدخيل

وقد أبقيت ما كتبته فى حينه بحاله لم أدخل عليه أدنى تعديل ليقف القارىء على ما كتب برمته راجياً من كرمه تعالى أن ينفع بها قراء العربية ومنه أستمد العون والتيسير نعم المولى ونعم النصير

محمد كرد على

دمشق ١٩ صفر سنة ١٣٤١ و ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢

---

*

الرحلة الاولى

الرحيل من دمشق الى لبنان

١

كان من أعظم أمانى النفس منذ بضع سنين . ان أرحل الى أوربا رحلة علمية أقضى فيها ردحا من الدهر ، للتوفر على دراسة حضارة الغرب فى منبعثها ، واستطلاع طالع المعاهد ، التى منها نشأ المخترعون والمكتشفون . والفلاسفة المنزهون . والعلماءالعاملون . والساسة المستعمرون ، والقادة الغازون ، والتجار والصناع والزراع والماليون ، وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها

وكانت الأحوال تعوق هذا القصد عن اتمامه ، وتحول دون البغية المنشودة الى أن قدر الله فأقام والى سورية السابق تلك القضية الملفقة على جريدة المقتبس واحتال انتقاماً لنفسه لاقفال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حكم المحكمة علي فقلت الآن حان وقت الرحلة فى طلب العلم تتفرغ لتحقيق ما فى الخاطر ، ريثما يتبين الحق من الباطل ، والحالى من العاطل ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم

فى الهزيع الأخير من ليل الثلاثين من رمضان (١٣٢٧ هـ ١٩٠٨ م) ركبت من دمشق عربة مع صديقين عزيزين ، قاصدين قرية القابون وفى ظاهرها وقفنا لحظات الى أن وصلت فرسى ووصل صديق لى آخر راكباً فرسه فركبنا وعاد ذانك الحبيبان الى المدينة ، وكان بدأ فى تلك الساعة الاشراق فى الافق ، والسكون لم يبرح مستحوذاً على الارباض والرياض ، ولم نكن نسمع من بعيد غير فمقعة أجراس الطحانين والمكارين ، وصياح الديكة أو عواء الكلاب ، وما كدت أعلو متن مطيتى حتى ترامى الى مسمعى صوت مؤذن القابون ينادى

« هلموا الى طاعــة الله يرحمنا ويرحمكم الله » فقلت : كلمة حق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لهـا ، لرحموا ولـكنها جمل جميلة تقال ، ومعانشريفة لا يعمل بها وعادات ألفت بمعزل عما فيها من الأسرار النافعة فى صلاح المعاش والمعاد

التفت الىالغوطة الدمشقية التفاتة أخيرة وهيأحب بقعة الى قلبي فيالارض وقد كثر فى أفقها شفق الفجر فذكرت طرفا من أيامها البيض والسود . ذكرت الغوطة المحبوبة ، وذكرت مطامع البشر ، وانحطاط أخلاقهموعقولهم ، فقاد ذلك الى التفـكر فى شقاء الانسان بالانسان ، وموت بعض لحياة كل ، وافتقار مئات لا غناء أفراد ، وشقاء ربوات : لسعادة عشرات . وتعب فريق : لراحــة أمة ، فتمثل لى عجيب صنع المولى فى خلقه ، سبحانه لا يبقى العالم على حال ، هو المعز المذل ، القابض الباسط ، المغنى المفقر ، يقلب الارض ومن عليها ولا يرثها الا عباده الصالحون .

سارت بنا مطيتانا ، فاجتزنا قرية برزة ومعربا ، ولم تشرق الشمس الا وقد قطعنا أراضى معربا وأشرفنا على اكماتها فالتفتنا الى ماوراءها وقدتجلت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج من خلف الجبال . فألقيناعليها نظرة الوداع ، وأغذذنا السير الى بسيمة ، ومنها الى دير مقرن فـكفير الزيت فدير قانون فـكفر العواميد، وفى هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر .

ولم أشهد هذا الوادى وكنت مررت به راكباً منذ ستة عشر عاما شيئاً من التغير والارتقاء المحسوس ، فالفلاح فيه لايزال ينتظرموسم الفاكهة : ان سلمت أشجاره من لفحات الجليد : يرتاش تلك السنة ويعتاش ، برمانهوجوزه ، وتفاحه وكمثراه ، وتينه وعنبه ، والا فيضطر فى الاكثر الى الاسـتدانة على الموسم المقبل ، وان كان على شيء من القوة والجلد ، يرحل الى بعض الكور المجاورة كقرى وادى العجم أو الغوطة يعمل فيها أشهر الصيف ليأتي فى الشتاء بمؤونة تـكفيه من الحنطة فى كـنه وكانونه .

وذلك لان هذا الوادى منذ قرية دمر حتى سوق وادى بردى لا يغل من

الحبوب ما يسد عوز سكانه بعض السنة ، لغلبة اليبوسة على جروده وجباله ، ولأن أكثر تربته صخرية ، تحتاج للعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة ، لتأتى أكلها . أما الأشجار وبعض الخضر والبقول التى ينتفع بها الفلاح هنا ، فالفضل لنهر بردى فى اروائها ، يأخذ من مائه فى مجارى يعليها بقدر حاجته أو أكثر .

ولقد أخذت أثمان الفواكه تأتى أصحابها بأرباح أكثر من السنين السابقة خصوصاً منذ تم استثمار السكك الحديدية فى سورية كسكة بيروت — دمشق — حوران وسكة دمشق — حيفا — المدينة وسكة دمشق — حلب — بيره جك (البيرة) فأصبحت ثمارهم تصدر الى الجهات القاصية . وكانوا يقدمون أكثرها فى سنى الخير علفاً للدواب . أو يلقونها فى الطريق . لان العطلة فى نقلها من محلها الى دمشق أو بيروت مثلا على الدواب لا تقوم باجرة المكار ودابته .

نعم لم أر ارتقاء محسوساً فى حالة فلاح وادى بردى (البيلية) وأنى يتم له ارتقاء . وليس له طريق يسلك . غير ما حفرته أقدام المارة ، وحوافر الدواب والماشية . وجرفته السيول والرياح منذ قرون . فالطرق المعبدة المطروقة لا أثر لها فى هذا الوادى . ولعل ذلك ناشىء من كونه حديث عهد بالحكومة المنظمة . فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لاقضية بعيدة أما الآن بعد ان غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات . فقد بات يرجى أن تنظم لاهل قضاء الزبدانى طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية ، ليتيسر للناس الغدو والرواح ، من أيسر السبل . وما إخال ذلك متعذراً على الحاكم اذا حث أهل كل قرية أن يقوموا بأنفسهم ، لتمهيد طريقهم ، أيام انقطاعهم عن العمل ، كفصل الشتاء مثلا لما يعرفون من الفوائد التى تنجم لهم عنها ، أو يعملونها بواسطة الموظفين الأمناء ، وان كانت هذه الطريقة لا تخلو من محظور لأنها تؤدى الى السخرة ، والسخرة ممنوعة بنص القانون الأساسى وتمهيد الطرق وبث الأمن من جملة الفروض العينية على كل حكومة .

وبعد فانه لا وجود فى وادي بردى لسائر المرافق التى يتمتع بها الفلاح فى البلاد المتمدنة . وذلك لان الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهمها من الفلاح الا أن تأخذ منه لا ان تهيء له سبيل الاخذ . فكان قصاراها تكثير الجباية ؛ وتوفير الضرائب ؛ وأخذ من تريده للخدمة العسكرية ؛ أما امتاع الاهلين بالوسائل الصحية ؛ وتعليمهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ . وفتح سبل المواصلات ؛ ورفع علم الامن ؛ وتعليمهم الضرورى من القراءة والكتابة ؛ فكانت أموراً لا تعرفها لا فى وادى بردى فقط بل فى جميع أودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها .

ومن أغرب ما رأيناه فى وادى بردى : ان بعض قراها تحفر القبور لموتاها أمام الدور ؛ فترى حي الاحياء مع حى الاموات . وما أدرى هل يأتون ذلك بالقصد حرصاً على رفات موتاهم من ان تسطو عليها الوحوش الكاسرة فى مدافنها اذا لحدودها بعيدة عن العمران ولو بضع خطوات ، أو انهم يؤثرون دفن الموتى أمام أعينهم ليذكروا كل شارقة وبارقة مصير الانسان الى دار البقاء ويزهدوا فى دار الفناء . فلا يهتمون بأسباب الهناء والصفاء .

ومما عمت به البلوى فى الفلاحين ؛ إنك ترى القاذورات أيضاً تعمى العيون وتخنق الانفاس . فترى روث البهائم وغائط الآدميين . وسط الدور وخلفها وقدامها وعن ايمانها وشمائلها . ولولا بقية من عادة النظافة والتطهر ورثها المسلمون بالتسلسل عن آبائهم وشيء من جودة الهواء فى الجملة فى القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الاقليم ومن حوله .

ركبت صبيحة العيد ورفيقى قاصدين سوق وادى بردى واعلها سميت كذلك لسوق كانت تقام فيها فيما مضى للبيع والشراء على العادة فى أسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلا سوق الاحد وسوق الجمعة وسوق الخيل وسوق الحمير ، ولهذه الاسواق أمثال فى أوربا . وبالقرب من السوق تضيق فوهة الوادي وينقطع العمران ليخرج منه الى منفسح وادى الزبدانى ؛ وجبال السوق لا تخلو من

نواويس قديمة على نحو ما تجـد منها فى جبال الشام محفورة فى الغالب فى القمم والآكام . ومن السوق انتهى بنا نفس السير الى قرية عيتا الفخار من أعمـال البقاع العزيز ، وهى القرية التى اشتهرت منـذ عهد بعيد بفخارها الذى تطبخه أكثر بيوتها فى تنانير خاصة وتبيعه فى المدن الداخلية من أعمال دمشق

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ أطللنا على عيتا ، ورأينا بيوت القرميد التى بنيت بالحجر النحيت على المثال الذى نشاهده فى أكثر بيوت سورية وعلمنا ان سبب ما شاهدناه من جمال المساكن فى عيتا ، تلك الاموال التى جلبها بعض سكانها من هجرتهم الى اميركا ، وأحبوا حتى من لا تحدثهم أنفسهم بالسكنى ثانية فى عيتا أن يظهروا غناهم بانشاء الدور المنظمة ليصح عليهم المثل العربى « أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها » « ان الغنى طويل الذيل مياس » أو الأثر المشهور « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » وليس كالبيوت تنم عن يسار وتدل على سعة ، وبعد عيتا مررنا بكامد اللوز فجب جنين فلالا فبعلول من وادى البقاع وفى هذه القرية بتنا عند رجل من أهلها أنزلنا عنده وأكرمنا ولم يعرفنا ، ومع حرصه على معرفتنا اكتفينا من التعريف بالتعريض ، وفى المعاريض مندوحة عن الكذب .

وقد سرت الى هذه القرية والى جميع قرى البقاع عدوى الهجرة وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم ، ومن حديث كثير من البقاعيين تبين ان أهل كل قرية فى الغالب يؤثرون فى بلاد المهجر اقليما خاصاً لهم ينزلونه أو مملكة يوجهون وجهتهم اليها فيقصد مثلا أهل قرية كذا ولاية كذا من شمالى أميركا وأهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرين ينزلون كنداوغيرهم اوستراليا وفريق السنيغال وبعض الترنسفال . فكان عدوى الانتقال تسرى اليهم بالعشرة ، فلا يحب المواطن الا أن يقلد مواطنه فى مآتيه ومنازعه ، بل فى شقائه وسعادته . وقد أذكرنا هذا بحال العرب فى الفتح وبعده فكان القيسيون ينزلون بلد كذا واليمانيون اقليم كذا ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الاندلس

كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جند حمص ولذلك كان الجند يدعون كل بلد ينزلونه باسم بلدهم الأول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك في لولايات المتحدة .

وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة فمررنا بجسرها المخرب الممتد على نهر الليطاني وأنجدنا قاصدين جزين أول حدود لبنان الى الجنوب ، ومشغرة أقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة الى الآن بدبغ الجلود للأحذية اشتهار مدينة زحلة أو أكثر ، والمسافة بين مشغرة من أعمال ولاية سورية وجزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلو قمة عالية ، ثم تنحدر في واد عميق

ومع ان قضاء البقاع من أعمر أقضية ولاية سورية بزراعته لخصب تربته ، وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقي ، ومتاخمته لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ما تنبته أرض البقاع من الحبوب والثمار . ومع كثرة الأعيان الذين يملكون فيه المزارع والاراضي الواسعة ومنهم من أنشأ فيه حقولا اعوذجية حقيقية وصرفوا عليها الاموال الطائلة واستخدموا لها أحدث الطرق الزراعية كالاراضي التي عمرها نجيب بك سرسق في عميق ودير طحنيش وأقامها الآباء اليسوعيون في تعنايل — مع كل هذا العمران المستبحر ، وما تأخذه النافعة من أموال الاهلين كل سنة باسم الطرق والمعابر لا ترى في القضاء طريقاً مسلوكا اللهم الا طريق الشام القديم الذي تركته شركة الديليجانس لما أنشئ خط بيروت الحديدي . وقيل لنا ان الحكومة صح عزمها مؤخراً على انشاء طريق عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشغرة في غربه وان هذا الطريق وصل أو كاد الى قرية عيتنيت ولعله يكون جسما لا اسما كاكثر الطرق التي أنشأتها النافعة في الولايات فكانت لفظاً بلا معنى واسما بلا مسمى لم ينشأ عنها الا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وخدمة الاوطان .

---

*

وصف لبنان الطبيعي



كنت في لبنان أشبه بأبي زيد السروجي أو ابي الفتح الاسكندري احتاج الى راوية مثل الحارث بن همام أو عيسى بن هشام يروي كل منهما لمثل الحريري أو بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطررت الى الظهور فيها لانجو من مخالب عدو ممازق أو جاسوس مخادع وليتيسر لي درس حالة البلاد بدون حجاب .

فقد قيل : اكتم ذهابك ومذهبك وذهبك ، ولكن هذه القاعدة لايرضاها منك اللبنانيون الاذكياء ، فتجدهم يحرصون كل الحرص على استطلاع طلع كل مصطاف بينهم . أو سائح في جبالهم . والوقوف على مقصده . ومبلغ ثروته . والدين الذي يدين به . وربما كان سؤالهم عن الاخير قبل كل شيء لان عامتهم متدينون جداً فهم يسرون اذا شعروا انهم يتعارفون الى رجل يشا كلهم في المعتقد . وأني لمن قضى عليه شدة اخلاصه في خدمة وطنه ودولته ، أن يصرح لهم بهويته . وهو مشرد طريد . محكوم عليه بالجناية حكما قرهقوشياً

ودعني رفيقي غداة وصلنا الى جزين وعاد الى الفيحاء وبقيت وحدي لارفيق لي الا كتابي وفرسي . فانقلبت لساعتي من جزين قاصداً دير القمر . فاجتزت اليها بتاتر وعماطور والمختارة وغيرها ، والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغاية تمشي فيه وسط أشجار الزيتون وهي غابات غبياء في الشوف كما ان أشجار الصنوبر كذلك في قضاء المتن ، ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت اليه قبيل الغروب وقد بدت القصبة بأبنيتها الشاهقة كالعروس في حليها وعكست شمس الاصيل على زجاج نوافذها وسطوحها . فاختلطت الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة فكان من أجمل منظر تقع عليه عين انسان وأهل الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرقة وحسن العشرة يتحببون الى الغريب كيف كانت

حاله ، وفى هذه القصبة الى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناه أحد أمراء لبنان ولا يزال الديريون يحرصون على سلامته فيتعهدونه بالعمارة وان لم يكن له من يقيم فيه الصلاة

وقصبة الدير بكثرة سكانها ، وتوفر مرافق الحياة فيها ، أشبه بالمدن منها بالقرى . وهى مشهورة بتجارة الحنطة تحمل اليها من حوران فتوزع فى الاطراف وليس دير القمر وحيداً فى نوعه با كتظاظ الاقدام فيه فمدينة زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين ألف نسمة وأوصل بعضهم نفوسها الى خمسة وثلاثين وتكثر النفوس فى حمانا ورأس المتن وبرمانا وبيت مرى وبعبدات وبيت شباب وبكفيا وبسكنتا وبعبدا والشوير وحصرون والشويفات وحدث الجبة وبعقلين ومجد المعوش وعالية ومعلقة الدامور وجزين وجبيل واهمج وتنورين وعمشيت وغزير وجونية وكفرذبيان والبترون واهدن والهرمل وأميون وزغرتا وكوسبا وفى غير ذلك من القصبات التى يعد فيها النفوس بالألوف والمئات

والقرى والمزارع متصلة خصوصاً فى المحال التى ترتفع كثيرا عن سطح البحر ولا يتعذر العيش فيها فى الشتاء لكثرة ثلجها وبردها وجليدها وأعاصيرها وما أشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسعمائة وست وخمسين قرية[1] الا بقصر فخم جميل ! واسع الارجاء . محفوف من أطرافه بالرياحين والأزاهير العطرية . وغرفه الكثيرة تلك الدساكر والضياع . لا يكاد المتجول يمل من مقصورة ؛ حتى ينتقل الى أخرى ، وما أسرع وصوله اليها من تلك الطرق المعبدة ، وهذا القصر مزدانة أفنيته وأروقته بأقصى ماتخص به يد الصانع من بدائع الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيراً فى تمهده

معنى لبنان الأبيض ؛ وهو اسم عبرانى سمى به لتعمم قممه بالثلج فى الشتاء والربيع وبعض الصيف . وقد ورد ذكره فى الشعر القديم . فقال النابغة الذبيانى :

---

(١) دليل لبنان لابراهيم الاسود

حتى غدا مثل نصل السيف منصلتاً　　يقرو الاماعز من لبنان والا كما

وقال أحمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخراسانى الطرابلسى من المحدثين :

دعوني لقاً فى الحرب أطفو وأرسب　　ولا تنسبونى فالقواضب تنسب

وان جهلت جهال قومى فضائلى　　فقد عرفت فضلى معد ويعرب

ولا تعتبوني إذ خرجت مغاضباً　　فمن بعض مابى ساحل الشام يغضب

وكيف التذاذى ماء دجلة معرقا　　وأمواه لبنان ألذ وأعذب

فمالى وللأيام لا در درها　　تشرق بي طورا وطورا تغرب

وأنشد المتنبى فى مدح أبي هرون بن عبد العزيز الاوارجى من قصيدة :

بينى وبين أبى علي مثله　　شم الجبال ومثلهن رجاء

وعقاب لبنان وكيف بقطعها　　وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وقال البحترى:

وتعمدت أن تظل ركابي　　بين لبنان طلعاً والسنير

مشرفات على دمشق وقداء　　رض منها بياض تلك القصور

وقال الجغرافى البزه ركلو من المتأخرين يصف لبنان : اذا ما القيت ببصرك من البحر : الى سلسلة لبنان المستطيلة . رأيت من هذا الجبل منظراً مهيباً فيلوح لك أزرق أو ورديا فى الصيف ومشتملا فى الشتاء والربيع بجلباب ثلجه الفضى واذا تصاعدت الأبخرة فى الجو ألبست قممه الشامخة ثوبا شفافا هوائياً ، غاية فى اللطف ؛ بيد أن جمال هذا المنظر ، لا يخلو من سطوة الشدة ؛ فترى ذاك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم فى وجهه قائم على ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كثب هى دون جماله عن بعد فترى ظهره على طول ١٥٠ كيلو متراً ؛ أقهب أجرد لا تكسوه الخضرة ، أوديته متشابهة ومشارفه كأنها قدت على قالب واحد

وقال الأب لامنس : أن لبنان أشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من

الجنوب الغربي الى الشمال الشرقى وفى الجهـة الشرقية تراه ينقطع بغتة . أما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعا متعددة على هيئاتشتى من آكام وبطونوسهول وربى متسلسلة يدخل بعضها فى بعض ؛ واذا استثنيت هذه التفرعات الثانوية والتجعدات غير المنتسقة ؛ تحققت أن سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية ؛ وجانب كبير من البساطة ؛ ولذلك قلما ترى فى لبنان تلك المناظر المتباينة التى تقر بها العين ، وانما يقع البصر على حاجز كبير فى حدود الأفق ؛ يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قممه العليا تمتاز عن بقية أقسامه

ووصف شكله أيضاً فقال : ومن تفرع الجبل من الجنوب الى الشمال وجده يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً . ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كيلو متراً وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلو متراً ، ومعظم اتساعه بين طرابلس والهرمل ٤٦ كيلو متراً ؛ فيكون لبنان على كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتيه العلويتين اه

قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر مربع يحده جنوبا صيداء وأعمالهـا وشمالا طرابلس وكورتها . وشرقا ولاية سورية وغربا البحر المتوسط ومدينة بيروت ، هذا هو حـده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربى والاصل فى التسمية ، ويطلقون اسم لبنان الشرقي على وادى التيم وجبل الشيخ (حرمون) أى على قضاءى حاصبيا وراشيا وما اليهما والبقاع فاصل بين اللبنانين وحدّه القدماء فقالوا : انه جبل مطل على حمص يجىء من العرج الذى بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل وما كان بالاردن فهو جبل الجليل وبدمشق سنير وبحلب وحماة وحمص لبنان ، ويتصل بانطاكية والمصيصة فيسمى هناك اللكام ثم يمتد الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الخزر فيسمى هناك القبق قال وفى لبنان سبعون لسانا لايعرف كل قوم لسان الآخرين الا بترجمان (؟) وفيه من جميع الفواكه والزروع من غير ان يزرعه أحد وفيه يكون الابدال من الصالحين ، وقال القلقشندى ثم يمتد لبنان الى الشمال ويجاور

دمشق واذا صار فى شماليها سمي جبل سنير •

وعلى ذكر الصالحين نقول أن لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس الى العبادة فيه قال ابن جبير فى كلامه على العلم والمتعممين فى الشام فى القرن السادس للهجرة ما نصه : وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم ان أحب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة . ويلتزم الامامة أو التعليم أو ماشاء ، ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان أو الى جبل الجودى فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف الى حيث شاء . ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا اليهم . ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فيجب مشاركتهم . وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة ، والظلال الوارفة ، وقل ما يخلو من التبتل والعبادة وقال ابن بطوطة فى القرن الثامن : أن جبل لبنان من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين ، وهو شهير بذلك . ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

قلنا : ولذلك نرى المعروف اليوم بالاحصاء ان فى لبنان نحو ألفى راهب وراهبة لهم ١١٨ ديراً ما عدا الكنائس والبيع والصوامع التى لا تخلو قرية عن واحدة أو عدة منها ولا يقل دخل الرهبنات والاديار فيه عن مئة وخمسين ألف ليرة فى السنة كما أكد بعض العارفين ، وهو نحو ثلث ايراد لبنان وفيه المحابس التى ينقطع فيها الى النسك بعض الرهبان فيقيمون فى مغارة أو مكان منفرد يتعبدون فى الخلاء ، زرت أحدهم فى مديرية القاطع فرأيته متوفراً على كرم له هناك حتى جاد وأخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج ويصرف شطراً من وقتــه فى النسك والصلاة ، ولو قام كل امرىء بالواجب عليه فسمى

للمعاش سعى هـذا الحبيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقل احتياجنا للحكومات وقوانينها . وهذه المحابس [1] قديمة فى لبنان ترد الى عهد هيلاريون الناسك أو قبله وفى عدلون بين صيداء وصور على مقربة من صرفند عند الجسر صخر عال حفر فيه نحو مائتى كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم

وبالنظر لتوسط لبنان من سورية كان نافعاً بعمرانه لهـا بطبيعته فكأن علو قممه — وأعلاها ظهر القضيب علوه ٣٠٦٣ متراً ثم فى الوسط جبـل صنين وعلوه ٢٨٠٦ متراً وأعلى نقطة فى جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً — وتكاثر ضبابه وكثرة أشجاره وقربه من البحر كلها داعية الى كثرة الثلوج والامطار فيه فيتكون من عصاراتها ومسايلها أنهار ذات شأن عظيم فى عمران الشام . فمن سفوح لبنان تنبجس أعظم أنهار سورية فنهر العاصى الذى يروى أراضى وادى حمص وحماة وانطاكيـة ينبجس من الهرمل فى شمالي لبنان ونهر الليطانى الذى يروى بلاد صيداء وصور وتنتفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان ونهر طرابلس المسمى بنهر أبى على ويعرف قديمـا بقاديشا يخرج من سفح لبنان ونهر الكلب وبيروت اللذان يسقيان مدينـة بيروت وضاحيتها ينبجسان من السفح الغربى من لبنان ونهر البردونى الذى يسقى زحـلة وبعض البقاع هو لبنانى المنبع أيضاً . ومن لبنان الشرقى ينبجس الاردن « الشريعة » كما ينبجس من غرب لبنان الغربى نهر ابراهيم

فلبنان فى فائدته لسورية أشبه بجبال الالب فى سويسرا أو بنيل مصر من حيث امتداد المنافع ، وللألب والنيل المثل الاعلى ، وفى لبنان عـدة ينابيع منها نبع الاربعين ونبع صنين وبقليع واللبن والعسل والباروك وعين زحلتا وقد زرت هاتين الاخيرتين

وصلنا الى الباروك فى زهاء ساعتين من دير القمر مارين ببيت الدين مركز مصرفية لبنان الصيفى وكفر نبرخ وبعض المزارع وقرية الباروك فى واد منفرج

---

(١) تسريح الابصار

قليلا تنبع عينها على قيد غلوة منها ، أما المصطافون فيها فيختارون في الغالب النزول بالقرب من رأس العين في نزل هناك أو خيام لهم يضربونها وسط الحراج المبثوثة على آكام الباروك وجبالها ، فتوفر لهم بذلك الى جودة الماء التي ما بعدها جودة فيما أظن : طيب الهواء ونسيم الأرز والصنوبر العليل البليل . ومن الباروك الى عين زحلتا ساعة على الراكب ، وفي هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين اليها للتمتع بنبع الصفا وقاع الريم اللذين ينبعان في ظاهرها ولتسريح عيونهم بجمال موقعها ، وخصب واديها وحراجه الغبياء ، وعين الباروك وعين زحلتا على مساماة واحدة في العلو . وماؤها يكاد يكون متشابها والطريق من عين زحلتا الى عين صوفرمارا بطريق السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة أو على الراكب وهذه العيون ينتفع بها كلها في سقي الحدائق في القرى البعيدة والقريبة

ومن صوفر قصدت حمانا وقرنايل فصليما فعبدات فبحنس فبكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة . وهنا قضيت مع صديقي الابرامين أفندي ريحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير أياما رائقة ريثما ركبت البحر من بيروت قاصدا القطر المصري فأوروبا . هذا وقد كان سبق لي منذ سنين أن زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحلة فأكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الاقضية الثلاثة الاخرى وهي جزين والشوف والمتن خليقاً بأن أتكلم على الجبل خصوصاً ولم ينقصني منه الا قضاء الكورة فقط

نبذة في تاريخ لبنان



لم يخرج لبنان في دور من أدواره عن كونه معقلا حصيناً كل من ساده يكون في الأعم من حالاته الى الشدة والمضاء يتعب من يسودهم وقد يتعب به

جيرانه من أهــل البلدان الأخرى . ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالا وخضوعا للغريب ولكن أيام الاستقلال أكثر من غيرها في غيره من أقاليم الشام

والغالب ان قاصيته خضعت للفينيقيين كما خضعت سواحله واستولت عليه حكومة الايتوريين العربية أو أهالي جيدور حوران في عهد الروم . والايتوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب انكفأ من الجيدور واللجاه بلاده ونزل البقاع فانشأ له مدينة شالسيس أو عين جر (عنجر) جعلها عاصمة وأخذ يشن الغارات على لبنان ويتقدم الى الامام حتى تيسر له ان تسور قممه وأخضعه لسلطانه ثم انحدر الى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزاً ثانياً [1] وأكثر من كانوا يتأذون من بأس الايتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لا تقسهم طولا ولا حولا .

ثم خضع هذا الجبل للفاتحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس أتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الايتوريين فنزل المردة [2] في الشمال أوائل القرن الأول للهجرة ثم جاء التنوخيون ونزلوا جنوبيه وتوالى عليه الامراء المعنيون فآل عساف التركمان ومن سلالة المعنيين الامير فخر الدين الذي عهد اليه السلطان سليم فاتح سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن أمرائهم الأمير بشير المالطي الثاني ومن أمراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر .

وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة يطيلون أيدي اعتدائهم على أبناء السبيل فيخطفون المسلمين ويبيعونهم من الأعداء فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين أو الظنينين كما سماهم أبو الفداء وجيوش التتار التي انهالت على هذه البلاد

(١) تسريح الابصار (٢) هذه اللفظة فارسية ومعنى مرد الرجل

كسيل العرم ان نجا المسلم من التترى لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩)
ولذا سار شيخ الاسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة فلما لم ينجع النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالا هائلا بزعامة جمال الدين اقوش الافرم نائب دمشق . والغالب أن سكان كسروان كانوا اذذاك خليطاً من النصيرية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة

وما زال نواب الشام[1] الاشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون النصيرية فى كسروان حتى أخرجوهم وجعلوا بدلهم قوما من التركمان فى بعض النواحى وبقى كثير من المتاولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان ؛ ولا سيما جبيل وأعمالها من أيدى الافرنج سنة ٥٨٣ فرتب[2] فى جبيل قوما من الاكراد لحفظها فبقيت على ذلك الى سنة ٥٩٣ فباعها الاكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الافرنج بعد صلاح الدين لان الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال .

ولذلك أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق بأن تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الافرم كما تقدم اذ قضى بقطع كرومهم وتخريب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرقوا فى البلاد أيدى سبا.

ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ تداركوهم[3] بثلثمائة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الأسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستنكرونه أن يتعدى دربند نهر الكلب الا بورقة طريق من المتولى أو من أمراء الغرب كما كانوا يفعلون بقطية[4] على درب مصر وجعلوا التركمان ثلاثة ابدال كل بدل يقيم فى الدرك شهراً لحفظ الموانى والدروب . وفى سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الامراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور

---

(١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيي (٢) معجم البلدان لياقوت (٣) تاريخ بيروت (٤) قرية في طريق مصر وسط الرمل كانت المجاز بين مصر والشام وقد مررت بها وأنا منهزم من وجه حكومة سورية في ربيع سنة ١٣٣٠ هـ

قلاوون الى جمال الدين وزين الدين بن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسى سنقر المنصورى بالعساكر الى جهة كسروان والجردان يتوجها اليه بجموعهما وأسرتيهما وان من سبى امرأة منهم كانت له جارية أو صبياً كان له مملوكا ومن أحضر منهم رأساً فله دينار وان سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم . وهذه الفقرات على شدتها لم تصدر عن أمراء الشام الا بعد ان طفح كأس صبرهم من تمرد الكسروانيين .

واختلف العلماء فى أصول سكان لبنان والارجح انهم خليط من الفينيقيين والآراميين والروم والعرب مزجتهم بودقة واحدة فغدوا مزيجاً واحدا كما هو حال معظم البلاد . فانك ترى كثيرين من أسرات لبنان المشهورة نزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحوران فى الداخلية ولا سيما فى القرون الخمسة الاخيرة . ذكر المؤرخون ان معاوية نقل الى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء قوما من الفرس يسكنونها . وذكروا أيضاً ان أبا جعفر المنصور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المعرة الامير ارسلان وأخوه الامير منذر بجماعة من عشيرتهما فطابت نفس الخليفة بهما فأمرهما أن يسكنا فى جبال بيروت الخالية من السكان وأنعم عليهما بمقاطعات معلومة فسكنوا وبعضهم فى كسروان وأخذوا يشنون الغارات على مجاوريهم . وفى بعضها أحرقت قرى من كسروان السفلى ، وتقوى الامراء الارسلانيون بعشائرهم وعمروا العمائر فى الشويفات وجوارها

أما الموارنة فكان أول منشأهم فى شمالي سورية فى الاغلب ينتسبون الى قديس لهم اسمه مارون وهم طائفة كاثوليكية لا يكادون يختلفون عن الكثلكة فى أمر جوهرى فى المعتقدات جاؤا شمالي لبنان أولا ومازالوا يعتدون ويطردون سكان الجبال الاصليين أو ينصرونهم ويدمجونهم فى جملتهم حتى بلغوا الجنوب واحتفظ الدروز ببلادهم بما فيهم من الشدة والاباء

وزعم بعضهم ان الموارنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لانه لا يوجد بين اديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع

عشر وان جبيـل والبترون كانتا على الحياد مع الصليبيين فلم تنحازا اليهـم ولا للمسلمين أصحاب البلاد الا ان هذا لم يمنع من الرواية الثانية من ممالأة الموارنة للصليبيين ودلالتهم على الطرق ونجدتهم [(١)] لهم وثباتهم معهم على العهد الى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢ م ومن أجل هذا اضطر حكام البـلاد أن يحرقوا ويقتـلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل اهـدن وبقوفا وحصرون وكفر سارون والحدث

وما برح لبنان ينقسم بين أمراء المقاطعات يحكمونه على النحو الذى كانت عليه صورة الحكم فى البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات . يقوى اليمانيون تارة والقيسيون أخرى والناس معهم فى أمر مريج ومن التحزبات القيسية واليمانية ما وقع فى الربع الأول من القرن السادس عشر للميـلاد بين الأمير فخر الدين المعنى القيسى وجمال الدين الارسلانى اليمنى . قال المقريزى وعشير الشام فرقتان قيس ويمن لا يتفقان قط وفي كل قليل يثور بعضهم على بعض .

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكى نسبة الى يزبك جد الشيخ عبدالسلام العماد زعيمه والجنبلاطى نسبة الى الشيخ على جنبلاط زعيمه الآخر وذلك سنة ١٧٢٩ — ١٧٥٤ وامتد فى لبنان ولم يزل له أثر كما نشأت أحزاب أخرى كالمعلوفى والمكارمى ومثل هذه الأحزاب قد لا تخلو من حـدوث فتن تهرق فيها الدماء وتـكثر الأيامى والاماء كما فعل الحماديون وأحرقوا بلاد جبيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها الى بلاد ابن معن وكانت العـداوة بين بنى سيفا وبنى معن سبباً فى تخريب الجبل أيضاً .

ومن الوقائع التى يتمت فيها الأطفال تلك الوقعة التى جرت فى القرن العاشر عقيب أن نهب بعض أمراء لبنان الصرة السلطانية من جون عكا بينا كانت محمولة الى الاستانة فجمع ابراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بها الى مرج عرجموش قرب زحلة وأمسك

(١) تاريخ البطريرك الدويهي وتاريخ المقاطعة الكسروانية للختونى

طريق البحر والبقاع على الدروز فقتل نحو ستمائة منهم وأسر بعض الامراء .

وما زالت حال الجبل فى اقبال وادبار تقع اليوم فتنة العاقورة وغداً وقعة مرحلاتا وبعده وقعة أرض خلدة ثم فتنة برج العلول وبعد ذلك وقعة عين دارة حتى أقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمرباشا النمسوى والياً فلم تطل مدته حتى منحت الدولة للجبل امتيازات وقسمته فى السنة التالية الى مقاطعات . وتعرف الأولى [1] بقائمقامية النصارى وهى الشمالية تمتد من نهر البارد فى عكا الى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت تولاها الامير حيدر اسماعيل اللمعى وتعرف الثانية بقائمقامية الدروز وهى الجنوبية تمتد من طريق الشام الى منتهى جبل الريحان فى الشمال مع قرى اقليم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الامير احمد عباس الارسلانى أما قصبة دير القمر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والى ايالة صيداء وكانت قائمقامية النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبترون والكورة وزحلة وقائمقامية الدروز تشمل قضاءى الشوف وجزين وقسمامن غربى البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم فى قضاء المتن وفرض على لبنان فى كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس

ودام الحال على ذلك الى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشؤومة بين الدروز والنصارى فى لبنان فمنحت الدولة هذا الجبل استقلالا ادارياً بأن جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين أو تجدد انتخابه بمصادقة الدول . وجعل مال لبنان سبعة آلاف أو ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش وضعت على الاعناق .

ولحكومة لبنان موارد أخرى سنوية منها نحو أربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الاراضى الاميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات والعجلات وتعدل بثلاثة عشر ألف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئاً من مال الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع اليه العجز فى ميزانيته وفى لبنان ألف

---

(١) دوائى القطوف

جندى لبناني بادارة أميرالاى لبنانى وفى بيت الدين فرقة من الجنــد العثماني المحافظ وعليها أميرالاى بادارة حكومة لبنان .

وتحاول حكومة الجبــل الآن أن تزيد الضرائب قليلا ليتيسر لهـا القيام ببعض الاصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم فى سائر البلاد العثمانية بعد الدستور الا أن معظم الاهلين يقاومونها وفاتهم أن الليرة منذ خمسين سنة لا تعادل لها اليوم الا الثلاث ليرات أو أكثر لوفرة الذهب وغلاء الاسعار وهم يعتبرون أن هذا العمل اخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون أن يتدرج الامر الى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من أجل هذا أبى اللبنانيون أن يبعثوا الى مجلس الامة العثمانية بنواب منهــم يمثلونهم وما نظن وطنيتهم تحول بينهــم فى الانتخاب القادم وبين ارسال نواب عنهم حتى يشتركوا وسائر اخوانهــم العثمانيين فى الغنم والغرم فليس من الانصاف أن يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياد وهو فى وسط البــلاد ويحسب جزءاً متمما من أجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلبت الحال وتعددت المظاهر والاشكال .

غابات لبناں

٤

ليس فى لبنان أرض تبلغ مساحتها مائة كيلو متر مربع بل غاية ما فيــه من الاراضى منحدرات ومنعرجات وأوديةضيقة ومسايل صغيرة وفيهاجعل القدماء زروعهم وأشجارهم وأكثر الاراضى ممايصلح للشجر أكثر ممايصلح للبقول والغلات شأن جبال الارض فى الاكثر وليس فى الايدى نص قديم يشير الى أصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير ما نقلناه فى نبذة سالفة عن مؤلفي العرب من ان فيه أصناف الفواكه والزروع وأكثرها مما ينبت بنفسه وهو

كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع . واذ كانت طبيعة أرض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التى لا تناسبها أرضه ضعيفة فيه أو تكاد تكون معدومة . ولكن لم تخل أرض لبنان فى زمان من أزمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الاشجار المثمرة والزان والسنديان والسرو والارز من الاشجار غير المثمرة .

وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الارز لورود ذكره فى الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بنى قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذى جدد فى أيام زربابل وسقف الهيكل المجدد فى عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة فى بيت لحم . وقالوا انه ثبت أن ملوك الاشوريين والبابليين استعملوا فى قصورهم خشب الارز وان المصريين ادخلوا من خشبه فى بناء هيا كلهم وقصورهم كما فعل الفرس وان الاسكندر المقدونى وضع من خشب الارز فى السد الذى أقامه بين الجزيرة والشاطيء حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين فى سورية ادخلوا خشب الارز فى بناء دورهم .

وكل هذه الاخشاب قطعت من لبنان أو من الجبال المجاورة له وكانت تحمل فى الغالب إلى طرابلس وصيداء وصور حيث كانت دور الصناعات وقد أنشأ بعض ملوك الاسلام أساطيل من خشب الارز وقالوا ان بيروت[1] كانت دار صناعة دمشق (مسلحتها أو ترسانتها أو ورشتها) وبها عمر معاوية المراكب وجهز فيها الجيش إلى قبرص ومعهم أم حرام وأسمها العميصاء وقيل انه عمر من الارز ألفاً وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهز أسطولا أضخم من الارز نفسه وتبعه غيره من ملوك الاسلام فى اختيار الاخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الارز ويحملون من غصونه قطعا ينقلونها من قارة إلى قارة ومن مملكة إلى أخرى وهو عطر لرائحة إذا وضع فى النار ويحسن فى المشم اذا مسسته بيدك ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء

(١) تاريخ بيروت

لا تعبث به الارضة ولا يفعل فيه السوس ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله فى أبنيتهم وقصورهم وبيعهم وهياكلهم وتماثيلهم ونصبهم .

والغالب أن الحكومة السالفة القديمة فى لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها وهى السرو والعرعر والارز والصنوبر وتسمح بقطع غيرها واحتطابه أو غرس غيره محله . وقد بدأ النقص فى هذه الاشجار ولاسيما الارز منها منذ خمسة قرون لان اللبنانيين احتاجوا إلى الاحتطاب وأخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصاً وقد جرت عادة بعض حكام لبنان اذا غضبوا على أحد أن يقطعوا أشجاره ويخربوا داره والى اليوم لا يزال من الامثال العامة السائرة فى الجبل « الله يقطع رزقه » أى ما يملك من شجر و« الله يخرب زوقه » أى بيته — قاله فى الدوانى

مثال ذلك أن الامير أحمد المعنى طرد المشايخ الحماديين المتاولة لما كثر بغيهم فى كسروان ففروا الى بلاد بعلبك فاحرق قراهم فى القرن الحادى عشر وقطع أشجارهم وقد رسم مرة بيدمر — كما فى تاريخ بيروت — نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من أمراء الغرب في لبنان وكان فى دمشق أن يركب على خيل البريد ويتوجه الى قرية عين زحلتا من شوف صيداء ليكشف عما فيها من أشجار التوت النافع لعمل النشاب فلم يجده موافقاً وربما أحب عدم تصديع أهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذاك العهد اجتهد أهل الشوف فى قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته . قلنا ومثل ذلك ما نشاهده فى أيامنا من أن بعض أهل القرى البعيدة عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع أشجارهم فراراً من ظلم ملتزمى الاعشار واشتطاطهم فى تقاضى العشور عليها اضعافاً مضاعفة

ولم يبرح شجر الارز موجوداً فى عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الابهل وأخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة

النمو لكثرة الامطار والثلوج والعواصف فى تلك الارجاء وثالثة فوق قرية عين زحلتا وكان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضها أيام حادثة سنة ستين لتجدد بخشبه بعض بيوت المنكوبين ورابعة بين افقا والعاقورة فى جرد جبيل من بلاد كسروان وخامسة بين قرية تنورين وبشرى صغيرة الشجر وعدد شجيراتها نحو عشرة آلاف وسادسةبالقرب من بشرى على علو ١٩٢٥ مترا عن سطح البحر وهى مقصد السياح وفيهاأضخم أشجار الارز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع اطولها خمسةوعشرون متراًوقدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة . ولا أثر الآن فى سورية اشجر الارز إلا فى أعالي سير بيلاد الضنية [1] فى وادى النجاص ففيه كثير من شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سير ونبع السكر وفى الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند أهله تنوب

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الارز أو أى كان من شجر الاحتطاب فى الاماكن الخالية ولا سيما فى القمم والقنن لما أتت عشرات من السنين إلا وقد زادت ثروة الجبل زيادة محمودة وكان مع طول الزمن لابن لبنان من أشجاره مورد آخر غير التوت والزيتون مثلا لان شجر الارز لايجودفى الغالب الا فى مثل هذا العلو من الجبل بل من جبال سورية التى تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها .

واذا زاد عدد الغابات فى سورية زيادة كبرى وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتى القدس والزور بتكثير الغابات فى الاماكن الخالية ولا سيما فى المحال التى يعرف انها كانت غابات غبياء نافعة يتحول مناخ سورية وتكثر فيها الامطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذى بذلك العرب الرحالة فى باديتهم كما يتضرر ابن

(١) تسريح الابصار

المعمورة بهم ويصبح منهم بين نكبتين سماوية بقلة الامطار وارضية بسطو ابن البادية على ما بقي لابن القرى من رزق

وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض على كل لبناني ان يغرس عشر شجرات من أصناف الشجر علّه تقتدى بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا يأتي علينا جيل الا وتصبح سورية غنية بغاباتها كغنى سويسرا أو أكثر والاشجار في بلادنا أكثر نمواً مما هي في أوربا لما عرف من اعتدال الفصول ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر فغرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة ان كثر اليوم تهطال الامطار فيها على طريقة منظمة وسيكثر خيرها كلما زادت أشجارها وعسانا نقتدي في سورية بهذا المثال

الهجرة من لبنان

٥

منذ أمن السكان في لبنان على أرزاقهم وانقطعت شأفة أرباب المقاطعات الذين طالما اشتطوا في مطالبهم وبطلت أو كادت السلطة الافرادية الذوقية وقلت الأوبئة والزلازل التي كانت تحصد العمران والسكان حصداً كالزلزال الذي عاود لبنان مرات سنة ١٧٥٩ م وخرب القرى وأهلك الناس والطاعون الذي حدث سنة ١٧٨٩ وعم لبنان كله واستمر الموتان ثلاثين سنة — منذ خفت العوارض الطبيعية والارضية أخذ كل فرد يحسن من حاله فنمت النفوس باستتباب أسباب الراحة وأخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون أبناء الجبل على المنازع الدينية ويلقنونهم شيئاً من اللغات الافرنجية والعلوم العصرية كما ان الموارنة ما زالت لهم علائق مع الكرسي البابوي في رومية يختلف اليه أحبارهم منذ قرون وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد

ثم ان طبيعة الجبل تقتضي التحسين والتنظيم . والمسيحيون على الجملة يميلون الى الرفاهية . ويقدرون طعم الحياة قدرها . ولم يكد يدخل القرن الثالث عشر للهجرة في دور العدم . ويطلع القرن الرابع عشر . حتى دخل جبل لبنان في طور جديد . فكثرت طرق عجلاته . حتى أصبح لديه منها الآن نحو ألف كيلومتر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة . وتهيء سبل التنقل على المصطافين في ربوعه . وأكثر هذه الطرق في قضاء المتن . لانه ظهر لبنان ونقطته الوسطى . ومقصد المصطافين . من البيروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم . وفيه الآن سبعون كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها خمسون من طريق بيروت ودمشق وعشرون من تراموای شمالي لبنان .

وفي هذا الجبل ٢٥ مدرسة داخلية كبرى وصغرى و١٤ مدرسة اكليركية و٨ مستشفيات و٢٠٦ من الحراج والغابات و١٤٧ من معامل الحرير و٨١٩٧ من الدواليب وبلغت حاصلاته من الفيالج (الشرانق) سنة ١٩٠٦ — ٢٠٢٧٠٣٠ أوقة ومن الزيت ٢٥٤٨٨ أقة وثمن الحرير الذي يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك في السنة وكثر سكانه حتى عدلوا ان في كل كيلومتر مربع ٦١ نفساً ولا يفوق الجبل في ذلك غير ولاية الاستانة وجزيرة سيسام (ساموس) . وسكانه الآن زهاء أربعمائة وثلاثون ألف نسمة منهم ٢٥٠ ألفاً من الموارنة و١٦٠ ألفاً من الروم و٣٦ ألفاً من الكاثوليك و٥٥ ألفاً من الدروز و٣٣ ألفاً من المسلمين (سنة وشيعة) و١٥٠٠ من البروتستانت والباقون ارمن واسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه خمسمائة من أهل الوبر يعيشون في مضاربهم خارج القرى وأكثرهم فقراء يستوكفون الاكف وقد أحصى غليلموس الصوري في تاريخ الصليبيين عدد الموارنة في عصره فكانوا أربعين ألفاً وما زال عددهم يربو على عدد وفياتهم وان هاجر كثيرون بعد ذلك الى قبرص ورودس والقدس ومالطة ولا يبعد أن تكون اللغة العربية انتشرت في جزيرة مالطة بواسطتهم .

ولا يسعنا وقد وصلنا من بحثنا في شؤون الجبل الى هذا الحد الا أن نرسل

جملة فى شغف اللبنانيين بالهجرة الى أميركا وغيرهامن البلاد التى توهم ابن سورية ان المال فيها ملقى على الشوارع لا يحتاج الا لمن يمد يده ليتناوله مع أن أولئك المهاجرين لو صرفوا فى بلادهم نصف ما يصرفون من الوقت والقوة فى بلاد المهجر على طول السنة وحسبوا ما صرفوه فى ذهابهم وايابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم لرأوا ان المعدل واحد والفرق قليل لا يساوى هذا النصب .

والذى ظهر من قرائن الاحوال ان ابن لبنان كان أول فلاح سورى هاجر الى أميركا أو جرأ سائر السوريين على الهجرة مجذوبا بما اشتهر عن القارة الاميركية من الغنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبعدها ولان ابن لبنان أكثر أهل جبال سورية تعلما ونوراً وأوفرهم نشاطاً ومضاء وشمماً وادلالا بل ان مجموع القارئين والكاتبين فيه أوفر من مجموع القارئين والكاتبين فى مجموع مدن الشام

وأول من دخل أميركا (١) من السوريين الخورى الياس بن القسيس حنا الموصلى الكلدانى من سنة ١٦٦٨ — ١٦٨٣ وأول من دخل أميركا الشمالية فى القرن الماضى الخورى فلابيانوس الكفورى سافر اليها سنة ١٨٤٨ وأخذ معه ناصيف الشدودى وأول من دخل الجنوبية المطران باسيليوس حجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الاحسان وأول من دخل أميركا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف الى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا الى بلادهم بثروة وافرة فاقتفى أثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالى لبنان وامتد فى كل سورية ثم كثرت الجالية السورية فى العالم الجديد وأوستراليا وجزر البحر المحيط بل وفى افريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها

وقدر بعضهم ان ثلث المهاجرين يسكن أميركا وثلثهم يرجع الى وطنه والثلث الآخر يموت . ونظن ان الثلث الاخير مبالغ فيه وان كان عدد الهالكين فى المهجر غير قليل . وأحصى عدد السوريين المهاجرين الى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين ألفاً منهم ستون ألفاً فى الولايات المتحدة وخمسون ألفا فى جمهوريات

(١) الدوانى

أميركا الجنوبية وخمسة وعشرون الفاً فى أميركا الوسطى وعشرة آلاف فى أوستراليا وبعض الجزائر والباقون فى افريقية والهند والفيليبين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون الفاً نصفهم ذكور ونصفهم اناث وربما كان الذكور أكثر

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان باقدامهم وذكائهم المعهود فنزلوا فى دار الهجرة بلاداً تحتاج الى أيد عاملة ونفوس لا تعرف التعب فأنشأوا يعملون ويذخرون ويقترون على أنفسهم فى النفقة على خلاف عادة معظم المهاجرين الى أميركا من أهل أوربا مثلا فآب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال فى هجرته غير صحته بمئات من الليرات فكان أول همه أن يعمر له داراً قوراء بالحجر النحيت والقرميد على المثال الذى رآه فى بيوت المهجر

وكثر تقليد الناس بعضهم بعضاً ومنهم من اشترى له أرضاً فى بلده وطفق الآخر يتجر بما جناه من ذاك الرأس المال القليل . أما الافراد الذين اغتنوا فعدت ثروتهم بالالوف فقد استوطنوا البلاد التى هاجروها جريا على المثل العامى « فى المطرح الذى فيه ترزق الصق » وهم ان كانت تحدثهم أنفسهم بالرجوع لا يهنأ لهم بال متى عادوا اذ يتجلى لهم الفرق الكبير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرنسيسكو وبونس ايرس وسان باولو مثلا وبين عشقوت وبسكنتا وعمشيت وعرنة ومعرونة أما أولادهم فينطبعون بطابع البلاد التى ولدوا فيها وأكثرهم لا يتعلمون اللغة العربية ولذلك لا يرجى البتة أن يعودوا الى موطن آبائهم وهذا القسم ممن خسرتهم البلاد حقيقة والذى يزيد فى الحسرة عليهم ان بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم على جانب من الاخلاق والمعرفة لم يعمدوا الى الطرق السافلة في تحصيل الثروة .

نفعت الهجرة لبنان وأضرته وعندى أن المضار أكثر من المنافع اذ لا يظهر الى العيان فى الغالب الا الحسن . فقد يذهب ألف مهاجر مثلا الى بلد كذا ولا ينجح منهم الا واحد أو اثنان فيأخذ الناس يتحدثون فى أمرهما وينسون أولئك المئات الذين يعملون أربع عشرة ساعة كل يوم فى أشق الأعمال ولا يكادون

بعد مرور سنين يوفون أجرة الطريق التى استلفوها من أحد المرابين فى بلدهم أو باعوا فى الحصول عليها أرضاً لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هلكوا بالأمراض وغيرها وهكذا الحال فى مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها :

فان من نظر فى الأمور نظراً سطحياً وشاهد تلك البيوت البديعة فى قراه ومزارعه التى عمرت بمال أتى به المهاجرون من غير أرض لبنان وسمع بأن فلانا أصبح يملك كذا وكذا من الليرات وان بلد كذا يدخل اليه كل شهر من تحاويل أميركا ما يقدر بكذا من الذهب — من شاهد ذلك وسمعه لا يعتم أن تعروه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد أن الحال اذا دام على هذا المنوال وأموال اميركا تتسرب الى بلادنا نصبح بعد بضع سنين أغنى من الاميركان وننقل شطراً عظيما مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية .

ليست السعادة بكثرة المال . السعادة شئ غير ما يتوهمه من همهم انشاء البيوت وتزيينها من الظاهر وفى باطنها الشقاء والحسرة . قالت لى عجوز في صليما وقد سألتها أين رجالكم : « ذهبوا الى أميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التى عمروها لتسرح فيها الفيران عادوا ليجمعوا كمية أكبر من المال لان ما جمعوه لم يكفهم لاتمام هذه الدور على ما يحبون وفرشها ونقشها ثم ان حالة البلاد لم تعجبهم بعد ان شاهدوا مشاهد أميركا . » وقول هذه العجوز الذى أحزننى مغزاه ولا تزال الأذن تردد صداه قد سمعت مثله من كثيرين من أهل لبنان رجال ونساء .

أى حسرة أعظم من ان تتوقع أم فى كل أسبوع قدوم ابنها وقد تمضى الشهور ولا تتناول كتابا منه أو زوجة تنتظر بعلها منذ سنين هى وأولادها وهو لا يكاد يبعث لهم بنفقتهم فتضطر تلك المرأة المسكينة ان تعمل ليلها ونهارها لتطعم اولادها من كدها وما هى بمفلحة . وأى بلوى أكبر من ان تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس ينتظرن عروساً لان شبان الضيعة هاجروا

وأ كثرهم لا يريد ان يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة اميركية وزهد فى اسرته وقريته لانه تمدن بزعمه ولا يليق به ان يتزوج الا من متمدنة . ومن شاهد البنات العوانس فى لبنان يدرك سر تعدد الزوجات فى مثل هذه الحال ويسجل بأن أقل سيئة من سيئات الهجرة انقطاع الاهلين عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر أسباب الراحة فيه .

وان دعوى من يدعون ان لبنان لولا الهجرة لاصبح خرابا مردودة من وجوه أحدها انهم يعتقدون ان تلك الاموال التى دخلت لبنان وهى تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هى غنى لبنان وما الثروة فى الحقيقة الا العمل ليس الا . فقد رأينا اسبانيا على عهد شارلكان يتسرب المال الى صناديقها بالبدر والسبائك من أقطار المعمور لان هذا الملك كان يعتقد ان كثرة النقود والذهب فى بلاد كاف وحده فى غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنين حتى أمست اسبانيا أفقر بلاد أوربا لان أهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والاخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرافعة من شأنهم .

ان انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين الى نزول أميركا وافريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على أمل العودة الى مساقط رؤوسهم متى امتلأت أكياسهم وجيوبهم وعيابهم قد حال دون تعهد أرضهم واستثمار صناعاتهم ففى لبنان من الخيرات الطبيعية ما يكفى أهله اذا زادوا ضعف ماهم الآن . ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لا يزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد ولا يشعر بذلك الا أرباب الاملاك . مثال ذلك ان « كدنة » الفلاحة كانت تساوى منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشا فأصبحت اليوم تساوى ستين على حين ان غلات التوت مثلا لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة ايدى العاملين وارتفاع اسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش فى البلاد ولان المهاجر اللبناني الذى كان فلاحاً حراثاً الى عشرين او ثلاثين جداً من اجداده اذا هاجر وقضى فى هجرته ثلاث سنين ثم آب الى بلاده تكبر نفسه فلا يعود

يتنازل الى معاناة الزراعة بل يفضل ان يعيش كما يعيش تجار اميركا وارباب الاملاك في بلادنا وهو لا يملك رأس مال يكفيه سنة واحدة اذا ظل عطلا من العمل

في أمثال العامة « أنا أمير وانت أمير فمن يسوق الحمير » حكمة لطيفة نافعة تصدق على كل لبناني مهاجر فاذا أحب كل فرد من المهاجرين أن يقلد الاعيان في عيشه ورفاهيته فمن يبقى لتعهد التوت والزيتون وغرس الصنوبر والارز والسنديان والزان وحفر الاقنية والاحواض وتمهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الاقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وأنواع الزينة .

ولقد قال الاقتصاديون ان من جملة ماساعد المانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية انك تجد في رجالها أنواع العاملين ولا يستنكف كل عامل من عمله بل ولا يريد أن يعرف الا به فالالمان أشبه بجيش منظم فيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم وكل واحد منصرف الى عمله لاتحدثه نفسه أن يقلد رفيقه أو يعتدي عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه ما أمكنه الحال ولوجرى اهل بلادنا على هذا المثال لاصبحنا بعد جيل امة راقية حقيقة ولما رأينا الصغير يشكو لانه يريد تقليد الكبير واسبابه لا تساعده

نحن لانجاري اولئك الذين يدعون ان لبنان كان خراباً لولا الهجرة لامور أقلها أن البلاد السورية واسعة واهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون ان ينزلوا الاقاليم القليلة السكان المحتاجة الى العناية ويستعمروها فان فتشوا ذات اليمين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعلبك والبقاع ومرجعيون وصيداء تتاخم جبلهم وتحصرهم فيه فان لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام و بلاد حلب مثلا ما يكفي لاغناء مئات الالوف من الناس فلو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدهم لاصبحت بعد سنين جنات زاهرة وأقل ما في ذلك من المنافع أن هذه البلاد منهم على أيام قليلة يستطيعون في استعمارها أن يقضوا معظم ايام السنة في جبلهم .

وقد كتب قائمقام سروج من أعمال حلب منذ مدة في جريدة المقتبس يقول ان خمسين قرية في قضائه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش فلو اشتراها بعض أرباب الاموال من اللبنانيين وأنفقوا عليها النفقات التي ترقى زراعتها وغرسوا فيها الأشجار وأقاموا البيوت لما أتت ثلاثون سنة الا وهذا القضاء وحده من أعمر البقاع السورية فمابالك بما في غيره من الاقضية والالوية والولايات العثمانية من الخيرات .

لا نوافق القائلين بالاغتناء بسرعة . فان ما يأتي بدون عناء كبير قد يذهب في الأكثر كما جاء . وانا لنؤثر أن يوجه اللبنانيون . ولا سيما في عهد الدستور السعيد وجوههم قبل البلاد الداخلية من سوريا والعراق والاناضول ففيها متسع لهم وفيها لهم مغانم كثيرة لو صبروا على جنيها لكان لهم ولأبنائهم وأحفادهم منها مال خالد وملك لا يكاد يبلى .

وفي لبنان من الصناعات القديمة ما يرتقي لو سعوا الى تحسينه كعمل الاقمشة والنجارة والحدادة (١) وغيرها وله مورد آخر للربح ينتفع منه الآن أكثر من سائر جبال سورية ونعني به موسم المصطافين فان لبنان من سورية ومصر كسويسرا من أوروبا وأميركا يقصده الكثيرون كل سنة التماسا للصحة والراحة فلو عني اللبنانيون أكثر مما يعنون براحة من ينزلون عليهم لأتاهم الصيف في كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة فقد حسب بعضهم عدد المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر ألف نسمة أكثرهم من المصريين فلو فرضنا أن الواحد ينفق عشر ليرات لكان بذلك مبلغ لا يقل عن مائة وخمسين ألف ليرة فما الحال لو

---

(١) في قرية بيت شباب من مديرية المتن تصنع أجراس الكنائس وهذه الصناعة لا تعرف في بلاد العرب ولا في مصر وقد دخلت اليها في الغالب على عهد الصليبيين وكان المسيحيون من قبل في بلادنا يستعملون النواقيس من الخشب وما زالت هذه الصناعة محصورة في عائلة واحدة من عمال تلك القرية .

زاد هذا العدد ونحن نرى أن سويسرا وايطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة مالا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة واذا زادت عناية حكومة لبنان وأهله بالمصطافين فى قمم لبنان لا يعتم أن يجلب اليه أناساً من المصطافين من أهل أوروبا نفسها خصوصاً اذا رأى السياح أن النفقة فى الجبل أقل مما في جبال الالب وأنها لا تبلغ مع أجور النقل فى البحر والبر المبلغ الذى يصرفونه فى بلاد الاصطياف .

وبعد فانا لا نفتأ نكرر القول بأن من الانفع لابن لبنان أن يوجه بعد الآن وجهته الى الداخلية ليعتاش ويرتاش وانه اذا استفاد المهاجر منا الى أميركا من حيث ارتقاؤه فى اقتباس بعض أصول التمدن فى الملبس والمأكل والمسكن فان الأنفع له اليوم أن يستعمر بلاده نفسها وهى تحتاج الى أضعاف أضعافهم . وسوف يعلمون أن هذه النصيحة صادرة عن اخلاص لا يراد منها الا نفع لبنان خاصة وسورية عامة . فان ما يقاسيه اللبناني من ألم الغربة والمهانة فى الأحايين واحتقار الغربى له مهما بلغ من مكانته جدير بأن لا ينسيه بلاده والعيش بين أهله وجيرته . وقدر أحد العارفين منذ ثلاث سنين ان ما حمله اللبنانيون المهاجرون الى لبنان يبلغ خمسمائة ألف ليرة أى على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا أن هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والادبية .

حالة مصر

٦

هبطت مصر وعهدى بها ليس ببعيد غبت عنها أربعة عشر شهراً ، وكنت صرفت فيها أربع سنين أيام الحكم الاستبدادى فى المملكة العثمانية فلم أر اليوم وأنا عابر سبيل أن أمكث فيها أقل من أربعة عشر يوما قضيتها فى مشاهدة من

خلفتهم فيها من الاصدقاء الكثيرين . والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الافرنجية حوت مافى العواصم من ضروب الرقى والانحطاط مما تنفقه على غيرها طوعا أو كرها ويأتى الناس من القاصية فيأخذونه عنها ويهتمون بتقليده وتأييده .

أن من ينظر الى مصر نظراً سطحياً يأسف لها كثيراً ويعدها كنزاً ضائعاً ودماً ضيعه أهله . ومن يمعن النظر فى مواردها ومصادرها ويدرس مساعيها ومقاصدها ويقيس النتائج بالمقدمات والماضى بما هو آت يدرك ان المستقبل المخبوء لمصر فى حياتها الاجتماعية والسياسية لا يقل عما أحرزته فى حاضرها من المنافع المادية والادبية اذا ظلت عناية أهلها متوفرة على التعليم والتربية وهم يتفننون سنة عن أخرى فى تلقف ما ينفعهم من أنواع المعارف لقيام بناء مجدهم الجديد على أحسن نظام .

ليس فى أقطار الشرق ولا فى أقطار الغرب بلد عرف تاريخه كما عرف تاريخ مصر ولا بلد مثله أبقى على آثاره الخالدة واحتفظ بتراثه القديم فنفع العلم والعالم بما ادخره . فقد قال لنا التاريخ ان عهد بعض سلائل فراعنتها كان عهد ارتقاء ومدنية وان مدنيتهم لا تقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية فكانت دولة فاتحة غازية مستعمرة كما كانت دولة فاضلة متحضرة . وانه جاء زمن طويل على مدينة الاسكندرية أيام الروم كانت تفيض العلم النافع على العالم أجمع بمدرستها كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة ايام الخلفاء وكما تفيض كليات أوروبا وأميركا على آسيا وافريقية اليوم

أتى على مصر دور انحطاط بعد دولة الفاطميين اشتغلت فيه بنفسها وكان حظها من المعارف حظ سائر بلاد الاسلام وان كانت لها الميزة أبدا فى هذا الباب على الاقطار المجاورة فقد كانت على عهد الايوبيين والجراكسة والمماليك على انحطاطها مورداً تستقى منه البلاد الاخرى وكانت العلوم الاسلامية والادبية خاصة مما يحمل من أزهارها إلى شمالى افريقية وداخليتها وبلاد العرب والترك

وسورية وغيرها ، ولما جاء نابليون الاول ثم محمد على الكبير دخلت فيها بواسطة علماء من الفرنسيس روح الحضارة الغربية وأسلوب التعاليم الاوربية وأخذت حكومتها ترسل بالبعثات العامية بل بالبعوث السامية إلى أوربا ليدرس النشء فى كلياتها ثم يعودوا إلى مصرهم فينفعوها بما علمهم الله والبشر الراقى

وما برحت هذه الارساليات تكثر ومصر الحديثة تتكون على المناحى الغربية حتى جاء الخديوى اسماعيل وأسرف فى مالها اسراف جنون وجهل حتى اضطرت إلى الاستدانة من الماليين الاوروبيين وأكثرهم انكليز وفرنسيس ولما حدثت الفتنة العرابية وجدت انكلترا مدخلا لها بحجة أن أرباب الاموال يوجسون خيفة على أموالهم ورأت من فرنسا غفلة أو تغافلا فعملت وحدها على اطفاء الفتنة فصدقت عليها كلمة نابوليون فى قوله وقد أخرجته انكلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين فى القرن الماضى انها لم تخرجنا منها إلا لتأخذها لنفسها فى المستقبل

دخلت انكلترا مصر لاطفاء الفتنة أولا ثم للمحافظة على ترعة السويس التى أصبحت أكثر اسهمها لجماعة من أبنائها . والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الاقرب ومادة حياة دولة البحار . ومن حافظ على سلامته ومادة حياته يعذر

ولقد كان ميدان الاصلاح فسيحاً أمام المحتلين لتوفر الاسباب الطبيعية لمصر وأن بلاداً لا ينقطع ماؤها ولا تغيب شمسها ولا تتعب تربتها ولا تتعاصى على الانسان طبيعتها لاقرب البلاد الى معالجة الاصلاح فى مجاهلها ومعالمها .

ولما استتب الامن فى انحاء القطر أقبل أرباب الاموال من الغربيين وغيرهم يتجرون ويزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية . فكانت تلك الحركة نافعة فى نهضة القطر الاخيرة نهضة اقتصادية كبرى حسدتها عليها بلاد كثيرة .

تهيأ لمصر والحق يقال من رجال الاحتلال أناس عملوا باخلاص لتحسين زراعتها وريها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معاً . وكان عميدهم الاكبر لورد كرومر الذى أدار دفة السياسة المصرية أربعاً وعشرين سنة أرخى فى خلالها عنان الحرية الفكرية والاجتماعية فهاجر الى مصر كثيرون من

المشارقة . عمل هذا وغيره من الاعمال النافعة ولكنه كان يحاول أن يقف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القليلة التي لا تسمح الحال الا باعطائها للمصريين وما عدا ذلك من الارتقاء العقلي والسياسي . فقد كان اللورد يقول لهم كل سنة تصريحاً وتلويحاً في تقاريره السنوية . انكم لا استعداد لكم معاشر المصريين لغير ذلك من الاعمال فهل نسيتم ماضيكم أيام كنتم تساقون إلى السخرة سوقاً وتستعبدون استعباد العبيد والارقاء أيام الحكومات الماضية المدمرة فاحمدوا الله على أن أنجاكم مما كنتم فيه فحالكم الآن أحسن من ماضيكم مئة مرة فعليكم أن تقنعوا بما حزتموه .

ولكن نبهاء مصر لم يفهم معنى هذه السياسة وكان الفضل الاكبر للجرائد في تنبيه شعور الامة المصرية إلى أن وراء ماهم متمتعون به الآن مطلباً اسمى وأنفع فقاموا يسعون إليه سعيهم وهم على اختلاف في الطرق الموصلة اليه لايختلفون في كون بلوغه لايتأتى إلا من طريق التعليم والتربية

فبذل أهل الاقتدار المالي ما سمحت به نفوسهم من انشاء الكتاتيب في الارياف والمدن حتى أسفرت النتيجة بعد بضع سنين عن تكثير سواد القارئين والكاتبين ثم رأوا أن الامة لاترقى إلا اذا كان فيها أفراد يحسنون تعليم الامة بلغتها ما يلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية فسعوا إلى اقناع الحكومة بجعل التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية باللغة العربية وكان أكثره بالانكليزية من قبل ثم رأو أنه اذا لم يكن لهم من أبنائهم من يعلم العلم العالي سبب ارتقاء الامم لا يكون العلم الا عقيما ناقصاً فأنشأوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية . وهم اليوم ينظمونها لتكون بعد سنين على مثال الجامعات الاوربية تدرس علوم الجامعات الافرنجية باللغة العربية وهي أول جامعة من هذا النوع لامة لا يقل الناطقون بها عن ستين مليونا من البشر .

ثم ان الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الاصلاح على الازهر ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة

الهندسة والزراعة وسائر المدارس الاميرية والخصوصية هى التى تتألف منها اليوم طبقات رجال مصر الحديثة ولابد لهذا الامر من آخر ولمساعيهم الحسنة من نتيجة اذا سلك القوم سبيل التؤدة وطبقوا أعمالهم على قانون العقل الصحيح واستفادوا بتجارب الامم السالفة وانصاع العامة للخاصة ، ولم يبق المجال للغوغاء وحدهم وبذلك تصبح أسباب القوة المادية والمعنوية فى بلادهم على مستوى ماهى عليه عند الامم الحية حقيقة لا مجازاً

لا جرم أن المصريين بما فيهم من الذكاء وما ورثوه من حضارتهم القديمة وتيسر لهم من الرقى المادى هم بمجموعهم أرقى من مجموع الشرقيين خل عنك اليابانيين وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العالمين والباحثين من ليسوا دون أبناء طبقتهم فى الغرب وربما فاق الاتراك المصريين فى الامور السياسية والحربية

ولا يعاب على مصر الا فتور همة أبنائها في منتصف الطريق فى الاغلب ، وهذا الخلق يكاد يكون عاما فى القطر لا يقوى فى التغلب عليه الا التربية العملية وحبذا يوم نرى فيه مصر تقبل على تعلم العلوم الطبيعية والكيمياء والميكانيك والمعادن اقبالها على تعلم الحقوق مثلا فقد نرى من ناشئتهم زهاء خمسمائة طالب فى كليات أوربا وأميركا والقسم الاعظم منهم يدرسون الحقوق ليترشحوا منها الى الوظائف لانه وقر فى النفوس ان فن المحاماة أكثر عائدة على صاحبه من غيره من الفنون خصوصاً وهو متوقف بعد العلم النظرى على طلاقة لسان وفضل بيان والمصريون أكثر العرب حظاً من تينك المزيتين .

أصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من أوربا كما قال الخديوى اسماعيل ولكن أحبابها يريدون لها أن تكون كاوربا فى صفاتها العالية وحضارتها الراقية حتى لاتخرج أملاكها بطيش الطائشين من أبنائها إلى أيدى الغريب فيعود المصرى بعد بضع سنين والعياذ بالله كالغريب فى بلده وما أصعبها من حالة

ان مسألة الراية التى تخفق على أمة لاتهم بقدر ماتهم فى الحقيقة مسألة الاملاك إذ أنه مهما بلغ من حيف أمة فاتحة أو مستعمرة لاتحدثها نفسها أن تنزع من

الممالك ملكه إلا برضاه . ومصر التي تتأذى اليوم بوطأة الرومى والطلياني والانكليزى وغيره لاتنتقل بعض أملاكها منها إلا برضا أولئك الوارثين والمسرفين الذين لايعرفون دخلهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم هذه هي الفئة الضالة المضلة في هذا القطر المحبوب ومنها يخشى على مستقبله فبقلة عقول المستهترين أصبحت نحو تسعة أعشار الاطيان والاملاك في مصر للغرباء وعليها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون منها نحو مئة مليون دين الحكومة ولا نعرف متى توفيه والباقى على عنق الفلاح الصغير والمزارع الكبير .

إن ما نخشاه على مصر هو الاسراف الزائد وتقليد الغربى على العمياء ولو كان لاهل وادى النيل شيء من الامساك المحمود والاقتصاد المعقول لكانت حال مصر السعيدة أرقى مما هي اليوم . ومن حاز الثروة وقانون الحكمة يدبرها والحنكة قائدها ورائدها وانتظر الفرص التي لايزال الدهر يخبأوها للافراد كما لايبخل بها على الامم لابد أن يتمتع يوماً بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل أمة حية في هذا الوجود

مرسيليا

٧

في الساعة الرابعة بعد الظهر أقلعت بنا من الاسكندرية الباخرة ايكواتور (خط الاستواء) احدى بواخر شركة الميساجرى ماريتيم الفرنسوية فبلغنا ثغر مرسيليا أكبر موانى فرنسا على البحر المتوسط والمحيط والمانش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر ولم نر في طريقنا شيئاً يستحق الذكر سوى بعض سواحل ايطاليا وفرنسا وقد تجلت عن بعد وكان نظرنا يختلف اليها بقدر بعدنا أو قربنا منها ودام البحر رهواً حتى اذا خرجنا من مضيق مسينا اصبحنا واصبحت

سفينتنا على كبرها وطولهـا وعرضها العوبة العواصف والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب فى درجات السفينة الاربع الا وقد أخذه الدوار أوكاد ولم تملك حواسنا الا عند بلوغنا ساحل السلامة .

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصاناً وحمولها ٣٨٤٨ طناً وتقطع فى الساعةاثنى عشر ميلا وهى احدى بواخر الشركة التى تغدو وتروح بين موانى البحر الابيض والبحر الاسود والبحر الاحمر وبحر الادرياتيك وهذه الشركة التى جعلت رأس مالها خمسة وأربعين مليون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الأولين فى الأغلب . ومن موانينا التى تقف عليهـا بواخر الميساجرى ماريتيم خانيا وسلانيك والاستانة وجناق قلعة وازمير ومدانيا وفاتى ولارنكا ومرسين والاسكندرونة واللاذقية وطرابلس الشام وبيروت ويافا وحيفا ورودس والاسكندرية وطرابلس الغرب وصمصون وطربزون وبور سـعيد والسويس ولولا أمثال هذه البواخر الفرنسوية والنمسوية والروسية والايطالية والانكليزية والالمانية والرومانية لما بقيت لنا تجارة تصدر من بلادنا وترد اليها ولتعـذر التنقل الا فى السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمير أو فى المركبات وبعض القطارات القليلة التى تربط أجزاء مملكتنا بعضها ببعض .

ولشركة الميساجرى أيضا اثنتان وعشرون باخرة تمخر العباب الى الهنـد الصينية وتوابعها وخمس بواخر لخط الكوشنشين وست بواخر لخط اوستراليا وكليدونيا [1] الجـديدة وخمس بواخر فى المحيط الاطلانطيكى (الظلمات) وسبع اختصت بالبحر المحيط الهندى وذلك ما عـدا السفن الصغرى التى جعلتها فى بعض الموانى الكبرى . وأشغال الشركة متوسطة مع ان حكومة فرنسا تدفع

---

(١) لما صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب تناولتها أقلام العلماء والأدباء بالتقريظ والنقد فنحن نشكر المقرظين ونزيد فى الشكر لحضرات الناقدين أمثال العلامة الدكتور يعقوب صروف فى مجلة المقتطف والاستاذ الاب لويس شيخو فى مجلة المشرق والمستشرق المسيو كليمان هوار فى المجلة الآسياوية Journal Asiatique والمستشرق لويز ماسنيون فى مجلة العالم الاسلامي Revue du Monde Musulman فأنهم أملوا ما أوحى به علمهم الواسع فاستفدنا منه ووضعناه فى المكان اللائق به من هذه الطبعة الثانية جزاهم الله عن التحقيق خيراً

اليها اعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق والغرب وخدمة الجمهورية فيما يلزمها .

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب أن البواخر الالمانية والانكليزية والطليانية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسوية وأن الراكب يجد راحته في تلك أكثر من هذه مع ان الأجور واحدة . ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها الى تخفيض الأجور في الصيف الى نحو النصف لركاب الدرجة الاولى والثانية والثالثة . وأخذت تحسم خمسين في المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان القيمة المقررة . فاذا كانوا أربعة فأكثر تحسم للرابع فما بعده خمسة وسبعين في المئة . ولذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال أجوره .

ومن التسهيلات التي قامت بها هذه الشركة ان اتفقت مع شركات البواخر الانكليزية والاميركية وشركات السكك الحديدية على ان تنقل الركاب الى الموانى التي تختلف اليها بواخرها . وتلك الشركات تنقلهم على بواخرها بحيث يطوفون العالم ويجتازون من نصف الكرة الغربية الى النصف الشرقي والأجرة في ذلك معتدلة فيسلك الراكب ان أحب أحد الطرق التي يجتازها في قطع البحور والبرور فالطريق الأولى عن موانى الصين واليابان وكندا ماراً بفانكوفر وهو يكلف في الدرجة الاولى ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الثانية أوستراليا وفانكوفر ويكلف في الدرجة الأولى أيضا ٣٥٧٥ والطريق الثالثة الى أوستراليا فمضيق توريس فاليابان ففانكوفر وأجرتها ٤٢٥٧ في الدرجة الاولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الخامسة الى أوستراليا ومضيق توريس واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٤٢٥٧ فرنكا في الاولى فيركب الراكب من مرسيليا الى هونغ كونغ على بواخر شركة الميساجرى عن طريق السويس وجيبوتي أو عدن وكولومبو وسنغافور وسايغون ومن هونغ كونغ الى شنغاى الى كوبي فيوكوهاما على بواخر الشركة أو على

بواخر شركة الباسيفيك الكنادية بحسب ما يختار الراكب ومن يوكوهاما الى فانكوفر على بواخر الشركة الكنادية ، ومن هنا يركب القطار الى كيبك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون أو نيويورك ومن نيويورك الى ليفربول أو سوسامتون على احدى البواخر الانكليزية أو الاميركية أو النمسوية أومن نيويورك الى الهافر على بواخر الترانسلانتيك . ومن الهافر بالسكة الحديدية الى باريز .

هذه هي المسافات التى يقطعها من يريد الطواف حول الارض ولو قال قائل هذا لاحد أجدادنا الاقدمين . وذكر له انى أريد السير للنزهة على هذه الخطة لنسب اليه الجنون وقال : ان ذلك لن يكون ولكن اذا عرف سر الاسفار في هذه الاعصار يقول : سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار . يفعل ما يشاء ويختار .

وبعد فلم يتسع لي الوقت لادرس جميع معالم المدنية فى مرسيليا لانى لم أصرف فيها إلا ثلاثة أيام قضيت أكثرها فى الراحة من وعثاء السفر الذى طال علينا احدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لما صادفته الباخرة فى طريقها من الانواء ولطارىء طرأ على آلتها فى عرض البحر فأصلحتها ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الاسكندرية ومرسيليا فى خمسة أيام بلياليها لا تقف قرب اليابسة . ومن البواخر الانكليزية ما يقطع المسافة بين بورسعيد ومرسيليا فى أربعة أيام وهذه البواخر خاصة بالبريد الانكليزى تنقله من أوستراليا والهند الى الجزائر البريطانية فى خمسة وثلاثين يوماً لا تكاد تستريح فى طريقها إلا بقدر ماتحمل زاداً ووقوداً وركاباً والمسافة المعتادة بين أوستراليا وانكلترا لاتجتازها الشركات المعتادة فى أقل من سبعين يوما .

قامت مرسيليا فى منقطع وادى الرون الجميل ، فكانت جملة الجمال الفرنسوى بما فيها من الجبال والسهول ، وما أحرزته من مجد قديم وغنى حديث . وأن محيطها الذى لا تقل مساحته عن مئة كيلو متر مربع لاحلى من العافية فى بدن

السقيم ، أو النضارة فى خدود الجوارى — كما يقول بديع الزمان — استغفر الله بل كاد يكون أجمل من الحور الذى تقرأوه فى عيون المرسيليات الدعج . ولعل جمال العيون في النساء هنا التى فاقت عيون البدويات الرعابيب ، انتقلت اليهن من أجدادهن العرب . فقد قال ميشله المؤرخ . أن أصل سكان مضايق الرون مختلط كثيراً ففيه العنصر السلتى واليونانى والعربى وخليط من الطليان والغالب أن سكان جنوبى أوربا يوصف نساؤهم بدعج العيون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقة العيون وشقرة الشعور .

وإلى اليوم يكثر فى مرسيليا الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٥٠ ألفا من السكان خمسهم من الطليان وبيدهم كثير من الصناعات والمعامل وهم عشر الاجانب فى فرنسا وكان فى مقاطعة مرسيليا سنة ١٩٠٦ : ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٢٣٥٠٠ أجانب وفيها ٨١٧ مدرسة وفى مقاطعتها ٧١٧ كيلو متراً من الخطوط الحديدية و ١٦٣ كيلو متراً من الترام و ٢٨٤ من الطرق الاهلية و ٣٦٨٣ كيلومتراً من طرق العجلات الموصلة بين أقاليمها

وأهم صناعتها عمل الاقمشة وتحضير الاطعمة والمأكولات وصنع القرميد والصابون خل عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التى لاتختلف فى الرقى عن زراعة عامة البلاد الفرنسوية وفيها دور صناعة للاساطيل والبواخر التجارية ولاسيما دار صناعة الميساجرى ماريتيم

قال من كتبوا عن مرسيليا من المؤرخين أن تاريخها من أقدم التواريخ وهى أول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد انشائها إلى القرن السادس قبل المسيح وفى مقاطعتها اليوم ٤٩ ألف منزل منقسمة بين ألفى شارع وطريق ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة الملكية الثانية ومن أحسن متنزهاتها الكورنيش الذى انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التى دخلت مرفأها البالغ سطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧ - ١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ ألفاً وقدروا مايدخل اليها ويخرج منها فى اليوم بسبعة وأربعين باخرة وبارجة وناهيك به من عدد .

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجلة . وجريدة البتى مارسيليه (المرسيلى الصغير) أوسعها انتشاراً تطبع ١٨٠ ألفاً كل يوم وهو فى حجم الماتين والايكو دى بارى كما يطبع البتى باريزيان (البارىزى الصغير) الذى يصدر فى باريز مليوناً ومائتى ألف نسخة فى اليوم والثانى أكثر جرائد فرنسا انتشاراً . فكأن لهذه الاسماء الصغيرة من حسن التوفيق مالا يخالف الاعمال التى تبدأ بالالقاب الضخمة والاسماء الفخمة .

زرت ادارة البتى مارسيليه فرأيت النظام مستحكما فى كل ما يتعلق بها وهى اليوم فى السنة الثالثة والاربعين من عمرها وأقدم منها بل أقدم جرائد مرسيليا « الشيمافور دى مارسيل » أنشئت سنة ١٨٢٧ وهى من الجرائد الجدية المعتبرة الا أنها اقل انتشارا . وهذه الجريدة تباع فى مقاطعة الرون وما إليها مثلا فلو فرضنا أن ما يطبع من جرائد مرسيليا ومجلاتها يبلغ كل يوم مليونى نسخة لاصاب كل فرد فى مقاطعتها جريدتان ونصف على أقل تعديل هذا عدا الجرائد البارىزية وغيرها التى ترد على مرسيليا وتباع فى شوارعها بالالوف أيضاً

ومن الاسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية فى البلاد المصرية والعثمانية والايرانية لا يبلغ بكميته قدر ماتطبع كل يوم جريدة البتى مارسيليه احدى جرائد ولايات فرنسا . وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيس وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولاسيما فى الامور العقلية

———

ليون

٨

ماذا يصف القلم من مدنية الفرنسيس وكل فرع من فروعها المدهشة لو تعاورته الاقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت الا الى جانب القصور نعم لو جاء فى عصرنا الرحالة ابن حوقل . وشاهد مدنية فرنسا فقط لحوقل واسترجع . وقال : هذه حضارة ليس لنا فى وصفها مطمع ولو أتى المسعودى بقلمه وعلمه لعجز عن الوصف والتسطير ولو جيء بابن بطوطة لآب من رحلته الطويلة لا يحسن املاء ما رأى وسمع . ولو قام ابن جبير لاعترف بقصور ذرعه . وعدم نفاذ طبعه . وقال انهذا الا حلم وخيال . ونحن لا نسجل فى رحلتنا الا ما تقع عليه أبصارنا . ويترامى الى آذاننا ، وتمسه أيدينا .

وبعد فماذا يصف القلم فى ليون أجمالها الطبيعي أم الصناعى . معاملها الحريرية أم مدارسها وكلياتها . أم انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها أم غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها . ومخازنها وحوانيتها وتماثيلها وأنصابها . وخطوطها الحديدية والكهربائية . وجسورها الحديدية والحجرية . وأرصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها . ونهريها العظيمين الرون والسون الذين يقطعانها شطرين . ويزيدان فى بهجتها ما تقر به العين .

ماذا نذكر من ليون ثاني مدينة فى فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية في كونها عاصمة دين كما هى عاصمة صناعة وعمل . وعلى جسر ليون مر الصليبيون فى القرون الوسطى ذاهبين الى المشرق لانقاذ البيت المقدس من أيدى المسلمين ثم ماذا نعدد من ليون وبدائع صنع الانسان فيها وما ضمت من معاهد قديمة وحديثة . ومشاهد بهيجة ، وبالله ما أعجب معرض نموذج الأنسجة الذى حوى أربعمائة ألف نموذج . ليس لها نظير فى العالم وعرضت على أنظار أهل البلاد

والسائحين : ينتفعون بالنظر اليها ، ويستدلون بها على تفنن يد الانسان فى كسوة الابدان .

لئن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصنوعاتها بسرعة . فان البخار البرى عوض عليها هذا الحرمان فزاد فى عظمتها التجارية ففى كل يوم يمر فى محطات سككها الحديدية ١٤٠ قطاراً جائية ذاهبة من أنحاء شتى ولا سيما من الشمال الى الجنوب . والمسافة بين باريز ومرسيليا ٨٥٠ كيلو متراً ليس فيها شبر واحد لا أثر للعمران فيه يقطعها القطار بالسير السريع فى ١٤ ساعة ، وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسيليا ثغرها . والحكومة اليوم شارعة بمد خط حديدى ثالث لتسيير القطارات لان الخطين الموجودين لا يتأتى أن يجرى عليهما فى كل بضع دقائق أكثر من قطار واحد مخافة أن يحدث اصطدام بين القطارات وسيكلف الخط الجديد بين باريز ومرسيليا مئات الملايين من الفرنكات . وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بضاعة ، وتأخذ كل جهة حظها من العمران .

لم تقف ليون عند حد الاعمال الصناعية والتجارية والمالية ، بأن كانت هى التى أسست مصرف الكريدى ليونيه مثلا من أعظم مصارف العالم بل لها حظ كبير من النهضة العلمية ، وأثر راسخ فى الحضارة الفرنسوية ، وناهيك بكليتها التى تحوى فروع العلم . ولا سيما الطبيعى والحقوق والطب والتجارة يختلف اليها ٢٥٠٠ طالب منهم الاجانب ، وفيهم نحو خمسين مصريا أكثرهم يدرسون الحقوق وقليل منهم الطب وأقل فى التجارة ، والمصريون حديث عهدهم بنزول ليون للتخرج فى كليتها وقد كثر ورودهم عليها بعد ان ترك المسيو لامبر أحد أساتذة مدرسة الحقوق فى القاهرة منصبه ، فعينته حكومته فى كلية ليون أستاذاً فكان من أثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له ان جذب عشرات منهم للتعلم فى كليتها وهو يشرف عليهم اشراف الاب على أولاده . وكانت مصر تعتمد فى تنشئة أولادها من قبل على كليات الولايات

الفرنسوية ، ولا سيما كلية مونبليه وذلك على عهد الخديوى اسماعيل لانه كان يعتقد ان أهل مونبليه أقل معاداة للملوك وأبعد الفرنساويين عن التطرف .

قضيت فى ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقى محمد لطفى افندى جمعة الكاتب الخطيب الغيور فرأيت فيها غاية الرقى الاجتماعى والتكافل الانسانى والذوق الفرنسوى وفى مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيس لما يشاهده السائح فيها من السكون والانقطاع الى الاعمال الشريفة فلا يسمون كاكثر سكان العواصم فى الاغلب للمكاسب الدنيئة أو يرضون بأن يكونوا عالة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزانتها بالتوظف والاستخدام

ويا ما أبهج ساحة بللكور يوم الأحد والرجال والنساء والاولاد غادون رائحون فيها لا تقرأ فى وجوههم غير الادب ولا فى حركاتهم إلا التربية البيتية العالية . والتشبع بالنظام المدنى المعقول ، حتى إذا جن الليل يختلف القوم إلى دور التمثيل : وأماكن اللهو والطرب : وسماع الخطب والمحاضرات . وهكذا ليلهم كنهارهم عمل وراحة واستفادة وافادة أخذوا بحظ وافر من دنياهم : ولم ينسوا تعهد آدابهم . فليون بلد طيب أمين يسكنه المهذبون العاملون .

ولقد كنت كلما وقع نظرى فى ليون على شارع عظيم أو بناء جسيم تحدثنى النفس بسورية فأقول متى ياترى يكون فيها مثل ما فى ليون على الاقل . ولو أن عمران ليون وحدها وهى احدى مدن فرنسا وما فيها من قوة مادية وأدبية وزعت على سورية من عريش مصر الى الفرات ومن البحر المتوسط الى أقصى بادية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سورية وهى واسعة جدا بمساحتها من حيث عمرانها أرقى مدن المعمور ولكن الرزق لا يأتي بالتمنى والوجود لا ينتفع به إلا من يحسنون استخدام ما فيه من القوى والعناصر

تحية باريز

٩

سلام عليك مرضعة الحكمة : وربيبة الرخاء والنعمة . وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية . ومحيية المدنية الاصلية فى الاقطار الغربية والشرقية ؛ ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين وأنى يضرب على أيدى الرؤساء والنبلاء والمالكين . أنت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل . انت كنت فى مقدمة العواصم التى انبعث منها تجديد العقل بل تأليهه . فقضيت بالتقدم له على كل شىء فى الوجود ؛ وبالغت فى اكرام رجال العقول من أبنائك

سلام عليك ياعشيقة الابداع والاختراع . وسابقة الاقران فى مضمار الانتفاع . بما حوت الرباع والبقاع . استخدمت القوى المادية فأجدت استخدامها واستثمرت القوى العقليه . فابدعت فى استثمارها . وأحييت حضارات الامم السالفة وأنشأت لك حضارة لايزال يحسدك عليها أسبق الشعوب الى الترقي مهما تقلبت بك الحال . ويجدون فى أوضاعك ماليس يجدونه فى أوضاعهم من المرونة والجمال

سلام عليك ياواضعة حقوق الانسان . وملقحة الاذهان بالتناغى بحب الاوطان . والداعية الى ثل عروش الجبارين والمخربين . أنت لم ترهبك تقاليد أبطال القرون الوسطى ، ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها . ولم تعلق مسائلك على القضاء والقدر ؛ بل أخذت بالاسباب والمسببات فقتلت من أراد قتلك . ووضعت من لم يهمه رفعك ، وكنت للناهضين من الناس خير مثال .

سلام عليك يامعهد المعارف والصناعات بما انشأتيه من مجامعك العلمية ، ومدارسك الجامعة والكلية ، ومجالسك العامية والخاصية ، وجمعياتك ونقاباتك لخدمة المدنية والانسانية ، ودور تمثيلك ومعاهد أنسك وسماعك . ومتاحفك

وحدائقك ومكاتبك ومعارضك ، وكل ماأبدعته أفكار أبنائك وأيديهم . ودل على مجد طريف وتالد ، وتاريخ على جبين الدهر خالد

سلام عليك ياملقنة الخلق معنى الاخاء والحرية والمساواة . ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع ، حتى لايبقى تمييز فى الحقوق والواجبات . بين المختلفين فى الموالد والديانات . وقطعت التفاضل الا بالاعمال الصالحة والاحلام الراجحة .

سلام عليك يامتشبعة بافكار الحكماء ارتضيتيها منهم قانوناً تجرين عليه لسعادتك . ولئن حاد بعض أبنائك بعض الشيء عنها ، فذلك لان سياسة المنافع والمصالح . قد تخالف ناموس الحق والعمل الصالح . ولان نظام بقاء الانسب لا قلب له . والتنازع فى جهاد الحياة كثيراً مايدعو الانسان الى ركوب ماتحظره الشرائع الوضعية والسماوية ولا سيما فى هذه العصور التى يفصل فيها كل عمل على قالب الماديات . وما ذلك الا ليقر البشر بعجزهم ويعلموا أن الكمال الآن محال . ولعله لايفوتهم فى مستقبل القرون والاجيال .

السلام على هذه العاصمة التى أحسنت الى الشرق فيما مضى فعلمته حتى استمد منها النور . فان قلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الاقرب أنا نأخذ عن المدنية الغربية ، فانما نعنى المدنية الفرنسوية . وبعبارة أصح المدنية التى تنبعث أشعتها من باريز ، ومن طريقها وبلغتها وأسلوبها تيسر لنا ان نستطلع طلع سائر مدنيات الأرض .

سلام عليك علمت وعلّمت فما أحسن العلم والعمل اذا اجتمعا . وما أحلى الاخلاص والشعور بالواجب .

سلام عليك سننت للغرب سنة التضامن والتكافل . من العطف على البائسين والمساكين ، والرفق بالضعفاء والعاجزين ، والأخذ بأيدى المقهورين والعاثرين ، والانتصار للمظلومين من الآدميين ، خصوصاً اذا كانوا من طينة أوربية

سلام عليك أنت العاصمة التى تركت القصور الفخمة التى عمرت بدماء الامة مباحة للناس يدخلونها ، وكانت بؤرة المظالم والمغارم ، ومنبعث الشهوات والاهواء . ولطالما جأرت جوانبها بالدعاء ، الى السماء ، من حيف الكبراء أيام كان يوقع أحد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعاً واحداً يترك من الغد مئة ألف أسرة فى هذه البلاد تبيت جائعة عريانة ، ليعمر بما يجمع قصراً له ، أو يدفعه لمحبوبته صبرة واحدة ، فلما أضناك الظلم والعنت ، قمت تجعلين من تلك القصور الفاسقة ، متاحف عامة ، ومن دور الظلم والظلامات ، مجالس عدل وعلم ونور

سلام عليك خلدت أعمال من خلفوا لك هذه المدنية ، وأقمت تماثيلهم ونصبهم موقع الاحترام والاعظام ، وتوفرت على تكرير أسمائهم على المسامع كل يوم ألوف الالوف من المرات . لتجعليهم مهمازا لمن يأتى بعدهم من الابناء والاحفاد .

سلام عليك يابلد ديكارت وكونت وفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو وهوغو وباسكال ورنان ومئات أضرابهم ممن بذلوا حياتهم فى حسن خدمتك . فلم تنس افضالهم عليك بعدمماتهم .

أنت ان خجلت من ذكرى الحروب الصليبية ، وديوان التفتيش الدينى . ومذبحة القديس برتلماوس . ومقتل الفيلسوف فيفانى ، وجنون نابليون وغير ذلك من الاعمال البربرية فى عصور الظلمة ، فان سكانك يفاخرون ، وحق لهم الفخر ، بأنهم احفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الاعمال المشكورة فى عصور النور . ماينسى الماضى الا أقله ، ان الحسنات يذهبن السيئات .

السلام عليك باريز أجمل عواصم العالم . وأغنى البلاد ببدائعها الطبيعية والصناعية ، وأجمعها لمرافق الراحة والرفاهية . لست أنت اليوم عاصمة مئة مليون من البشر : أربعون فى أرضك وستون فى المستعمرات بل أنت بما فيك من المزايا عاصمة معظم الخافقين ، لاسباب هنائك وصفائك . ونعيمك ونعمائك . وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق ، وسلامة الأبداع ، ووفرة العلماء

والباحثين . والكاتبين والشاعرين والقصصيين فكل شيء في باريز مبذول حتى لمعافه النفوس من أقصى مايتصور الفكر من الفضيلة الى آخر مايجول في خاطر أو يحوم حوله خيال

فباريز ولامراء جنة أرضية جمع فيها موجدوها — أستغفر الله — مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

باريز بعد الغروب

١٠

ان فاخرت باريز بمعارضها التي أقامتها في أوقات مختلفة لتلفت اليها الأنظار ، وتستفيد الفخار والنضار . فان لها كل ليلة معارض لاتختلف عن السابقة الا في كون البقعة التي تقوم عليها هذه أوسع مجالا ، وأكثر جمالا .

يصرف الباريزيون أو معظمهم نهارهم في الاستعداد لليلهم . وكثيرون لايعملون الا في الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم ، وادخار أحسن ماعندهم لما بعد الشفق . فهم لايجعلون الليل لباساً والنهار معاشاً كما هي عادة معظم الامم . بل ان الحركة عندهم تبدأ قبيل الظهر بطيئة . ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس ، وتطلع بدلها شموس واقمار .

ترى المدينــة في النهار عابسة مظلمة على كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة على جانبيها بالاشجار غالبا وطرقها وأزقتها وساحاتها العامة . وفي هذه الأماكن تشهد مجالي الحسن والاحسان . وما تفننت في ابداعه العوامل ، وتالفت في روائه الأفكار والانامل .

على تلك الأرصفة تناجي النفس رب النجوى قائلة : اللهم هل خلقت باريز من معدن اللطف والظرف ، لتكون مثالا من جنة أرضية خصصت أهلها بالاستمتاع

بنعمة الجمال ، حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقفته على الباريزيات ، وشطر وزعته على سائر بنات حواء .

ان امتاز الفرنسيس بالابداع فى الصناعات فقد امتازوا أيضاً بنضرة الوجوه . والى باريز تحمل هذه الأمة ولا سيما فى فصل الشتاء أفضل ماعندها من مجالى الكمال والجمال ، أيام تكون أم هذه القرى مقصد السائحين والمتجرين ، والطالبين والعالمين والسياسيين والخاطبين وتغص دواوينها واداراتها وتلتئم مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية.

ويزيد الوجوه بهجة فى باريز تفنن القوم فى الازياء ، وتغاليهم فى التبرج والزينة ، تغالياً مهما تقدم عند غيرهم لايزالون مصدره ومورده . وأساتذته وسدنته . ومظاهر الازياء تتجلى فى باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات ، وفى المركبات والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الارض وتحتها . وفى دور التمثيل ومسارح اللهو والطرب ومحال الفرج.والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق ، ويزيدها فتنة للناظرين ماعتاده الباريزيات الا من عصم ربى . من ابداء زينتهن لغير المحارم أكثر من ابدائها لبعولتهن وذوى قرباهن ، ورنين أصواتهن فى الكلام رنيناً تحسبه من مزامير داود . وتستطيبه أكثر من تغريد العندليب ، وهناك الفتنة بعينها ، والفتنة أشد من القتل ، ونعوذ به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين

ولعل هذه المجالى فى الحرية المفرطة ، حملت الكثير من الغرباء على نزول باريز ، ليشهدوا فيها مالا يشهدونه فى غيرها . وتربح منهم الليرات بالملايين والكرات ، عملا بما قاله أحد ملوك بروسيا وقد قيل له : ليس من اللائق ان تضرب ضريبة على محال الاطمئنان فى الشوارع فقال : « الربح لارائحة له » وأرسلها مثلا ولذلك يقول الافرنج أيضاً « الغاية تبرر الواسطة » فما دامت الغاية الكسب . فلا بأس من الاحتيال لنيله ، ومن أجل هذا تظهر باريز بعد الغروب أقصى الفضيلة وأقصى الرذيلة ، والناس معهما وما يختارون

بعد الغروب تعمر فى باريز اندية الخطابة والمحاضرة والعلم ، وتلقى فيها من

الفوائد مايبلغ الاذهان عفواً صفواً ، ويفيض معين البيان ، ويبدو حذق يد الانسان ، ويسعى العالم الى تعليم الجاهل . فى ساعة ماتعب فى احضاره الايام والأعوام فائدة الخطب والمحاضرات معروضة . ودروس الفضائل عامةموروده

بعد الغروب يعمل معظم الكاتبين كتبهم . والشاعرين اشعارهم ، والمؤلفين مؤلفاتهم ، والمخترعين اختراعاتهم . والصانعين صناعاتهم . كأنالافكار لا تنطلق من عقالها . والأيدى لا تحذق أعمالها . الا عند ما ترقد عيون البشر . أو كأن الزهرة ربة الجمال . لا تحب أن تملى على من هم أحوج الناس الى طلعتها ، الامن الليل ككوكب الزهرة لا يبدو فى مطلع الافلاك الا مع الدجى . ولذا يحرص أهل باريز أن يجعلوها بعد غروب الشمس ، مجمع الانس وريحانة النفس .

وكأن البارزيين ، وهم العارفون بتقسيم الاعمال ، عز عليهم أن تمضى ساعة فى بلدهم ينقطع فيها العاملون عن أعمالهم . فخصوا النهار ببعض الصناع والتجار . والعملة والعاملات . والليل بالمفكرين والمفكرات ، والمؤنسين والمؤنسات . والمغنين والمغنيات . والممثلين والممثلات . حتى لا تنقطع حركة . ولا يقف دولاب عمل . وكان بذلك الحظ الاوفر للغرباء . فلا يدخل على الغريب ملل من تغير المشاهد ، ولا يفتأ من الفجر الى الفجر ، ان أحب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتنزه .

يقول البارزيون : ان بلدهم مبارك على الغريب أكثر منه عليهم ، وانهم مضطرون أن يواصلوا السير بالسرى . ويكدحوا الليل والنهار . ولكن هذا قول من ملك شيئاً فزهد فيه ، والروح ترتاح الى التنقل ، أما الشرقي الذي يرى أهل باريز ويغبطهم على أكثر ما دبروه لراحتهم ورفاهيتهم ، فانه يعجب لمن يساكنهم زمناً ، كيف ترضى نفسه أن يختار عن باريز بلداً . كما يعجب لاهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياةأضعاف أضعاف ما ياسف غيرهم عليها . ومن قال بأن دواعى الراحة تطيل حبال الآجال ، يستعظم على أهل باريز لم لم يعمروا أكثر من عامة الخلق ، وعندهم النعيم المقيم ، والخير العميم .

تاريخ عمران باريز

١١

لعل باريز كانت فى الاصل احـدى تلك الضياع التى كان الغاليون ينشئونها فى جزر الانهار الـكبرى أيام كان يسهل عليهم أن ينشؤا جسوراً يتخذونها مجازاً الى طرق مهمة وأول ذكر ورد لها ولسكانها فى التاريخ كان سنة ٥٣ ق . م فدعا القيصر ساكنيها باريزيا كما دعا المدينة لوتيتيا وضم اليها سـنة ٥٣ نواب الامم الخاضعة .

مضى زمن لم يمتد فيه عمران المدينة خارج الجزيرة الاصلية . ثم استفاض عمرانها على الشاطئ الشمالى على عهد الامبراطور كونستانس كلود الذى أنشأ فيها قصراً تسمى بقاياه اليوم بقصر الترم وسكن فيه جولين لما نادى به جنده قيصراً وكانت الجزيرة محاطة بمتاريس وفيها قصر تفصل فيه الامور البلدية ومذبح على اسم جوبيتر اقامه الملاحون الذين كانوا يغدون ويروحون فى تجارة نهر السين وفى سنة ٢٥٠ غدت لوتيس مركز اسقفية وعلى ذلك العهـد أطلق عليها اسم باريزى وهو اسم الشعب الذى يسكنها وكانت عاصمة بلاده .

فتحت باريز أبوابها للفرنك سنة ٤٩٧ فدخل قصر الترم كلوفيس ثم ماتت القديسة جنفياف حامية باريز ووقف العمران على عهد الاسرة الـكارولنجيين بل تراجع فنقل الامبراطور شارلمان عاصمة ملـكه الى اكس لاشبل . وما كان يقيم فى باريز الا نادراً .

وكانت القرى فى شمالى المدينـة وجنوبها تؤسس تحت حماية الاديار وكثيرا ما كانت تخرب بأيدى أشقياء من السكان أو بغارات النورمانديين ، وفى سنتى ٨٨٥ — ٨٨٦ جاء النورمانديون وعـددهم ثلاثون ألفاً وعسكروا أمام جزيرة

المدينة وحاصروها ثلاثة عشر شهراً ، وبهـذا الحصار افتتحت باريز أيام سعادتها وأصبحت كما قالوا رأس فرنسا وقلبها .

وفي القرن الحادى عشر والثانى عشر امتد عمران هذه القاعدة وأنشئت فيها أديار وبيع ومستشفيات ومدارس وأقيم لها فى أيام لويس السادس عمـدة ينظر فى شؤونها وأمور ضبطها وربطها وبدأ فيها العمران المادى . وعلى عهد فيليب أغسطس وهو أهم دورمن أدوار عمرانهذه العاصمة كثرت الكنائس الكبرى وأسست الاديار والمدارس ودور المرضى والاسواق والمجارى وأحواض المياه والفساقى والمرافئ وفى سنة ١١٨٥ أخذوا يبلطون شوارع المدينة للمرة الاولى وفى سنة ١٢٠٤ أنشئ قصر اللوفر وبعد ذلك جمعت مدارس باريز وكان عدد طلبتها عشرين ألفاً وجعلت منها مدرسة جامعة أطلق عليه اسم الابنة الكبرى للملوك (الشوربون) وأخذ سكان المدينة ينمون حتى بلغ عددهم سنة ١٣٢٣ — ٢٧٥ الفاً وصرفت العناية منذ زمن شارل الخامس الى لويس الثالث عشر . فى تزيين مدينة باريز وتطهيرها وأنشئت فيها فنادق جميلة

ولقـد كانت القرون الوسطى على باريز كما كانت على فرنسا قرون مصائب واضطراب فاستباح الانكليز سـنة ١٤٢٠ حمى باريز وحاولت الفتاة جان دارك على غير طائل أن تطردهم عنها فذهب سعيها عبثاً ومنذ سـنة ١٤٠٨ الى ١٤٢٠ أكثر الارمنياكيون والبورغونيون من ذبح سكان باريز التى احتلها الانكليز من سـنة ١٤٢٠ الى ١٤٣٦ وجاء طاعون جارف على الأثر أهلك الكثير من سكانها . ومع هذا لا تزداد عروس الغرب الا عمرانا .

وفى سنة ١٥٢٣ وضع الحجر الأول فى أساس دائرة المجلس البلدى الذى هو مفخر من مفاخر البناء فى هذه العاصمة كما أسس قصر التويلرى المشهور على أيام شارل التاسع وعادت باريز فأصبحت ميداناً لقتل من دانوا بالمذهب البرتستانتى من أهلها وانتشرت الفتن الدينية زمناً ، وأصبح القول الفصـل فيها للمتعصبين والجامدين .

وفى خلال ذلك اشتد فيها القحط فأهلك من سكانها ثلاثة عشر ألفاً وكثرت الفتن على الملك وقتل بعض ملوكها وبدأ عهد لويس الثالث عشر بالارتقاء المادى والعقلى فجعلت باريز سنة ١٦٢٢ مقر رئيس أساقفة وكانت أسقفية صغرى وفى سنة ١٦٢٠ أنشئت مطبعة الأمة وسنة ١٦٢٦ أنشئت حديقة النباتات وسنة ١٦٣٥ أسس المجمع العلمي وأنشئت بعض الشوارع والساحات وغرست بالاشجار وكثرت الحارات والاحياء الجديدة واتصل العمران بالقرى المجاورة حتى تضاعفت مساحة المدينة وعلى عهد لويس الرابع عشر أخذوا يضيئون الشوارع بمصابيح يجعلون فيها شموعا وذلك فى الليالى غير القمراء .

ولقد نشط هذا الملك البحث فى التاريخ والصناعات والعلوم بانشاء المجامع الأثرية والصناعات النفيسة والعلوم وبترخيصه للناس أن يختلفوا الى المكتبة وكانت من قبل خاصة بالملوك فقط . وكان عهد الوزير كولبر عهد عمران هذه العاصمة الذى لم يسبق له نظير وزاد سكانها حتى بلغوا نحو ٥٦٠ ألفاً وعلى عهد لويس الخامس عشر ، طبعوا أسماء الشوارع على صفائح من توتياء . وجعلوها في رأس كل شارع . واستعاضوا عن مصابيح الشموع القديمة بمصابيح الزيوت .

ولما جاءت ثورة سنة ١٧٨٩ كثر عمران باريز اذ أعقبت تخليص الاراضى من الكنائس والبيع لتنشأ فيها الشوارع والجادات وكثرت الابنية العامة والخاصة والمعاهد العلمية والصناعية والحدائق العامة والمدارس الكبرى ولئن كان من الثورات التى حدثت بعد ولا سيما فتنة سنة ١٨٤٨ ما نشأ عنه بعض الاضرار على العمران الا أن الهمم كانت أعظم للتعمير منها للتخريب وقد جاء عشرون ألفاً من الألمان واحتلوا سنة ١٨٧١ بعض أحياء المدينة عقيب الحرب التى فشل فيها الفرنسيس فى موقعة سدان وعاد الألمان من حيث أتوا بعد ثلاثة أيام .

وكان عهد عصابات الكومون بعد ذلك من أشأم أيام الخراب على عمران باريز فتقوض بها ٢٣٨ داراً خاصة وعامة وقتل سبعة آلاف جندى وقتل وجرح

خمسمائة ضابط وقدرت الخسائر بثمانمائة وستين مليوناً من الفرنكات وكثر بعد ذلك العمران باستتباب أسباب الراحة وكان من المعارض الخمسة التى أقامتها باريز ولا سيما معرض سنة ١٨٨٩ الذى أقيم تذكاراً لمرور مئة سنة على الثورة الفرنسوية الأولى أعظم مظهر من مظاهر الصناعة عند الفرنسيس وأول دليل على ارتقائهم التدريجى الذى لم يقف قط عن الجرى .

اجماليات فى عمران باريز

١٢

باريز واقعة فى الدرجة ٤٨،٥٠،٤٩ من العرض يشقها نهر السين الى قسمين غير متساويين من الشرق والجنوب الشرقى ويتخللها فى وسطها عدة آكام وجبال مهدتها حتى غدت كأنها بعض أجزائها منها ما يبلغ ارتفاعه ١٠١ متر ومنها ١٢٨ ومنها ١٣٦ ومنها أقل من ذلك . وتبلغ مساحتها ٧٨٠٢ هيكتار ومحيطها ٣٦ كيلو متراً .

وطولها من الشرق الى الغرب نحو ١٢ كيلو متراً . وعرضها من الشمال الى الجنوب نحو تسعة كيلو مترات وطول طرقها العامة ٨٨٨٠٠٠ متر فيكون مجموع مساحتها السطحية ١٥٣٢ هكتاراً ولها ٧٠ باباً او منفذاً منها ٥٧ باباً و ٩ طرق للسكة الحديدية وطريقان لمجرى السين وطريقان لترعة سان دينى واورك وعدد سكانها بحسب الاحصاء الاخير ٢٧٦٣٣٩٣ وباريز بالنسبة لحجمها أكثر المدن ازدحاماً اذا قيست بالمدن الاوربية ومعدل الزواج فيها كل سنة ٢٥ الفاً والولادات ٦٥٠٠٠ والوفيات ٥٠٠٠٠

وتقسم من حيث أمورها الادارية الى عشرين قسما لكل واحد منها عمدة وثلاثة أو خمسة مساعدون ولباريز ٢٣٤٥ زقاقا و ٨٢ جادة كبرى و ١١٥ شارعا

و ١٦٦ ساحة و ٤٠٦ طرق غير نافذة و ٤٦٨ ممشى و ١٥٤ قرية و ٤٩ مصيفاً و٧١ مجرى عاما و٤٢ رصيفاً و٣١ جسراً و ٤٨٠٠٠ بيت وتمتد الطرق المغروسة بالاشجار وفيها ٨٧٠٠٠ شجرة على طول ٢٧٠٣٦٣ متراً وفيها ٨١٠٣ مقاعد لجلوس الناس فى الطرق والشوارع والساحات والحدائق .

تضاء باريز فى الليل بنحو ٥٢٣١٣ ضوء غاز و١٥٧٥ مصباحاً كهربائيا وقوة القوى الكهربائية فيها للشركات الخاصة والعامة فى باريز ٢،٣٠٠،٠٠٠ مصباح كل واحد ذوعشر شمعات . ويجرى ماء الشفة الى مدينة باريز فى قساطل من عدة ينابيع صافية نافعة خلافاً لما يدعيه بعض المتجرين بالخمور من أن ماءها مضر بالصحة حتى ينفقوا خمورهم ومعدل مايجرى منه اليها ٣١٠،٠٠٠ متر مكعب يأتى الى ٨٤ ألف محل من البيوت الخاصة و٧٤٣٣ مضخة للحريق و١١١،٦٩٥ محلا لشرب المارة ويجرى اليها ماء للاستعمال غير صالح للشرب وهو للصناعات وغيرها يجرى فى ٦٤٦٠٠ آلة عامة

فى باريز ١٦٠٠٠ عربة بالخيل وأكثرها بحصان واحد والمركبة ذات الحصانين هى فى الاكثر عربات خاصة بالاعيان وأرباب الفنادق وفيها ١٣٠٠٠ أوتومبيل كبير تنقل زهاء ٣٠ مليونا من الناس فى السنة و١١٩ خطاً من خطوط الحوافل (أومنيبوس) والتراموای وفيها ٢٥٠ عجلة أومنيبوس و١٩٠٠ مركبة كهربائية تنقل فى السنة مالا يقل عن ٣٠٠ مليون راكب وعشرة آلاف مركبة خاصة و١٢٠٠٠ سيارة (أوتومبيل) وقد كان فى فرنسا فى السنة الماضية ٤٤٧٦٧ أوتومبيلا و ٤٠٠٠٠ مركبة نقل ولا تدخل فيها الكميونات وفى باريز ١٦٠ ألفاً من الدراجات و١٠٦ مراكب نهرية تحمل نحو ٢٣ مليون راكب فى السنة وسككها الحديدية المحدقة بها تحمل ٣١ مليوناً ويركب من الست محطات الكبرى فيها زهاء ٧٧ مليون راكب ومثلهم يأتون اليها

ويلزم لباريز فى السنة ٢٩٢ مليون كيلو من الخبز و١٥٩ مليون كيلو من اللحم و٣٦ مليون كيلو من السمك و٦٦٩ مليون بيضة و٣١ مليون كيلو من الطير

والصيد و٦ ملايين هكتولتر من الخمور و ٦٩٢٠٠٠ من الجعة و ١٢٠٠٠٠ هكتولتر من سائر المشروبات الروحية

وفيها ٣٠ ألف فندق وحانة وقهوة ومطعم يعيش منها مئة ألف نسمة ولتجارة الأطعمة ٢٤٥٠٠ محل يعيش منها ٩٠ ألف شخص ولتجارة الفرش والأثاث ٣٢٠٠ محل وعدد البيوت والمخازن التى تبيع الامتعة والثياب والازياء ٩٥٠٠ محل فيها ٧٢ ألف عامل وعاملة وعدد محال الاطعمة ومعاملها ٧٥ ألفاً فيها ٤٣ ألف مستخدم وخمسمائة ألف عامل وعاملة فيكون مجموع من يعيشون من هذه المحال نحو مليون نسمة

وأكبر وسائط النقل وأسرعها فى مدينة باريز السكة الحديدية الكهربائية تحت الارض التى يسمونها المتروبوليتين وهى تدل على عظمة العقل وآخر ماوصل اليه الانسان من التفنن وليس لهذا الخط نظير فى سعته وجدته فى برلين ولا فى لندرا افتتح الخط الاول منه سنة ١٩٠٠ وله الآن ستة خطوط منها ماطوله عشرة كيلومترات ومنها أكثر وأقل الى السبعة عشر كيلومتراً تربط أجزاء المدينة بعضها ببعض وينتقل الراكب ان أحب من فرع الى فرع آخر بدون زيادة أجرة وقدتم الخط الرابع منه هذه الآونة وهو يسير تحت نهر السين ويكلف كل كيلومتر من هذا الخط ثلاثة ملايين فرنك وهو سريع نظيف رخيص يدفع الراكب فى الدرجة الاولى ٢٥ سنتيما وفى الدرجة الثانية ١٥ وقد نقلت هذه السكة الحديدية سنة ١٩٠٩ : ٢٥٤٥٩٩٢٠ راكباً وكان عدد من أقلتهم فى السنة التى قبلها ٢٢٩،٧٠٠،٥١٩ وكانت أرباحها سنة ١٩٠٨ نحو أربعين مليار فرنك فأصبحت فى السنة التالية زهاء أربعة وأربعين مليارا وهم يعملون أبداً على تهويته على طريقة لاتخليه من الهواء النقى ويذرون فيه المواد المضادة للتعفن وقد يتأذى بالركوب فيه بعض ضعاف المزاج ولكن ذلك من كثرة الازدحام فيه لامن شيء آخر

علم المشرقيات

١٣

لا يتأتى لغريب عن أمة أن يعرفها حق المعرفة الا اذا درس لغتها و تاريخها وآدابها . واللغة مفتاح باب كل معرفة ومقدمة بين يدى كل عمل . ولذلك كان من الراغبين فى درس أحوال الشرق من أهل أوروبا أن يدرسوا لغاته ليحيطوا خبراً بأهله وكان للغة العربية المقام الاول بين تلك اللغات لأنها لغـة أمة ذات حضارة باهرة ودين دان به أهـل الاقطار المعتدلة من صميم الشرق . فتوفروا على أحكام العربية وتنافسوا فى تعلمها حتى نبغ منهم أناس لم يقلوا فى فهم أسرارها عن خلص أبنائها الذين نشؤا فى حجرها وأحكموا ملكة نظمها و نثرها وكان لفرنسا من بين ممالك الغرب يد طولى فى هـذا المضمار . وكل مملكة من ممالك أوربا وأميركا لاتخلو من أفراد من أهلها أنفسهم يعانون حل معضلات لغة العرب و ينسلون الى تلقفها من كل حدب

ولقد دعوا تعلم هـذه اللغات وما ينبغى لها علم المشرقيات أو الاستشراق والمشتغلين بها علماء المشرقيات أو المستشرقين وقديماً كان العارفون من أهـل هذا الشأن من الفرنسيس أكثر من غيرهم وقد أصبحوا اليوم وأكثرهم من الالمان . والالمان أمهر الغربيين فى النطق باللسان العربى وأكثرهم نبوغا فيـه وعند الالمان من علماء المشرقيات بقدر ماعند الفرنسيس والنمسويين والمجريين والايطاليين والهولانديين والانكليز والروس والاسبانيين والبرتقاليين والاميركيين والبلجيكيين كثرة عـدد وحسن معرفة ولا عجب فالالمان نبغوا فى كل شأن من شؤون الحياة والعلم والصناعة ودرس العربية كان له النصيب الاوفر من عنايتهم

اشتهرت فى فرنسا الجمعية الآسياوية ومدرسة اللغات الشرقية الحيـة وقد درست احوالها وزرتهما غير مامرة وهاءنذا الخص للقارىء ماعرفته عن الجمعية

الآسياوية بواسطة صديق المسيو لوسين بوفا أحــد الاعضاء العاملين العاملين فى الجمعية المشار اليها فقد كتب الي ماتعريبه : ان فكر تأسيس جمعيــة عامية تعنى بدراسة الشرق قد جرى البحث فيــه منذ أواسط القرن الثامن عشر ولـكنه لم يتم الا بعــد زمن طويل . فقد أنشئت الجمعيات الاولى للباحثين فى المشرقيات خارج أوربا مثل جمعية العلوم والفنون فى باتافيا (١٧٧٨) والجمعية الآســياوية فى البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية فى بومباى (١٨٠٥) ومنــذ ذاك العهد أنشئت فى أوربا وأميركا عــدة جمعيات للمستشرقين ولـكن أقدمهاعهداً الجمعية الآسياوية فى باريز أسست سنة ١٨٢٢

وعلى ذلك العهد رأى جماعة من مستشرقى الفرنسيس ان الحاجة ماسة الىأن يجتمعوا أويجمعوا مواد الدروس المختلفةالضرورية لهم وان يصدروا مجلة تكون لسان حالهم وقائمة أعمالهم . وكان المسيو دي لاستى أنشط هؤلاء العلماء وبفضله أسست الجمعية الآسياوية التى ناب فى رئاستها ما يقرب من ثلاثين ســنة ، وكان الرئيس اذذاك سلفستردى ساسىأحد أعضاء المجمع العلمى وأستاذمدرسة فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية وهو أعظم من خدم اللغة العربية فى فرنسا وربما كان أعظم مستشرق نبغ ونفع من الفرنسيس وكان من مؤسسى الجمعية أيضاً كوسان دى برسفال وكارسين دى فاسى ورموسا .

فبدأت الجمعية أعمالها لأول تأسيسها بنشر المجــلة الآسياوية التى اختصت بالبحث فى لغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره ولا تزال الى اليوم نموذج العلم الراقى وسيدة المجلات الاخصائية فىفرنسا .

وأنشأت الجمعية خزانة كتب جمعت فيها كل ماوصلت يدها اليه من الـكتب والمخطوطات والرسوم وغيرها مما يفيد العلماء من أعضائها وجمعت أيضاً مجموعات من النقود القديمة والتحف البديعة . ونشرت مصنفات فى تاريخ الشرق وأصول لغاته وفلسفته وأديانه وطبعت على نفقتها عدة مصنفات وساعدت كثيرين مساعدات أدبية ومادية على نشر الـكتب النافعة وكان نشر المخطوطات وترجمتها من أهم

الاعمال التى تعنى بها ، وخصت جلساتها فى سماع المراسلات والمناقشات العلمية النافعة كما عنيت بمراسلة العلماء الأجانب على الدوام والانتفاع بآرائهم وأعمالهم .

واذ قد ظهرت منافع الجمعية الآسياوية سنة ١٨٢٨ عادت بعد ان ضعف أمرها بضع سنين الى مكانتها الأولى ولم تلبث ان قويت عن ذى قبل وانتشرت كلمتها فرأسها امثال سلفستر دى ساسى ثم جوبر ورينو وموهل وكارسان دى تاسى ورنيه ورنان وباربيه دى مينار وسينار . ومن جملة رؤسائها الثانويين كوسين دى برسفال وبارتامى سان هيلير ودفرني وبوريه دى كورتيل وماسبرو وربنس دوفال وبين أمناء سرها ابيل ريمورا وجايمس ودار مستتير وشافان

تنقلت الجمعية منذ تأسيسها فى عدة أماكن ومنذ سنة ١٨٨٣ اتخذت لها مقراً فى بناء ملاصق للمجمع العلمى وذلك بفضل رئيسها اذ ذاك رنان الفيلسوف المعروف ونالت من الحكومة الفرنسوية عدة معونات رسمية ومنحت الجمعية مكتبة الأمة الكبرى عدة كتب ومخطوطات وغيرها من النفائس . ولا سيما المخطوطات التى أتت بها من الهند والمجموعة التبتية وكتب الديانة البوذية .

وماعدا المجلة الآسياوية التى تصدرها الجمعية فى نحو ماتى صفحة كل شهرين ويتألف منها مجلدان كل سنة فقد نشرت على نفقتها ٢١ مصنفاً تتألف من نحو ٤٠ مجلداً وبعض هذه المصنفات طويلة الذيل مثل مروج الذهب للمسعودى نشرته بنصه العربى وترجمته الى الفرنساوية وهو فى تسع مجلدات ؛ ونشرت رحلة ابن بطوطة فى أربع مجلدات وكتاب الماهافاستو فى ثلاث مجلدات

وهذه الجمعية تمنح كل سنة معونات لبعض المؤلفين فى الموضوعات العلمية واعضاؤها اليوم ٢٥٠ عضوا منهم ٢٦ من الأجانب وهى تبعث بمجلتها الى نحو مئة جمعية علمية ومدرسة جامعة او مجلة دورية والى ثمانين مكتبة من مكاتب العالم على يد نظارة المعارف الفرنسوية وللمجلة ١٣٠ مشتركا ليسوا من الداخلين فى الجمعية ، وقد بلغت وارداتها سنة ١٩٠٨ : ٢٥٦٣١ فرنكا و ٦٦ سنتيما . وفى

مكتبتها نحو اثنى عشر ألف مجلد من الكتب و ١٥٠٠ صفحة و ٢٠٠ كتاب مخطوط وفيها مجموعة من النقود القديمة اه

هذا اجمال حال الجمعية الآسياوية وفيها من الاعضاء من لا فائدة منهم ولا رابطة بينهم وبين الغرض الذى ترمى اليه الا انهم يؤدون الراتب السنوى المضروب عليهم ويتناولون المجلة مقابل ذلك وكثير منهم لا يعرفون من احوال الشرق ولغاته واصول سكانه اكثر مما نعرف نحن عن الصين والتبت

أما مدرسة اللغات الشرقية الحية وهى التى تقرىء مبادىء اللغات الشرقية وهى مخرج لاعضاء هذه الجمعية وغيرهم ممن يتولون القنصليات والترجمة والسفارة عن حكومتهم فى بلاد الشرق فاسمها فيما أرى أكثر من نفعها ومادامت فرنسا تراعى الخواطر فى توسيد وظائف التدريس لغير الاكفاء فان تعليم اللغات الشرقية يبقى صوريا لا حقيقياً . وهيهات ان ينشأ لفرنسا وهى على هذه الحال أمثال المستشرقين الاول من أبنائها الذين باهت بهم الامم مادامت سوق الشفاعات رائجة عندها .

درس من سلانيك

١٤

بينا كنت مأخوذاً بما أشاهده من مظاهر عظمة الأمة الفرنسوية واقرأ مثالا مجسما من الارتقاء الغربى ولا أفرغ ليلى ولا نهارى من زيارة المعاهد العلمية وحضور الدروس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأغوص فى مكاتب باريز ولا سيما مكتبة الامة ومكتبة السوربون وبينا تكاثرت علي المواد وأنا لاأعرف باى لسان أعبر ولا بأي قلم أحبر وبينا أنا أفكر فى بلادى وما يجب علي أن أكتب لها مما تأثرت به عواطفى وأخذ بمجامع قلبى حمل الي البريد من سلانيك

كراسة باللغة الافرنسية من قلم صموئيل سام أفندى ليفى رئيس تحرير جريدة سلانيك الفرنسوية وهى محاضرة ألقاها فى نادى الاتحاد الرياضى فى ذاك الثغر أواخر الشهر الماضى عقيب عودته مع جماعة العثمانيين الذين ذهبوا لزيارة بلاد النمسا والمجر منذ مدة فرأيت أن ألخصها للقراء ليعلموا أن تأثر العثمانيين واحد عند زيارتهم الديار الاوربية وان ابن سورية اذا أقامه ماشاهده فى غربى أوربا وأقعده بما فيها من آثار العمل والجد فان ابن مكدونية لا ينقص عنه تأثراً فى ماشاهده من أواسط أوربا وشعور أبناء الوطن واحد . قال الكاتب السلانيكى

فى ستة وعشرين يوماً ساح مائتان وخمسون رجلا من أهالى الاستانة وسلانيك وأزمير وغيرها من مدن الداخلية سياحة كبرى قطعوا فيها ٤٥٠٠ كيلو متر فى السكك الحديدية و ١٥٠٠ فى البواخر والعجلات والسيارات وعلى الارجل فوقفنا فى خمس وعشرين مدينة كبرى وصغرى وزرنا نحو ١٥٠ داراً صناعية ومعهداً علمياً أو مدرسياً وفنياً وادارياً ومتحفاً وغيره وحضرنا مئة دعوة وغيرها اقامتها لنا ١٥ جمعية و ٢٥ غرفة تجارة وحكومة النمسا والمجر فلم يبق من تلك الرحلة التى تذكرنا السائحين جول فرن وماين ريد الا أن نذكر شيئاً من ذلك الحلم الذى مر علينا فى رحلتنا ونتثبت من تلك الاشباح لنحسن الانتفاع بها فى مادياتنا وتكون لنا علماً ودرساً نافعاً ولقد كانت غايتنا من رحلتنا اقتصادية لندرس دور الصناعات والاوضاع التجارية والمدرسية والادارية عن أمم ولكن المسائل الاقتصادية والاجتماعية كما قال البارون هلوموتسكى فيما خطبنا به لها مساس كلى بالمسائل السياسية وبينها روابط ولوازم ولا سبيل الى البحث فى الاولى مع اغفال الثانية .

ولقد كنا نقضى بالعجب من كل مايقع نظرنا عليه حتى كنا نتساءل عما اذا كان ماتقع عليه أنظارنا من مدهش الاعمال هو من صنع أيدى البشر وهم الذين قاموا بهذه العجائب وبحق ماقاله النائب الدكتور رضا توفيق رئيس جماعتنا السائحين عند ماغادر النمسا ان أغنى اللغات عاجزة عن بيان الشعور الذى نتأثر به

كلنا كما ينبغى لما لقيناه من الحفاوة الخارقة للعادة مدة مقامنا في بلد بلغ هذه الدرجة من الرقي . نعم لقد تجلت لنا بلاد النمسا والمجر مملكة دخل اليها التجديد من كل أطرافها وتناول كل فرع من فروع أعمالها الخاصة والعامة .

وكثيراً مااتفق لنا ان زرنا معهدين أو ثلاثة فى فرع من فروع الصناعة وفى أقاليم مختلفة فكنا نجد فى كل منها ماعـدا أساليب العمل التي يقضى بوجودها العلم أعمالا كماليـة تابعة وتحسينات خاصة ومحلية تدل على الاقدام الذاتى وقوة ارادة شخصية وحب فى البحث وكلها ظواهر محسوسة لعمل عام ونشوء متواصل كنا نشهد ذلك في كل الفروع الصناعية والفنية والمدرسية والانسانية. ولكثرة عنايتنا بالسؤال عن معاهد الاحسان ومعونة العملة تراءى لنا ان النمسا فى مقدمة الأمم فى هذا الباب ومن ذلك ان ٤٢٠٠ من العملة العاجزين يعيشون فى لاينز بالقرب من فينا لا على قدر الكفاية فقط بل يعيشون كما يعيش الملوك وماننس لا ننس ملجأ المرضى العصبيين فى شنهوف وفيه ٣٦٠٠ عامل يعاملون كما لو كانوا فى قصور ملكية وهم موزعون على ٦٤ بنـاية فى مسافة من الأرض تتجاوز مساحة مدينة سلانيك وقد صرفت عليها حكومة النمسا السفلى ستين مليون كورون فقط لا غير .

وبينا كان رفقائى في رحلتى يدهشون من زيارة المعامـل والمصانع ودور الصناعات على اختلاف أنواعها فى بلاد المجر والنمسا ومورافيا وبوهيميا وستيريا وغيرها كان يلفت نظرى خاصة منظر اتفقوا على تسميته باسم مملكة هابسبورغ فان هذه المملكة هى فى الحقيقة رقعة شطرنج فيها غرائب الفسيفساء من العناصر المختلفة والوطنيات غير المتجانسة ولكن هذه الجماعات على اختلاف أصولها ، قد اجتمعت ليكون مجموعها مثال جمال ولطف وتنوع وما كانت وحدة هـذا المزيج الا نتيجة نظام الحكومة المركزية وحسن مأتاها وبعد نظرها فرأت أن تترك لكل قوم استقلالا اداريا كان غاية الغايات فى ابداعـه ، وبذلك توقت

الصدمات الهائلة ولم يحدث حتى الآن ما يكدر صفو الراحة . وهذا الرأى في توسيع سلطة الاقاليم لم يكن منه الوحدة الجوهرية فقط لما فيه من احترام القوميات بل نتج منه ارتقاء خارق للعادة فى جميع فروع العمل ، وذلك ان كل قطر له من نفسه غنى طبيعى غزير ، ورجال نوابغ أذكياء هم خيرة رجاله ، فاستطاعوا الانتفاع بما حوت بقاعهم وكان من ذلك ان استمتع كل جماعة بما لهم من الحقوق فنشأت المنافسة بين العناصر المختلفة وأخذت كل واحدة منها تضاعف عنايتها وتكثر من جهادها ، فأوجدوا بذلك مجموعة من بدائع الاعمال منوعة الاساليب تمت في عامة فروع الجهاد الانساني . وكان ذلك من أهم المشاهد وأجملها التى وقع نظرنا عليها فى رحلتنا وأحسن معلم لنا معاشر العثمانيين .

تألفت مملكة هابسبورغ من زواج أمراء بعضهم من بعض على حين كانت الانقسامات الداخلية سبباً لضعف تلك المملكة ولطالما طحنتها مطامع جيرانها واعتداؤهم . ولكن لما عزمت الحكومة ان تمنح العناصر المختلفة التى يتكون منها جسم المملكة دستوراً قائماً على المبادئ الحرة فى مراعاة الحق العام الحديث بدأ نهوضها وارتقاؤها الى الامام .

فعلى نواب العثمانيين فى مجالسنا النيابى أن ينظروا فى أمر العناصر العثمانية ؛ ويحلوها كما حلتها النمسا والمجر التى كانت فى حالة أشبه بحالتنا اليوم منذ نصف قرن فاحسنت حلها على ما يجب فهى سابقتنا فى هذا الباب وما علينا الا أن نأخذ عنها وبذلك نأمن العثرات ولا نسير على غير هدى .

وهنا ألتفت الى رفاقي فى الرحلة الذين دخل عليهم اليأس من ارتقائنا مما شاهدوه من الشوط البعيد الذى قطعه جيراننا . فأقول لهم ان ماشاهدناه عندهم ليس الا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وارادة قوية وأساس راسخ واذا أحببنا أن نبلغ بأمتنا مبلغهم فما علينا الا أن نمد نحن يد مساعدتنا للدستور ونستخدم جميع القوى الحية فى الامة وأن تعمل الحكومة عملا فعالا لما فيه انهاض الشعب كما على الشعب أن يعمل لمعاضدة الحكومة الصالحة ؛ وبالجملة أن يعمل كلاهما بل

يعمل الـكل للواحد والواحد للـكل ويعرف كل الواجب عليه ونكران النفس والمفاداة .

نهوض العثمانيين موقوف على التعليم ولا ننجح الا اذا حذونا على الاقل حذو البلاد التي كانت تابعة لنا بالامس كممالك البلقان مثلا وأرسلنا من شباننا من يتعلمون العلوم الكاملة فى كليات الغرب ، فمن أعظم نجاح تلك الامارات انها ما زالت منذ زهاء ربع قرن ترسل بشبانها الى كليات العلم حتى لا تكاد تدخل كلية فى أوربا الا وتجد منهم كثيرين وهؤلاء هم الذين استلموا زمام الاعمال في بلادهم ونفخوا فيها من أرواحهم ولسنا نضطر الى الاجانب لتعليم أولادنا فى بلادهم بل يجب ان نجلب رجال الصناعات والعلم منهم يؤسسون فى بلادنا مدارس ودور صناعات كما نحن فى حاجة الى رؤوس أموال الاجانب لاستخدامها فى أعمالنا ومشاريعنا وأن نكون فى سياستنا الاقتصادية كما قال ارنست لافيس المؤرخ الفرنسوى فى تعريف السياسة انها علم خديعة غيرك من الناس ، وأنت تظهر بأنك تحملهم على الاعتقاد بأننا لم ندرك بأنهم خدعونا أو انهم يحاولون خداعنا .

دار معونة العلماء

١٥

هى الدار التى أنشأتها الآنسة دوسن شقيقة العقيلة تير امرأة تير العالم المؤرخ أول رئيس للجمهورية الثالثة فقد نفع هذا الرجل فرنسا بحياته فأحبت امرأته ان تخلد ذكره بعد مماته فأوصت بمال يصرف على تأسيس دار تؤوى خمسة عشر رجلا من شبان العلماء يكفون فيها مؤونة الحياة المادية ويتفرغون للبحث والدرس ليكونوا صلة بين الكليات التى تخرجوا فيها والمجامع العلمية التى

يراد اجلاسهم فى قاعاتها . ماتت العقيلة تير على حين فجأة فنفذت وصيتها شقيقتها ووقفت مالاً بلغ ريعه مئة وخمسين الف فرنك

إن من يزور هذه الدار المباركة ويطلع على أعمالها ورجالها يوقن كل الايقان بالمثل الافرنجى القائل بأن « فرنسا تخترع وألمانيا تعمل » الفرنسيس يبتكرون في كل شئ ، وهـذه الدار هى من مبتكراتهم وما أظن لها مثيلا عند الألمان والانكليز والاميركان سادة العالم فى العلم وقادة الابداع والاختراع

زرت هذه الدار مرتين وتشرفت بالتعرف الى مديرها أحد كبار فلاسفة فرنسا وعلمائهم المعاصرين المسيو اميل بوترو — ومشاهير الفلاسفة المعاصرين من الفرنسيس اليوم هم بوترو وفوليه وريبو وبرجسون . ولم أتمن فى حياتى ان أكون فرنسوى الاصل والجنس الا لما رأيت هذه الدار وعلمت انها لا تقبل فى حجرها الا الفرنسويين ، تمنيت أن أعيش فيها المدة المحددة لكل طالب اتفرغ لدرس ابحاث تجول فى الصدر ويعوق الزمان والمكان الآن عن اتمامها

هذه الدار سميت باسم تير La Fondation Chiers والأولى ان تسمى دار معونة العلماء لانها ليست مدرسة كالمدارس ولا كلية كالكليات ولا مدرسة اكليريكية كالمدارس الدينية بل هى دار يقبل فيها كل سنة خمسة (١) من شبان العلماء من نابغى الكليات يحملون شهادة « الليسانس » أو « الدكتورا » فى الآداب أو العلوم أو ممن نالوا جائزة من جوائز المجمع العلمى فى الابحاث التى تجرى فيها المسابقة بين ارباب الافكار والاقلام تحت نظارة المجامع العلمية الخمسة فى باريز فيقضون ثلاث سنين فى هذا المعهد ينصرفون فيها الى الفن الذى يريدون الاخصاء فيه فيبحثون بأنفسهم لانفسهم تحت رعاية مدير المعهد فيلسوف فرنسا المسيو اميل بوترو الذى يعيش واياهم فى المعهد كما يعيش الأب مع بنيه ويمدهم بآرائه ويهديهم الى اقرب الطرق للانتفاع بمعارفهم ، ووضع مؤلف او مؤلفات نافعة فى الفنون التى هى احب من غيرها الى قلوبهم ولا ينشرونها الا اذا نظرهو

---

(١) اعتمدنا فى هذه المقالة على ما كتبه المسيو اميل بوترو بشأن معهد تير العلمي فى مجلة الافكار الحديثة والمجلة الدولية الالمانية وغيرهما من الفهارس والقوائم .

فيها واقرهم عليها ، واى عالم لا يحب ان ينتفع فى عمله برأى عالم كالمسيو بوترو بلغ السبعين او كاد من عمره وهو يفني لياليه وايامه فى العلم والفلسفة

يشترط فيما يدخل دار معونة العلماء ان يكون ممتازاً بعقله واخلاقه ويفضل من يرتضي اساتذته اخلاقه ونبوغه . ويشهدون فيه شهادة حسنة . وان يكون دون السادسة والعشرين من عمره غير متزوج ، وقد قضى الخدمة العسكرية ، ويعطيه المعهد ستين ليرة فى السنة لنفقته الخاصة ، وثلاثين ليرة ليسيح بها سياحة علمية وتعطيه غرفتين فسيحتين فيهما أسباب الراحة والرفاهية احداهما للنوم والثانية لعمله بحيث يكون الشبان العلماء الخمسة عشر وهو عدد الموجود منهم في المعهد أبداً موسعاً عليهم لا يطلب منهم الا أن يؤلفوا ويبحثوا ابحاثاً علمية تنفعهم وتنفع أمتهم وبلادهم ويقسم عدد من كانوا فيها سنة ١٩٠٨ ١٩٠٩ من شبان العلماء الى رياضيين ومؤرخين ومتشرع في السياسة والاجتماع وعالم فى اليونانيات وحقوقيين وفيلسوفين ومؤرخ وموسيقار وعالمين فى الجرمانيات ومؤرخ فى الآداب الفرنسوية وجغرافى وقد انشىء هذا المعهد فى سنة ١٨٩٣ فيكون عدد من اعانتهم على الاخصاء فى العلم حتى الآن ٨٠ عالماً وكلهم وضعوا المؤلفات الممتعة النافعة للعلم عامة ولبلادهم خاصة وقد بلغت واردات هذا المعهد مئة وخمسين ألف فرنك في السنة يتناول منها المدير عشرة آلاف فرنك .

قام معهد تير العلمي فى أجمل حى من أحياء باريز فى حى الأشراف والنبلاء بالقرب من غابة بولونيا الغناء غربى مدينة باريز في الحى الذى تؤجر الدار فيه اليوم بثلثمائة ألف فرنك مسانهة وسط حديقة أنيقة تحيط بها الحدائق فى مكان يجمع الى السكون المطلوب للعلماء والمؤلفين ولا يبعد عن سائر أحياء العاصمة وما يلزم لهم من المواد المفرقة فى مكاتب باريز المختلفة ودور العلم والمستودعات والجامع والمتاحف وغيرها بحيث هم بعيدون قريبون عن الحركة العلمية والسياسية والاجتماعية وليس فى المعهد مكتبة كبرى لانها على اتساع مساحتها لا يتسع

صدرها لكل مايلزم المؤلفين فيها من المواد بل فيهافقط كتب الفهارس والمعاجم والمراجعة والامهات التى لاغنية لكل عالم عنها وما عـدا ذلك فكاتب باريز وعلماؤها ودور سجلاتها ومتاحفها على قيد غلوة من سكان هذه الرحبة الشريفة يأخذون منها ماراقهم كل ساعة .

وليست هذه الوسائط هى كل مافى معهد تير من المعونات لعلمائها بل ان لهم بفضل الشيخ الرئيس مديرهم الحكيم الكبير أهم الاسباب التى تربطهم بعلماء العالم ومجامعه وكلياته فهم كسكان الجنان توفرت لهم كل الوسائط فلم يبق عليهم الا أن يقطفوا من ثمار يحبونها كل قريب ودان

يعيش هؤلاء العلماء عيشة مشتركةفيتناولون طعامهم معاً ويلعبون ويتنزهون معاً ويبحثون عن العلوم التى يعتون بها معاً ويظلون هكذا يعيشون عيشةالاتراب العاملين على ماتعلموا فى طفوليتهـم فى المدارس والكليات ويستفيد بعضهم من بعض فى العلوم المختلفة ويعاون بعضهم بعضاً معاونة الاخوان ويترفهون رفاهية لايتمتع بها الا عقلاء الاغنياء

قام هذا المعهد المفيد تحت رعاية العلماء من أهل المجمع العلمى وحققت فيه مؤسستاه العقيلة تير وشقيقتهامارسمه النظار على ذاك المعهد أمثال جول سيمون ومنيه وبارتلمى سان هيلير فكان تير الذى عـد من نوابغ القرن التاسع عشر الذين خدموا بلادهم خدمة تذكر على الدهر فتشكر نافعاً لامته في حياته بعقله وفى مماته بماله فتى يصل الشرق ياترى الى هذه الدرجة فى العقل والاحسان ومتى يكون علماؤه من أهل السعة واليسار الى هذا الحد ليحسنوا الانتفاع بأموالهم كما أحسنوها بعلومهم

ان شبان العلماء فى هذه الدار بعد ان تعلموا ورأوا العلماء كيف يعملون محتاجون لهضم ماتعلموه أن يعانوا لينشأ منهم أفراد متفردون فى العلم فيتحولون بهـذه الواسطة من تلامذة الى أساتذة اكفاء أن يكفوا أنفسهم وأن يوجـدوا ويخترعوا وهذا موقوف على أن يستجمعوا قواهم ويتمتعوا بحريتهم وأوقاتهم على

مايشاءون فالعمل كما قال أميل بوترو هو السرور على شرط أن لايكون صاحبه مستعبداً فيه لاحـد ولا لمؤثر بل يقوم به مدفوعاً فقط بعامل نتائجه الطبيعية وهى الايجاد والابداع ، وما التربية الا أن تخرج كل انسان على ما ينفع فيـه . ويتيسر له النبوغ فى فروعـه ؛ التربية هى تخريج المرء أولا فى مجموع المبادىء العامة التى هى وقف خلفه لنا أسلافنا بتجاربهم وسموا ذلك العقل ثم تخريجه ثانياً فى ان يكون مخصياً متفرداً في علم واحد يكون فيه على بصيرة على نحو مايتطلب ذلك العلم الحاضر والمجتمع الحديث ثم ينشأ ثالثاً ممن دخل فى هـذين الطورين فى التربية فيلسوف يدرك قيم الأمور ويعرف الصلات المتبادلة فيما ينصرف اليه العالمون على اختلاف معارفهم ويبحث فى ان يوفق توفيقاً حسناً بين الحياة الخاصة والحياة العامة وكل هذا لا يفهم مغزاه شرقنا التعس الآن .

تآخى الغربيين

١٦

كل فكر ومذهب فى الوجود نتيجة الدعوة اليه وتحبيبه الى النفوس . عرف الغربيون هذه القاعدة فجروا عليها فى كثير من اعمالهم وكان من ثمرات الدعوات السياسية والدينية تأليف الوحدة السويسرية والالمانية والأميركية وتوحيـد كلمة الجزائر البريطانية وانتشار المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والفوضوية وكثرة من يدينون بالمذاهب البرتستانتية والفلسفية .

وقد قام هذا الشهر فى فرنسا جماعة ممن يفكرون لخيرها رأوا ان بلادهم تنتفع كثيراً من تحسين صلاتها مع اميركا فألفوا جمعية دعوها « جمعية فرنسا اميركا » مؤلفة من علماء وسياسيين وقوادواجتماعيين ومعلمين وفى رأسها المسيو جبرائيل هانوتو أحد أعضاء المجمع العلمي وصاحب التآليف الكثيرة في التاريخ

والسياسة ووزير خارجية فرنسا الأسبق ؛ وقد أنشأوا لبث هذه الدعوة مجلة شهرية باسم جمعيتهم تدعو الى هذا الغرض استفتحها رئيس الجمعية بمقالة فى الغرض الذى يرمون اليه وكتب فى المجلة الأسبوعية مقالة طويلة الذيل فى هذا الشأن فرأيت ان الخص للمشارقة لباب هاتين المقالتين دلالة على ما يأتيه المغاربة من الأعمال النافعة لمستقبلهم لننعى على أنفسنا نومنا عن النظر فى مستقبلنا .

قال هانوتو — ان النجاح معقود بناصية من يعمل فى الوقت اللازم ؛ ولو وجهنا وجهتنا منذ سنة ١٨٦٠ الى أميركا الشمالية والجنوبية لما احتجنا اليوم الى دعوة أمتنا لتعريفها بما نعرفها به . هبت علينا الزعازع السياسية والاقتصادية منذ ذاك الحين واذ قد سكنت الآن وجب علينا ان نعمل عملا يحمل فى مطاويه احسن الفوائد

تبدلت الارض غير الارض فى خمسين سنة حتى صح ان نقول ان قارتي آسيا وافريقية كانهما اكتشفتا حديثاً فكثرت مواصلاتهما وحملت اليهما المدنية والحضارة وجرى تعليمهما واستعمارها وكان لفرنسا من هذا التحول الغريب حصة موفورة ؛ فقد غير دلسبس بفتحه ترعة السويس شكل الارض كما ان جول فري بموافقته على السياسة الاستعمارية قد حاز لنا قسما كافياً من قسمة الاراضى الجديدة .

وبينا كان الشرق يستدعينا غدا الغرب ينكرنا ، ويستغنى عنا ؛ فان مسألة باناما المشئومة . التى جاءت بعد مسألة المكسيك قد اثرت في علاقاتنا مع أميركا الشمالية والجنوبية واستغرقت التدابير الاوربية الكبرى التى اضطرتنا الى مجاراتها فكرنا وقوتنا المادية . وانحطت بحريتنا التجارية فضعفت بضعفها أسبابنا فى العمل واحتفظنا باساليبنا القديمة التجارية فسبقتنا شعوب أكثر منا فتاء وأكثر مضاء وأقل مطالب

نعم تقدمنا وتأثلنا ولكننا لم نبرح كما كنا فى قوتنا على عهد نابليون على حين كانت أميركا بثروتها وقوتها وعظمتها تتقدم تقدماً لا يوصف فقد كان سكان

الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ — ٣٦ مليوناً أي مايقرب من سكان فرنسا على التقريب فأصبحوا سنة ١٨٩٠ - ٦٣ مليوناً وهاهم يتجاوزون اليوم الثمانين مليوناً . وفي كندا اليوم زهاء ٦ ملايين من السكان وفي الجمهوريات الوسطى والمكسيك ٢٢ مليوناً وأصبحت أميركا الجنوبية ٤٥ مليوناً وكان فيها سنة ١٨٩٠ — ٣٥ مليوناً

وكان مجموع تجارة الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ خمسة مليارات ونصف فرنك فأصبحت اليوم زهاء ١٦ ملياراً وكان مجموع تجارة كندا سنة ١٨٧٨ — ٧٥٠٧٩ مليوناً فأصبحت سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ مليارين ونصفاً . ومجموع تجارة أميركا الوسطى والمكسيك مليارين ونصف وجمهوريات الجنوب أكثر من أربعة مليارات منها ملياران ونصف للبرازيل ومليار للجمهورية الفضية .

وعلى الجملة فقد بلغ مجموع ماهناك من نفوس ١٦٠ مليوناً من البشر ومجموع التجارة أكثر من ٢٥ مليار فرنك وأحدثت اميركا حركة كبرى في العالم بدخولها مضمار الاتجار فأثرت في فرنسا تأثيراً غير قليل وكانت هذه الى ذاك التاريخ قريبة بتجارتها من انكلترا أي لها المقام الثاني في التجارة فأصبحت اليوم في الدرجة الرابعة بعد انكلترا والولايات المتحدة والمانيا . أي اننا فقدنا ما كان لنا من المكانة قديماً فنحن اليوم نريد أن نستعيد منزلتنا الاولى أو ان نغتنم الوقت الضائع فالمسألة ليست متعذرة ولكن تقتضي لها الارادة والتفكر والعمل على طريقة منظمة والعودة الى تقاليدنا والانتفاع من اسبابنا

أما الولايات المتحدة بما لها من المركز الذي أحاط بطرفي البحرين المحيطين فهي المهيمنة على أعمال العالم فان عدلت الحالة بين اليابان وروسيا فلا يبعد ان يجيء زمن تتداخل فيه في السياسة الاوروبية وان الفرنسويين في كندا ليبلغون مليونين ونصفاً ومثل هذا العدد من الفرنسيس منتشر في جمهورية الولايات المتحدة ولا سيما في الجنوب واللغة الفرنسوية في هايتي هي اللغة الرسمية فاذا حسبنا المستعمرات الفرنسوية في كويان وجزائر الانتيل يصبح عدد الفرنسيس ومن

يتكلمون باللغة الفرنسية من الاميركان ليس بقليل

وان مالنا من الايادى فى أميركا ولاسيما وقد قرن فيها اسم لافاييت الفرنسوى باسم واشنطون الاميركى الذين ساعدا على استقلال الولايات المتحدة وماوضعناه فيها من أموالنا وقمنا به فى جمهوريات الجنوب من البعثات العلمية والعسكرية والمشاريع الاقتصادية والمالية كل ذلك يدعونا بلسان الحال الى أن نصل الحاضر بالغابر وان لم تكن سلسلة الصلات قد قطعت كل القطع

والناس مهما تقلبت بهم الحال لايزالون يذكرون لفرنسا بيض أياديها على المدنية واذا نسوها فانهم لا ينسون باريز التى تنشر أنوارها على العالم واليها يحج الألوف من الاميركيين كل سنة للتنزه والارتياض والاستفادة وكلما كثرت الرفاهية فى ديارهم تدعوهم الدواعى الى نزول باريز وما فى أراضى فرنسا من المصايف والضواحى ككوت دازور فان مجموع الاميركيين الذين يختلفون كل سنة الى ديارنا لا يقلون عن مليون سائح . فعقد الصلاة بين فرنسا وأميركا فيها كل مانحتاجه من الاسباب القوية فان كانت أميركا الشمالية تدعونا اليها بمافيها من القوة والعظمة فاميركا الجنوبية تنادينا اليها القرابة لان عناصرها لاتينية وتربتها لاتينية فمن كندا الى مضيق ماجلان مارين بالمكسيك والجمهوريات الوسطى ترى الدم اللاتينى ممزوجا فى شرايين العناصر الجديدة وعلى أميركا الجنوبية يصح اطلاق المثل القائل « هذا دم لاماء »

ومثل هذه الجمعيات نفعتنا فى القارات والاقطار الأخرى فقد كانت جمعية « أفريقية الفرنسوية » أعظم معاون للحكومة فى أعمالها الاستعمارية وجمعية « آسيا الفرنسوية » أخذت على عاتقها مثل هـذه المهمة « وجمعية مراكش » تعمل على نشر الافكار الفرنسوية فى الغرب الاقصى فنحن بجمعيتنا هذه لا نأخذ الى أميركا من معارفنا بقدر مانأخذ عنها . فلا نرمى الى الدخول فيها ونشر كلمتنا بين أبنائها بل نود أن نعاونها ونحالفها نريد أن نتعلم عليها ونحن أبناء المدنيـة القديمة درساً فى النشاط والمضاء فان كان لمدننا القديمة كنائسها وبيعها فالمدن

الحـديثة معاملها ومصانعها فنحن نقنع بامتصاص التاريخ أما هم فينشقون ارج المستقبل

قام فى واشنطون مثل عملنا هذا يرمى الى التقرب بين جميع العناصر فى العالم الجديد سموه مكتب الجمهوريات الاميركيـة انشأته الولايات المتحدة بمعونة الحكومات الاخرى ومنحه المستر كارنجى مبلغاً جسيما من المال وهو يفتح قاعات لالقاء المحاضرات والاجتماع ومكاتب لاخذ المواد والتعليمات وخزانة كتب ومجلات كبرى وينشر مجلة للدعوة الى هـذا الغرض وذلك على صورة رسمية كما أن اسبانيا أنشأت مثل ذلك للتوفيق بين اسبانيا وأميركا وبمثل ذلك قامت البرتقال للتوفيق بينها وبين البرازيل . وفي ألمانيا اتحدت الكليات وأعمال الرجال على جلب أبناء الاميركان وتلقينهم التربية الجرمانية أما شعار جمعيتنا فهو أن نحبب فرنسا الى نفوس أميركا ونعرفهم بها ونحبب أميركا الى نفوس الفرنسويين ونعرفهم بها

ولا بأس هنا بذكر شيء من تلك العظمة الاميركيـة التى أدهشت العالمين المدنى والوحشى . فان مدائن نيويورك وشيكاغو وسان لوي وسان فرنسيسكو قد امتازت بغناها فى زراعتها ومعادنها وصناعتها وأعمالها التجارية الخارقة للعادة فقد كان فى الثمانى والاربعين ولاية ومقاطعة كولومبيا والارض الهندية والاسكا وجزائر هاوای ومنها تتألف الولايات المتحدة ٥٧٣٩٦٨٧ مزرعة سـنة ١٩٠٠ ومعدل سعة كل واحدة منها ١٤٦ فداناً (آكر) وثمنها ٢٠ ملياراً ونصف مليار دولار أى ١٠٦ مليارات من الفرنكات وكان مجموع محاصيل هذه المزارع سنة ١٩٠٨ — ٨ مليارات دولار منها ٢٦٦٨ مليون مكيال من الذرة و٦٦٤ من الحنطة و٨٠٧ من القرطمان و٣١ من الجاودار و١٦٦ مليوناً من الشعير و١٣ مليون بالة قطن و٧٠ مليون طن من العلف و٧١٨ مليون ليبرة من التبغ و٢٧٨ مليون مكيال من البطاطا و١٣٥ مليون ليبرة من الصوف النقي

وكانت مساحة الغابات الاهلية ١٦٨ مليون فدان تغل كل سنة ٦٦٦ مليون

دولار دع عنك الصيد فى بحار أميركا وأنهارها وهو يباع بعشرات الملايين من الدولارات .

وبلغ سنة ١٩٠٥ مجموع مافى الولايات المتحدة من المعامل ٢١٦ ألف معمل رأس مالها ١٢٦٨٦ مليون دولار يعمل فيها ٥٤٧٠٠٠٠ يتقاضون أجوراً يبلغ مقدارها ٢٦١١ مليون ريال وتبتاع بثمانية مليارات ونصف من المواد الاولية وتبيع بما قيمته خمسة عشر ملياراً . وفى سنة ١٩٠٨ أعطت الحكومة ١٦٣ ألف رخصة لانشاء محال وأماكن قيمتها ٥٤٦ مليون ريال

وبلغ طول الخطوط الحديدية فى هـذه الولايات سنة ١٩٠٧ = ٢٣٧ ألف ميل أى ٣٨١ ألف كيلومتر لها ٥٥٫٣٨٨ قاطرة و٢٫١٢٦٠٠ مركبـة فيها من المستخدمين ١٦٧٢٫٠٠٠ يقبضون ١٠٧٢ مليون دولار مشاهرات وبلغ عدد من نقلتهم تلك الخطوط من الركاب ٨٧٤ مليوناً وثقل البضائع ١٧٩٦ مليون طن وثقل الطنات الالفية (الالف ١٦٠٨ أمتار) ٢٣٦ ملياراً ورأس مال شركات السكك الحديدية ١٦ ملياراً دولار وصافي ريعها أربعة فى المئة . وفيها ماعدا هذه السكك الحديدية ٣٨٨١٢ ميلا من الخطوط الكهربائية . وبلغت صادرات الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨ = ١١٩٤ مليون دولار والواردات ١٨٦٠ ومجموع تجارة أميركا الخارجية ٣٣١٥ مليونا

وكل هذه القوة الاقتصادية ليست بشيء لولم تكن الاخلاق أساس عظمتها الاقتصادية وقد أخذ مقام المفكرين والعالمين يعظم في أميركا كما عظمت منزلة رجال المال والاعمال والصناعة والتجارة . وكثير من سكان المدن يعنون بالموضوعات الأدبية والفنية والعلمية وأصبحت بعض المدن مثل بوسطون التى هى مقر الحركة العقلية منذ زمن طويل ميدان الآداب والعلوم . وان كثيراً من الاسر لينزلون مدينة واشنطون عاصمة الولايات المتحدة فى سياستها ويعيشون فيها بعيدين عن اضطرابات نيويورك وسان لوي وشيكاغو . وليس للاميركان مثل فرنسا بلاد يغترفون منها مادة علم ولا يجدون بلداً مثل فرنسا تتلقاهم بقبول

حسن وتوفر الارادات على حبهم . وفرنسا تتعلم كذلك من نشاط رجالهم فكما أن طلابهم يجدون فى بلادنا مايتعلمونه كذلك أولادنا يستفيدون من تعلمهم فى كليات أميركا فينشأون بين شبان يشعرون منذصغرهم باستقلال الفكر وأنهم حاملون تبعة أعمالهم ان خيراً فخير وان شراً فشر .

لما وصل النقل الى هذا الحد وقف القلم فذكرت شيئاً من حال الشرق . ذكرت حال العثمانيين والايرانيين وأنهم وان كانوا من أمم مختلفة فجامعتهم الكبرى وهى الاسلام لاتقول بجنس ولاعنصر فلو كنا وكانوا على شىء من العلم الحقيقى اما كنا ندعو الى انشاء جمعية عثمانية ايرانية كما ينشىء هانوتو اليوم جمعية فرنسوية أميركية

ولكن ضعف عقول رجالنا ورجالهم وتعصبنا وتعصبهم وجهلنا وجهلهم لاتلبث أن تنفجر براكينها اذ ذاك ويتذرع بعضهم بالسياسة يتوكأون على عكازها لينافروا بين القلوب ويفرقوا بين أبناء الاب الواحد وهناك تدخل الدول ذوات الشأن والغايات فى البلادين وينفخن فى أبواق الشقاق مستعينات ببعضنا على البعض الآخر . وان العاقل ليربط على قلبه بيده عند مايفكر فى عاقبة سعى الجهلاء لابقاء سوء التفاهم بين العثمانى والعثمانى فكيف يتمنى هذه الأمنية البعيدة اليوم من ربط العثمانى بالايرانى . فاللهم علمنا علماً نحسن به التفاهم حتى يتآخى الشرقيون كما يتآخى الغربيون

محاضرتنا فى نهضة العربية

١٧

فى باريز ثلاث جمعيات شرقية الأولى جمعية شبان الاتراك العثمانيين والثانية جمعية الجامعة الاسلامية والثالثة جمعية الاخاء المصرية . اتخذت كل جمعية لها ناديا وأخذت تعمل على مافيه غايتها وقد كلفتنا جمعية الاخاء المصرية ان نلقى عليها

محاضرة فى نهضة اللغةالعربية فى المئة سنة الأخيرة فألقينا عليهم المحاضرة الآتية فى ناديهم فى قهوة فولتير أمام دار تمثيل الاوديون :

سادتى الاخوان

سألتمونى سعدت بكم أوطانكم ان أحدثكم بطرف من تاريخ نهضة اللغة العربية فى المئة سنة الأخيرة وما منكم الا من أستفيد منه وأتشرف بالأخذ عنه . أنتم من أهل الفئة الفاضلة فى وطنكم يتوقع منكم أن تنيروا آفاق جهله بأنوار معارفكم وان تعمروا أكناف معالمه ومجاهله بما تقفتموه فى هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صحيح وآداب رافعة . فانى لى وأنا نازل بينكم متعلماً لا معلماً ان أفوه فى حضرتكم بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مصاقع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء وما حالى وحالكم لو أنصفتكم وأنصفت نفسى الا حال من يحمل التمر الى هجر أو المسك الى أرض الترك أستغفر الله بل ان حال من يلقى محاضرة على جمعية الاخاء المصرية فى باريز أعجب وأغرب

اخوانى : تعلمون قرت بكم عيون مصر أنه أتت على اللغة العربية أدوار وأطوار وعرض لها مايعرض لكل كائن فى الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وان اتعس أيام ضعفها كانت فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة وهو عهد الفتور فى جسم الامة الاسلامية عامة والامة العربية خاصة . ثلاثة قرون بل أكثر مضت فى مرض مستحكم كانت تكفى لموت هذه اللغة الشريفة التى تعقد اليوم على أمثالكم خناصرها وترجو بمساعيكم أن يكون مستقبلها خيراً من حاضرها وغابرها بيد ان لغة يفرض على زهاء مائتى مليون من المسلمين أن يتعلموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال مادام فى الأرض مسلم يوحد الله .

لا بد لكل حركة من سبب . وسبب ماعرا العربية من الضعف فى تلك القرون انقطاع الملوك عن الأخذ بيدها فأصبحت الأمور العلمية صورية ينظر فيها الى الاشكال لا الى الحقائق واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد

وعدوا ماعداها من العلوم فضولا لاغناء فيه وساعد على انتشار هـذا الرأى السخيف ماأصاب البـلاد من ضعف الاحكام وفساد النظام ولا علم حيث يفقد الامن وفى النادر أن يهتم جاهل بتعليم أو يربى من لم يترب

وكأن قدرة المولى تعلقت بان هـذه اللغة التى نشأ لها الضعف من أبنائها ان تأتيها الصحة على أيدى غـيرهم . وربما يعجب بعضهم الآن اذا قلنا له ان مبدأ نهوض اللغة العربية كان فى مصر أيام محمـد على وقد صحت عزيمته على خدمتها مسوقاً بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من أهل العلم من الفرنسيس فكان من أعماله الجليـلة ماخلد له الفخر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم لامن حيث منازعه السياسـية من أعاجيب الحكام فى الشرق . والشرق أبو المعجزات والكرامات .

ليس من يجهل أن محمد على كان امياً أو يقرب من درجة الامية . مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لأنه كان أرناؤدياً ولم يخط سطراً واحداً لأنه تعلم فى الكهولة مبادىء طفيفة من حسن الخط والقراءة فقط . ومع هذا فقد عنى بما لم يعن به أحد من الملوك المتأخرين وشرع منذ استقام له امر مصر يختار الاذكياء من أبنائها ممن قروءا الدروس الوسطى فيبعث بهم على نفقة الحكومة إلى أوربا ليتخصوا فى العلوم التى أولعوا بها حتى اذا عاد أحدهم وأتم تحصيله يحبسه عنده فى قلعة الجبل ويخرج له كتاباً بالافرنجية فى الفن الذى أتقنه ويوعز إليه بأن لايخرج من القلعة قبل أن يترجمه بالعربية ويأمر له بأسباب الراحة والمعينات على الترجمة والتأليف فاذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على أمير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس أو إلى لجنة كانت معروفة إذ ذاك بلجنة الامتحان فبعد ان تنظر فيه ترخص بطبعه فى المطبعة الاميرية ويغدق الاميرعلى المترجم أنواع الهبات ويشرع فى ترقيته فى المراتب ان كان ممن استمدوا للادارة أوالجندية أو البحرية وإذا كان من الاساتذة يوسد اليه التدريس فى بيوت العلم موسعاً عليه فى الرزق ليتخرج به ابناء مصر . وهو عمل يذكرنا بما كان

يأتيه المأمون العباسي من الانعام على المترجمين ولكن مايصدر عن المأمون وهو أعلم خليفة فى الاسلام لا يستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الامة بقدر مايستكثر ماتم على يد محمد على الامى الالبانى وعصره عصر شيخوخة الاسلام والمسلمين .

قال لى صديقى الدكتور عثمان باشا غالب أحد حسنات مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التى اختطها محمد على لمن يجىء بعده وشاهد تلك الحركة العلمية فى ابانها ثم شاهدها فى انحطاطها وهو يشهدها الآن فى تجددها . لقد ظلت نهضتنا العلمية سائرة أحسن سير الى سنة ١٨٨٢ فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من أبناء مصر نفسها وهو على باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد سيء منه لاحلال اللغة الانكليزية محل اللغة العربية فى المدارس الاميرية زاعماً بأن الواجب على المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لا يتأتى الا اذا أتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف فى أيامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لابناء انكلترا وقطعت الارساليات العلمية الى أوربا حتى لم يكد يبقى اليوم من أولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل اذا عادوا الى منابر التعليم لا يسدون حاجة مصر وأخذت المعارف فى عهد المبارك تطهر المدارس بأمثال دنلوب وارتين من كل ماينفع اللغة أوكان من آثار النهضة الأولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة اكداساً فى مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجل العار على من عقوا لغتهم وأمهم كما عق اخوة يوسف ابن أبيهم على حين كان على مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التآليف التى تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرهما من مصنفاته

قال غالب باشا كان أكثر أساتذة المدارس التى أنشئت فى مصر على عهد نهضتها الاولى من الفرنسويين المستعربين يكتب الاستاذ درسه بالفرنسوية والمترجم معه ينقله الى العربية فيلقى على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠

الى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الاستاذ بروجر بك الفرنسوى رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية الى خديوي مصر فى عهده يقول له فى تقريره السنوى أن الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين إذ قد أصبح فيهم الكفاة الآن وان مهمة فرنسا فى تربية أبناء مصر فى هذه الفروع العلمية قد انتهت أو كادت .

نعم فى ذالك العهد تم للعربية ما تريد من تعريب المصنفات العلمية والأدبية على اختلاف أنواعها وعادت فاضحت لغة علم بعد أن انقطع سند العلوم منها قرونا وأحيا أولئك المصريون أمثال الطهطاوى والرشيدى والشباسى والهياوى والنحراوى وحماد وبيجت والفلكي وندى والنبراوى والبقلي ألفاظاً من لغتنا كانت فى حكم الدارس هجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية فى بغداد والاموية فى قرطبة والفاطمية فى مصر وأضافوا الى تلك الألفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التى سلك عليها أجدادنا المعربون غالباً حتى أن الاتراك والفرس لما شرعوا يعلمون العلوم فى البلاد العثمانية والايرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا أمامهم كنزاً حاضراً ينتفع به فى الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة فى الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وأدمجوها فى تضاعيف لغتهم

كان الطلبة الذين أرسلهم محمد علي الى التخرج فى أوربا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حملة لواء العلم لا فى القطر المصرى فقط بل فى البلاد العربية كافة وأصبحت مصر ببيض أياديهم من هذه البلاد بمثابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتهز أعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التى ترجمت فى فنون مختلفة من الافرنجية زهاء الفى مجلد . والأثر الاكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوى شيخ من ألف وترجم فى عهده بما خلفه من قلمه أو عرب فى قلم الترجمة

برئاسته وما بثه من المبادىء فى مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس . وكلها أعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جزيل . خل عنك تلك الجرائد والمجلات التى صدرت فى تلك الاثناء ومنها جريدة وادى النيل لابى السعود ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك .

ورب معترض يقول أى علاقة لتعلم العلوم الجديدة ونقلها الى العربية بحياة اللغة التى يراد منها آدابها المنثورة والمنظومة ليس الا . والجواب انه لا أدب لمن خلت لغته من أمثال هـذه المعارف . فكما أن للعلوم ارتباطاً كلياً بعضها ببعض هكذا للغة دخل عظيم فى سلاسة آدابها بما تأخـذه عن غيرها بل ان لغة مهما حوت من أنواع البديع والمعانى والبيان لا تعد من اللغات الحية ان لم تكن لغة علم قبل كل شىء

وهنا مسألة مهمة لا أحب أن أمر بها وأنا منطلق لان لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الادبيـة وهى انا اذا تدبرنا تاريخ محمـد على وحسناته على العلوم والمعارف لا نلبث أن نشبهه من ملوك الافرنج بالامبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية وشارلمان كما لا يعزب عن علمكم كان من أعظم ملوك دهره وله صلة بملوك المسلمين وهو الذى أنفذ اليه الرشيد العباسى رسولا من قبله سنة ٨٠١م يحمل اليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهـذا الذى كان يحمى الملتجئين اليه من أمراء المسلمين الهاربين من الخلفاء فى قرطبة . كان شارلمان لأول أمره أميا تعلم الكتابة البسيطة على كبر مثل محمد على الا أن تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروساً فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستنيرين والمتعلمين الذين كان يستعين بهم على نشر المعارف بما أنشأه من المدارس باشارة الكوين المشهور أستاذه وأمين سره وباذر الجراثيم الأولى من المعارف فى هذه الارض الفرنسوية وبمساعيه أنشئت المدارس فى اكس لاشبل عاصمة البلاد اذ ذاك وتور واورليان وليون واستنسخت الكتب الوافرة لينتفع بها الطلاب

ومن العجيب أنه حدث لنهضة شارلمان ماحدث لنهضة محمد على حذو القذة

بالقـذة وذلك أنه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ريحها جملة واحدة لان من خلفوه على سرير الامبراطورية لم يكونوا على قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولان الاعمال العظيمة فى البـلاد المنحطة قد تقوم بالفرد أكثر من قيامها بالافراد وعلى العكس منها فى البلاد الراقية . أتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات فى خلالها التعليم أوكاد ولم تدب روح التجديد فيها الا بانتباه عقول الامـة وعلى يد أناس من أبنائها كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تجدد حياة آدابها بيدها بعـد محمد على بنحو خمسين سنة متكلة فى مهمتها على نفسها لاعلى الحـكومة وبذلك جاز لنا الاستنباط بان كل اصلاح يقوم بالامة فى هذا الوجود يكون الامل فى بقائه أكثر مما يقوم بيد الحـكومة ولا سيما فى الدول الاستبدادية التى تجد فيها تميزاً بين الامة والحـكومة . والحـكومات قد تعرض لها عوارض تنسى معها الترغيب فى العلم ومنها الى اليوم من يفضل الجهل على العـلم . ولهذه المسألة نظائر كثيرة فى تاريخ الامة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى فى برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهـدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لا يرجع الى عقل ولا الى نقل .

كان الادب العربى قبل دور النهضة الاخيرة عبارة عن سجع كسجع الـكهان طول بلا طول ولا طائل وجمل باردة سمجة وشـعر ركيك أكثره فى الاماديح والاهاجى وان ارتقى الشاعر انفتق لسانه فى وصف الخد والخال وذات النطاق والخلخال من ربات الحجال أو الذكران من الرجال وما أظنكم أعز الله بكم دولة الادب الا قد وقع لـكم شىء كثير من أمثال هذه الركاكات والسخافات فضربتم بها عرض الحائط وحمدتم الله على أن خلقكم فى زمن قام فيه من الـكتاب أمثال[1] محمد عبده وعشرات غيرهم لاتحضرنى الآن أسماؤهم من شـيوخنا وكهولنا

---

(١) حذفنا فى هذه الطبعة ما كنا أثبتناه من أسماء الـكتاب والشعراء والخطباء فى الطبعة الاولى لحكمة لاتخفى على الناقد

وشباننا . وقام من الشعراء محمود سامى وغيرهم ممن هم عمدة العربية فى نهضتها الاخيرة عملوا لخيرها فى مصر والشام والعراق وتونس أعمالا وخلف أكثرهم من مآثر فضله مايطرس المتأدبون عليه وينسجون على منواله .

وبينا كانت اللغة العربية تزهر فى مصر فى الامارة العلوية عز على الشام أن تكون دون شقيقتها فى هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة فى سورية لا بواسطة الحكومة كما فى مصر بل بواسطة الافراد والجمعيات وذلك فى أواسط القرن الماضى وكانت مدينة بيروت وهى ثغر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها أناس من مرسلى الفرنسيس والاميركان وأنشأوا فيها مدارس جعلوا لغتها الاولى اللغة العربية وأتقنها كثيرون من أهل لبنان فحمد مسعاهم وكانت اليد الطولى فى تنشيط لغة قريش للدكتورين كرنيليوس فانديك ويوحنا ورتبات وهما من أعظم مؤسسى الكلية الاميركية الانجيلية فى بيروت تعلما العربية وأتقناها وألفا بها التآليف العلمية النافعة والاول اميركى والثانى أرمنى ودرسا بها مع أقرانهما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرتهما عليها أن عمدة المدرسة لما عمدت أن تجعل لغة التعليم فى الكلية اللغة الانكليزية بدل العربية قاوما ماوسعتهما المقاومة ولما أخفقا استقالا من وظيفتيهما لأنهما أبت مروءتهما الا أن يمحضا النصح للبلاد وللغتها . والدكتور كرنيليوس فانديك لاميركاني فى سورية بفضله على اللغة العربية وماعرب لها من كتب العلم أشبه بالشيخ رفاعة الطهطاوى فى مصر ووجه العجب فى فانديك أعظم لأنه أميركى الجنس والمنشاء غار على لغة العرب أكثر من أهلها ومن الغضاضة على مصر والشام أنهما لم تعرفا لهما حقهما على مايجب وكان على القطرين أن يرفعا لهما تمثالين كما رفعت باريز لهوغو وروسو أو كما رفعت مصر لمحمد على وابراهيم . والعلماء ان لم يكونوا أحق بالرعاية من رجال السياسة فى بلادنا فلا أقل من أن يكونوا على مستواهم .

ولقد كان من أعظم من خدموا الآداب العربية فى بيروت على ذاك الدور

أيضاً بطرس البستانى وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه فى مدرسته الوطنية من أصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الاسير وابراهيم الاحدب وناصيف اليازجى وأسرته وغيرهم فهؤلاء كلهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد فى أقطار الشام ومصر وأميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء . ولم تحرم الاستانة — والعواصم مرزوقة منذ خلقها الله — من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبحثه وأعنى به أحمد فارس الشدياق الذى اقترح علي صديقى سيد أفندى كامل من رجال الجامعة المصرية أن أتوسع فى الكلام عليه .

أصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مسيحية خرج من بلاده مغاضباً فقضى زمناً طويلا فى مصر وتونس ومالطة وفرنسا وانكلترا وتعلم فى خلال ذلك الانكليزية والافرنسية ثم دان بالاسلام وألف بعض الكتب ومنها اللفيف فى كل معنى طريف طبع فى مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتبه فى أوربا كتاب الساق على الساق فى ماهو الفارياق أو ايام وشهور واعوام فى عجم العرب والاعجام طبعه فى هذه العاصمة سنة ١٢٧٠ ﻫ . وضمنه ترجمة حياته وشؤونا وشجونا على اسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر ان تعده من الانشاء المعروف عند الافرنج بالامورستيك (الجد فى الهزل) أو الرياليست (الحقيقى) الذى حدث فى عهد فلوبر او الناتوراليست (الطبيعى) الذى تم على يد زولا وانك لتدهش من قدرته فيه على التعبير ورشاقته فى التصوير ومتانته فى التحرير والتحبير فكأن اللغة التى كانت من جملة محفوظات احمد فارس فيها قاموس الفيروزابادى الذى ألف كتاباً مهما فى نقده وسماه الجاسوس على القاموس - كانت نصب عينه يأخذ منها كل ساعة مايشاء ويستحضر فى دقيقة مايصعب الاتيان به فى ساعة ويتفنن ماشاء بيانه وتبيانه .
ولفظ الفارياق مقتطع من أول اسمه « فارس » وآخر اسم أسرته « الشدياق » وقد حمل فى كتابه على رؤساء الدين حملة منكرة لأن بعضهم قتلوا أخاه ظلماً وتعصباً

جعلوه فى بناء لهم وبنوا فوقه لأنه دان بالمذهب البرتستانتى [1]

هبط أحمد فارس مدينة الاستانة بعد ان خبر حال اوربا خبرة زائدة وانشأ جريدة الجوائب التى طار صيتها فى الآفاق ورزق الحظوة بعلمه فكان ملوك الاطراف يهادونه ويمنحونه المنائح وممن كان يساعده خديوى مصر وباى تونس وملك بهوبال فى الهند حسن صديق خان الذى طبعت له مطبعة الجوائب معظم تآليفه العربية وكان هذا الملك أعلم الملوك المتأخرين بل أشبه بابى الفداء صاحب حماة في جمعه حكم الناس الى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب فى فهم اسرار الكتاب والسنة

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا التى اسست بعدها على نسقها وقل ان نشأت لنا جريدة فى صحتها وديباجتها العربية اللهم الا أن تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومصباح الشرق لابراهيم بك المويلحى والبرهان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لان جريدته كانت كهاته اسبوعية وله فيها مساعدون فى الاقطار كان يهاديهم ويهادى علماء عصره حتى كثر أحبابه من العلماء فى شمالى أفريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذى يتولى النظر فى كل ما ينشر فينمقه ويزوقه وناهيك بكلام تصقله الانامل الفارسية . فاحمد فارس هذا لو انصفنا هو واضع اساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة فى آدابنا بما خلفه من آثاره . ومن اراد أن يطلع على شىء من كتاباته فى جوائبه فعليه بالرجوع الى كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب وهو مطبوع متداول وان أحب الاطلاع على الجوائب برمتها فى حجمها ووضعها فليرجع اليها فى خزائن الكتب فى أوربا ومصر والاستانة

ولم يقف عمل أحمد فارس عند حد نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب سر الليال ورحلة له الى أوربا جدية محضة وكتاب نحو اللغة الانكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الادب واللغة والشعر ككتب الثعالبى والتوحيدى

---

(١) هنا قرئت نموذجات من شعر أحمد فارس ونثره من كتابه الفارياق

والطغرائي والبديع وغيرهم من أئمة الأدب نشرها على أحسن اسلوب راق في طول البلاد وعرضها بأثمان بخسة فعمت بها الفائدة وأنشأ طلاب الآداب يتحدونها في اسلوبها . ومابرحت مطبوعات الجوائب الى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفع بها الاحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون .

ابتلي أحمد فارس باناس حسدوه وأى عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره وينقدون جريدته وكتبه ولكن تلك المناقشات اللغوية الادبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم تزد فارسنا الا جرأة على الجرى في مضماره وقبولا بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان بنقده بعض كتاب العربية أشبه بسانت بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسويين فاستفاد أرباب الاقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد مما دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك أخذ من يعانون صناعة القلم يتأنون قليلا فيما يكتبونه وأخذت تخف اغلاط الكاتبين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلما نقل الناقلون عن اللغات الافرنجية ونحا المؤلفون مناحي قدماء الكتاب في ترك التكلف والتعسف حتى صح لنا أن نقول اليوم أن أسلوب الكتابة العربية لا ينقص عن اللغات الافرنجية الراقية بايجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصرين وأفكارهم .

نعم عادت للغة العربية ولا سيما في الثلاثين سنة الاخيرة نضرتها الاولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذاك السجع المتكلف الذى أتانا به العماد الكاتب الاصفهاني من فارس — وفارس مورد بدع كثيرة في الاسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب — ونقله الى العربية فاجاد في أكثره الا أن من جاءوا بعده قد أفسدوا به علينا لغتنا لأنهم لم يتقنوه

واني لا أزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعي بالادب

من مقامات الحريرى ورسائل الخوارزمى ورسائل الصابى وتاريخ اليمينى للعتبى ومقامات الزمخشرى ومقامات الاصفهانى وقلائد العقيان وذيله مطمح الانفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الأدب لابن حجة والريحانة للخفاجى وغيرها من الكتب التى كنت أطرب لتلاوتها ولا أكاد أفارقها فى خلوتى وجلوتى . ولما كتب لى الاطلاع على الآداب الفرنسوية والتركية وانشأت أبحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وأبى حيان التوحيدى وابن مسكويه والراغب الاصفهانى والغزالى والماوردي والطبرى والمسعودى والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين غدوت أعجب من نفسى كيف أضاعت وقتها فى تلقف تلك الاسفار المسجعة وفى اللغة مثل نهج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والاحياء وغيرها مما لا يتسع المجال لتعداده وهو فى الحقيقة ونفس الامر مادة أدب كما هو مادة علم لا تبلى على الدهر جدتها ولا تخلق ديباجتها كما كنت أعجب من أقبالى أيام الطلب على تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفى الحلى وابن منجك وابن مليك والجندى من شعراء المتأخرين وعند العرب من أهل هذا الشأن أمثال أبي تمام وأبى الطيب وأبى عبادة وأبى نواس والشريف الرضى وابن حمديس الصقلى وأبى فراس الحمدانى .

يرجع الفضل الاكبر فى انتشار دواوين الأدب والتاريخ واللغة من كتبنا لعلماء المشارقة من الغربيين أمثال دوزى ودساسى ووستنفيلد وعشرات غيرهم من أهل أوربا ولبعض ما نشره اليسوعيون فى مطبعتهم المتقنة فى بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التى ألفت في أوقات مختلفة فى مصر لاحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التى طبعت لنا المخصص لابن سيده أحسن كتاب عنى بطبعه فى شرقنا ولما طبعته المطبعة الاميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس . كل هذه الاعمال أعانت العربية

على تحسين آدابها وترقيها · ولا ننسى غيرة أولئك الذين نسجوا فى منظومهم ومنثورهم على مناحى الاوربيين من حيث قلة الكلفة ومجاراة الطبع ومحاكاة الطبيعة ووصف عواطف النفس بايجاز واعجاز وأولئك الذين وقفوا أنفسهم منذ عشرات من السنين يعربون لنا كل يوم فى جرائدهم ومجلاتهم أفكار الغربيين فى سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكونوا مجتمعنا الادبى على ما ترونه وجددوا للغة شبابها بحيث أمنا بفضلهم عليها من العفاء وأصبحنا نرجو لها دوام النماء والارتقاء .

أنا لا أقدم لكم مثالا من أمثلة ارتقاء لغتنا أكثر من أن أحيلكم على مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة فى سورية والفلاح والمحروسة فى مصر وان ترجعوا إلى كتابة الدواوين فى مصر فى منتصف القرن الماضى مثلا وترجعوا إليها اليوم وان كانت الى الآن عشيقة الركاكة بعض الشيء . قابلوا المنشورات التى تصدر اليوم فى الوقائع الرسمية فى مصر وما كان يصدر من أمثالها منذ مئة سنة مما أورد الجبرتى فى تاريخه نموذجاً صالحاً منه بنصه وفصه . عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به ألسن المحامين وأقلامهم فى مصر من التفنن فى أساليب الدفاع والتأثير الخطابى وبين ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب المحاماة طرفاً صالحاً منه يتجلى لكم كيف ارتقت لغة القضاء . استمعوا للخطباء اليوم ممن درسوا الدروس النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقابلوها بأكثر ما يحفظه خطباء الجوامع أو يقرأونه من السجعات في دواوين الخطب القديمة . تدبروا لغة التمثيل اليوم وان كنا فيه دون سائر فروع الآداب تأخرا واسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسماجة اقرأوا المحاضرات التى تتلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادى دار العلوم في مصر الخالية من التعقيد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التى كانت تتلى زمن الثورة العرابية وبعدها مثلا تدركون كيف وفقنا الله إلى قيام بناء آدابنا على هذا الاسلوب الرائق والابداع في الاداء والالقاء .

أليس مما يعد من نهوض اللغة ماتراه من أحكام ملكتها فى طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى فقد رأينا طلبة احداثا تخرجوا من دار العلوم فكانوا والله أعرف بالعربية وفنونها من أكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الاخير على غير حق اما من تمحض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفاخر العربية فى هذا العصر استحكمت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء وأحاطوا بعلوم الوقت احاطة نبهاء الغربيين .

واليكم أيضاً مثالا صغيراً اذكره لكم دليلا على ما أتت به بعض مدارس مصر فى حياة اللغة فقد شاهدت فى وادى النيل بعض العمد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة فى الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلطف فى التعبير مما لا تتلوه فى عسلطات المحشين والمهمشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك إلا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد على مسامع الناس وأنظارهم كل يوم من فصح العربية وشواردها وتتفنن فيه من أساليب التعليم . نعم ان مطالعة الجرائد والمجلات أعانت على الآداب وادخلت الغيرة على التمام في نشر ارباب الاستعداد

ولذا رأينا البلاد العربية التى لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الاصول الحديثة ولم يولع أهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم مازال أهلها إلى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراكش فان مدينة فاس منذ القديم ماخلت من أفراد يعانون الآداب على الأصول القديمة ولكنهم في الجملة خير من أهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فرداً يعد فى الطبقة الثانية فى كتابنا فيما علمت وما ذلك الا لأن اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر فى دور من الادوار سوق نافقة ولان حكومتها تحاول منذ القديم أن تجعل أهلها فرنسيسا في لغتهم وأفكارهم ومنازعهم

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التى بثها فيها خير الدين باشا التونسي وأشياعه فان الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة

الاذكياء من الخلدونيين وغيرهم . أما طرابلس الغرب وبرقة والصحراء والسودان فهي من أخوات الجزائر فى ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها ولكن هناك فى صحراء مراكش بلد غريب فى تلقف ملكة العربية وأعنى به شنقيط بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطى الحافظ المشهور فى عصرنا . وطريقة أهلها طريقة الأقدمين فى التلقى والاستظهار وقد شوهدت فى شنقيط بعض البنات الشنقيطيات الى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم وأظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الأزهر .

أما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في أحياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الأخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضر موت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق الا أن ذلك لم يحل دون نبوغ بعض أفراد شاركوا أتم المشاركة في حياة العربية ونعنى بهم بعض أولئك العراقيين النوابغ الذين ألفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجز على الافكار الذى دام في البلاد العثمانية الى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لا نغالي اذا قلنا أن ثلاثة أرباع ما تم للعربية من الارتقاء في القرن الاخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس .

ومن الاسف أننا لانزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربي منها يكاد يكون أشبه بالمالطية والكرشونية منه بالعربية الحجازية فتسقط فيها من الاغلاط فى التركيب والتأليف والالفاظ والوضع ما تسأل الله معه السلامة وأقل من ذلك غلطاً تلك الجرائد التى صدرت مؤخراً فى طرابلس الغرب وبعض مدن سورية الصغرى وبغداد والبصرة والموصل وأحسن منها جرائد مهاجرى سورية فى أميركا الشمالية والجنوبية وهى لا تقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد الرشيق . ومع هذا فان الآمال قويت بأن لا ينتصف هذا القرن الرابع عشر للهجرة الا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها بالضاد بل بالصاد والحاء والخاء والعين والغين والثاء والذال

والظاء ورقيت لغتنا بمساعي المنورين من أبنائها أمثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث أنوارها وأريد بها الحجاز واليمن ونجداً فان فيها بقايا من أرباب الذكاء النادر الى الآن من لو تمرنوا على العمل اذا تهيأت لهم الاسباب لاتى على أيديهم خير كثير للأمة ولا يرجى ذلك إلا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الاقطار وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم ليتفرغوا أو أفراد منهم للدرس والاستنارة

هذا ما حضرني في موضوع نهضة العربية الاخيرة ألقيته في هذه المحاضرة وربما خرجت من البحث بعض الشيء وساحة عفوكم تسعني وانتم تعلمون اني على أوفاز استودعكم الله والسلام عليكم

كلية باريز

١٨

كلية باريز من أقدم كليات العالم في التاريخ ان لم تكن أول كلية أنشئت وقد كانت في القرون الوسطى بلا مراء أشهر كلية وأكثرها إيواء للطلبة فكان علماء الوقت كما قال أحد الفضلاء ينظرون إليها بانها صاحبة الحق في استخراج كنوز العلوم ملكت ارثا شرعيا صحيحا وكانت أول كلية أنشئت في العالم كلية بابل أسسها نينوس مؤسس نينوى والمملكة الأشورية الأولى وخلفتها كلية منفيس المصرية وخلفت كلية منفيس كلية آثينا وبعد هذه انشئت كلية رومية وبعدها قامت كلية باريز واشتهرت كلية بولونيا في تعليم الحقوق كما سبقت كلية باريز غيرها في الآداب المقدسة والعالمية وكان في جوارها عشر مدارس تحيط بها كأنها أم القرى وتلك من أعمالها مثل مدرسة الانكليز ومدرسة الايكوسيين والألمانيين واللومبارديين واليونانيين ولطالما بعث الملوك اليها

بأولادهم ليتخرجوا فى المنطق ويتعلموا رقة الجانب وحسن الادب والعشرة .

ظلت هذه الكلية منذ القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر تربى معظم الرجال الذين يختلفون الى التعلم فيها وفيهم الشعراء والعلماء والفلاسفة . ومن مشاهير من تخرجوا فيها غليوم اوكام ورايمون لول وتوما دا كين وبنوا داناني وبونيفاس الثامن وبرونوتو لاتيني ودانتي وتوما موروس وايراسم وغيرهم وجميع طلابها على اختلاف أصقاعهم كانوا يرتاحون فى حماها وكان مطمح أنظارهم حب الحقيقة وهى القاعدة الاصلية فيها وكل منهم يتمتع بحقوقه . ولقد جاء زمن كانت الحياة العقلية محصورة فى جدران المدارس إلا أن كلية باريز أعظم منبعث لبث الدعوة إلى الافكار الفرنسوية وكانت وحدها تكفى لانارة العالم إلا قليلا وكان رجال تلك الازمان ينسبون العلوم إلى مواطنها ويرجعون الامور الى مصادرها فيقولون ان رومية مقر البابوية والمانيا مقر السلطة وباريز مهد العلم

وكانت الافكار الفرنسوية — كما قال أحدهم فى المجلة الباريزية — هى أكبر معين فى القرون الوسطى عضدت إلى النهاية الصليبيين فى نشاطهم وهيأت أسباب الحماسة الدينية وفتحت لامم المغرب ونشاطهم طرقاً جديدة فى العمل ومن الافكار الفرنسوية نشأت بعد نزاع قديم فكرة الوطنية متجلية فى صورة مؤثرة ذات بأس ومضاء بحيث خضعت السياسة لسلطانها ووضعت أسس الوحدة الوطنية . والافكار الفرنسوية هى التى طهرت رياح الاصلاح والنهضة وقادت الافكار القديمة الى التجديد وأنارت العالم بقبس أنوارها . والافكار الفرنسوية هى التى حملت الى العالم فى عهد فولتير ومونتسكيو أفكار التسامح الدينى والعدل الاجتماعى والحق والانسانية . والفكر الفرنسوي هو الذى سن المبادىء الخالدة فى دساتير الامم المتمدنة بأسرها . فمن فرنسا نشأت حرية البلجيك وحرية اليونان وحرية ايطاليا وحرية العثمانية . وفرنسا مهد الادب تنشر أنواره فتتناوله الاجانب وتتقبله بقبول حسن وهى البلاد التى اشتهرت بعلمائها وصناعها

ومن كلية باريزاخترع أمبير اختراعاته التي لولاها لما اخترع التلغراف اللاسلكي والسلكي والتلفون ولم تتم عجائب الكهربائية الصناعية . وفي كلية باريز أحدث باستور انقلابه العظيم في علم الحياة الذى جعله المحسن الى الانسانية فى العالم أجمع وفى كلية باريز حقق برتلو الطريقة الصناعية فى المواد العضوية فنشأت منها الكيمياء الحديثة وفى كلية باريز اخترع كورى وقرينته الراديوم واهتزت فى أيديهما ذراته . وفى معامل كلية باريز أوقد موسان للمرة الاولى التنور الكهربائى كما اخترع غيره التصوير الشمسي بالالوان

كانت هذه الكلية كما قلنا أعظم كليات القرون الوسطى لجملوها سنة ١٨٩٦ كلية تليق بعظمتها الماضية بحيث لم تفقد مكانتها العامية وفيها اليوم زهاء ثلاثمائة أستاذ يفيضون كما أفاض أسلافهم على العالم من علومهم ولا سيما على أميركا الجنوبية وبوهيميا والبلاد المصرية والعثمانية وكانت هذه الدار رسول السلام بين الأنام ومعلمة الناس كيف يكون التجانس الروحى والاخاء العام . ولكم كان أساتذتها يسيحون فى بث ما علمهم الله فى البلاد التى يقل فيها العالمون ولكم أنشئت فى حجر هذه الدار جمعيات تريد التقريب بين الشعوب وتعليم الجاهل منهم ولكم رنت فى غرفها وقاعاتها أصوات الخطباء من علماء الأرض أتوها يحملون اليها نتائج ابحاثهم ودروسهم . فان كانت كلية باريز أم كليات براغ والاستانة ومصر وغيرها من كليات البلاد اللاتينية وأميركا اللاتينية فهي تفاخر بأنها أم كليات انكلترا وايكوسيا .

ويؤخذ من احصاء سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ انه كان فى هذه الكلية ١٧٣٠٣ طلاب منهم ٣٣٦١ من الاجانب فتيان وفتيات . ومن هؤلاء ٩٢٦ يدرسون الحقوق و ٥٢٠ يدرسون الطب و ٧٧٣ العلوم و ١٠٦٢ الآداب .

ولم تقصر كليات الولايات . وعددها اثنتان وعشرون كلية فى بث روح التكافل الاخلاقى والعقلى فأنشأت كلية تولوز جمعية اجتماع الطلاب الفرنسويين فى اسبانيا وأنشأت كلية بوردو مدرسة الدروس الاسبانية العالية فى مدريد

وانشأت كلية كرنوبل المجمع العلمي فى فلورنسة وكلية نانسى وهى على الحدود الالمانية تعلم قاصديها احترام فرنسا وخدمتها للعلم ، وهكذا الحال فى كلية مونبليه وليل وليون فكليات فرنسا تعلم في السنة سبعة آلاف طالب وهو عدد ليس بقليل يدل على تفردها فى هذا الشأن من بين أكثر الممالك الراقية

هذه شذرة صغيرة فى وصف كلية باريز التى ما زالت الحكومة الفرنسوية تنفق عليها النفقات الطائلة والمحسنون لا ينفكون عن اعطائها المنائح الكبيرة فقد وهبها كارنجى المحسن الاميركى كثيراً كما ان بعض الروسيين منحوها مالا جزيلا والفرنسيس يعطونها عن سعة . فحيا الله يوما تقام لكل قطر من أقطار البلاد العربية كلية مثل هذه تدرس أبناءها علوم البشر بلغتهم وتكون مجتمعنا بالوطنية الصحيحة كما تكونها كليات الممالك الصغرى فى الغرب . كالبلجيك وهولاندة والدانيمرك والسويد ونروج وسويسرا والمجر وبولونيا وفنلندا والبرتقال .

حدائق باريز ومناهقها

١٩

يطول بنا نفس الكلام اذا أردنا الافاضة فى كل فرع من فروع العمران بباريز وكلها مما يحتاج الى صفحات كبيرة وربما مل القارىء قبل أن يمل الكاتب . ولقد عنيت مدة مقامى فى هذه العاصمة أن لا أضيع ساعة من وقتى الا فى البحث عن جمعية أو انسان وزيارة معهد فيه نموذج من ارتقاء العقول ووفرة العلم وحذق الايدى وبسطة العيش وفضل الرفاهية ومما جعلته لاوقات الفراغ غشيان الحدائق والمتاحف ودور التمثيل والسماع

فى باريز حدائق كثيرة عامة ومنها الصغير الخاص بحى أوشارع صغير

ويسمونها « سكار » وهى كلمة انكليزية معناها ساحة مربعة أو حديقة يحيط بها حاجز من قضبان حديد وتكون فى ميدان عام وعددها ٣٦ حديقة تتمنى كل حاضرة من حواضر البلاد العثمانية أن يكون لها من نوعها واحدة فقط بانتظامها وحسن تعهدها . أما الحدائق الكبرى فعددها تسع تصرف فى كل واحدة الساعات وأنت تسرح طرفك فيما خصتها به يد الصانع وأيدى البشر من مجالى الظرف والجمال .

زرت منها حديقة الحيوانات وحديقة كاونى وحديقة لوكسمبورغ وعجبت لمن يزور هذه الحدائق مرات لم لا يكون عارفاً بالنبات والحيوان وتاريخ مشاهير فرنسا أحسن معرفة فمثل هذه الحدائق التى يتنزه فيها المتنزهون هى في الحقيقة مدارس عملية يدرس فيها المتنزه كبيراً كان أو صغيراً ماينبغى له من هذه العلوم درساً عملياً لايحتاج فيه الا الى انتباه فكر قليل حتى اذا أسعده الحظ ونظر في المدرسة أو خارجها في كتب هذه العلوم يصبح وهو مطبق العلم على العمل .

ولقد رأيت فى حديقتى الحيوان والنبات أشياء كنت أقرأها ولا أعرف أعيانها ولما وقع النظر عليها تبينت فضل عرضها وأن العلم النظرى اذا لم يشفعه علم عملى يبقى كالسيف فى غمده أو البندقية في معملها أو الكهربائية قبل توليدها وليس فى البلاد العثمانية أو المصرية ما يشبه هذه الحدائق اللهم الا أن تكون حديقة الجيزة والجزيرة والقناطر الخيرية في مصر وحديقة الامة وغيرها فى الاستانة ولكن أين الثريا من يد المتناول وما ينظمه الباريزيون لا نقسهم وينظمه الانكليز أو الطليان والنمسويون لنا . وما حك جسمك مثل ظفرك .

وانك لترى في بعض الحدائق العامة تماثيل مشاهير رجال فرنسا في السياسة والعلم مجسمة من رخام مجزع أو حديد مصنع كأن ساحات باريز وشوارعها العظمى لم تستوعب وحدها كبار رجالهم حتى هرعوا الى الحدائق يضعون فيها التماثيل والنصب لمن أحسنوا للأمة أو سادوها زمناً وأصبح لهم فى تاريخها ذكر يردد ، ففى ساحات باريز وشوارعها ٦٨ مشهداً Monument لمشاهير علمائهم

ورجال سياستهم ومنهم أوغست كونت والفرد دى موسه وشاركو وكورنيل ودانتون وغامبتاوكى دى موباسان وجول سيمون ولافاييت وواشنطون ولافوازيه وباستور وفيكتورهوغو وغيرهم وفيها ٦٨ تمثالا اثنان منها لاسكندر دوماس الابن والأب . وواحد لبالزاك وبوفون وبرانجيه وشارلمان وكلودبرنار وكوندورسه ودانتى وديدرو وغاريبالدى وجورج ساند وجان جاك روسو . وجان دارك ولامارتين ومارات وموليير وباسكال وشاكسبير وفولتير وتمثال الحرية والقانون والجمهورية .

هذا داخل العاصمة أما خارجها فلها من غابتى فنسين وبولونيا أعظم فسحة ونزهة وغابة فنسين فى شرقى باريز على بضعة كيلو مترات من نقطة دائرتها ومساحتها ٩٢٧ هكتارا وفيها من أنواع الراحة وتنويع المناظر المفيدة ما هو العجب العجاب وأعجب منها غابة بولونيا فى غربى باريز ومساحتها ٨٧٣ هكتاراً زرتها ثلاث مرات وان كانت فى الشتاء ليست مثلها فى الصيف على انها ما خلت من الأنيس والجليس وكان أحد تلك الأيام يوم عيد رأس السنة والسماء مصحية والشمس طالعة مريضة صحيحة والعيون المراض الصحاح خرجت من كناسها تستنشق الهواء النقى . وهناك منظر من بحيرات بولونيا وطرقها لا أدرى كيف يصوره الشاعر اذا كان الوقت ربيعاً أو صيفاً أو خريفاً . ولو كنت شاعراً لحبرت فى وصفه القصيد وان زرتها في الفصل الميت كما يقول الفرنسيس

***

أما المتاحف البارزية فهى أيضاً قصور نزهة وحدائق صفاء وعددها ٣١ متحفاً يحتوى كل منها على أقصى ما يتصوره العقل من ارتقاء البشر فى الصناعات والفنون على اختلاف الاعصار زرت بعضها وقضيت أوقاتاً طويلة في متحف اللوفر العظيم بالقرب من نهر السين ومتحف فرسال على ثلاثة أرباع الساعة من باريز . أما متحف اللوفر فهو من أجمل قصور العالم وأوسعها عرف سنة ١٢٠٤ على عهد فيليب أغسطس وما زالت أيدى الملوك تتعاوره بالاصلاح أو التدمير

حتى اذا كان عهد فرنسيس الاول أصبح اللوفر متحفاً يقسم اليوم الى سبعة متاحف فى متحف بحسب أصول آثارها وزمنها وطبيعتها وهى متحف التصوير ومتحف الرسوم ومتحف النقش ومتحف النحت القديم ومتحف النحت فى القرون الوسطى وعلى عهد النهضة ومتحف النحت الحديث ومتحف العاديات الآسياوية ومتحف العاديات المصرية ومتحف العاديات الافريقية ومتحف العاديات النصرانية ومتحف الفخار والاوانى الخزفية القديمة ومتحف الفلز والحلى والرخام القديم ومتحف عاديات القرون الوسطى والنهضة والقرون الحديثة ، ومتحف تير ومتحف البحرية ومتحف الشرق الاقصى .

وكل متحف تصرف فيه الساعات الطويلة ولا تستوفى النظر ، فتأخذك الدهشة من رؤية المكان ورؤية المكين وتقضي بالعجب من كل ما يقع عليه بصرك اذ تتمثل لك عظمة الانسان وتفننه فيما تصنعه يده وعينه وذوقه .

أما متحف فرسال فهو فى مدينة فرسال . وكانت فى القرن الحادى عشر للميلاد قرية فاصبحت بعناية لويز الثالث عشر مدينة صغرى لانه أقام فيها قصراً للراحة أثناء الصيد وأراد لويز الرابع عشر أن يجعل فرسال مركز حكومة فرنسا فأنشأ فيها ابنية ومصانع عظيمة وكذلك فعل لويز الخامس عشر حتى أصبح عدد سكانها ثمانين ألفاً على عهد الثورة ، وهكذا اذا أراد الملوك أن يعمروا بلداً أحيوه واذا شاءوا أن يخربوه أماتوه . واشتغل فى اقامة قصر فرسال الذى جعل المتحف فيه اليوم ثلاثون ألف رجل وستة آلاف دابة في اليوم مدة سنين طويلة . وقد فتحت أبواب المتحف سنة ١٨٣٧ وفيه اليوم ٥٦٠٠ أثر تاريخي .

أما مجموعة الصور البديعة التى فيه فعددها ٢٤٠٠ صورة ليس لها نظير فى العالم ومن يمعن النظر فيها كثيراً يخرج من المتحف وقد درس تاريخ فرنسا ووقائعها الحربية بالعمل والنظر

ومن جملة ما حواه أسلحة بيوت الشرف التى اشترك فرد أو أفراد منها

فى الحروب الصليبية . ومنها أبواب مستشفى فرسان رودس الذى أهداه السلطان محمود العثمانى سنة ١٨٣٦ الى لويز فيليب صاحب فرنسا . وفيه صور كثير من مشاهير الشرق كأنك تراهم عياناً وفيه صورة تمثل القائد كلبر الفرنسوى وسليمان الحلبى يقتله فى حديقته فى القاهرة زمن الاحتلال الفرنسوى فى مصر

أطلت الروية في كل هذا وانعمت النظر في النفقات الطائلة التى أنفقت على هذه القصور المزخرفة والمصانع العظيمة فأعطيت بعدها الحق لمن قاموا بالثورات الفرنسوية يريدون انزال الملوك عن عروشهم وفصم عرى السلطة الفردية لتنقل الى أيدى الامة . نعم ان أقل نظرة الى هذه القصور يستغرب معها المرء كيف لم تحدث تلك الثورات قبل حدوثها بزمن طويل ولكن الحوادث كالحبالى لا تلد الا بعد اتمام مدة الحمل أو كالثمر لا ينضج قبل ابانه

ولم أتمكن يوم زيارتى لفرسال من رؤية كل حدائقها ومرافقها لنزول الثلج بكثرة ولكنى على الجملة أخذت منها صورة اجمالية كافية . شأني فى كل مازرته من المعاهد ورأيته من المشاهد فلم يتيسر لي أن ألقى عليه سوى نظرة واحدة لضيق الوقت وكثرة ما يجب أن يدرس من آثار هذه الحضارة الغربية الغريبة

وبعد كل هذا صرت أرى الاشتراكيين على حق فيما يطالبون به المجتمعات الحديثة فى الغرب وهم يرون مئات الفدادين من الارض تجعل حدائق قد لايختلف اليها الا أفراد فى حين يهلك مئات الالوف من المحاويج والفقراء ولا من يرحم ضعفهم المادى والصحى أو يرثى لبكائهم وتسبل على النظر هذه التحف والعاديات التى لا تقدر بثمن وحكومة الجمهورية تقترض مئات الملايين من الفرنكات لسد العجز في ميزانيتها . وهكذا نظام المجتمع الغربي ولعل عقول أهله المفكرة تحرر في الاجيال المقبلة الفقير من فقره أو تقوى على الاقل على تعديل هذا النظام الجائر الذى يسلب من كثيرين السبد واللبد ليعمر به قصر البلد ويلعب فى حدائقه وساحاته الوالد والوالدة والولد

مطاف باريز ومكتباتها

٢٠

لولم يكن فى باريز الا مكتبة الامة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومئة ألف كتاب مخطوط ومليونين ونصف مليون صورة مختومة وألوفاً من الايقونات والانواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات لـكفاها جالباً للسائحين ولافتاً لانظار أهل العالمين من العالمين .

مكتبة أسست منـذ نحو ستة قرون وملوك فرنسا وعلماؤها وأشرافها يتبارون فى أن يجعلوا فى كل فرع من فروع العلم واللغات صنوف المخطوطات والمطبوعات حتى اذا جاء القرن العشرون أصبحت مكتبة الامة أكبر مكاتب العالم وأهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها ففيها من نوادر المخطوطات والمطبوعات العربية ألوف

اختلفت اليها غير ما مرة ولم أتمـكن من مطالعة كل ما أريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين فى قاعات المطالعة . وبلغني أن الـكتب التي اهديت الى مكتبة الامة فى العهد الاخير لم يتيسر ادخالها فى قوائم الـكتب على كثرة موظفى المـكتبة وكادت مطبعة الامة الاميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن ولا غروفان ما رأيته منها مطبوعاً الى عهد ليس ببعيد يبلغ وحده مكتبة برأسها ويقضى فيه المرء الساعات ولا يستطيع أن يستوفى النظر الاجمالى

ولو صرف طالب العلم عمره كله يبحث فى مخطوطات مكتبة الامة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسر له أن يأتى الا على قسم ضئيل جداً مما حوته فى بطنها من معارف البشر ولا تعد المـكتبة الخديوية فى مصر ومكاتب الاستانة التى تتجاوز

الاربعين مكتبة ومكتبة المجلس البلدى فى الاسكندرية ومكاتب دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الادنى اذا جمعت كلها فى صعيد واحد وجعلت لها فهارس وقوائم منظمة الا جزءاً صغيراً من ذاك الجسم الكبير . وعلى تلك النسبة قس المطالعين والمراجعين فى مكتبة الامة بالنسبة لامثالهم فى البلاد العثمانية والمصرية فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالا ونساء شيوخاً وعجائز شباناً وشابات كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة وربما جاوز الالف أحياناً وتجد فيهم الغرباء من أمم أوربا وآسيا وأميركا وافريقية ممن تجمع بينهم كلمة العلم الجامعة وكلهم يتنافسون فى البحث والدرس ويستخرجون من ركاز تلك الكنوز ما يصوغونه عقوداً ثمينة وتعاويذ محلاة تقى البشر شر الجهل والخرافة

ولعله يخطر ببال بعضهم ان هذه المكتبة هى كل ما في فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيس فيها قواهم وجمعوا لها من أقطار الارض كل غال ونفيس على عادة الافرنج فى التغالى بفخامة مصانعهم وضم شتيت متفرقهم وحرصهم على الاجتماع للانتفاع ولكن فى باريز وحدها من المكاتب العامة ما لو جمع أيضاً لكان منه مكتبة كمكتبة الامة بكثرة أسفارها الا أن هذه تفوقها بالنوادر من المخطوطات

ولباريز عشر مكاتب أخرى فى كل واحدة منها عشرات الألوف من المخطوطات والمطبوعات دع خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكليات والمجامع فان لكل واحدة منها ما يقتضى للمطالع من أسفار المراجعة وغيرها . أما خزائن كتب الافراد فهذه لايحيط بها الا علام الغيوب أو من يدعى أنه يعرف ما حوت باريز من علم وأدب وذهب ونشب

ويقول العارفون أن قواعد بلاد الانكليز السكسونيين كالمانيا وانكلترا والولايات المتحدة تحسن استخدام أسفارها أكثر من الجنس التوتوني اللاتيني كالفرنسيس والطليان والاسبان وغيرهم اذ ثبت أن تلك الامم العظمى الراقية

أكثر احساناً للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية على أسلوب حديث لم يخطر ببال الفرنسويين الذين جروا فى أوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شؤونهم على تقاليد لهم قديمة وان عرف عنهم انهم أسبق الامم الى التجديد ولكن تجديدهم فى أمور دون أخرى .

والانتفاع من الكتب أيضاً لم يخرج عن هذا النظام حتى قالوا ان نفائس المخطوطات والمطبوعات الموجودة فى مكتبة الامة فى عاصمة الفرنسيس أو نقلت الى ليبسيك أو مونيخ أو برلين أو فينا أو اكسفورد أو مانشستر أو لندرا أو نيويورك أو شيكاغو لا تنفع بها وتيسر سبيل الوصول اليها لانها تكون هناك فهرسة مبوبة على طريقة فيها روح القرون الوسطى وقد جعلت هنا على اسلوب قريب المأخذ سهل التناول خال من القيود التى تقيد المطالع والمراجع . فان كانت فرنسا فى مقدمة شعوب الارض من وجوه كثيرة ولا سيما فى الامور الذوقية وبدائع الصناعات والاصلاحات الدستورية والانسانية فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع فعرفوا كيف يطبقون أنفسهم على الذوق العصرى

مثال ذلك صناعة الوراقة أو بيع الكتب فانا نجد المانيا أرقى من فرنسا فيها مع كثرة تفنن الفرنسيس فيما يدل على سلامة الذوق حتى أن ليبسيك فى ألمانيا تبيع وحدها من الكتب قدر ما تصدر فرنسا كلها ومن الغريب أن الكتبية الالمان فى نفس باريز تجدهم أمهر فى تصريف كتبهم فيبيعون كمية أوفر من كتبية الباريزيين

جاء فى كتاب « المانيا الحديثة » أن المانيا أعظم البلاد اصداراً للكتب فقد كانت أوائل القرن الماضى لاتخرج فى السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب فاصدرت سنة ١٩٠٥ — ٢٨٨٨٦ كتاباً فى حين أن فرنسا التى هى فى الدرجة الثانية بكتبها لم تصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتاباً فاذا قدر انه يطبع فى كل كتاب فى ألمانيا ألف نسخة فيصيب كل شخص فيها على أقل تعديل مجلد

واحد فصناعة الكتب فى المانيا رابحة جدا . وقد كان عدد المحال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥ — ٧١٥٢ محلا تصدر الى الخارج فقط ما قيمته ٢٩٠ مليون مارك

زرت فى جملة الكتبية الذين زرتهم أو ابتعت منهم بعض الكتب مكتبة هاشيت المشهورة في جادة سان جرمان وهى ثلاثة طوابق وفيها نحو ألف وخمسمائة موظف ومستخدم وتطبع فيها بضع جرائد ومجلات كما تطبع الكتب المدرسية والادبية والتقاويم السنوية المشهورة فى العالم وهى مؤسسة منذ نحو ثلاثة أرباع قرن ويعد هاشيت من أعظم كتبية العالم ان لم يكن أعظمهم ومع هذا يقول العارفون أن مكتبته على حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الالمان أو الاميركان لادهشوا العالم بنظامهم وأرباحهم . فكأن دم الفرنسيس الذي غلى زمناً قد برد اليوم وأصبح الدم الجديد غيره الآن يغلى فيدهش بحرارته . ومن مكتبات باريز المشهورة مكتبة فلاماريون ولمكتبته فروع كثيرة فى مدينة باريز وبلاد فرنسا وهذه المكتبة فيما رأيت أقرب الى التجديد منها الى الجمود على القديم

مجامع باريز العلمية

٢١

على الشاطىء الايسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخم قام قصر عظيم عمر فى النصف الثاني من القرن السابع عشر بمال أوصى به السياسى مازارين الذى جمع بطمعه وجشعه ثروة لا تقل عن خمسين مليون فرنك على عادة عظماء القرون الوسطي . وأراد أن تنفق بعده فى الخيرات وحسن الاثر ومن جملة خيراته هذا القصر الذى أوصى له بمليوني فرنك فضة وخمسة وأربعين ألف ليرة دخلاً سنوياً ليكون منه مدرسة عالية يتعلم فيها ستون طالباً من أبناء الولايات الاربع التى

أضيفت الى فرنسا بموجب معاهدة البيرنيه وروسيللون

وهذا القصر هو الذى نقل اليه مجمع فرنسا العلمى سنة ١٨٠٦ ذاك المجمع الذي أسس سنة ١٧٩٥ فكان مفخراً من مفاخر الفرنسيس وحقهم ان يفاخروا به . وهو مجلس أو ديوان مؤلف من خمسة مجامع فالأول المجمع العلمى الفرنسوى المعروف بالاكاديمى أسسه ريشليو سنة ١٦٣٥ وهو يشتغل خاصة بتأليف معجم اللغة الفرنسوية وادخال المفردات الجديدة ونبذ القديمة أواصلاحها وأعضاؤه أربعون رجلا ويقال لهم المخلدون على سبيل الدعابة لأنهم اذاخلا موضع واحد بالموت ينتخب سائر الأعضاء فى الحال من يخلفه والمجمع الثانى مجمع الصناعات النفيسة أسسه مازارين سنة ١٦٤٨ باسم مجمع التصوير والنقش والمجمع الثالث مجمع الخطوط والآداب أنشأه الوزير كولبر سنة ١٦٦٤ ومجمع العلوم أسسه كولبر أيضاً سنة ١٦٦٦ ومجمع العلوم الاخلاقية والسياسية أنشئ سنة ١٨٣٢ وجميع هذه المجامع ينتخب أعضاؤها بعضهم بعضاً مدى العمر وينظرون في العلوم الآنف بيانها ويعطون جوائز للمحسنين من المؤلفين والعاملين وبعضها لا يستهان به . وفى باريز مجامع علمية كثيرة غير هذه منها مجمع باستور العلمى مكتشف الميكروب والمجمع الكيماوى ومجمع فتيان العميان ومجمع الزراعة ومجمع البحار ومجمع العيون ومجمع الصم البكم ولكل منها أنظمة وقوانين وأعمال يطول شرحها وا كتفى فقط بوصف جلسة عامة حضرتها (١) من جلسات مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية

فى اليوم الرابع من كانون الأول سنة ١٩٠٩ عقد هذا المجمع جلسته السنوية تحت قبة المجمع وهى القبة التى تجتمع فيها المجامع الخمسة المعددة فيما تقدم اجتماعها

(١) هنا أرى من الواجب على أن أشكر اصديقى العالم المسيو الفرد لشاتليه استاذ علم الاجتماع الاسلامى فى كوليج دى فرانس ومدير مجلة العالم الاسلامى ومجلة السجلات المراكشية ومجلة الافكار الحديثة لتفضله بتعريفى الى كثير من اصدقائه من رجال العلم والادب والسياسة في باريز وبهم تيسر لى ان اطلع من مدنية هذه الامة فى شهرين ما يتعذر على غيرى ان يراه الا في شهور واشكر خاصة امين سره الكاتب المسيو لوسين مورى الناقد الادبى فى المجلة الزرقاء واحد كتاب هذه العاصمة المجيدين الذي تفضل واضاع من وقته كثيراً ليقدمنى الى معارفه ومعارف المسيو لشاتليه المشار اليه

السنوى وقدر الجمع بأربعمائة نسمة رجال ونساء . جلسوا على مقاعد من المخمل على ترتيب بديع بحيث يسمع كل واحدمنهم ويرى وكان أكثرأعضاءهذا المجمع بلباسهم الرسمي فجلس على كرسى الرئاسة المسيو رنى ستورم وتلا كما هى عادة هذا المجمع منذ القديم أو منذ انشائه قائمة باعمال المجمع منذ اثنى عشر شهراً وصفق الحضور لمن نالوا جوائز على كتب ألفوها ، وأعمال قاموا بها لخدمة الانسانية وتعليم البائسات واطعام الجائعات واليتامى والعمي وبين من نالوا الجوائز أربع عقائل عدا من اثنى الرئيس على أياديهن البيضاء كالام ارنستين التى أنشأت معملا وملجأ في مدينة روان والعقيلة بيكوين التى أنشأت فى باريز ملجأ سمته معمل الجهاز والآنسة دى رشمون التى أنشأت فى مدينة كرنيل منذ أربع وعشرين سنة ملجأ للبنات تأوى اليه أربعمائة ابنة من بنات العملة وأنفقت لديه ثروتها ، ومن المعاهد التى أخذ هذا المجمع النظر فيه معهد كارنو وهو الذى منحته العقيلة كارنو امرأة أحد رؤساء الجمهورية رأس مال يأتى بثمانية عشر ألف فرنك دخلا سنويا وقضت بأن تقسم الى ٩٠ اعانة كل واحدة بمائتى فرنك توزع كل سنة يوم ٢٤ حزيران وهو يوم مقتل كارنو على تسعين امرأة من نساء العملة ممن لهن أولاد ، ومن جملة الجوائز التى منحها المجمع للمؤلفين جائزة الاجادة لمن ألف كتاب « افريقية للاوربيين » وكتاب « أوروبا والمملكة العثمانية » .

ثم قرأ المسيو دى نوفيل أمين سر المجمع الجديد ترجمة حياة صديقه وسلفه فى هذه الوظيفة جورج بيكوفاثر فى السامعين وأبكاهم ، وتفنن ما شاء وشاء البيان فى وصف حسنات المتوفى واقتداره . وكانت الخطب يتلوها أولئك الشيوخ فى الورق بنغمة تأخذ بمجامع القلوب ويطرب لها العاملون العاملون طربهم بنغمات الاوتار وتغريد الاطيار فى الاسحار .

وهكذا انصرف القوم ونصفهم من النساء يرددون محامد أعضاء المجمع أما أنا فتمثلت لى أرواح أولئك العلماء العاملين الذين سنوا لمعاصرينا اخلافهم سنن

الارتقاء وخدمة العلم والحق والفضيلة والآداب والفنون ، وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية وقلت هل يكتب لها فى المستقبل تأليف مثل هذه المجامع فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين أو نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين ونكتفى بالتفاخر بأجدادنا نجعله عدتنا في شدتنا ومثالنا فى نهضتنا ، ونحن عن اقتصاص آثارهم غافلون .

كنائس باريز ومعابدها

٢٢

من المعاهد التى يقضى على من يزور باريز أن يختلف اليها ولو مرة بيعها وكنائسها فانها من الاماكن التى يقرأ فيها انموذجا من انموذجات البناء فى القرون الوسطى ، ويطلع فيها على فلسفة الفرنسيس الروحية خصوصاً والمأثور عنهم فى الشرق أنهم أمة لا تقيم لغير العقل وزناً تجردت من العواطف الدينية حتى لم يبق فيها سوى العجائز من النساء يختلفن الى المعابد للانابة الى الله وتقديس يسوع وأمه عليهما السلام .

بيد أن من تعمق فى البحث عن حال الفرنسويين الروحية يتجلى له أن جمهوراً عظيما لم يبرح متشبثاً بدينه متشبعاً بصحة يقينه ، ولا سيما فى القرى والبلدان الصغرى فاغلب الخاصة والطبقة العليا عندهم نزعوا كل نحلة حتى لم يعودوا يعرفون غير المادة ديناً وأغلب الطبقة الوسطى يغلب عليها التدين ، أما العامة فى المدن فكالسائمة لا تعرف غير الاكل والشرب واللهو واللذائذ وأكثر أهل طبقتهم فى القرى متعصبون لدينهم والسواد الاعظم من النساء متدينات . وتساوى متدينهم والمنحل من كل دين منهم أو الخاصة والعامة بالتظاهر فى مراعاة الشعائر الدينية ولا تختل هذه القاعدة قليلا إلا فى المدن والحواضر ، ولا أثر

للتعليم الدينى فى المدارس الاميرية وهو على أشده فى مدارس الرهبنات وغيرها من المدارس الخاصة على ان نزعة التعصب التى عرفت بها فرنسا منذ صبأت عن الوثنية لتنتحل النصرانية فى القرن الثالث للمسيح مابرحت لها فى نفوس أبنائها حتى فى هذا القرن العشرين آثار راسخة وان عبثت حكومتهم بقانون الحرية الشخصية غير مامرة ودمرت بيوت الرهبان والنسك وجردت الكنائس والبيع والمدارس الاكليركية من كل ما يدخل فى حوزتها .

يحتفل الفرنسيس يوم ١٤ تموز بعيد الجمهورية احتفالا يقدسونه ويمجدونه وفى ذاك اليوم تشهد فى كل أرض فيها بضعة منهم أو رفع لهم فيها علم نموذجا من وطنيتهم وكيف يرى جمهورهم بالجمهورية حياته ولكن احتفال هذه الأمة باعيادها الدينية لا يقل عن احتفالها ذاك اليوم . وأعيادها كثيرة هى صورة من صورتها فى القرون الوسطى بل فى القرون الحديثة قبل أن تنادى فرنسا بتأليه العقل وتعلن الحكومة انها نزعها ربقة الدين .

نعم ان زائر كنائس باريز تتجلى له فلسفة القوم النفسية . ومما زرته من كنائس باريز كنيسة نوتردام والمادلين وعدد الكنائس الباريزية سبعون كنيسة أسقفية للكاثوليك ماعدا بيع الروم والبرتستانت ومعابد اليهود الأربعة وما عدا المصليات والبيع الصغرى ونوتردام هى من أعظم الكنائس ؛ وهى أجمل انموذجات البنايات القديمة تجيء بمكانتها بعد كنيسة مدن شارتر وريمس وأمين وبورج وتفوقها بآثارها التاريخية وكفى بانها أنشئت فى أوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشر ولم تزل تتعاورها الأيدى بالنقش والتزيين والترخيم والتعريق حتى يوم الناس هذا وفيها من بدائع ما صنعت الأيدى وتفننت فيه العقول مايدهش ويبهر .

زرتها قبيل صلاة المساء مع صديقى عثمان غالب باشا . ووقفنا نستمع لوعظ الواعظ على جمهور المصلين وأكثرهم من النساء ؛ يعظهن واصفاً لهن غرور الحياة الدنيا بالقياس مع الآخرة ومنهن من تغرورق عيناها بالدموع أو تجهش بالبكاء

خصوصاً عند ما يذم بلسان بليغ غرور أهل باريز . فهو داخل الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو الناس الى الزهادة ويحبب اليهم العبادة ووراء سور الكنيسة تجرى كل ساعة شؤون وأعمال دنيوية هائلة كلها ما كانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواعظ وآثروا الباقية على الفانية .

ان ما رأيته من انتظام البيع البارزية ، وتفنن البانين فى ابداعها وتفانيهم في توفير قسطها من الجمال دلنى بلسان حاله على ان مدنية القرون الوسطى قامت باسم الدين ولذلك جاءت المعابد أجمل مصانع تلك القرون ، وكان أكثرها الى الزوال لو لم تتدارك فى القرون الحديثة بيلسم من انارة العقول بالفلسفة والعلم المادي أما مدنية هذا العصر فلا أدل عليها الا بما ينفع الناس فى دنياهم كالسكك الحديدية والبوارج والبواخر والمرافىء والمعامل والشكن والمستشفيات والمدارس والكليات ودور البائسين والحقول الانموذجية والمتاحف وحير الوحوش والمكاتب ودور التمثيل

فهل يأتي على البشر عصر ياترى يكون فيه ما ينم عن مدنيتهم غير ما ذكرنا قديماً فى الدين واليوم فى الدنياويخف تكالبهم على مظاهر هذا العالم وينسون بتاتاً تعظيم ما خلفته عصور التدين من المصانع والعبادات ، التي انتقلت الى أكثرهم بالعادة أويمزجون القديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن فى تصور ماضيهم وحاضرهم ، هذه أسئلة ليس غير الزمان كفيلا بالاجابة عنها والله أعلم بمصير عباده.

قصور باريز وسراياتها

٢٣

من القصور العامة وأملاك الحكومة فى هذه الحاضرة : مصرف فرنسا قصر الاليزه حيث يقيم رئيس الجمهورية وقصر الانفاليد والتويلرى وقصر

العدلية وقصر ساحة المريخ وقصر التروكاديرو والقصر الملكى ، وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانتيون مدفن العظماء وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البلدى .

ونتكلم هنا على القصور الثلاثة الاخيرة فقد كتبت لى زيارة مجلس نواب الامة الفرنسوية ومجلس أعيانها خلال انعقاد المجلسين ، فلم أسر بمشهد أجمل ولا أفخم وقلما تمثل لى معنى النيابة عن الأمة الا ذاك اليوم ؛ ومجلسا النواب والاعيان هما مفخر من مفاخر هذه الامة ونموذج تقدمها ودليل أخلاقها السياسية ففى مجلس الامة الحركة والمضاء وفى مجلس الشيوخ التؤدة والروية فالاول يقيم فى قصر البوربون والثانى فى قصر اللوكسمبورغ وكلا القصرين من أجمل قصور الحكومة فى هذه العاصمة العظيمة . وعدد النواب خمسمائة تغلب عليهم همة الشباب وعدد الاعيان ثلثمائة تقرأ فى وجوههم المغضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة

وما أنس لا أنس يوم كانت المناقشة فى مجلس النواب فى وضع ضريبة على العملة وقد تدفقت أقوال بلابل المجلس على المنبر وما فيهم الا الاجتماعى والاقتصادى والاخلاقى والسياسى والادارى

وان ماتلى فى تلك الجلسة فقط من الخطب وجرى الحوار فيه بين الاعضاء لو جمع فى كتاب برأسه لجاء منه أحسن كتاب اجتماعى اقتصادى عن فرنسا ومن أراد أن يعرف ماهو البيان الحقيقى والعلم الذى تشربته أجزاء النفس فليزر مجلس النواب الفرنسوى فى فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سر الشورى .

أما المجلس البلدى فهو معيار العمران وبيده أسعاد باريز وأشقاؤها يزار كما تزار أكثر المعاهد الكبرى فى باريز بطلب من الزائر يقدمه الى أمين سر المعهد فيرسل هذا اليه ورقة يعين له فيها الميعاد الذى يأتى فيه .

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسم فى نظره الذوق الفرنسوى وعظمة هذه الامة لكثرة مايقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف وكلها مزدانة

بنقوش وصور ورسوم من أجمل ماخطته أنامل النقاشين والمصورين وتدل كلها على الذوق والمعانى اللطيفة والاشارات الحسنة .

فمن رسم يمثل الغناء والعشرة وآخر يمثل الزهور والثمار وغيره يصور أغانى شواطىء السين وآخر يمثل التجارة والصناعة فالاشهر الجمهورية ومناظر كثيرة لاجمل قصور باريز ومعاهدها وأصقاعها وهناك صور رسمت على الحيطان والسقوف فى القاعات التى تستقبل بها مدينة باريز فى العادة من يزورها من ملوك الارض وأمرائها ومنها ما يمثل أفراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم وغيرها يريك الطبيعة الملهمة المربية فالرياضات الطبيعية فالرياضات العقلية وآخر يمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم وفيها مايمثل المساء فى باريز والخيال والولادة فيها والجهاد والنهضة والشعر والفلسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة وذكرى عيد وطنى وعيد الخلاء فى ضاحية باريز . وبعضها يمثل أبولون وعرائس الشعر والتصوير والأدب والموسيقي والنقش والهندسة ومنها رمز القصائد الغنائية والانغام والكدر والتأمل ومن التماثيل ما يرسم التمثيل بالايماء والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والالعاب ومنها مايصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيدو تعاطي الشراب ومنها الموسيقى على اختلاف العصور والطيوب والعطور ومدينة باريز تدعو العالم الى أفراحها والزهور والرقص في كل عصر من أعصار التاريخ وصور تمثل أهم أقاليم فرنسا مثل الفلاندر وبيكارديا والجزائر وليون ولانكدوك وغاسكونيا والبروفانس وكوسين وبرى وشامبانيا وبرتانيا وبورغونيا ووافرن واللورين ونورماندیا وكونتية نيس . ومن صورها مايمثل الصيف ومنها الشتاء ومنها مايمثل آسيا وأوربا وأميركا وافريقية ومنها ما يصور تأليه العلوم وهو رمز لعلم الاحداث الجوية والكهربائية وتعليم العلم وتمجيد العلم وأربع أيقونات تمثل علم الطبيعة والنبات فى شخص أراغو وامبر وكوفيه ولافوازيه . ومنها رمز الى ساعات الليل والنهار ومشاهد الافراح والاعياد

وفى ردهة الاداب صور ترسم لك عرائس الشعر والالهام والتفكر وتاريخ الكتابة وأعظم الاعمال الادبية وأربع أيقونات لاربعة أدباء وهم موليير وديكارت وفيكتور هوغو وميشله ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ وهناك رمز بديع يشير الى أن التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تحرر الافكار من قيودها وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان نائمان وهما يمثلان الادب

وفى سقف ردهة الفنون صور كثيرة منها ما يمثل تغلب الفنون وخيال الكمال والحقيقة والرقص والفنون والنقش والموسيقى والهندسة والرسم وغير ذلك من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتماثيل التى تشير كل واحدة منها الى معنى من المعانى وفائدة من الفوائد وكلها من حفر أو رسم أو نقش أعظم رجال هذا الشأن فى العالم ولا سيما من أهل فرنسا جعلت هناك نموذجاً مما خصوا به من المزايا وسعة العلم وبعد النظر وحسن الذوق

وعلى الجملة فان الشرقى الذى يزور قصر المجلس البلدي فى باريز تصغر بلاده فى عينه ويكاد ييأس من ارتقائها ونهضة أبنائها

أما أعمال هذا المجلس الذى تبلغ ميزانيته مئات الملايين فلا أقول فيها الا انها عظيمة جدا ويكفى أن المجلس طلب من الحكومة هذه الايام ان تسمح له بعقد قرض قدره تسعمائة مايون فرنك ليطهر بعض أحياء باريز فاذنت لانه ثبت أن بعض الامراض تكثر فى حى دون آخر فالواجب العناية بها حتى لا تسطو يد الفناء عليها أما أنا فلم أر على كثرة تجوالى راكباً وماشياً فى شوارع باريز وأحيائها موضعاً تحدثك النفس انه محتاج للاصلاح بعد لكثرة ما ترى كل شيء فى مكانه وأن مدينة باريز تنفق على أضواء الكهرباء والغاز الذى تنير به شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة مايبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول السنة فتأمل

*

تاريخ الحضارة الفرنسوية

٢٤

بسطنا القول فى الفصول السالفة فى كل مايهم عن معرفة باريز وهانحن أولاء نتوخى فى هذا الفصل أن نلم بطرف من عمران فرنسا بأسرها وأثرها فى الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد وما هذه النبذة الا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسوى بتصرف كثير وزيادات

فرنسا مملكة عظمى فى أوربا الغربية يحدها المحيط الاطلانطيق وبحر الشمال أو المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق جبال الالب والجورا والفوج ويفصل بينها وبين البلجيك والمانيا خط اتفق عليه من الشمال الشرقى والشمال ومجموع مساحتها ٥٣٦٠٤٠٨ كيلو مترات مربعة وسكانها نحو أربعين مليونا أى نحو أربعة أضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية ١١٥٠٠٠ كيلو متر مربع والفرنسيس كجميع سكان أوربا اخلاط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذو قوة عقلية حقيقية واختلفت صناعاتهم وميولهم لمذاهب المعاش وأن فرنسا لغنية بزراعتها أكثر من غناها بمناجمها ومع هذا فهى تعد من أغنى البلاد وزراعتها أرقى زراعة فى الارض ويندر في أرضها الذهب والفضة والزئبق والنحاس والزنك والرصاص والقصدير والزرنيخ والنيكل والانتيموان والكبريت ولكن عندها مايلزمها من الحديد والفحم الحجري .

وانك لتدهش اذا عرفت أن جزئين من ثلاثة عشر جزءاً من أرضها تزرع وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعوسج ولها فى تربية المواشى والحيوانات يد طولى وتجد المعامل الكبرى قائمة فى الضواحى الغنية بالفحم الحجرى والحديد والمحاصيل الزراعية القابلة للتحول وقد امتاز كل أقليم

بصناعة وباريز هى ملكة المدن الصناعية فى فرنسا لأنها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة الفحم الحجرى وكثرة السكان وفيها صناعات اشتهرت شهرة الشمس والقمر كما امتاز اقليم الآردن بالجوخ واعمال الحديد والالواح الحجرية وامتاز اقليم شامبانيا ونورمانديا بالجوخ واعمال الحياكة والنسيج واقليم فرانش كونتيه بعمل الساعات وليون وسان اتين بالمنسوجات الحريرية وامتازت المقاطعات المجاورة لها بتربية الحرير والغزل وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصينى والكاشانى وفى ضواحى انكولم على الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق ولمرسيليا الميزة بصابونها ولاقليم البروفانس بزهوره العطرة التى تستعمل فى الطيب وعلى الجملة فان صناعات فرنسا من انفس ماتصنع صنع الايدى فى العالم ولاسيا فى منسوجاتها الحريرية وصناعة الجوهرية والبلور والاوانى الصينية الدقيقة وكلها مما جعل فرنسا فى مقدمة ممالك أوربا .

تقسم فرنسا من حيث امورها الادارية الى ٨٧ ايالة وهذه تقسم الى ٣٦٢ ولاية و ٢٨٩٩ كورة و ٣٦١١٧ مديرية ولها مجلس نواب ومجلس شيوخ ينتخب أعضاء الاول كل اربع سنين وأعضاء الثانى كل تسع وهذان المجلسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين والقوة الاجرائية بيد الوزارة وهى المسؤلة أمام القوة التشريعية وتقسم هذه البلاد من حيث المعارف والاديان والبحرية والبرية الى مناطق كثيرة تخالف ترتيب الايالات وكلها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد

ومن نظر الى تاريخ فرنسا السياسى والاجتماعى يتجلى له انها هى بلاد غاليا المستقلة وهى عبارة عن ولاية رومانية على عهد مملكة الرومان افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨ — ٥١ ق . م ولم تكن اذ ذاك الا خليطاً من العناصر

والقبائل لا وحدة بينها ولا جامعة تجمعها فني الشمال قبائل جرمانية وفى الوسط سلتية وفى الجنوب الغربى ايبرية وفى الجنوب الشرقى ليكورية وفى الولايات الرومانية مدن يونانية ومستعمرات ايطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة ولم تكن لهم وحدة سياسية ولا رئيس اعلى بل كانوا عبارة عن نحو مئة من الشعوب لهم اوضاع مختلفة ويحكم على معظمهم مجلس شيوخ ومن هذه الشعوب من يعيش على حال انفراد ومنها متحدة بينها على التساوى ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه احق بها

وكانت المدن قليلة جداً فى بلاد غاليا وغاية ماكان فيها ملاجىء لاوقات الغارات وهى مراكز الاسواق والزيارات فبلاد غاليا كانت بلاداً زراعية وسكانها ثلاث طبقات الاشراف والمحاربون ومنهم ينتخب اعضاء مجالس الشيوخ والملوك والفرسان وعامة الشعب كانوا فدادين تقرب حالهم من العبودية ولم يكن يملك الاراضى احد ثم أصبحت ملكا للاسرات الشريفة أما الحراثون فهم من توابع الارض ويجىء بعدهم العبيد ويعدل من حال الاشراف طبقة الدرويد وهم الكهنة والاطباء والمنجمون والقضاة ولاسيما فى أواسط البلاد

ولما استقام أمر الرومانيين اقاموا زعيما عاماً على البلاد ممتعاً بالسلطة المطلقة متصرفاً بالقوة الحربية والمدنية والدينية ونعنى به الامبراطور وهو زعيم الحرب والمشرع المطلق والقانون الحى والرئيس الروحى والرب ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة الرومانية بما أتاها من جيوش الرومان وتحرفت لغة الفاتحين فاصبحت اللغـة اللاتينية الحقاية وغدت كل أمة غالية مقاطعـة برأسها برأسها زعيم واخذت التجارة والصناعة ترتقى ولولا انه كان من حق المالك أن يبيع الارض بفلاحيها وهو الحاكم المتحكم فى حياتهم ومماتهم لركن الفلاحون الى الفرار

ولما أخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعدها الى الارياف الابعد زمن وكان من فوائد انتشارها انها اعلنت بان الاحرار والعبيد

سواء أمام الله . هذه هي الفائدة الاخلاقية أما الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين بنظامهم الذى اخذوه عن نظام الحكومة ولم تمض الازمن قليل حتى اصبحت الكنيسة حكومة وسط حكومة تجبي اموالا من الناس ويغدق المؤمنون واحياناً الامبراطرة عليها من المال ماتكونت منه ثروة طائلة وتعفى املاكهم من الخراج كما يعفى خدمتها من المحاكمة مع الشعب بل كثيراً مايحاكم الشعب نفسه فى الكنيسة ولطالما كان الاسقف فى ابرشيته خصما للحاكم السياسى ورقيباً عتيداً عليه .

ولما سقطت المملكة الرومانية تجزأت غاليا الى عدة ممالك بربرية كالفرنك والبورغوند والفيزغوت وعادت كلمة البلاد الى الانتشار بعد الاجتماع ولم يكن ملوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كسائر الملوك البرابرة ولا يقيمون للحكومة وزناً ولئن كانوا يلبسون الثياب الارجوانية ويضعون التيجان على رؤوسهم كامبراطور الرومان الا انهم لم يكن لهم جيش دائم وليست لهم طريقة منظمة فى الجباية كما أن اللغات فى البلاد تعددت وكلها لهجات من أصل روماني تمازجها لهجات بربرية وعادت سلطة الاشراف وسلطة رجال الدين تقوى حتى لم يعد يعترف السواد الاعظم من الناس بالزعامة عليه الالهم ومنهم يطلبون الانصاف ولهم يدفعون الجزية والخراج وخربت المدن وهاجر رؤساء الجيش والاديار الى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الامن فى البلاد وكاد الفلاح يكون عبداً لسيده كما فى سابق الاعصار وفى اليمين الذى أقسم سنة ٨٤٢ فى ستراسبورغ ظهرت لاول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين ومنها نشأت اللغة الافرنسية وفى معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعترف بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريز

ومازالت الملوك تتوالى عليها وتختلف فى المبادىء والاطوار حتى قبيل نهاية القرن الثامن وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسوى وزاد عدد المالكين من ابناء القرى زيادة مهمة وارتقت الصناعة والتجارة على ما كان يقف فى سبيلها من القيود الكثيرة والانظمة المنوعة وارتقت الادبيات وتحررت من قيودها

القديمة واخذت الفلسفة تبحث في التسامح الديني والحرية السياسية. واصلاح القوانين الجنائية وتمايز الطبقات الاجتماعية وعارض مونتسكيو نظرية ان الملك ملهم من الله وحقه الهيّ على سكان الارض بنظرية الحكم الملكي النيابي ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعي

نبهت مجالس النواب في مكافحتها سلطة الملوك (سنة ١٧٨٨) افكار وكلاء الشعب فبدأت الامة ترفع صوتها وكان الملوك يخفتونه ولا يرون لها حقا في مطالبتها بحق واتفق ان وقعت البلاد في عسر مالي فاجتمع وكلاء الامة ينظرون في حل مااصابهم فنشأت بعد حين الثورة الاولى (١٧٨٩) واعلن لويز الرابع ان الامة كلها للملك ولكن جاء في قانون حقوق الانسان والوطني ان مبدأ كل سلطة ينبعث من الامة بجوهره فما من جماعة ولا من شخص يستطيع ان يحكم حكما لا يكون صادراً عنها بالفعل وهكذا مات حق الملوك الالهي المزعوم واتت الثورة على اعشار رجال الدين والاقطاعات والسخرات والاحكام التي يحكمها ارباب الاقطاع وساوت بين الناس في الواجبات والضرائب وقضت على قليل الكفاءة من أرباب الغنى أن توسد اليه الوظائف الكنائسية والحربية بدون استحقاق وحمت الحرية الشخصية وحرية الضمير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن وتساوى كل وطني من أكبر كبير الى أصغر صغير في الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كل بحسب طاقته وثروته

هذا موجز الاساس الذي قام عليه بناء النظام الجمهوري ثم عراه قليل من التعديل بتقلب انواع الحكومات وقيام بعض الادعياء بالملك الى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع المانيا وعندها استقرت الحال على ماتراها الى اليوم

أما نشأة الآداب والعلوم فلكل منها تاريخ ويقال على الجملة أن اللغة الفرنسوية هي بنت اللغة اللاتينية تكونت على صورة غريبة الى أن وصلت في عشرين قرناً الى حالتها الحاضرة وكانت ادبياتهم دينية لاول أمرها وبعضها شعري ونثري واكثرها خرافي ولم تخلص اللغة من القيود العائقة الا في القرن

السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر . وتاريخ العلم ونشؤه فيها طويل كتاريخ الادب ويقال على الجملة فيما [illegible] اكانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد فى بلاد غاليا واشتهرت مدرستها كما اشتهرت كليات آثيناوكلية الاسكندريةوكان بيتياس احد ابنائها الذى ولد نحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح لا يقل عن أعاظم الفلكيين فى القديم وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الرومانى فى البلاد المهمة والتعليم فيها عبارة عن مبادىء عملية من الحساب والمساحة والبناء ثم جاء دور الانحطاط التام فأصيب الغرب بغارات البربر ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية الا بعد ثمانية قرون بفضل العرب وبينما كان التمدن الاسلامى بالغاً أوجه كانت العلوم منحطة كل الانحطاط فى أرض فرنسا . ولم ينتشر الطب والصيدلة فى فرنسا الا بمساعى اطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى فى القرن الحادى عشر فاعتصموا باسبانيا أولا ثم باقليم لانكدوك حيث أسسوا عدة مدارس ومن جملتها مدرسة مونبليه وهذا كان مبدأ انتشار العلم فى هذه الارض . فعن العرب أخذ الفرنسيس فيما مضى حضارتهم ونحن العرب اليوم نأخذ عنها وندهش بحضارتهم فسبحان المعز المذل القابض الباسط

الصحافة الباريزية

٢٥

نشأت الصحافة هنا فى مبدإ امرها بنشر اخبار الملوك والوزارات والموظفين والحروب والدول ثم ارتقت بارتقاء المدارك الى انصارت تلم بمعظم الموضوعات التى تهم القراء وتعلمهم . وعلى عهد الثورة اشتد ولوع الناس بالاطلاع على الحديث والآراء السياسية والى هذا العهد ظل الصحافى وراء منضدته يكتب ليفيد مثل الاستاذ على منبره والواعظ فى معبده لا يقصد الا تثقيف عقل وتربية نفس

ولما تكالبت النفوس على المال واتسع للصحافة المجال بكثرة المواصلات

والبرقيات وأخذت التجارة ترقى دخلت الصحافة فى طور جديد فبعد أن كانت هى خادمة للتجارة أصبحت هى بنفسها تجارة لا يقصد منها إلا الربح وأول من أنزل أجور اشترا كاتها أميل جيراردين مؤسس جريدة لابريس سنة ١٨٣٦ من ٨٠ أو ٦٦ فرنكا قيمة الاشتراك بالجرائد الكبرى إلى ٤٠ فرنكا وهى قيمة زهيدة لا تعادل النفقات انزلها ليكثر قراؤها واذا كثر قراء جريدة أقبل الناس عليها باعلاناتهم ومنشوراتهم فاستطاعت بعض الصحف أن تعيش مستقلة عن معونة الافراد والحكومة والاحزاب

ولكن هذا الاستقلال وان لم يكتب لها كلها إلا أن سعيها وراء الاعلانات وخدمة الشركات والبيوت المالية قيدها أكثر من قبل بل أخرجها عن المقصد منها حتى صارت العشرون الجريدة الكبرى الباريزية اليوم عبارة عن سمسار لا يهمه إلا أن يقبض العمالة من البائع والشارى وغدت الجريدة من مقالاتها الافتتاحية إلى أنبائها البرقية فرفرف قصصها وتقاريظ الكتب والحوادث الداخلية والخارجية والانباء المنوعة والمقالات الادبية والاقتصادية والسياسية والاعلانات والمنشورات وغير ذلك مما تخوض الصحف عبابه مثل أخبار دور التمثيل والرياضات البدنية والسباق لا ينشر منها اسم ولا سطر إلا قبل أن يذهب صاحبه الذى يهمه وينقد أمين صندوق الجريدة مبلغاً معلوما عنه وعند ذلك ينشر له من الافكار والمحامد مايشاء وتشاء الاهواء

فان كتبياً أو طابعا لا يقدر أن ينشر كتاباً طبعه إلا إذا انتقده كاتب أو عالم كبير وهذا اذا فرض انه رضى بان يخدمه بالمجان يسأله مدير الجريدة عن ربح الادارة من ذلك . فمقالة فى تقريظ كتاب قد تكلف الطابع الفى فرنك يأخذ نصفها كاتبها الموقعة باسمه والنصف الآخر مدير الجريدة ومثل ذلك يتناولون من المصورين(١) والموسيقيين والممثلين والراقصات والعقيلات والآنسات

---

(١) اعتمدنا فى معظم هذه المقالة على ماجاء فى كتاب « كيف تقرأ الجرائد » الذى صدر حديثاً فى باريز لمؤلفه جورج فونسكريف George Fonsegrive : Comment lire les journaux

والاعاظم والاصاغر لاتدون اسماؤهم بالطبع قبل أن يرشوا ادارة الجريدة بمال ترتضيه وكل ما تراه من أخبار الدعوات والرياضات والمآدب ووصف الازياء مع بائعات الزهور والجوهريين والخياطات والخياطين يدفعه أرباب المأدبة وتجار هذه الاصناف بل ان أخبار الاعراس والافراح وأخبار المناعى والاموات لاتكتب إلا لمن تؤخذ منه أجرتها والاعمال الادبية مهما بلغ من مكانتها لاتذكر بكلمة قبل أن يدفع صاحبها جعالة لاماء ذكر اسمه

وهناك الماليون وأرباب التجارة يريدون أن يعبثوا بحوالة الاسواق ويعرفون أن السياسة تؤثر كثيراً فى أعمالهم فيعمدون الى ابتياع الجرائد لتكتب فى السياسة على هواهم فيرفعون الاسعار يوم يريدون الرفع ويخفضونها كذلك بما لهم بواسطة هذه الجريدة من التأثير فى الافكار العامة ومنهم من يبتاع من الجرائد كلامها كما يبتاع منها سكوتها فدار اللعب فى أمارة مونا كو تدفع مشاهرات إلى جميع الصحف الكبرى لتسكت عما يحدث فيها من ضروب الانتحار والخراب والفجائع التى تنشأ من المقامرة كما تدفع مبالغ جسيمة أيضاً فى أوقات معينة لتأخذ الصحف فى حمد مرافق مونتكارلو ونزلها ودور تمثيلها وسواحلها وصفاء العيش فيها

وان أعظم علماء الاقتصاد لا تنشر له مقالة فى موضوع مالي قبل أن يوافق عليها المصرف الذى ابتاع من الجريدة روحها المالية ليصرفها كما يشاء وبعد حادثة بناما التى ظهرت فيها رشاوى الصحف الافرنسية لم يعد يقدر الانسان أن يقرأ سطراً فى شأن مالى فى جرائدهم إلا ويشك فيه

وهكذا أصبحت الصحافة البارزية مقيدة فى صورة حرة مطلقة ففى وسعها أن تضرب فى كل ما تريد وتنزع كل أساس وتهاجم كل موضوع وتغتاب كل امرىء وتنم عن كل عمل وتفتات على كل فرد ولا يحظر عليها الا شيء واحد وهو أن تكشف الغطاء عن الاسرار المالية فاذا فعلت يحكم على الكاتب والناشر والجريدة باشد عقوبات العطل والضرر وكذلك إذا دلت على الطرق الاحتيالية التى يعيش بها المحل المالى منذ سنين

وعلى ذلك فالجرائدهنا يجب أن لا تقرأ إلا بحذر شديد حتى مقالات الكيمياء أو التاريخ فانها لا تنشرها الا ولها منها مآرب تظهر بعد أعمدة من نفس العدد أو فى عدد تال ، وخف كل الخوف من الصحف التى تخدم الاحزاب جهاراً فان هذه تقلب الحقائق الناصعة وتجسم الحوادث أو تضعفها بحسب هواها وتستعمل من السفسطة مايضحك ويبكى

فكأن الصحافة الباريزية جعلت لقلب الحقائق لا تقدر أن تسقط فيها على حقيقة خالصة من الشوائب فهى تزيد الى ضعف البشر الطبيعى وغلطهم وخطأهم أموراً تأتيها بذاتها بالقصد لتحريف الحق وتشويهه فمنها مايخضع للحكومة فى كل مايكتب ومنها مايخضع للاحزاب وكلهم خاضعون لزبنهم وكثير منهم يقولون كل مايريدون على شرط أن يحسن المرء دفع المطلوب منه . فقد قيل أن الرياء تكريم الرذيلة للفضيلة والصحف الفرنسوية تكرم الحقيقة من هذا النوع أى أنها هى الرذيلة .

هذا ما اقتبسته من فكر الكاتب الفرنسوى فى هذا الباب وصاحب الدار أدرى بالذى فيه وقد أجمع العقلاء الذين لقيتهم من أهل العلم والمطبوعات وغيرهم على أن الصحافة الفرنسوية كلها ترتشى وتلفق فى أحاديثها وتكذب فى رواياتها ماعدا جريدة « الامانيته » أى الانسانية وهى لجوريس أحد زعماء الاشتراكيين تعيش من وارداتها الشرعية ولا تسف لتناول رشوة من أحد وان الصحافة الانكليزية أشرف غاية وأنبل قصداً وأكثر مادة وأوسع مصادر أما أنا فعللت هذا التصريح من أصدقائى الفرنسويين بأن انكلترا هى أرقى الامم بأخلاقها والاخلاق هى معيار الامم والجرائد مرآتها

ومن الصحف الباريزية مايصدر صباحاً وأكثرها جرائد لا تهتم بالمسائل السياسية بل بالامور المالية والحركة الادبية كدور التمثيل والخطب وغيرها أما جرائد المساء فأكثرها يهتم بالسياسة فالطان والديبا من الجرائد المسائية والجورنال والماتين والبتى باريزين والبتي جورنال من الجرائد الصباحية والجرائد طبقتان قسم لعامة القراء وهى التى ينادى عليها المنادون فى الشوارع

بأعلى أصواتهم وتباع فى كل مكان فيقرأها البواب والحوذي والمساح والكساح وسائق الاتوموبيل والشرطي والمرتزق وبعض التجار وذلك كأكثر الجرائد الصباحية وقسم للطبقة العالية وأبحاثها لهم بالطبع مثل الطان والديبا والغولوا والفيغارو وهذه لاينادى عليها وتباع بثمن أغلى فالطان يبتاع عددها بثلاثة فلوس أو خمسة عشر سانتيما فى حين تباع تلك الجرائد العامية بفلس واحد وهى أكبر حجماً وأوسع مادة من هذه ولكن شتان بين مادة ومادة وحجم وحجم .

وجريدة الطان هى الجريدة الوحيدة التى تعني كثيراً بأخبار هذا الشرق الادنى خاصة والسياسة الشرقية عامة وهى جريدة وزارية تقدس كل وزارة تأتي وهذه بالطبع تعطيها أخباراً وربما امدتها بمعونة مالية وهى لاتذيل المقالات السياسية والاخبارية باسماء كتابها على عادة معظم الجرائد السياسية وبذلك قد يقع لها أن تؤيد اليوم فى مقالتها الاولى فكراً مخصوصاً ثم يجىء كاتب آخر من الغد فى نفس ذاك المكان من الجريدة فيضعف ذاك الرأى بعينه وينتقده واعرف الجرائد بالشرق على التحقيق هى هذه وربما كانت جريدة الايكو دى باري من جرائد الصباح أكثر منها مادة برقية اخبارية بدون تعليق على الحوادث ومقالات الطان عن السياسة الشرقية تتناقل لأنها أقرب الى الثقة والتعقل من غيرها ومع هذا تؤخذ بكل حذر شأننا مع عامة الصحف الافرنجية التى تقول الحق ولكن إذا صادف هوى لها وهيهات أن تقوله بدون عوض . ولقد كنت أظن جريدة الديبا وحدها ترتشى من السلطان عبد الحميد المخلوع ولكن علمت هنا أن الطان أيضا على مافيها من الغمز واللمز بالدولة كانت لاتستنكف من قبض الخمسة آلاف ليرة من أعوان ذاك السلطان لتكتب على هواه يوماً لعلم المخلوع بمكانة أقوالها فى الاندية السياسية

وأنواع الجرائد هنا كثيرة ومنها اليومى الذى لايكتب إلا فى موضوع واحد مثل جريدة « كوميديا » وهى تبحث فى دور التمثيل والقصص التمثيلية والفاجعات وغيرها ومنها جرائد للسباق مثل جريدة « الاوتو » وهى لنشر

أخبار سباق الحوافل « الاتوموبيل » وغيرها من أنواع السباق ومن جرائدهم ماهو خاص بتأجير الأملاك والعقارات ومنها الخاص بطلاب الزواج وطالباته ومنها للازياء وأخرى للعطور والطيوب ومنها للاخبار الخلاعية ولكنها مقصورة على طبقة خاصة تطبع سراً وتوزع كذلك واذا رآها الشرطة صادروها وأنزلوا العقوبة الشديدة بكاتبها وبائعها ومشتريها

أما تنظيم ادارات الجرائد الكبرى فهو الغاية ولا سيما الامهات منها مثل « الماتين » وهى فى أعظم جادة وبنايتها أجمل بناية وآلاتها الطابعة أحسن الآلات فيها اثنتا عشرة تطبع الواحدة مئة ألف نسخة فى الساعة زرتها مع زهاء سبعين رجلا وامرأة رأيتهم سبقونى الى زيارتها فما رأيت نظاماً أتم ولا استعداداً استوفى من الكمال أوفى القسم ومن أحسن ما قرأته مما كتب فوق غرف المحررين « خلق المحرر ليكتب فلا تشغله فيما لا يعنيه » وزرت أيضاً إدارة البتى باريزين وهى دونها فى الاستعداد وإن لم تكن دونها فى الانتشار والنفاد

الطباعة الباريزية

٢٦

ألمعنا مرات فى الفصول السالفة إلى تفنن الباريزيين فى الامور الذوقية والطباعة من جملة فنون الذوق وان كانت تتوقف على علم وفضل وتجربة ؛ وأجور الطبع هنا غالية لغلاء الاسعار وأجور الدور والمنازل فالعامل الجيد لا يرزق أقل من نصف ليرة وأقل عامل لا يرزق أقل من أربعة فرنكات فى يومه ولذلك ترى بعض أرباب المجلات وغيرهم من المؤلفين والطابعين يطبعون مجلاتهم وكتبهم فى مطابع الولايات لرخص أجورها وجودة طبعها الذى لا يختلف عن المطابع الباريزية فى شىء

ومن جملة المطابع العظمى التى زرتها مطبعة الامة أى مطبعة الحكومة التى أسسها لويز الثالث عشر سنة ١٦٤٠ ثم نقلت الى قصر الكردينال روهان من أجمل القصور الباريزية القديمة المعروف ببيت اساقفة ستراسبورغ وقد أنشئت لها بناية هائلة فى شارع الكنفاسيون لضيق هذا المكان على سعته البالغ سطحها عشرة آلاف متر مربع

تدخل من الباب فترى فى فناء الدار تمثال غوتنبرغ مخترع الطباعة والمتفضل على الانسانية معمولا من البرونز فلا تتمالك من الدعاء له وذكر بيض اياديه على العالم ثم يأخذك الدليل فى الوقت الذى تعينه لك ادارة المطبعة ويطوف بك قاعات مسابك الحروف وفيها حروف فى ثمانين لغة واللغة العربية فى مقدمة لغات الشرق رأيناهم فى بعض الغرف كتبوا بيتاً من الشعر العربى ليمرن الاستاذ العملة على تعلم هذه اللغة فيحسنوا تنضيد حروفها بفهم

ثم طاف بنا الدليل قاعات التنضيد والتجليد والطبع والطى فرأينا كل شىء قد جعل فى مكانه اللائق به والعملة والعاملات يعملون فى مكان واحد كتفاً الى كتف وقد يتولى الاعمال الشاقة الرجال من دون النساء . وعدد العاملين والعاملات فى المطبعة يناهز الالف والخمسمائة وفيها ما يربو على ستين آلة طابعة على آخر طرز منها خمس آلات من المعروف بالروتاتيف وعلى مثلها تطبع جميع الجرائد الكبرى فى الغرب اليوم . وتنفق الحكومة على هذه المطبعة نحو تسعة ملايين فرنك مسانهة وفيها تطبع الجريدة الرسمية ومطبوعات الحكومة والنظارات ومناشيرها وفهارسها وأوامرها فالاستعداد فيها تام لكل ماتطلب الحكومة طبعه وليس فى وقتها متسع لطبع مطبوعات الافراد وناهيك بمطبعة حوت من الادوات مايلزمها من سبك الحروف حتى التجليد وناهيك بكثرة أشغال حكومة الجمهورية التى تقع ميزانيتها وحدها فى ثلاثة آلاف صفحة كبيرة يطلب طبعها فى وقت قصير وهذا لايتيسر الا بمطبعة متقنة جداً

ولهذه المطبعة معامل للتصوير الشمسى وطبع الصور والطبع المحفور المجوف

والحفر على الخشب والحفر على النقش والحفر النائي على النحاس والزنك والطبع الملون وطبع الحجر والتصفيح والطبع المنحس وغير ذلك من التفنن فى الطباعة .
وتسمح المطبعة باعارة الطابعين بعض الحروف الغريبة من اللغات الاجنبية ولا تطبع من الكتب الا ما كان بلغة غريبة لا يوجد من حروفها فى كل مطبعة وذلك لمحض خدمة المعارف والفنون .

هذه جملة مايقال فى مطبعة الامة ولو جمعت مطابع مصر كلها ماداناتها بالمكانة وكذلك لو جمعت مطابع الاستانة واضفت اليها مطابع الولايات العثمانية برمتها والمطبعة التى تنفق عليها الحكومة نحو أربعمائة وخمسين الف ليرة فى السنة يستحيل على حكومة كالحكومة العثمانية والمصرية ان تقوم بمثلها وهى لا تنفق على المعارف كلها نحو هذا القدر من المال أو أكثر منه بقليل فتأمل

مدرسة فرنسا

٢٧

من المعاهد التى استغرقت شطراً كبيراً من وقتى فى باريز دروس مدرسة فرنسا (كوليج دى فرانس) لسهولة التلقى فيها فى كل علم يخطر فى البال ولأن هذه المدرسة ذكرتنى بمدارس الاسلام أيام حضارتنا . وقد جعلوا العلم مباحا لكل طالب يلقنونه اياه بلا عوض

فى شارع المدارس بالقرب من كلية السوربون قام بناء عظيم أسسه فرنسيس الاول ملك فرنسا حوالى سنة ١٥٣٠ وجعل فيه درسين الأول لتعلم اللغة الرومية والثانى للعبرانية وسمى المدرسة مدرسة الملك فرأت الكلية اذ ذاك ان قد استهين بها فأوعزت الى مدرسة اللاهوت ان تتهم مدرسى مدرسة الملك بأنهما يدعوان الى الزندقة فحال الملك دون صدور الحكم عليهما وأضاف الى المدرسة

درساً فى الفصاحة اللاتينية ليخلص وجماعته من تهمة الالحاد ، وما زال عـدد الدروس يزيد على عهد كل الملوك حتى أضاف اليها هنرى الثالث درس العربيـة ونابوليون الأول درس التركية ولم يبرح بناؤها ودروسها عرضة للقلب والابدال حتى على عهد الجمهورية الثالثة

ولقد أصبحت هذه السنة الدروس التى تلقى على الناس مجاناً ٤٩ درساً يصح أن يقال فيها انها مجموع عـلوم البشر يتولى تدريسها أعظم أساتذة هـذه البلاد وعلمائها ممن اشتهروا بفن أو علم أو لغة وصرفوا فى البحث فيه شطراً مهماً من حياتهم ولم أر فى هذه المدرسة أستاذاً تقل سنه عن ستين الا بعض المعاونين ممن يتجاوزون الأربعين : وينتخبهم المجمع العامى أو المجامع العامية الخمسة ؛ وأساتذة المدرسة ويقبض الأستاذ عشرة آلاف فرنك فى السنة ولا تتجاوز مدة الدروس ستة أشهر يتلو فى خلالها درسين فى كل أسبوع فقط

أما العلوم التى تلقى على جمهور المستمعين فهى (١) عـلم الأثقال التحليلى والسماوى (٢) العلوم الرياضية (٣) عـلم الطبيعة والرياضـة (٤) الطبيعة العامة والتجربية (٥) الـكيمياء المعدنية (٦) الـكيمياء العضوية (٧) الطب (٨) عـلم الحياة العامة (٩) تاريخ الأجسام الغير العضوية الطبيعى (١٠) علم تكوين الجنين (١١) التشريح العام (١٢) علم النفس التجربي (١٣) تاريخ العلوم العام (١٤) تاريخ تشريع المقابلة (١٥) الاقتصاد السياسى (١٦) الجغرافيا والتاريخ والاحصـاء الاقتصادى (١٧) تاريخ العمل (١٨) جغرافية فرنسا التاريخية (١٩) تاريخ الاديان (٢٠) الفلسفة الاجتماعية (٢١) علم الاجتماع الاسلامى (٢٢) عـلم الجمال وتاريخ الفنون (٢٣) علم الـكتابات والعاديات الرومانيـة (٢٤) الـكتابات والعاديات اليونانية (٢٥) الـكتابات والعاديات الساميـة (٢٦) الآثار المصرية وأصول لغاتها (٢٧) الآثار الاشورية وأصول لغاتها (٢٨) الآداب العبرانية والـكلدانية والسريانية وأصول لغاتها (٢٩) الآداب العربية واللغة العربيـة (٣٠) النقود القديمة ونقود القرون الوسطى (٣١) آداب اللغات الصينية والتترية والمنشوية

ولغاتها (٣٢) آداب اللغة السنسكريتية (٣٣) آداب اللغة اليونانية (٣٤) فقه اللغة اليونانية (٣٥) تاريخ آداب اللاتينية (٣٦) التاريخ الوطني والعاديات الوطنية (٣٧) الفلسفة الحديثة (٣٨) اللغة الفرنسوية وآدابها في القرون الوسطى (٣٩) اللغة الفرنسوية الحديثة وآدابها (٤٠) أصول اللغات الجرمانية وآدابها (٤١) لغات أوربا الجنوبية وآدابها (٤٢) اللغات والآداب السلتية (٤٣) اللغة السلافية وآدابها (٤٤) علم النحو المقابل (٤٥) العادات الأميركية (٤٦) الرياضات (٤٧) تاريخ فن الموسيقى (٤٨) التاريخ العام والطريقة التاريخية (٤٩) أصول اللغات الهندية والصينية وتاريخها .

هذه العلوم التى تدرس في مدرسة فرنسا ولا يستغرق الدرس منها ساعة يتلو فى خلالها الأستاذ زبدة علمه وبحثه ولا يكثر المستمعون الا فى بعض الدروس التى رزق أساتذتها فضل بيان وطلاقة لسان وأكثر الحضور غرباء أى غير فرنسويين وفيهم كثير من الفتيات طالبات العلم ممن قصدن فرنسا من ألمانيا وانكلترا وروسيا والنمسا وايطاليا وبلغاريا ورومانيا والصرب والسويد واسبانيا وأميركا ليغترفن من مدارس باريز ويحكمن لغتها الجميلة . فكأن أهل هذه العاصمة زهدن فى حضور هذه الدروس المجانية وأزهد الناس فى الرجل أهله وجيرانه ، وان دروساً يعد من جملة أساتذتها لفاسور وبول لوروا بوليو الاقتصاديين وماسبرو وغانو الاثريين وجوليان ومونو المؤرخين وبرجسون وريبو الفيلسوفين وغيرهم من الائمة الأعلام لحرية بأن يستفيد منها كل طالب ويغترف من درر بحورها عاشق العلم

وأن هذا المعهد ليولي فرنسا شرفاً ليس وراءه غاية ويدل على تفانيها في نشر المعارف والأخذ بأيدى القائمين عليها وينادى بلسان الحال والمقال على توالى العصور والأجيال ان فرنسا اذا هرمت فى سياستها وأخلاقها فهى على الدهر فتية في جمال علمها وجدة حكمتها .

التجارة البار يزية

٢٨

لم يكتف الفرنسويون بل الغربيون بما بلغوه من أسباب الراحة والرفاهية بل تراهم يعملون ليلهم ونهارهم لئلا يسبق بلد بلداً آخر أو مملكة مملكة أخرى كأن المنافسة التي هي من أعظم عوامل الارتقاء قد تجسمت فى صدر الكبير والصغير من الافرنج فكان من آثارها ما يبهرنا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة

رأيت روح الاجتماع مستحكمة فى أعمال الاوربيين فلا يكاد يأتى زمن قليل حتى تصبح جميع مشاريعهم وأعمالهم شركات وجمعيات ليخفى عمل الفرد ويظهر عمل الجماعة ويتراجع ضعف الواحد أمام قوة المجموع فقد ظهرت لتلك الامم نتائج الاشتراك جماعة ظهوراً لاينكره الا من يكابر حسه ويغش نفسه فانشأ من كانوا الى الانفراد فى متاجرهم ينضمون بعضهم إلى بعض ومن عاشوا بالوحدة يربحون ويخسرون فلايدرى بهم أحد عدلوا عن سالف طريقتهم واقتدى المتأخر بالمتقدم أو العناصر اللاتينية والسلافية بالعناصر الانكليزية السكسونية

مثال ذلك مدينة باريز مهد الحضارة اللاتينية فانك تجد معظم مشاريعها ومتاجرها ومصانعها لشركات ومشاريع الافراد ومتاجرهم ضعيفة ضئيلة لا تكاد تحيا حتى تموت وكلها آيلة طوعاً أو كرها إلى الاندماج فى سلك الاشتراك مع الجماعة ، دخلت كثيراً من مخازن باريز فكنت أشهد على قلة المامى بفن التجارة روح الجماعة مرفرفة عليها وتعدد القوى زائدة فى نمائها وحسن الذوق وسلامة الابداع تتخلل أرجاءها وتزيد بهاءها .

باريز أعظم بلد تصرف فيه السوق المالية والتجارية والصناعية من فرنسا ورؤوس أموالها مقدمة جميع متاجرها ولا تفوقها فى ذلك إلا لندرا ، وقد

بلغ عدد ماقى باريز من البيوت المالية والمصارف وشركات الضمان فقط زهاء التى محل توشك أن تكون كلها لشركات وأعظم متاجر باريز بل فرنسا تجارة الاطعمة المحضرة والامتعة والثياب والازياء وكلها مهمة جداً لا بكثرة عددها بل بمكانتها وفخامتها وانتظام أعمالها

زرت بعض هذه المخازن من مثل لابل جاردنيير والبرنتان والبون مارشه واللوفر ولافاييت ودوفاييل وكل واحد منها يبتاع بما حوى قطراً واسعاً من أقطار الشرق ويحتاج وصفه إلى الكلام ساعات على شرط أن يكون المتكلم عارفا بالتجارة وما يتصرف أو يتوقف عليها وتتوقف عليه وكل مخزن يعد مستخدموه وموظفوه بالمئات ففى مخزن دوفايل وهو لفرش الدور والقصور ومايلزم لها من الاثاث والخرثي والرياش والاواني والسرر والصناديق والمقاعد والمتكآت والكراسى وأدوات الطبخ وكل مايتصرف تحت أنواع الزينة والتبرج والبذخ والرفاهية ما يأخذ بمجامع القلب ويعد من أغرب غرائب الغرب . ولا يقدر المرء أن يطوف هذا المخزن في أقل من ثلاث ساعات إذا أحب أن يلق نظرة واحدة على ما فيه من التحف والأمتعة الثمينة وهو قصر فخيم جداً لم أر أجمل من نقوشه البديعة وبنائه العظيم سوى متحف اللوفر ومتحف فرسال ودار المجلس البلدى الباريزى وفى مخزن دوفاييل محل للتمثيل ومحل للموسيقى ومحل لالعاب السينماتوغراف يختلف اليها الزائرون باجور معتدلة جدا والغرض منها أن يمروا ببعض مخازن ذاك المحل الكبير فيكون مرورهم بها والقاء أنظارهم عليها بمثابة اعلان عما فيها من الاعلاق النفيسة وببركة الاعلان يشترى من لم يكن تحدثه نفسه بالشراء

ومن الغريب أن هذا المكان الذى لا يشبهه فى الفخامة الا أرقى قصور الملوك والامم كما قلنا آخذ الآن فى توسعة مخازنه لانها ضاقت به على سعتها وما أدرى ماهو رأس ماله ولا مقدار أرباحه وعدد مستخدميه وغاية ما رأيت أن مصرفه أشبه بمصرف كبير بل هو في سعته وكثرة مستخدميه أشبه بمصرف

الـكريدى ليو نيه في القاهرة لا في باريز فانه هناك العجب العجاب بعينه

وقرأت في احصاء أخـير ان مخزن لافاييت أحب أن يزيد رأس ماله فقرر مساهموه أن يزيدوه اثنين وعشرين مايونًا ونصف مليون من الفرنكات ؛ فاذا كان مخزن واحد زاد رأس ماله فى جلسة نحو مليون ليرة عثمانيـة فكم يكون أصل رأس المـال .

ومما هو حرى بالنظر فى المسائل الاقتصادية ان أهل باريز على شدة كرههم للألمـان يبتاعون فى بلدهم البضائع الألمـانية لرخص أسعارها والتفنن فى ابداعها حتى كادت بضائع الألمان تأتى على بضائع فرنسا مع جودة هذه ومتانتها وأصبحت بذلك معظم البيوت التجارية لأناس أو لشركات من الالمان وغيرهم ومثل ذلك قل على ما قرأته فى احدى المجلات عن تجارة لندرا أو تجارة نيويورك فان القسم المهم منها بيد الالمان يصرفون على الانكليز والأميركان سلعهم وحكومة انكلترا وأميركا مع شـدة حرصهما على مصلحة قومهما التجارية لم تستطيعا بالتعاريف الجمركية ولا بغيرها أن تقيا سداً منيعاً دون تسرب البضائع الالمـانية اليهم . ولـكن ألمانيا أو العنصر الجرماني ومن لف لفه تحارب هـذه الحرب التجارية بسيف العلم والمعارف وسدود الدول لا تقوى على صد هجماتها المعقولة .

ذكر الاحصائيون أن مدارس ألمـانيا تخرج كل سنة أربعـين ألف طالب وبيدهم الشهادات التجارية فأين يذهب هؤلاء الرجال بعد ؟ وهـل لهم الا أن يصرفوا متاجرهم فى مشرق الشمس ومطلعها بالطرق الاقتصادية المدهشة ؛ فكم رجل تخرج من البلاد المصرية العثمانية يا ترى حتى الآن فى المعارف التجارية وكم طالب أتقن اللغة الالمانية منا حتى أصبح يكتب فيها ويترجم منها واليها كما يكتب الفرنسوية أو الانكليزية ويترجم بها ومنها .

قال لى أحد علماء الالمان أتدرى بأى شئ غلبنا الفرنسيس فى حرب السبعين قلت لا أعلم قال غلبناهم لأننا كنا عارفين بما عندهم أما هم فلم يكونوا يعرفون

ماعندنا وأنا أقول ان اقتصارنا معاشر العثمانيين والمصريين والسوريين خاصة على تعلم اللغة الفرنسوية فى الأكثر هو من الاحتكار الضار فيجب أن نعرف أو بعضنا لغة أمة كبرى تريد أن تحارب العالم حربا اقتصادية حتى لا يكون مثلنا مثل الفرنسيس مع جيرانهم الالمان قبل حرب السبعين جهلوا ما عندهم فخسروا فى مادياتهم ومعنوياتهم .

نعم نتوفر على الأخذ من أوروبا كل ما تمتاز به مملكة من ممالكها فنحول وجهتنا بعد الآن الى جرمانيا لنتعلم علومها واقتصادها ومتاجرها وبريتها ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق وعن انكلترا السياسة والعلوم والبحرية وعن ايطاليا الصنائع النفيسة ونجعل للغة الالمانية والايطالية حظاً من عنايتنا حتى لا نكون حكرة مضرة لحكومة خاصة من حكومات الغرب فنحن كما نريد فى السياسة أن نعامل الدول كلهن بوئام يجب أن نأخذ عن كل دولة راقية أحسن ماعندها حتى لا نكون من الجامدين على أمة بعينها والجامدون فى مسائل الدين كالجامدين فى مسائل الدنيا لا يخلو حالهم من ضرر على المجتمع .

الاعلان أساس التجارة

٢٩

تقدم فى الفصل السالف أن البيوت التجارية فى باريز تبيع ما تبيع ببركة الاعلان عن نفسها وهنا مجال لان أفصل ذلك الكلام المجمل فأقول : كل من زار مدينة أوربية أو أميركية من أبناء هذا الشرق الاقرب يأخذه العجب من وفرة الاعلانات وتفننهم فى نشرها والفرنسيس فى الاعلانات مقلدون لا مجتهدون قلدوا الأميركان والانكليز وهؤلاء ينفقون عليها نفقات لا تكاد تصدق فقد ذكروا أن معمل الموازين [1] فيربانك وشركاؤه الذى كان ينفق

(١) المقتبس م ٢ ص ٢١٦

على الاعــلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك مسانهة أخــذ اليوم ينفق نحو ثلاثة ملايين ونصف فرنك وقدكان خصص أحد معامل الصابون ثلاثين ألف ريال للاعلان عن مصنوعاته وهو اليوم يصرف ألف ريال فى اليوم وتخصص المعامل الكبرى التى تبيع بالمفرق فىمدينة نيويورك وحدها زهاء أربعة ملايين ريال فى السنة لنشر اعلاناتها فى الصحف وفى مدينة شيكاغو يستخدمون البريد لنقل قوائم باعلاناتهم وقد انفق أحد أصحاب المخازن لارسال طبعة واحدة من الاعلانات بطريق البريد ٦٤٠ ألف ريال وليس من محل فى أميركا الا ويصرف خمسة فى المئة من أرباحه على الاعلانات وقد أنفق أحدهم ٧٥٠ ألف ريال للاعلان عن موسى له فباع ستة ملايين موسى وكذلك فعل توما بيشام بحبوبه فصرف للاعلان عنها مليونى جنيه

فاشتهار أسم المعمل أو صاحبه من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى وترداده فى أفواه أرقى الامم وأوحشها موقوف على كثرة التفنن فى الاعلان عنه والبذل في هذا السبيل عن سعة حتى قال كارنجي أعظم أغنياء الاميركان : اذا أردت أن تبيع قبعة بريال فانك تستطيع أن تبيعها بريالين إذا وضعت اسمك عليها وذلك لانك تفهم الناس بان لأسمك بعض القيمة

وذكروا (١) أن شركة ولن سى الاميركية وهى شركة معامل أصواف مؤلفة من ٢٧ معملا رأس مالها ٦٩٠ مليون ريال وكانت مجموع أرباحها سنة ١٩٠٢ ١٨٧٫٥٠٠٫٠٠٠ على حين بلغ مجموع المنسوجات الصوفية المصنوعة فى الولايات المتحدة كلها ملياراً و٤٨٥ مليون ريال فبيدها جزء من ثمانية أجزاء من عمل الصوف ذكروا انها توصلت بفضل التفنن فى الاعلان عن نفسها إلى أن كادت تلتهم جزءاً عظيما آخر من أرباح الشركات الاخرى ان لم تكن التهمتها حتى الآن

والطرق إلى ذلك مختلفة فمن ضروب الاعلانات الاعلان فى الجرائد والمجلات على اختلاف أنواعها ووضع صفائح منحسة فى الصفحة السابعة أو الثامنة اى

(١) كتاب الاعلان الرابح المعقول لارين
J. Arren : La pulicité lucartive et raisonnée

الاخيرة واعلانات فى شبك ودس الاعلانات فى أخبار الجرائد وبين أخبار الرياضات والسباق ودور التمثيل والازياء وادماجها فى المقالات وتعليقها على حيطان الدور وفى شوارع المدن والقرى وعلى طول السكك الحديدية وفى أماكن النزهة والمناظر التى يسرح فيها النظر وفى عجلات الحوافل والتراموای والسكك الحديدية تحت الارض وفوق الارض وستور دور التمثيل والقصور وجميع الاماكن العمومية حتى المراحيض وترسم الاعلانات على القرطاس الذي يضعه الكاتب تحت يده وعلى المقطع والسكاكين وعلبة عيدان الكبريت والدواة والبارومتر وكتب التقاويم وورق النشاف وبطاقات البريد وتجعل من الورق الملون والمقوى والزجاج والخزف والخشب والمعدن وغيرها . وتبدو فى المساء بالوان مختلفة مقطعة بادية بالكهرباء وغيرها مما يطول ذكره

ومن غريب تفننهم فى الاعلانات أن مخزن أدوات نحاسية وحديدية فى ليفربول أخذ يعلن فى جرائدها بأنه يقدم مفتاحاً بلا ثمن لكل من يضيع مفتاح بابه أو خزانته فبهذه الواسطة كان يأتيه المضيع فينصح له المحل بأن يبتاع قفلا كاملا ويغير القفل القديم حتى لا يقع المفتاح فى يد لص وربما هانت عليه السرقة فبعض الناس يبتاعون وبعضهم يكتفون بأخذ مفتاح بلا ثمن ولكن النصح يفعل فى أكثرهم . واخترع أحد البدالين من بائعى المأكولات المحضرة فى لندرا طريقة للاعلان عن محله بان اغتنم فرصة حضور جوق تمثيل فابتاع مئات من الكراسى لمستخدمى محله أدخلهم على نفقته فتحدث القوم بذلك وذكرته الجرائد فحصل المقصود للمحل بالاعلان عن نفسه . ومن غريب تفننهم أن أحد مخازن القبعات فى بلتيمور فى أميركا أعلن فى الجرائد أنه يريد أن يعرف أحد النساء المحكوم عليهن بالقتل فاهتدى اليها وأعطاها مئة ريال على أن تقول قبل ضرب عنقها هذه الجملة : « كل ما أستطيع أن أقوله الآن هو أن محل المستر بلانك يعمل أحسن القبعات بريالين » ثم قطع عنقها واغتنى صاحب المعمل .

والامثلة على ذلك كثيرة ويكفى القاء النظر على أي حائط أو مجلة أو جريدة

لتعرف مبلغ تفنن الغربيين فى الاعلان والاساليب فى الكتابة التى يختارونها والصور المنوعة ومنها المضحك وغيرها الجدى وبعضها لطيف وآخر بشع ومنها السياسى والادبي والعلمى وقد جعل الانكليز السكسونيون للاعلانات قواعد حتى صارت علما من العلوم لا يبرز فيه إلا من حسن ذوقه وعرف النقش والرسم والتصوير والطباعة وكان ملماً بالاقتصاد السياسى وعلم النفس ومحيطا بعالم المالية والصناعة والتجارة والجرائد والمجلات وكان ذاهبة بالتفنن والادب والخطابة حاسباً كاتباً مقنعاً يعرف التفنن فى المسائل الحاضرة أو يحسن علم الحال

ولا تعيش معظم الجرائد والمجلات الكبرى إلا باجور اعلاناتها حتى أن أجرة صفحة واحدة مرة واحدة فى جريدة « لادى هوم جورنال » بلغت ألف جنيه ويؤخذ من احصاء صدر سنة ١٩٠٠ أن فى الولايات المتحدة ١٨٢٢٦ جريدة ومجلة بلغ مجموع مايطبع من اعدادها من كل نسخة ١١٤ر٢٩٩ر٣٣٤ ومجموع ماتطبعه فى السنة ٨ر١٦٨ر١٤٨ر٧٤٩ وبلغ مجموع ايرادها تلك السنة ٨٧٨،٩٤٨.٢٥٠ فرنكا منها ٤٧٩.٣٠٥،٦٣٥ فرنكا من اجور الاعلانات أى ٥٤.٥ فى المئة من مجموع دخلها وتطبع بعض الجرائد نسخاً خاصة بنشر الاعلانات فقط وتوزعها على مشتركيها ومن الجرائد ما يطبع غير الاعلانات وتوزع مجانا : ويصرف أحد بيوت الثياب فى فيلادلفيا نصف مليون فرنك فى السنة أجرة صفحة واحدة من احدى الجرائد الكبرى فى تلك المدينة اسمها لروكورد ويصرف مخزن آخر يريد منافسته مليون فرنك على أربع جرائد . ومن كتاب الاعلانات من يرزق ألف ليرة في السنة

ومن الاعلان الغريب أن بعض التجار ليس لهم بيوت ولا مخازن بل هم يطبعون اعلانات وينشرونها فى قوائم خاصة وعلى صفحات الصحف والكتب والرسائل فيرسل الطالبون بالبريد يطلبون منهم ما يشاؤن من بضائع ومأكولات وهم يرسلونها إليهم بالبريد أيضا وهذه الطريقة اخترعت فى الولايات المتحدة لان ثلاثة أرباع سكانها يعيشون فى القرى والمزارع بعيدين عن مراكز التجارة

وأشغالهم لا تسمح لهم بالاختلاف إلى المدن لابتياع ما يشاؤن وبهذه الواسطة يوفرون عليهم عناء التعب والمساومة ويصلهم ما يشتهون وهم فى أعمالهم وناهيك بما فى هذه الطريقة من تبادل الثقة بين التاجر والشارى وفى شيكاغو وحدها تبيع مثل هذه المحال التجارية فى السنة بما قيمته مليارات وخمسمائة مليون فرنك وأن ثلاثة محال منها لتأخذ وحدها كل يوم خمسة وعشرين ألف رسالة فى طلب ما يلزم أصحابها . وقد حسبوا أن عشرة ملايين أي ثمن أهالى الولايات المتحدة يبتاعون حاجياتهم على هذه الكيفية

وان لأحد هذه المحال التجارية فى شيكاغو زبناً يبلغون مليونى نسمة يتناول منهم فى السنة أربعة ملايين رسالة وهذه الرسائل لا تفتح واحدة واحدة بل تجعل كل ستين منها فى آلة تفتح كلها بلحظة ثم ترسل الى مئات من البنات تجعل كل قسم مع قسمه وكل طلب مع ما يضارعه وتجعل فى لوالب كهربائية لا تقل عن خمسة عشر ألف لولب وترسل فى أسرع ما يمكن الى البيوت التى تقدم للمحل طلباته وهى لا تقل عن ٧٧ الف نوع فتأتى كلها على جناح البرق بحيث يكون العمل ما أمكن مستغنياً عن الايدى الكثيرة على أن محلاً واحداً من هذه المحال التجارية التى تبيع بالمراسلة عنده من المستخدمين ٦٢٠٠ مستخدم ولم يكن صاحبه قبل ربع قرن يملك ليرة واحدة وثروته تعد اليوم بملايين الليرات والناس يطلبون الى محله والى غيره من المحال التى على شاكلته كل ما يخطر ببالهم ومنهم من يطلبون أو يطلبن الزواج بواسطته

وعلى الجملة فانك لا ترى فى ديار الغرب محلا تجارياً أو معملا أو مشتغلا بالفنون الجميلة بل ولا عالماً ولا كاتباً ولا صانعاً إلا وينفق جزءاً من ماله على الاعلانات ليربح المئة مئات وللاعلان يد طولى فى عامة الاعمال الصناعية والزراعية والعلمية ولولاه ما رأينا المخازن الكبرى والمعامل الكبرى والجرائد الكبرى فعسى أن يقتدي الشرق بأخيه الغرب فى هذا السبيل فيملن خصوصاً عن أصقاعه الجميلة ليجذب السياح اليها ويربح منهم مئات الالوف من الليرات كما فعلت سويسرا

واغتنت بعد فقرها بكثرة تشويق العالم الى زيارة ربوعها وكما فعلت فرنسا وايطاليا والمانيا وغيرها من أصقاع أوربا وأميركا مثل مدينة دالاس فى ولاية التكساس فى الولايات المتحدة فان أهلها كانوا سنة ١٨٨٠ عشرة آلاف نسمة فازمع بعضهم أن يؤسسوا ناديا سموه نادي المئة والخمسين ألفاً أى مدينتهم ستكون سنة ١٩١٠ مئة وخمسين ألف نسمة وما برحوا يتذرعون إلى ذلك بكل حيلة حتى بلغ عددهم سنة ١٩٠٤ ٨٣ ألفا وتوصلوا الى أن قال الرئيس روزفلت فى خطاب له أن شمالى التكساس هو حديقة الرب ومدينة دالاس تطالب وبحق لها ذلك أن تكون نقطة دائرة هذه الحديقة

نعم إن الاعلان أساس من أسس الثروة اليوم بل هو سبب من الاسباب المعقولة المشروعة وأثره فى الاعلان عن الاشخاص ظاهر وكم من نابه اشتهر بتحدث الناس فى أمره ومن آخر خمل ذكره لانه لم يعرف كيف يتوصل إلى الشهرة فعاش ومات ولم يدر به أحد فاللهم اجعل الشرقيين من النابهين بحق لا الخاملين المجهولين

دور التمثيل والانس والاجتماع فى باريز



ان ما شهدته من التمثيل العربي المنحط جداً فى الديار المصرية والشامية زهدنى في التمثيل على أنواعه فصرت لا أختلف الى دار تمثيل الا متكارهاوذلك فى المدة الطويلة لقلة غنائه وانقطاع الرغبة فيه وأعلل ذلك بأن التمثيل لم يعهده العرب أيام حضارتهم بل لم يكن لهم ما يشبهه فى قرطبة ولا في بغداد ولا فى دمشق ولا في القاهرة أيام عزتها ولذلك قلما مال أبناء العرب اليه ميل الغربيين له وقدروا مزاياه حق قدرها .

ولما حللت باريز كان من أوائل المسائل التى توخيت دراستها حالة التمثيل فى الغرب والسر فى توفر أهله عليه وخدمتهم له كما يخدم الشعر والموسيقى والخطابة بل جعلوا هذه الفنون خادمة للتمثيل ، وأصبح عندهم من ضروريات الحياة كالطعام والشراب لاحياة بدونهما وكذلك التمثيل لاحياة روحية بدون الاختلاف الى دوره ولو مرة فى الشهر ان لم يكن مرة أو مرتين فى الأسبوع .

والتمثيل في باريز من أعظم ملاهيها وقل ان تجتمع لعاصمة ما اجتمع لها من ضروبه ولشدة عناية الحكومة به تنفق من مالها كل سنة أربعة دور تمثيل مبلغاً تستعين به على تحسين حالها فتمنح الأوبرا ثمانمائة ألف فرنك والتياترو الفرنسوية ٢٤٠ ألف فرنك مع الدار وتعطى الاوبرا كوميك ٣٠٠ ألف وتعطى الاوديون ١٠٠ ألف فرنك وفى باريز ٥٣ دار تمثيل كبرى ذهبت الى أشهرها مثل الاوبرا والتياترو الفرنسوية والاوديون والشاتليه وساره برنارد والفودفيل وغيرها

وكنت كلما ألفت اصطلاحاتهم فى أحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم ومظاهرهم ورقصهم وغناهم يتبين لى سر تغالى الغربيين بالتمثيل وانه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عملية ودار سلوى وارتياح أرواح فلا عجب اذا عدوه من أكبر العوامل فى نهوضهم وتثقيف مجتمعاتهم . وشغفوا بفصوله ولا شغف الشرقي بفضوله وحرص الفرد منهم على ساعاته حرصه على عزيز أوقاته

أما دور التمثيل فهى قصور فخمة هندسوها على ضخامتها بحيث لا يحرم الحضور على اختلاف درجاتهم من سماع ما يقال على مسارحها ورؤية ما يعرض فيها من المشاهد والمناظر . وكفى بأن دار الاوبرا كلف بناؤها ثلاثين مليون فرنك وذرعها أحد عشر ألف متر ، وأقل دار تمثيل تساوى عشرات الألوف وبعضها مئات الالوف من الليرات وان مما يبهج جوق الموسيقى فى الأوبرا وقد حزرته بمائتى شخص وجوق الممثلات والراقصات والممثلين على المسرح ومأأظن جمهرته تقل عن خمسمائة .

واذا عرفت أن الاوبرا تدفع لأحد ممثليها ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة أى ١٢٨

ألفاً عن ٦٤ ليلة فى السنة وتدفع لغيره من الممثلين رواتب تختلف بين ٨٥ ألفاً الى ٣٠ ألفاً ، وعن كل ليلة يغنى فيها كاروزو عشرة آلاف فرنك وتتناول بعض الممثلات أربعة آلاف فرنك فى الشهر جاز لنا أن نستقل اعانة الحكومة للاوبرا ونحكم على كثرة دخلها وخرجها

ولقد كنت أتمثل نفسي في حضرة أعظم فصحاء الأرض وعلماء الاجتماع والنفس ساعة تنتهى الى مسمعى أصوات الممثلين والممثلات . وتنفتق ألسنتهم بكلمات الحكمة والادب ، ويشخصون الفضيلة فى أبهى مظاهرها كانك تراها فلا أمالك من توقير الممثلين والممثلات واكبار فائدة التمثيل المدارس لتنشئة الصغار فى وقت معين من السن ودور التمثيل مدارس دائمة للصغار والكبار تلقنهم من أيسر السبل حكمة وآدابا وتلقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة

حضرت رواية « مثل الاوراق » فى الاوديون ورواية « الباريكاد » لبول بورجه فى النودفيل ورواية « جان دارك » في تياترو ساره برنارد ، ورواية الجندى الصغير فى الشاتليه فكان يخيل لى وأنا أسمع وأرى أن الامر واقعي ، وأن هذه المشاهد حدثت الآن وقد اجتمع جمال الصوت الى جمال الوجوه الى جمال الكلام الى جمال الهندام الى جمال المكان الى جمال النظار ، وأقل هذا مما يستهوى النفس فلا تدرى أي شيء ترى ولا أى فائدة تعي

وما أظن أكبر متنطع لو حضر التمثيل فى مثل هذه الدور العظمي يستطيع أن يعيب شيئاً مما يشهد ، وأى عين لا تقع على ساره برنارد أشهر ممثلة فرنسوية وهى فى الخامسة والستين من عمرها تمثل دور جان دارك وهى فى التاسعة عشرة فتظهر كأنها هى بصوتها وحركتها ونضرة وجهها ولا ترتاح وتعجب وأى أذن تسمع الحكمة فى رواية الباريكاد يقولها أحد الممثلين بصوت رخيم « ان الطبقات الاجتماعية كالامم يضيع حقها في حفظ ما لم تقو على الدفاع عنه » ولا يفكر طويلا .

ولقد رأيت فى دور التمثيل حتى ما يوصم منها بأن فيه شيئاً من الخلاعة مثل

« مولن روج » أن الادب يغلب على السامعين والناظرين . وأن قاعات الاستراحة بين الفصول ليسير فيها الخرد العين كاسيات عاريات معطرات متبرجات ولا ترى الا من يغض الطرف حياء وأدبا . والغالب أن النساء يلبسن لليالى التمثيل أجمل ثيابهن وازيائهن كأنهن فى بيوتهن وبين صويحباتهن وأصحابهن ، وقلما تراهن فى الشوارع الا مكتسيات من اللباس بما خف محمله وقل ثمنه

أما سائر أماكن الطرب كمحال السماع والموسيقى والمراقص العامة فكثيرة جدا في باريز وأحسنها ما كان على جوانب الجواد العظمى أو بالقرب منها ويكون فيها المرء بحسب مبلغه من التهذيب ، وموسيقى الافرنج وعزفهم وزفنهم يستحسنها الشرقى مع طول الالفة لها والانسة بها ، ومن لم يعرف عندهم ولو أحد هذه الانواع الثلاثة استغربوا أمره وعدوه محروما من لذائذ الدنيا ساقطاً من رسوم الهيئة الاجتماعية ، ولكل قوم عاداته وأخلاقه يحرص عليها كثيراً ولا يرى فيها حرجا ولا نكيراً سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

من باريز الى الاستانة

٣١

قضيت شهرين اثنين فى هذه العاصمة طفت المعاهد ورأيت المشاهد وعرفت العامل الجاهد وتبينت العالم المجاهد وطعمت الجشب والشهى من الطعام ووصلت السير بالسرى وعمل الليل بعمل النهار ، ورأيت العملة في حاناتهم ومطاعمهم وواكلت الاغنياء فى مقاصفهم وشاركتهم فى نعيمهم واختلطت بطبقاتهم أسمع عباراتهم ولم أستنكف من غشيان كل مكان أرجع منه بفائدة مستطلعاً طلع خلق جاريا من الاختبار فيه على عرق فكانت عينى على النظر وأذنى تسأم السماع

وذهني يتأفف من التفكر وقلبي يتخوف كثرة الوعى . ومع ماصرفته من الوقت والقوة خرجت من هذه المدينة وفي النفس منها أشياء لم أتمكن من درس معالمها ومجاهلها ولا سيما أماكن الرياضات البدنية واللعب على اختلاف ضروبه وزيارة مجارى العاصمة تحت الأرض وسراديبها والاعتبار بقبورها ومدافنها وهى مزينة كقصور الاحياء ومقطعة الى طرق ومناطق .

وفي يوم بدأ نهر السين بفيضانه المشئوم الذى طغى على السدود والسكور فدكها وبثقها وأودى بالاموال الجسيمة من ناطق وصامت ركبت القطار وقت الظهر الى الحدود الالمانية فكان نهر الموز والمارن هائجين حتى طغت مياههما على السهول والاودية ولم يصل القطار الى نانسى على الحدود . ويبلغ ستاسبورغ فى أرض الألمان وقاعدة الالزاس الا وقد انقلبت تلك الأمطار ثلوجا وذاك الهدير سكوناً . ولون تلك المياه الكدرة بلون الثلج الأبيض الناصع وبلغنا مونيخ عاصمة مملكة بافيرا الالمانية صباح الغد . فوقف القطار زهاء ساعتين فرأيت أن لاأضيع الفرصة فأخذت أطوف المدينة ولكن كانت الثلوج غمرتها فلم أر منها الا واجهات الابنية ورؤوسها وهنا تمثل لى النقص وأحسست بالعجز وشعرت بالغربة وأنا التفت عن يمينى وشمالى فلا أسمع الا الالمانية التى لا أعرف منها أكثر مما أعرف من الكردية وقد تركت بعض رفاق لى فى القطار ومنهم بولونيون يتكلمون بالافرنسية تطيب نفسي بمحادثتهم ومفاكهتهم حتى اذا عدت آخذ مكانى من القطار اجتاز بنا بعد قليل في أرض النمسا وهكذا حتى وصلنا مساء اليوم الثانى الى فينا عاصمة النمسا .

وعلى ذكر اللغة لا بأس بأن أقول أنى يوم دخلت فرنسا لم أشهد وحشة ولم أشعر بغربة لمعرفتى بلسان أهلها واطلاعى على تاريخهم وعاداتهم فكنت كأنى داخل ولاية من الولايات العثمانية التركية أو قطراً من الاقطار العربية فى غربى آسيا أو شمالى أفريقية ولما انتقلت من ستراسبورغ شعرت بتغير العادات واللهجات وأيقنت بأن الغريب الذى يزور بلداً لا يعرف لغة أهله كالاصم والاعمى وهذا

ماعاقنى فى الاكثر عن زيارة انكلترا والمانيا خلال هذه الرحلة مع شغفى بحضارة هاتين الامتين لانى استصعب أن أرى غيرى بعيون غير عينى وآذان غير أذنى

قضيت فى فينا يومين استرحت فيهما من وعثاء السفر واطلعت على بعض معاهدها الا أن الثلوج التى بلغت نحو ذراع عاقتنى عن اتمام الزيارة فركبت ثالث يوم بعد الظهر القطار قاصداً بلاد المجر فاجتزنا عاصمتها بودابست فى الليل ووقف القطار فيها ساعة لم أتمكن فى خلالها حتى ولا من رؤية المحطة وعدنا الى قطارنا حتى تخطينا من الغد أرض الامبراطورية الى أرض البلقان ولم يكد القطار يجتاز نهر الطونة حتى تمثل أمام خيالي تاريخ هـذه البلاد ، وبينا كنت أذكر وقائع العثمانيين فى سلسترا والبروج المعروفة ببرج العرب ، وأذكر تلك الدماء العزيزة التى أهرقت على ضفاف الطونة لفتح هذه البلاد ركبت معنا من أول محطة في بلاد الصرب فتاتان صربيتان فى الخامسة عشرة من عمرها عليهما سيماء الحشمة والأدب فسألت الرفيقـة رفيقتها أن تغنى شيئاً فالتفتت الينا . وكان معنا رفيق بلغارى يعرف التركية فاستأذن فى ذلك فقلت له لا بأس فاندفعت الفتاة تغنى بنغمة على ايقاع غريب فاضت له نفسى بالدموع خصوصاً وقد جاءها الغناء وهى تفكر فيما أصابنا فى هذه الديار من الشقاء . فعجب رفيقي البلغارى وقال لعلك فهمت هذا النشيد الوطنى الصربي قلت لم أفهم ، وانما تأثرت من النغمة ومن أمور أخرى فسألنى ما هى فلم يسعنى الا أن بحت له بذات نفسى ، ولما ذكرت له كيف تقدموا هم وتأخرنا من بلاد هواؤها عثمانى وسماؤها عثمانى . وأكثر عاداتها عثمانية عذرنى على شعورى بما فيه من فضل أدب .

ووقف القطار ساعتين فى بلغراد عاصمة الصرب فاغتنمت الوقت لزيارتها وهى نظيفة لطيفة صغيرة حرية بأن تكون قاعدة لتلك المملكة التى يقطعها القطار طولا بأقل من عشر ساعات وزرت من الغد صوفيا عاصمة بلغاريا وهى أجمل وأضخم منظمة على مثال المدن الاوربية ويغلب الادب أهلها وكثير منهم يعرفون التركية . وقد وقفنا عليها نحو ست ساعات تمكنت أثناءها من درس معالمها

وحدائقها ومتنزهاتها وبعض قصورها وهى أقرب الى أن تكون مدينة شرقية منها الى أن تكون مدينة غربية ويقال انها ترتقى سنة عن سنة ارتقاء يحسدها عليه حتى الاوربيون الراقون وعجبت لما سمعت بعض الالفاظ التركية يستعملونها مع اللغة البلغارية حتى الآن كانهم تركوها عضوا أثريا يذكرهم بأيام حكم الاتراك عليهم .

وعند الظهر سار بنا القطار يقطع بلاد البلغار ووصلنا إلى جسر مصطفى باشا فى ولاية أدرنه أول التخوم العثمانية عند العشاء وهناك جاءنا رجال شرطتنا يدمدمون ويبرقون ويرعدون يحكمون على هـذا بالجزاء النقدى ويعفون عن ذاك ويطلبون من هذا جوازاً ومن الثانى أن ينبشوا صوانه وهميانه ومن الثالث أن يفتشوا صندوقه ويراقبوا كتبه والخلاصة تغيرت معنا الحال من الاعلى إلى الادنى حتى بلغنا بلادنا فرأينا الانحطاط باديًا عليها فى كل شيء وادارتها هى تلك الادارة الاستبدادية بعينها لم يعدل الدستور من شدتها وما زلنا على ذلك حتى بلغنا صباح الغد الاستانة عاصمة سلطنتنا العثمانية

عاصمة السلطنة العثمانية

٣٢

صقع جميل . وسواحل بديعة . ومناظر رائقة ، وسماء صافية ، ورفاهية مفرطة . وأنس دائم ، فمن المضيق الى الخليج ، الى جزر البحر . الى متنزهات منقطعة القرين . الى غابات ملتفة ، وجبال مكسوة . وعيون خرارة . وكل ذلك بهجة النفس والخاطر وهذه هى الاستانة وأحياؤها وضاحيتها .

أما عمرانها فصورة مكبرة من عمران الولايات لا نظام ولا شوارع منظمة ولا طرق معبدة ولا راحة للراكب والسائر ولا للمقيم والنازل وغاية مافيها

من مصانع وآثار قصور السلاطين والجوامع الكبيرة الزاهية التي أنشأوها منذ عهد محمد الفاتح إلى يومنا هذا وبعض ثكن ومدارس عالية حديثة لا شأن لها من حيث فن البناء

والاستانة من حيث قوتها المادية ضعيفة ضئيلة ، نصف أهلها أتراك يبلغون نحو ستمائة ألف والنصف الآخر أروام وأرمن وأكراد وأرناؤد وعرب وغيرهم من العناصر العثمانية ويغلب على الاتراك الاتكال لانهم مازالوا حتى بعد الحرية يعتقدون من أنفسهم الغناء والسؤدد . أكثر من بقية العناصر ويتوهمون أنهم العنصر الحاكم ولذلك قلما ترى بينهم تاجرا معتبراً أو زارعاً كبيراً أو مالياً دراكة يعيشون كلهم إلا المرتزقة والباعة عالة على الامة لا يعرفون غير تقلد الوظائف الادارية والعلمية والقلمية والعسكرية

فالاستانة من هذه الوجهة مدينة الاتكال المجسم يعيش أهلها كالحامة الطفيلية على عنق الولايات ، ولكم خربت ولاية أو لواء أو قضاء ليعمر بها احدهم مصيفاً له على ضفاف الخليج أو فى جزيرة الامراء ويقتنى من الجوارى والسرارى والعبيد بقدر ماتطيب له نفسه .

ولاهل الاستانة فضل أدب ولين جانب عرفوا به منذ القديم فترى الواحد منهم يعاملك باقصى اللطف والظرف حتى يرضيك وفى باطنه على الاغلب يسر لك غير ذلك وهذا الخلق عام فى عمال النظارات والادارات الكبرى ولولا ذلك ماانصرفت وجوه أرباب الاشغال من سكان الولايات الى الاستانة يقصدونها لكشف ظلامة ونيل رتبة ومرتبة وراتب .

صرفت في هذه العاصمة عشرين يوماً قابلت فى خلالها كثيراً من أهل العلم والسياسة وكنت اتكاره فى الاختلاف إلى المعاهد والناس إذ سئمت نفسى كل ذلك بعد باريز التى رأيت فيها من كل شيء أحسنه ومن العالم أرقاهم ولطالما اسودت عاصمة بلادى فى عينى ووددت على الاقل لوكتب لى ان ازورها قبل الرحيل الى الغرب وامتاع النظر والحواس بحضارته البهجة حتى لا ارى

الانحطاط بعد الرقى ولا الظلام بعد النور .

ومن جملة المعاهد التى هى جملة مقصدى وغاية مناى من زيارة الاستانة مجلسنا النيابى زرته خمس مرات وأعضاؤه نحو مائتين وخمسين نائباً من جميع عناصر الدولة وأصقاعها تجد فيهم ذا العمامة البيضاء او الخضراء كما تشهد فيهم لابس الكوفية والعقال وثلاثة أرباعهم من لابسى الطرابيش ولقد سمعت من أرباب العمائم مناقشات راقية لم أكد أسمعها الا من النواب الذين صرفوا شطراً من أعمارهم فى أوربا يتعامون و يتمرنون ويدير حركة المجلس من النواب اليوم نحو عشر أعضائه شأن مجالس العالم كلها فان أرباب العقول الراقية والمضاء الكبير قلائل فى كل طائفة . خصوصاً ومجلسنا مابرح طفلاً ويرجى أن يكون فى الانتخابات المقبلة أرقى مما هو الآن

رأيت النظام قليلاً فى المجلس يبدأ قبل الظهر بالنظر فى قانون كذا وبعد الظهر يتناقش فى غيره قبل أن يكمله ومن الغد يتناقش فى مسألة أخرى وينسى القانون أو اللائحة الاولى وذلك لانهم وسدوا رئاسته لرئيس اشتهر بخدمته الحرية والشهرة قد تكذب . وكم وسدوا النظارات فى هذا العهد الدستورى الجديد الى أناس اشتهروا بعلمهم وعقلهم في الدور السالف حتى اذا جاء الآن دور العمل ابانوا عن ضعف فى المدارك وخور فى العزائم وبضاعة مزجاة من العلم والعمل و نفس شريرة تعد قتل عنصر من العناصر قتلا معنوياً لغاية بعيدة الحصول أسهل من تناول الكاس أو السلام على الناس

وكل أولياء الامر اذا حدثتهم في نقصنا والسعى لاصلاحنا شاركوك فى حديثك وربما تظاهروا باكثر من غيرتك وحملوا أشد من حملتك فاذا أتت نوبتهم ليعملوا تراهم يقرون القديم على قدمه ان لم نقل يزيدون الحال أعضالا واشكالا . فهم فلاسفة قول لاعملة عمل وجربذتهم فى أساليب هم يتقنونها لا فى ظلامة يرفعونها وولاية يرقونها واصلاح يدخلونه .

ولا اغالى اذا قلت ان عمال الاستانة الآن صورة من صور العهد الحميدى

الا انهم يدعون الحرية وهم مضطرون الى الاسراع بمصالح العباد باقل مراوغة ومطاولة مما كانوا عليه في العهد الماضي أما الاصلاح الحقيقي فاظن من سيقومون به لهذه البلاد العزيزة لم يخلقوا بعد ونحن نكتفي من الحاليين أن يحتفظوا فقط بالحالة الحاضرة ريثما يتخرج جيل جديد يربى على أدب النفس وأدب الدرس وينشأ بعيداً عن أخلاق الحكومة الاستبدادية المطلقة التي غرست مبادئها الساقطة في القلب واللحم والدم والعظم

المتحف السلطاني[1]

٣٣

دخلنا هذه الدائرة الفخمة من بابها الغربي الكائن بجوار نظارة العدلية ومررنا أمام دار الضرب العامرة وبعدها دخلنا من باب آخر ينتهي إلى ساحة كبيرة بنى على أطرافها رواق ذو قباب أشبه ببنيان التكايا ثم دخلنا من باب ثالث فاستقبلنا بهو كبير يسمونه غرفة العرض كان يجلس فيه الوزراء والامراء للمذاكرة والمشاورة وفي صدره مصطبة كبيرة يصعد إليها من درجة واحدة كان يجلس فيها السلطان متواريا عن الاعين

ثم خرجنا من هـذه الغرفة وصعدنا الى قصر شامخ يصعد إليه بسلم من رخام جدرانه مزينة بالقيشاني بناه السلطان مراد الرابع بعد رجوعه من بغداد على طرز قصر هرون الرشيد وسماه (قصر بغداد) وهو قصر مبني على الطرز الشرقي بشكل مثمن منتظم تحيط به من الخارج ردهة ضيقة ذات منافذ تطل على الخمائل والبحيرات وتشرف على بحر مرمرة وقسم من البوسفور وأحياء

---

(١) لم تتيسر لنا زيارة هذا المتحف فعهدنا الى صديقنا شاكر بك الحنبلي أن يزوره عنا فيكتب لنا هذا الفصل في وصفه ففعل وأنا أشكره لفضله وعنايته .

القسطنطينية وضواحيها وبجانب هذا القصر دائرة (الخرقة الشريفة) وفيها الرداء النبوى وبقية المخلفات والآثار النبوية

وخرجنا بعدئذ من هذا القصر ودخلنا قصرا آخر فيه غرفة كبيرة طولها نحو عشرين ذراعاً وعرضها نحو ثلاثة عشر ذراعا يقال انها من بناء السلطان مصطفى الرابع ، وفى الجهة القبلية من هذا القصر قصر آخر بناه السلطان عبد المجيد . ويسمونه (سلطان مجيد كوشكى) مبنى على الطرز الايطالى وهذا القصر أجمل قصر رأيناه هناك ومما يجدر بالذكر فى هذا القصر صفاء بلور النوافذ حتى أنك تظن النافذة مفتوحة لابلور فيها لشدة صفائه وعلى جانب هذا القصر حجرة صغيرة بناها السلطان عبد المجيد لتبديل لباسه قبل دخوله دائرة الخرقة الشريفة

ثم انتهينا إلى دائرة المتحف السلطاني وهى بيت القصيد فى هذه الزيارة وهنا لا يتمالك الانسان من الدهشة عند ما يشاهد تلك الآثار النفيسة والمصنوعات الثمينة النادرة التى لا تقدر لها قيمة لقيمتها التاريخية دخلنا هذه الدائرة وهى مؤلفة من ثلاث غرف تحتية وثلاث أخرى فوقية وأول شيء وقع نظرنا عليه تخت كسرى الذى غنمه السلطان سليم الاول من الشاه اسماعيل الصفوى فى حرب (جالديران) الشهيرة وقد نصب فى وسط المتحف يوحى إلى الرائى بعظمة الدولة العثمانية ومجدها السالف ويصور للناظر السلطان سليم الاول ممتطياً جواده مستلا سيفه يقود جيشه الباسل إلى بلاد الاكاسرة ويشتبك مع صاحب العجم فى حرب عوان فيهزم جيشه ويستولى على عرشه وخزائنه .

هذا التخت على هيئة مستديرة قائم على أربعة أعمدة يصعد إليه بدرجة واحدة وكله مرصع بالياقوت والزمرد مما يبهر الناظر

شاهدنا فى هذا المتحف سيف قسطنطين بالئوغوس آخر قياصرة الروم وهو سيف مرصع بالماس أخذ من جملة الغنائم يوم فتح القسطنطينية . وشاهدنا مهد السلطان محمود الثانى وهو على شكل السرر التى تصنع فى دمشق من الخشب

مرصعة بالصدف وهذا مرصع بالاحجار الكريمة . وفى المتحف ثلاث قطع من الزمرد الاولى بقدر جوزة الهند وزنها ثمانمائة درهم والثانية على شكل مستطيل وزنها ستمائة درهم والثالثة بينهما في القطع والوزن وهناك أوان من النجف بعضها مرصع وبدون ترصيع وساعات وأوان من العاج وبواطى من الصينى ودروع وطبرات ومغافر وبنادق قديمة مرصعة مما لا يكاد يحصى وخواتم من الماس بعضها فضة بقدر الجوزة . وإلى جانبها دُويّ قديمة ذهبية وقماقم ومحاريب وسبحات ومراوح مرصعة وفي جملة هذه المراوح ثلاث تعد من نوادر المصنوعات الواحدة قبضتها مرصعة بالماس والاخرى مرصعة بالياقوت والماس فى وسطها ياقوتة بقدر الجوزة والثالثة مرصعة بالاحجار الكريمة وعليها رسم الكرة الارضية

ومما امتعنا به النظر صورة شخص طوله عشرة سنتيمترات صدره وبطنه لؤلؤة واحدة ورجلاه فيروزتان وبالقرب منه صندوق وعليه فيل من الذهب مرصع بالاحجار الثمينة ، رأينا أغطية مناضد من الاطلس والديباج بعضها مرصع باللؤلؤ فقط والبعض الآخر مرصع باللؤلؤ والزمرد والياقوت بنقش بديع يأخذ بالعقول وهنا قلب من الماس حجرته الوسطى بقدر البيضة ويقال ان هذه الحجرة هى رابع حجرة فى الدنيا من حيث الحجم والوزن وقدامتعنا الطرف برسم السلطان عبد العزيز مجسما معمولا من النحاس الاصفر ممتطياً جواده بقطعة كبيرة طبيعية وآخرين صغيرين ورأينا رسم اسكندر الثاني قيصر الروس ورسم غليوم الاول عاهل الالمان

ومما رأيناه ثلاث آلات للمنظومة الشمسية مصنوعة من النحاس الاصفر تدور فيها الارض والسيارات حول الشمس بحركة دولاب يدار باليد كل ذلك بل أكثره موضوع فى خزائن من البلور لا تمسه الايدى رأينا مسميات لا نعرف أسماءها مما يحار لها العقل ويدهش لها الفكر وانى لنا بابن المعتز يقف فى هذه الخزينة ويصف ما فيها من الحلى والحلل والجواهر الثمينة والمصنوعات الفاخرة النادرة بمنظومات تحكي ترصيع الجواهر المكنوزة فى هذا الكنز الكبير ليس شيء أصعب على الكاتب من أن يرى أشياء لم يألف مشاهدتها ولا يعرف لها

اسماً فهو اذا أراد وصفها عصته الالفاظ وضاقت به التعابير ، رأينا فى هـذا المتحف شيئاً كثيراً كله من النادر الغريب الذى لا يوجد الا فى خزائن الملوك ولو أردنا أن نصف كل مارأيناه لطال بنا البحث واحتجنا الى سفر كبير ولكن نكتفى بذكر الآثار التاريخية الثمينـة بالنظر لما لها من المكانة العالية والقيمة الادبية .

فمن ذلك درع مرصـعة بالماس والياقوت مع سيف مرصع أيضاً مكتوب عليهماهذه العبارة « هذه الدرع غنمها السلطان مراد الرابع لما فتح بغداد في اليوم الثامن عشر لسنة ألف وثمانى وأربعين هجرية » وتخت معمول من الباغا مرصع بالفيروز والزمرد وهو تخت السلطان أحمد الثالث كان يجلس عليه يوم عرفة وفى وسطه فراش من الاطلس ، مرصع باللآلى بنقوش لطيفة يصعد اليـه بثلاث درجات صغيرة وخزانة من الكهرباء الملون المعرق اهدتها فيكتوريا ملكة الانكليز للسلطان عبد العزيز ومكتب (قنصل) كبير مرصع بالماس والياقوت وسائر الاحجار الكريمة اهدتها كاترينة قيصرة الروس للوزير الاعظم محمد باشا البلطهجى يوم وقعة (بيروت) الشهيرة وهذا المكتب من أثمن ما شاهدناه فى هذه الخزينة لما فيه من الاحجار الكريمة وحلل ملوك بنى عثمان وعمائمهم موضوعة كلها على قوالب مخصوصة على شكل انسان بالهيئة التى كانت عليها ومكتوب على كل منها اسم صاحبها وسيف السلطان الغورى عزيز مصر وخاتم السلطان عبد العزيز الذي نزع من أصبعه يوم استشهاده ، ووسامات مختلفة أهداها ملوك أوربا للسلاطين العثمانيين وغير ذلك من الآثار البديعة التاريخية .

وفى الجملة فان هذه الخزينة هى أعظم خزينة على وجه الأرض لانها جمعت بين خزائن الأكاسرة وخزائن القياصرة وملوك الاسلام وكانت فى الدور القديم تجمع فيها الأموال الزائدة عن نفقات الدولة وتدخر لاوقات الحروب ، وتسمى (أيج خزينة) أى الخزينة الداخلية . يروى أن السلطان مصطفى الثالث كان جمع فيها مبالغ طائلة صرفها كلها فى الحرب الروسية ويقدر ما صرفه فى ذلك الوقت

باثنى عشر مليون ليرة على حساب هذا الزمان .

أما بناء الدائرة فليس من الابنية الفخمة المزينة بل هو بسيط جداً على طرز التكايا وليس فيه مايستحق الذكر سوى ماذكرناه آنفاً من القصور الحديثة التى بناها ملوك بنى عثمان بعد الفتح وانما هى تمتاز بجمال موقعها وحسن مناظرها ومكانتها التاريخية فالواقف فى فنائها أو فى أحد قصورها يمتع طرفه بتلك المناظر البهيجة ويسرح فكره فى غابرها وحاضرها ويهتز طربا وتتجلى له عظمة آل عثمان وسلطانهم ، ويرى الفاتح يسوق أسطوله على اليابسة على صورة لم يسبق لها نظير ، ويفتح القسطنطينية ويملك قصر القياصرة وخزائنهم كما افتتح أجداده بلاد الأكاسرة وقوضوا عروشهم ويكون نعم الأمير الذى امتدحه الرسول وجيشه نعم الجيش .

وفى الحقيقة أن هذا البناء اللطيف من اجمل ما يتصوره الفكر ، وألطف ما تشعر به النفوس فهو يحتاج الى قريحة شاعر مطبوع أو قلم كاتب مجيد يصف ما تشعر به النفس من المعانى الشعرية فى جانب هذه المناظر البهيجة والآثار التاريخية . هذا ولا يسعنى هنا الا أن أثنى الثناء الطيب على ناظر المتحف حافظ محمد رفيق بك لما أبداه من المجاملة والملاطفة فى زيارتنا هذه ، كما انى أشكر للأستاذ الزهراوى وعبد العزيز افندى قولجه لى عنايتهما فى هذه الزيارة التى هى من أثمن الزيارات التاريخية .

المتحف العثمانى (١)

٣٤

ليس بين معاهد الاستانة وقصورها معهد توفرت فيه شروط التجديد ،

---

(١) اعتمدنا على كتاب « موزهٔ همايون عثمانى يه مخصوص رهنما أثر وحيد »

ودخلته الروح الغربية مثل المتحف العثمانى فهو المعهد الوحيد الذى قلدنا فيه الأوربيين وأحسنا التقليد يستفيد به زائره تاريخ الصناعة ، ولا غرو فقد ضم عاديات الأمم القديمة كالرومانيين واليونانيين والفينيقيين والأشوريين والبابليين والمصريين والحتيين والبيزنطيين المتأخرين من نواويس وتماثيل واوان وآثار حجرية وخزفية وبلورية ، وكلها شاهدة على الدهر بما كانت عليه حضارات الشعوب التى انقرضت فأصبحت بلادها من جملة ولايات هذه السلطنة العثمانية أيد الله أركانها .

ومن أجمل ما يشاهد فيه مسلتان عثروا على الأولى فى صامسون والأخرى فى ازنيق واسد وجد فى هاليكارناس (قصبة بودروم) ويرد تاريخه الى أربعة قرون ق . م وبجانبه ناووس رومانى استخرج من دراج فى ولاية إشقودرة ومن ألطف عاديات هذه الدار النواويس التى عثر عليها فى صيداء وهى عبارة عن ستة وعشرين ناووساً ادعى بعضهم أن أحدها هو ناووس اسكندر المقدونى لأن الاسكندر توفى فى العراق وجىء به الى سورية على ان روايات المؤرخين مختلفة فى مدفنه . ومن النواويس ناووس دفن فيه تابنيت ابن أشمونازار ملك صيداء وعليه كتابة بالخط الفينيقى ؛ وناووس الاسكندر من أغرب ما نقش النقاشون تحسدنا عليه وعلى كثير من الآثار الموضوعة فى قاعات متحفنا أهل العاديات والآثار ويبذلون لنا لو أردنا فى الحصول عليها مئات الألوف من النضار ونواويس المتحف البريطانى واللوفر ليشت بأعظم منها .

ومن عاديات المتحف ناووس معروف باسم « صدراب » أحد ولاة فارس فيه رسوم الصيد والقنص والحرب واللعب والسباق ووضيمة جنازة . ومنه يستدل على ما وصلت اليه هذه الصناعة من تلوين الرخام فى ايونيا فى الساحل الغربى من بلاد الاناضول من الارتقاء فى القرن الخامس ق . م وهناك تمثال ثمانى عشرة امرأة من أعجب ما نقش النقاشون جعلن على أشكال منوعة بعضهن قائمات وبعضهن قاعدات وهن يذرفن دموع الحزن واللهفة ، وبالقرب منهن ١٩

قطعة من نواويس رومانية عثر عليها في جبل لبنان وحمص وبيروت .

ومن النواويس البديعة ناووس اسمه ناووس ليكيا أى البلاد المعروفةاليوم بسواحل اضالية من أعمال قونية وهو رومى الصنعة محلى الأسلوب ، وعلى مقربة منه تمثالان من الخزف المنقوش لأبى الهول عثر عليهما فى مدينة اورله أو ميناء قلازومن من أزمير

قلنا ان الناووس المعروف بناووس الاسكندر هو من أبدع ما صنعت الأيدى ، ولذلك زاره ألوف من علماء أوربا وأميركا يعجبون بصنعه . وفيه كثير من الرسوم والخطوط النفيسة الملونة ومن الصور المزبورة ، عليها وقائع الاسكندر المشهورة ، ومن كتاباته ما كتب بالخط الهيروغليفى المصرى . ومنها بالخط الفينيقى .

ومن الرسوم الموجودة فى ناحية قريبة ما يرجح انه رسم الحرب التى نشبت بين الاسكندر فى ايسوس أو اربيل وبين دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق.م

ومما يقع نظرك عليه فىالقاعة الرابعة بعضعاديات حيثية مثل اسود وجدت فى زنجيرلى وقصورها وتمثال يمثل أحدملوك الحيثيين وقاعدة تمثالين لابىالهول وتمثال من الحجر الاسود اسمه « أسد مرعش » كتبت عليه كتابات حيثيةوهو أشهر أثر عثر عليه من آثار هذه الأمة حتى الآن

والحيثيون أمم مختلفة كانت فىالقرن الخامس عشر قبل المسيح تنزل فىجبال الأكراد فى سورية وقبادوكيا وقسم عظيم من بلاد الأناضول حتى مجرى نهر قيزل ايرمق وكديز وأصولهم كثيرة متباينة بل ان البلاد التى كانوامستولين عليها هى كما يقول المحققون فى شمالى سورية أى في المنطقة الممتدة من فرع الفرات الأكبر الى جبال طوروس ، وقد أنشأوا على الفرات قلعة قارغاميش المعروفة الآن بجرابلس وأخذوا يهددون مدينة نينوى القديمة (الموصل) الى أواخر القرن الثامن ق . م وبلغوا منتهى مجدهم بين القرن العاشر والثامن ق . م وقد استولى علي هذه القلعة صاراغون ملك اشور سنة ٧١٢ وباستيلائه عليها محي

اسم الحيثيين من عالم الوجود على أن تاريخ هذه الأمة مع ما بلغت من الحضارة بين الأمم القديمة لم يؤثر عنها بالذات شيء يدل على عظمتها لأن خطها لم ينحل حتى الآن ويرجى أن يكتشف كما اكتشف الخط المصرى القديم بواسطة حجر وجد فى رشيد كتب بالخط المصري مترجماً الى اليونانية

ومن العاديات المهمة فى المتحف الاوانى الزجاجية والخزفية وأحسن الزجاج ماجاء من سورية وقد كتب على كل قطعة منها اسم البلد الذى عثر فيه عليها . ومعلوم أن تاريخ وجود الزجاج قديم يتعذر معرفته وهناك قطع من الفسيفساء عثروا عليها فى استانكوى أو جزيرة كوس من جزائر البحر الرومى ويرد تاريخها الى الدور اليوناني وآثار معبد اشمرن في صيداء من آثار الفينيقيين الخزفية وآثار سوكة وآياثلوغ ونامورد من أعمال أزمير وغيرها من بلاد الاناضول وأكثرها يونانى . وفي قاعة أخرى أوان وجدت بالقرب من صور ووبج في ولاية مناستر فى بعض المدافن وأوان فى ليندوس (رودس) وغيرها يرد تاريخها إلى أدوار مختلفة يونانية ورومانية ومنها ماعثر عليه فى لابسكى من أعمال كليبولى

ومن الآثار المهمة فى القاعة الحادية عشرة عاديات أرض فلسطين ومنها ما عثروا عليه فى جوار القدس ويرجع تاريخه إلى القرن الثامن ق م وما عثر عليه فى بحيرة حمص فى الجزيرة التى حفر فيها من القدور والاسرجةوقد اعتبروا القسم الاعظم منها من عهد الزمن النحاسى . وفيه قطعتان من المرمر وجدتا بالقرب من المسجد الاقصى وعليها كتابات بالرومية تحظر على الغرباء أن يتخطوا معبد سليان والا فيعاقبون بالموت . وهناك حجر كاسى عثروا عليه فى القدس مكتوب عليه كتابة فينيقية وفيه ذكر جر الماء تحت الارض فى قناة حفرت فى الصخور من نبع جيحون الى سور القدس حتى تصل إلى نبع عين سلوان وينسبونه الى الملك حزقيا أحد من ورد ذكرهم فى سفر الملوك من التوراة

وليست العاديات المصرية كثيرة فى المتحف ومنها صور أبي الهول وفى

ثلاث قاعات الآثار الكلدانية والبابلية والاشورية وأكثرها ألواح وأوان وأكواب وعظام كتبت بالخط المسماري .

ومنها ناووس من الخزف يرد إلى عهد بابل أي إلى نحو ٦٠٠ سنة ق . م ومنها مسلة من الحجر من مخلفات نابونيد ملك بابل كسرها سنخريب في وقائعه مع السيتيين . ومن العاديات ما وقع في خرابة نيفر في الشمال الشرقي من الديوانية من أعمال بغداد ومنها ما وجد في تللو من أعمال البصرة ومنها ما عثروا عليه في سيبارا أوابي الحبة من أعمال الجزيرة

وقد خصوا القاعة السابعة عشرة بالآثار التدمرية والحميرية ومن الآثار التدمرية ما يستدل منه على أن صنعها من بدائع صناعهم وان كانت تشبه الصناعات اليونانية لان مملكة تدمر وان كانت يهودية لم يبق فيها أثر لهم لان الاشوريين قرضوا عمرانها ثم ارتقت على عهد أورليانوس أوائل ظهور النصرانية ودخلت في حوزة المملكة اليونانية على عهد الاسكندر واستعملت اللغة الرومية ولا سيما في الرسميات وان كانت لغتها الارامية أو السريانية . أما الآثار الحميرية فهي آثار أهل سبأ ومعين في الجوف وعاصمة سبأ مأرب وأهل معين كانوا نازلين في قصبة العلى في جوار مدائن صالح ومملكة حمير اليمانية انما نشأت بعد هلاك مدينة سبأ ومعين واستدلوا من ذلك على أن الخط الحميري يشبه الفينيقي ولكن دخله قلب وابدال كثير

ومن العاديات آثار قبرص منها تمثالان للمعبودين هركول وآفروديت وأوان خزفية ونذور ، ومنها حلي اشورية وفينيقية وحلي وجواهر واقراط وأساور وقلائد وجدت في مدينة ترواده أي في محل اسمه الآن حصارلق من أعمال لواء بيغا شمالي جون أدرميد وكان اسمه في القديم ايدا وهو بين جبل قار وهللسبون أي بين جناق قلعة وبحر الارخبيل وكانت هذه عاصمة قديمة مشهورة ومنها ماوجدوه في ترال من أزمير وليبة من طرابلس الغرب وبرقة وغيرها في طرسوس وآخر في برغمة وفي نابلس

هذه جملة أشرنا بها الى ما حواه المتحف وله قسم آخر اسلامى جعلوه فى قصر الصينى أمام البناء الجديد كما قسمت مصر عادياتها إلى متحفين متحف الآثار المصرية واليونانية القديمة والمتحف العربى . وقصر الصينى هذا مما أمر بانشائه السلطان محمد الفاتح ولكن لم يبق عليه من آثار ايامه الا أثر ضئيل جداً مثل الآثار التى يحويها وبعض عاديات وأكثرها من قرون الانحطاط أى القرون الخمسة الاخيرة ومنها بعض الصينى الذى كان يعمل فى دمشق ورودس وأزنيق وكوتاهية وبعض الكاشانى المكتب بالكوفى ومنها ما عثر عليه فى مصر وقونية ودمشق وبورصة وكان يعمل فيها كما تعمل الطنافس البديعة فى معامل دمشق وتوقاد واصفهان وغيرها

ومن عاديات قصر الصينى درفتان من صنع قره مان وقونية ومنها دكات وقماقم وطنافس ومصابيح وخطوط صدرت عن بعض الملوك العثمانيين ومنبر من صنع الرها (أورفة) وأوان خزفية وجدت فى الرقة من أعمال حلب وجلود كتب من صنع مهرة المجلدين من العرب والفرس والترك واصونة وخزائن وبعض آثار حجرية يقال أنها أموية عثر عليها فى القدس وبعض نقوش حيوانات رسمت على الزجاج من الادوار التركمانية والارتقية وملوك بنى آرتق من مماليك ملكشاه ابن ألب ارسلان السلجوقى حكموا جهات ماردين وديار بكر وحلب الى سنة ٨١١ هـ وانقرضت دولتهم بعد حكم ٣٣٤ سنة الى غير ذلك من العاديات والآثار ومما عرضوه عود طرب أو طنبورة وهى من صنع عصور الظلمة أيضاً

وبالجملة فان العاديات القديمة التى جعلت فى البناء الجديد كلها حسنة ومفيدة لو لم يكن الكسر والتحطيم يغلب عليها لما قاسته من أهاويل الدهر أما العاديات التركية والعربية الاخيرة فتافهة على الاكثر . وفى الاستانة محل قرب جامع السلطان أحمد عرضوا فيه صور الانكشارية مجسمة من الجبس صنع النمسا وهم يلبسون البستهم المعروفة وجالسون على مراتبهم وعاداتهم لا بأس بزيارتها لما فيها من الفائدة التاريخية

خطابنا [1] في التربية الاوربية

٣٥

سادتي الاخوان الاعزة :

أوعز اليّ أعضاء هـذا المنتدى الكريم أن أحدثـكم بما رأيت في رحلتي الاخيرة إلى أوربا فلم تسعني مخالفتهم لان الطلاب أعزة وتبادل الافـكار معهم من أشرف المطالب ولـكن الموضوع كبير لا يتسع وقتي الآن للاحاطة باطرافه كله ولا أوقات الحضور الـكرام إلى وعيه وسماعه ولذلك اقتصر منه في هــذه الليلة على الاشارة إلى طرف مما تأثرت به نفسي في درس معالم الحضارة الاوربية في أماكنها واستطلاع طلعها بالعمل بعد الاشتغال بدراستها بالنظر مدة . ولذا استميح عفوكم اذا لحظتم في أقوالي شيئاً مما لم يمتد بعضكم سماعه فأنا أقص عليكم شعوري ولا حرج على الشاعرين كما لا حرج على الشعراء

أول ما يقع عليه نظر الداخل الى أرض أوربية ذاك الانتظام الغريب في مرافق الحياة ومظاهر القوة فيسقط لاول وهلة على نموذج صالح من استبحار العمران هناك بل يتجسم في عينه وذهنه ما سمت اليه ولا تزال تسمى تلك الامم الراقية من الاخذ بأسباب الراحة والبسطة من طريق التـكمل العلمي والنشوء الاجتماعي والعملي

ولا يزال هذا النموذج من العمران يعظم في نظر السائح كلما طاف المعاهد وزار المشاهد وجال في القرى والدساكر والحواضر والقواعد . وكل فرع من فروع هذا الارتقاء العجيب يحتاج الناظر في وصفه إلى مجلد برأسه حتى يتجلى للسامع بعض التجلي وما راء كمن سمعا

---

(١) القيناه في المنتدى الادبي في الاستانة وهو مجمع الناشئة العربية من طلاب المدارس العالية

ماذا أذكر لكم أيها الاخوان من حال أوربا ومدنية الغرب الراقية التى بلغها بقوة العقل وتطبيق العلم على العمل ؟ أأحدثكم بصناعاتها التى تبهر النفس ؟ أو باتساع متاجرها التى لايحصيها العد ؟ أو بارتقاء زراعتها التى تنادى بلسان حالها ومقالها بأنه لم يبق بعد ما بلغته غاية ؟ أم اذكر لكم حال المجامع العلمية والسياسية والجمعيات الاجتماعية والنقابات التجارية والصناعية أم المدارس الجامعة والكلية والثانوية والابتدائية أم المتاحف والمعارض والمكاتب والمجالس والمصارف ودور التمثيل ومحال الطرب والانس ؟

كل هذه المشاهد كنت اختلف إليها فى أوقاتها واجتمع برجال العلم والادب والسياسة منذ الصباح الى ما بعد منتصف الليل وتمسى تتأثر بتغير المشاهد بحيث تملك على مشاعرى فلا استطيع التفريق في الحسنات كأنى ابتليت بداء الاستحسان لاتقع عينى على شيء ولا تسمع أذني بشيء ولا يتصور ذهنى أقل شيء الا واخذ به جملة وتغرق النفس فى استحسانه وتحار فى وصفه

ولقد كنت عزمت ان ادون فى مفكرتى ما يعرض لى من المظاهر والمناظر ويتردد فى صدرى من الافكار والخواطر واحضره من المحاضرات والخطب والدروس النوادر ولما كثرت على الموضوعات كل القلم من التقييد وقلت إنك ياهذا تكتفى متى عدت لتحدث قومك بما رأيته من تسجيل ما يعلق فى ذهنك وبعضه مما فيه الغناء والكفاية

نعم تركت التقييد على خلاف عادتى فصدق فيّ قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

لولا أن اليأس من أعظم الامراض فى الافراد والجماعات لطاوعت النفس وقنطت من نهضة هـذا الشرق لمجاراة الغرب ولولا انى اعتقد بأن النجاح مقدور لكل مخلوق يعمل وأن الاجسام تتكون من الذرات وان من الجزئيات تنشأ الكليات لسجلت بأن قيام الشرق العثمانى وهو على نهضته المتثاقلة البطيئة التى نشهدها أمر متعذر الا بعـد قرون ان كتبت له الحياة

ولكن امامى مثال الدولة اليابانية مملكة الشمس المشرقة رأيتها جارت أكبر الدول الأوربية فى ثلاثين سنة وفاقت من كانت تعمل منذ ثلثمائةسنة من الدول الغربية فبلغت درجة عالية من الحضارة .

نعم أن اليأس يجب أن لا يتطرق الينا ، وان كنا ويا للأسف تحت وصاية الغرب اليوم فى كل شأن من شؤون حياتنا السياسية والاجتماعية والعلمية والتجارية يصرفون علينا كل ما يريدون من ضروب المعارف ويربحون بعقولهم منا أنواع الأرباح والمكاسب ويستثمرون شرقنا بكل ما لديهم من ذرائع العلوم والفنون ونحن معهم باهتون شاخصون شأن عبد مع سيده أوجاهل مع عالم

حضرت دروساً كثيرة في الكوليج دى فرانس وهى المدرسة العظمى التى تضم فى صدرها زهاء أربعين عالما من كبار علماء فرنسا يقرأ كل واحد منهم درسين اثنين فى كل أسبوع فى العلم الذى أخصى فيه وتفرد به طول عمره وتكون دروسهم عامة يحضرها كل من أراد فتدل على كرم الفرنسويين فى العلم وحضرت دروساً فى مدارس أخرى ووفقت الى سماع خطب ومحاضرات كثيرة فلم أر فى أكثرها الا تعصباً على الشرق وغمطاً لحقوقه .

أذكر لكم على سبيل المثال محاضرتين دعيت اليهما لتعلموا منهما مقدار ما يعده الغرب للشرق ومبلغ حكم أبنائه علينا ولكم بعدها أن تقيسوا حاضرهم بحاضرنا وغابرهم بغابرنا وتضحكون بعدها أو تبكون .

فالمحاضرة الأولى كانت فى قاعة السوربون الكبرى أى كلية باريز . وهى المكان الذي جرت العادة أن يكون معهد العاملين للعلم من الفرنسويين فأقامت جمعية آسيا الفرنسوية والجمعية الجغرافية حفلة للاحتفاء بأعضاء بعثة بليو الى التركستان الصينية وكنشو بحضور جماعة من أعضاء المجمع الفرنسوى ولم يكن الحضور أقل من ألف وخمسمائة مستمع ومستمعة والمسيو بليو هو فى الثامنة والعشرين من عمره طلق اللسان آية فى البيان وهوأستاذ اللغة الصينيةفى المدرسة الفرنسوية في الشرق الأقصى ، شرح فى محاضرته مالاقاه فى رحلته التي بدأت

في ١٥ حزيران سنة ١٩٠٦ وانتهت في الصيف الماضي وأتى على ما وفق اليه من الاكتشافات الأثرية والكتابية وغيرها في آسيا الوسطى مما حفظ لفرنسا شهرتها القديمة في البحث عن الآثار وقال ان التعصب انتشر هناك بانتشار الاسلام في القرن الحادى عشر للمسيح فكان من ذاك التعصب ان أتى على الآثار بجملتها وقد قرّع الشرقيين عامة والمسلمين منهم خاصة أنواع التقريع ، أما رحلته فهى كسائر الرحلات العلمية التي يرحلها الغربيون الى آسيا وأفريقية فيكونون مقدمة الفتح والاستعمار وقديماً كان الشاعر يقول « السيف أصدق انباء من الكتب » فاذا أرادت أمة أن تفتح بلد أخرى ترسل اليها السيوف والبنادق ثم تمهد البلاد بالمعارف أما اليوم فيرسل الغرب رجال العلم يرتادون البلاد أولا ، ثم يرسلون مدافعهم وبنادقهم وآلات تدميرهم والأمثلة على ذلك كثيرة .

وقد ادعى بليو صاحب البعثة . والغالب انه على حق فيما ادعاه أن ما وفق الى جلبه من الآثار قد أغنى مكتبة الأمة في باريز بألوف من المخطوطات الصينيه ومنها شيء في تاريخ الصين كما أغنى متحف اللوفر الشهير بتماثيل ورسوم ونقوش فأصبحت باريز بذلك عاصمة الدروس الصينية في أوربا ويحق لها أن تفاخر بأن مجموعة ما عندها الآن من الآثار الصينية ليس لها مثيل في الغرب حتى ولا في الصين نفسها قال وغاية البعثة في التركستان الصينية ، ولا سيما في مقاطعات قاشار واورومشي البحث عن بقايا التمدن البوذى الذى سبق التمدن الاسلامى الى هناك ، وانه رأى جميع أهل التركستان من أهل الاسلام ، واذ كان دينهم يحرم التماثيل والصور لم يظفر بكثير منها في الأماكن المطروقة اذ كانت تعبث بها أيدى المتعصبين منهم .

وقال انه رأى لسوء الحظ أن قد سبقه الى ارتياد تلك الأصقاع أناس من الألمان والانكليز واليابان والروس للغاية نفسها ولكنه وفق الى أن اكتشف بين قاشار وكوتشار في نصف الطريق في طومشونك تمثالا بوذيا صغيراً بين الصناعة اليونانية والبوذية حرى بأن يكون صلة بين الصناعة الشرقية القديمة

والغربية وظفر فى قاشار تحت أنقاض أحـد المعابد فى طبقة كثيفة بمخطوطات هندية فأحرز ثلثها بواسطة راهب انقطع فى تلك المغاور ووصف تلك البقاع : « لا شجر فيها ولا عشب مع انك تمشى فيها ألوفا من الكيلومترات اللهم الا فى بعض الواحات ، وأكثر تلك الاصقاع جبال شامخة ومنحدرات كثيرة ورمال محرقة فكانت الحرارة فى الصيف تصـل الى الأربعين درجة ، وفى الشتاء الى الخمس والثلاثين تحت الصفر حتى كان الحبر يجمد فى أيدى أعضاء البعثة متى أرادوا أن يقيدوا آثار بعثتهم وقد أخذ أحد أعضاء البعثة صورة طوبوغرافية من خط هذه الرحلة وفوائد فلكية فى عدة نقاط وآب بمجموعة من الحشرات والحيوانات تغنى المتحف الطبيعى وبصور كثيرة عرضت بالفانوس السحرى على الحضور تلك الليلة حتى لكأنهم ذهبوا بأنفسهم الى تلك الأصقاع النائية

هذه المحاضرة الأولى التى تكهرب بها جسمى وتأثرت عواطفى وسمعت بها مهانة أمتى بأذنى . والمحاضرة الثانية ألقاها المسيو تارديو من كبار السياسيين الفرنسويين وصاحب المقالات الافتتاحية فى جريدة الطان فى الدولة العثمانية فهو أول اخصائى فى سياسة الشرق ، ولا سيما دولتنا يقلب القلم بين أصبعه كما تشاء حكومته . حضرت خطبة له فى مدرسة اللغات الشرقية الحية : ألقاها على طلبة تلك المدرسة العالية ممن يتخرجون الآن ليذهبوا الى الشرق فيما بعد لخدمة حكومتهم ويكون منهم التراجمة والقناصل والسفراء ببيان لم أسمع من العرب ولا من العجم أبلغ منه لم يتمتم ولم يعطس ولم يكرر ، وقلما رأيت انساناً درس موضوعه وأعد له المواد التاريخية والمستندات أكثر من ذلك ولكن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال كلام الخطيب فكان عجبى بتحامله على هذه الدولة أكثر من عجبى بذلاقة لسانه ، فقد تكلم على علاقة فرنسا بالشرق ولا سيما بالدولة العلية منذ القديم فقال ان فرنسا صاحبة الفكر الاول فى الحروب الصليبية قد أتى عليها زمن حالفت فيه الدولة العلية ايام قوتها لتستخدمها لاغراضها وقد جنى الفرنسيس ثمار هذا الوفاق ثم لما مضت سنون والدولة لم ترخيراً لها

من تلك المحالفة نزعت يدها من يد حليفتها ثم عادت فرنسا فبعثت بأبنائها الى القريم ليحاربوا مع الانكليز والعثمانيين جيوش الروس ، لأن مصلحتها اقتضت ذلك اذ ذاك وأفاض فى نشأة الامتيازات الأجنبية فى البلاد المصرية والعثمانية ، وقال ان فرنسا فى كل دور من أدوارها استخدمت الدولة العلية لمقاصدها وأن لها اليد الطولى فى المسألة الشرقية أى استقلال بلاد البلقان واليونان ؛ وانها لا تقصر كل حين فى بتر عضو من اعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفنى

فيا اخوانى ويا سادتى ايسمع عثمانى هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تذوب كمداً وحسرة وتسود الدنيا فى عينيه ؟

هذا بعض ما يعده الغرب للشرق فماذا يعد الشرق للغرب ؟

نحن يا قوم لا نحفظ كياننا ولا نحتفظ بلغتنا وديننا وآدابنا الا اذا قاتلنا من يريدون قتالنا بالسيف الذى يقاتلوننا به ؛ وأعنى به سيف العلم ، نحن يقضى علينا ان نأخذ من تلك المدنية الغربية التى تدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا نأخذ عن رجال العلم منهم ونحتك بهم زمناً لنستفيد ونعرف الطرق التى يجب علينا سلوكها .

رأيت الدولة بعد انقلابنا الأخير بعثت بزمرة من الطلبة العثمانيين ليدرسوا فى مدارس أوربا ولا سيما فى مدارس باريز فقدرت عددهم قليلا جدا بالنسبة لمجموع هذه الامة . وانى لاخجل ان أقول لكم أن عدد الطلبة البلغاريين فى روسيا والمانيا والنمسا وفرنسا والباجيك وانكلترا أكثر من عدد الطلبة العثمانيين واياكم أن تظنوا ان جميع طلبة الاجانب تبعث بهم حكوماتهم ليدرسوا على نفقتها بل ان لهم الافراد شأناً عظيما فى هذا الباب وكثيراً ما ينفق الطالب من مال أبيه عن سعة حتى لا يتم دروسه الا وقد أتى على آخر فلس مما عنده وهو مغتبط بما صنع لانه أحرز رأس مال كبير لا يقدر بالملايين والكرات وعاد وهو يعرف كيف يخدم أمته وبلاده

نحن مقصرون كل القصور فى ارسال ابنائنا إلى ديار الغرب يلتقطون درر

العلوم من بحار كلياتها ومدارسها والعرب فى هذا المعنى أ كثر العثمانيين قصوراً ولقد أحصيت جميع من يدرسون من أبناء سورية فى أوربا على نفقة الحكومة أو على نفقاتهم فلم أقدر أن أوصلهم الى ثلاثين طالباً أ كثرهم يدرسون على نفقتهم فليت شعرى أليس هذا العدد بقليل على قطر يناهز سكانه الثلاثة ملايين هـذا من سورية أرقى البلاد العربية وما أظن أحداً من أبناء العراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس وبرقة وغيرها من الاقاليم العربية يدرس فى مدارس أوروبا فيكون هؤلاء الثلاثون طالباً لخمسة عشر مليوناً من العرب العثمانيين يصيب كل مليون نسمة طالبان وما اعظم ذلك من قصور وتقصير

نعم هو قصور ليس وراءه وراء وخمودهم كاد يصدق به علينا حكم الغريب وانى لارجو ان لا تكون اقوالنا ا كثر من افعالنا فان الكلام لا أثر له بقدر الفعل ؛ نريد معاشر العرب أن نجارى الامم الراقية بل سائر العناصر من اخواننا العثمانيين ولا نجاريهم على الاقل فى مضمار التعلم ؟

نتناغى بالوطنية وتندب حظ اللغة العربية ونحن أبناؤها الذين نعقها ولا نتعلمها . أليس مما يزعج أن يخاطب العربي أباه وامه واخاه وصديقه بغير لغته الاصلية ؟ يعمل ذلك ليتمرن على تثقف غير لغته بل لانه لا يعرف ان يتكلم ويكتب بلسان ابيه وامه وقد يكون فى الا كثر ممن يفرض عليهم فرض عين تعلمها ليفهم بها كتابه وشريعته

انا ان كنت عربياً واحب العرب واريد نهوضهم ايتيسر لي كل ما اريد اذا لم اخاطبهم واخطبهم وا كتب لهم بلغتهم التى يفهمونها ؟ انا ان كنت اريد الاطلاع على مجد آبائى واجدادى أأتمكن من ذلك بدون دراسة ما خلفوه من آثارهم وهل يتيسر لى هذا الا باللغة التى كتبوا بها ؟ اقول هذا وانا آسف كل الاسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصوراً لا ابالى اذا قلت ان فيه العار والشنار

ايزهد سلالة العرب الا كارم فى لغتهم ويتعلمها المستشرقون ا كثر من

علماء العرب انفسهم ؟ ايزهد العربي ابن العشرين فى العربية ويتعلمها رجل اعجمى فى الستين من عمره . واعنى به الكنت دى ساردي الفرنسوى : هذا الرجل من اهل الطبقة العالية فى غناه كان والده سفيراً فى طهران عن الملك لويز فيليب ملك فرنسا وقد كان هو موظفاً فى السفارات وآخر وظيفة له رئاسة تراجمة سفارة فرنسا فى مدريد ثم استقال وهو يسكن فى الصيف فى قصر له فى لوزان فى سويسرا وفى الشتاء فى باريز وقد قام فى ذهنه منذ اشهر ان يدرس اللغة العربية للاطلاع على حضارة العرب ومدنيتهم الباهرة فاتخذ له استاذاً صديقنا ووطنينا ميشيل افندى بيطار وانشأ يتخرج به فقطع شوطاً فى التعلم واذ كانت الدواعى تضطره الى المقام فى قصره في سويسرا اكثر من باريز وكان استاذه لا يستطيع ان يلحق به الى سويسرا كتب اليه يلتمس منه التماس التلميذ من استاذه ان يبعث اليه بدروس عشرين يوماً حتى لا يضيع وقته مدة مقامه فى سويسرا ويحرم من الاستفادة والتحصيل فاذا آب الى العاصمة يعاود ما بدأ به

هذا الرجل على أبواب الشيخوخة وهو فى هذه السن يحاول أن يتعلم لغة شرقية لاعهد له بمعرفتها : أو أن يتعلم لغة القرآن ليدرس بها مدنية أهله وشبان العرب أنفسهم يترفعون عن أن يقضوا ولو بعض أوقات فراغهم فى إحكام لغتهم . هذا هو مثال صغير من أمثلة الهمم فى الشرق وأمثلتها فى الغرب فهل فيكم ياشباب المستقبل وقرة عيون العثمانية العربية من يمشى على أقدام الشيخ الفرنسوى حتى لا يجيء علينا وقت نضطر فيه أن نأخذ لغتنا بل ديننا عن أوربا ونكون تحت وصايتها حتى فى أمس الامور بنا وأعلقها بقلوبنا ؟

كل ما نراه من همم الغربيين ومتانتهم هو محصول الكتاب والمدرسة فانتم وأمثالكم شباب هذه الامة فى أيدى اقتداركم أن تجددوا لها شبابها إذا وضع كل منكم نصب عينه الذهاب الى الغرب وقضاء سنين فى الدرس والبحث ليرى بعينه ويحكم بنفسه على قصورنا عن الغربيين وفقرنا وغناهم وشقائنا

وسعادتهم ليعلم انى لاغالى فيما اوردته لكم بل انى عاجز عن الوصف والتعريف ولا يقعن في اذهانكم ان الذهاب الى اوربا بعيد المنال وانه لا يتيسر الا لكبار الاغنياء . فالعيش فى معظم البلاد الاوربية ارخص من الاستانة ومصر ودمشق وبيروت والمدارس رخيصة اجورها او لا يكاد يكون لها اجور . ومنها ما اجرة الطالب فيه مع الأكل والنوم والدرس ستون فرنكا فى الشهر ومثل هذا القدر من المال لا يصعب على أحد فيما أحسب ان يعده او يستلفه على المستقبل مهما بلغ من ضيق ذات يده .

يا أبناء قومى ويا زهرات أمتى ! أليس من العار أن تكون بلادنا التي لا تعيش الا بالزراعة ولا تحيا الا بالزراعة . خالية من عارفين بها على الأصول الحديثة فلا يكون الذين يتعلمون منا هذا الفن فى أوربا سوى طالبين اثنين . احدهما فى المدرسة الزراعية فى لوفان من أعمال البلجيك وهو رفيق بك بيضون من بيروت والآخر في كرنيون من أعمال باريز فى مدرسة كرنيون الزراعية واسمه مصطفى افندى الكيلانى من حماة . كلاهما من أبناء الاعيان . ولهما ارض ومزارع فنعما عملا بالاختصاص بهذا الفن الشريف المفيد ولكن أليس فى ابناء سورية بل البلاد العربية أحد من ابناء الاعيان يملك اراضى وقرى غير هذين الشابين ؟ بلى ان المالكين كثار ولكن محبى الدرس قلائل : هذا فى فن الزراعة فمتى يقوم منا أناس لتعلم الكهربائية ومد الخطوط الحديدية والهندسة العملية والصناعات الحديدية واليدوية والتجارة ، وغير ذلك مما نحن فيه عيال على الأوربيين .

زرت مدرسة كرنيون الزراعية ، وهى على مسافة ساعة من باريز . فرأيت شعارها مكتوبا بقلم غليظ فى مكتبتها بما معناه : « الأرض هى الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه » ولكن قومى غفر الله لى ولهم يحتقرون هذا الفن فيما أرى . فان كنا نختلف فى البديهيات فمتى نتفق فى غيرها ؟

زرت كرنيون ورأيت بها أن عبد القادر الكيلاني يلبس مشلح الزراع

ويدرس كما يدرس أبناء الاعيان فى فرنسا ويجاريهم فى ذكائه وأطلعنى على مافى مدرسته من متاحف ومعارض واصطبلات وحظائر لتربية الماشية . وحدائق لغرس النبات والبقول ، وغابات للنزهة والانتفاع . وأدوات للعمل وحرث الأرض وكربها .

رأيت كل هذا وأكبرته وقلت فى نفسى لو حذا السوريون فى الزراعة وتربية الماشية حذو الفرنسيس فيها وتربتهم تلائم تربتنا وأقاليمهم أشبه بأقاليمنا لاغتنينا غنى يغنينا عن الهجرة وتطلب الوظائف الاتكالية . فقد ذكروا لى أن خروفاً علفته ادارة المدرسة سنتين على الطريقة العلمية فبيع فى أحد المعارض بسبعين ليرة : فأين خرفاننا التي يباع الواحد منها بسبع ليرات مهما علفناها بجهلنا وبساطتنا وأطعمناها السمسم المقشر أو الشيح والقيصوم والعرار والعرعر .

ولكن الآمال معقودة بأن نعلف خرفاننا على طريقتهم ونستثمر تربتنا على أصولهم ونربي عقولنا على مناحيهم ونطبع دوابنا وماشيتنا بحسب سنتهم فيكون اذ ذاك أبناء عبد القادر فى التوفر على زكاء التربة فى نفعهم لهذه الامة على مستوى جدهم الذى زكى النفوس فى عصره : وتزكية التربة لا تقل عن تزكية التربية والمآل واحد .

مدرسة كرنيون الزراعية هى التى أوصي أبناء الاعيان وغيرهم الى التخرج فيها لتخصب بهم تربتنا بعد اجدابها وتملأ جيوبنا بعد فراغها والمال مبدأ كل عمل وفاتحة كل ارتقاء مادى وأدبى

نحن لا نرقى الرقى المطلوب الا اذا تعلمنا العلم العملى وزهدنا قليلا فى شقشقة الألسن والنظريات المجردة . ومن جملة المدارس التى زرتها في فرنسا وتأثرت أيضاً بنظامها مدرسة جزيرة فرنسا في مقاطعة الواز ، زرتها بدعوة من صديقى مرسى افندي محمود أحد كتاب مصر فكانت زيارتها وزيارة مدرسة كرنيون من أسعد الايام التى قضيتها فى أرض الفرنسيس وانى أحب ان اقص عليكم قصة هذه المدرسة لتعرفوا الغرض منها فاقول : قام منذ عشر سنين فى فرنسا رجل من رجال الصحافة اسمه ادمون ديمولانس ودرس طرق الحضارة والتعليم والتربية عند

الالمان والانكليز والاميركان وقابل بين طرائقهم واخلاقهم وعاداتهم وبين ماعند الفرنسيس منها ووضع لذلك الكتب وكتب المقالات وانشأ مجلة العلم الاجتماعي التي تدور على هذا الغرض ومن جملة كتبه سر تقدم الانكليز السكسونيين الذي نقل الى العربية فعمت فائدته العرب كما عمت الافرنج

وقد وفق ديمولانس صاحب تلك الدعوة بان التف حوله أناس من أرباب الغيرة على ارتقاء بلادهم والاهتمام بمستقبلها فكانوا يعطونه بالمئات لقيام الغرض الذي حاول بلوغه وتربية أبناء الفرنسيس على الطريقة الانكلوسكسونية العملية فأسست لذلك ثلاث مدارس كبرى عقيب دعوته الاولى مدرسة روش أسست سنة ١٨٩٩ باسم جماعة من المساهمين وأخرى فى أقليم نورمانديا لجماعة من كبار الصناع منها وأخرى فى ليانكور أسست سنة ١٩٠١ وهى التى أريد أن أحدثكم عنها

ليانكور قرية سكانها نحو ثلاثة آلاف وستمائة وهى على نحو ساعة من باريز الى الشمال فى مقاطعة الواز وفيها مافى سائر بلاد فرنسا من أنواع المرافق والرفاهية والمعامل الكبرى الصناعية والزراعة الراقية الفنية بل فيها من دور التمثيل فقط ثلاث دور وفى قصر الدوك دى لاروشفوكولد فى أرض مساحتها مائتا هكتار أى نحو ثلثمائة فدان لم يبق منها إلا دائرة حشمه أما دائرة قصره فقد أتى عليها رجال الثورة الاخيرة فدكوها وجعلوا عاليها سافلها وقد جعلت المدرسة فوسعت كل صفوفها ومرافقها ومعاملها .

فى هذه البقعة الجميلة الواسعة بل المزرعة الكبيرة والحانوت الفخم التى حوت الغابات والمروج والحدائق والغدران والآكام والسهول يتربى رجال المستقبل على الطريقة الانكليزية وفيهم الفرنسويون وأكثرهم من أبناء الباريزيين وعدد قليل من الاميركان والانكليز والبرتقاليين والاميركيين والمصريين . يعيشون فى هذا البيت كأنهم فى أسرة لافى مدرسة وقد رفعت عنهم أكثر القيود التى تقيد طلبة المدارس الداخلية واختصر منها على ما يحفظ به النظام والآداب من مثل الحظر على أحدهم أن يركض ويرفع صوته في المدرسة أوفى

حجر الدروس وأن يلعب فى الاماكن التى هى ممر لاخوانه وان لا يخرج من المدرسة ولا يركب فى قارب الغدير بدون رخصة أولاً وأن لا يبتاع أى شىء كان من المدينة بدون استئذان وان لايدخل جرائد ولا كتباً إلا اذا وقع عليها المدير ولا يدخن وان يلبس ثياب اللعب عند ما يخرج من غرفة المائدة وقت الظهر ولا يركب دراجته الا يومى الخميس والاحد وأن لا يعبث بمحاوت حديقة المدرسة ومكتبتها وان لا يتكلم بعد أن يطفأ النور في غرف النوم مساء ولا قبل أن يستيقظ رفاقه صباحاً وما عدا ذلك فهو حر أن يلعب اللعب الذي يختاره فى الاوقات التى خصصت لذلك منذ الظهر الى حوالى الساعة الرابعة بعده .

وكل هذه القيود لا تكبر على التلميذ لانه يعرف أنه لابد منها لكل عائلة كبرى وما هذه المدرسة الا كذلك والمدرسة تقسم الى ثمانية صفوف أسسها الاستاذان الانكليزيان هوكنسن وسكوت ومديرها اليوم المسيو لبلا وهو فرنسوى لان قانون فرنسا يحظر على الاجانب انشاء مدارس باسمائهم فى البلاد ؛ وفى المدرسة نحو عشرين معلماً ومعلمة وناظرة ورئيسة المدرسة الآنسة بارى من أقرباء ادمون ديمولانس صاحب الدعوة الى الاخذ بطريقة الانكليز السكسونيين فى التربية ومن أولئك المعلمين معلمان انكليزيان واثنان ألمانيان

ويقسم تلامذتها بحسب أسنانهم واستعدادهم ولا يختلط الكبار بالصغار الا فى بعض أوقات ساعات النهار وهذه المدرسة تعد التلامذة لنيل شهادة البكلوريا أو العالمية ولكن على غير الطريقة التى يحشى بها رأس التلميذ بالمواد النظرية وهو عن العلم العملى بمعزل . فالمدرسة تربى الارادة والعين والذوق واليد والجسم أكثر مما تربي الذهن والذاكرة

وأسماء الصفوف كصفوف سائر المدارس ويشترك جميع المعلمين فى التعليم ويلاحظون الدروس أيضاً ولا يراجعون التلامذة فيما تعلموه خارج الصفوف النظامية لان النهار يكفى لذلك ويتولى الاولاد بأنفسهم أمور لعبهم وحفظ النظام العام وسائر شؤون الحياة وربما لا تروق أكثر الاولاد هذه الطريقة خصوصاً

وأكثر من فيها من أبناء الاغنياء والامراء اعتادوا أن يخلقوا وحواليهم الخدم والحشم يتولون من أمورهم ما يتقاعسون هم عن عمله ويصعرون خدودهم كبراً من القيام به .

ويقسم التلامذة بعد الصفوف والفرق الى بيوت مختلفة وكل بيت يديره استاذ ويعهد الى النساء بالادارة البيتية والعناية بالمرضى وتعليم الموسيقي وتعليم الاحداث من الطلبة وهن يعشن فى المدرسة نفسها ؛ وعلى الطلبة أن يحضروا ثلاث جلسات فى الاسبوع لتعلم لعب الكوكى والكريكة بنظارة أساتذة فى هذه الالعاب . وفى المدرسة دار للتمثيل كما فيها ميدان للعب السيف . ومحل لتعلم الرقص والموسيقى ومحال دروسهم أشبه بمكتب رجل منه بقمطر تلميذ لكل واحد منضدة عليها دواة وورق نشاف يتصرف فيها كما يشاء ويرى فيها الدروس التى يدرسها بطريقة عملية أكثر منها نظرية

فيتعلم مع العلم صناعة من الصناعات التى هى أحب الى قلبه كالزراعة والنجارة والحدادة والتصوير والتجليد وصنع المقوى والفخار والجلد وغيرها ، وذلك بنظارة أساتذة هذا الشأن يدلونه على الطرق التى يسلكها ولا يعملون معه بل يدلونه على عيوب عمله ويده وعينه هما اللتان تعملان ليعتمد بذلك على نفسه ؛ فاذا عاد الى أهله يستطيع أن يصنع بذاته عملا من مثل ذلك ، فلا يكون فرق بين ما عمله فى المدرسة ويعمله بعد الخروج منها ويتولى أكثر شؤونه كما قلنا بنفسه حتى يسهل عليه كل جهاد فى حياته فان الرياضات التى يقومون بها فى البستان والحقول والرحلات في الخلاء سواء كانوا مشاة أم ركباناً على الدراجات تزيد في قواهم وقابليتهم للرياضات البدنية ولا يقل النوم عندهم عن عشر ساعات للصغار الى تسع للكبار ليستريحوا من اتعاب النهار

وتمتاز هذه المدرسة بان يرحل تلامذتها بمراقبة اساتذتهم أو بعضهم الى البلاد المجاورة كالبلجيك وهولاندة أو غيرها من مقاطعات فرنسا البعيدة ليعتادوا الاستغناء عن الرفاهية ويحسنوا التخلص عند الحاجة من مشاكل

الاحوال التى كثيراً ما تصادف الانسان فى حياته وذلك أيضاً ليحتملوا بصبر وحسن خلق معاكسات الوقت ونكد الأيام وتتوثق عرى المحبة بينهم ففى عيد الفصح تنقسم المدرسة الى ثلاث فرق بحسب سن التلامذة المؤلفة منهم فتذهب كل واحدة فى وجهة خمسة أيام وكل من حسنت أخلاقه ودروسه يرحل به أيضاً كل ثلاثة أشهر مرة أو مرتين يوما أو بعض يوم الى مكان بعيد ، وللمدرسة فى الصيف شهران أيضاً عطلة فتكون عطلتها السنوية من حيث المجموع ثمانين يوما وتستوفى المدرسة أجرة من كل طالب الى سن الحادية عشرة ٢٥٠٠ فرنك فاذا تجاوز هذه السن تأخذ منه ثلاثة آلاف يدخل فى ذلك أكثر حاجاته ماعدا بعض الدروس كالرقص والموسيقى والرسم فانه يدفع أجرتها على حدة ، وهو مبلغ كثير بالنسبة لأهل بلادنا ، ولكنه لا يستكثر في مدرسة مثل هذه تنفق النفقات الطائلة على الاساتذة والعيشة والرحلات ويطبق فيها العلم على العمل وتربى الحواس بالعمل أكثر من تربية الذاكرة

حدثنى أحد أساتذة المدرسة قال كان فكر مؤسسها ديمولانس أن تكون على الطريقة الانكليزية المحضة ولكن لم تمض مدة حتى انقلبت أوضاع الدروس والرياضات الى ما يشبه الاوضاع الفرنسوية لان ما توهمه ديمولانس من انه يمكن تطبيقه فى بلاده قد غالى فيه كثيراً ولو كان حياً — مات منذ نحو سنتين — لرجع عن كثير مما نعاه على قومه وعد عدمه نقصاً فى تربيتها وسبباً فى ضعفها ، وهو قول حق سديد ، لان ما يوافق أمة لا يطبق بالحرف على أخرى وللعادة والمحيط والتقاليد دخل كبير فى أوضاع الامة على ان هذه النغمة قد أفادت فرنسا وغيرها بلا شك واطلعت الشرق على ان التربية الفرنسوية مع ما هى عليه من الحسن هى فى رقيها دون التربية الانكليزية السكسونية من وجوه ، وان كانت هذه دونها من وجوه ولعل بلادنا تستفيد من كل ذلك عبرة .

تقدم ان تلامذة مدرسة ليانكور هم من الفرنسيس وخليط من البرتقاليين والاميركان والانكليز والمصريين وهكذا شأن معظم المدارس فى فرنسا ولا سيما

كلياتها الجامعة فلا يتعلم فيها الطلبة من الذكور فقط بل يتعلم فيها الطالبات من الاناث وانى لا أذكر انى حضرت خطبة أو درساً أو مجلساً علمياً : ولا زرت متحفاً ولا مطبعة ولا ادارة جريدة الا ورأيت الفتيات سبقننى الى تلك الامكنة ومعظمهن روسيات وانكليزيات وألمانيات وبلقانيات وبولونيات والبولونيات[1] أكثر الفتيات الاجنبيات فى فرنسا واكثرهن عناية بتعلم اللغات الاجنبية حتى ان الواحدة منهن لتكلمك فلا تحسبها لا فرنسوية لكثرة اتقانها للغة الفرنسوية واجادتها النطق بها مما لا يكاد يتيسر مثله لغريبة ولا لغريب عن اللغة وهن مع هذا أكثر النساء الاوربيات تفانياً فى احكام ملكة لغتهن وحرصاً على آدابها وتلقينها .

ولقد كانت المرأة البولونية تعلم أولادها لغتهم فى الغابات والحقول عندما كانت الحكومة الروسية تحظر عليهم الى قبل بضع سنين تعلم لغتهم لتجعلهم روساً مع الزمن فلما دالت دولة الجهل ونال البولونيون كسائر العناصر السلافية بعض حريتهم عقيب انشاء مجالس النواب كان من البولونيين ان فتحوا فى شهر واحد فى البلاد التى وقعت منذ قرن ونصف تحت سلطة الروس زهاء أربعة

---

(١) شارك النساء الرجال فى أوربا فى كل عمل من أعمال الحياة وفى فرنسا شاركن الرجال فى الامور الذهنية أيضاً وثلث ما ينشر فى فرنسا من الكتب هو من أقلام الكاتبات والشاعرات وكثيرات منهن يكتبن ويجدن كالرجال مثل مارسل تينايز مؤلفة كتاب دار الخطيئة والكونتس دى نوايل والعقيلة دي رنيه امرأة الشاعر المشهور وهى شاعرة مثله ومريم هارى صاحبة كتاب فتح البيت المقدس وعشرات أمثالهن من المشهورات . والمنافسة الادبية بين الجنسين النشيط واللطيف على أشدها فى فرنسا حتى قال لى أحد كتابهم انه سيجىء يوم على فرنسا لا يبقى لكتابها وجه للمعاش الا أن يطيروا فى مناطيد الهواء فقط وما عدا ذلك فالنساء يتولينه بدلنا . ولعل من يسيح فى أوروبا بعد عشرين سنة يشاهد مالم نشهده الآن من الارتقاء المادى والادبي فقد ساح الشيخ رفاعة الطهطاوى فى منتصف القرن الماضى ولم يكن من مرسيليا الى باريز سكة حديدية بل كانت فيها حافلة بالدواب فاغتبط بما رأى وساح احمد زكى باشا فى أوائل هذا القرن فركب القطارات فى أوربا جمعاء . وسحنا نحن اليوم فرأينا مالم يكن يعهد من السيارات الهوائية والمؤلفات فى العلوم والصناعات الادبية فماذا يشهد أولادنا وأحفادنا بعدنا يا ترى ؟

آلاف مدرسة يعلمون فيها العلوم العالية والدروس المنوعة بلغتهم ولم ينقصهم أساتذة ولا أعوزهم بالطبع التلامذة

فالمرأة البولونية وإن عنيت بتعلم اللغات الاجنبية عنها تحتفظ بلغتها ووطنيتها احتفاظاً أسأل الله أن يرزقنا نحن بعضه حتى انها اذا تزوجت من أجنبي لا تلبث أن تصبغ أولادها بصبغتها بحيث اضطر بسمرك أن يسن فى عهده قانوناً يحظر فيه على الضباط الالمان أن يتزوجوا من البولونيات اذ ثبت له أن الوطنية الالمانية كادت تضعف ويعروها الانحلال فى القسم الذى أصاب مملكة بروسيا من ارث صاحب بولونيا

فياليت شعرى متى يكون نساؤنا بل رجالنا فى هذه المنزلة من صحة الوطنية مع الحرص على الجامعة العثمانية التى هى عدتنا فى شدتنا وبدون هـذه الجامعة السياسية لا يرجى لنا بقاء بعد الذى رأيناه من تكالب الغرب على الشرق فنحن ان أنصفنا لا ننزع يدنا من الجماعة لان يد الله مع الجماعة ومن رأى كيف كانت حالة سويسرا وألمانيا والولايات المتحدة قبل الوحدة السويسرية والالمانية والاميركية يدرك سر الاجتماع والتعاضد ويعرف ان المركب الكبير يستحيل أن تأتى عليه الانواء بقدر ما تضر بالصغير فقد يغرق هذا أو يستغرق فى غيره ولا من يسمع به

تعلمنا أوربا وأميركا كل يوم معنى من معانى الوطنية والجامعات الجنسية . فان كان بعض الاجتماعيين يدعون اليوم الى انشاء جامعة أوربية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة أميركية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة صفراء من اليابان والصين واحد أفلسنا نحن يا أبناء العثمانية أحرياء بأن نزيد فى تكاتفنا وتكافلنا ونرفع من بيننا سوء التفاهم بسعى العقلاء منا .

طال المقال وبت أخشى عليكم الملال فهل تأذنون بأن أختمه بجملة واحدة للمقارنة بين أخلاقنا وأخلاق الغربيين وهى الأخلاق التى كانت من أعظم الوسائط فى ارتقائهم كما كان نقيضها واسطة فى انحطاطنا وذلك انى تبينت بالاختبار ان

الافرنج أكثر تفكراً منا فى مصادر الاحوال ومواردها فهم لا يقدمون مثلنا على أمر قبل أن يوقنوا من أنفسهم الغناء فيه ، فالصانع فى الغالب لا يتطاول الى أن يكون سياسياً والمحامى لا يعمل فى الزراعة ، وهكذا اختص أهل كل طبقة بطبقتهم وتفرد كل عالم بما يعلم ولم يتعده فالاختصاص أو الاخصاء هو الذى كان واسطة نجاح الغرب ودعوى معرفة كل شئ هى التى كانت واسطة انحطاط الشرق .

الغربى يفتخر بأنه لا يعرف غير ما تعلمه فى مدرسته وحصله من حرفته ، ولكنه تعلمه فبرز فيه وأحاط بأطرافه وصبر حتى نضج فتناول ثماره جنية . أما نحن فنسارع فى الهبوب كما نسارع الى الرقود فنهب دفعة واحدة كما نخمد كذلك

الغربى يهمه نجاح العمل من حيث هو عمل نافع لامته ولنفسه ولذلك جاءت مصانعهم ومعاهدهم بل وجميع شؤون حضارتهم نخمة خالدة وكانت مصانعنا ومعاهدنا وسائر أعمالنا مختلة معتلة لا تدوم الا بدوام من عمل لها أول مرة فاذا ما ذهب تذهب بذهابه .

الغربى استفاد ويستفيد بتجارب غيره لان من عادته ان يحسن الانتفاع بكل شىء . ونحن من عادتنا ان نهزأ فى الاكثر بكل شىء .

الغربي يدخل الاصلاح الى داره وبيته وأمته بالتدريج بحسب سنة النشوء فى عالم الكون والفساد ، ونحن نحب أن نطفر طفرة فى اصلاحنا والطفرة محال لان سنن الفطرة لا تغالب ولا تعاند . الغربى يحب النظام حتى صار ذلك طبيعة ثانية له ونحن لا يهمنا النظام ولا التنظيم . الغربى معتدل على الاكثر فى عامة أحواله ونحن أميل الى الافراط أو التفريط ، الغربى عبد الواجب ونحن قلما نقوم بفرض أوواجب فالغربي كما أحسن تقسيم الاعمال والاخصاء فيها أحسن استخدام الوقت احسانه لاستخدام عناصر الطبيعة فجده جد ولكن فى أوقات الجد وهزله هزل ولكن فى أوقات الهزل ونزهته نزهة ولكن فى اوقات النزهة وعمله عمل محض ولكن فى زمن العمل والشرق ويا للاسف ليس كذلك .

أحسن الطبائع فى الغربى خلق الاعتماد على النفس وانكار النفس فهو يعتمد على كفاءته أولا ثم على محيطه وأمته وقد يهتم فى الاكثر بمصلحة أمته اهتمامه أو أعظم بمصلحة نفسه ولذلك جاء كل غربي راق أمة برأسه وأمة تتألف من أفراد هذا حال سوادهم الاعظم ينبسط ظل عمرانها ويمتد على الارض سلطانها ، فالله اسأل ان يهب هذا الشرق المحبوب نفثة من تلك الروح العالية وهذا لا يرجى لنا الا بتكثير سواد امثالكم يا طلاب المدارس العالية : فطلاب المدارس العالية هم ولا جرم اهل المطالب العالية فاعرفوا مقدار أنفسكم ومقدار الآمال التى تعلقها عليكم امتكم نضر الله وجوهكم وبيض بكم وجوهنا

الرحلة الثانية

دواعي الرحيل وجهلنا ببلادنا

٣٦

كل من طاف بلادنا وقابل بين حالها وحال الاقطار الراقية ، يدرك لاول وهلة اننا عيال على الغرب والغربيين في كل شيء ، وأنهم إذا قطعوا عنا أقل صادراتهم نعود أدراجنا على النحو الذي كنا عليه منذ بضعة قرون. وهذا مما يصدق علينا في عامة شؤوننا ، والعلم هو أول بضاعة يجب علينا أن نستبضعها من الغرب وهو رأس الحاجيات ، وبدونه الممات .

وما كنا نظن بعد أن أحفينا مكاتب مصر والشام لدرس موضوع « خطط الشام » اننا كلما أوغلنا في تضاعيفه يتجلى كل التجلي جهلنا ببلادنا ، واننا سنحتاج بعد بحث نحو خمس عشرة سنة ، إلى أن نقصد الى مكاتب أوربا نأخذ منها مافاتنا في أرضنا من المواد التي لم يحوها المطبوع ولا المخطوط ، مما كتب لنا الاطلاع عليه في مكاتبنا الخاصة والعامة

أي غضاضة على الشرق أن يرحل باحث في شؤونه حباً باتقان عمله الى غير أهله وبلده ، وأن يتسقط الفوائد من الغريب ، والقريب في معزل . بيد أن يوماً طويلاً أمتدت لياليه السود على هذا الشرق سلبت منا بحكم تنازع البقاء وبقاء الانسب . تراث أجدادنا في هذا الوجود وجردنا من منافعنا ومرافقنا وكتب أسلافنا العرب كانت أول ما رحل عنا غير آسف اذ لم يعرف لها الاخلاف قيمتها الحقيقية ، والاسفار في كل الاعصار ، هي هي مفتاح فتح الامصار ، والعلة الاولى في سعادة البشر ، ونقل المدنيات من النظريات الى العمليات

هاجت الخواطر فى النفس خصوصاً عند ما ذكرت أن أميراً واحداً من أمراء ايطاليا وهو البرنس ليونى كايتانى مؤلف تاريخ الاسلام الكبير هو الذى جمع بسعيه وتنشيط حكومته مكتبة له منقطعة النظير فى الغرب نفسه فيها كل ما يحتاجه باحث فى تاريخ الاسلام والعرب وبلادهم فأستنسخ من المكاتب الخاصة والعامة فى أوربا وأميركا وآسيا وافريقية كل مخطوط عربى فيه شئ من هذا القبيل ومالم يقدر على نقله أخذ له بالتصوير الشمسى فمن زار هذه المكتبة فكأنه زار مكاتب العالم أجمع واطلع على ما فيها من المواد التاريخية والجغرافية فى هذا الباب .

شبهتنى وأنا أشد الرحال قاصداً إلى رومية للبحث فى مكتبة الامير الايطالى بطلاب العلم فى أوربا في القرون الوسطى وكان بعضهم من الاسرائيليين يقصدون بلاد الاندلس ليقرأوا على علماء العرب علومهم ويرجعوا من كتب المسلمين بيلة تروي غلة جهلهم ، فسبحلت وحوقلت . قائلا : ما أغرب تبدل الامم والبلاد . وما أهنأ الغرب بما صار اليه من دواعى المنعة وأسباب العلم وما أشقانا بما فعل السفهاء منا .

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواماً بأقوام

وليت شعرى أيعود ذاك العهد السعيد بالعلم على العرب ويصبح أبناء اليوم يفاخرون بالقاهرة والقيروان وفاس ودمشق وبيروت وحلب وبغداد والموصل وصنعاء ومكة كما يفاخرون بغرناطة واشبيلية ولشبونة وغيرها من المدن فى الاندلس وصقلية التى استعمرها العرب بالعقل والعلم وأضاعها بعد ذلك جهل ابنائهم وغرورهم

أيظل الشرق ياترى يعتقد فى نفسه الكفاءة والغناء ويقلع عن القول بأن الغربى يغمطه حقه باستباحته حماه واكتساحه دياره الحين بعد الآخر ؟ أم يهب باحثاً عن جميع علل هذا الارتقاء عندهم والتدلى عندنا ويتعلم ما جهل مع الشكر لكل من يعلمه وينعشه من سقطته .

حكوماتنا هى السبب الرئيسى فى اظلام العقول واشتغالها بالفضول وأهل

الغرب هم الذين قوموا معوج حكوماتهم فهل ندرك جيلا من الناس يقوم اعوجاج حكومات الشرق و نتمتع على الاقل بمعرفتنا بانفسنا ومن عرف نفسه عرف . به

دار الدعوة والارشاد فى القاهرة

٣٧

اغتنمت فرصة مقامى بضعة أيام فى القاهرة لفضاء بعض المشاكل أثناء شخوصى إلى ايطاليا لازور دار الدعوة والارشاد التى أنشأها صديقى السيد محمد رشيد رضا منشىء المنار في السنة الماضية وكان ينوى انشاءها فى الاستانة أولاً لو صادف من القابضين على زمام الامر تنشيطاً على مشروعه وغرضه الاول من انشائها ايجاد هيئة صالحة بالعمل من رجال الدين يجمعون الى معرفة الدين النقى وأسراره وحكمه المطابقة لاحوال الزمن معرفة أحوال العصر حتى تحل هذه الطبقة محل الهيئة القديمة التى كادت الامة تنزع ثقتها منها .

أنشأ هذه المدرسة الصديق الرصيف أو « جماعة الدعوة والارشاد » وهى جمعية مؤلفة من أهل الفضل والعقل والتدين « لتخريج علماء مرشدين قادرين على الدعوة الى الاسلام والدفاع عنه والارشارد الصحيح وارسالهم الى البلاد الشديدة الحاجة اليهم » و « يرسل الدعاة الى البلاد الوثنية والكتابية التى فيها حرية دينية ولا يرسلون الى بلاد الاسلام الا حيث يدعى المسلمون جهراً الى ترك دينهم والدخول فى غيره مع عدم وجود علماء مرشدين يدفعون الشبهات عن الاسلام ويبينون حقيقته لاهله »

وقد جاء فى النظام الاساسى لجماعة الدعوة والارشاد انه « تتكون أموال الجمعية من الاشتراكات الموقوتة والاعانات والتبرعات والهدايا والوصاية والاوقاف التى توقف عليها أو ماتناله من ريع أوقاف أخرى ومن ريع رأس مالها »

و « يضاف ربع دخل الجمعية السنوى الى رأس المال للاستغلال وهذا ماعدا المبلغ الاحتياطى » وكان تبرع لهذه الجمعية بعض الاجواد من العرب وفى مقدمتهم الشيخ قاسم آل ابراهيم من كرماء جزيرة العرب بألفي جنيه مباشرة ولعله يتبرع بغيرها كل سنة

فى جزيرة الروضة [١] المشهورة الآن بالنيل حيث قام فى جنوبها مقياس النيل المبارك بين جسر (كوبرى) عباس وجسر الملك الصالح أو بين القاهرة المعزية ومديرية الجيزة قامت اليوم دار الدعوة والارشاد فى احد مصايف أبناء شريف باشا الوزير المثرى المشهور وقد ضمت فى حجرها الى الآن صنفين عدد طلبتهما الداخليين ٣٥ والخارجيين يختلف بين ٢٠ الى ٣٠ يعلمهم عشرة معلمين منهم أناس من رجال الدين وآخرون أساتذة علوم صرف وطعام الطلبة و نظافتهم ونظامهم في قيامهم ومنامهم مما لم يعهده طلبة العلوم الدينية اللهم الا أن يكون طلبة مدرسة القضاء الشرعى في مصر لان مؤسس مدرسة الدعوة والارشاد أفراد ومؤسس مدرسة القضاء الشرعى الحكومة . والحكومة أقدر على البذل من الافراد .

ويستفاد من نظام مدرستنا هذه أنها تدرس العلوم والفنون التى تدرس عادة فى الكليات مع التربية الدينية وزيادة العناية بالعلوم الاسلامية تنشأ أقسامها بالتدريج يبدأ منها بقسم عال لتخريج الدعاة الى الاسلام والمرشدين للمسلمين بالوعظ والتدريس ولسان التدريس فيها اللسان العربى ويتحتم فيها تعلم لغة من لغات العلم الاوربية ويجوز أن تدرس فيها عدة من اللغات الشرقية والغربية ولا سيما لغات الشعوب الكبيرة من المسلمين كالتركية والفارسية والاوردية والملاوية . ومدة صنف المرشدين ثلاث سنين وكذلك صنف الدعاة ويختار

(١) هذه الجزيرة هى التي ورد ذكرها كثيراً فى شعر المصريين منذ القديم وتغزلوا بمحاسنها وللسيوطى كتاب فى تاريخها أسمه « كوكب الروضة » من جملة مخطوطات الخزانة التيمورية أو مجموعة أحمد تيمور باشا من علماء القاهرة وأعيانها

طلابه من متخرجي صنف المرشدين يمكثون ثلاث سنين أيضاً وذلك ماعدا السنة التمهيدية الاولى .

التعليم في قسم الدعاة والمرشدين من المدرسة مجاني والمدرسة تنفق على الطلاب الداخليين فيه وتكفيهم كل ما يحتاجون اليه فيها وتعطيهم أعانة شهرية بحسب الحاجة والاجتهاد والتهذيب لاتقل عن ريال مصري في الشهر وأما الطلاب الخارجيون فلا تنفق عليهم شيئاً .

ومما يشترط في قبول الطلبة الداخليين أن تثق المدرسة بان طالب الدخول حسن السيرة وتكون سنه بين ٢٠ و ٢٥ وأن يكون حافظاً لطائفة من القرآن الكريم بحيث يسهل عليه اتمام حفظه قبل اتمام دراسة الصنف الاول وأن يكون قد حصل قدراً صالحاً من النحو والصرف والفقه وعرف القواعد الاربع من الحساب على الاقل وان يكون صحيح الاملاء حسن الخط في الجملة جيد المطالعة في الكتب العربية ومن أصل قديم في الاسلام وتتحرى المدرسة أن يكون طلابها من الاقطار المختلفة وتمرنهم على القيام بالفرائض والسنن وعلى الرياضة البدنية والتخاطب باللغة الفصحي داخل المدرسة وخارجها

واذا وفقت هذه المدرسة الى تطبيق فصل العلوم والفنون التي تدرس فيها حق التطبيق يجيء ولاشك من متخرجيها طلاب يشبهون دعاة الكثالكة والارثوذكسية والبرتستانتية في علمهم واستعدادهم خصوصاً ومن غرض المدرسة في باب تربية الاخلاق ان يعلم الطالب « الفرق بين زماننا وزمان القرون الاولى من المسلمين في الحاجة إلى سعة الثروة وتوقف حياة الامة عليها الآن وعدم توقفها في ذلك الزمن وكون الزهد الصحيح والقناعة الفضلى لا ينافيان تحصيل الثروة وعمارة الدنيا لانهما من صفات القلب وفائدتهما أن يجعل الانسان فضل ماله لنفع أمته ومجد ملته وأنه لا ينبغي تعمد ترك تحصيل الثروة الا لعمل أنفع للامة والملة . » ويعلمون في باب انتقال الامم والدول من حال الى حال مثل قوله سبحانه «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقوله « وتلك الايام نداولها بين الناس »

هـذا ماأمكنني التقاطه مما عساه يفيـد وانى لارجو لرئيس جماعة الدعوة والارشاد محمود بك سالم أحد علماء مصر العاملين وسائر مؤازريه الفضلاء الخير في الدارين لعملهم المبرور وآمل أن يكتب البقاء لهذا العمل العظيم بهمة جامع شمله الاستاذ محمد رشيد رضا ناظر المدرسة ووكيل الجمعية وان يكون أساسه على صخر متين سداه الماديات ولحمته المعنويات فيكون من مادياته مخرجا الى معنوياته والسلام

في طريق رومية

٣٨

أول مايلاحظه المسافر من الأرض العثمانية الى الديار الاوربية ان كل مايقع نظره عليه هو غريب عنـه ليس له منه الا النظر . فسبحان من جعلنا في بلادنا وبلاد غيرنا غرباء مساكين .

ركبت هذه المرة القطار من دمشق الى بيروت وهو لشركة فرنساوية ثم أبحرت من ثغر الشام على باخرة ايطاليـة (تيفرا) حتى اذا بلغت الاسكندرية واردت الركوب منها الى نابل ميناء رومية ركبت الباخرة « البرنس هنرى » من بواخر شركة نوردتش لويد الالمانية وهكذا كنت عالة في تنقلي على الفرنساوي والايطالي والالماني ولو قصدت وجهة أخرى لكنت في ضيافة الرومي والنمساوي والانكليزي والروماني !

حالة يأسف لها وأيم الحق كل من ينبض فيه عرق الوطنية لأنها تصغر نفسه في عينه ومن ساء ظنـه بنفسه انحطت عن كل عمل . نعم يتألم الفؤاد من هـذه الحركة الاقتصادية المباركة لان العثمانيين عامة والسوريين خاصة بعيدون عنها كل البعد ليس لهم علم الغربي يذكرون به ماينهضهم من كبوتهم ولا مضاؤه ليتمثلوا به في جهاد الحياة الراقية ولا أسبابه المادية التى تبعثهم على تقليـد الناهضين من شعوب العالم المتحضر في هذا العصر

نحن ويالللاسف نريد أن نعيش فى القرن العشرين عيش ابن القرن العاشر ونرى لسوء حظنا ان مجدنا القديم يكفى تذكره وحده ليحيينا الى الابد حياة طيبة رشيدة ونتطال الى أن نقنع العالم بل أنفسنا بأننا شعب راق بمجرد ايراد الشواهد على أيامنا الغر المحجلة فى تاريخ المدنية السعيدة ولكن حضارة الغرب اليوم لا تبقى على ضعيف فى قوته ومعرفته ومادته وحكومته . هى تبتلع العالم والشاهد على ذلك استصفاؤها قارة أفريقية وتوشك أن تستغرق قارة آسيا لولا بقايا شعوب مستقلة عظيمة كاليابان والصين .

مدنية أوربا هى التى حملتنا فى البحر المتوسط من بيروت الى الاسكندرية في ٣٢ ساعة ومن الاسكندرية الى نابل فى ٧٠ ساعة ومن نابل الى رومية فى أربع ساعات على السكة الحديدية . والبخار والكهرباء هما صفوة العلم الاوربي بل المثال الحي من هذه المدنية الحية التى سيعم فضلها كل بقعة من بقاع الارض شاء أهلها أم أبوا فتحيا الامم التى تقوم بما قامت به أمم الحضارة الحديثة وتموت لامحالة الامم التى لها من حكومتها أو من تقاليدها أو من ضعفها مايعوقها عن الانبعاث والحركة .

تهتز نفس الشرقى وأى اهتزاز عند مايدوس أرض الغرب وتتوارد الخواطر عليه والتذكارات والمؤلمات وتتنازعه عوامل المنشطات والمثبطات . هكذا كان حالى يوم أزعجنى القدر منذ أربع سنين فنزلت مارسيليا ثغر الفرنسيس وهكذا أنا اليوم وقد وافيت نابل ثغر الطليان . وليس فى هذه الفرصة من جديد فان حركة المدن الساحلية والعواصم الغربية واحدة اجمالاً تكاد تتشابه لأنها قائمة بالعمل قوامها انتظام أحوال تلك الحكومات وتناغي سكانها بوطنيتهم وذهابهم بفضل العلم والنشاط وتميزهم بالذوق واللطف .

من أجل هذا كانت نابل مثالا مصغراً من حضارة الطليان ورومية وهذه هي العاصمة المثال المكبر والفرع يدل على أصله والكتاب يقرأ من عنوانه . لم يتسع لى الوقت وقد قضيت يوماً فى نابل ان أزور معالمها وكليتها وآثار بومبي

الرومانية خصوصاً وهي على مقربة منها لأنى فى صدد البحث عن تاريخ أجدادى وبلادي لاتهمني أولاً الا الغاية التى أنا قاصد لها من البحث عن المخطوطات حتى اذا كان في الزمن متسع أزور من معاهد هـذه الديار ومصانعها ما نستفيد منه عبرة لنا ولامتنا وينفعنا فى الاخذ بمذاهب الرقى ان صحت نياتنا عليه .

الى ساعة كتابة هـذه السطور لم أتمكن من معرفة شيء من أحوال ايطاليا اللهم الا ماهو معروض فى الازقة والشوارع والساحات ومحال القهوة والمتنزهات وهذا لا يبنى عليه حكم ومع أن الطبقة الراقية تتكلمك باللغة الافرنسية وكذلك تتخاطب مع أهل الفنادق والمخازن الكبرى وبعض الاماكن العمومية فانك تجد صعوبة فى التفاهم مع جميع طبقات القوم لجهلك لغتهم الوطنية . هذا مع تقارب اللغتين الافرنسية والايطالية احداهما من الاخرى واللغات اللاتينية أى الافرنسية والايطالية والاسبانية والبرتقالية متشابهة لانها من أصل واحـد كما أن اللغتين الالمانية والانكليزية متشابهتان لانهما من أصل سكسونى واللغة الروسية والرومانية والبلغارية والصربية متشابهة لانها من أصل سلافى .

ومع أن جليسك تنقبض نفسه منك فى العادة اذا لم تكن لك معه لغة مشتركة لاتجد فيما تسمعه فى المحال العامة ودور التمثيل والموسيقى هنا ثقلا على سمعك من لغة الطليان وان كنت لا تفهمها بل تبلغ نبراتها صماخ أذنك كأنها أوتار موسيقار تتكلم ألحانها أكثر من ألفاظها . ولا عجب فايطاليا مهد الصـناعات النفيسة بل هى بلاد الموسيقى والشعر والتصوير والبناء عرفت بذلك منذ أوائل عهد الاسلام وباعت من الغرب بل ومن الشرق موسيقاها وشعرها وتصويرها وهندستها وهى بلاد النهضة منها نشأت وانتقلت الى فرنسا وأوربا كلها وطليان الجنوب يشبهون السوريين فى كثير من عاداتهم وملامح سحناتهم وكلما تقدمت نحو الشمال تزيد المدنية ويفخم العمران .

وعلى ذكر الجنوب والشمال لا بأس بأن يعرف القارىء ان البلاد الاوربية كلما قربت من سمت الشمال كانت أقرب فى الجملة الى الاخذ بأسباب الرقى والحضارة

وهذا مشاهد محسوس . فانك تجد شمال ايطاليا أرقى وأعمر من جنوبها وكذلك فرنسا بل ان ألمانيا فى جنوبها أحط منها فى شمالها وهو سر غريب من أسرار هذا الكون ولعل الباحثين فى طبائع الاقاليم بحسب القرب والبعد من خط الاستواء لايعدمون تعليلا لذلك . أما رومية فهي مجموعة بدائع الطليان ولا جدال لانها معدودة من أواسط ايطاليا على ماسنذكره

الامير كايتانى

٣٩

كان الاغنياء والأمراء فى الغرب قبـل أن تتقرر قواعد المدنية الحديثة وترسخ أصولها يدلون على شعوبهـم بحكم التغلب وقوة المال وأرجحية القدم . أما الآن فان أمثال هـذه الطبقة أدركت أن كل تلك الامتيازات والاعتبارات قد ألغتها القوانين الدستورية فى الامم الحرة النيابية فلم يبق من أسـباب الفخر الا شخصية المرء وعلمه وعمله ولذلك لاتسمع بامثال هؤلاء الناس الا اذا أتوا عملاً ينفع المجتمع ويخدم الحضارة أو يرقيها درجة أخرى

وممن جمع بين فضيلتى المجد القديم والمجد الحديث فعد عصامياً عظامياً الاميرليونى كايتاني من كبار الأسر القديمة فى روميـة التى يرد تاريخها الى زهاء ألف سنة ومنها خرج رجال خدموا أمتهم على اختلاف العصور والمنازع فكان منها البابوات ورؤساء الدين والقواد والحكام ولقد سار سليل هـذا البيت على سـنة كثير من أمراء الغرب فلم تبطره الزخارف ولم يستهوه المال والمجد القديم وتنكب عن الرفاهية منذصغره فدرس فى كلية روميةالآداب وأتقن من اللغات الايطالية والافرنسية والانكليزية والالمانيةواللاتينية والفارسية والعربية

ولما أحرز حظاً وافراً من العـلم والآداب سمت به همته وهو قبيل الخامسة

والعشرين أى منذ زهاء عشرين سـنة أن يضع لامته كتابا فى التاريخ الاسلامى بلغتها يغنيها عن أكثر الكتب ويرفع كثيراً من المشاكل فى تاريخ العرب الذى أدهش العالم . فجمع لذلك مكتبة ضخمة باللغة العربية وغيرها من اللغات واستنسخ وأخذ بالتصوير الشمسي كل ماعرف من تاريخ العرب من المخطوطات وكان مبعثراً فى مكاتب أوربا وغيرها فجاءت مكتبته خير مكتبة فى الشرق والغرب في موضوع التاريخ الاسلامى خاصة ومن رآها فكانما زار مكاتب الغرب للبحث عن آثار العرب ومدنيتهم

ولقد نشر حتى الآن من تاريخه ستة مجلدات ضخمة ولم ينجز بها أكثر من عشرين سنة من تاريخ الاسلام وهو يرجو ان يفسح الله فى أجله عشرين سنة أخرى ليكمل القرن الأول للاسلام فيقع فى خمسة وعشرين مجلداً [1] ولا يطبع من تاريخه أكثر من مائتـين وخمسين نسخة يوزعها على المجامع العلمية فى بلاده وفى الغرب وعلى بعض أصحابه من العلماء فقط وقد جعل شعاره فيها قول الشاعر العربى :

كفاف عيش كفانى ذل مسألة وخدمة العلم حتى ينقضى عمرى

يقول كفاف عيش وثروته وثروة أبيه فيما بلغنى تقدر بعشة مليون فرنك دع ثروة حليلته الأميرة وهى غنية أيضاً ولهم المزارع الواسعة فى ضواحى روميـة اذا استثمرت حق الاستثمار على أحدث الطرق تزيد ثروتهم أضعافاً والأمير مع هذا تفرغ الى العمل فى مزارعه ويتعهدها كما يتعهد رياض العلم كل يوم ويصرف على اتقان عمله الذى صرف شبابه وهاهو يصرف الآن فيه سن الكهولة وسيصرف فيه أيضاً سن الشيخوخة بحول الله شطراً ليس بقليل من المال فعنده ثلاثة مترجمين من اللغات المختلفة ينظر فيما يترجمون لكتابه من المواد ماعدا ماينفقه

---

(١) عجيب صبر الايطاليين على تآليفهم فان المستشرق ميشل اماري قد تعلم اللغة العربية واتقنها خاصة ليكتب كتابا فى تاريخ صقلية فكتب مطولا لم يسبق اليه عند قومه وهو المرجع اليوم فى تاريخ هذه الجزيرة الايطالية التى دانت للعرب قرنين ونصفا وقد نشر امارى جميع ما كتبه مؤرخو العرب عن هذه الجزيرة باللغة العربية فى كتب ورسائل كثيرة

فى الكتب وطبع كتابه ولكن كل ماينفقه فى سنة لا يعادل ماينفقه غنى واحد من فساق أغنياء الاميركان أو الروس مثلا فى ليلة واحدة فى باريز أو مونت كارلو فسبحان من أودع في كل قلب ماأشغله

طاف الأمير كثيراً من بلاد الشرق ولا سيما الهنـد وفارس والشام ومصر ودرس أحوالها وطابق بين ماضيها وحاضرها فاذا تكلم فى تاريخنا صدر عن علم نظرى وعملى . ولقدذهب منذ ست سنين الى بلاد الشام ليرى بعينه المكان الذى كانت فيه الوقعة الفاصلة بين العرب والروم فى اليرموك . وهذا قلمايتيسر الا لمن أوتي همة شماء واستسهل ركوب كل صعب فى سبيل تحقيق رغائبه .

وما زال منذ بدأ فى التأليف وهو يدأب وراء منضدته فى مكتبته كانه عامل بسيط فانه يبدأ فى عمله كل يوم الساعة الخامسة صباحا على الغالب ولا يزال أكثر النهار يعمل ويطالع لا تعرو همته ملل ولا ينظر في سفساف الأمور . ولقد كان نائبا فى الانتخاب الماضى فى مجلس النواب فأضاع فى النيابة شيئاً من وقته ولكن لم ينتخب هذه المرة فكان ذلك من حظ العلم والآداب لانه توفر بجملته على خدمتهما .

وعدم انتخابه ناشىء من أن خصومه السياسيين اتخذوا من خطة الأمير فى مسألة فتح ايطاليا لطرابلس وبرقة حجة أثاروا بها الرأى العام حتى لا يعودوا الى انتخابه وذلك ان الأمـير أحب أن يتكلم بلسان العالم المنصف ولم يعقه حبه لامته عن أن يقول لها وقت قامت حكومته لفتح تلك البلاد ان هذا العمل منها ضرب من ضروب اللصوصية لا يليق بأمة متمدنة وليس له مسوغ معقول قال هذا بالتلميح فى المجلس وكتبه فى الصحف الايطالية وغيرها بالتصريح فحنق عليه من حنق وأثاروا الخواطر من جهته وقد بذل مالا كثيراً للنيابة عن أمته قيـل انه عشرون ألف ليرة ولـكن خصمه بذل خمسة وثلاثين ألف ليرة ففاز عليه .

والأمير على مارزق من الشهرة العامية لجمعه بين المجد التالد والطارف رقيق الحاشية يغلب عليه عدم التكلف ولما قابلته لأول مرة حاملا اليه من صديقه

أحمد زكى باشا العالم المصري كتاب توصية ليقبلنى للبحث فى مكتبته اعتذر عن كونه قابلنى بثياب عمله وقال ان عنده شيئاً من المخطوطات العربية أخذت بالتصوير الشمسى ولا يدرى ان كان فيها حاجتى على أنه تفضل ودلنى على مظانها وما برح اليوم بعد الآخر يشير على بالرجوع الى كتاب كذا ففيه مادة لكتابى وهو يبش ويقول فى الاحايين أنه مسرور لعثورى على شذرات تهمنى كل هذا وهو لا يضيع دقيقة من وقته الثمين وناهيك بارتفاع أسعار الأوقات فى الغرب ولا سيما عند المشتغلين بالعلم والتأليف ومنهم أرباب الصحف والمجلات ومنشؤها مثلاً .

لئن امتازت الخزانة التيمورية فى مصر بانها تحوى أمهات كثيرة من مخطوطات علماء الاسلام فى علوم مختلفة وامتازت الخزانة الزكيـة بالقاهرة بجمعها أنفس المطبوعات العربية في العرب فان الخزانة الكايتانية فى رومية تحوى على الغالب أهم كتب التاريخ الاسلامى أو ماله علاقة فيـه وذلك باللغات المختلفة ولا سيما العربية مما هو جدير ان يرحل اليه من الصين لا من دمشق .

وقديماً كان أمراء المسلمين وعلماؤهم يفتحون خزائنهم للباحثين والمؤلفين ينزلونهم على الرحب والسعة كما فتح منصور بن نوح السامانى خزانة كتبه لأبى منصور الثعالبي فألف فقه اللغة وكما فتح على بن يحيى المنجم من أهل القرن الثالث فى قرية له نفيسة بكركر من ضواحى القفص خزانة كتب عظيمة فى قصره الجليل وسماها خزانة الحكمة فأخذ الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة فى ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهـم والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى وكما وقع من غيرهما كثير أما اليوم فان هذا المعنى كاد يتفرد به علماء الغرب وأمراؤه وأصبح الشرق بلقعاً حتى من كتبه وآثاره وانتقل تراثه بحكم الطبيعة الى من أحسن تعهده واستثماره سـنة الله فى خلقه .

*

نساء الافرنج

٤٠

الانكليز أعجب أمم الحضارة فى أخلاقهم وعاداتهم لايقبلون الجديد الا بشق الانفس ولكنهم اذا قبلوه تناغوا فيه وحرصوا عليه وبرزوا على من سبقهم وسابقهم

والغالب ان كل الحاجيات تمت أوكادت فى هذه المدنية الغربية حتى قامت بعض نساء الأمم وطالبت باشرا كهن فى حقوق المدنية فاصبحن ينتخبن نائبات فى المجالس النيابية ويشركن الرجل فى أعمال السياسة ومن الفائزات السابقات فى هذا السبيل نساءفنلندا وأوستراليا وزيلاندة الجديدة والنروج .

رأى النساء الراقيات من الانكليزيات ذلك ورأين حقوقهن مهضومة مع الرجل وغرن — والغيرةمن خصائصهن — من اللاتى سبقنهن من بنات جنسهن وقمن منذ ثلاثين سنة يطالبن حكومة بريطانيا العظمى بحقوق بنات حواء وما زلن منذ عقدت العقيلتان كوب وميلنر احتجاجا فى لندرا سنة ١٨٨٤ وهن على وتيرة واحدة من السعى وراء مقصدهن لم يدخل الملل على نفوسهن

خطبت اذ ذاك العقيلة ميلنر وقالت انها أزمعتأن لا تدفع الخراج الذى عليها للجابى بحيث تضطره الى أن يكسر بابها ويحجز متاعها وهكذا تقاوم الحكومة وكل سنة تزيد قسوة واملالا . فضحكت الصحف من هذا القول اذذاك ومن الغد أرسل اليها من جميع أطراف انكلترا ابر للخياطة . اشارة الى أنالمرأة هذا شأنها ولا يليق بها ان تخرج عن هذا الحد

ولكن المطالبات بهذا الحق ظللن يجمعن قواهن هذا وهن على عهد الملكة فيكتوريا التى سنت للملكات دع نساء الطبقات المختلفة من السوقة سنة توفر النساء على تربية أولادهن وتدبير منازلهن والقيام على أسراتهن وبيوتهن حتى

قالت فى مفكرتها ان أحسن امرأة هى التى تبدو صالحة لزوجها وأولادها .
ولقد ربت ملكة انكلترا وأمبراطورة الهند بناتها على التربية البيتية الراقية حتى ان الأميرة أليس دى هيس درامستاد كتبت الى أمها تقول : ها قد صنعت الفساطين اللازمة لبناتى الصغيرات فى الشتاء فعملت منها سبعة ولم أطرزها فقط بل فصلتها وخطتها وعملت أيضاً رداء من الصوف للطفل الذى ننتظر قدومه وأنا التى أتولى حسابات الدار ولذلك ترينى مستغرقة فى العمل . ان أسرتنا الصغيرة تزداد بسرعة وستقضى علينا الحال بعد بضع سنين أن نعيش باقتصاد زائد .
فى مثل هذه الأمة التى ملكتها وأميراتها على هذا الطرز من حب الانصراف الى الاعمال البيتية يقوم ربات الحجال فى أقصى بلاد الشمال ويعمدن الى القسوة فى المطالبة بحقوقهن السياسية حتى لقد لجأن كما قالت جريدة الماتين من مقالة افتتاحية الى استعمال القوة فى مقاومة رجال الضبط والربط بل ان تلك الأيدى اللطيفة التي يجب أن تكون رباتها ملكية الاخلاق بلطفها ودعتها هى التى تتهمها « التيمس » بانها تشعل الحريق فى بعض بلاد الانكليز لتحمل الحكومة على اجابة تلك المطالب وانه قد حرق فى شهر تشرين الاول الماضى فى بريطانيا من الأملاك مايقدر بنحو ستة ملايين فرنك ونصف وثبت بالتحقيق أن للمطالبات بحقوق النساء يداً فى نحو عشر حرائق منها وان النساء المتحمسات لهذه الفكرة يطلبن شيئاً من المال فلا يلبث أن يحمل اليهن فقد طلبن مرة مئة ألف جنيه وأخرى ربع مليون جنيه وكلما طلبن مالا يأتيهن عفواً ويقدر مايصرف النساء الانكليزيات فى الشهر بنصف مليون فرنك على تحقيق مطالبهن
هذه هى أعمال النساء الانكليزيات ومعظم البشر لايوافقونهن على استعمال القوة فى مقاومة القوة ولكن هذا الثبات يدل على روح غريبة لا أثر لها فى الشرق وكيف تكون حال نسائنا مرضية وهن راضيات عن تقهقرهن فرحات بجهلهن .
العاقل لايطلب لنساء الشرق أن يشاركن الرجال كما هن فى الغرب فان تقاليدنا وأدياننا وعاداتنا لاتنطبق مع هذا ولكن كل ماتتقيد به من قديم لايحول بين

نسائنا و بين التعلم . وليت شعرى كم مدرسة فتحت لتربية البنات فى عهد الدستور فى القطر السورى وكم رجل فكر أن يعلم بناته فن تدبير المنزل كما يعلم فى الغرب .

القشور التى يتلقفها بعض بناتنا فى مدارس الاميركان والفرنسيس والالمان ومدارس الحكومة لا ترقى أمة تشكو الليل والنهار من جهلها وجاءتها وتجيئها جميع المصائب من تعشيشه فى صدور كبرائها فما بالك بالصغار . ان ما يراه السائح فى أوربا من مظاهر تربيـة المرأة ومضاهاتها الرجال فى جلائل الاعمال يبكيه على الشرق ولا سيما الشرق الاسلامى الذى تأتيه العبر عن ايمانه وشمائله ولا يعتبر

تسعى ايطاليا اليوم لاعطاء المرأة حقها فى التصرف بمالهـا كما تحب دون أن تكون مقيدة بارادة زوجها أو وليها كما كانت حتى الآن وفى الشمال حاز بنات نوعهن كل هذه الحقوق وهن يطالبن بحقوقهن السياسية ونحن حتى الساعة لم يفكر نساؤنا ورجالنا فى شىء لانهاض المرأة من كبوتها فما أبعد الفرق بين الجنوب والشمال فى تربية الرجال وربات الحجال

***

وبعد فانا نشاهد كل آن العجب العجاب فى هذه الديار الغربية من مشاركة الرجل للمرأة فى أعمال الحياة مشاركة هى على غير الطريقة التى جرى عليها الشرقي الاقرب الذى جعـل المرأة فى منزلة يصح أن يقال انها أقصى دركات الانحطاط وهيهات ان تنجح أمة نصفها عاطل لا يعمل ولا يفكر ينظر اليـه بغير العين التى يجب أن ينظر اليه بها وينزل منازل الجهل والخمول .

قلنا ان العاقل لا يطلب لبلادنا ان تكون المرأة فيها كما هى فى الغرب فان هذا أشـبه بمريض يحتاج الى جرعة من الدواء قدر درهم فتعطيه رطلا وبذلك تقتله لا محالة . نعم لا نريد لنسائنا الآن أن يكون لهن حق المشاركة فى السـياسة ولا الاختلاط بالرجال على مثل هذه الحال ولا ان يكن منقطعات الى العلم والآداب فقط بل نريد تعليمهن التعليم الابتدائي الراقي الذى يكون محوره ترقية عواطفهن الدينية والمدنية ليكون من المرأة أم تحسن التوفر على تعهد بنيها وبيتها وتدخل

السرور على قلب بعلها ومحارمها وان نقتطع فئة من هؤلاء المتعلمات للتعليم ليتخرج بهن البنات والصبيان على السواء وهن يكن من الدارسات العلوم العالية بالطبع

قرأت الآن فى « الجورنال » مقالة افتتاحية لاحد المشتغلين بالتعليم عند الفرنسيس جاء فيها بمناسبة القانون العسكرى الجديد وجعل الخدمة ثلاث سنين ان فرنسا استاقت ألفاً وستمائة معلم فى سن القرعة للخدمة العسكرية وانها ستستعيض عنهم بالمعلمات يعلمن الصبيان قال الكاتب انه ساح فى أوقات مختلفة فى عدة بلاد كانت فيها المدرسة الابتدائية تقبل الفتيات كما تقبل الفتيان معاً على نحو ماتقبل المدارس العليا الطالبات مع الطلاب فرأى ان ذلك لا يضر بالآداب بل ينفعها فان الرجال لما كان شأنهم أن يعيشوا مع النساء فمن السخف ان يفصل بعضهم عن بعض عشراً وخمس عشرة سنة وان يعود كل جنس أن يعتبر الجنس الآخر دخيلا وخطراً فان التعليم المشترك يغرس فى الفتيان الشعور بالرجولية وفي الفتيات حياء بدون أن يكشرن عن أنيابهن . فانا نجد فى البيوت التى يكون للبنات فيها اخوة وللاخوة اخوات يحرزن صفات ليست أصلا لغيرهم من الاولاد ونحن لانريد مدارس مختلطة بل مدارس للصبيان تسلم أزمة التعليم فيها للنساء

المرأة تحب الأولاد وتعرف مراميهم فان فطرة الامومة التى تتنبه فى الفتاة تحبب اليها الأولاد وتعرفها بهم ويكون الأولاد فى الحال على ثقة مع معلمة فتاة كانت أو عجوزاً فى حين ان شبان المعلمين لايتيسر لهم أن يحبوا الاولاد وذلك لأن المتزوج رب الأسرة ربما توسع فى حبه أولاده فاحب أولاد غيره على مايوحى اليه العقل ولكن معلماً فى العشرين لم يتزوج لايحب الاطفال بل يضربهم ولا يبالى بهم لانه يعتقد نفسه بأنه أشبه بالمرضعة وان درجته انحطت فيجب مراعاة لمصلحة التعليم والأولاد معاً ان يوسد أمر التعليم فى مدارس الأطفال الى النساء بدون استثناء فان الطفل الذى يبدو شيطاناً امام معلمه يحاول أن يرضى معلمته كما هو الحال فى المقاطعات المتوحشة فى غربى الولايات المتحدة فيستبدل بمعلمة كل معلم

لايحسن التصرف مع الأولاد فيعود نظام المدرسة الى أحسن مما كان

قال ان للمرأة أسراراً فى اللطف والصبر والثبات الممزوج بحب وحسن النظر يجهلها حتى المعلم الخبير فما بالك بالمبتدىء بالتعليم . المرأة تعلم وتفهم ألف أمر لايستطيع الرجل أن يفهمها ولا يحرزها . انها رزقت جميع أسباب اللطف التى ترافق الاحسان .

هذا ماله تعلق بموضوعنا نقلناه فمتى تنشأ لنا مدرسة فى كل حاضرة من حواضر بلاد العرب تعلم الفتيات ليكن معلمات للبنات أولا وان أمكن للصبيان أيضاً وريثما تتم هـذه الامنية يكتفى اليوم بالمتخرجات من مدارس المبشرين أو المدارس الطائفية ويوسد اليهن تعليم البنات والبنين .

وما أظن الا القليلات من المتعلمات فى بعض المدن العربية والقليل من المتعلمين يفكرون فى هـذا المطلب الجليل الذى هواهم الادواء القتالة فى جسم مجتمعنا وهيهات أن يحصـل على شيء من البرء الا بتعليم البنين والبنات بل انه بدون العناية أولا بتعليم البنات لاتستقيم لنا مدنيـة وتكون تعليمها الأمور النافعة بحسب ماتقضى به عاداتنا ومعتقداتنا فينهض المجتمع العربى بانهاض شأن المرأة وبدون ذلك لا أمل لنا باصلاح بيوتنا

المرتبة لا تشفى

٤١

أحببت أن أخدر أفكارى موقتاً عن النظر في اخبار بلادى فأخذت أطالع بكثرة صحف هذه الديار ولا سيما باريز منها وأعنى عناية خاصة بالحوادث الداخلية مما لا يتيسر للصحافى الشرقي كل حين فاتلو كل يوم مرات أخبار القتل والانتحار والاعتـداء والفجائع والفظائع بتفاصيلها وكلها تدل على استهانة الغربي بالحياة جرياً على ماورد فى المثل العربى « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

لاينكر انمن الحوادثالطارئة هناما يسوق اليهاختلال الشعور من الاكثار من الخمور وانحلال العقيدة باليوم الآخر ولكن منهامايدل على شمم وعزة نفس وتوقع المجدوالشهرة . وبينا نجدابن البادية عندنا يقتل عابر سبيل ليذهب ببندقيته أوفرسه أو كيسه أوثوبه ترى الغربي ينتحر هو وزوجه أوولده تخلصاً من شقاء الحياة أو تفاديا من الوقوع فى فضيحة أو لسائق غضب أوغير ذلك من الاسباب ومنها التافه ولكنها كلها تدور على احتقار الغربيين للحياة .

قرأت الآن فى « البتى جورنال » ان العلماء بدأوا يتحركون لفقد بعض أجناس من الحيوان كادت تضمحل بسوء تدبير الانسان وظلمه وقسوته وان المجمع العلمى الباريزى قد حصر جلسته الأخيرة فى البحث عن أسباب حماية الفيل والكركدن والحوت والطيور التى تكثر فى البلاد الحارة وتصاد بلاشفقة ليتزين نساء الغرب بريشها واذا لم ينظر فى طريقة تحفظ بها انسال هذه الحيوانات تنقرض بعد بضع سنين لامحالة فيكون الناس أشبه حالا بحكاية من قتل الدجاجة اعتقاداً منه ان فى بطنها بيضة ذهب .

قال صاحب المقالة : منذ عرف العالم مازال الانسان يظلم ويطمع فى القضاء على الحيوانات ويسيء استعمال الأسباب التى جعلتها الفطرة أمامه فلاجل نفع معجل بل وربما كان لجلب سرور بربرى يقتل بدون خشية أنواعا من الحيوانات النافعة التى يحدث من فقدها اختلال فى ميزانية هذا الوجود . هو يقتل الفيل لان العاج ثمين جداً ويذبح كلب البحر لان جلده يباع بثمن غال ويصيد الجوارح والطيور لان ريشها تزدان به رؤس النساء المتبرجات الخ

وبينا أتصفح هذا وأعجب من رقة شعور القائمين بهذا الأمر وعطفهم على الحيوان وخوفهم من انقراضه مخافة أن يحدث منه خلل فى ميزانية عالم الكون والفساد : اذا بى أرى فى الصفحة الثانية أخباراً من فجائع الطيارات وهلاك الطيارين مما يحدث مثله كل بضعة أيام في الغرب لان مدنيته لاتشفق بل لاتقوم الا ببذل بعضهم أرواحهم فى سبيل اعلاء كلمة العلم

كان بعض رجال الرحلات من الغربيين منذ قرون يهلكون فى الصحاري والقفار أو فى القطبين وتجشم أخطار البحار أما اليوم فبعد ان اكتشفوا العالم الأرضى أصبحوا يريدون أن يكتشفوا العالم السماوى كانوا بالامس يعملون فى البسيطة وهم اليوم يريدون أن يسخروا الجو وما ندرى غداً ماذا يخبأ العلم والاختراع من بدائع المستحدثات التى تباع فى تحقيقها الارواح بيع السماح

كنا بالأمس نقول اذا تلونا سياحة أحد أرباب الرحلات من الغربيين ان كاتب الرحلة فى حلم يملى من عالم الخيال ليرى أنه لقى أهوالا من سفره ويشتهر بين جيله وقبيله ونرجح أن معظمها أشبه بقصة السندباد البحرى وحكاية ألف ليلة وليلة بيدان ماتقرأه اليوم بل نشاهده عياناً من أخبار الطيارين فى طيارات السماء كاد يدعونا الى تحسين الظن بأكثر ماأورده أرباب الرحلات وان هذه المدنية التى نتمتع بها ان هى الا ثمرة الاستهانة بالحياة فى سبيل الأغراض الشريفة .

مدنية الغرب تقتل الحيوان لفائدة الانسان بل تقتل الانسان لفائدة الانسان وهذه التجارب التي خص الغربى بطول الروح عليها هى التى نشأت منها أكثر الاختراعات والاكتشافات الماثلة حسناتها للبشر اليوم منادية بأن الأمم التى قام أبناؤها بشيء من هذه الاعمال حرية بأن تنال ذروة المجد لأن من سخر قوى الطبيعة الصعبة لمنفعته لايعسر عليه أن يسخر الانسان للانسان .

مدنية الغرب لاترحم أحداً ومتى رحم من لايرحم نفسه . والغرب لايحزن لفقد ألف أو ألوف من أبنائه قذفاً من الجو وهم يطيرون لانه موقن بأن هذه التجارب تنجلى فى النتيجة عن خير لهذا المجموع فمتى نرى أناساً من الشرقيين ينهجون هذا المنهج ويقلدون الغرب فى صالح أعماله فان مما يخجل الشرق أن يعمل الغرب كل هذه الاعمال المدهشة وهو نائم باهت وأن يقتل الشرق أخاه في غرض تافه ولا يقتل نفسه فى تحقيق عمل مجيد ومجد مؤثل

وبعض خلائق الأقوام داء ... كداء البطن ليس له دواء
يريد المرء ان يعطى مناه ... ويأبى الله الا مايشاء

وكل شديدة نزلت بقوم سيأتي بعـد شدتها رخاء
ولا يعطي الحريص غنى لحرص وقد ينمي على الجود الثراء
وبعض الداء ملتمس شفاه وداء النوك ليس له شفاء

تكريم الرجال

٤٢

عرف الغربيون حسن الانتفاع من كل شيء فصاروا إلى زمن هم فى العالم كل شيء لاقول إلا قولهم ولا مدنية الا مدنيتهم التى هى خلاصة مدنيات العالم بأسره فيها اندمجت مدنية رومية واثينة وبابل واشور ومصر وفينيقية والاندلس وبغداد وفارس

ان هذه المدنية التى تتمثل لنا كل يوم فى صور شتى قامت بعقول الرجال وأعمال الابطال ولذلك كان الحري بالتبجيل مصدر هذا الفضل والمعول الذى كان عليه المعوّل فى نبش المدفون واختراع المعدوم

يكرم الغربيون رجالهم حتى ليخال الشرقى انهم على شيء من المبالغة وأكثر الامم ايغالا في ذلك الفرنسيس على ما رأيت فان رجالهم لقوا من التكريم والتنويه مالا يكاد يراه أمثالهم فى الأمم الغربية نفسها . وأن المرء ليعجب كل العجب من تغنيهم حتى اليوم بجان دارك احدى فتيات القرون الوسطى التى بزت الرجال بشجاعتها ودافعت عن وطنها أمام جيوش الفاتحين من الانكليز وإلى اليوم هى المهماز الاعظم لفتيات فرنسا بل لشبانها تقام باسمها المعابد وتسمى الشوارع وتنصب التماثيل وتؤلف القصص التمثيلية وغيرها فى وصف سيرتها .

ولا بدع فان الفرنسيس كما قال برزباين — أشهر رجال الصحافة الاميركية — ورثوا عن اليونان والرومان نبوغاً كانوا به أدلة وموحين بالافكار للعالم منذ

عهد شارلمان فقد كانوا الاولين فى الحركة العقلية السابقين فى شجاعة القلب وشجاعة الفكر المجلين فى فن الحرب وفن الهندسة وفن الجرأة الطبيعية الخارقة فى انشاء السيارات والطيارات وفى عامة الاعمال التى تحتاج إلى عقول لاتخاف وتتطلب اقداماً عليها لساعتها .

قرأت أمس فى « الماتين » مقالة جاء فيها أن الفرنسويين يتأهبون للاحتفال بعيد مرور مئة سنة على موت بارمانتيه (يوم ١٣ كانون الاول سنة ١٩١٣) وربما يقلّ فى قراء العربية من يعرفون هذا الرجل ويودون الاطلاع على طرف من ترجمة حياته ليذكروا على الاقل من هو الذى يعاد ذكره بعد أن نصبت له التماثيل وصيغت باسمه الصفائح التذكارية وأنشئت الجواد والشوارع بل أنشئت قرية باسمه فى الجزائر .

بارمانتيه هو مخترع البطاطا فى فرنسا أومدخلها اليها على صورة عم استعمالها جميع طبقات الناس لخدمتهم فى اقتصادهم وبيوتهم وتغذيتهم مدة القرن الماضى . كان هذا الرجل من أبناء العامة سافر من بلدمو نتيديه إلى باريز ليسابق فى وظيفة صيدلى فى الجيش فقبل وأرسل مرات الى ساحات القتال ومنذ سنة ١٧٩٣ حتى يوم وفاته كان يتولى أعظم الوظائف الصحية العسكرية مثل عضو فى مجلس الصحة ومفتش عام وصيدلى أول فى الجيش الفرنسوى وفي خلال حرب السبع سنين أخذ أسيراً وفى أسره تسنى له أن يدرك مافى البطاطا من المواد المغذية وكانت فى معظم الاوقات الغذاء الوحيد له ولاصحابه الاسرى .

حملت البطاطا من أميركا الى أوربا من سنة ١٥٨٠ الى ١٥٨٥ نقلها الاسبانيون أولاً ثم الانكليز من فرجينيا وكانت غير معروفة كثيراً فى فرنسا وينظر اليها فى الجملة نظر ازدراء . وما زال بارمانتيه منذ استقر أمره فى صيدلية « الانفاليد » بباريز يكرر فى منشورات منوعة فوائدها ويدفع اعتراض المعترضين بشدة لانهم كانوا يحملون عليه حملات منكرة قائلا ان رأى الناس فى البطاطا انها غير صالحة لغذاء الانسان ساقط لايؤبه له وكذلك دعواهم انها تضعف الجسم وتحوى

الاخطار وعلى العكس فهى لذة للاغنياء ومعوان للفقراء وسلوى فى الشدائد .

وكان هذا المحسن مدفوعا إلى ذلك بالعامل الذى وضعه بعضهم بقوله : لا يكفى من أراد أن يكون نافعاً لابناء جنسه أن يقول لهم مرة واحدة ما رآه وما عمله وما يجب أن يعمل بل يجب عليه أن لا يمل من تكرار دعوته على صور مختلفة وطرق منوعة اللهم الا القوة فانها لا تستحب . ولا تنفع العلوم الا اذا عمت الطبقات كلها . هكذا كان شأن بارمانتيه حتى انتشرت البطاطا بفضل مساعيه المتواصلة واصبحت تزرع في أرض تبلغ مساحتها مليونا وستمائة الف هكتار فى وطنه

ولم يقتصر بارمانتيه على الدعوة الى البطاطا وتحبيبها الى الناس بل كان له أثر محمود فى الخبز والخبازة ودرس الاغذية الرئيسة عند هذه الامة وله العمل المهم فى تنظيم المستشفيات الثابتة والنقالة العسكرية والمدنية الى غير ذلك من أعماله فى تنشيط الاشغال العلمية والصحية والزراعية والصناعات الوطنية ونشر التطعيم وطبخ الاحسية الاقتصادية هذا الى جمعيات البيطرة والاحسان والمآوى التى كان عضواً فيها أو مديراً لاعمالها مباشرة بحيث كان كما قال فيه أحد واصفيه السابق الى كل مكان يمكن العمل فيه كثيراً وأن يخدم بدون عوض ويجتمع لعمل الخير ويتأتى لمن يدعوه أن يكون على ثقة من أنه باشراكه بارمانتيه فى العمل يتسلط على وقته وقلمه وعلى ماله عند الاقتضاء

هذا هو عمل الرجل وربما يتساءل القارىء وكيف وجد من قلبه متسعاً للقيام بكل هذه الاعمال التى تحتاج الى بضعة رجال والجواب أن بارمانتيه كان يصحو باكراً ويجلس الى منضدة عمله فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل صباحاً . قالت (الماتين) وما أحق مدارسنا الابتدائية أن تتخذ من هذا الولدان الشعب مثالا يبعث الهم على العمل فانه قد خرج من مسقط رأسه مستخدماً صغيراً فى الصيدلية لاسند له ولا مال بل ولا تعليم الا التافه القليل وتمكن بعمله المتواصل من بلوغ المناصب العالية وجلس فى الصف الاول بين المحسنين الى الانسانية

أبعد هذا نلوم الفرنسيس اذا غالوا بحمد رجالهم ؟ وهل نشأ لنا نحن ياترى معاشر العرب نصف رجل مثل بارمانتيه منذ بضعة قرون وكان بسيرته وعمله حريا بان نحتفل به ونذكره بكل شفة ولسان ونخلد اسمه فى سجلات الازمان .

صناعة الفنادق

٤٣

لعل بعضهم يعترض على هذا العنوان فيقول وهل أصبحت الفنادق والانزال صناعة حتى تحدثنا بها ولكن من رأى الفنادق فى الغرب ولا سيما فى البلاد التى يكثر اليها اختلاف السياح كفرنسا وايطاليا وسويسرا مثلا يهون عليه أن يتصور معنى الفنادق فيرى قصوراً شاهقة ذات حدائق غناء مجهزة باجهزة قصور الملوك أو أكثر وفيها من التحف والالطاف وبدائع الصناعات ما يلفت عقل البليد دع الحساس الذكى

صناعة الفنادق لا تتمثل حق التمثل الا لعين من كثرت سياحاته الى الاقطار المختلفة وهناك يدرك خطرها كما يدرك قدر الصحف فيرى ادارة كل نزل أشبه بديوان كبير من دواوين الدول أو مصرف عظيم أو جريدة منتشرة . واتقان تلك الصناعة متوقف على العلم الحديث فكلما تأصل فى الشرق والغرب وكثر الترف والنعيم زاد رواء واتقانا

ان مانراه فى مصر والشام من اتقان بعض الفنادق ان هو الا جزء مما أوجده العلم فى القارة الأوربية والأميركة وفى مقدمة الأمم التى استفادت من فنادقها وأحسنت القيام عليها الامة السويسرية حتى سمى بعض الفرنسيس أهل سويسرا « الفندقيين » تحقيراً لهم مع أن هذه الصناعة كغيرها مما لا يثلم الشرف ولا يعبث بالمروءة شريفة فى ذاتها ولا يعد التوفر عليها سبة وعاراً . وكفى السويسريين بان

أهم الفنادق في ايطاليا وغيرها هي بايديهم يديرونها ولا يفوقهم أحد في هذا الشأن .
ليس الفندق أو النزل الحديث كما يتخيل بعضهم عبارة عن خان من الخانات متقن بعض الشيء فانه قد يوجد في الفنادق الحديثة من أسباب الرفاهية والنعيم مالا يوجد مثله في قصور العظماء . الفندق الحديث هو معهد مؤلف من عدة أمور تحتاج حسن سيرها الى عناية وملاحظة ، خذ لك فندقاً متوسط الكبر تجد فيه بحسب طبقته ومساحته أعمال الكهربائية (مراجل ودينامو) وآلات التدفئة والتهوية وأدوات لاستخراج الجليد وحجراً مبردة وأفراناً للخبز والحلويات وآلات للتصعيد ومطبعة ومكتباً للبريد والبرق واصطبلات ومحال لحفظ المركبات والسيارات وعقوداً وقد يساوي ما يحويه الفندق من المواد مئات الالوف من الفرنكات تكفي النزل الشهرين والثلاثة ومعملا للتصليح ومحل نجارة وحدادة الى آخر ماهنالك مما لا مقابل له بالعربية للتعبير عنه .

وللفندق خدام يقومون على غاباته وحدائقه ومتنزهاته وطرقاته وسواق تامة أدواتهم لنقل الأمتعة والاثقال منه واليه على الخيل أو السيارات . ورجال ادارته أكثر من رجال وزارة فمنهم المستقبلون والقاعون على اعطاء التعليمات لمن يطلبها ومنهم العارفون بالسكك الحديدية وآخرون للمحاسبة وبعضهم للصحة وغير ذلك

فالفندق مستعمرة صغيرة ينقسم أقساماً قد يختلف عدد القائمين بأعماله من ١٠٠ الى ٣٥٠ شخصاً . ومدير الفندق سواء كان مالكه أو مديره مسؤول عن كل مافيه يديره ويعنى به ويمونه ويلاحظه ويسأل عن كل غلط يأتيه رجاله العاملون باشارته أو النازلون عنده . والقانون يسأله وحده فقط عن كل مايحدث

ولذا لا يكون صاحب الفندق في الغرب رجلا عاديا يكتفي منه أن يكون حسن البزة عارفاً بالقراءة والكتابة والحساب بشوشاً مؤنساً بل هو رجل متعلم من الدرجة الأولى يحسن ادراك ألوف من التفاصيل في ادارة تحتوي غرائب معقدة بحيث يكون أهلا لأن يتصرف في الحوادث اليومية التي قد تقع اضطراراً في عمل يحوي في جملته أعمالا صناعية وتجارية مختلفة وليست الادوات التي يقوم بها

الفندق ميكانيكية بل عقلية قد تتعارض فلابدع اذا طلب هنا من صاحب الفندق أن يكون مهندساً نقاشاً سياسياً تاجراً بل طبيباً للارواح والاشباح

عرفت الامم الممدنة مكانة هذه الصناعة فجعلت لها المكان الاول فى حياتها الاقتصادية والتجارية والصناعيـة وفتحت المدارس لتعلمها كما فتحت مدارس لتدبير المنزل الذى تتوقف عليـه حياة البيوت وسعادتها وغبطتها . ولقد كانت النفس تحدثني وأنا أشهد من لذاذة الحياة فى فنادق الغرب ومساكنه (بانسيون) وحذاقة طهاتها ونظافة خدامها وخادماتها بان يأتى أناس من الطبقة المستنيرة المثرية من أبناء بلادى ليروا شاهـداً عيانياً محسوساً على ترقى الغرب وتدنى الشرق ويفاضلوا اذا رجعوا الى أهلهم بين حالنا وحال غيرنا وينقلوا بعض مايمكن نقله من أسباب النظافة وحسن تحضير المآكل وتنويعها وجمال السرر وبساطتها والغرف وفرشها والمقاعد والخزائن والمغاسل والحمامات وأماكن الاطمئنان وغـير ذلك من أساليب الراحة والنعيم الذى لم يظفر ببعض بعضه أغنى الاغنياء فينا اللهم الا بعض عقلاء الـكبراء فى الحواضر الكبرى وخصوصاً فى مصر .

ولكم كنت أشتهي أن يأتى بضعة شبان ممن سبق لهم الخدمة أو النظر فى فنادق مصر والشام واختلطوا بالافرنج وعرفوا خصائصهم وتأنقهم فى مطعمهم ومنامهم وملبسهم أن يقضوا ولو شهراً فى الفنادق الـكبرى ويحضروا ولو سنة دروس مدرسة الفنادق وتدبير المنزل فى سويسرا وأظن أن من يفتح فندقاً ويحسن النظر فيه بحيث يضاهى به أو يكاد فنادق الغرب المتوسطة ينفع نفسه وأمته فى اقتصادياتها أكثر من ألف موظف في الحكومة متوسط المعارف لايهمه الا رضا من سبقه فى الدرجة وانتظار آخر الشهر لقبض الراتب .

سورية بمناخها تشبه سويسرا ولكن هذه تأخذ فى السنة من المصطافين والمشتين فيها قناطير مقنطرة من الذهب وذلك لانها عرفت من أين تؤكل الـكتف فى خدمة الناس وتوفير أسباب الهناء والصفاء لهم بحيث يتأتى للمرء أن يكون فى الفندق سعيداً كما هو فى بيته وزيادة . وان اتهم بعضهم الدماشقة بالايفكرون

فى غير الاكل والنوم وانهذه العادة غالبة عليهم ولكن يشفع فى ذلك حالة الغرب واهتمامه بهذه الشؤون الحيوية أيضا وان يكن الفرق بيننا وبين غيرنا اننا نكثر التفكر فى ذلك وهم يجعلون له وقتا لا يبحثون فيه بغيره والسلام

رجال الكثلكة

٤٤

يجدر بنا ونحن فى مهد انتشار الدين المسيحى وكل ساعة يقع نظرنا على قساوسته ورهبانه ونرى بيعه ونسمع أجراسه أن نحدث قومنا بعمل هؤلاء الرجال وتفانيهم فى واجبهم

من يمر فى شوارع رومية يجد الرهبان والقسوس سائرين زمراً زمراً ويجدهم على الجملة يحلقون شواربهم ولحاهم ويلبسون لباساً أسود فى الاكثر على عادتهم فى الشرق ويختلف هذا اللباس فالالمان والمجريون منهم يلبسون أردية حمراء فقط والفرنسيس والانكليز يلبسونها سوداً والايكوسيون سوداً مع زنانير زرقاء وياقات سوداء والباجيكيون يلبسون سوداً فيه شيء من الحمرة والبولونيون يكتسون السواد وغياراً أخضر والبوهميون سوداً وغياراً ممزوجاً بزرقة فاتحة واليونان والروتنيون يلبسون زرقة وزنانير حمراء مبقعة بزرقة وقسوس أميركا الجنوبية يلبسون الاسود مع غيار أزرق وبطانة زرقاء والاميركان يلبسون لباساً أسود واسع الاكمام والاردان وغياراً احمر وأعضاء الدعوة الى الدين يلبسون أردية سوداء مع غيار وبطانة هما الى الحمرة

هذا هو الشكل الظاهر فى طلاب المدارس الاكليريكية الذين يأتون من أنحاء العالم الكاثوليكى ليدرسوا ويتخرجوا بآداب دينهم ثم يعودوا الى بلادهم أو غيرها يعلمون ويرشدون . وهم قسمان قسم القسوس وهؤلاء يتعلمون فى مدارسهم وبعد الدرس يذهبون الى منازلهم وقد يعيش بعضهم بين أهله وذوى قرباه فمن

هؤلاء لايطلب الا أن يسيروا بموجب القواعد المقررة وهم أحرار فيما عدا ذلك أما الرهبان فدائرتهم أضيق لانهم يعيشون فى مدرسة واحدة مع أقرانهم ويطعمون طعاماً واحداً ويكون فى الا كثر طعام تقشف ولايخرجون الا برخصة أى أن هؤلاء مقيدون كثيراً ولا قيد صغار الطلبة فى المدارس الداخلية

والرهبنات أقسام منها الفرنسيسكانيون والدومنيكيون واليسوعيون والعازريون وغيرهم ولهم أنظمة وقوانين مشوا عليها منذ قرون وأفادوا النصرانية بنشرها فى البلاد التى لم تدخلها ولا سيما فى الصين والهند واليابان وأواسط افريقية وغيرها من البلاد النائية

وكان لليسوعيين يد طولى فى هـذا الشأن وهم بين الرهبان والقسوس أى أنهم يترفهون ويأكلون ما يشاؤن لكنهم يأوون الى بيت خاص خلافاً للرهبان الذين يأكلون اكلاً معيناً وخلافاً للقساوسة الذين يأوون الى بيوتهم واليسوعيون أشبه بجند منظمون على نظام غريب لم يختل على كثرة مانالهم من اضطهاد الحكومات فى الازمان السالفة

قال الامير بورغزه فى كتابه « ايطاليا الحديثة » : أن تأسيس طغمة اليسوعيين المشهورة هو من غرائب النظام الحقيقى فتراها جمعية مؤلفة من عناصر مختارة تخضع على الدوام لادارة الرئيس مباشرة والداخل فيها يربى على الطاعة بالتدريج والخروج المطلق عن شخصيته وارادته . ويتراءى للناظر فى نظامهم أن واضعه جندى فان كل شيء فيه يشعر بالنظام . وقال أن نظام هذه الرهبنة ربما جرى فى وضعه اغناس لويولا مؤسس اليسوعية على قواعد بعض الجمعيات الاسلامية التى كانت مشهورة فى الاندلس فبنى نظام رهبنته على طاعة لا نهاية لها فتوصل بهذه الصورة أن يؤلف جيشا يتصرف به رؤساؤه تصرفا مطلقا وتفنى ارادة صغيرهم فى كبيرهم

ولمعظم الرهبان والقسوس أعمال علمية وغيرها يتعاطونها ويبرزون فيها فاذا انقطعوا للتدريس تخرج بهم طلاب كانوا صورة صحيحة منهم واذا أخذوا بالتأليف

قد يعدون من كبار المؤلفين ولذا ترى الناس فى ايطاليا وفى غيرها كثيراً مايفضلون أن يربى أولادهم على أيدى القسوس وان كان آباؤهم ملاحدة مارقين من دينهم

ترى الرهبان اذا أخذوا بالزراعة والصناعة ربما سبقوا من تخرجوا فيها أعمارهم والحكومة هنا قد جعلت رواتب لقسوس الطليان كما عينت راتبا للحبر الاعظم منذ يوم أخذت حكومة الوحدة الايطالية أزمة الامر بيدها واستولت على أموال الرهبنات وكنائسهم وأوقافهم سنة ١٨٧٠ لان جميع مرافق البلاد المهمة كانت بأيديهم اذ ذاك فغيرت بعض المعاهد وجعلت بعضها مدارس ومتاحف ودواوين حكومة وثكنا للجند وغير ذلك وحظرت على أى جمعية دينية امتلاك ملك الا أن لرئيس الجمعية أن يملك ما يشاء وقد عادت الملة النصرانية فأخذت تدر المال على رجال الدين بعد الوحدة الجديدة ولذا تراهم يعيشون عيشا حسنا وأديارهم وكنائسهم منظمة وارداتهم دارة نامية والفضل في ذلك يرجع الى المتدينين من أغنياء الكاثوليك فى العالم

قلنا أن الحكومة الايطالية عينت منذ زهاء أربعين سنة راتبا لامام الاحبار ولكنه لم يقبله بعد أن نزعت منه السلطة الزمنية وكانت بيده هى والسلطة الروحية بيد أن الحكومة وضعت المبلغ تحت أمره فى المصارف وفى كل خمس سنين ترفع منه الفائدة فقط وتبقى رأس المال بحاله الذى يزيد كل سنة حتى بلغ فيما بلغنى (١٨٠) مليون فرنك وحضرة البابا لا يريد أن يتناوله وهكذا عف هو وأسلافه وسيتعفف أخلافه عن أخذ مال ممن يرونهم غاصبين حقهم معتدين على سلطتهم

ان انشقاق المانيا وانكلترا وغيرها عن الكنيسة الكاثوليكية بقيام أمثال جان هوس وكلفن ولوثيروس فى أوائل القرون الحديثة وتلك الازمة التى دخل فيها المقام البابوى اذ ذاك لم تؤثر كثيرا فى سلطته على الارواح والاشباح وكذلك تغلب الحكومة الزمنية فى ايطاليا على جيش البابا لم يؤثر كثيراً فبقى مقام حضرته مقدما وكذلك الكرادلة والاساقفة والقسس والرهبان وذلك لان عمل هؤلاء

الرجال قائم على أنظمة وقواعد معينة لا تغيرها الطوارئ والرزايا ولان هـذه السلاسل في مراتب الـكهنوت لايصل إليها المريد الا بالتعلم والتهذيب على الاصول المتبعة وكل ما جعلت التربية والتعليم أساسه يثبت ويعم أثره ويوفق الناهضون به

ولقد لاحظنا أن الفتن الدينية التى أثارها التعصب الدينى فى القرون الوسطى كانت فى ايطاليا أقل مما هى فى فرنسا واسبانيا حتى أن الاسرائيليين فى اسبانيا لما ذاقوا العذاب الاليم جلوا عن بلادهم فـكان من إيطاليا أن قبلتهم وهذا ناشىء من لين أخلاق الشعب هنا ويرجح أن كل ما وقع من الاضطهادات لم يكن مما وقف الرؤساء على حقيقته

ولو رجعنا الى تراجم أكثر عظماء هذه الملة من بابوات وكرادلة ورؤساء اساقفة لوجدنا كثيرين منهم خدموا المدنية والآداب خدمة تذكر فتشكر كانوا كذلك يوم كانوا ملوكاً زمنيين وروحيين ويوم أمسوا روحيين فقط فقد حدثنا التاريخ أن البابا ليون العاشر فى القرن الثالث عشر للميلاد وهو من أسرة ميديسيس المفضلة على العلم قد وسع نطاق الآداب وبث كلمة العلم حتى عد قرنه القرن الذهبى وكان يبسط جناح حمايته للمصورين والنقاشين والمهندسين والادباء ويفضل عليهم وبالطبع أن من يأتى بعده فى الدرجة يحاول أن يقلده فى محامده . والله أعلم

العرب والطليان

٤٥

وصل العرب الى بلاد الأمة التى هى وارثة الرومان منذ القدم أوائل عهد فتح أفريقية وما برح العرب يطمعون فى فتح جزيرة صقلية [1] لقربها من الشاطىء

---

(١) وصف ابن جبير الاندلسي فى عودته من الشرق ماقاسوا من البحر قرب مسينة حتى كادوا يغرقون وقال

المقابل لافريقية حتى تم لاسد ابن الفرات فتحها سنة ٢١٢ هـ . قال المؤرخون

ان قد وقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله قال ومن العجب ان هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء المسلمين يتطاموزن من المركب وليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم لان أصحاب الزواريق أغلوا الناس في تخليصهم فسأل عنهم فاعلم بقصتهم فأمر لهم بمائة رباعي من سكته ينزلون بها وخلص جميع المسلمين عن سلام . ووصف مدينة مسينة فقال ان أسواقها نافقة حفيلة وأرزاقها واسعة بارغاد العيش كفيلة لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان وان كنت غريب الوجه واليد واللسان وقال ان مرساها أعجب عجيب لان المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب فيها الى البر خشبية يتصرف عليها . ووصف مدينة برية ووصف بلارمة قاعدة جزيرة صقلية ومافيها من المساجد وسرقوسة . وقال ان شأن ملك صقلية عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم أو أكثرهم كاتم حالته متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى أن الناظر في مطبخه من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتسمون خاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب القارهة وما منهم الا من له الماشية والخيول والاتباع قال وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين وملكه عظيم جدا وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه وادر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربيه وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه الحمد لله شكرا لانعمه وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن . ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيي بن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجواري المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ولهن في فعل الخير أمور عجيبة واعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعرها هذا الملك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع الا ذاكرا لله ولرسوله من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن تدين به تسكينا لهم وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ما منهم الا من يصوم الاشهر تطوعا وتأجرا ويتصدق تقربا الى الله وتزلفا ويفتك الاسرى ويربي الاصاغر منهم ويزوجهم ويحسن اليهم ويفعل الخير ما استطاع .

وذكر مدينة شفلودي وثرمة من جزيرة صقلية فقال في ثرمة سرنا في طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا بالسلام علينا ويؤنسوننا فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل . وكانوا يكلمونه بالعربية وقال ان زي النصرانيات في مدينة صقلية زي نساء المسلمين فصيحات الالسن ملتحفات متنقبات خرجن في العيد وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة والتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قول الشاعر

انّ من يدخل الكنيسة يوما   يلق فيها جآزرا وظباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ويؤدي الى أباطيل اللهو ونعوذ به من تقييد يؤدي الى تفنيد انه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة اهـ

كان ابتداء حصار بلرم عاصمة صقلية فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين ودام الى شهر رجب سنة عشرين ومائتين وفتحت بالامان وفى سنة خمس وعشرين ومائتين استأمنت قلاع كثيرة من قلاع جزيرة صقلية منها حرصه وقلعة البلوط واللاطنوا وقلعة ماروب وصرنا وغير ذلك

وهذه القلاع مازال بعضها الى اليوم أسماء مدن تبدأ بلفظة « قلتا » أي قلعة فيقولون قلتا جيرونة وقلتا بلونة وقلتا لستا وكلها من تلك الحصون والقلاع بقيت أسماؤها كما بقيت أسماء كثيرة عربية فى لغة سكان هذه الجزيرة فيقولون مثلا « منديللو » للمنديل وغير ذلك مما يشهد بأن العرب حكموا هذه الجزيرة قرنين ونصفاً وأثرت فى أهلها مدنيتهم ولسانهم وعاداتهم كما هى عادتهم فى كل ماملكوه

راجت حضارة العرب زمناً فى صقلية ومنها تسربت الى البلاد المجاورة فكان يرشح منها شيء كثير الى الأقرب فالأقرب من البلاد ولعل تلك الحضارة راجت أيضاً فى جزيرة قورسقة وأهلها يتكلمون بالايطالية أيضاً وهم اليوم تحت حكم فرنسا . وملك العرب جزائر ميورقة ومنورقة المعروفة بجزائر البالايار ويابسة « المقتبس م ٧ ص ٦١٩ » وكانوا يغزون شطوط اسبانيا وفرنسا ولا عجب بعد ذلك اذا دخلت كلمات عربية كثيرة فى لغات الفرنسيس والطليان والاسبان والبرتقال

ومن يعلم ان تلك الجزائر مما ارتفع عليه علم الاسلام وان اقريطش (كريت) وقبرص ورودس ومالطة كان حظها كذلك يعرف أن العرب كانوا رجالا فى البحر كما هم رجال فى البر وانه لاسبيل الى الامن من الداخل اذا لم يحفظ الساحل بالجزائر والموانى والفرض ولطالما كانت الحكومات تملك الساحل فلا تلبث أن تبسط سلطانها على الداخل .

كان الادارسة حكام تونس هم المتكفلين بغزو جزيرتى سردانيا وصقلية ففتحوا صقلية وكذلك ملوك جزائر الغرب أخذوا على عهدتهم غزو منورقة

وميورقة فاستولوا عليهما وعامل العرب الايطاليين والاسبانيين بالحسنى على نحو مايأمر به دينهم ولما رأى الايطاليون هذه المعاملة لم يشاؤا أن يغيروا شيئاً من مصطلحاتهم حتى ان الملك رجار الذى عاد فاستولى على صقلية سنة ٤٨٥ كان يتكلم بالعربيـة وهو الذى أفضل كثيراً على الشريف الادريسى الجغرافى الذى وضع كرة أرضية بالفضة كانت من أعاجيب القرون الوسطى دهشت لها أجيال الافرنج كلهم كما دهشوا للساعة الدقاقة التى أهداها أمير المؤمنين الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا .

قال الادريسى فى رجار هو الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وايطالية وانكبردة وقلورية أمام رومية الناصر للملة الناصرية اذهو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً

ولقد كان أهل الشرق على صعوبة ركوب البحر فى أيامهم يرحلون الى بلاد ايطاليا كما يرحلون الى الاندلس فيكتبون عليها فى رحلاتهم ماتقع عليه أنظارهم وممن زار بعض ايطاليا الجغرافى ابن حوقل فقد قال ان مدينة ملف « ويقال لها الآن ملفى » تتصل بأرض نابل وهى مدينة صالحة بحال دون ملف فى كثير من الأحوال وأكثر أموال نابل من الكتان وثياب الكتان وقال انه رأى بها ثيابا لم ير في سائر أقطار الأرض لها شبيهاً ولا يستطيعها صانع فى جميع طرز الارض وهو ثوب يعمل مائة ذراع فى خمسة عشر الى عشرة ويباع الثوب منها بمائة وخمسين رباعى وزائد وناقص .

ووصف ابن حوقل صقلية فقال ان طولها سبعة أيام في أربعة أيام والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون وجميع أرضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم وهى قصبة صقلية على نحر البحر من الشمال وهى خمس جادات محدودة غير متباينة ببعيد مسافة وان كانت حدودها ظاهرة فمنها المدينـةً الكبرى التى تسمى بلرم عليها سور من حجارة مانع شامخ يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الاكبر وكان بيعة للروم وفيـه هيكل عظيم

ومدينة تعرف بالخالصة ذات سور أيضاًمن حجارة وليس كالسور الأول يسكنها السلطان وأتباعه وفيها دار صناعة البحر والديوان

وبعد أن وصف أسواقها وباعتها استطرد الى كثرة مساجدها وقال ان فيها نيفاً وثلاثمائة مسجد وفى قرية البيضاء مائتا مسجد قال ولم أر مثل هذه العدة فى بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها ولا سمعت به وقد رأى على مقدار رمية السهم نحو عشرة مساجد يدركها البصر ومنها شيء تجاه شيء وبينها طريق قال وسألت عن ذلك فقيل لى ان القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لايحب أن يشركه فيه غير أهله وحاشيته وربما كان اخوان منهم متلاصقة داراهما متصاقبة الحيطان فعمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده وفي جملة هذه العشرة مساجد التى ذكرتها مسجد لولده ابتناه ليتفقه فيه وغرض كل واحد منهم أن يقال مسجد فلان لاغير . قال وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحنة بالبطالين والفساق ووصف أبواب بلرمة التسعة وقال ان هذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقيها الى غربيها يعرف بالسماط مفروش بالحجارة عامر من أوله الى آخره بضروب التجارة .

ووصف الشريف الادريسى جزيرة سردانية فقال انها كبيرة القطر كثيرة الجبال قليلة المياه وطولها مائتان وثمانون ميلا وعرضها من المغرب الى المشرق مائة وثمانون ميلا وطولها ماراًمن الجنوب الى الشمال مع قليل تشريق وفيها ثلاث مدن منها القيطنة وهى مما يلى جنوبها وهى مدينة عامرة ممدنة ومنها مدينة قالمرة وهى رأس المجاز الى جزيرة قرسقة ومدينتها الثالثة تسمى قشتالة وأهل جزيرة سردانية فى الاصل روم أفارقة متبربرون متوحشون من أجناس الروم وهم أهل نجدة وحزم لايفارقون السلاح وفي جزيرة سردانية معادن الفضة الجيدة ومنها تخرج الفضة الى كثير من بلاد الروم وبين سردانية وجزيرة قرسقة مجاز طوله عشرون ميلا

ثم وصف جزيرة قرسقةوجزيرة البتة وبانوسة وقبريرة وقبرةوشكلة وبنت برة وءونسةوبونسة واسترنجووجزيرة البركانوليبر ودندمة وفيكوذةواركوذة واشتقة وجزيرة الراهب واليابسةوغيرها وقالفى وصفمدينة بلرم : وبهاحسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بناتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهى على قسمين قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور نخره فى كل بلد وأقليم وهو فىذاتهعلى ثلاثةأسمطة فالسماط الاول يشتمل علىقصور منيفةومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والسماطان الباقيان فيهما أيضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية

وذكر القزوينى فى عجائب المخلوقات وغرائبالموجودات مدينة رومية فقال انها مدينة رياسة الروم وعلمهم وهى فى شمالى غربى القسطنطينية وبينهما مسيرة خمسين يوما وهى فى يد الفرنج ويقال لملكهم ملك المان وبها يسكن البابا الذى تطيعه الفرنج وهو عندهم بمنزلة الامام الذى يكونواجب الطاعةومدينة رومية من عجائب الدنيا لعظم عمارتها وكثرة خلقها ذكر الوليد بن مسلم الدمشقى ان استدارة رومية أربعون ميلا فى كل ميل منها باب مفتوح فمن دخل من الباب الأول يرى سوق البياطرة ثم يصعد درجا فيرى سوق الصيارفةوالبزازين وذكر ان بين يدى السوق سوق آخر على أعمدة نحاس كل عمود منها ثلاثونذراعا وبين هذه الاعمدة نقير من نحاس فى طول السوق منأوله الى آخرهفيه لسانمنالبحر تجرى فيه السفن فتجيء السفينة فى هذه النقرة وفيه الامتعة حتى تجتاز على السوق بين يدىالتجار فتقف علىتاجر تاجر فتختارمنها ماتريد ثمترجعالىالبحر.

وذكر أشياء عجيبة عن كنيستها وقال ان فيهاعشرة آلاف ديرللرجال والنساء وبها جامع لمن يلتمس صنوف العلم من الطب والنجوموالحكمة والهندسةوغير ذلك قالوا انها مائة وعشرون موضعا قال وقد مثل فى الكنيسة صورة كل نبى بعث من وقت آدم الى عيسى عليه السلام وصورة مريم عليهاالسلام كأن الناظر اليهم يحسبهم أحياء وحكىأن أهل رومية يحلقونلحاهم ووسط هاماتهم فسئلوا

عن ذلك فقالوا لما جاءهم شمعون الصفا والحواريون دعوهم الى النصرانية فكذبوهم وحلقوا لحاهم ورؤوسهم فلما ظهر لهم صدق قولهم ندموا على مافعلوا وحلقوا لحى أنفسهم ورؤوسهم كفارة لذلك

وممن رحل الى ايطاليا جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضى القضاة بحماة وكان اماماً مبرزاً بالعلوم العقلية عارفاً بالمنطق والهندسة والاصول والفقه والهيئة والتاريخ توفى سنة ٦٩٧ ذهب هذا رسولا الى صاحب صقلية من قبل الملك الظاهر بيبرس الصالحي وذكر أنه أقام عنده وفى مدينة من مدائن البر الطويل المتصل بالاندلس من مدينة أنبولية واجتمع به مراراً ووجده متميزاً ومحباً للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس قال وبالقرب من البلد الذى كنت فيه مدينة تسمى لوجارة أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية يقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الاسلام

وفى هذا القرن كان الايطاليون هم رجال التجارة والاساطيل فى البحر المتوسط وكانت لسكان بيزه وهم من أقليم طوسكانيا تجارات واسعة فى الشام وقال ياقوت أن السعة ظاهرة عليهم وجمهوريات بيزة وجنوة والبندقية هى أكثر البلاد الايطالية في القديم والحديث اختلاطا بالشرق ولما كان الطليان يأتون بلاد مصر والشام وسواحل البحر المتوسط منتجعين للرزق والاتجار كانت بقية أمم أوربا غائصة فى مفاوز الجهالة

نشر المستشرق ميشيل اماري فى مدينة فلورنسة الشروط والعقود السياسية بين ملوك بيشة (بيزة) وفلورنته (فلورنسة) أو أفلورنسا وبين ملوك المسلمين فى تونس والغرب الاقصى ومنها عقد من الملك قايتباى للفلورنتيين ذكر فى شروط البنادقة أن تجار المسلمين يبتاعون من تجار البنادقة اصنافاً من متاجرهم من جوخ وصوف وغير ذلك وآخر هذه العقود سنة عشر وتسمائة هجرية وأولها فى منتصف القرن السادس

وهكذا عاد العرب فاستخلصوا بلادهم من الطليان فكان الاختلاط على اتمه بين الامتين ولا سيما عندما تضع الحرب أوزارها وكثيرا ما كان رسل ملوك

الاسلام يأتون ايطاليا فقد ذكروا أن ابن خلدون المؤرخ جاءها رسولا من قبل صاحب تونس وصوره الطليان اذ ذاك على الحجر وجاءها فى القرن الحادى عشر الأمير فخر الدين المعنى صاحب لبنان وأقام بها عدة سنين ملتجئاً ووصف عمرانها بالضخامة وتفنن أهلها فى النقش والرسم والبناء

ولا يتسع المجال هنا الى ذكر كل من زاروا ايطاليا من العرب ومن زاروا من الطليان بلادنا الى هذا العصر . ولقد كانت اللغة الايطالية فى مصر والشام معروفة أكثر من الافرنسية والانكليزية الى منتصف القرن الماضى ثم تراجعت وخلفتها هاتان اللغتان

هذا وكان رجال الدين من كاثوليك الشرق يختلفون الى رومية منذ القديم ويتعلمون لغتها ويدرسون الدين فيها وهم أكثر من أن يحصوا وفى مقدمتهم السمعانى اللبنانى المشهور واللبنانيون الموارنة على ما يظهر أشد الكاثوليك رغبة فى المهاجرة الى رومية وتاريخ رجال الكهنوت عندهم شاهدة بذلك

لزائر الغربيين

٤٦

قرأت فى الصحف الباريزية أن أمبراطور المانيا منع ضباط مملكته من رقص « التانغو » « وألوان ستب » فى الحفلات الرسمية وكذلك فعل ملك الانكليز وهما رقصتان قيل انهما من أصل أميركى فى أقصى ما يكون من الخلاعة خلافا للرقص الذى اعتاده الاوربيون فى حفلاتهم الراقصة خاصة كانت أو عامة

ولعل الآن بعضهم يقول وأنت الآن تحدثنا عن الرقص وأمامك محيط أوربا وكله مما يستملى القرائح مهما كانت كليلة للكتابة والتأمل . نعم أن البحث فى الرقص هو مما يجب البحث فيه أيضا لشرقى يبحث فى مدنية الغربيين

اننا بحسب عاداتنا واصطلاحنا سكان المدن العربية لا البوادى ننكر الرقص

ونعده حطة ولكن الغربيين يرون غير رأينا فيه . يرونه من الحاجات الطبيعية لبسط النفس ولذلك لاتكاد ترى الكبير والصغير والرجل والمرأة الا ويعتادون الرقص على أنواعه من غير نكير اللهم الا رقص التانغو وألوان ستب فان العقلاء أنكروه لانه باعث الشهوات البهيمية ومخرج للرقص عما وضع له

والرقص [١] في الغالب يكون على ايقاع النغمات الموسيقية على لحن متساوق وربما أشفع بغناء . فالرقص والموسيقى والغناء هي من المستحبات وربما تجوزنا وقلنا من الواجبات في بلاد الغرب لا يعد الفتى ولا الفتاة من أهل الظرف بدون الاخذ بحظ وافر منها فكأن الغربيين رجعوا في مدنيتهم الى الفطرة الاولى وذلك لانا نرى سكان البوادي في الشرق أيضا يرقصون ويغنون ويضربون بطبل أو ينفخون بمزمار . أمور يأتونها على الفطرة وعلى حالة أولية ولكنها على كل حال تدل على أن سكان غير المدن في شرقنا أقرب الى الفطرة من المتحضرين

كانت الطبقة العالية من رجالنا أيام رقي العرب في الاندلس ومصر والعراق والجزيرة وفارس وغيرها من البلاد التي تأصلت فيها الحضارة لا تستنكف من الضرب بالعود أو غيره من أدوات الطرب أو ترفع أصواتها بالغناء ولا من ينكر عليها ذلك ولطالما كنت ترى بينهم الفقيه والمحدث والطبيب وصاحب الوقار من القضاة والعمال

انحطت الحضارة عندنا والفنون الجميلة آخر ما تستعيده الامة الناهضة وأول ما تفقده المنحطة وما الغناء والموسيقى الا من الفنون الجميلة فارتقاء صناعة الغناء والموسيقى في أمة دليل ارتقائها فهما محركان عظيمان لارواح أبنائها ومهمازان قويان لترقية شعورهم وتحسين عواطفهم يصرفون فيهما آونات الفراغ فيدخل بهما السرور على القلوب .

---

(١) قال طاش كبرى في مفتاح السعادة : علم الرقص وهو علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهدها وهذا من العلوم التي يرغب فيها أصحاب الترفه والاغنياء والامراء ومن يجري مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي ويعلمونها الغلمان الحسان والجواري الفائقات ليلتذ السمع والبصر معا بمشاهدة حسنهن واستماع نغماتهن وغنجهن حتى تكمل اللذة والحبور والفرحة والسرور وأهل الهند ماهرون في أنواع الرقص ولهم فيها يد طولى الا أن هذا العلم محرم في شريعتنا وقد قيل التلذذ بالغناء وضرب الملاهي كفر اه

تصدر هذه العجالة من بلاد هى مهد الرقص والغناء والموسيقى ، من أرض أين اتجهت في حواضرها وبواديها تجدها تطرب وتتغنىء من بلد قام فيها من الموسيقيين القدماء أمثال روسيني وبلليني ودو نيزيتي ومن المحدثين أمثال فردى وبوتشيني وماسكانيه وليون كافاللو ومن المغنين فى المحدثين بونشى وماركونى وكاروسو وديللوكا وباتستيني وغيرهم من المغنيات والموسيقيات ممن أعظمت الأمة منزلتهم واحلتهم فى منزلة علمائها وفلاسفتها ورجال نهضتها

وكل مانراه من الموسيقى ونسمعه من الغناء يكون على ضرب « النوتة » بادوار وتقاطيع مخصوصة وهو مالم يتم حتى الآن عند العرب اللهم الا الموسيقى الوترية فى مصر ولما يعم استعمالها فاذا أصبحت موسيقانا وغنانا ضمن دائرة القانون يكون قد وضع الحجر الأول فى أساس نهضة هذه الفنون الجميلة فى شرقنا العربى على نحو ماجرى عليه سكان الاستانة وأدلجوا فيه من تقليد الاوربيين فى موسيقاهم وغنائهم .

الموسيقى والغناء هما مثال من حالة النفس ومن لا يريد أن تكون نفسه شفافة براقة حساسة ولكل أمة غناؤها قد تتبرم به الأمة الأخرى وتعده منكراً ولكنه يفيدها ويلذها كما ذكر ابن رندقة الاسكندرى من سياح القرون الوسطى فى وصف أهل شلشويق (أى أهل شلزويك هولستاين في شمال ألمانيا) وقال ان لهم نوعا من الغناء يشبه عواء الكلاب ولو فهم معناهم لما حكم هذا الحكم الذى يقوله اليوم أيضا كل من لا يعرف لغة غيره ولا تأثير موسيقاه وغناءه ومراميهما

اللذائذ الثلاث هما من أول ماتدور عليها الحياة الغربية اليوم ولا تضر بالوقار بل تعد من أدوات الظرف والكمال ولعل شرقنا يحتذى فى الموسيقى والغناء حذو الغرب مع تعديل تقتضيه طبيعته وعاداته واشتغال البيوت أو الاصحاب آونة الفراغ بضرب من ضروب الموسيقى والغناء أنفع ألف مرة من لغو الحديث وانتقاص بعضهم بعضا والحط من اقدار أنفسهم والسلام

نهضة ايطاليا

ايطاليا القديمة

٤٧

كنت أحب أن أسطر قبل الآن ما أعرفه وعرفته عن النهضة الايطالية الا أنى انتظرت ريثما قضيت شهراً فى هذه الشبه الجزيرة ورأيتها اجمالا من جنوبها الى شمالها .

وقد اعتمدت فيما أكتب على من وقعت لى معهم صلة تعارف من خاصة الطليان أو ماقرأته بأقلام الطليان بالافرنسية أو ما كتبه الفرنسيس عن الطليان وهو وان لم يكن مجموعا صحيحاً من كل الوجوه لكنه أقرب الى الصحة من كثير من الاحكام التى يصدرها صاحبها عفو القريحة بادىء الرأى

وكنت أود لو سمح لي الزمان بتعلم مبادىء من لغة الطليان الرقيقة لاخاطب العامة كما أخاطب الخاصة بلغتهم نفسها واسمع تصوراتهم وألقى عليهم الأسئلة وأدرس أحوالهم بالنفس ولكن المدة التى قضيتها لا تكفى لأن يتعلم المرء القدر الكافى للتفاهم بهذه اللغة مع قربها جداً من الافرنسية ولولا الخوف من علماء أصول اللغات لقلت أن الايطالية تحريف الافرنسية أو هذه تحريف تلك

ثبت كل الثبوت بعد الرحلة الى ايطاليا ان مسألة اللغة من أهم المعضلات الاجتماعية التى يصعب حلها الا بأن يتعلم المشتغل بالعلم والتجارة عدة لغات من اللغات الحية كما يفعل الغربيون اليوم وان العامة أيضا لاغنية لهم عن تعلم ولو مبادىء طفيفة من لغة راقية منتشرة وان من كان يبيع منا أفكاره الصائبة بأن الموظف يستطيع أن يحكم فى بلد لايفهم لغة أهله وان التاجر يستطيع بواسطة الترجمان ان ينفق سلعة ويربح ويستفيد من كان كذلك لم تكن أفكاره أرقى من أنفه اذ لم يستند فيها الى تجارب ولا الى تاريخ واجتماع .

وها نحن نتكلم على نهضة ايطاليا فنقول : قضى مركز ايطاليا الجغرافى أن تكون فى الأزمنة القديمة مركزاً عظيما من مراكز المدنية لتوسطها بين الشرق والغرب وكانت رومية نقطة هذا الاتصال وواسطة هذا العقد منذ قام الرومان الاول وأخذوا يدوخون الأمم والشعوب لسلطانهم . ولما وضع الشعب اللاتينى أول جسر على نهر التيبر وهو نهر رومية المقدس ومن أكبر أنهر ايطاليا أصبحت رومية مطمح الانظار وصار هـذا الجسر الذى كان بناؤه أقرب الى الفطرة مما يستهوى قلوب شعوب الشمال للاغارة عليه لان منه يخلص المرء الى ساحل البحر المتوسط على أيسر سبيل . ولما دفع اللاتينيون عن جسرهم غارات الأتر وسكيين واليونان أصبح مقدساً ومن ملكه كان هو الزعيم بلا مدافع .

تمثلت بالقرب من هذا النهر ثلاثة مطالب أساسية للمرء والمجتمع وهى ضمانة الحياة المادية وموافقة الحياة الأدبيـة والصعود الى الحياة العقلية بمعنى أن المرء يعيش ويحب ويعرف وأن يكون في المجتمع قانون ودين وعلم .

قارب الرومان القدماء هـذه المظاهر الثلاثة ولكن الحياة المادية كانت أتم عنـدهم لانهم محاطون باعداء ان لم يحاربوهم بالمادة يهلكون لامحالة . وكانت الحياة العقلية فى كثير من أدهارهم تامة بالنسبة لتلك الأيام ونظام الأسرة ثابت الدعائم وحب الجندية مغروسا فيهم حتى كان الوالد يقدم ولده للخدمة العسكرية فى السادسة عشرة ليعفى منها في السادسة والأربعين وعلى قلة عدد السكان اذذاك وهو كما قال المؤرخون (١٥٠) ألف نسمة في رومية وذلك قبل المسيح بخمسة قرون فى أرض ذرعها ٤٥٠ ميلا مربعاً كان للرومان جيش مؤلف من ثلاثين الى أربعين ألف نسمة يخرجون به من فتح الى فتح .

وكان الرومان اذا فتحوا بلاداً يقبلون فى الحال مايتراءى لهم حسنا من عادات أهلها وصناعاتهم وأسلحتهم وهذا سر وضع القانون الرومانى الذى هو ابن الاوضاع الكثيرة وسليل شعوب عدة ألف فى قرون وتعاورته الايدى بالشرح والتذييل والانتقاص حتى أصبح دليل الحكمة الرومانية بل هو مجلة الحقوق الانسانية التى لاتتغير . وكانت تلك الحروب الرومانية من مجددات حياتها وحماستها الوطنية حتى

لقد قال ليكورك الخطيب اللاتينى ليس أحسن عاملا من الحرب فى تقوية الشعب لأنها تعلمه احتقار الاخطار والاخلاص لسلامة غيره ولاسرته ووطنه

ولما تخلص الرومان من السيزيليين كاد القرطاجنيون أن يهلكوهم فظفر الرومان بهم وورثت رومية مجد قرطاجنة التى سقطت بعد الحروب البونيكية وقضت رومية على أنيبال القرطاجى الذى جاء وهددها فى عقر دارها وكان فتح الرومان لمصر وكثير من أقطار آسيا ومنها الشام من أكبر دواعى قوتهم فجلبوا به ثروة وأعلاقاً نفيسة وكان من أكبر المشوقات للعسكر الذى أخذت رومية تستخدمه بالاجرة ان كان يعطى له شيء من الانفال والغنائم لا كما كان فى القديم يستأثر بها الزعيم أو رب الأسرة .

ولما جعلت رومية بلاد اليونان ولاية رومانية أخذت عنها الذوق فى الفنون الجميلة وكلما كان الرومان يجلبون من كورنت وآتينة أثراً من آثار الهندسة والنقش والجواهر كانت تتربى أذواقهم ولم يكتفوا بالآثار بل جلبوا معها مؤثريها من مثل الخطباء والسفسطائيين من الحكماء فأصبح للخطابة شأن مهم في الحياة العامة وصار ملعب « الفوروم » المشهور الباقية الى اليوم آثاره عكاظ الرومان يخطبون فيه ويتناقشون وأخذوا يبعثون بفتيانهم الى اثينة يتعلمون على حكماء الوقت اذ ذاك ماينفعهم ثم هاجر كثير من العلماء الاتينيين الى رومية وأنشأوا يعلمون كل طالب وبلغت هذه النهضة أشدها على عهد الامبراطور أغسطوس وسقطت بعده بقليل شأن أكثر مدنيات العصور السالفة كانت من عمل حاكم أو أمير أو بضعة حكام ثم يتناسى الأمر ويزهد فيه .

جاءت أزمان أدخل فيها اليونان على الرومان أموراً أضعفت من سلطة الوالد على أولاده وتركت الحياة الجندية وأخذت الشبه والشكوك تسرى الى العقول وكثرت الموبقات بكثرة الرفاهية فكان بذلك انهيار ذاك البناء وخراب العالم الرومانى فقضى على رومية وذهبت تلك المدنية كما ضعفت فى النفوس آثار الوثنية وأخذ الاضطراب يدخل فى نظام تلك الحضارة ويبعثرها وكثر الانتحار واليأس من

الحياة ومن لم يحبوا الانتحار يؤثرون العزلة وسرى اليأس في الطبقة الممتازة والاغنياء الى البائسين والخدمــة ولما كانت الحال على ذلك والنفوس تضيق من هذه المظاهر جاءت النصرانية على انقاض المدنية الرومانيــة وكان لها من النساء أكبر عون على الانتشار فرأى فيها من دانوا بها عزاء لهم وسلوى . والدين وازع قوى في الدنيا والآخرة .

اضطهد القائمون بالدعوة الدينيــة أيضاً وقام أمثال نيرون يظلم ولا يبقى على أحد وبينا كان يحرق المتنصرين أحياء ليضيء بهم حدائق الفاتيكان كنت ترى أولئك المتنصرين يذهبون الى الحرق باسمين لاعتقادهم بأن في العالم الآخر حياة سامية لايخيب من قضى في سبيلها . وكلما كانت الشدة تنال أولئك المضطهدين كنت ترى أشياعهم يكثرون .

وكان النزاع بين الامبراطورية الرومانية والدين المسيحي من أعظم ماذكره التاريخ حتى دان الامبراطور قسطنطين بالدين الجـديد فكان من انتشار الدين بعد الوثنية منافع اجتماعية مهمة في البـلاد خصوصاً والدين أخذ يوافق ميول المتدينين به وحاجاتهم

توطد أمر ايطاليا بعد ذلك وأخذت تقطع أشواطاً في سبيل جمع شملها وتتناسى ما نالها في سبيل انتشار النصرانية التي عمت ايطاليا وبينا الامر على ذلك كان برابرة الشمال يتجمعون ليغزوا ايطاليا للاستفادة من مادياتها وقد أهلكهم الجوع ولم يكن لرومية طاقة يدفعهم فجاؤا يغشون العالم المتمدن ولكن من أولئك البرابرة من لم يلبثوا ان دانوا بالدين الجديد وتطوعوا بالدعوة اليه في القاصية بيد انهم لنقص فيهم حرفوا ماتلقنوه ولم يعملوا بتعاليمه فأتوا مظالم كثيرة حتى اضطر البابوات أن يجعلوا لهم سلطة مدنية فعمدوا الى القوة علماً منهم بأن سلطان الروح لايؤثر كثيراً ان لم يكن وراءه سلطان القوة .

وهذا كان مبدأ مزج الدين بالسياسة خصوصاً على عهد شارلمان وليون الثالث وهما الملكان اللذان حاولا هذا المزج وحرصا عليه ثم كثرت البدع والالحاد

وقاومها البابوات بالشدة وان جاء من هؤلاء أتعسهم من لم تحمد سيرتهم أحياناً
ولقد كانت ايطاليا خلال القرون الوسطى ميدان العراك بين البابوية والامبراطورية
فنتج من ذلك تمازج بين العناصر المختلفة فى الغرب ثم جاءت الحروب الصليبية
على الشرق وكان الدافع اليها دينياً ثم انتهت بالماديات وبعد سنة ألف للمسيح
حدثت حوادث غيرت معالم العالم الغربى وكانت الدواعى الى الحماسة الدينية حب
الظهور والاتيان بالغرائب ولا سيما فى نفوس العامة والزعماء من الامراء ولكن
حرب المسلمين قرنين لاستعادة الارض المقدسة لم ينتج منه الا أن جمهوريات
ايطاليا أصبح لها مكاتب تجارية على شواطىء البحر المتوسط وباختلاط ايطاليا
بل أوروبا بالمدنية الشرقية البديعة عاد الى الغرب شىء من الحياة أصيبت به
الصناعة والآداب وكان أثر الحروب الصليبية فى ايطاليا أثر تقاليد اليونان
المغلوبين على أمرهم فى مدينة رومية .

ايطاليا فى القرون الوسطى

٤٨

جاء عهدان على رومية طمحت فيهما الى ان تحكم العالم فالاول على عهد عظمة
قياصرة الرومان وقد تم لها ذلك بعض الشىء والثانى على عهد التحمس الدينى
وبلوغ سلطة البابوات حدها وكان من أثر الحروب الصليبية ورؤية القوم
للفنون القديمة البزنطية والمغربية ان تمت لهم مقدمات النهضة الاولى . ثم أن
المقاطعات تحررت من سلطة من كانوا يرهقونها من أمرها عسراً فأخذت تتنافس
فى اقامة الابراج وتحب كل منها أن تكون كنيستها أوسع وأكثر بهجة وأغنى
وخطيبها أفصح ومتفننها أشهر . وأنشأت تبحث عن الرجل الذى يكون أقدر من
غيره على التغنى بأمجادها فى أشعاره وتعظيم أعمالها الصناعية وبدائع النقش والرسم
وبفضل هذه المباراة اغتنت المدن والقرى بالمعاهد البديعة فكنت ترى الكنائس

الكاتدرائية فى كل مكان تناطح الجوزاء والقصور تسمو من الارض الى الاجواء

وانتشر فى جميع شبه جزيرة ايطاليا ميل حقيقى للجمال فحدث منه ازدهار الفنون التى لم تزل تبهرنا الى اليوم فكان هذا العهد مناسباً لتكوين أعاظم الرجال ليستطيعوا أن يحدثوا أعمالا غريبة باقية وكان للقديسة كاترين دي سين والقديس تومادي آكيك والقديس فرانسوا داسيز فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر أثر يذكر فى السياسة والعلم فكانت هذه النهضة الايطالية الاولى متشبعة بالفكر لديني الا أنها كانت تحوى فى مطاويها بذوراً أنبتت بعد النهضة الثانية .

وقام على الاثر الشاعر دانتى الايطالى واضع أساس اللغة الايطالية الحديثة وأخذ ينادى فى شعره ونثره بفصل السلطتين المدنية عن الدينية . ينطق فى ذلك بلسان طبقة كبيرة فى عصره فلم يكد يصرخ صرخاته حتى جاوبه على الاثر أرباب الافكار الحديثة ممن أخذوا ينزعون ربقة الدين بل ينحون عن جوهره . وكان فى هذا القرن أيضاً أناس من أرباب الفنون الجميلة يؤمنون بما يصورون ويريدون به خدمة الدين ومنهم من كانوا يصورون وينقشون حباً بالمجد والشرف والمال خصوصاً وهم يرون كم كانت أسرة ميديسيس اذ ذاك تغدق الهبات على أرباب تلك الصنائع . حتى لقد قيل أن رافايل المصور رفض أن يكون بابا وآثر العمل بالتصوير . وهذا العصر يسمونه بعصر ليون العاشر الذى كان من أكرم الباباوات وأكثرهم علماً وعصره كعصر أغسطس قام فيه أرباب الافكار الحديثة وأخذوا يشيرون من طرف خفى بتحكيم العقل فى المسائل فأصبح أهل العلم والادب مرغوباً فيهم أكثر مما يرغب فى الامراء وساعدهم اختراع الطباعة اذ ذاك فأخذوا يبثون أفكارهم فى روح القوم على صور مختلفة حتى غدا أمثال بوج وفيللف وأرتين الحاكمين المتحكمين بالافكار فى عصرهم يصرفونها كما يشاؤن .

فى ذاك العهد أيضاً نشأ للطليان أمثال المؤلف لورانزو فالا فخدم الآداب والتاريخ والخطابة والفلسفة خدما تذكر له على الدهر ومثله جيور دانو برنو الذى

أحرق لافكاره الفلسفية وكان عالما كاتباً مؤثراً دينياً كانت الافكار تتمخض على هذه الصورة قامت حركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر ومنشاؤها من بيع الغفرانات واستئثار البابوات بالسلطة المركزية يريدون أن يتم كل شىء فى رومية فى الامور الدينية والملوك يريدون من حيث السياسة أن ينزعوا هذا العبء الثقيل عنهم والتخفيف من وطأة الارتباط بالمقام البابوى والفلاسفة والادباء يريدون أن يحرروا العقل من قيوده وكلما كان المجتمع يدخل فى طور الكمال كانت الحالة تستدعى تقسيما أكبر فى العمل وتوجيه المناحى وجهاتها حتى ان أكثر من واحد من المتدينين جداً قد طلبوا التفريق بين السلطتين وبعد شؤون وشجون انفصلت ألمانيا وانكلترا عن رومية .

كان العلم فى أواخر القرن السادس عشر قليلا وقام أمثال غاليله الذى قال بدوران الشمس حول الارض فأوذى لما نادى بآرائه العلمية وان التجربة هى الشرط الضرورى فى تحقيق المسائل العلمية وقد طبق ليونارد بعقله العجيب هذا الاسلوب على جميع المسائل المبحوث فيها وأخذ ماكيافيل واضع فن سياسة الخداع يتشبع بها في كتبه السياسية وكما كان الشاعر دانتى يطالب بضرورة فصل السلطة المادية عن السلطة الدينية كان العالم غاليله يثبت بأن العالم العلمى يجب أن يكون منفصلا ومستقلا عن الاعتقاد الدينى وهكذا لم يبرح غاليله يؤكد مع شدة احترامه للدين أن العلم والدين أمران مختلفان ليس بينهما تناقض ولا ارتباط . ويرى أن الكنيسة هى الحاكمة فى المسائل الدينية وليس لها أدنى سلطة فى المسائل العلمية وينبغى لها أن تحاذر من الحكم فى مسائل هى غريبة عنها تماماً .

رأت الكنيسة بعد عصر دانتى أن تحافظ على كيانها السياسى بالقوة وأرادت بعد غاليله أن تحافظ على كيانها العلمى بالتعاليم خصوصا بعد ان شاهدت النتائج التى تمت على ايدى اليسوعيين باتخاذهم العلم آلة للدين واتحدت الكنيسة مع الامراء وأخذت تلقن الناس الطاعة والخضوع فلم تحدث بعد ذلك ثورات وامن الناس واغتبطوا ولكن ظهر بعد قرنين من انتشار الاصلاح الدينى بقيام لوثيروس

ونزع ألمانياوانكلترا يدها من الكنيسة الكاثوليكية ان الانحطاط اخذ يبدو على الشعوب التى ظلت كاثوليكية على اختلاف فى عناصرهم ومناخ بلادهم وأحوالهم الاجتماعية والسياسية وذلك لأن التعليم كان محدوداً عند هؤلاء الشعوب ومقصوراً على بعض الطبقات والعدل فيه شدة وضعف والطاعة أبداً يرغب فيها فقلت فى هذه الشعوب القوة المبدعة على أن الرفاه المادى كان مضمونا لأهل ايطاليا بما أنشىء فيها من المعاهد الخيرية ولكن كل ذلك لم يخرج الشعب عن حالة التثبت والتراجع .

وعلى عهد مثل هذه الادارة ينزل ميزان العقل من كل وجه فقد أمست الصناعات والآداب والعلوم لاترتقى الا ببطء حتى أن الشاعر كيودى المتوفى سنة ١٧١٢ من أعظم شعراء ذاك القرن كان يتغنى بمدح عصره معرضاً بالجفاء البربرى الذي كان يشاهد من خلال أعمال قبائل رومية القديمة الذين لم يكونوا يحلمون الا بفتح العالم

ومن حسن الحظ أن ايطاليا لم تعدم في ذاك الدور أناساً ينهضون هنا وهناك يثيرون العواطف وينادون قومهم بأن ماهم فيه باطل لابد له من التجديد وأن هذا العالم ليس عالم الأموات . فقام بيترو ميكا بالدفاع عن تورينو وقام فيليكايا يتغنى بأغانيه الحربية لينبه سكان هذه الشبه الجزيرة المتخدرة ونهض الأمير أوجين دى سافوا يحمل أمجاد الحرب والسياسة الى القاصية وأخذ بيكاريا يقيم الحجة على فظائع المحاكم وقام غيرهم بأعمال كثيرة نبهوا فيها العقول من رقادها ماأمكن .

ايطاليا فى القرون الحديثة

٢٩

بينا كانت ايطاليا غارقة فى هذا السبات كانت أفكار غاليله قد وصلت الى انكلترا فتلقاها الفيلسوف باكون وعادت الى ايطاليا منعكسة من طريق فرنسا

فى كتابات الفيلسوف ديرو وأخذت السلطة الدينية تضعف أمام حقوق العقل وجاء انتشار دائرةالمعارف (سنة ١٧٥١ ـ ١٧٧٢) فأحدث حركة فى أهل الطبقة المستنيرة وساعد فيها أهل الطبقة الوسطى من الفرنسيس آملين أن يروا منها سلاحا يحاربون به رجال الكهنوت والاشراف أما العامة فقد استعملوها واسطة للارهاب وقد كفت فرنسا ثلاثون سنة حتى تأتي أفكار دائرة المعارف بعملها فى التخريب وذلك لان فرنسا كانت مستعدة أكثر من كل أمة لقبولها لأن السلطة كانت فيها على أشد ماتكون ثم ان صلاتها مع الشعوب البرتستانتية كانت مستحكمة العرى أكثر من غيرها فكانت ألفاظ « الحرية » « والمساواة » « والاخاء » تؤثر فى السواد الأعظم من القوم فتدفعهم الا الأعمال الخارقة فى باب الرجولية ولما ظفرت جيوش الفاتحين من الفرنسيس بفتح شبه جزيرة ايطاليا سنة ١٧٩٦ كانت حالة الافكار فى فرنسا مخالفة كل المخالفة لحالتها فى ايطاليا ففى الأولى مضاء واعتماد على النفس وفى الثانية ضعف وخضوع ولذلك كان الامراء ينهزمون من وجه الجيوش الفرنساوية على صورة بشعة بل ربما ركبوا عار الفرار قبل أن تحتل بلدهم فلما استحكمت سلطة الفرنسيس فى ايطاليا قلبوا كثيراً من أوضاعها باسم الحرية ووضعوا لها القانون الفرنساوي وألغوا امتيازات رجال الدين والاشراف بيدان ماحدث من الاحتلال الفرنساوي لايطاليا فى أوائل القرن التاسع عشر قد نبهها من سباتها العميق وحدابها أن تعقد مع سائر أوروبا الممدنة علائق ولم يفهم العامة من الطليان مايراد بهم فكانوا يساقون كالانعام ولكن الطبقة المستنيرة ورجال الاعمال بعثت هممها حالة الفرنسيس فأخذت تدرك امكان اعادة الوطن وتأليف شمله المبدد وتبحث عن الطرق لتحقيق هذه الأمنية فلم تمض على ذلك خمسون سنة حتى أثمر جهاد أرباب الافكار تأليف الوحدة الايطالية الحديثة وحدة قوامها المساواة أمام القانون ومنح الحرية السياسية .

أعاد رجال السياسة في مؤتمر فينا خريطة أوربا الى ما كانت عليه قبل سنة ١٧٨٩ وعاد البابوات والملوك والدوجات والامراء الى سابق أمجادهم تحميهم

الحراب الأجنبية ولكن استحال الرجوع الى الحالة الأصلية لأن رجال الشعور الخارق للعادة ومن تؤهلهم الجاذبيـة العقلية الشديدة الى أن يتحرروا بعض الشيء من الوراثة والمحيط قد عدلوا فى وجهة الافكار وجددوا ميدان آمالهـم فكان الشعراء وأساتذة الكليات والقسس والاشراف المتعلمون فى مقدمة من تبدلت عقولهم بتأثير الحوادث وما تم لفرنسا من المجد قد أفهمهم معنى الجمال الذى ينطوى فى مدارج القوة . وتراجع الايمان بالحق الالهي وعادت الفلسفة فتأثرت بتأثيرات المجددين وضربت مقعد الكنيسة الرومانية ضربة قاسية وتحمس الأذكياء وأرباب القلوب لفكرة أن وطنهم سيستعيد بهاءه ويعود عظيما جميلا فأخذوا يعملون بمضاء وحماسة تدعو كل من اطلع على أعمالهم أن يمجدهم ويحترمهم وكثر تجدد طبقات من الشعراء أخذت على عاتقها أن تنبه بلسان الشعر وألحانه الرخيمة شعباً متناوماً منـذ قرون فتناول الشاعر جيوشى سوط الهجاء الذى سقط من يدباريني وأخـذ يضرب به وتحمس الشعراء بلليكوا ومانزونى ونيكولينى حماسـة الغيرى المفجعة . وساعدت قصائد فوسكولو وأغانى برشت الوطنية على هذا النشور .

بيد ان الدعوة الأدبية لا تستطيع أن تعمل الا فى الافكار المستنيرة ولو قليلا فأخذ الاشراف والطبقة الوسطى من الأحرار يدركون ضرورة نشر هذه الحركة بين العامة فأنشأوا يدخلون التعليم الى القرى وكان تكثير سواد القائلين بفكر التجدد وضم الشمل فى المدن قد تسهلت أسبابه بارتقاء مستوى العقل فى الشعب واستعداده لقبول الجديد ولكن بث الدعوة كانت خطرة ، ولطالما أعار بعض الكتبيين مؤخرة حوانيتهم لعقد الاجتماعات يتهامس فيها المتهامسون بأفكارهم وآمالهم وأحلامهم فى المستقبل ونهضة البلاد .

ثلاثة عوامل أعانت على تخمير هذه الثورة الجديدة وتنمية بذورها : قدماء الضباط والموظفين على عهد نابليون والجمعيات السرية ورجال الشرطة . ومعظمهم كانوا دخـلوا فى الجمعية الماسونية فتعلموا فيها أساليب الاجتماع ، وجمع الشمل

وحب النظام ؛ وبالنظر لحالة البلاد اذ ذاك لم يتأت ان تنعش من سقطتها الا بجمعية سرية وذلك لما عرا الأخلاق من الانحلال والضعف ولقلة عدد ارباب الشخصيات الراقية فكثرت الجمعيات السرية من أجل ذلك فى البلاد كلها ؛ وكان أشياعها كثاراً أولا فى الكليات ودخل فيها أبناء الطبقة الوسطى وكثير من أبناء الاسر الكبرى وجماع الاسرائيليين ؛ وكان أكثر الداخلين مدفوعين الى ذلك بعامل المنفعة الشخصية الممكنة وكلهم يرمون الى جمع شمل الوطن .

كان للاسرائيليين فى هذه الحركة الكعب المعلى فانهم وان كانوا فى ايطاليا أقل حيفاً من حيث مادياتهم خلافا لما كانوا عليه فى سائر أوربا لكنهم كانوا خاضعين لقانون يحرمهم من الوصول الى المناصب التى يؤهلهم اليها ذكاؤهم وثباتهم المتواصل على العمل ، ولقد علمهم احتقار الناس لهم فضائل تجرد منها ظالموهم ؛ فكانوا محتقرين وسذجا فى الصورة الظاهرة ويتذكرون أحيانا شيأ من الخير نالهم ولكنهم لا ينسون على الدوام العار وهم على ثباتهم وحسابهم للعواقب قد أصبحوا متضامنين بدواعى مقاومتهم للعدو المشترك يكتمون أمرهم ويسرون ما يجول في قلوبهم وهم قد أثروا اثراء مهما فكانت منهم قوة لا تعادلها قوة لمقاومة نظام سياسى تكرهه نفوسهم .

فلم يكونوا يعتقدون ان فى وحدة ايطاليا قلب الأوضاع التى طالما قاسوا منها الامرين بل كانوا يرون فيها صورة من صور الانتقام من انكلترا المسيحية فى رومية الباباوات ولذا يمكن أن يقال فى ذلك العهد ان جميع الماسون فى ايطاليا ان لم يكونوا كلهم اسرائيليين فان جميع الاسرائيليين كانوا ماسونا واذ كانت القوانين والعادات تبعدهم عن الحياة العسكرية فقدوا الشجاعة التى تورثها صناعة حمل السلاح فكانت معاونة الاسرائيليين ما عدا بعض الشواذ مالية أكثر منها شخصية وعظمت معاونتهم المالية في هذا السبيل حتى ان الحكومة الموقتة فى ميلان بالنظر لما ادره عليها الاسرائيليون من المال بعد مغادرة النمساويين للبلاد قد شكرتهم على اعانتهم الكريمة في سبيل الحرية .

وما كان القسيسون غرباء عن هـذه الحركة فان أول من صاح « ايطاليا واحدة وحرة » كان قساً فمات فى هذا السبيل وآخر من قضى فى هذا المقصد هو قسيس أيضاً كان فى صحابة اسرائيلى ، وكان هذاشأن جميع المستنيرين من عامة طبقات ايطاليا يريدون أن يحيوا وطنهم ولا يبقوه أرض الاموات . وماصادفته هذه الدعوة من العواطف في طبقة رجال الدين لا يعجب منها اذا علم أن البابا بيوس السابع كتب الى الكونت بورو بمناسبة أعضاء جمعية الكاربونارى الثورية « انهم يحبون ايطاليا وانا أحبها مثلهم » وكذلك كان الأشراف الذين لم تكن لهم مناصب تشغلهم فى الحكومة وأقصاهم الملوك عن قربهم فانهم شاركوا في الحركة الجديدة حق المشاركة .

قلنا الكاربونارى وهى جمعية اشتقت من الجمعية الماسونية وأعضاؤها من الجند والضباط على عهد نابليون فقامت منذ سنة ١٨٢٠ بثورات عسكرية فى مملكة نابولى أولا ثم فى معظم أمارات ايطاليا ، ولكن قلة عدد اعضائها وفقدان المرددين لأعمالها غادرت حركاتها قاصرة . ولما قام مازينى الكاتب الذى كان يؤثر لانه كان متأثرا يرمى الى انهاض ايطاليا وجد أنصاراً واعواناً وان كان العيب الوحيد انه كان يتعجل قطف الثمرة قبل نضوجها ، ويضيق المجال اذا اردنا احصاء من دعوا الى هذه الوحدة ومنهم الراهب فنسانزو جيوبرتي الذي اغضب الكنيسة بعمله ؛ فقضى آخر ايام حياته شريدا فى باريز لانه قال بضرورة فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ومنافع ذلك للسياسة والاخلاق

وكانت نيران الثورة تشتعل تارة وتخمد اخرى فيظن ان البلاد عادت الى حالتها من الامن والطمأنينة ، ثم لا تلبث فوهة البركان ان تقذف حممها ، وقد انفجرت لآخر مرة يوم قامت فرنسا وقلبت الملكية ونادت بالجمهورية وأخذت تهتز أعصاب أوربا فتحركت ايطاليا من أقصاها الى أقصاها كأنها متأثرة بمجرى كهربائى فقامت قيام الرجل الواحد من بلاد الألب الى صقلية أى من الشمال الى الجنوب وظهر ان الملوك تظاهروا بالاشتراك بالحركة والبابا كذلك وان شئت فقل

انه كان أكثر من غيره وتنازل الأمراء عن سلطتهم المطلقة ومنحوا دساتير لشعوبهم والكل يريدون أولا طرد النمساويين من البلاد التي كانوا احتلوها

ولقد تمثلت الثورة العامة في سنة ١٨٤٨ في جميع الطبقة الوسطى لمناهضة السلطة المطلقة فصادفت أولا عطفاً من البابا وغيره فلما تحقق مقاصدها مزقت الدساتير المعطاة وأعيدت البلاد الى نظامها السابق فلم يثبت من ولايات الشبه الجزيرة سوى البيمون وكان لها فقط جيش يحسن الكر والفر وله نظام بزعامة الملك الجديد فيكتور عمانوئيل الثاني وما كانت المهمة التي انتدب اليها هذا الملك بالأمر السهل بل كانت تحتاج الى سلاح ماض وطرق مواصلات منظمة ومعارف منتشرة وضم شمل أحرار الطليان وتهدئة خواطر الكاثوليك وهم كثار متحمسون في أقليم البيمون واقناع أوربا التي لا تصدق أوهي معادية لهذا الفكر واتخاذ أنصار من حكومات أوربا ليفتوا في عضد العدو العظيم . كل هذا ولا مال لتلك المملكة الصغرى وهي مدينة بمليارين من الفرنكات هذا المركز من أحرج المراكز ولحل مشاكله يجب له نابغة من الرجال وهذا الرجل الذي تهيأ له هو « كافور »

قام هذا السياسي العظيم وعرف بما خص به من حسن الانتفاع أن يستخدم أمثال غاريبالدي ومازيني للمقصد الذي يرمي اليه في حين كانا يريدان المناداة بالجمهورية لا بالملكية . ومن دهاء هذا الرجل انه بعث من أقليم البيمون جنداً الى حرب القريم يعاون الدول الأوربية التي عاونت الدولة العلية اذ ذاك فعد العالم عمله خرقاً في الرأي على أمة صغيرة فقيرة مثقلة بالديون ولكن هذه المناداة هيأت لا يطاليا بل لمملكة البيمون مركزاً بين الدول وصار لها الحق أن تبعث بمن يمثلها في مؤتمر باريز . ولا عجب فالأعمال بمقاصدها ونتائجها أتم هذا النابغة كل ما كان يظن انه مستحيل ولا يعرف اليوم ماذا كانت حال ايطاليا لولا قيام هذا الرجل . وقد جبر بدهائه ما بدر من الضعف في الجمعيات السرية الثورية التي اندمجت في جمعية « جيوفاني ايطاليا » لأن عملها لم يؤد الا الى فظائع فقام كافور يربط بحكمته القلوب حول عرش صاحب بيمون وغدت أسرة سافوا محط رحال

الآمال وساعد أن كان الأمبراطور نابوليون الثالث الفرنساوي من أعضاء جمعية الكاربوناري منذ صباه فاضطر الى مساعدة ايطاليا ولما أيقن الملك فيكتور عمانوئيل بمعاضدة الجيش الفرنساوي نهض بالعمل بصورة أفخم وأعظم وأعلن الحرب على النمسا وقد قال لوزرائه عند ما وقع على اعلان الحرب اني سأكون بعد عشرة أشهر ملك ايطاليا أو المسيو سافوا .

ظافرت الجيوش الفرنساوية فى مونتبللو وبالسترو وماجنتا وسولفيرينو ، وبموجب معاهدة زوريخ تركت لومبارديا للملكة البيمون وقامت طوسقانة رويداً رويدا على دوجها الكبير وأعلنت انضمامها الى البيمون . ونزل غاريبالدى الى صقلية وتآخى مع سكانها وكانوا مربوطين بعهود الاخاء من قبل مع جمعية مازينى السرية ثم اجتاز المضيق ودخل ظافراً الى نابل وكاد يزحف على رومية ليفتحها وبعد أيام أعلنت جزيرتا صقلية وسار دانية انضمامهما الى الوحدة الايطالية وفى ١٨ شباط ١٨٦١ اجتمع البرلمان فى تورينو ونادى بالملك فيكتور عمانوئيل الثاني ملكا على ايطاليا وتوفى كافور بعد بضعة أسابيع كأنه انتظر حتى أتم عمله المجيد مخلفاً لقومه شعاره « الكنيسة الحرة في المملكة الحرة »

وبقيت البندقية ورومية فقط لم تفتحا فقام اخلاف كافور ، وعقدوا محالفة مع بروسيا فأخذوا البندقية وسمح استدعاء الجنود الفرنساوية من ايطاليا سنة ١٨٧٠ للجيش الايطالى أن يدخل ظافراً الى رومية مقاتلا جيش البابا الذى قاوم بعض المقاومة ولكن ما حيلته أمام هذا التيار العظيم وارادة الامة فى نزع السلطة المدنية من يد صاحب السلطة الدينية فحصرت سلطة البابا بعد ذلك فى دائرة معينة لا تتعدى حد السلطة الروحية .

ايطاليا بعد الوحدة

٥٠

هاقد ألقينا نظرة مجملة على ماضي ايطاليا وأصول مدنيتها وامجادها ودرس الماضي عون على فهم الحاضر ولقد ترك كل دور دخلت فيه البلاد طابعاً فى صورة ايطاليا الحديثة كما أثرت فيها المؤثرات الجوية والجغرافية والعنصرية ولم تقو التربية الا على تغيير قليل فيها ؛ ونشأت مؤثرات أخرى تقعت فى نهوضها كل النفع وهى سرعة المواصلات وكثرة التنقل والصلات المتواصلة مع الامم الأخرى وغير ذلك ، وبعد ان صرفت ايطاليا كل جهادها الماضى الى سنة ١٨٧٠ فى تكوين الوحدة الايطالية والغاء امتيازات الاشراف ورجال الدين وتأسيس ملكية ديموقراطية وجب عليها ان تنظم هذه القوة ، فاختارت القانون الاساسى الذي كان معمولا به فى اقليم البيموند مع بعض تعديل أخذته عن القانون الفرنساوى .

ولقد حق على القائمين بهذه الوحدة من أهل الطبقة الوسطى وأبناء أشراف من الدرجة الثانية والاسرائيليين والماسونيين والبيمونيتيين وكل من وجدوا مصلحتهم فى قيام هذه الوحدة أن يرعوها فلم يجدوا أمامهم الا العامة يتقوون بهم فأنشأوا لهم مسائل الاشتراكية والنقابات الصناعية واعديهم فيها بوعود خلابة أقلها ان الجمهور يعيش بدون ان يعمل ؛ وكل ذلك لمناهضة الاشراف ، ورجال الكهنوت ففقدت طبقة الاشراف كل موازنة ولم تبق لها تلك المكانة المعروفة لها قديما . اما رجال الدين فاحتفظوا بمراكزهم وذلك لانهم يمثلون شيأ لا يبرح حياً فى نفوس الشعب ولان لهم قانون يضم شملهم .

التفتت الحكومة بعد الوحدة الى تنظيم الجيش وكان الفكر الحربي مفقوداً من معظم طبقات الشعب فما برحت تزيد فيه وكان عدده على عهد اوائل الوحدة

مئة ألف نسمة فأصبح الآن خمسمائة ألف جندى منظم مدرب حين السلم وثلاثة ملايين وخمسمائة ألف جندى زمن الحرب يدخل فيهم البوليس. وكل ايطالى بلغ سن العشرين يدخل الجندية فيخدم فيها ثلاث سنين ويكاد السكر لا يعرف فى الجيش والضباط يقومون على تدريب الجند باخلاص ويلقنونهم الفضائل الحربية ولذلك نرى مجلس النواب الايطالى يمنح ميزانية الحربية وهى ٣٦٤ مليون فرنك كل سنة بدون أن ينظر فيها ثقةمنه بانها تصرف فى سبيلها على أبناء الامة ، ومما يعمل لنفع الجند أنهم أنشأوا بالقرب من بعض الثكن فى البلاد دروساً زراعية عملية يتعلم فيها العسكر مدة خدمتهم ماينفعهم مع التعليم العسكرى اذا رجعوا الى قراهم من العمليات الزراعية

أما البحرية وميزانيتها ١٨٦ مليونا فيمكن أن يقال على الجملة أن ايطاليا لما تكونت لم يكن فيها أثر للقوة البحرية فأخذت منذ سنة ١٨٧٣ تنظم بل توجد بحريتها ليكون لها شأن فى البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي ورجال البحرية الذين يتخرجون فى مدرسة ليفورنه يبدون كل اخلاص في تخريج الجند البحرى

وهكذا تعمل ايطاليا على تحسين بريتها وبحريتها لتستطيع بذلك أن تجد مورداً لامتها التي يكثر نسلها وتريد أن تجد لها مرتزقاً فى الارض ولا سيا بعد أن طلبت بعض الحكومات التى تكثر مهاجرة الطليان الى أرضها أن يحمى العملة من غير الطليان الحماية الكافية التى تخولهم عدم منافسة العامل الايطالى. وأن ايطاليا لمضطرة بحكم الطبيعة أن تكون أمة بحرية من الدرجة الاولى لان شطوطها على البحر المتوسط تبلغ ٦٠٠٠ كيلو متر على حين ليس لفرنسا سوى ستمائة

وتناسل السكان والخوف من اغلاق أبواب اميركا ذات يوم فى وجه المهاجر الايطالى دعا ايطاليا أن تفكر فى فتح طرابلس وبرقة حيث يجد أبناؤها ولاسيما فى الجنوب مناخاً يشبه مناخ بلادهم ويكونون على مقربة من أرضهم ومساقط رؤوسهم ومما دعاهم الى الغارة على شمالى افريقية ذكرى أن أجدادهم الرومان فتحوا

تلك البلاد واستعمروها أيام عزهم وقد كلفت هذه الحرب ٩٢٧ مليون فرنك

ربما كان الايطاليون من أكثر الامم الاوربية حبا بالهجرةوذلك لان بعض الجنوب من بلادهم فقير بزراعته ولانك لاتجد فى ايطاليا طبقة وسطى على الاغلب فاما فقير معدم يولد له كل سنة ولا يجد فى أرضه من المواد الاقتصادية مايقوم بعيشه أو غنى كبير وهم قلائل ولذلك لم يبق أمام الطليان غيرالهجرة فقد كان عددهم سنة ١٨٦١ أى بعد الوحدة بقليل ٢١ مليونًا وهماليوم ٣٥ مليونًا بحسب الاحصاء الاخير دع الطليان المنبثين فى اقطار العالم . وعدد من يسكنون فى كل كيلو متر مربع ١٢٢ ساكنا أى أكثر من معدل السكان فى المانيا وفرنسا ولا يفوق ايطاليا فى كثرة عدد السكان بالنسبة لمساحة الارض من الممالك الاوربية الا البلجيك وانكلترا وبلاد القاع (هولاندة)

واكثر المهاجرين يهاجرون هجرة موقتة وقلائل منهم من يهاجرون هجرة قطعية بل ان من المهاجرين من يقضون الشتاء فى اميركا ويأتون فى الصيف يحصدون ارضهم ويقطفون ثمرات أشجارهم ولولا النقد الذى يحمله اولئك المهاجرون من اميركا يضعونه فى المصارف وصناديق التوفير لبطلت حركة ايطاليا الاقتصادية لان النقد قليل فيها حتى تضطر الحكومة بل الامة ان تجرى اكثر معاملتها بالورق ولا تكاد تجد الذهب الا نادرا . وقد بلغ من هاجروا ايطاليا من ابنائها فى الشهور التسعة الاولى من هـذه السنة ٢٢٥ ر ٣٣٥ مهاجراً ولا يقل عدد المهاجرين كل سنة عن خمسمائة الف ومنهم من يهاجرون الى البلاد المجاورة ولا سيما جنوبى فرنسا ومنهم الى امريكا

والعامل الايطالى قنوع للغاية يقتصد جانباً من اجرته ومنهم من يعودون برؤوس اموال الى بلادهم المتعلقون بحبها فالعامل الايطالى يقبض دولاراً أو نصفا فى الولايات المتحدة فيصرف النصف دولار ويقتصد الباقي حتىاذا عاد الى قريته تحدثه نفسه ان يبتاع له ارضا يبنى فيها كنه ولذلك ارتفعت اسعار الاراضى فى القرى اكثر من ارتفاعها فى المدن الكبرى ولا سيما بعد ان انشئت جمعيات ومكاتب

للمهاجرين ومنها ما اسسته الحكومة ومنها ما اسسه الافراد لتسهيل المهاجرة ووقاية المهاجر من التلاعب به وليس لايطاليا من المستعمرات ماعدا طرابلس وبرقة غير الاريتره وبنادر والصومال الايطالية وهي مجاورة فيهما لفرنسا وانكلترا. وايطاليا جاءت الى عالم الاستعمار بعد وحدتها وقد تقاسمت اوربامغانم افريقية وآسيا وتوزعت ممالكها بينها

احتاجت ايطاليا بعد وحدتها ، وتأليف هذا الجيش الضخم والبحرية القوية الى موارد كثيرة. فالتفتت فلم تر أحسن مورداً من الزراعة . وثلث الايطاليين يعملون بها فى أرض مزروعة تقدر بنحو عشرين مليون هكتار تخرج سنويا مئة مليون هكتولتر من الحبوب حنطة وذرة وأرزاً وأربعين مليون هكتولتر من الخمر وعشرة ملايين قنطار من الزيت والثمار دع أعمال الألبان وتربية الحيوانات والحرير الخام وغيرها من الموارد التى تعد من جملة الزراعة ويبلغ مجموع قيمتها نحو خمسة مليارات فرنك كل سنة وزراعة الشمال راقية على الطرز الحديث وقد أدهشنا ما رأيناه من بدائعها فى ضواحي فلورنسه وضواحي بولونيا وذلك لأن اقليم طوسقانة وعاصمته فلورنسة عامر منذ القديم وهو مقر أمجاد الطليان وكذلك حال العمران من سفوح جبال الالب الى طوسقانة فان أرضها حدائق غناء وهذه البلاد الشمالية تختلط كثيراً بالأمم الراقية المجاورة لها مثل السويسريين والفرنسويين أما سكان الجنوب ولا سيما فى صقلية وساردنيا وغيرهما من الاقاليم الجنوبية فان المناخ مؤثر فى أخلاق أهلها وليس عندهم نشاط سكان الشمال ولا معارفهم ، وسكان الجنوب أشبه بالأمم الشرقية النازلة على شواطىء البحر المتوسط .

وصناعة ايطاليا وتجارتها راقية على نسبة زراعتها فقد كان لهذه المملكة سنة ١٨٦٠ — ٢١٩٨ كيلومترا من الخطوط الحديدية فبلغت سنة ١٩٠٩ — ١٨٠٠٠ كيلومتر يضاف اليها خمسة آلاف كيلومتر من الترامو ايات والاتوبوس وكانت الطرق العادية على عهد الوحدة ٤٨ ألف كيلومتر فتجاوزت اليوم ١٤٠

ألفاً وكان لايطاليا سنة ١٨٦٢ — ٥٧ سفينة بخارية تجارية تحمل ١٠٫٢٢٨ طناً و ٩٫٣٥٦ سفينة شراعية تحمل ٦٤٣٫٩٩٦ فأصبح لها سنة ١٩٠٨ — ٦٢٦ سفينة بخارية محمولها ٥٦٦٧٣٨ و ٤٧٠١ سفينة شراعية محمولها ٤٥٣٫٣٢٤ طناً وبلغ عدد السفن الايطالية التى خرجت ودخلت فى الموانى الطليانية ١٩٠٫٥٥٥ سنة ١٨٦١ فبلغت فى سنة ١٩٠٩ — ٢٤٦٫٢٤٦ وكان اذ ذاك عدد الداخل والخارج الى الموانى الطليانية من بواخر الأجانب ٢٣٫٨٣٦ فبلغ فى العهد الاخير ١٧٫٤٣٤ واشتركت فى ذلك جميع موانى ايطاليا وفى مقدمتها جنوه ثم تجيء نابل وليفورنة والبندقية وبلرمة وكان لايطاليا عام ١٨٦٠ — ٨٠٠٠ كيلو متر من الاسلاك البرقية ولها الآن ٥٤ ألف كيلومتر ، تضاف اليها الاسلاك البحرية والتلغرافات اللاسلكية مع مالها من الخطوط التلفونية ولم يكن البريد بالشيء الذى يذكر فى بعض أصقاع ايطاليا على عهد الوحدة فبلغ وارده في سنة ١٨٨٦ — ١٦ مليونا وفى سنة ١٩٠٠ بلغ ١٠٧ ملايين فرنك

وكانت الصناعة أيام الوحدة غير موجودة الا فى اقليم البيمون ولومبارديا فعمت الآن أقاليم ايطاليا كلها ولا سيما فى الثلاثين سنة الأخيرة فقد كان سنة ١٨٨٩ معمل واحد للسكر فى جميع ايطاليا فأصبح لها ٣٢ معملا وارتقت صناعة حياكة الصوف والقطن والحرير والحديد والعربات والسيارات ارتقاء هائلا ، ووجدت الكهربائية فى ايطاليا محيطاً حسناً للغاية بالنظر لما خصت به هذه البلاد من الأنهار السريعة فى جريتها ، ومن هذه القوى النافعة تخدم الصناعة أجل خدمة ، وربما أوصلت الكهربائية الى مسافات متنائية ؛ ولا تسل عن معامل الأسلحة وبناء السفن مثل معمل انسالدو فى مقاطعة جنوه وغيره كثير . واذا ضم ما يرد ايطاليا من صناعتها الى ما تأتيها به زراعتها بلغ مجموع تلك الثروة ٧٥ مليارا من الفرنكات يصيب كل فرد ٢٢٠٠ فرنك ويستدل على الرفاهية والغنى مما يودعه الاهلون فى صناديق التوفير فقد بلغ ما أودع فى الصناديق العادية مليارين ونصف مليار من الفرنكات يضاف اليها ما أودع في صناديق التوفير

فى البريد وهو ١٫٧٠٠ مليون هذا عدا ما يضعه الناس فى المصارف وجمعيات التعاون مما يعد جزءا عظيما من ثروة الامة . وما كانت البيوت المالية تعرف فى ايطاليا الا فى اقليم البيمون قبل الوحدة الايطالية ؛ وقد كثر عددها اليوم ، وهى من الدرجة الأولى بين المصارف مثل بنك ايطاليا وبنك نابل وبنك صقلية وبنك رومية وغيرها وكلها تشتغل بزهاء مليارين من الفرنكات ماعدا أموالها الاحتياطية النقدية التى تبلغ ملياراً ونصفاً

وفى ايطاليا مصارف زراعية ومصارف عقارية ، وشركات تجارية مساهمة ، وشركات صناعية تعاونية وغيرها وعددها يكثر كل سنة كثرة هائلة . وقد بلغت ميزانية الحكومة من كل ذلك مليارين ومائتين وستة عشر مليون فرنك فى سنة ١٩١١ فى قسم النفقات ، ومليارين وثلثمائة وأربعة ملايين فى قسم الواردات ولقد أصيبت ايطاليا بأزمة سياسية شديدة سنة ١٨٩٠ أثرت فى ماليتها كل التأثير فكان شأن المضاربين على الأراضى للبناء فى المدن الكبرى شأنهم فى مصر منذ بضع سنين فقدوا ثرواتهم الا قليلا بسقوط أسعار تلك الأراضى وذلك لان بعض المدن الايطالية أرادت أن تجدد أبنيتها على الطرز الحديث ، فأخذت طائفة كبيرة من أبناء الاسرات القديمة ومنهم من يعتقد بأن له الكفاءة فى كل شىء يبتاعون من تلك الأراضى والأبنية القديمة للهدم فكان بها خرابهم وخراب كثير من أرباب رؤس الأموال الصغيرة ومن المصارف وبسبب هذه الأزمة عرض الوزير كريسبى الايطالى على البرنس بسمارك الألمانى أن تكون ألمانيا وايطاليا يداً واحدة فأحست فرنسا بالامر من الغد فلم تر أحسن من اخفاق مسعى ايطاليا واشغالها بقطع الموارد المالية عنها ، وكانت ايطاليا اذ ذاك لا تعتمد فى اقتراضها وتجارتها الا على البيوت المالية والتجارية فى باريز ، فأخذ هؤلاء يرفعون ثقتهم من ايطاليا ويشحون عليها بالمال فحدثت تلك الأزمة التى منشأها فى الحقيقة من أناس ما خلقوا ماليين ولم يستعدوا لمعاناة الشئون المالية بالعمل

وعلى العكس كان من قانون الوراثة والمحيط ان هيأ الاسرائيليين ليعملا

أعمالا عظيمة فى ايطاليا وللاسرائيليين اختصاص بالشؤون المالية ولا نجاح الا بالاخصاء . فانهم اختصوا بالتجارة ومعاناة المال فنشأت لهم مهارة لا نظير لها وقد بقيت سلطة الأب على أولاده محترمة عنـدهم بخلاف القوانين الحـديثة الاجتماعية التى قللتها عند غيرهم وترى النظام فى بيوتهم التجارية والصناعية أتم مما هو عند غيرهم والاعتصابات قليلة وأعمالهم ناجحة أكثر مما عداهم لأنهـم يحسنون الانتفاع من القوى والأشـياء أكثر من كل الطوائف ، ومنشأ ذلك كونهم كانوا مضطهدين فأحرزوا ببطء صفات يولدها الاضطهاد فيمن يؤخذون به . وهـذه الصفات هى قوة المقـاومة والشعور بالتضامن واللين والمرونة فى أسباب الحياة .

وعلاوة على ما للاسرائيليين فى ايطاليا من النفوذ العظيم الاقتصادى قد كان لهم فى المسائل السياسية مكانة لا تنطبق مع قلة عددهم ولـكن لها مايشفع بها بمـا قاموا به من معاونة ايطاليا فى وحدتها بالمال وما أبدوه من الصفات الحسنة التى أبانوا عنها فى تقلدهم ادارة المسائل العامة . وطالمـا كان منهم رؤساء الوزارة والولاة فأظهروا من البراعة فى الأمور السياسية ما يحق لهم أن يفاخروا به بل ان حاكم رومية نفسها هو اليوم اسرائيلى . وكذلك أكثر الولايات التسع والستين الايطالية فان ولاتها من أبناء اسرائيل . لا يأتون ما يمس عواطف الاكثرية من الـكاثوليك بل كثيراً ما كان نوابهم ووزراؤهم فى جانب المحافظين اذا أريد وضع قوانين واحداث أمور جديدة من شأنها اثارة الرأى العام مما دل ان الاسرائيلى فى ايطاليا خلافا لمـا هو عليه فى سائر الممالك ايطالي أولا ثم اسرائيلى وفى غير هذه الديار اسرائيلى قبل كل شئ . وفى المظهرين تفاوت عظيم كما لا يخفى .

ايطاليا وعلومها وفنونها

٥١

كان علينا وقد وصل بنا البحث الى هذا الحد أن نتكلم على ما امتازت به ايطاليا من دون سائر بلاد أوربا من التفنن فى الفنون الجميلة والتبريز فى مضمارها على جميع أمم الغرب مهما قالوا بانحطاطها عندهم بالنسبة للقرن السادس عشر والسابع عشر وذلك مثل الكلام على التصوير والنقش والهندسة والموسيقى ولكن ذلك يحتاج الى فصول كثيرة لا تتسع لها هذه العجالة ولا تنطبق مع أذواق أكثر القرء ومع هذا فنتكلم على الآداب الطليانية فى العهد الأخير وكيف ارتقت حتى عم أهل القرى أثرها .

يعتبر تاريخ اللغة الايطالية الحديثة منذ عهد دانتى الشاعر فانها بعده لم يعد ينقصها شيء من الالفاظ للتعبير عن الفكر ومضت القرون الثلاثة التالية بعده فأصبحت البلاد لقلة المواصلات وكل مقاطعة لموقعها الجغرافى لا تعرف ما عند جارتها فنتج من ذلك تعدد اللهجات وفتحت هذه صدرها لكل الالفاظ الحديثة فى حين ظلت الايطالية الادبية جامدة تقرأ فى المدارس كما تقرأ اللاتينية واليونانية أى كأنها لغة ميتة لا حية ، ودام الحال على ذلك الى قبل خمسين سنة وبفضل توفر المواصلات والخدمة العسكرية التى تقضى بتنقل الجند فى البلاد أخذت الايطالية الحديثة تفهم فى كل مكان وبقيت اللهجات التى تعوق ولا شك دون نشر لغة عامة تفى بمطالب الفكر الحديث وأصبح عندهم لغة يتكلم بها تؤثر فيها اللهجات المحلية ولغة ايطاليا مكتوبة يحسنها الكتاب والمؤلفون فى ايطاليا نحو ١٤ لهجة لا يفهم أهل هذه لهجة أولئك وأفصح اللغات لغة طوسقانة ومنها سرت الى رومية ولغة ساردينيا تشبه اللاتينية كثيراً وتختلف عن لغة صقلية وابن رومية لا يفهم لغة ساردينيا وأهم اللهجات الايطالية اللهجة البيمونتية

واللومباردية والليكورية والبندقية والرومانية والنابولية والبولية والـكالابرية والصقلية والساردينية .

وتعددت اللهجات مما عمت به البلوى لا فى اللغـة العربية فقط بل فى لغات أوربا التى يسعى أهل العلم والسياسة الى توحيدها منذ زمن طويل ، فمن ذلك ان فى سويسرا ثماني لهجات ألمانية لا يتفاهم أهلها بعضهم مع بعض بها بل ان أهالى ألمـانيا لا يفهمون لهجات سويسرا مثل أهالى بافيرا وورتمبرغ وهيس ، وهكذا الحال فى فرنسا وغيرها من البلاد التى يظهر أن لها لغة واحدة والحال انها مختلفة اللهجات لا يكاد يفهم المتناوءن لغة بعضهم بعضاً .

اقتضت وحدة الروح الايطالية أن يكون لايطاليا لغة مكتوبة واحدة فقام بهذا الغرض من الشعراء والـكتاب فى أوائل القرن التاسع عشر أمثال مازونى وبلليكو وكاردوشى فأفادوا على اختلاف فى طرق الاداء فى بث اللغة الصحيحة فى الشعب . ومن الشعراء الـكتاب المعاصرين الذين اشتهروا فى الآفاق دانونزيو وباسكولى وفوكازارو ودى سانـكنيس وفريرو ومن النساء اللاتى نافسن الرجال فى صناعة الأدب سيرارو واوساني ودللوا ومنهن من تفردن فى القصص التمثيلية وأخريات فى القصص الروائية وغيرهن فى الصحافة .

كان من توفر أسباب الرفاهية فى الشعب الايطالي ان أخذ عدد المختلفين الى مسارح التمثيل يزيد اليوم بعد الآخر ومن نشر التعليم وقلة عدد الاميين سنة عن أخرى ان كثر عدد الصحف وقراؤها وكان من ذلك مواد ثمينة لتعجيل كمال اللغة الحية لان التمثيل كالصحافة اذا أراد القائمون بها أن يفهموا وجب عليهم أن يتكلموا بلغة تتناولها عقول الـكافة واذ كان بعض هذه الجوقات التمثيلية تطوف بلاد الاقاليم اقتضى لها أن تعدل من لهجتها في كل محل بحيث تتناولها الاذهان على أيسر سبيل . وعند الطليان مؤلفون كثيرون للروايات التمثيلية لا يقلون عن غيرهم من الامم الراقية كالفرنسيس والالمان .

أما الصحافة فهي تشبه صحافة فرنسا وغيرها من الممالك فى الصورة والشكل

وكل يوم تزيد العناية فيها بالاخبار المنوعة المؤثرة وتقل مادتها من الانتقاد الجدى والموضوعات الادبية فالصحافيون هنا مثل غيرهم فى البلاد الاخرى يبيعون من الجمهور ما ينفق عليه ويروج عنده. وليس للصحف الكاثوليكية رواج كثير كالصحف غير الكاثوليكية وأعظم صحف ايطاليا وأهمها جريدة «كورييه دلاسيرا» أى بريد المساء وهى تصدر فى ميلانو من عواصم العلم القديمة أو العواصم الادبية كما يسمونها وتجيء بعدها جريدة «التريبونا» أى المنبر وهى نصف رسمية ثم «جورنال ديتاليا» أى جريدة ايطاليا وهاتان تصدران في رومية. ومن خيرة جرائدهم جريدة «ايدياناسيونالى» أى الفكر الوطنى وهى تمثل الفكرة الوطنية الايطالية يريد بها أصحابها أن يبطلوا أو يقللوا على الاقل كل ما يمزق كلمة مواطنيهم وأن يجمعوا شملهم على خطة سمحة غايتها عظمة الوطن. وقد سارت صحافتهم كما هو شأن الصحافة في كل مكان على توحيد الفكر واللغة.

كان السبب الرئيسى فى كل ما تقدم من ذرائع الارتقاء نشر التعليم بين جميع طبقات الشعب فقد كانت الحكومة الايطالية خصصت سنة ١٨٦١ مليون فرنك للمعارف العمومية وهاهى الآن تنفق مئة مليون[1] لهذا الغرض كل سنة وارتقاء كهذا فى البذل على المعارف تنشأ منه تلك الوطنية والوحدة دع المدارس المنوعة التى أسستها الجمعيات الدينية أو الافراد وزاد عدد الطلاب ضعفى ما كان عليه سنة ١٨٦١ فبلغ فى السنة الماضية زهاء ثلاثة ملايين.

---

(١) بعد كتابة ما تقدم اطلعنا على خطاب ناظر المالية الايطالي وقد جاء فيه أن ايطاليا ستصرف هذا العام على المعارف ١٤٨ مليون فرنك وتفيض المال الكثير على معارف الولايات ليطبق بالفعل قانون التعليم الاجبارى فى البلاد وقد بلغت الحركة الدولية في المقايضات خلال الاحد عشر شهرا من السنة الماضية (١٩١٣) ٥٥١٦ مليونا أي بزيادة ٤٤ مليونا عد مثلها من السنة التى قبلها وقلت الواردات ٤٨ مليونا وزادت الصادرات ٩٢ مليونا وزادت السفن البخارية الداخلة الى موانى ايطاليا فكانت ١٦٤ ألفا كما زادت البضائع الصادرة والواردة ١٠ — ١٢ مليون طن وزاد عدد السائحين في ايطاليا مئة ألف وزادت كمية المعدن من مناجم الحديد فبلغ ٣٢٥ مليونا وكذلك مداخيل الضريبة على السكر والتبغ ودخل السكك الحديد وكثر الانفاق على المصارف وأعمال الرى والاسباب الصحية كثيرا والحكومة الايطالية ستزيد ميزانيتها البحرية والبرية وكل هذا بدون أن تستدين وتبادل الدخل والخرج على طريقة ماهرة فى الامور المالية.

ومع هذا فايطاليا من أكثر البلاد الأوربية أميين — بعد روسيا — ولا سيما في القرى وان كان التعليم الابتدائي اجباريا الا أنه لا يعمل به كثيراً وبالنظر لما وقع من النزاع بين الحكومة والاكليروس انتهت الحال بان المدارس لا تعلم التعليم الديني الا لولد يطالب أبوه ذلك والآباء قلما يحفلون بهذا الطلب ولذلك كاد التعليم الديني يضمحل من مدارس ايطاليا وقد تعطي الحكومة أحياناً اعانات المدارس الأخويات الدينية ومن المدارس الحرة ماله حقوق عالية وله الحق بان يكون لتلاميذه بالامتحان حقوق تلامذة مدارس الحكومة ومن المدارس مايديره اليسوعيون وان ألغيت مدارسهم في ايطاليا منذ زمن طويل . ومدارس الجمعيات الدينية خاضعة اجمالاً لتفتيش الحكومة وتترفع عن البحث في السياسة

يقسم التعليم الأوسط في ايطاليا الى فرعين مختلفين . الفرع المدرسي وهي دروس المدارس المعروفة بالجناز والليسة والتعليم العملي وهو يدرس في المدارس والجمعيات الفنية وقد كان عدد تلامذة الفروع الاولى على عهد الوحدة ١٢ ألفاً فأصبحت في السنة الماضية ٤١ ألفاً والدروس العملية التي يتخرج فيها الشبان الذين يتمخضون لفروع الصناعات الكثيرة وقد بلغوا سنة ١٩١١ ـ ١٠٠٠٠٠ وما كانوا منذ خمسين سنة أكثر من ٦٠٠٠ وفي الفرع المدرسي تعلم اللغتان اليونانية واللاتينية وفي الفرع العملي تعلم اللغات الحية أما عدد تلامذة المدارس الوسطى للمدارس الخاصة فلا يقل عن ستين ألفاً ويؤكد بعضهم أن المدارس التي يعلم فيها الرهبان والقسيسون أكثر نجاحاً من التي يعلم فيها العلمانيون لان فتيان القسس ممتازون بانكار الذات والتشبع بالروح الدينية أكثر من غيرهم من الأساتذة

أما التعليم العالي فان لايطاليا منه سبع عشرة كلية [1] أو مدرسة جامعة تتنافس فيها بلاد الأقاليم ولكن معظم هذه الكليات لا تخرج رجال عمل بل أكثرهم خياليون من أرباب النظر ويضاف الى هذه الكليات المجامع العلمية العالية الكثيرة

(١) للحكومة في ايطاليا سبع عشرة جامعة وهي جامعة بولونيا وكاكلياري وكاتان وجنوه وماسيرتا ومسينة ومودين ونابل وبادو وبلرم وبارم وبافي وبيزا ورومية وساساري وسين وتورينو وفيها أربع جامعات حرة وهي جامعة كامرينو وفريرا وبيروز واوزبيه

لدرس الآداب والعلوم فى كل مدينة عظمى والحكومة تمدها بالمال . والمدارس العليا على كثرة ماتستلزمه من النفقات لاتتناول من مال الأمة أكثر من أربعة ملايين فرنك مسانهة مما يستبان منه أن الحكومة توفر العناية بالتعليم الأوسط والابتدائي أكثر مما عداها وعدد تلامذة الكليات والجامع العلمية العليا نحو سبعة وعشرين ألفاً وكان طلاب المدارس العليا فى القرن التاسع عشر يصرفون أوقاتهم فى الأعمال الوطنية أكثر من العلم أما الآن وقد استقرت حالة البلاد السياسية فانهم أخذوا ينصرفون الى أبحاثهم ودروسهم ليكون لبلادهم ماأحرزته ألمانيا وانكلترا وفرنسا فى مضمار العلوم والآداب .

هذا اجمال مايقال فى التعليم أما الاختراعات والاكتشافات فلم يقصر فيها علماء ايطاليا أسوة غيرهم من أمم الحضارة الحديثة فقدا كتشف باسي طبيعة الامراض الميكروبية وهى النظرية التى خلصت الجراحة والمداواة من الاوهام التى كانت تعوقها . وكذلك كان شأنها فى الكهربائية وساعدها على ذلك كثرة شلالاتها وتيسير ارسال الحرارة والنور والاعمال الكيماوية والميكانيكية الى ابعاد شاسعة ومن مخترعيهم باشنتوفى وماركونى مخترع التلغراف اللاسلكى وغيرهم من الذين شاركوا فى الاعمال العلميـة فاختلط الأمر وأصبح من الصعب التميز بين المتقدم والمتأخر من مكتشفى العلماء فى أميركا وانكلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا والبلجيك وهولاندة وسويسرا وروسيا وغيرها من الممالك المدنية .

والنجاح كما قال الأمير جيوفانى بورغزة فى كتابه ايطاليا الحديثة (١) وعليه اعتمدنا في بعض ماتقدم فى هذا البحث أعلاء الوسط على الدوام ليتأتى للكائنات العليا ان تظهر بمظهرها وتثير المجموع بكلامها ومثالها وأعلاء الوسط يكون بتنشيط الشبيبة على القيام بجميع الأعمال الشريفة التى يخولهم اياها مظهرهم . ومن الخطاء العظيم في عصرنا أن تجعـل قيمة شعب على نسبة ماأحرز من الارتقاء العقلى . ان التعليم على اختلاف ضروبه يساعد على ظهور المدارك الاجتماعية وفى الكتابة

---

(١) Prince Giovanni Borghèse : L. Italie Moderne.

والقراءة معنى جديد يجعل بيننا و بين الفكر العام صلة ولكن التعليم بدون التنظيم الطبيعي من جهة وتربية الأخلاق من أخرى لا يتولد منــه انشاء رجال تامة أدواتهم فى الجملة لتنشأ على أيديهم عظمة مملكة .

واذا نظرنا الى ارتقاء ايطاليا نراها دخلت فى ثلاثة أدوار هى أدوار النشوء الشخصي فالدور الاول الدور المادى والثانى النفسى والثالث العلمى وكان بدوء الدور الأول على أوائل تأسيس رومية وفى سنة ٧٠٠ قبل المسيح أى بعد سبعة قرون كان عصر أغسطس وهو عصر مجدها و بعد ثلاثة قرون عندما نقلت عاصمة المملكة الرومانية الى القسطنطينية تراجع أمر الدور المادى والدور النفسي أو الروحى هو دور ظهور النصرانية التى توفر الامبراطور قسطنطين على نشرها وجعل عاصمة بلاده القسطنطينية فمضى سبعة قرون على ذاك العهد حتى تنصرت أوربا وتم عمل الدين الى أواخر القرن العاشر للميلاد وفى الرابع عشر بدأت تظهر تباشير دور النهضة التى أريد بها تحرير العقل الانسانى من قيوده . والدور الثالث هو الذى نحن فيه والقرن الاخير كان أرقى أيامه و به ظهرت ايطاليا فى مظهر الدول العظمى واستقامت لها حياتها السياسية وتبعها سائر الاشياء ولا تستقيم حياة أمة بدون أن تستقيم سياستها واستقامة السياسة نتيجة ارتقاء العقول وارتقاء العقول لا يكون بغير قبول المدنية الحديثة والاخذ بالاساليب التى اتخذها السابقون فى مضمار التحضر .

ومن أنعم النظر فى هــذه النبذة يدرك أن كل نهضة غير متعذرة وان أمما بلغت من الشقاء مبلغاً كبيراً وتيسر لها بقوة الارادة واخلاص المستنيرين من الوطنيين أن تغلبت على جميع العوائق وكونت مجموعا يفتخر به وحررته من قيوده الثقيلة ومن رأى ايطاليا أمس يجوس النمساويون أو الفرنسيس خلال ديارها ويستعبدون أبناءها ويرى الطليان اليوم وقد ألفوا مجموعاً حياًودولة قوية وهم فى حكومتهم الملكية أكثر حرية من الفرنسيس فى حكومتهم الجمهورية على رأى بعضهم من رأى ذلك لا يقول بأن فى العالم شيئاً مستحيلا . وان قوة

العقل والثبات على العمل تفعلان أكثر من كل قوة فى الارض فى ايطاليا الحديثة عيوب كما فى سائر الممالك وهذا يتعذر على السائح الشرقي فى بلادها أن يدركه ولا يحل له أن يخط فيه حرفا لانه لا يرى الا الظواهر خصوصاً مع عدم معرفته لغة البلاد فانه يبقى كالاصم الاخرس وليس ارتقاء الطبقة المستنيرة هو الميزان الوحيد فى معرفة أقدار أمة وكم عند الطبقة الوسطى والدنيا من الفضائل ونقيضها ما تؤخذ منه حقيقة شعب وذلك لا يتيسر الا لمن عاشر الطبقات كلها وصرف زمناً طويلا فى أصقاعهم المختلفة وحكم العقل والانصاف فيما يكتب بعد درس الاخلاق والعادات والتنظير بينها وبين ما يماثلها من الشعوب الاخرى .

وغاية ما يستطيع المفكر أن يقول به اذا رأى ايطاليا ان بينها وبين الشرق القريب من الفروق أكثر مما بين مصر أو الشام والسنيغال أو بلاد نيام نيام يشهد هنا لكل شيء نظاماً وقانوناً من خرج عنهما ضل وما اهتدى ويجد نشاط الأفراد على انّه ليس له ما يعوقه من سلطة جائرة وقانون غير معقول فالشقى يشقى بصنعه والسعيد يسعد كذلك ولكن السعادة أوفر مما يناقضها بدرجات. السرور تقرأه في الوجوه والبسطة فى الغنى والرفاهية تشهده على الاكثر فى سكان الاقاليم الوسطى والشمالية ولكل صقع من الأصقاع خاصية لا يكاد يشركه فيها الصقع الآخر فهذا اشتهر بعادياته وآثاره ، وذاك بحدائقه وأنهاره ، وهذا بتجارته ، وذاك بصناعته ، وآخر بزراعته ، وغيره بسكونه، وآخر بحركته

وتكاد ترى المواهب مقسمة بين البلاد . فلفلورنسة مدينة الزهور وعاصمة طوسقانة وآثينة القرون الوسطى ومسقط رأس دانتى وبترارك وبوكاس وغاليله وميكل آنجلو وليونار دي فنسى وبنفانوتو وسيليني وأندره دلسارت وغيرهم من نوابغ الطليان فى الشعر والموسيقى والنقش والتصوير والهندسة والعلم من المزايا ما ليس لرومية وذلك لأسباب تاريخية واجتماعية كثيرة فان جمهوريات طوسقانة بينما كانت فى القرون الوسطى تحسن الانتفاع من جميع العناصر الحيوية فى الشعب كانت رومية تضمحل بما قام فيها من المنازعات بين الأسر الكبرى

والذهاب فى الجدالات المذهبية مذاهب . ولذلك كان المجد كله فى النهضة (La Renaissance) لمدينة فلورنسة التى هى اليوم احدى الولايات الايطالية

هذا شأن المدن الداخلية وكذلك الحال فى المدن الساحلية فانك تجد مثلا للبندقية من المزايا ما لا تجد مثله لجنوة ونابل وكلها مما يستدعى الغريب ويستهويه لنزول هذه الديار ودرس آثارها الكثيرة بل التى لا تدخل فى عد لكثرتها

وقد اتخذت الحكومة الجديدة أنواع الراحة لجلب أنظار سياح الأرض لغشيان بلادها وفى ذلك من الفوائد المادية ما لا يقدر فلو انقطع سياح الغرب سنتين عن زيارة ايطاليا لأحست بفقر شديد وذلك لما يبذره أولئك السياح من الأموال فى جميع فروع الانفاق . ولها أمثال فى تاريخ ايطاليا وقد نشأ حينئذ وقوف فى تجارتها عن طريق البر التى كانت عمل هاته الجمهوريات حتى اذا قام الاصلاح الدينى فى أوربا وفصل جزء عظيم من هذه القارة عن البابوية قل ما كان يرد مدة زمن طويل الى ايطاليا من الأموال بالطبيعة فافتقرت .

ان كل كنيسة من كنائس ايطاليا حرية بأن يقصدها السائح للفرجة من القاصية وقد وقع لى من الدهشة عند ما رأيت كنيسة « الدوم » فى فلورنسة مثل ما وقع لى من الدهشة عند ما زرت كنيسة القديس بطرس[1] فى رومية مقر البابوية ومهوى أفئدة البابويين فى الأرض . ولكل مكان ميزته .

امتازت رومية بكنائسها العجيبة كما امتازت بكثرة فواراتها وعيونها وكثرة تماثيلها وأنصابها فى كل جادة وساحة مما يستهوى الغريب ويستدعى دهشته كما امتازت جنوه بمقبرتها لتفنن الجنويين منذ القديم بتصوير الأموات على الرخام وهم بين أهلهم أو فى آخر ساعات حياتهم والمقبرة هناك ثلاث طبقات كما ان أكثر الأبنية هى الآن فى ايطاليا ست طبقات ويضيق المقام لو أردت فقط الالماع الى ما فى رومية وحدها من العاديات والقصور والحدائق ولا سيما حديقة البنشيو العامة فانها خصت بكل أنواع الملاحة والراحة وهى مجمع الحسان الرومانيات

(١) كلفت هذه الكنيسة ٢٤٠ مليون فرنك والمهندس المصور ميكل آنجلو هو الذى أقام قبتها

كل عشية وفيها تتجلى عظمة الطليان وتتبدى طبقاتهم الاجتماعية وكل ما يقع نظرك عليه فى هذه المدينة الأزلية صاحبة المدنيتين الرومانية والنصرانية تقرأ فيه روح التفنن وتقدير العلم والنشاط وحب التسامح الا قليلا .

دخلت مرة مع أحد اخوانى من مستشرقي الطليان لأزور كنيسة البانتيون فدهشت لما رأيت واليك البيان : كنيسة البانتيون هى الكنيسة الوحيدة الباقية من عهد رومية القديمة بنيت معبداً فى سنة ٢٧ قبل المسيح ولما رسخت قدم النصرانية فى رومية جعلت كنيسة وكان يشترط على كل شيخ فى مجلس الشيوخ فى القرن الثامن للميلاد من جملة ماينبغى له الاحتفاظ به كنيسة البانتيون .

وكان يدفن بها بعض قديسيهم وأعاظم رجال الدين عندهم وما راعنى الا وقد رأيت الى جانب أضرحة رفايل (المصور النقاش المهندس المتوفي سنة ١٥٢٠) والمصور أنيبال كاراشى (المتوفى سنة ١٦٠٩) وغيرهما من كبار المهندسين والمصورين والنقاشين الطليان ضريح الملك فيكتور عمانويل الثانى المدعو أبو الوطن لانه قام بالوحدة الايطالية وخلف لذريته من بعده التاج الايطالى بعد ان كانت أسرته لاتحكم على غير اقليم البيمون فقط — وضريح ابنه همبرت الأول والد الملك الحالى الذى اغتيل سنة ١٩٠٠

نعم أعجبت لضريح المهندس والنقاش والمصور يكون فى مقام التكريم الى جنب القديسين والشهداء وهذا فى تلك القرون التى كنا نظن فيها أوربا متوحشة وراقنى أن يجيء ملوك ايطاليا اليوم ويحبون أن يدفنوا الى جنب أولئك الصناع النوابغ ان لحد المهندس والمصور فى أقدم كنيسة بل أهمها بعد كنيسة القديس بطرس والقديس بولس هو أكبر دليل على حب الباباوات لرجال الفنون الجميلة ولحد ملكين عظيمين الى جنبهم هو أيضا مما يدل على روح التسامح الحديث وعلى ان رافايل المصور ليس فى مكانته فى خدمة أمته أقل من فيكتور عمانويل الثانى . فان كانت باريز قد أقامت كنيسة البانتيون لتدفن فيها رفات العظماء فى العلم والسياسة فى أوائل القرن الماضى فان رومية تفاخر بأنها خصت بانتيونها لهذا الغرض منذ

زهاء أربعة قرون . بانتيون باريز يضم رفات ميرابو وفينلون وكوفيه وفولتير وروسو وهوغو ولافايت ونابوليون واضرابهم . وبانتيون رومية يحوى أمثالهم من رجال الطليان . فمتى يا ترى يقوم في الشرق القريب أعاظم من ابناء هـذه الاجيال الحديثة يكونون فى عقولهم واعمالهم على مستوى اولئـك الابطال لتقوم بهم مدنيتنا على أحسن الدعائم كما قامت مدنية الطاليان فى هذه الازمان .

ايطاليا والمشرقيات

٥٢

طمحت ايطاليا [١] فى كل زمن الى هذا الشاطئ من البحر المتوسط فحملت أولا القوة والسلام الروماني ولما انحلت عرى هاتين المادتين تحت ضربات البرابرة عادت توجه وجهها الى تلك الوجهة أيضاً لا الى الشمال وكان البحر المتوسط ميدان عمل جنوة وبيزا والبندقية واماالفى وبارى وسالرن ولم يقنع تجارها بأن يغتنوا بالاتجار بأقمشة الهند وفارس وجزيرة العرب وأفاويتها وأبازيرها بل أخذوا يؤيدون النفوذ اللاتينى فى آسيا الصغرى ومصر والحبشة وكان من انتشار الاسلام وقوته فى القرن الثامن أن ضربت هذه الفتوح التى تذكر بفتوح رومية أيام عظمتها ضربة شديدة فاحتقر المسلمون ايطاليا على سمو مدارك أبنائها ومرونة أخلاقهم وأغاروا عليها فأدخلوا على قلوب أهلها الهول والفزع فكان الجلاد عظيما ولئن وفقت ايطاليا الى طرد العرب من صقلية فان نجاح مدنها الساحلية فى الجنوب قد تراجع وظلت جنوة وبيزا متأثرتين وعادت البندقية فوجهت وجهتها الى آسيا الصغرى .

وكان من الحروب الصليبية أن تهيأت لايطاليا أسباب الانتقام فان هذه

---

(١) من مقالة لانطوان كاباتون فى مجلة العالم الاسلامى الباريزية لخصناها في مجلة المقتبس ونشرت فى المجلد السابع صفحة ٦٩٢

الغارات وان كان باباوات رومية هم الذين أملتها عقولهم قد بذل فيها العنصر الايطالى بما عرف به من الحمية الممزوجة بقليل من التبجح من حسن السياسة أكثر مما بذل من الشجاعة فاقتصر الايطاليون فى الحرب الصليبية على مرافقة جيوش أوروبا الى آسيا وبينا كان ملوك الأمم الأخرى يقيمون ممالك صغرى في الأرض المقدسة كان الايطاليون يقطفون ثمرات تلك الحملات . وقد ثبت هذا الدهاء السياسى الايطالى فى الحملة الصليبية الرابعة فانه انتج لجنوة وبيزا ان ربحتا كثيراً واستأثرت البندقية بتجارة آسيا الصغرى وامتلاك أراض مخصبة على الشواطىء الشرقية من البحر المتوسط وجزء من الاستانة . ولما سقطت القسطنطينية فى أيدى محمد الثانى سنة ١٤٥٣ حالت دون هذا السير النافع ومع هذا فان البندقية بما أتته من عجائب المهارة وحسن المأتى بل بجهادها العلنى قد احتكرت جميع تجارة أوربا مع الشرق .

وبهذا الاحتكاك المتصل تمت للبندقية على قوتها البحرية والتجارية معرفة الشعوب الاسلامية حق المعرفة أكثر من كل أوربا وكان من العادة الجارية مع طبقة التجار من أبنائها ان يتكلموا بالتركية والعربية ويألفوا بعض العادات والمصطلحات الشرقية ولكن جاءت قوة فى القرون الثلاثة التالية أكثر من قوة البندقية على مالها من الصلات التجارية مع العناصر الاسلامية فزادت عليها لانها روحية تطمع فى امتلاك العالم ونعنى بها « البابوية » .

فامتدت أحلام كنيسة رومية الى الخارج ومطلبها أعلى من الربح المادى وكانت في عهد غارات الجرمانيين تحلم بالقبض ذات يوم على قياد الوحدة فأحسنت صلاتها مع المسيحيين بل مع الوثنيين فى الشرق ممن تطمع فى تنصيرهم وأدركت كل الادراك الخطر الناشىء من امتداد كلمة الاسلام على أوربا المسيحية . ومع أن الحملات الصليبية قد اخفقت وقوة الايمان قد انثلمت فى القائمين بها مابرحت كنيسة رومية الى أوائل القرن السابع عشر تطالب بأعمال اخرى وفى هذا العهد كان الضعف أخذ من العثمانيين .

بيد ان رومية شعرت فى الحملة الصليبية الثانية أن السيف وحده غير كاف فى مثل هذا الجهاد ورأت أن تعارض التعصب الاسلامى بطوائف متماسكين في اتحادهم من غيورى الاوربيين أو الشرقيين لتقطع أوصال المسلمين قطعاً أدبياً بعد أن أوقفتهم عن سيرهم المادى . وما فتئت رومية منذ القرن الثاني عشر والثالث عشر تحاول تنصير جميع الشعوب الآسياوية التى ظلت على وثنيتها فبعثت الى بلاد المسكوب وفارس وأرمينية والتاتار والتبت ومغوليا والصين والارخبيل الهندى وفوداً من أهل الذكاء والحصافة ممن خلفوا لنا رحلاتهم ومذكراتهم اليومية وعهدت اليهم أن يسبروا غور أمراء تلك البلاد لينصروهم أو ليتحالفوا واياهم على الاقل ضد المسلمين . وكان نصيب مصر والحبشة أيضاً البحث عن مثل هذا الشأن .

ولم تلبث الرهبنات العظمى ان انشئت مثل الدومينيكانيين والفرنسيسكانيين واليسوعيين والكبوشيين والكرمليين واللعازريين ليكونوا جنداً مخلصاً فى خدمة امام الأحبار وتفتح تلك البلاد لدخول النصرانية اليها . فانبث جيش من الرهبان على اختلاف مظاهرهم فى قارتى آسيا وأفريقية الشمالية لافتتاحها ونشر الانجيل فيها ثم نشر المدنية الغربية تخبط القائمون بالأمر أولا ولم يهتدوا لاحسن الطرق فى العمل فانهال الفرنسيسكانيون والدومينيكانيون يفادون بأرواحهم ويصبرون على ضروب العذاب فى سبيل دعوة الشعوب الاسلامية فى أفريقية الشمالية الى الدين المسيحى وكانت الطرق التى عمدوا اليها على تحمس فيها ممزوجة بكثير من الجهل فشعروا فى الحال أن الضرورة تقضى على من يريد دعوة أحد الى دينه أن يتكلم بلغته على الأقل ليتفاهم الداعى والمدعو فنادى القوم من كل مكان بضرورة انشاء مدارس لتعليم اللغات كان رايموند لول داعيتها النشيط .

فقضى مجمع فينا سنة ١٣١١ الذى كان برئاسة اكلمنتس الخامس أن تؤسس فى باريز واكسفورد وبولون وسلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية من شأنها تخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود . وأنشأ الفرنسيسكانيون

والدومينيكانيون فى أديارهم دروساً من هذا القبيل ليعدوا رهبانهم لنشر الانجيل ومنذ ذاك العهد أصبحت ايطاليا مهد حركة نجحت فى المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق في فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين وكان أساتذة العبرية يتخرجون باعلم العلماء الربانيين وأساتذة العربية كانوا ممن رحلوا الى بلاد اللغة التى أخذوا يدرسونها ويصحبهم بصفة معيدين أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة ممن كانوا يعلمونهم العربية بالعمل ورأى هؤلاء القسس بحكم الضرورة أن ينتقلوا من اللغة العامية الى اللغة الفصحى ليشتد ساعدهم فى فهم المسائل الفلسفية ورد حجج المخالفين باسلوب فلسفي أدبي .

ومن أجل هذه الغاية اهتموا أيضاً بمصر والحبشة ومن مدارسهم نشأ العلماء الأول من الأقباط والحبش والامحريين ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحاكمة المتحكمة فى شبه جزيرة ايطاليا فكان ينظر الى تعلمها أنه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية . فقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ باللغة العربية كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية بيزا وظلت العربيسة مألوفة فى عدة أماكن من ايطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك نورمانديا وهوها نستوفين وفريدريك الثاني ودى منفروا لغة العلم العالى والشعر والادب . وما كانت العربية على مافيها من القصائد المقيمة المقعدة والعواطف المؤثرة لتحمل أمثال شارل دانجو على تحمسه لدينه ان يخاف عاديتها بل كان الاطباء والطبيعيون فى قصره أما من الاسرائيليين أو من المشهين المتسامحين فى عقائدهم وكان الطب هو الجواز الذى سارت به الفلسفة العربية عند ماقام جيرارد دى كرمون الشهير فى أوائل القرن الثالث عشر فى ظل دولة فريدريك الثاني يترجم بعض كتابات ابن سينا الفيلسوف .

وفى القرن الثالث عشر ترجم المعلم موسى من أهل بلرمه من العربية الى اللاتينية كتاب ابقراط في أمراض الخيل فتسربت فلسفة ابن رشد من أمثال هذه

الطرق ولم تلبث أن صادفت قبولا بين ناشئة ايطاليا حتى شكا من ذلك جهاراً بترارك فى القرن الخامس عشر اذ رأى فى تلقف فلسفة ابن رشد دليل الالحاد والازدراء باليونانية واللاتينية . وكثير من الادباء والعلماء من غير طبقة الرهبان كانوا يرون من موجبات الفخر في القرن التالى أن يعرفوا اللغة العربية سائرين على سنة بيك دى لاميراندول

وعلى توفر بعضهم على نشر كتب فى الجدل مع المسلمين حتى قبل أن يترجم القرآن باحدى اللغات الغربية فان عشاق العربية كانوا يرون من الحيطة ودواعى الغيرة أن يمرنوا أنفسهم على ترجمة رسائل فى الطب ينقلونها عن العربية اذ لم يكن أحد يجهل مكانة العرب فى هذا الفن وبذلك يرون أنهم ينجون من الاتهام بالزندقة وقد أصبح أندرى اريفابن في البندقية حجة فى هذا الباب وانشأ هؤلاء المترجمون يبالغون النظر فيما ينشرون فكان لهم أسلوب علمى حقيقى . ولما رأى أندرى مونكاجون بللون فى القرن الخامس عشر أن تراجم ابن سينا القديمة واطباء بلاط فريدريك الثانى ليس فيها عناية ذهب يحكم دراسة اللغة العربية فى دمشق وأتم تعليمه الشرقي بالرحلة الى مصر وسورية وفارس وآسيا الصغرى رحلة طويلة وذلك قبل أن يعود الى كلية بادو ليشرح لتلامذته فلسفة ابن سينا . وقصد جيرولامورانوزيو أحد أطباء البندقية بلاد الشام أيضاً فى سنة ١٤٨٣ ليتبحر فى فهم فلسفة ابن سينا ويعلق شروحاً على ترجمته عليها .

وكان من سقوط القسطنطينية وهجرة علماء من اليونان الى ايطاليا وكثير من نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الاصلاح ان هبت فى أرجاء ايطاليا حركة النهضة العلمية التى تجلت فى أجمل مظاهرها فى الدروس الشرقية ولاسيما فى دروس العربية والاسلام .

كانت الحركة فى تعلم المشرقيات عامة وافراديه معاً انتشرت كثيرا بفضل الكردينال فريدريك دى مديسيس فى فلورنسا والباباوات فى رومية و الكردينال بورومة فى ميلان والكردينال بارباريكو فى بادو ومن تقدمهم مثل باباغانينى الذي

نشر في مدينة البندقية أول طبعة من القرآن باللغة العربية ولكن هذه الطبعة لم تلبث أن أبيدت بغيرة دينية خرقاء وكان من الاسقف اغوستينو جويستنياني المشغوف بالدروس الشرقية ولا سيما العربية والعبرية أن قبل من فرنسيس الاول بتدريس اللغة العبرية بعد أن صرف ثروته فى اقتناء مجموعات من المخطوطات المهمة فى العبرية والعربية والكلدانية والرومية وكان تيزيوامبرو كيوقومس (كونت) البونز مستشرقاً مدققاً

وهكذا كانت ايطاليا كلما أولع علماؤها باللغة العربية وتشربوا روحها تميل كل الميل الى الاقطار التى كان يتكلم فيها . وقد نشر اندريا أريفابن من مانتو أول طبعة ايطالية من القرآن بيد أن كل هذه الاعمال على جلالتها لا تعد شيئاً في جانب انشاء مطبعة أسرة ميديسيس المالكة والمطبعة الشرقية لبث الدعوة ومطبعة بادو وكليتها وكل ذلك بغية تنصير المسلمين والوثنيين . فقد طبعت مطبعة ميديسيس ١٨ ألف نسخة من الانجيل باللغة العربية سمته (أربعة أناجيل يسوع المسيح سيدنا المقدسة) وأرسلتها مع تجار لتباع بثمن بخس فى البلاد العربية أو التى تفهم بها العربية على صورة حازمة لا يظهر منها المقصد الذى يرمي اليه دعاة الدين .

وكانت النية معقودة قبل كل شيء على اعلان حرب صليبية جديدة روحية على الاسلام يدخل اليها بالوسائل العلمية وعنى البابوات الادباء أمثال ليون العاشر واكليمنتس السابع عناية خاصة بتأسيس خزائن كتب من المخطوطات تسلب من المسلمين الاعداء القدماء لتكون من ذلك مجموعات نفيسة فى دار كتب الفاتيكان وكان غريغوريوس الثالث عشر لا يرى أحسن فى النجاح من تنصير الناس وأبادتهم . وانشأ يوليوس الثاني فى مدينة فانو على بحر الادرياتيك أول مطبعة عربية احتفل ليون العاشر بافتتاحها سنة ١٥١٤ بنشرها اول كتاب طبع بحروف عربية وهو كتاب « صلاة السواعى » . وكان فى رومية مطبعة حجرية شرقية انشأها سافارى دى بريف الذى ظل سنين طويلة سفيراً لملك فرنسا فى القسطنطينية وهو نفسه

الذى حفر أمهات الحروف العربية التى نقلت عنها مطبعة الامة فى باريز اشكالها . ونشر منذ سنة ١٦١٣ كتاب التعليم المسيحى .

وظل الكردينال فرديناندى ميديسيس متما لذوق أسرته فى حب المعارف الشرقية فابتاع مخطوطات شرقية باسم البابا وكان يدير بطريركيات انطاكية والاسكندرية ومملكة الحبشة ادارة روحية وانشأ على نفقته مطبعة ميديسيس وولى عليها ريمو ندى الذي ولد سنة ١٥٣٦ فى نابولى وهى اكثر البلاد التى انتشرت العربية فيها . فكان باللغات الشرقية التى يتقنها ولاسيما العربية قدوة الداعين الى تعلم المشرقيات ونشر بالعربية كتاب نحو وكتب ابن سينا وغيرها فكانت مطبوعاته بحسن طبعها ووضعها موضوع الاعجاب العام وبعد ان قضى ريمو ندى نحبه لم تعد اسرة ميديسيس تفكر فى اعلان الحرب الروحية على المسلمين بواسطة الكتب بل عمدت الى احداث الاضطرابات العملية .

ولم تشأ رومية ان تكون فى خدمة المعارف الشرقية بالمطابع والمكاتب والمدارس دون أسرة ميديسيس فى بث هذه الدعوة لتنتشر بها الدعوة على الاسلام فقد صارت بفضل البابا وات ميدان درس كل مارق عقول القسيسين الذين تنتدبهم رومية لفتح العالم فتحاً روحياً يتخرجون فى المدارس ماامكن بلسان البلاد وعاداتها ومعتقداتها التى يريدون بث دعوتهم فيها ودار الكتب تتم لهم هذه المعلومات فيعثرون بها على ماسطره اسلافهم فى رحلاتهم الى البلاد التى عنوا بتنصير اهلها وما تلقفوه من معتقداتهم وعاداتهم ولهجاتهم وصناعاتهم ويقضى على كل قسيس ان يكتب بعد مقامه فى القاصية كتابة أو رسالة تخدم هذا الغرض ومطبعة بث الدعوة تنشر كل مايؤلف من هذا القبيل وتترجم الى لغات شرقية كثيرة الكتب المسيحية والردود على الاسلام وكان للغة العربية الشأن الاول من بين هذه اللغات التى تطبع فيها المطبعة وهي عشرون لغة شرقية

وما كان القصد من هذه العناية الا دينياً محضاً باديء بدء ولم يكن العلم علم الشرق الا واسطة تساعد على الجدل وكذلك اللغة العربية لم تكن الا سلاحاً

يقاتل به الاسلام ولذلك لم تر المدرسة الاكليركية الشرقية فى بادو غضاضة عليها أن تشتغل بالعلم المجرد أحياناً للأثر الذى يحدث عنه وكانت المطبعة والمكاتب الشرقية من المتممات لتلك المدرسة لذهابها بفضل الشهرة و تأثيرها فى الافكار .

وقد تخرج بالاستاذين ماراسى وأغابيتو عدة من التلامذة باللغة العربية فصنفوا فيها وأفادوا وتعاقب اثنان من الكرادلة على أبرشية بادوكان كل منهما يتنافس في عصره فى خدمة الدروس الشرقية . وهذا كان شأن ميلان فانفريدريك بورومة بث فيها روح العلوم الشرقية وبعث منذ سنة ١٦٠٩ الى الشرق يبتاع بالأثمان الباهظة كتباً ومخطوطات شرقية فأسس المكتبة الامبروزية الشهيرة ولم يكثر تلامذة المدرسة التى أسسها لهذا الغرض بل كانوا قلائل امتازوا باخصائهم وكان ثمة أساتذة خاصة من مسيحيي الشرق أو المسلمين الملحدين ولطالما عطف عليهم ونشطهم وتخرج فى مدرسة امبرواز انطونيوجيجى باللغة العربية فكان لها مجداً أثيلا .

عد القرنان السادس عشر والسابع عشر عصر ازدهاء الدروس الشرقية ولا سيما اللغة العربية فى ايطاليا أما القرن الثامن عشر فكان عصر الانحطاط التام اذ فلت فيه حتى الغيرة الدينية والحماسة العقلية ولم ينشأ فيه سوى الكردينال ميزوفانتى الخارقة في اتقان اللغات المنزعة فكان مفخراً للعلم الايطالى وقد تقاسم جمهور الشعب اقيال وملوك متوسطون صار معهم الى الشقاء والعبودية أما الطبقة العالية فقد حرمت من الاشتراك في ادارة شؤون بلادها ينهكها الاستبداد البليغ أو اضطهاد النمسا الشديد فنسيت فى لذائذها المادية حريتها وعلو منزلتها العقلية .

وفي سنه ١٦٩٠ احترقت مطبعة ميديسيس ثم أعيد انشاؤها و بعد أن تقلبت عليها الاحوال ونقلت الى باريز بامر الامبراطور نابليون أعيدت الى ايطاليا وفيها طبع أعاظم مستشرقي الطليان أمثال أمارى وسكياپارللى وكويدي كتبهم وما نشروه من آثار العرب . ولما فتح نابوليون مصر وأعلن للمسلمين بأنه يراعى

معتقداتهم وحقوقهم وانه لا أرب له الا قتال المماليك احلاف انكلترا رأى أن يستولى على قلوب المصريين فظهر لهم بمظهر الحياد وحسن الخدمة وبعث يجلب مطبعة لبث الدعوة الشرقية من ايطاليا فأتته الى مصر وأخذ يطبع بها الكتب خدمة للسياسة والتجارة

فأصيبت من ثم المطابع الشرقية فى ايطاليا بضربات السياسة والحوادث وبقيت المدرسة الاكليركية وخزائن كتبها فى بادو بمعزل وعلى ما عرف به المستشرق العالم بالعربية اسپانى من سعة الفضل فانه لم يتيسر لبلاده أن يعيد الحياة للمشرقيات بعد أن انطفأت جذوتها بالفتن والكوائن وانقراض بيت ميديسيس . ونشأ للعربية أستاذ فى القرن الثامن وهو القس فللادرس في كلية بلرمة ونشر بعض الكتب ولكن القرن التاسع عشر امتاز بآدابه كما امتاز بالحياة فى ايطاليا التى هبت قوية حرة وراحت ترفرف على كل ما كان فيه مجدها أيام تاريخها المجيد فأزهرت فيه الدروس الشرقية ولا سيما الدروس العربية والعلوم الاسلامية . فكانت الولايات الجنوبية في ايطاليا تخرج أبطالا فى المشرقيات أمثال المؤرخ والسياسى ميشل اماري الذى نشر أحسن تاريخ للمسلمين فى صقلية وكثيراً من الكتب التى تدل على فضل علم وتدقيق . كذلك يقال فى دروس العربية فى كليتى فلورنسا وبيزاء وعاصر أماري الاستاذ سكيا بارللى مدرس العربية فى فلورنسا ثم بونازيا مدرس كلية نابولى واغناس كويدي الذى هو اليوم أحد الزعماء المبجلين من علماء المشرقيات من الطليان وهكذا نشأ لايطاليا أجلة من المتبحرين فى علوم الشرق ولغاته وأمراء يتفضلون على العلماء في طبع مايلزم ونشره

وكان امتياز ايطاليا قديماً بنشر المعارف فى كل البلاد فأصبحت كذلك فى عهد وحدتها تريدان تجعل لكل اقليم حظاً من هذه الخدمة ولم تلبث صعوبة الحياة الحديثة والاطماع القديمة التى يظهر أنها اليوم العامل في حياة الممالك الاوربية أن تحدو ايطاليا السياسية الى الانتفاع من هذه المعارف النظرية انتفاعاً عملياً

واذ كانت مصر على قربها من ايطاليا وغناها وعراقتها فى الاسلام مما يكون

منه الخطر كانت هى أول غاية انصرفت اليها كهنة الطليان وتجارهم وكانت ايطاليا منذ القرن السادس عشر مركزاً لتعلم الآداب القبطية وقد انشأت تعلم علم الآثار المصرية والقبطية فى بيزا لتثبت بذلك أنها لا تريد أن تكون غريبة عن علم كانت لها القدم الراسخة قديماً فى الابداع فيه وكانت للغة الحبشية المقام الاول فى ايطاليا لانها رأتها أقرب الى بث الدعوة فى نساطرة الحبش وان التجارة تمكن بدون أن يصطدم الايطالى مع الاسلامى الذى لا يتساهل .

وفى أوائل القرن التاسع عشر أنشأت ايطاليا مجمعاً ومدرسة لتنصير الافريقيين وتعليم دعاة لهذا الغرض تأخذهم من أبناء تلك البلاد وتربيهم ليعودوا الى مساقط رؤوسهم يحيون فيها روح دينهم الجديدة ولكن هذا العمل فى التنصير أخفق لما حال أمامه فى كل مكان من بث دعوة الاسلام ونشر الدعوة البرتستانتية فاقتصرت ايطاليا من ثم على غرس نفوذها فى تلك البلاد وأعداد الأسباب للمطامع الاستعمارية .

ولما سحقت الحبشة لايطاليا سنة ١٨٩٥ جيشاً مؤلفاً من خمسة وسبعين ألف ايطالى في أدوا اضمحلت آمال ايطاليا وقنعت بما ترك لها من الموانى هناك وراح أبناؤها ينتشرون فى تونس ومصر وعلماء المشرقيات المتضلعين من العربية من أبنائها يرفعون شأنها الماضى فى الحضارة وتقاليدها القديمة فى النصرانية .

واتفق أن أحد رجال البيت الخديوى الامير أحمد فؤاد باشا (عظمة الملك فؤاد الاول ملك مصر اليوم) تعلم في المجمع العلمي العسكرى فى تورينو فكان منه بعد ذلك أن عقد أنفع الصلات مع ايطاليا كما بدأ ذلك منه سنة ١٩٠٨ وقد عين رئيساً للجامعة المصرية لتعلم العلوم الحديثة للمصريين ونظم الجامعة بمشورة عالم فرنساوي مشهور المسيو مسبرو وكانت أكثر الدروس تلقى بالعربية فكان من الاساتذة كويدى ونالينو ومالو الايطاليين الذين درسوا الدروس التي عهدت اليهم بالعربية .

ومنذ ذاك العهد مالت الافكار فى ايطاليا الى طرابلس الغرب لتكون لها أهراء حنطة كما كانت للرومان قديماً وذلك لانها بصرف المال وبذل الوقت والعناية

بزراعتها سيكون منها مورد ربح عظيم وتجد فيها اليد العاملة من الطليان مجالا واسعاً للاستعمار فرأت ايطاليا أن يكون الفتح الاستعماري مشفوعاً بالرفق والرحمة والتساهل في معاملة الشعوب الاسلامية وأن يكون أساس الاستعمار فى تلك الاقطار المصالح الاقتصادية وان تدار البلاد بايدى أعظم رجال الادارة ممن تتعلم منهم وزارات المستعمرات الاوربية دروساً فى الاستعمار .

وأخذت ايطاليا بتنظيم كلية بادو التى كانت اتخذتها جمهورية البندقية منذ قرنين مدرسة لتخريج رجال سياستها وتراجمتها وسماسرتها تدرس فيها العربيـة والفارسية والتركية ولا سيما العربية وستعنى هذه المرة بالعربية أكثر ليكون من متخرجيها أعظم الاداريين المستعمرين لليبيا وتضاف الى دروسها اللهجات البلقانية المنوعة ممن تتجر معهم البندقية وايطاليا . ولمدينة جنوة درس عربى طالما تناوب تدريسه أعاظم مستشرقيها وهى اليوم تطالب بأن يكون لها امتياز بتخريج رجال الادارة والاستعمار بانشاء كلية بحرية استعمارية فيها وكذلك سيكون من كلية بولون أثر عظيم فى تخريج رجال بالعربية كما لها منهم حظ ليس بقليل الآن . وفى رومية فى مدرسة الدعوة الى الايمان درسان للعربية والسريانية وكذلك مدرسة القديس أبو لينير فان درس العربية يدرسه فيها الاسقف بوغاريني وتفتخر كلية الحكومة اللادينية فى رومية بان فيها درساً للغة العربية وآدابها بزعامة الاستاذ سكياباريللي والحبشية تحت نظارة كويدى . وفى جنوب شبه جزيرة ايطاليا المملوء بتذكارات اسلامية والقريب من حيث الوضع الجغرافى من بلاد المسلمين كلية بلرمة التى يدرس العربية فيها كل من الاستاذين نالينو وبوونازا واقتصرت نابولى على تعليم العربية بالعمل كما تعلمها بالنظر أيضاً وفى نابولى مجمع شرقى يعلم بالعمل اللغات الحية فى آسيا وافريقية وفيه تلامذة صينيون وهنود وبلغاريون وصربيون وفلاخيون والبانيون ويونان . وفى سنة ١٩٠١ أعيـد تنظيم هذا المجمع على مثال مدرسة اللغات الشرقية فى باريز ويمتاز بان دروسه مجانية ولا يمتحن الطلاب فيه

سويسرا

٥٣

أصحيح أن القطار غداً يخترق العقاب والشعاب . ليخلص من ايطاليا مهد المدنيتين الرومانية والنصرانية . الى سويسرا جنة أوربا ؛ بل جنة الدنيا ؛ ومدرسة العمل العليا ، وأبهج مصيف ومشتى . لملتمس الراحة والسلوى

أيكتب غداً للروح أن تطمئن قليلا فى أشرف ديار ؛ عرفت فى باب حرية الاديان والافكار . ويشهد الطرف حسناء ضمت الى صدرها شمل المدنيات العصرية ووضعت على مفرقها تاج البدائع الارضية والسماوية ؛ بلاد خص كل شبر منها بمزية غالية عالية ؛ وتعاورتها الايدى بالتحسين والتزيين والتطرية ؛ فلم يتصور العقل الآن أرقى من نظامها . ولا أبدع من طرازها وهندامها .

أصحيح أن هذه المدينة الفاضله . دهشة الامصار والاقطار ، وزبدة جهاد القرون والاعصار ، المغبوطة من جاراتها بل من أهل الغرب أجمع ، على قانونها المتكامل ، وأمنها الشامل ؛ سيكون للنفس قسط من الراحة فى رباعها البهجة شهراً من العمر . يعد كالف شهر . فتستمتع الحواس بعجائب صنع الديان والانسان وآخر حسنات العمران فى هذه الازمان

سلام عليك ياجمهورية السلام والوئام . عقمت الايام أن تنشئ مثلك ؛ أنت الوحيدة في العمل بتعاليم السيد المسيح بين الممالك الغربية ؛ فلم يعد عليك أن جوزت بعد تحضرك قتل النفوس . لامتلاك النفائس . ولا انظامت شعباً آمناً لاستصفاء بيته وحقله ؛ ولا انهتكت استاراً وأعراضاً لتغنمي عروضاً وأعراضاً ، بلى كنت من خير من عطف على مدحور ومظلوم ؛ وأكرم مثوى وافد مقهور مغموم ؛ وعلم طالب علم وصناعة تعليما مجرداً من النزعات المذهبية والنزعات السياسية ، ومسلاة كل متعب راغب فى التفرغ لنفسه ، لقنت الامم معنى الحكومة الصالحة

فى الامة الصالحة ، وحققت بالعمل معنى تضامنك فى شعارك « الواحد للكل والكل للواحد » فحكمت نفسك بنفسك حقاً وصدقاً ، لا كذبا ورياء

هذه الوجوه النضرة التى تهش للغريب ، كما تهش للقريب ، هي صورة صحيحة من اخلاق هذا الشعب القليل بعدده ، الكثير بفضائله وعدده ، فان كان هنا لايتجاوز احصاء المكين ، أربعة ملايين ، ولا مساحة المكان ٤١٣٤٦ كيلو مترا مربعا ، فلكم كان القليل العالم ، خيرا من الكثير الجاهل وعظمة الامم بعلمها وعملها . لابوفرة سكانها وطول سهلها وجبلها : سويسرا تفاخر وحق لها الفخر بانها اليوم لاتعرف الاميين الا بما تقرأه عنهم فى صحف العالمين . فهل عهد مثل هذا النور لامة فى القدماء أو المحدثين

يخيل للناظر ان هذه البلاد الواقعة بين أربع ممالك راقية . فرنسا وألمانيا وايطاليا والنمسا قد أخذت من هذه المدنيات الأربع أطايبها . ولعله لا يخطيء من قال ان هذه الممالك أخذت كثيراً من أطايب ماعند سويسرا ، فجاءت هلفسيا أو سويسرا مجموعة الابداع فى البقاع والاصقاع ، وسلسلة مفرغة فى المحاسن لا يعرف أين طرفاها ، تقاسمت القرى مع المدن ، والأودية مع الجبال ، آثار الجمال والكمال فعز لها قسيم فى استهواء القلوب بين هذه الديارات ، بل بين الخمس من القارات وما ظرف عمران الألمانيين والفرنساويين والايطاليين والنمساويين ، اذا قيس بظرف بلاد السويسريين الا كالنضارة فى خدود فتاة العشرين ، فى جنب نضارة ابنة الاربعين .

لا جرم أن هذه الجمهورية الرشيدة هى التى وصفها للناس افلاطون وروسو فكانت بما وفقت اليه ، مما يضعف الفصحاء عن توفيتها حقها من الاستحسان ، وذكر المجردات لا يقنع بقدر الادلاء بالحجة ؛ ولذا نقتصر على طرف مماعرفناه وعرفه غيرنا عنها . كوصف حياتها القومية والروحية والعلمية والاقتصادية عسى أن يثمر ذلك فائدة لمستفيد ، وعبرة لمعتبر ، فى شرقنا المتخدر الأعصاب ، منذ أحقاب ، الذي كادت تدمع لحاله عيون الأعداء ، بعد ان أدمى مقل الأحباب

سويسرا : الافراد والاسرة

٥٤

أول ما يبده الداخل الى أرض سويسرا : الخضرة والنظافة . فانها كلها أشبه بحديقة فى وسطها مصايف من أجمل ما بنى المهندسون ونقش النقاشون وصور المصورون . الدور على اختلاف هندستها سواء كانت بيضاء كما هى فى سويسرا الفرنساوية أو منقوشة كما هى فى الشمال الشرقي أو من الخشب على ما تراها فى أوبرلاند تفيض بهجة ونضرة ونظافة وزينة وتبدو على الدوام جديدة حتى ولو كانت مبنية منذ قرنين أو ثلاثة . والغربيون مولعون بابقاء القصور القديمة مهما كانت ويؤثرونها على الجديد من نوعها . وداخل البيوت على مثال خارجها فى الحسن حذو القذة بالقذة .

ادخل الفنادق الكبيرة أو الصغيرة والى منازل الطبقة العليا أو الفلاحين ، والى قصور الأغنياء أو المقترين . تجدها كلها متناسقة بنظافتها ، وتشهد المساكن والمخازن على هذا الطرز فى الصباح والمساء على السواء ، وما أنس لا أنس تلك النظافة التي شهدتها فى المنزل الذى حللت فيه فى مدينة لوزان المطل على بحيرة ليمان ومن ورائها جبال الالب وذلك منذ تدخل الدهليز فتصعد الدرج ، الى أن تدخل المنزل ، وتجلس فى غرفتك ، الى المائدة ، الى الطعام المنوع المستطاب ، الى أحقر شيء فى الدار .

ولقد كنت أعجب كل يوم من رؤية الخادمة تمسح البلاط والدف في الأرض والنوافذ والدرفات وتنفض الستور والأغشية والكراسى والمقاعد والخزائن والمناضد والزروع الموضوعة فى الأصاصي دع التحف والصور والتماثيل الصغيرة ومصابيح الكهرباء وغير ذلك مما لا تخلو منه دار فى الجملة ، كل هذا مع خدمة المطبخ والمائدة وبعض ما يلزم من السوق تقوم به خادمة واحدة وليس هذا

الحال خاصاً بالبيوت والفنادق فقط بل انك تراه فى الشوارع والازقة على صورة مكبرة فان الاوساخ الخفيفة لا تلبث أن تطرح حتى تكتسح وكذلك الثلج لا يلبث أن يتساقط ٢٠ سنتيمترا وأكثر الا ويرفع من الطرق ، وكل شارع وجادة وساحة وسوق ينظف ويغسل بلا أمهال بحيث تصح هنا حكمة الغرب : « النظافة أثر من آثار النظام والعمل » والشعوب النظيفة هى التى تحب أن ترى كل شىء فى مكانه تقاسى ضيقاً حقيقياً بل ألماً مبرحا اذا شاهدت الخلل ليست النظافة ابنة الكسل لأنها تستوجب من الافراد والحكومة عملا وجهاداً متواصلا ويستدعى أن تحث عليه الحكومة المحكوم عليهم كما هو الحال فى سويسرا فان بلدياتها تنفق عن سعة لتجعل البلاد فى هذه الحالة من النظافة التى تعجب لها أرقى أمم الحضارة دع شرقياً لا يكاد يقع نظره فى بلاده الا على أقذار فى الشوارع والساحات والحارات بل فى البيوت والحوانيت وخلافه كل شأن من شؤون الحياة الراقية

وكان من أثر هذه المفاداة التى فادت بها بلديات سويسرا في متصرفياتها أو مديرياتها الاثنين والعشرين تحسين الصحة العامة واستجلاب السياح وأحسن معلم لبث أفكار النظام والوقار والرفاهية

تتبارى الحكومات والمديريات والادارات الخاصة والعامة فى مضمار النظافة فتجد اقفاصاً من أسلاك لطيفة موضوعة في المدن فى كل شارع وحديقة لتوضع فيها القشور أو الاوراق وربما سار الواحد عدة أمتار حتى يرى تلك السلة المعلقة فيضع فيها ما بيده من الفضلات الخفيفة ؛ وذلك لأن كل سويسرى لا يحب أن يرى متنزهه وشارعه وحيه الا كما يرى بيته طاهراً نقياً ليس فيه ما ينبو عنه النظر . وكيفما انقلبت في سويسرا في القطارات أو المراكب في المحطات والادارات تشاهد النظافة المجسمة كأن هذه الخاصية صفة من صفات الأمة السويسرية ؛ وربما نسى الغريب أن يضع ما استغنى عنه من الورق أو غيره فيشير اليه الاهلون بوضعها فى محلها بل ان المفتش فى القطار لا يستنكف أن يرفع اوراقا تتساقط

من ركاب قد يكونون في الأكثر غرباء لا يعرفون درجة غلو السويسريين فى النظافة فى كل شىء

ما كانت النظافة فى فطرة السويسريين أو جنسهم بل هى كسبية وثمرة تربية طويلة ومدنية باهرة . ولا جدال فى انهم بنظافتهم أرقى من سكان الجنوب والغرب أى من الطليان والفرنسيس نعم ما كانوا أمس كما هم اليوم والدليل على ذلك ان من البلاد السويسرية مالم يبلغ حتى الآن درجة كافية من النظافة كما يحب السويسريون ولا سيما البلاد التى لا يقصدها السياح وليس فيها فنادق مثل بعض محال من مقاطعة الفالى والكريزون والرينتال ، وهى اذا قيست بمقاطعات زوريخ وفو واوبرلاند فقياسها مع الفارق ولا يزال فى المدن العظمى مثل لوزان وجنيف وزوريخ احياء قليلة على شىء من الوساخة بالنسبة لمجموع البلاد ولكن مثل هذه الاحياء تهدم الواحد بعد الآخر والقرى تطهر بأسرع ما يمكن وهى نموذج مما كانت عليه سويسرا قبل خمسين أو مائة سنة فاستطاع أهلها بالتربية أن يحرزوا فضيلة النظافة التى أصبحوا فيها قدوة الأمم الراقية .

تساءل الباحثون فى حال هذه الأمة فيما اذا كان للدين تأثير فى نظافة السويسريين والراجح من آرائهم على ما ذكره البردوزا فى كتابه « سويسرا الحديثة »[1] ان الدين أثر بالواسطة لا مباشرة وأن للتربية العملية المقام الاول . فالمقاطعات التى سبقت غيرها فى مضمار العلم وأحب أهلها النظام وتفانوا فى المحافظة عليه كالمقاطعات الالمانية فى الشمال وأهلها بروتستانت هى أكثر نظافة من مقاطعات الجنوب أى الفالى والتسين والكريزون وأهلها كاثوليك وذلك لان سكان هذه ايطاليون والايطاليون جاؤوا متأخرين بالنظافة عن الالمان وكذلك فى التعليم . ومع هذا نرى من مقاطعات الشمال مقاطعتى الفو ونوشاتل وهما من جنس فرنساوى لا تقلان فى النظافة عن مقاطعتى زوريخ وبرن الالمانيتين

ومهما يكن من اصول السويسريين المانا كانوا أو افرنسيسا أو ايطاليين فان سويسرا أشبه بفسيفساء من الشعوب والعناصر تلاقت وامتزجت وتعاشرت

(١) سويسرا الحديثة لالبردوزا Albert Dauzat: La Suisse Moderne

لا تفرق بينهم الا اللغة وقد اختلطت دماؤهم اختلاط الماء بالراح كما ترى من سحناتهم فان أهالي مقاطعتي الفو وفريبورغ وان كانوا فرنسويين بلغتهم فالسحنات الالمانية غالبة عليهم وكذلك ترى في بعض المقاطعات الالمانية التي تتكلم باللغة الجرمانية أيضاً منذ عشرة قرون ملامح السلتيين والريتيين من قدماء الرومان

نشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية ووطنية سويسرية وذلك بامتزاج الفكر الجرماني بالفكر اللاتيني فأخذ السويسري عن الالماني صفات التدين والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة في الماديات والحقائق واقتبس من العنصر اللاتيني تقاليد البشاشة والادب وجودة الحكم وحسن التقليد والظرف . والرأي الديني في ابن مقاطعة تسين لا يماثل الرأى الديني في ابن مقاطعة لوسرن وان كان كلاهما يدين بالكثلكة . والسويسريون الالمان أشد نظاماً من السويسريين الفرنسويين ويغالي الاولون بالاكثر في توطيد سلطة الحكومة وتوسيع اختصاصها وتراهم مولعين بتقاليدهم مرتبطين بعاداتهم القديمة وحرياتهم المحلية وخصائصهم على العكس في السويسريين الفرنسويين فان هذه الصفات تبدو فيهم بمظهر آخر

والسويسري على اختلاف أصوله ولغته افرنسياً كان أو ألمانياً قليل الفضول لا يسألك في الفندق ولا في الشارع اذا تعرفت اليه عن مقاصدك ولا يتتبع عوراتك ولا يسألك أسئلة لا تحب ان تجيب عليها على العكس في السويسري الايطالي وهو ساكن في الجنوب طبعاً فانه يملل نزيله وصاحبه بأسئلته ، ومن ترك الناس وشأنهم في هذه البلاد نشأ في أمم أوربا وأميركا حسن الظن بالسويسريين . فاختاروا سويسرا مصيفاً ومشتى لأن من تلك الامم ولا سيما الشعوب الانكلوسكسونية من لا يحب أن يسمعك صوته فضلا عن ان يطلعك على عجره وبجره .

وهذا الخلق سرى للحكومة وهي وقانونها صورة من صور الشعب . أكتب هذا عن لوزان وقد مضى علي فيها خمسة عشر يوماً وأنا لم أر سوى ثلاثة أو أربعة

من رجال الشرطة بالعرض اقامتهم المديرية بداعى الاعياد فقط ولم أر سوى جندى واحد ، هـذا والمدينة لا تقل نفوسها عن سبعين ألفاً وفيها على الأقل عشرون ألف غريب

هذه هى الجمهورية السعيدة التى أسسها ثلاثة فلاحين منذ عشرة قرون قد بلغت بالعلم والتربية هذا المبلغ من الرقى . وان أكثر مايقع فى هذه الديار من الحوادث مثل السرقة والسكر والعربدة التى لاتخلو منها أرض لايكون على مارأيت من أنباء الصحف الامن بعض الغرباء وأكثرهم من الطليان والاروام . فبوركت بلاد هذا حالها

سويسرا : النساء والرجال

٥٥

السويسرى كالايطالى والالمانى والانكليزى كثير الولد والذرية وأولاده لايعدون بالزوج بل بالعقد وبلغني أنه ولد لأحدهم من زوجة واحـدة ثلاثون ولداً « فقط لاغير » أما الازواج الذين رزقوا العشرة والخمسة عشر ولداً فهؤلاء أكثر من أن يحصوا فاولاد السويسريين كالبيض أو البرتقال يعـدون بالخمسات والعشرات . وترى الأبوين لايدهشان لكثرة نسلهما فانهما فى الاغلب يلبسانهم ولا سيما في القرى البسة بسـيطة للغاية لاتختلف فى الصيف عن الشـتاء كثيراً ويطعمانهم ماحضر من الطعام وأكثره يدور على اللبن والحليب والبيض والجبن والخبز الاسمر وقد لايطعمانهم اللحم الا قليلا اما الخمور فهذه لا تكاد تعرف لانها محتكرة للحكومة وأثمانها فاحشة لا يصـل الفقير اليها وليست كل المقاطعات مما تجود فيها الكرمة

يلعب الأولاد حول أمهم وفى الحقل حتى السابعة من عمرهم ثم يذهبون الى المدرسة وعندئذ يقل لعبهم حتى ان ابنة العاشرة أو الثانية عشرة تعمل أعمالا

من الخدمة وتحصيل المال يعجز عنها ابن العشرين أو الثلاثين في شرقنا . فتراها من المدرسة الى النزل تخدم فى الأوقات المتيسرة لها الى تربية أخيها أو أختها وتعهده الى بيت فلان تغسل لهم الأوانى أو غير ذلك

والحكومه تحول دون الأولاد ومايشتهون أحياناً فان أكثر الحدائق العامة لايستطيع الأولاد أن يدخلوها اذا كانوا دون الخامسة عشرة الا اذا كانوا مع كبير من أهلهم يسأل عن حركاتهم وسكناتهم وفى بعض المقاطعات يحرم على الفتى أو الفتاة دون الخامسة عشرة أن يخرجا الى الشارع بعد الساعة السابعة ليلا وفى أخرى لايحضر الولد بعض المسارح والصور المتحركة بل ان له مسارح ومشاهد غير ما للبالغين .

انتشر فكر الأسرة كثيراً فى سويسرا وذلك بتداخل الحكومة أيضاً التى جعلت فى جملة المرغبات فى الزواج اعفاء المواريث من كل رسم اذا انتقلت الى وارث حقيقى مباشرة كالابن ونحوه وأما اذا كانت تنتقل الى الاباعد فانه يدفع عنها رسم فاحش للحكومة

وبينا ترى الحياة الصناعية فى أوربا بأسرها قد عاقت كثيراً عن تأليف الأسرات وتأسيس البيوت ترى سويسرا كلما زادت حركتها الصناعية تتكاثر فى ربوعها البيوت وذلك بأن العامل أو العاملة يعمل فى داره مايعرفه من أنواع الصنائع كعمل الساعات والتطريز والنقش على الخشب وغير ذلك . فابن القرى يعمل وهو فى بيته ولا ينقطع عن عمله الزراعى طول السنة وقد حال ذلك دون كثير من أبناء القرى عن غشيان المدن والسكنى بها واقفار الارياف . فان خلو الدساكر من سكانها هو من أول أسباب الخراب كما هو حاصل في الشام من الهجرة الى أميركا مباشرة وكما هو كذلك فى فرنسا فى الهجرة من قراها الى مدنها والخطب أسهل .

نعم تعمل هنا المرأة والفتاة فى قريتها ماتحسنه من الصناعات فى المعمل أو في

بيها بدون أن تنقطع عن محيطها وأسرتها وان تتخلى عن تدبير منزلها والمرأة السويسرية مشتهرة بأنها لاتحب الظهور كل ساعة للناس وهى مخلصة صالحة على الجملة تؤثر تعهد عملها وبيتها على كل شيء وتتكر كثيراً بحيث أن السفاسف والزينة لاتشغل من قلبها مكانا فهى امرأة منزل وعمل تهتم لبيتها اهتماماً غريباً وتظهر حبها للنظام حتى فى عواطفها

مامن بلد فى الأرض ساوت فيه المرأة الرجل كما هى فى سويسرا فهي قرينته فى عمله وشريكته حقيقة وهذا ناشيء ولا شك من تربية المرأة على العمل وحبه وقد بلغ سنة ١٩٠٠ عدد السويسريات اللائى يعملن فى الصناعات المختلفة من زراعية وتجارية وصناعية وصناعات حرة ١.٥٧٥.٠٠٠ امرأة . هـذا فى شعب هو اقل من أربعة ملايين فاذا فرضنا ان النساء ١٩٠٠٠٠٠ فى سويسرا وأخرجنا منهن العاجزات وصغار البنات لايبقى الا عدد أقل من القليل غير عامل من النساء السويسريات فالمرأة العطلة عن العمل ليست بضاعة سويسرية والعاملات من النساء على نسبة العاملين من الرجال . وقد أحرزن منـذ زمن طويل الحق بأن يكون منهن الطبيبات والمحاميات أما حقوق الانتخاب ومشاركة الرجال فيها فانها قلما تهمهن ولذلك كان النساء فى التجارة والصناعات الحرة أكثر من الرجال . قال لنا رئيس تحرير جريدة « غازت دى لوزان » ان الناس هنا يعملون مهما كانوا أغنياء ولا تكاد ترى عشرة فى مدينـة لوزان لاعمل لهـم على كثرة أغنيائها وأرباب الأملاك فيها

الأخلاق هنا في الجملة قاسية والحياة بالغة حد النظام والناس كلهم يعملون ولذلك تقل البواعث على التبذل والخلاعة وحب الشهوات لان ذلك يستدعى أوقات فراغ والفراغ لايعرفه السويسريون والسويسريات . ثم ان المناخ لايساعد على الخروج كل ساعة بل بالعكس مما يحمل على الرغبة فى الحياة البيتية . وسويسرا مثل هولاندة أقل البلاد الاوربية التى يولد فيها أولاد غير شرعيين فهى من هذه الوجهة أقل من ألمانيا ثلاث مرات . وسبب قلة العهر العمل بلا شك لان رأس البطال معمل الشيطان

متى تزوجت المرأة السويسرية تصبح عشيرة الرجل حقاً فهي يوم الاحد تذهب واياه الى الكنيسة وفى المساء الى القهوة . والسويسرى يجد فى عطلة الاحد أحسن فرصة له لأنه يتخلى عن عمله فلا يطلب من أسباب السرور الا أن يكون مع أهل بيته . ويقل اختلاط الشبان والشواب فى أوقات الفراغ حتى يوم الاحد اللهم الا فى الاعياد السنوية النادرة التى تقام فيها مراقص . ويذهب الشبان أيام الآحاد الى الكنائس ولا سيما البرتستانت منهم وبعد الظهر يذهبون عصابات يتمرنون على الرماية ولعب الكرة ويغنون ويعربدون قليلاً ولكنهم يوم الاثنين فى الساعة المعينة تقرأ الرزانة فى وجوههم ويعود كل رجل يستعيد مركزه فى الحياة الاجتماعية .

تذهب الاسرات مساء الاحد ولاسيما فى سويسرا الالمانية الى أحد الفنادق أو القهوات فترى الامهات والنساء والاخوات جالسات الى منضدة بالقرب من أبنائهن أو أخواتهن أو أزواجهن يشربون جعة وقهوة وقليلا جداً من المشروبات الروحية والرجال يدخنون وربما غنى الحضور ولكن أغانى وطنية حماسية فيها ذكر الله واحترام المرأة ومدح جمال الجبال وحياة الفلاة وربما غنوا أغانى هزلية أدبية ولكن لاغرام فيها ولاعشق

المرأة السويسرية قد يعالجها الهرم فى الغالب أكثر من غيرها من النساء المرفهات فى أوربا الغربية والوسطى ولكن هرمها يزيد فى عقلها ويبقى قلبها على نضارته وأخلاقها على سذاجتها . والسذاجة خلق من أخلاق السويسريين والسويسريات والسويسرى وسط بين حرية الغالى « الفرنساوى » ورصانة الانكليزى . وائن كانت كتب الرقاعة والخلاعة لامحل لها من الاعراب فى جملة حال السويسرى فهو مع ذلك لايخامره ريب فى صحة أخلاق بناته وزوجته ويعرف أن اختلاطهن اذا اقتضى الحال بالرجال والخلوة بهم أو رؤية التماثيل المعراة فى المتاحف وعلى قارعات الطريق مما لايلقى أدنى اضطراب فى عفتهن . ومن لم يكن له من نفسه وازع لاتحول الحواجز والأستار بينه وبين ارتكاب الرذائل .

سويسرا : الصفات الاجتماعية

٥٦

أول مايبده المسافر فى سويسرا ضبط المواعيد فان السكك الحديدية كما هى فى أكثر بلاد العالم المتمدن لا تتأخر ولا تتقدم دقيقة عن ميعادها والقطارات تسير الهوينا فى أصقاعها كأنها هى أيضاً تحب أن تمتع نواظرها بمناظر سويسرا البديعة فالسكك الحديدية هنا كسائر الأعمال تسير عجلة فى بطء ولا حاجة لأن يعجل المرء هنا فى المبادرة الى المحطة لأن العالم كلهم مدققون فى أوقاتهم ومتى كانوا كذلك بورك لهم فيها

الصلابة والثبات صفتان لازمتان للسويسرى وقد كان المشهور ان الفرنسويين أكثر الأمم اقتصاداً ولكن ظهر أن السويسريين يفوقونهم فانهم أول أمة أوربية تحسن استخدام أموالها ويليها الأمم السكاندينافية وقد تجاوز ماوضعه ١،٣٠٠،٠٠٠ من السكان فى صناديق التوفير مليار فرنك فيصيب الفرد ثمانمائة فرنك وهذا مما لا يكاد يكون له نظير : ثلث الأمة تقتصد وتجمع المال الذى لاتحتاج اليه !

لاتردد فى أخلاق السويسرى يقبل الجديد ولا يخون القديم فهو اما أن يقول نعم أولا . ليتمثل لك ذلك فى المشاريع واللوائح التى توضع وتسن مما يقتضى تنفيذه عند غيرهم سنين . أما هنا فاذا أريد القيام بعمل تبدأ الصحف باعداد الأفكار له وتلقى المحاضرات فيضع أحد النواب أو الحكومة مشروع القانون الجديد واذا اقتضى الحال تصدق عليه الأمة ويخضع له كل الناس واذا وضع قانون ولم ينفذ فالسويسرى يصر على العمل به بدون ملل مثال ذلك بعض السكك الحديدية الجديدة فان من الخطوط مايعد فى عشرين سنة ولا يكون طوله أكثر من عشرين كيلو متراً ومع هذا فقد تفتح كل سنة محطة جديدة منه ولكن الخط ينتهى فى الآخر

اذا كان السويسريون عنودين فذلك لانهم عمليون لانظريون في أعمالهم فلما يطيرون وراء الخيالات . وقديماً نبغ فى السويسريين فلاسفة أمثال جان جاك روسو الذى ولد فى جنيف أما اليوم فلم تنشأ لهم مثل تلك الطبقة بل ينشأ لهم أهل عمل أقرب الى الحقائق متشبعين بالحق عارفين المداخل والمخارج نخلف رجال الاعمال رجال الخيال .

امتاز السويسريون بالصناعات فاستفادوا من ذلك فوائد جمة فى بلاد شحيحة بخيراتها صعبة المراس بطبيعتها والاقتصار على الزراعة فيها لاتسير به الحركة الاقتصادية على محورها . فليس فيها فحم حجرى ولا معادن للصناعة ولا شواطيء بحرية ولا أنهار عظمى للتجارة بل فيها عقاب من جبال صعبة المرتقى أقيمت على التخوم فى الجنوب والشرق والشمال وربعها غير صالح للزراعة لأنه مألف الثلوج والجليد طول السنة أوصخور لاترتقى وتربة قاحلة وثلثها صالح للغابات والشتاء يطول ويشتد فى بعض مقاطعاتها ويغمرها بالثلوج برمتها وبحيرات هى كالخال فى عنق ذات الجمال والدلال ولكن الانسان العاقل يغلب الطبيعة أو يعرف كيف يستخدمها فان تلك الحواجز الجبلية قد خرقتها السكك الحديدية بحيث انسويسرا بعد ان كانت تحول دون الاتصال بين فرنسا والنمسا وبين ايطالياوألمانيا أصبحت الصلة اللازمة بينها فشق القطار جميع الاصقاع وتسلل بخطوطه المنوعة حتى الاصقاع البعيدة عن التركيب الاجتماعى يحمل اليها مائية الحياة الاقتصادية ورشاشة من بحر المدنية واستعاضت سويسرا عن الفحم الحجرى الاسود بما عندها من الفحم الابيض وأحسنت ضبط المياه فدورت بها المعامل والمواد الاولية تجلب من الخارج ولكنها تعود بارباح فائقة فان ثلاثة أرباع صادراتها هى من حاصلات بدلت فيها اليد السويسرية وغيرت مثل القطن والحرير والشكولاتا وأنواع المطرزات والساعات

أحسنوا هنا استخدام جميع التربة الصالحة للزراعة على أحدث الطرق الزراعية المنوعة فوفرت كرومها ومراعيها وكثرت فيها تربية البقر بما يلحقه من اللبن والزبدة والجبن حتى ان بعض مقاطعاتها الشرقية تبلغ حاصلاتها ٨٠ فى المئة من

البقر وما يشتق منه والثلوج والجمد والصخور والشقيف كانت من المعونات على الاستكثار من اقامة الفنادق والانزال ليأوى اليها السياح الذين ملوا من رؤية الحضارة ويريدون ان يرجعوا شهراً أو شهرين الى الطبيعة فليس فى سويسرا حيوانها وجمادها وانسانها شيء لم يحسن استخدامه ويجر فى سبيله

السويسريون عمليون في حياتهم الخاصة وهم كذلك فى حياتهم العامة فلا تجد فى الممالك مكاتب أشغال تنظر الى الجواهر لا الى العرض مثل مكاتبهم ولا ادارات أقل تشبثاً بالاعمال القرطاسية من اداراتهم . فهم فى هذا الباب يصلحون أساتذة للفرنسيس والطليان والالمان . دخلت كثيراً من المصارف والبيوت المالية فى مصر والشام وباريز ورومية فلم أشهد لمصارف سويسرا تلك الدهشة التى يتلقى بها الغريب الوافد عليهم ولا ذاك التطويل المملّ الذى يشاهد فى مصارف الشرق والغرب على الغالب . وهكذا هم فى كل أعمالهم الاشتراكية الاجتماعية . ومن أغرب مايسمع أن مدينة بال ارتأت أن تستوفى الضرائب من الاهلين فى بطاقات بريدية فتم هذا العمل فى أسرع مايمكن ولم ينتظر المكلف فى شباك البريد أكثر من عشر دقائق فاحتذى هذا المثال كثير من المدن السويسرية تخفيفاً من أجور الجباة وتيسيراً على الناس

اختار السويسريون السهولة حتى فى أصول التعليم فى مدارسهم فلا يخرجون اليوم من ست كليات راقية لهم سوى رجال أعمال لا رجال آمال وخيال يخرجون رجل الغد على ماينبغى له فى جهاد الحياة فيتخرج من مدارسهم قليل من العلماء والأدباء وكثير من الزراع والتجار والعاملين . يعلمون أموراً تنفع الطالب فى الحال ويلقنونه العمليات وحب الاعمال المنتجة . يرى السويسريون الآن فى الامة كثيراً من المخترعين المتوسطين والمتفننين الجائعين والكتاب الذين لاقرائح لهم وكلهم لافائدة منهم ولكن البقال والصانع وموظف السكة الحديدية وان كان متوسطاً أفيد للحياة الاجتماعية من شاعر شقى لاينتفع به فى شيء

ولذلك ترى الكليات تطبق علومها على حسب أقطارها فكلية بال مثلا يتفنن

أساتذتها فى تعليم الطلاب حسن استخدام الالوان فى كل أبحاثهم الكيماوية لان البلاد صناعية ولكليتى زوريخ وفريبورغ فرعان تجاريان ولكل فروع التعليم مقام محمود للتعليم الصناعى فى سويسرا يوافق ضروريات الحياة والمصالح فى كل مقاطعة فالمدارس الزراعية منوعة وهى مرتبطة بالمديريات مثل المعارف العمومية ولكن حكومة الاتحاد السويسرى تمنحها اعانات كثيرة تقوم بحاجتها وفى سويسرا مدارس نظرية وعملية زراعية ومدارس زراعية للشتاء ومدارس لتربية الكرمة ومدارس لاستدرار الالبان وغير ذلك وفيها كثير من المدارس التجارية للمديريات أو للبلديات وتقيم شركة التجار السويسرية كثيراً من الدروس التجارية ولكثير من المدارس الوسطى فروع تجارية هذا عدا المدارس الخاصة مثل مدارس الساعات ومدارس التطريز ومدارس الفنادق ومدارس تدبير المنزل

بين تلك الجبال الصعبة الخطرة رسولة الشتاء الطويل التى لا يستطيع فيها المرء بمفرده أن يعمل مايقاوم الطبيعة التي لا تشفق أحس السويسرى بضرورة التضامن وشعر بالحاجة الى التساند والعمل يداً واحدة وترتيب الجهاد على مايجب. الجبلى قاس وفطرى وهو كريم المثوى واقراء الضيف سنة قديمة عند السويسريين كما هى عند الايكوسيين فى انكلترا أو العرب فى بلادهم ولا تزال هذه السنة الى اليوم كما كانت أمس ولكن الأجيال الجديدة مالت الى الحقائق أكثر من أجدادها فاخترعوا من الضيافة صناعة وهى صناعة الفنادق والانزال

وربما يبلغ التضامن عند أمة مابلغه عند السويسريين فان حركة جمعيات التعاون والشركات والنقابات أكبر دليل على رسوخ عادة الاجتماع في عقول السويسريين منذ أحقاب فالنقابات الصناعية استعادت تقاليد الأخويات القديمة حتى ارتبط المستخدمون والتجار والصناع والزراع فى سويسرا بنقابات لا ليكون من أثرها ضرر على المجموع من مثل الاعتصابات والاضراب عن العمل بل ليكون منها عموم النفع والشركات المحليـة متحدة كل مديرية بمديريتها ثم ترتبط مديريات البلاد كلها وهـذا فى جماعات العملة والمعلمين . وأصحاب الفنادق بل المطاهى متحدة

بعضها مع بعض وما الحكومة السويسرية اذا نظرنا اليها من حيث المجموع الا اتحاد واسع من النقابات السياسية

لا تزال بقايا الملك المشترك الذى كان معروفاً فى القرون الوسطى فى الغرب ولم يبرح معروفاً بعضه فى الشرق قائمة على أتمها ولا سيما فى الاصقاع التى بقيت على فطرتها فان السكان الى الآن فى وادي انيفرس يحلبون الابقار بالاشتراك ولكل الحق على نسبة ملكه فى حصته من اللبن والزبدة والجبن ولم ترتفع من ذلك خلال عشرين سنة سوى شكويين . وكثيراً ما تكون بقرة أو بغل أو بيت مشاعاً بين عدة مالكين وكثير من المراعى الجبلية هى أملاك بعض رؤساء الأسر وفى كل قرية تملك الاسرة بيتاً خاصاً أو مشاعاً بين أهلها .

وصناعة الجبن فى أكثر بلاد سويسرا تقوم بأيدي شركات مرتبطة بجماعات المستخرجين للجبن وفى مقاطعة الفالى حيث تقل المياه تروى البلاد باقنية جلبت مياهها من بعيد على مسافة ٤٨ كيلو متراً وكل قناة عملت وأديرت على يد جماعة من أرباب الاملاك ينتخب رئيس شركتها أصحاب الأراضى التى هى آخذة بالتقسيم والتجزئة

وبعد فاذا كان الشعور بالتضامن العملى والنظرى هو على أتمه فى سويسرا فان الفكر الوطنى والنظام الاختيارى والضمير الافرادى المشاهد فى أخلاق الوطنى السويسرى جدير بالاعجاب من كل وجه فالسويسرى يعرف واجبه نحو المجتمع والحكومة ويخالف فى ذلك الشعوب اللاتينية التى تحب الخلاف بفطرتها والشعب الألمانى الذى يخنع للسلطة ادارية وعسكرية على صورة غريبة وذلك باطاعته الرؤساء طاعة عمياء والخضوع لأوامر الامبراطور ولكن الوطنى السويسرى يخضع لنفسه ويرضى بنظام ارتضاه بحريته . والفكر الوطنى فى سويسرا الالمانية أشد منه فى سويسرا اللاتينية وان كانتا فى وطنيتهما فى الحقيقة كاسنان المشط فى الاستواء . وسويسرا الفرنساوية هى مديريات نوشاتل وفريبورغ وجنيف ولوزان، وسويسرا الايطالية مقاطعتا التسين والغريزون وما عدا هذه الست مديريات أى الأربع عشرة مديرية فهي ألمانية

السويسرى الالمانى خصوصاً لا يستنكف من أن يشكو كل من يخالف الأمر والنظام لان لكل شاك الحق بنصف الغرامة وقليل جداً من يشتكى منهم ولذا فليس من العبث ماتقرأه على المنعطفات وفى مداخل الحدائق والمتنزهات من الكتابات بحروف غليظة لجعلها تحت ملاحظة الجمهور ومعاونة الوطنيين فان هؤلاء قد عرفوا منزلتهم من بلادهم وما ينالهم من شرفها وما وضعته فيهم حكومتهم من الثقة فلا يريدون بحال أن يشوهوا وجوه مرافقهم ومتنزهاتهم وجناتهم بل يعملون بما فيه حفظها على مايستلزمه حبهم لبلادهم وأعجابهم بها . ورجال الادارة مجتهدون أن يعلموا الشعب وان يؤهلوه ليخدم نفسه بنفسه بدلا من أن يعتبروه ولداً يجب على الدوام الأخذ بيده وقيادته ولهذا أمثال كثيرة تعد بالعشرات مما لامثيل له عند الأمم الأخرى

ونادر جداً فى السويسريين من يستحلون أكل مال خزينة الأمة أى ان يخفوا عن الحكومة مايحق لها أخذ رسوم وضرائب منه ولا سيا فى سويسرا الالمانية وان كان بعض أرباب الغايات وهم لاتخلو منهم أمة مهما طهرت نفسها قد يقفون عثرة أحياناً فى سبيل بعض الاعمال كما وقف بعضهم سنة ١٨٨٦ لما أرادت الحكومة احتكار الالكحول ووقفوا سنة ١٩٠٧ لما أرادت منع شراب الابسنت المضر ولكن انتصر حزب الحق وجرى احتكار الالكحول ومنع الابسنت بالاكثرية وحسنت صحة البلاد .

لاجرم ان هذا الشعب الذى صورنا هنا بعض صفاته الاجتماعية هو شعب عظيم فان من يضرب صفحاً عن شهواته المادية لنفع المصلحة العامة ومن يفادى براحته وحب ذاته وهو راض ساكن باسم لاجل مصلحة وطنه يعد من الشعوب التى تحيا حياة طيبة . اللهم انى أحسد الشعب السويسرى حسد غبطة على هذه الأخلاق الفاضلة واضاب اليك أن ترزق شرقنا المسكين مثلها حتى لايموت بفساد أخلاقه وقلة علمه ميتة جاهلية وقد خسر الدنيا والآخرة

سويسرا : قيودها فى الحرية

٥٧

منذ قام الهلفسيون وكانوا يسكنون في شمالى سويسرا الالمانية الحالية أى فى أرض ألمانيا وانضموا نحو القرن الأول قبل المسيح الى التوتونيين والسميريين وهم مثلهم يحبون الغزو والغارة وأخلاق الحرية تبدو على هذا الشعب الهلفسى الذي سميت سويسرا باسمه « هلفسياً » - رضع هذا الخلق مع لبن أجداده وتسلسل فيه على اختلاف القرون وما كان أشراف القرون الخالية ولا حكومة الرومان التى استولت على سويسرا نحو خمسة قرون ولا النمسا بعد ولا الاساقفة ورجال الدين وكانوا هم الحاكمين فى كثير من بلاد أوربا ولا دوجات ميلانو وسافوا وبورغونيا ممن حكموا سويسرا يستطيعون ان يشددوا الوطأة على السويسريين لأنهم أشداء من وراء النشأة الجبلية متضامنون بينهم اخوان فى السراء والضراء

من قرأ تاريخ سويسرا يعجب من صبر السويسرى ويرى أن حروبه حتى زمن القسوة كانت لطيفة وكثيراً ما كان السويسريون يردون غارات جيرانهم بتفزيعهم وتشتيتهم فقط أو بامطارهم الاحجار من الاعالى أو القائهم فى البحيرات ارهاباً وما أظن أنه سبق فى التاريخ أن محارباً يجىء معتدياً على بلد ويحاصرها ثلاثة أشهر ويضيق خناقها ثم تخدم المحصورين الاقدار ويفيض نهر فيحمل جسراً عليه كمية من عسكر عدوهم فيتركون الحصار ويأخذون بانقاذ الغرقى كما وقع لمدينة سولور السويسرية فان صاحب النمسا حاصرها لتخضع له وهى مستقلة ثلاثة أشهر فطاف نهر الآر وحمل طائفة من جنده فبدلا من أن يغتنم المحصورون هذه الفرصة تنادوا لمساعدة الغرقى فانقذوا منهم عدداً كثيراً فلما رأى الملك ليوبولد من السلوريين هذه الشهامة تأثر جداً وعقد معهم الصلح ورفع عنهم الحصار وكان ذلك في القرن الرابع عشر

تعلم الهفلسيون الاحتفاظ بحقوقهم والاعتياد على الشورى وحكم أنفسهم بأنفسهم وكره الملوك منذ قال زعيمهم ديفيكو ليوليوس قيصر عامل الرومان تلك الجملة البديعة وقد أراد ان يعقد معه صلحاً فطلب قيصر الى الهلفسيين رهائن فقال ديفيكو . « نريد رهائن وقد علمنا آباؤنا ان نأخذها لاان نعطيها وكان على الرومان ان يذكروا ذلك » . ولكنك ترى اليوم هذه الامة مع مابلغته من الحرية التى لم تعهد لغيرها تتساهل بحقوقها مع حكومتها فيما تراه نافعاً لبلادها عاماً منها بأن الحرية المطلقة لايمكن حصولها فى مكان من المجتمع وهى بالضرورة محدودة بحقوق الغير وبالمصلحة العامة

السويسريون يرون فى كل مكان المصلحة العامة ويتركون لها برضاهم صغار مطالبهم النفسية ويطالبون خاصة بتطبيق حقوق الفرد الأولية فلايسيئون استعمال حريتهم الوجدانية وحريتهم القولية ليتخلصوا من عبء فيه مصلحة عامة .

السويسرى لايستطيع مع مانال من الحرية ان يقطع شجرة من غابته الاباذن حكومته ولا ان يضمن داره من الحريق الا عند حكومته لانها هى ضامنة من الحريق ولا ان يلقي ورقا ولا غصناً فى احدى البحيرات فضلا عن الاقذار والاوخام فسويسرا التى احتفظت بحقوقها في عصور الظلمة قد زادت منذ خمسين سنة تدخل الحكومة فى مصالحها على ماهى الطريقة المتبعة فى ادارة البلاد الجرمانية وذلك بان يكون للحكومة اشراف قليل على بعض شؤون لا تضر بحرية الافراد والمجتمع

حرية الضمير والرأى والعبادة مضمونة فى أرض سويسرا بموجب قانون الاتحاد السويسرى الاساسى ولكن لا بصورة مبهمة بل ان لكل مديرية قانونها الخاص للاجتماع والدين والصحافة ينظر فيه الحين بعد الآخر ويطبق بحسن ارتقاء الشعب وأخلاقه . وحرية الصحافة لم تنقلب قط الى عداء . ومما حكات ومع شدة الانتقاد والجدال فى المنازع السياسية فان لها حداً تقف عنده لا تتعداه أعظم الصحف السويسرية ولذلك كانت صحافتهم على صورة لاتشبه صحافة الامم الاخرى وربما كانت هى والصحف الانكليزية صحف الحرية الحقيقية مع الاعتدال الغريب

أما نشر السفاهات والغراميات والخلاعيات فهذا لو جسر على نشره صحافي لايجد من الامة من يقرأه فيسقط بطبيعته . ومن الغريب انك تجد فى سويسرا كنيسة يصلى فيها أهل مذهبين من المذاهب النصرانيــة وجريدة هى لسان حال حزبين مختلفين الحزب المحافظ والحزب المتطرف الاشــتراكى ، فالقارىء يحكم على آراء الفريقين المتخاصمين من العدد الواحد

لاجرم انالقرون الخالية وحوادث الايام قد دربت السويسريين طويلا على الحرية وقلبتهم بين الشدة والتسامح أزمانًا فصاروا يقدرون نعمة السلام والوئام وما تعقلهم الحالى الا ثمرة نضجت على مهل بعــد ان ذاق أصحابها فى انتظارها وتكييفها على هذه الحالة نصبًا . حرية العمل وحرية الاشــتراك فى سويسرا متعادلتان فمن هذه نشأ الاعتراف بنقابات العمال وبحقوق اعتصابهم . ومن تلك نشأ احترام المعتصبين لحق المخالفين لهم فى الاضراب عن العمل . ومع هذا تجد الاعتصابات أقل مما هى عند الامم الصناعية الاخرى والاجور تزيد بزيادة غلاء الحاجيات وارتفاع أسعار الكماليات لان العملة يتفاهمون ويجتمعون على الدوام مع زعمائهم ؛ وكذلك حق حماية سويسرا للمظلومين ؛ ولا سيما السياسيين ، فانه أرقى مما عند الامم الأخرى . ولكن سويسرا لا تحمى القاتل ؛ وكثيرا ما تعمد بعض مقاطعاتها الى اخراج السفاكين وأرباب الدعارة من غير أبنائها الى خارج الحدود .

يبدأ تلقين الحرية وتطبيق حقوق الوطنى عندالسويسريين منذعهد المدرسة الابتدائية . وليس فى سويسرا على الجملة مدارس داخلية ؛ بل ان الطلبة الذين يرحلون من قراهم وبلادهم للتعلم يدخلون في بيوت الأسر حتى لا يعيش التلميذ منذ صغره عيشاً متكلفاً كعيش المدارس الداخلية لا مثيل له فى الحياةولا يخضع لقوانين جائرة ، وهو الذى يحتاج فى بدء نموه الى الهواء والشمس والانطلاق ؛ ومن علماء التربية هنا من بالغوا فى منح اعطاء الطلبة حريتهم وأنشأوالهم مدارس التربية الذاتية أوالحكم الذاتى فيتألفون أولاداً من سن الثانية عشرة الى السادسة

عشرة جمهوريات حرة ينظمون بينهم أمرهم والمعلمون لا يعملون الا أن يلقوا عليهم الدروس وذلك لتلقين الأولاد الاستقلال والحياة العمومية ، فالاولاد يختارون رئيسهم وهيأتهم الادارية وأمين صندوقهم . ويكون اختيارهم حسناً جداً في الاغلب ويجيدون في مناقشة القانون الذي يضعه مديرهم : وتصح أحكامهم في عقوبة المخالفين لنظامهم ، فلا يسرق شيء من مال الصندوق ولو كان الأمين عليه في الثانية عشرة من عمره تحدثه نفسه أن يبتاع ببعض الدريهمات حلواء أو شكولاتا أو ملبساً يأكلها أو كرة يلعب بها ، فكأن سويسرا خلقت بدون أولاد أو ان التربية جعلت أولادها رجالا ونساءها كذلك

حرية الصيد البري والصيد النهري والبحيري محدودة مقيدة في بعض الاوقات وعلى بعض المحال . ورجال الصحة يمنعون كل شيء اذا اقتضت الصحة العامة ذلك ولو كان فيه خراب عدة مقاطعات كأن يقيمون الحجر الصحي على الانسان او الحيوان فيمتنع أحد من الدخول الى تلك المحال الموبوءة أو الخروج منها ولا ينبس أحد ببنت شفة اعتراضاً على ما حصل وقانون العمل وتحديد أوقاته يشغل المستخدمين والعمال والعملة على صورة معقولة فيتمتعون به بشيء من الراحة والحكومة تتداخل في حياة الوطنيين الخاصة لتقدير الضريبة على دخل الافراد الذين يقدرونها بانفسهم أولا وللحكومة الحق أن تراقبهم وكذلك كتابة كشف بعد وفاة الميت بمخلفاته .

لكل عمل في سويسرا موانع ومحظورات فالماهر من يقرأ كل ما يقع نظره عليه من المكتوبات في الطرق والمحطات لئلا يغرم شيئاً بتعديه حمى لا ينبغي السير فيه أو اتيانه عملا يعد منكراً في عرف القوم وهو عند غيرهم مباح وأي مباح مثل منع دوس العشب في المروج عند ما تنبت وقطع عدة زهور من جبال الالب وسير المرء في بعض المقاطعات على بعض طرق الكروم يتناول المنع في ذلك الاولاد والرجال مخافة أن تحدث أحد الشرهين نفسه بأن يقتطف خصلة من الكرم . واقتطاف العنب يجري بمعرفة الحكومة كل جهة بمفردها

ويمنع على بعض الجسور الخشب فى بعض المقاطعات أن يدخن المرء او يحمل قداحة ويوقف حيوانات ويجمع اجتماعات وهكذا تراهم يفرضون فروضاً ربما لاتقع مرة فى العمر ويكتبون لها اللوحات ويضعون على من تعدى عليها الغرامات .

هذه قيود للحرية وضمانات لها فى آن واحد لان الشعب مهما بلغ من رقيه هو كقطيع الغنم لايخلو من جرباء وفى الاكثر يكون المقصود من هذه القيود الاجانب وهم ليسوا على مستوى واحد في عقولهم وعاداتهم . عادة البصاق ممنوعة قطعاً في كل مكان ولا سيما فى القطارات حتى أن بعض الكنائس ككنيسة فريبورغ كتبت العبارة الآتية بحرف غليظ : « احتراماً لبيت الله المرجو الامتناع عن البصاق » ويمنع التدخين من بعض المركبات في القطارات وللمدخنين مركبات خاصة كما أن للسكارى كذلك . واذا حدث اختلاف بين راكبين في قطار أحدهما يريد فتح النافذة والاخر يأباه فالحكم فى ذلك لرئيس القطار فهو الذى يحكم بين المختلفين وهذا أيضاً من جملة ما قدروه من الاحتمالات فى أنواع الحريات .

سويسرا أرض الحرية منذ القديم ولكنها كما رأيت حرية من نوع آخر خاص لاتخلو من قيد في كل حال خلافاً لما يتصوره بعض الخياليين

سويسرا : حياتها السياسية

٥٨

ليست سويسرا جمهورية بل فسيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة راقة غريبة فى حجمها ونظامها وأفكارها وأخلاقها السياسية . فمن مقاطعاتها ماهو صغير ومنها ماهو كبير ومنها ما تدار المدينة فيه بادارة غير ادارة القرى المجاورة لها ومنها ماهو عبارة عن مدينة وبضع قرى حولها أو أرباض . ومنها

من يدين أهلها بالكثلكة وأخري بالبرتستانتية وغيرها مزيج من المذهبين ومنها ما ينتمى الى الحزب الا كليركى وأخرى محافظة متنطعة فى مذهبهاوغيرها متطرفة فى اشتراكيتها ومنها التى تقدم نوافذ للعذراء مثل فريبورغ فى حين جارتها جنيف فصلت بين الكنيسة والحكومة

وفى الجبال الوسطى وجبال الشمال الشرقى لاتزالالحكومة المعروفةبحكومة البطارقة على الحالة التى كانت عليها على عهد الالمان والفرنك والقوة التشريعية بيد مجلس الوطنيين ومن الجمهوريات جمهوريات صناعية مثل زوريخ وبال احاطتا عليها بكل دقائق المجالس النيابية فتضعان ضرائب على الدخل وضرائب على رأس آلمال وتختاران بعض الاصناف للحكومة وتختار أن طريقة الانتخاب على نسبة العدد ، عادات روفجية قديمة الى جنب الاختراعات السياسية فى القرن العشرين

قطعة من الجبال والاودية والبحيرات لا تبلغ مساحتهاثلث مساحة ولاية سورية ونفوسها لايزيدون كثيراً عن نفوس بر الشام كله وحكومتها فى مديرياتها والاصح أن يقال فى ممالكها لان لكل مقاطعة حكومة كانها مملكة مستقلة أنواع منوعة وهذا لتكون عندهم اللامركزية على أشدها ويستمتع أهل كل ناحية مهما صغرت بفضل مايرونه الانسب لمصلحتهم والتغيير يتناول حتى النواحى التى تختلف ادارتها بحسب الاقاليم

فى غرب البلاد يسيرون على الطرق الفرنساوية وفى سويسرا الالمانية لكل بلد نظام والمرجع واحد : هنا تجبى الناحية الضرائب وهناك تسمح لها وارادتها أن لا تطالب المكلفين بقرش . الاستقلال الادارى الى جانب السلطة المحلية تختلف كل الاختلاف ، المركزية فى سويسرا الفرنساوية أكثر من غيرها فى حين ترى نواحى ابينزل الالمانية جمهوريات صغرى أو جمهوريات تنوب عن جمهورية مستقلة الا قليلا

وبهذا التغيير الكثير ساغ الانظمة والاوضاع أن توافق أخلاق كل صقع وضرورياته وحاجات سكانه ورغائبهم التى تختلف باختلاف نوع الحياة . فالتعليم

مثلا اجبارى فى البلاد كلها يقضى على كل ولد أن يصرف فى المدرسة من سن السادسة الى الرابعة عشرة يتعلم فيها أموراً مشتركة بين المقاطعات كلها وما عدا ذلك فكل مديرية حرة بأن تنظم مدارسها على طريقتها وهى تطلق للنواحي حريتها أيضاً فى بعض الامور مدة التعليم تسعة أشهر فى السنة ، ولكن بعض النواحي تقسم العطلة قسمين قسم وقت اشتداد الحر وآخر من آخر ايلول الى أول كانون الاول وهو الزمن الذى تنزل فيه الماشية من الجبال وترعى فى المروج الى أوائل نزول الثلج تحت ملاحظة أولاد تلك القرى .

للتخصيص على هذه الصورة فوائد لا ينكرها الا كل مكابر . يمنع التعديل الجائر ويحفظ للنواحى تنوعها وغرابتها ويبث روح الحياة المحلية والهمم الافرادية ويزيد فى ارتباط المرء بوطنه الصغير ، وهذه أحسن طريقة لتعريفه قدر الوطن الكبير وتحبيبه اليه . لكل مديرية وطنيتها فلها أعلام خاصة بها وألوان لا تشاركها فيها جارتها ولها أسلحة ولها شارات ، وفى جميع الأعياد وعلى جميع المعاهد العامة توضع شارات المديرية الى جنب اعلام الاتحاد السويسرى مثل دب برن وثور اورى ومفاتيح او نتروالد وكواكب فالى ومطرقة سان غال . لان كل مديرية هى مملكة ووطن ولها تقاليدها وتاريخها وامجادها ، فهى ليست مديرية بالمعنى الذي نتصوره فى مصر والشام قطعة من بلاد اقتطعت منها كيفما اتفق بدون مراعاة الطبائع والتقسيم الطبيعى بل هى عضو حى نام واحد متماسك الاجزاء فى الجسم الاجتماعى .

وربما قيل ان تخصيص كل بقعة بحقوق خاصة مما يفرق اجزاء الحياة السياسية فتختلف الاحزاب وتكثر فلا يستطيع مجلس النواب العام ان يقوم بعمل ولكن سويسرا ليست على مثل ذلك فان ارادة الأمة تسرى حتى على المخالف ويسكت المناقش بظهور الحجة وربما قيل ان هذه اللامركزية المفرطة تشغل أهل كل ناحية بخصوصياتهم فلا يعودون يلتفتون لارقى مما يتجاوز حدود دائرتهم الضيقة كما هو المشاهد من جرائدهم المحلية فانها كلها جرائد خاصة بدائرة لا تتعداها ،

ولا سيما فى سويسرا الالمانية ولولا الجرائد الكبرى مثل جورنال «دى جنيف» « وغازت دى لوزان » و « البوند » وهى الصحف الجوالة الراقية لكان من يعيش فى سويسرا أشبه بمن يعيش فى قطر منعزل لأن السويسريين لا يهتمون الا لزراعتهم وتجارتهم ومجالسهم وحوادثهم وما عداها فمعرفته وعدمها سواء ولكثرة هذا التغالى فى اللامركزية خيف فى القرن الماضى من تشتت الكلمة بتعدد النظامات فاتحدت أكثر القوانين العامة والمدنية واتحدت الخطوط الحديدية واتحد نظام العمل والجمرك وسير السيارات فلم يعد يخشى التباس وصارت البلاد مستقلة كل واحدة بذاتها ولكنها فى الشؤون العامة متحدة . وحدث من هذا الاتحاد فوائد جمة من مثل اتحاد المديريات على أن تحتكر الحكومة كلها الخمور فنشأت من ذلك فوائد قللت من مقطوعية الخمر وحسنت نوعه وقل السكيرون والمعربدون وحسنت الصحة العامة وما يؤخذ من دخل الاحتكار من كل مديرية يعطى لها عشرة لتنفقه على بث الدعوة للامتناع عن المشروبات الروحية ! . وابتاعت الحكومة الخطوط الحديدية الكبرى، ماعدا الخطوط الصغيرة المحلية على صورة كأنها لم تدفع عنه ثمناً وذلك بدون أن تضرب ضرائب ولا ان تعقد قرضاً أو تحتال حيلة فان باجتماع الخطوط تحت ادارة واحدة قلت النفقات وكثر الاقبال فأخذت تلك الخطوط تربح ومن ريعها السنوى مدة ٥٦ سنة يعطي المليار فرنك الذى يدفع ثمناً للخطوط على نجوم وتقاسيط

ومن عجيب احتكارات الحكومة السويسرية احتكارها لضمان الحريق بل للضمان من الحوادث والامراض لا لطبقة مخصوصة من العمال كعمال السكك الحديدية مثلا بل للجنود الذين هم تحت السلاح زمن السلام وزمن الحرب . ومن الغريب المدهش ان تضمن حكومة أرواح محكوميها من رصاص العدو وقنابله وهذا لامثيل له فى المدنية الحديثة . ولا تضمن الحكومة من الشيخوخة كطبقة العملة مثلاً لتنفق عليهم أيام عجزهم ماأخذته منهم أيام شبابهم وذلك لعلمها بان دور الشيخوخة طبيعي لا بد لكل واحد ان يفكر فيه وضمانة مبلغ معين لمن بلغوا

سناً معينة هو مكافأة على عدم الحساب للعواقب وللكسل وللسكر . ولذلك لا ترى فى سويسرا من لا يعمل أما الشحاذة فلا أثر لها ولا اسم . والحكومة العامة هنا احتكرت خطوط التلفون وضمتها منذ البدء لادارة البريد والبرق ولكن للافراد أن يضعوا فى محالهم كحدائقهم أو منازلهم أو فنادقهم ما أحبوا من مثلها .

السويسريون عريقون فى الديمقراطية بكل ما فيها من المعاني تأصلت فى نفوسهم وتشربتها دماؤهم منـذ قرون طويلة . قال لى أحد مديرى الصحف الكبرى فى لوزان انى لا أستطيع أن أعامل عمالى والمستخدمين فى ادارتى الا معاملة الكفاة نعم آمرهم ولكننى احاسنهم فى معاملتى كما أحاسن رصفائى فى التحرير وأصدقائى

وما ذلك الا لأن الديمقراطية تأصلت فيهم وما ديمقراطية أميركا الشمالية التى يرد تاريخها الى زهاء مئة وثلاثين سنة وما ديمقراطية فرنسا التى بلغت ٤٣ سـنة من العمر بالنسـبة لجمهوريات الاتحاد السويسرى الا بنات وأطفال لجمهوريات سويسرا عمرها خمسة وستة قرون ولذلك ترى فى السويسرى شعوراً طبيعياً في المساواة وليس فى جمهوريته أوسمة ولا القاب تشريف فالعامل يشرفه عمله والمفضل على أمته ترفعه على رأسها فى حياته ومماته . ورئيس الجمهورية السويسريه هو من أهل الطبقة الوسطى لا يميزه عن سائر أبناء السبيل فى شوارع مدينة برن شيء من الأبهة والعظمة التى يبـدو بها فى بلادنا القائم مقام الصغير دع المتصرف والوالى والقائد والوزير ولا تجد تشريفات فى سراى الاتحاد السويسرى التى تضم اليها مجلس الأمة ومجلس الاقاليم وينتخب مجلس الاتحاد السويسرى كل سـنة رئيساً يتولى رئاسـة المجلس ورئاسة جمهورية هلفسيا السعيدة وليس هو فى الحقيقة الا عميد مستشاريه الستة

ولا تشهد فى بلاط حكومة سويسرا دسائس يراد بها بقاء الحكومة فى أيدى المتولين عليها على نحو ما يقع فى الامم النيابية فان المجلسين السويسريين لا يقلبان الوزارة قط فلا تعهد عندهم الازمات الوزارية التى تسمع بها فى الممالك الدستورية واذا حدث خلاف بين المجلس والحـكومة يتفاهمان بحرية اذا لم يتيسر لهما الاتفاق

ويخضع المجلس الاتحادى أى الوزارة لارادة مجلس النواب والاقاليم كما أن هذين المجلسين لايماحكان ولا يراوغان . فمجلس الامة لايقلب الحكومة التى ينتخب مستشاروها السبعة أو وزراؤها السبعة كل ثلاث سنين بل يجدد انتخابهم الفصل بعد الفصل لانهم يكونون قد نشأت لهم تجارب مهمة فى العمل ورئيس مجلس الاتحاد السويسرى أو رئيس الجمهورية ينتخبه رصفاؤه الستة كل سنة ويعمل وإياهم باخلاص وخلو غرض ويجددون انتخابه على رأس السنة وربما مضت الاعوام والرئيس لم يتغير لأنه اذا عمل العمل الصالح وهو لا يعمل غيره بالطبيعة لا يرى من رصفائه من يحسده على مركز الرئاسة

رواتب النواب هنا مقسمة بحسب الجلسات فاعضاء المجلس الاتحادى يتناول أحدهم عن كل جلسة عشرين فرنكا ويمكن أن يبلغ مجموع مايتناوله أحدهم فى السنة ثلاثة آلاف فرنك فقط أما نواب الاقاليم فيتناول عضو البلد عن كل جلسة ستة فرنكات وعضو القرية سبعة فيكون للواحد منهم على طول السنة من الرواتب من ٢٤٠ الى ٢٨٠ فرنكا فى السنة ورواتب مستشارى المملكة ووزراؤها ١٥ ألف فرنك لكل واحد مسانهة وراتب رئيسهم أى رئيس الجمهورية السويسرية ١٨ ألف فرنك مسانهة ولذلك قد يضطر المسكين اذا كانت له أسرة كبيرة ان يشتغل أحياناً أعمالا أخرى من تجارة وزراعة ونحوها ولكن لا على أنه رئيس جمهورية له سلطة بل بصفته فرد حكمه حكم الأهالى

الاخلاص هو الخلق الجوهرى فى الديمقراطية السويسرية فالشعب هو السيد ويجب أن يبقى كذلك . وقد اتخذت جميع الاحتياطات لتظهر ارادته بمظهرها ولتكون محترمة على الدوام . حتى ان بعض الاقاليم لا تزال بحسب قاعدة الفيلسوف جان جاك روسو تحافظ على الحكومة التى تحكمها مباشرة بمعنى أن مجلس الوطنيين فيها يلتئم كل سنة فينتخب حكام الاقاليم ويصدق على الحسابات ويقرر القوانين التى أعدها المستشارون الذين انتخبوا فى السنة الفائتة

فى سويسرا حزبان مهمان حزب المحافظين وحزب الاحرار يتناقشان فى مصلحة

البلاد ولكن اذا تولت الأكثرية زمام المجالس لا تنحى على الاقلية بل ترى من مصلحتها ان تقبل اعضاءها في جلساتها وهناك حزب اشتراكى ولكن لا تأثير له لأن الأمة اشتراكية بطبيعتها . قال لى المسيو جان سبيرو استاذ العربية فى كلية لوزان: عندنا حزبان وانا من حزب الاحرار ولكننى لا أجد فرقاً بين الحزبين يصح أن يعد فرقاً ولذلك فكلنا حزب واحد فى الحقيقة . فبارك الله بامة مهما تعددت مناحيها وأصولها وأهويتها ودرجة غناها وأعمالها لا تختلف فى المصلحة الوطنية ولا تتخلف عن الحق قيد شبر

سويسرا : الوطنية والجيش

٥٩

قالت العرب : احرص على الموت توهب لك الحياة وقال المتأخرون من أراد السلم فليكن أبداً على استعداد للحرب . هاتان القاعدتان جرت عليهما سويسرا وبعد فمن يظن ان هـذه الامة التى تعيش بمعزل عن الدول وليست لها سياسة خارجية واستقلالها مضمون باتفاق الدول العظمى تتمرن ليلها ونهارها على الاعمال الحربية وكلها مسلحة وكلها محاربة عند الاقتضاء وتستطيع عند أول صرخة أن تجهز ١٨٠ ألفاً من الجنـد الذين يحسنون الرماية كأحسن أهلها ويعلمون عما يدافعون ويأتون الى أى مكان من حدودهم فى سرعة البخار ثم يستطيعون أن تجهزوا ١٤٠ ألفاً من الدرجة الثانية ومثل هذا العدد فى الدرجة الثالثة وتجهيزاتهم ليست على الورق بل عددهم وعددهم حقيقة لا شائبة فيها كأعمالهم .

قسم السويسريون الخدمة العسكرية الى عدة أدوار حتى لا تثقل عليهم وينقطعوا بتاتاً عن أعمالهم وبيوتهم ويخففوا عن أمتهم نفـقة اطعامهم وايوائهم فبدلا من أن يقضى الشاب السويسرى سنتين أو ثلاث سنين تحت السلاح كما هو عند معظم الامم لا يبقون فى الخدمـة الا أشهراً معدودة فى السنة الاولى ولكن

المرء يبقى جنديا من العشرين الى الاربعين ويدعى لحمل السلاح والتعلم فى مواعيد مختلفة قد لا تتجاوز الاربع السنين وتكون عنده بندقيته يتعلم فيها فى بيته وحقله ولا يستعملها الا لهذا الغرض . والولد منذ المدرسة الابتدائية الى المدرسة العليا الى الكلية يتعلم التعليم العسكرى وهو تحت ملاحظة الضباط الذين يأتون أحياناً للتحقيق عن أمره والاشراف على رمايته وفحص سلاحه الذى تعطيه اياه الحكومة ومن خالف ذلك يعاقب باشد العقوبات وهيهات ان تجد مخالفاً .

سويسرا الحديثة ليست محاربة ولا تثير بينها وبين جاراتها أسباب النزاع لان قلة عددها بين أمم كبرى لا يجعل الحرب من مصلحتها ولذلك فاستعداد السويسرى للطوارىء وتمرينه على الحرب ووطنيته المشتعلة وفكره الشعبي ليست الى عداء وحب فتح بل للدفاع عن كيانه فسويسرا كل سنة تعطى منحة لمكتب السلام فى برن ولكنها باليد الاخرى تبتاع السلاح الجديد وتجهز جيشها بكل ماتقدر عليه من القوة وتزيد فى ميزانيتها البرية سنة عن سنة لم يمنعها الحياد ان تعمد الى الطرق العملية كسائر أعمالها فى فروع الحياة لأن أرضها لا تحمى الا اذا كانت على حال الدفاع بحيث يحترمها جيرانها وبذلك تحفظ استقلالها لا بمجرد العهود التى تداس بالارجل عند ثوران الغضب وهيجان النفوس للفتح وجر المغانم

سويسرا لا تريد أن تكون طعمة سهلة لكل آكل ولا تخاف فى الاغلب أن تداهمها فرنسا من الغرب ولا النمسا من الشرق بل تحاذر فى الاكثر من الشمال تخاف عادية المانيا وان تضمها هذه ذات يوم بالقوة الى أرضها كما فعلت بمقاطعة شلشويق هولستاين وهانوفر وهيس وفرنكفورت والالزاس واللورين واخوف ما تخاف من عادية ايطاليا من الجنوب ولذلك تقيم على الشمال معظم جيشها وعلى الجنوب المعاقل المدهشة ومنها معقل غوتار والسمبلون . فان كان السويسريون يحمون بلادهم ويفادون بالرجال والمال للذب عن حياضها فذلك لانهم يحبونها حباً يمازج أجزاء نفوسهم ولا شىء أحسن وأضمن للتعلق بالوطن من الاستقلال وحكم المرء نفسه بنفسه .

قال أحدهم : أن سويسرا ليست من البلاد التى تبقى لضرورة فى بقائها كانكلترا واسبانيا بل أنها لم تبق الا لان السويسريين يريدون بقاءها . نعم أن الارادة وحب الحريات السياسية قوة من القوى ولكنها ليست كلها جماع القوى فان سويسرا لم تتألف عرضاً أو لارادة المتعاقدين المتحدين من أبنائها بل انها اجتمعت لاتفاقها فى العواطف والروح وعاملها من التقاليد المتماثلة والماضى والمجد الذى يتجسم كل حين باسم « غليوم تل » بطلها القديم

و « غليوم تل » هو أحد رجال الثورة الذين انقذوا سويسرا من ربقة النمسا سنة ١٣٠٧ م وذلك أن عامل الامبراطور النمساوى كان علق قبعة « الدوج » على رأس خشبة فى الساحة العامة فى « التورف » وأراد أن يذل السويسريين بان يسلموا على القبعة كلما مروا بها فابى أن يخضع غليوم تل لهذه المذلة فاستدعاه الوالى النمساوى ولما عرف أنه من الرماة الماهرين بالقوس والنشاب حكم عليه جزاء أبائه أن يضرب سهماً على تفاحة وضعها الوالى على رأس ابن غليوم تل فلم يسع هذا الا أن التى سهمه فأصاب التفاحة ولم يصب ابنه بسوء ولما سأله الوالى لماذا أعد سهمين فقال له الواحد للتفاحة والآخر لك وعندها نادى بالثارات سويسرا وكان بذلك خلاص البلاد من حكم النمساويين فى أوقات مختلفة كان يكتب فيها النصر للسويسريين لأنهم مدافعون لامهاجمون .

غليوم تل نصبت له التماثيل الكثيرة اليوم فى بلاد سويسرا فهو مثل غاريبالدى فى ايطاليا أحيا أمته بشجاعته ، ومن أجل هذا التاريخ المنعمن بالواقع لا ترى السويسريين سواء كانوا ممن يتكلمون الألمانية وهم الأكثرية أو الافرنسية أو الايطالية أو الرومانشية تحدثهم نفوسهم ان ينضموا الى أبناء جنسهم بل انك ترى السويسرى وأبناءه وأحفاده وأحفاد أحفاده تغربوا فى ايطاليا وألمانيا والنمسا وفرنسا قرنا وأكثر ولا يزالون محافظين على تابعيتهم . وقد عرض مرة على أحد علمائهم « ادوار وود » وكان باريزيا فى موطنه فقط . وسويسريا بجنسيته أن يتجنس بالجنسية الفرنسوية لينتخب عضواً فى المجمع العلمى مجمع الأربعين المخلدين

.

فقال والسذاجة خالطة من كلامه : انى أحب فرنسا وأسكن باريز . ولكننى سويسرى مات والدى ووالدتى فى سويسرا وأنا لا أكون فى المجمع المدنى .
هذه هى الوطنية السويسرية متأصلة فى شغاف القلوب ، ولكنها ساذجة لا تتعمد الصياح ولا التظاهر ولا تجد داعياً للتبجح بها كل حين .

وطنية السويسريين فى صدورهم مكتومة لها أعياد وحفلات ومصانع وتذكارات تذكرهم الساعة بعد الساعة بما بذل أجدادهم من اهراق دمائهم فى دفاعهم عن وطنهم وما يجب عليهم أن يقوموا به ليحفظوا هذا التراث الجميل النادر . دع ما ينشره علماؤهم وأدباؤهم من المصنفات الممتعة التى كلها ترمى الى تحبيب وطنهم اليهم وتلقن أبناءهم منذ نعومة أظفارهم التعليم الوطنى فى المدارس وتلامذة مدارسهم يتغنون فى كل شارقة وبارقة بالقصائد الحماسيه الوطنية التى نظمها الشاعر السويسرى جوست اوليفيه ، ويتلون الفترة بعد الفترة ما وصف الشاعر الكاتب اوجين رامبرت طبيعة سويسرا وجبالها وأوديتها وبحيراتها فيزيد هيامهم بأرضهم .

السويسريون لا يقنعون أن يحبوا بلادهم حباً مجرداً بل يزورونها بعناية واهتمام وعدد من يرحل منهم صيفاً وشتاء ٢٢ فى المئة من مجموع السياح القادمين الى سويسرا ينتقلون فى جبالها وأوديتها وترى العامى منهم اذا اجتاز أرضاً لم يعرفها بعد يقف فى القطار مأخوذاً بما يمر به من الأصقاع بحيث لا يفوته منها جميل واذا ذهبت الى القرى أتاك بعض أهلها بدون طلب منك وحدثوك عما تجب زيارته من المحال البديعة فى جوارهم . فالسويسريون معجبون ببلادهم وحق لهم العجب وربما كانوا أكثر الأمم المجاورة فى طربهم بما خصت به جبال الألب من المحاسن التى تخلب الألباب .

اشتهر السويسريون منذ عهد غليوم تل انهم فى مقدمة الرماة فى أوربا لأن بلادهم تستلزم ذلك ولا تكون حربها بالنظر لجبالها الامناوشة وكميناً فترى فى كل قرية جمعية للرمى وتقام له الأعياد . وكل سويسرى فى سن العسكرية فلاحاً

كان أو ساكن المدينة يسرب مع رفقته يوم الأحد ساعات طويلة فى التدرب على الرماية وفى كل بيت بندقية أو عدة بنادق لشبان سويسرا يعدونها ليدفعوا بها عن أنفسهم وبلادهم كأنهم لا يزالون فى عهد الاقطاعات يكلف فيها كل واحد بحماية نفسه وأسرته ولكن هذا شأن الامة المسلحة بسلاحين سلاح القوة المادية وسلاح القوة المعنوية العلمية التى لم تكن فى القرون الوسطى .

ضباطهم يخرجون من الجيش مباشرة ثم يتعلمون التعليم الحربى وأكثره عملى فى الغالب وهم فى الاكثر من أبناء الفلاحين يعاشرون الافراد ويواكلونهم وطعام الجنود من أحسن مايعهدوهم مطابخ تنتقل معهم فى المناورات فتراهم فى كل وقت يتناولون الطعام الصحى الفاخر الذى لايوجد الا فى المدن وفى حال التوطن والرفاهية وجنديهم يقبض كل يوم ٨٠ سنتيما فى المشاة وفرنكا فى الفرسان وهو أحسن راتب يقبضه جندى فى جميع أمم أوربا لان هذه عجزت عن اطعامهم والباسهم لكثرتهم بدون فائدة دع أدرار النفقة عليهم ولا يبتعد عن أهله من الجند الا من دخل فى جيش الفرسان فالسويسرى سعيد فى كل حال من أحواله مرتب فى حله وترحاله ممتع باستقلاله ناهض فى عامة أعماله ولذلك لاتراه يشكو شيئاً على نحو مايشكو ابن البلاد الراقية الاخرى الذى يرزح تحت أثقال المغارم والمظالم لينفق على بحريته وبريته . قال لى كثيرون نحن سعداء فى بلادنا فكنت أقول لهم بارك الله بسعادتكم التى أحرزتموها بجدكم ورزق شرقنا المسكين بعض ماأنتم فيه انه كريم جواد

سويسرا : المذاهب والقوميات واللغات

٦٠

الدين واللسان من جملة المظاهر المهمة التى تدل على روح شعب وقد كان لهما فى الارض السويسرية بفضل التسامح والاتحاد ومراعاة حرية الغير مشاكل فى

الماضى ولـكنها اليوم قد انحلت صعوباتها وتعبـدت عقباتها وكان الدين ثم اللسان شعار الوطن الاصغر ثم امتزج أهل كل دين وأهل كل لسان امتزاجاً فى البلاد فلم ينشأ فى سويسرا مشاكل تذكر كما نشأ فى بعض البلاد التى تنازعتها البرتستانتية والكاثوليكية أو الارثوذكسية والاسرائيلية أو مذاهب أهل السـنة والشيعة فى الاسلام .

المذهبان السائدان فى سويسرا هما البرتستانتية والكاثوليكية ولما انتشر المذهب البرتستانتى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر على يد دعاة من أبناء البـلاد أخذت كل مقاطعة تجعل مذهبها رسمياً واجبارياً وتدعو اليه فى أرضها وتحتم على الاهلين حضور الصلاة به وان كانوا لاينتحلون هذا المذهب . وهو شيء من الشدة نشأ للسويسريين بانتشار المذهب البرتستانتى ثم أخذت المدنية تعدل من شدته والبرتستانت أكثر عدداً من الكاثوليك بقليل .

قال دوزا : اذا كان الدين يؤثر أحياناً أثراً ظاهراً فى روح أمة فان الشعب يكيف الدين على صورته مع توالى الأيام والامر الثانى ظاهر فى سويسرا وان لم تكن تخلو من الاول ولا جـدال بان المقاطعات الكاثوليكية بمجموعها أكثر انحطاطاً من المقاطعات البرتستانتية والانحاء الاقل نظافة هى كاثوليكية أيضاً والمقاطعات الكاثوليكية هى التى احتفظت بالاكثر بلهجاتها وان فكر حرية البحث الذى دعت اليه البرتستانتية قد أثمر واينع فان التعليم العام فى البـلاد البرتستانتية أكثر انتشاراً ممـا هو فى غيرها وأفكار التسامح مقبولة فيها بسرعة ورجال المذهب البرتستانتى قلما يعنون بالسياسة . وليست هذه الفروق مهمة فان تأثير عقل الامة فى المذهبين هو أشد ظهوراً .

السويسرى متدين حق التدين ولكن دينه فى قلبـه وهو لايحفل على الجملة بالظواهر ولذلك ناسبت البرتستانتية مزاجه وللقيام بالفروض الدينيـة منزلة من حياة السويسرى المنظمة كما للاعمال الدنيوية كذلك فتراه يذهب صباح الاحد الى الـكنيسة كما يذهب في المساء الي القهوة بكل رزانة وتماسك أوكما يذهب الى

عمله خلال أيام الاسبوع . والرجال والنساء يحضرون في القرى والمدن في البيع لسماع القداديس أو المواعظ وربما كان النساء أكثر عدداً في الكنائس الكاثوليكية كما لحظت من الحضور في بعض كنائس لوزان الكبرى ولكن الكنيسة البرتستانتية مع هذا تغص بالمستمعين والعابدين الراكعين وكلهم يستمعون باحترام لما يلقى عليهم من المواعظ .

ذكرت الفروض الواجبة نحو الخالق في جميع البرامج المدرسية ومعظم المدارس تقيم الصلوات وليس لرجال المذهب البرتستانتي في سويسرا ارتباط بسلطة خارجية وكذلك أهل المذهب الكاثوليكي ليس لهم أساقفة ورؤساء عظام بل ان كل واحد مرتبط بالمقام البابوي ارتباطاً خفيفاً لا يشبه ارتباط سائر البلاد الكاثوليكية في أوربا وأميركا وآسيا وأفريقية مثلا فالسويسريين غلاة في حب الاستقلال في كل شيء حتى ان رهبانهم وقساوستهم يلبسون لباساً يخالف البسة غيرهم في الامم الاخرى . وترى الكل متشابهين متقاربين مما يذكر ان سويسرا كانت في القرون الوسطى مهد التسامح وان وقع لها في القرن التاسع عشر ان نشبت فيها حرب دينية من أجل القانون الذى وافقت عليه الاكثرية بنفي الرهبنات من سويسرا في حين لم تنشب في أوربا حرية دينية في ذاك القرن ومع ذلك تجد جنيف برتستانتيتها وفريبورغ كذلك في تمسكها بكثلكتها كانهما رومية بكثلكتها ولم تمض على هذه الحرب خمس وعشرون سنة بفضل تلقين المدارس فكر التسامح حتى أصبحت سويسرا أكثر بلاد أوربا تعلقاً بحرية الوجدان والعبادة على صورة منظمة حرة لا مثيل لها .

اعتبرت سويسرا حتى اليوم الكنيسة ادارة من ادارات الحكومة هذا مع أن الحياة الدينية فيها مادة من مواد الحياة العامة فجعلت الاديان تحت سلطة الحكومة مثل المصارف والسكك الحديدية ولكل مقاطعة قانونها الاكليركى الذى تنظر فيه السلطة التشريعية وتقر عليه أو تعدل منه مطلقة الحرية تحت بعض شروط يقتضيها الدستور السويسري من مثل حرية الوجدان وحرية التدين

وغير ذلك ورؤساء الدين بحسب المقاطعة برتستانتاً كانوا أم كاثوليكا تدفع لهم الحكومة رواتب تستوفيها من أهل هذا المذهب وللحكومة حق التدخل فى مسائل العبادة والطقوس واذا أرادت فيكون القول الفصل في بعض المسائل لمجلس الامة . وتدخل الكنيسة البرتستانتية فى أعمال الحكومة غير محسوس فى سويسرا الالمانية البرتستانتية مثل ماهو فى سويسرا الكاثوليكية الفرنسوية وغيرها

وبعد حرب سوندربوند اتهم اليسوعيون بأنهم أوقدوا الفتنة الدينية فى البلاد السويسرية فطردوا منها وقد حظر عليهم دستور سنة ١٧٤٨ الدخول الى سويسرا بيد أنهم دخلوا فى الحقيقة الى فريبورغ بعد عشر سنين . ومدرسة اللاهوت فى هذه المدينة يديرها الدومنيكيون فى الظاهر ولكنها بيد اليسوعيين فى الواقع ولاهوتها هو اللاهوت اليسوعى دع من هناك من الرهبان الذين طردوا من فرنسا وجاؤوا فريبورغ وغيرها من بلاد الكثلكة السويسرية يعلمون ويعظون . ولمعظم الكليات السويسرية صفة دينية ظاهرة عليها فاذا كانت كلية فريبورغ كاثوليكية محضة فكلية لوزان وكلية جنيف برتستانتيتان

هذا أجمال ما يقال فى المذاهب فى هذه البلاد أما القوميات أو الجنسيات أو العناصر المتألفة منها فان نصف سويسرا روماني او لاتيني والنصف الآخر جرماني وربما كان العراك بين هذين العنصرين على صورة لم يعرف بها في بلد آخر فى أوربا منذ أوائل القرون الوسطى فقد اختلط العنصر اللاتيني بالجرماني وعلى العكس اختلاطاً كبيراً ومن السويسريين الفرنسويين من تألمنوا أى أصبحوا ألماناً بلسانهم على طول الزمن ومن الالمانيين من تفرنسوا ويكاد لا يتجاوز اللاتينيون أى الفرنسيس والطليان والرومانش فى سويسرا مليوناً ومائتى ألف وبقية الاربعة ملايين هم المان عاشوا حتى اليوم بحرية تامة فى استعمال السنتهم بفضل استقلال المقاطعات وعدم المركزية وربما كان الالمان أكثر توسعاً فى البلاد وهم الرابحون في التبسط فى ربوعها على الزمن حتى أصبح اللسان الفرنسوى خاصاً

بغرب البلاد والرومانشى بشرقها والايطالى بجنوبها والالمانى بشمالها ويقدرون عدد الالمان المهاجرين الى المقاطعات الفرنساوية بمئة ألف وعدد الفرنسيس المهاجرين الى المقاطعات الالمانية بخمسين ألفاً .

ولم تعترف الحكومة رسمياً بلغة الرومانش كما اعتبرت الالمانية والافرنسية والايطالية وكتبت معظم الاوراق الرسمية بهذه اللغات الثلاث وذلك لان المتكلمين بها قلائل ولأنها أشبه بلهجة خاصة لاأدبيات لها وأهلها يتزوجون بالالمان ويختلطون بهم وكل سنة يخف عدد المتكلمين بلسانهم . وربما كان الرومانشيون مثال مملكة أضاعت لغتها على التدريج بدون أن تضيع استقلالها أضاعت لغتها واندمجت فى غيرها على خلاف الطليان وعددهم في سويسرا اللاتينية زهاء ٢٣٠ ألفاً فانهم احتفظوا بعنصريتهم لانهم احتفظوا بلغتهم واحتفظوا بلغتهم لان لها آداباً خلافاً للرومانشية

ومسألة الألسن غريبة فى سويسرا لا تؤثر فى الامور الادارية لان حقوق الاقليـة مصونه كحقوق الاكثرية . ومن أعجب الامور ان اللسان فى سويسرا وان كان من مواد الوطنية المحليـة فليس شارة من شارات الوطنية الجامعـة . واختلاف الالسن ليس من العوائق فى ادماج السويسريين فى قالب الاخلاق المتحدة وليس فى اللسان أدنى مادة من مواد الانفصال فالسويسرى الفرنساوى فى مقاطعتى الفوونوشاتل لا يريد أن يصبح فرنسوياً بتابعيته وكذلك السويسرى الايطالى لايحب بوجه من الوجوه أن ينضم الى ايطاليا ومثله المـانى مقاطعات شافوزوتوركوفى وسان غال لايريد أن ينضم الى المانيا

ولولا أحوال نادرة لصح أن يقال أن سويسرا فى جميع أدوار التاريخ قد نالت أعظم الحرية فى استعمال اللغات فى جميع الاعمال الخاصة والعامة أما اليوم فان الحرية موجودة مبدئياً ولـكن احترام حقوق الاكثرية والاقلية على أسلوب معقول تحت نظارة جمعيات تتولى النظر فى مسائل اللغات المحلية وانتشارها وتدافع عن حقوق الاكثرية ولا تغمط حقوق الاقلية فى كل بلد يسبق غيره

فى عـدد المتكلمين بلغة دون أخرى وكانت كتابة جميع الرسميات والعموميات بعدة لغات في القديم للافهام والتفهيم أما اليوم فانه يراعى بما يكتب حق السواد الاعظم

اللغة الرسمية فى كل ناحية هي لغة أكثرية السكان وبهـذه اللغة تكتب مداولات المجالس البلدية والاعمال الادارية التى تعلق ليقرأها الجمهور وبها تكتب أسماء الشوارع والمصانع ويدرس فى المدارس ويلقى الوعظ أو القداس في الكنائس ومن النواحى من اختارت برضاها التساهل مع أهل اللغة الاخرى فى بعض هـذه المسائل كأن تترك مقاطعة المدينة اللغة الافرنسية تجعل لسان التدريس فى مدرستها أو أن سكان مقاطعة رومانشيه يقدس لهم بالالمانية . وللمنتخبين فى المقاطعات المختلطة أن يتكلموا باحدى اللغتين كما يشاءون فى جميع المداولات وتكتب الاعلانات وغيرها باللغتين واذا بلغت الاقلية العدد الكافى تكون لها مدرسة بلغتها وكنيسة تعظ وتقدس بلسانها . وفى الكتابات الخاصة وعناوين الدكاكين تركت للناس حريتهم . وما يسري على الناحية يسرى على المديرية حذو القذة بالقذة أي تكون اللغة الرسمية لغة الاكثرية والاقلية لاتحرم من حق التفاهم

ويطلب الى الموظفين فى جميع المقاطعات المختلفة معرفة لغتين وتكثر فيها الاعلانات وأسماء الاماكن باللغتين ويقبل استعمال اللغتين فى المجالس وعمال السكك الحديدية يبدأون فى كل مقاطعة بلغة البلاد فى مخاطبة الركاب ثم يثنون ويثلثون اذا اقتضى الحال بغيرها وجميع القطارات تكتب عليها اللغات الثلاث إلا الايطالية فانها تنقص من بعض القطارات التى تمر قليلا فى البلاد الايطالية السويسرية وللغتين الالمانية والافرنسية المساواة التامة تكتب جميع أسماء المحطات وغيرها بهما ويجعل التقدم للغة البلدة الشائعة

وفى سويسرا سبع كليات منها مايدرس بالالمانية ومنها بالافرنسية وفى بعضها دروس مختلفة باللغتين فكلية بال التى انشئت سنة ١٤٦٠ تدرس بالالمانية وكذلك كلية زوريخ التى انشئت سنة ١٨٣٣ وكلية برن التى انشئت سنة ١٨٣٤

أما كلية جنيف التى أسست سنة ١٨٧٣ وكلية لوزان المؤسسة سنه ١٨٩٠ وكلية نوشاتل التى تمت سنة ١٩٠٩ وكليـة فريبورغ التى قامت سنة ١٨٨٩ فانها تدرس بالافرنسية وفى كلية فريبورغ عدة دروس مختلطة بين اللغتين

أعضاء مجلس الاتحاد السويسرى سبعة ومنهم رئيس الجمهورية خمسة منهم المان واثنان فرنسويان وقراراتهم تكتب باللغتين وفى سويسرا ثمانيـة فيالق اثنان فرنسويان وخمسة المان وواحد ايطالى ورومانشى ولغة التعليم فى الفيالق الأخير الالمانية والادارات الخاصة تتبع هذه القاعدة لارضاء قرائها من ذلك ان نقابة أصحاب الفنادق في سويسرا الالمانية لم ترض ان تغير أسماء قوائم الطعام من الافرنسية الى الألمانية لأن معظم الداخلين الى البلاد يفهمون الافرنسية أكثر من الألمانية حتي ان الالمان أنفسهم يفضلون أن يروا أسماء الألوان بالافرنسية لاعتقادهم بان المطبخ الفرنساوى هو خير المطابخ وألوانهم أجمل المآكل وكذلك ترى أصحاب الفنادق يصدرون جريدتهم باللغتين . كل ذلك يدل على جوهر أخلاق السويسريين وان المحافظة على حق أو على حرية ينبغى أن يكون على قدم المساواة

سويسرا بابل اللغات لان فيها على صغرها منهن أربعاً وفى النمسا سبع وفى العثمانية سبع أمهات الآن ماعـدا اللهجات ولكن سويسرا والنمسا حلتا هـذه المسألة الحل المعقول العادل فهل نوفق نحن الى حلها كذلك . والعرب هم السواد الأعظم وقد أمرنا باتباع الاكثرية وللغتهم ميزات ليست لغيرها والامم الدستورية تراعى فيها قبل كل شيء حقوق الاكثرية

سويسرا: كيف تجلب الغريب

٦١

كانت بعض البقاع فى سويسرا منـذ نحو ثلاثين سنة من أفقر بلاد أوربا بفضل ماأنشيء فيها من الفنادق وبذل من المساعي لاستجلاب رضى السياح

والمصطافين والمشتين اغتنت تلك الاصقاع وأصبحت سويسرا وجل اعتمادها على القادمين اليها من أقطار الارض حتى لقبوها « فندق أوربا » ولكن هذا اللقب وهذه الثروة التى يبذرها فيها الاجانب لم تحصلها عن عبث فان علم جلب الغرباء وامساكهم وحملهم على العودة ثانية بكمية أوفر قد أصبح فى سويسرا علماً حقيقياً له أساليبه وقوانينه واحصاآته وجرائده ومنشوراته المنوعة الظريفة وكلها متناسقة متساوقة كآلة الساعة . وقد علمت السويسريين التجارب أن السائح يستمال بست قواعد من أحسن استخدامها اغتنى وأفاد واستفاد

القاعدة الاولى : أن يزرع المرء كثيراً ليحصد أكثر فقدجعل السويسريون لنشر الاعلانات بالكلام والصور المقام الاول ماعدا إعلانات المحطات والمنشورات المصورة وغيرها من المقالات التى تدفع عليها الاجور الباهظة أحيانا فى صحف سويسرا وغيرها والمقصود منها الاعلان . وكل ادارة وكل نقابة توزع منشوراتها مجاناً وكثيراً ماتكون كبيرة الحجم يحتاج طبعها لمال كثير وعناية تامة من استجادة الورق والصور والجلود وفيها من كل شيء أطيبه بحيث تستدعى النظر اليها ولو بعد مدة وتنفق على ذلك كله نفقات هائلة ولكن الثمرات التى تعود منها قدقدرت بثلاثة أضعاف أو أربعة

القاعدة الثانية : جميع تراكيب هذه الآلة متضامنة ولا تنافس بينها . وهذه قاعدة اقتصادية مهمة وهو أن كل صاحب فندق لاتحدثه نفسه أن يحتكر جميع السياح بل يهتم لانجاح المدينة أولا ثم الناحية وأرباضها أو النجاح العام وهذا لايتم الا بالتضامن بين أبناء هذه الحرفة فيشترك مثلا جميع أرباب الفنادق في بقعة ليعملوا عملا يسر جمهور النازلين فى فنادقهم وأنزالهم ويجلبوا السرور والراحة لهم على السواء ومثل ذلك التضامن نراه على أتمه أيضاً بين الادارات والشركات المختلفة لاتحاسد بينها ولا تعاير في المصلحة وقد ألف معظم أرباب الفنادق نقابات لهم فتألفوا مديرية مديرية أولا ثم تألفت المديريات كلها نقابة واحدة آخراً فأصبحت فنادق سويسرا كالبنيان المرصوص ومثل ذلك أصبحت بعض القهاوى ومحال

السياح ومحال اعطاء التعليمات وشركات التضامن نقابات خاصة يأتون كل ذلك على شرط أن يرضى السائح ويرتاح

القاعدة الثالثة : أن تراعى حال جميع الطبقات بحيث يرضى كل سائح بالمعاملة التى يراها[(١)] وذلك لان سويسرا أدركت أن الرحلات اليوم قد أصبحت ديمقراطية أيضاً وان لمتوسط غناهم هم أكثر من الاغنياء أرباب اليسار بل هم أخلص وأشرف وعلموا بالاحصاء ان واحداً فقط فى المائة من السياح الذين يصطافون أو يشتون فى بلادهم يركب فى الدرجة الأولى فى السكك الحديدية و ٨٥ فى الدرجة الثالثة ولركاب هذه الدرجة ميزانية مقررة اذا قصدوا كثيراً فى مادياتهم لا يعاودون رؤية تلك البلاد وفى سويسرا فنادق ونزال على اختلاف أذواق الناس واقتدارهم فمن أراد الرفاهية يدفع ثمنها فى قصور هى أحسن من قصور الملوك ومن أحب التوسط كان له ما أراد وكذلك من أحب أقل من التوسط وانى لم أسمع بان انساناً يمكن فى أوربا أن يأكل ويشرب وينام بفرنكين وهذا ما أعلن عنه مؤخراً احدى البيوت التى تنزل الاضياف عليها فى لوزان

(١) أتمنى لكل عربى يريد ان يصطاف أو يشتو أو يسيح فى أوربا ان يطيل مقامه فى البلاد السويسرية اكثر من غيرها من البلدان الاوربية وان يوفر صلاته مع هذه المملكة الصغرى لانها جمعت آيات المدنية الكبرى ومن الاسف ان عدد المهاجرين من السويسريين الى البلاد الاخرى يعدل بخمسة آلاف فى السنة وليس منهم بضعة يأتون بلاد الشام مثلا ليشاهد ابناء قومى الفرق بين الاوربيين فى اخلاقهم وحسن معاملتهم . قلت يوما لرئيس جامعة لوزان اننا مع الاسف لم نشهد فى بلادنا سويسرياً منذ جئتم فى القرون الوسطى مع من جاء من الصليبيين وارسلتم مئات من شبابكم واشرافكم يقاتلونا مع من يقاتلون فقال : نعم ذهبنا اذذاك الى قطركم ولكن عدنا ممزقين آب عشرتنا واحداً فنحن لا نريد ان نعاود ما سبق لاجدادنا ولو متجرين مستعمرين لا غازين فاتحين . وقلت لاحد اساتذة جامعة جنيف ممن احسن ظنه بالاسلام والمسلمين فى كتبه ومحاضراته ان من كتبوا مثلكم بدون تحزب عنا من الاوربيين قلائل جداً فاهم يشكركم على اخلاصكم وصدقكم واكدوا ان معظم من يكتبون متأثرين بعوامل السياسة من الامم الاخرى وان ظهروا فى مظهر علمى يخالفونكم فى رأيكم فقال : هذا ما عرفته بعد البحث والسياحة والاختلاط برجالكم وفوق كل ذى علم عليم فتأمل .

القاعدة الرابعة : النظر أبداً الى راحة السائح واظهار العناية بأمره[١] فقد عنى السويسريون ان يسهلوا جميع مصاعب السفر على المسافر فيرى هذا أهم اللغات الاوربية الرئيسة يتكلم بها فى المحطات والفنادق والمخازن الخ والبريد من أسهل مايمكن وفى زهاء ١٠٧ مدينـة وبلد من سويسرا مكاتب للاستعلامات للغريب والقريب يسأل الانسان فيها عما يشاء مجاناً وقد نظمت بمعرفة الشركات المحليـة ولا عمل لعمال هـذه المكاتب الا أن يجيبوا الناس عما يسألون من الصباح الى المساء والشعب يبدى العطف على الغريب والعناية بأمره فالسويسريون اذا لم يكونوا فى رقة الطليان بالاحتفال بالغريب والأخـذ بيده فيما لا يعلم ومرافقته مئات من الأمتار أحياناً لدلالته على طريق أوغيره فهم وسط فى ذلك فان الواحد منهم يشرح لك محل مقصدك بأوضح عبارة ممكنة واذا شكرته لا يرى أنه يستحق الشكر

القاعدة الخامسة : أن يعرض كل شيء أمام السائح من دون أن يعجز بمطالب مبرمة . وذلك أنك تصل الى المحطة فلا تجد حمالا بل أنت تصرخ حمال فيجيبك

---

(١) منذ وصلت الى مودوسولا على الحدود الايطالية الى ان خرجت من سويسرا عن طريق جنيف لم اشهد نقداً يصح ان يوجه الى احد أو الى ادارة سوى اللين والاطف بالغريب . واذكر انى ركبت القطار السريع من ميلانو وقت العصر وسألت مأمور المحطة متى يصل القطار الى لوزان فاجابنى فى الساعة الحادية عشرة ليلاً فجلست فى المركبة وحدى وكان عدد الركاب قليلاً فبقيت فريداً في الدرجة الثانية وليس لهذا القطار السريع سوى درجتين اولى وثانية كما هى معظم القطارات السريعة فى اوربا فلما قارب نصف الليل سألت مأمور القطار عن وقت وصولنا الى لوزان فقال لقد قطعناها اما رأيت كيف وقفنا بها بضع دقائق قبل الحادية عشرة فقلت سامح الله المأمور الايطالى فقد قصر فى بيان ساعة الوصول بالضبط فقال لا بأس من ذلك فانك تنزل فى فالورب وتنام هناك وانت هل كان احد فى انتظارك على المحطة فى لوزان قلت الآن لا . قال : اذا أتيت فى فالورب وفيها نزلان ومن الغد تعود الى لوزان وانا لا ادفعك اجرة عن المسافة التى ركبتها فوق تذكرتك لان ماجرى ليس من صنعك ثم انزلنى من القطار لما وصلنا الى فالورب وحمل لى أحد الصندوقين اللذين كانا معى وحملت انا الآخر فابقيناهما فى محل الامانات في المحطة وخرج معى ودلنى على سمت الفندقين وسمى لى اسمهما وخيرنى بين احدهما ولما شكرته قال لي هذا بعض مايجب فانظر بالله عليك الى هـذه الاخلاق التى قلما تراها من خادمك دع من ليس بينك وبينه صلة ولا يعرفك ولا تعرفه وليس هو بمكلف ان يضيع وقته معك على هذه الصورة فى مثل ذاك الوقت والبرد قارس للغاية

ولا تجد عاملا من عمال الفنادق بل تجد لوحةموضوعة فى مخرج المحطة فيها أسماء الفنادق فى البلدة على اختلاف درجاتها ولا تجد حوذيا يريد أن يركبك فى مركبته ولا سائقاً يريد أن يستاقك فى سيارته بل اذا أنت طلبت واحداً منهم أتاك سريعاً بادب . أما وجود الشحاذين الذين يطلبون صدقة كما تشاهد فى ايطاليا فهذا لا أثر له لأن الشحاذة ممنوعة هنا أكثر من فرنسا ولا تجد أحداً يتعرض لك لابتياع شىء منه وتحسين بضاعته بل تراها على اختلاف أنواعها معروضة فى الزجاج وقد كتبت عليها أسعارها وهذه أخصر طريقة وأشرفها فى قاعدة العرض والطلب وهكذا بائع المرطبات والمشروبات يكتب عليها أسعارها ويجلس فى المحطات بحيث تراه ولا يسألك شيئاً .

القاعدةالسادسة : أرضاء جميع الاذواق والحاجات حتى الغريب منها واجتناب مايكدر واذا وقع خلاف فيراعى ذوق الاكثرية . ولاجل استمالة قلوب السياح عنى السويسريون بحسن الانتفاع من بلادهم من كل وجه وضاعفوا المسليات والمفرحات فتقرأ فى نشراتهم التى يستولون بها على عقل الغريب مايشير الى أن فى بقعتهم مايرضى جميع المشارب والامزجة من أرباب الصفاء الى طلاب الخلاء الى المولعين بالالعاب الرياضية الى الراغبين فى التصعيد فى جبال الالب الى من يريدون التسلى الى من يرغبون فى التعليم الى من يؤثرون الوحدة الى المصورين والطبيعيين والأثريين وكل واحد يخاطبونه بما يشتهي ويدلونه على مايهمه

نعم وفروا الراحة لجميع الأذواق وقاموا بما يرضى الأرواح والاشباح فترى أوقات الأطباء معينة مذكوراً الى جانبها أوقات القداديس والمواعظ وعنوان الطبيب مع عنوان الكاهن أو الواعظ . ولا يأتون ماتشمئز منه نفس السائح حتى ان دفن الموتى لايجرى فى أوقات الصيف الا قبل الشمس حتى لايقع نظر السائح على ماربما تشمئز منه نفسه فيذكر الموت فى بلاد لايجب أن يكون فيها الا الصفاء والرخاء

وكثير من هذه الأعمال تقوم بها شركات لأن فكر الاشتراك منتشر للغاية عند السويسريين فمن شركاتهم شركة المنتدى الأدبى السويسرى وهذه عنيت

بتربية الأدلة وتعليمهم ليصعدوا مع السياح في جبال الألب وقد فتحت لتعليمهم ثلاث مدارس فى أهم البلاد الجبلية وضمنت لهم حياتهم بمبلغ يربو على ثلاثة مليارات وربع من الفرنكات وعددهم نحو ٩٠٠ يدفع لهم المنتدى فى السنة نحو نصف التقاسيط وهناك شركات لاتحصى فى كل مديرية لتحبيب البلاد الى الأمم ونشر ماينبغى عنها من ماالهم و بما أعان بعضها المجالس البلدية على تحسين حالة البلد أو القرية اذا كان هناك نقص يجب تداركه لاستجلاب رضا الغريب فكان من أثر هذه الجمعيات تكثير سواد القادمين على السويسريين سنة عن سنة .

والحكومة لم تدخر وسعاً فى هذا السبيل فبذلت الأموال عن سعة فى المدن والدساكر فتحت الشوارع الجميلة وجات الأرض وعبدت الأرصفة الفسيحة وأنشأت المتنزهات الظليلة والحدائق العامة وأقامت فيها المقاعد الكثيرة ليجلس عليها من أحب وأدخلت الكهرباء الى كل مكان وكذلك التلفون والمياه الطاهرة النقية وأقيمت القهاوى المهمة فى جميع المحال التى يلحظ أن المسافر يقصدها

وقد أعد السويسريون جميع الألعاب الرياضية التى يحبها الانكليز كالتينس والفوت بول وغيرها دع أيام الشتاء التزحلق والتدحرج فى الثلج (لالوج والسكى والباتناج) . عاداة أولع الغربيون بها تقليداً للانكليز وكل سنة يموت فى خلالها من المرتاضين المئة والمئتان ومع هذا ترى النساء والرجال يرتاضون هذه الرياضة الخطرة ويزيد عددهم سنة عن أخرى . وبذلك كثر ترداد الناس الى سويسرا فى الشتاء ولا سيما الانكليز والاميركان . ويقدر عدد من يقصد سويسرا كل سنة بزهاء مليونى نسمة فاذا فرض ان كل واحد ينفق عشرين ليرة فيكون المجموع أربعين مليوناً تأخذها سويسرا فى أشهر معدودة من السنة من الالمانى والانكليزى والروسى والنمساوى والمجرى والفرنساوى والايطالى والاسبانيولى والبرتقالى واليونانى والمصرى والهولاندى والاميركانى والبلجيكى والسكاندينافى وغيره وللألمان المقام الأول فى كثرة العدد وهم يؤثرون النزول فى البيوت لرخص العيش فيها

ويقدرون عدد الفنادق الكبيرة بزهاء ألفي فندق في سويسرا كلها من الطراز الاول والثاني أما الفنادق البسيطة والبيوت فهذه أكثر من أن تعدوماوصلت هذه الصناعة في إقراء الضيوف الى هذا الحد من الارتقاء الا بالثبات والعمل والتفنن والعلم حتى أصبح السويسري معلماً للامم في صناعة الفنادق وكثير من مدن أوربا وحماماتها المعدنية ومتنزهاتها البحرية بيد أناس من السويسريين . ويقدرون عدد السرر الموجودة على الدوام في هذه الفنادق بنحو مئة وثلاثين ألف سرير وعشرة آلاف سرير احتياطية

وما برحت شركة الفنادق السويسرية منذ أسست سنة ١٨٨٢ وهي تتفنن في خدمة الفنادق والانزال واستجلاب أنظار العالم المتمدن ولها جريدتان لبث أفكارها توزعها مجاناً دع المنشورات والكراسات والكتب التي لا تقصر في توزيعها ومما أنشأته مدرسة لتعليم صناعة الفنادق يتعلم فيها مدير الفندق تعليما على أسلوب معقول وذلك لان ضرورة المباراة وحاجات الزبن وصعوبة الحياة الحديثة تجعل صناعته مشكلة يوما بعد آخر ولذلك أحدثوا مدرسة داخلية في ضواحي لوزان واسعة الاطراف مطلة على البحيرة وفيها محال للالعاب الرياضية وجعلتها داخلية وشددت قانونها فقضت بان ينام طلبتها في الساعة العاشرة وتطفأ المصابيح ويمتنع فيها جميع أنواع اللعب بالورق والقمار ومنعت التدخين والخروج بدون رخصة وان يذهب الواحد إلى غرفته حتى في النهار بدون ترخيص وأن يختلف الى الاماكن العامة وأجرة المدرسة أوثمن الاكل فيها فقط ١٢٠ فرنكا في الشهر لابن سويسرا و ١٥٠ للغريب ومدة الدراسة ثمانية أشهر ويسأل فيها الطالب في الاكثر في اللغات الحية ويجب أن تكون سنه من ١٦ الى ١٨ وتدرس في هذه المدرسة الفرنسوية والانكليزية والالمانية والايطالية والحساب والجغرافيا (الجغرافية العامة وجغرافيا طرق المواصلات) وتاريخ سويسرا والتعليم الوطني وحسن الخط والحساب (أصول معاملة الفنادق والمعاملات التجارية على أصول الدفاتر) ومعرفة الحاصلات ونظريات

فى الخدمة ودروس فى التنظيم وحسن الهندام وتقديم الطعام وحفظ الصحة والرياضة البدنية والالعاب والرقص . وبعد أن ظهرت فوائد هذه المدرسة أنشئت عدة مدارس في سويسرا كلها للوفاء بهذا الغرض ولكن الظاهر أن مدرسة لوزان أرقاها

وأنشأت شركة الفنادق تعلم أناساً فن الطبخ وعهدت الى خبراء يمتحنون من يريد الدخول فى هذه الصناعة بعد أن ينال شهادة منهم بتقدمه فيها . ويقدرون رؤوس الاموال التى وضعتها الفنادق بنحو ثمانمائة مايون فرنك ومابرحت على ازدياد وأرباحها كذلك في اعتدال لان السويسرى يرضى بالربح القليل جرياً على ماتستلزمه القاعدة الاقتصادية . وتختلف أجور الفنادق فمنها مايدفع فيه الواحد فى اليوم مائتى فرنك ومنها مايأكل فيــه وينام كل يوم بأربعة فرنكات وكل على حسبه ويقدرون عدد المستخدمين فى الفنادق بزهاء خمسة وثلاثين ألفاً معظمهم من النساء وفيهم الغرباء يدفع اليهم ١٦ مليون فرنك عـدا الحلاوين التى تقدر بثلاثة أضعاف هذا المبلغ ومن الصعب تقدير ماتربحه البلاد كلها من السياح والمعروف ان أرباحها من ذلك تجيء بعد أرباحها من صـناعة الحرير والتطريز والساعات اللهم الا اذا حسب من ينتفعون من الغريب بالواسطة فان أرباح السياح يكون لها المنزلة الأولى وبها اغتنت سويسرا بعد ان كانت فقيرة .

طول الخطوط الحديدية فى سويسرا نحو خمسة آلاف كيلو مترای ١٢ كيلومترا فى كل عشرة آلاف متر مربع وقدر بـ ٩٥ مليوناً عدد من ينتقلون كل سنة على خطوطها ولهـا طريقة جميلة فى اعطاء أوراق اشـتراك فيدفع الواحد ٤٥ فرنكا يأخذ بها ورقة فى الدرجة الثالثة يركب بها أى قطار أحب مدة خمسة عشر يوماً ويدفع ٦٥ فى الدرجة الثانية و٩٠ للدرجة الأولى . هذا عدا الخطوط الكهربائية والخطوط الحديدية الجبلية والحوافل . ولسويسرا ١٢٠ سفينة تجارية فى ١٧ بحيرة كبرى من بحيراتها تغدو وتروح فى نقل الركاب تنقل زهاء ثمانية ملايين راكب فى السنة وهى دائمـاً تنتظر القطارات والقطارات تنتظرها . والبرد متصلة علائقها

مع السكك الحديدية وفيها جميع أنواع الراحة للغريب ومراكز البرد وصناديقها كثيرة حتى لقد ذكرت احدى الصحف مؤخراً مامثاله : ينم عن ارتقاء الشعب كثرة مواصلاته البريدية وكثرة مايبتاعه من الصابون وقد امتازت الدانيمرك بكثرة بردها فان لكل ٢٣٤ ساكناً فيها صندوق بريد وفى سويسرا لكل ٢٨٦ نسمة صندوق ولكل ٣٢٠ فى لوكسمبرغ صندوق ولكل ٤٢٤ المانيا صندوق ولكل ٤٧٢ فرنساويا صندوق ثم تجيء النمسا فانكلترا فالبرتقال أما العثمانية فقد أحرزت الدرجة الأخيرة اذ ليس عندها غير صندوق واحد لكل ٦٩،٣٠٠ عثمانى ! هذا بعض ماعرفته عن سويسرا وما يأتيه الافراد والحكومة لجلب السياح اليها حتى أصبحت فندق أوربا حقاً وصدقا

سويسرا : تفننها فى الاعلانات

٦٢

لاترى فى مدينة سويسرا نقصا فى فرع من فروعها وعمل من أعمالها فكل مخزن وكل دكان وكل ادارة وكل معمل وكل شارع وكل حى وكل دار وكل منزل صغير وكل دائرة وكل مدرسة بل وكل مستراح وكل شيء كتب عليه اسمه وعمله وما يجب للداخل اليه والمعاملة معه بحيث لايحتاج الانسان أن يسأل أحداً وربما اذا ترويت قليلا بالنظر لوضوح هذه الكتابات تطوف سويسرا كلها وقلما تطلب من يدلك على من تقصده اذا كانت نمرة محله واسم شارعه فى جيبك . خاصية غريبة قلما تجد مثلها حتى فى كثير من البلدان الراقية . بل قد كتب على الأبواب الخاصة والعامة «ادفع» أو «اقفل» وكتب على المراحيض «ارفع» او «اخفض» لتطهير المكان وكتب على بلاس الباب « الرجاء مسح رجليك » وكتب فى المدارس

« اياك وادخال عصاك أومظلتك الى الداخل » وكتب على الصور والتماثيل «ممنوع مس شيء » وكتب على صناديق البريد « تفتح ساعة كذا ودقيقة كذا » ولو أردنا تعداد مثل ذلك لطال بنا المطال وسئم القراء تفاصيل لم يسمعوا بها ولا تخطر لهم ولا في عالم الخيال .

ومن يظن أن في دور البريد صناديق تدفع اليها ثمن الطابع كما هو في بعض بلاد أوربا الراقية فينزل اليك فتلصقه على كتابك وفي صناديق البيوت التي تعلق في دهليز الدار وتكون هـذه مؤلفة على الاكثر من خمس أو ست طبقات كل طبقة شقتان أومسكنان فيجيء الساعي ويضع كتب كل منزل وجرائده في صندوقه حتى اذا وضعها يطن جرس من داخـل الصندوق فيسمع أهـل المنزل فينزلون ويأخذون بريدهم كل ذلك تخفيفا على الناس من الحركة بدون لزوم وفي المخازن والمحال العامـة صناديق للقبض والصرف لا تغلط في العد والحساب وتحصي على العامل ماأباعه في يومه

ذكرنا هذا وان كان بعضه لا يدخل في باب الاعلان الذي هو المقصود بهذه الجملة فقد بلغ التفنن بالاعلان في الغرب حداً من الارتقاء لا يكاد يوصف وأظن سويسرا ان لم تكن أرقى الغربيين في التفنن باعلاناتها فهي من أرقاهم بلا جدال وكفاها فخراً انها لولا الاعلان عن بلادها ماستطاعت أن يكون لها هـذا الغنى الدثر والسعادة الشاملة فعرفت الناس بقدر بلادها وجمال أصقاعها وربما أفرطت في ذلك أحيانا لمقتضى الوصف الشعري ولقد اطلعت على كثير من الكراسات التي توزعها مكاتب الاستعلامات مجاناً على طالبيها فما رأيت أكثر من مهارتهـم في ايجاد المزايا لكل مدينة ولكل قرية ولكل طريق ولكل غابة في أرض سويسرا

وكل شيء هنا بالاعلانات اذا لم تقرأ صحفها لا تهتدي الى ماتريد ابتياعه أو عمله وقد يكون لها جرائد خاصة بها اسمها جريدة اعلانات مقاطعة كذا ومنها مايطبع الثلاثين والأربعين ألفاً في اليوم لا تكاد تخلو منها دار واشتراكها عشرة فرنكات في السنة تصدر في ثماني أو عشر ورقات من حجم جريدة المقتبس وكلها اعلانات

الا الصفحة الأخيرة أو الصفحتان الآخريان ففيهما حوادث ونكات قد يكتفى الواحد بهما للوقوف على حركة بلاده على الأقل . وكل جريدة مرتبطة مع شركة اعلانات تبتاع منها قدراً معيناً من الصحيفة وهى تفتش لها على اعلانات تناسب سعة انتشارها ومكانتها . كنت أتلهى فى الاحايين بقراءة بعض الاعلانات فى الصحف لاعرف منها روح الشعب وحركة تجارته وعمله فكنت أستغرب فى الضحك عند ماأقرأ السذاجة تغلب على اعلاناتهم والتفنن فيها آخذاً مأخذه من الشيقة والعناية

فمنهم من يعلن عن ١٠٠ كيلو من الجبن من جنس كذا بثمن كذا ومنهم من يقول ان عنده رأسين من البقر عمرها كذا وهما يصلحان للذبح ومنهم من يقول يحب ان يبيع خمس نعاج عجفاء وآخر عشرين رأساً من الغنم وبعضهم يعلن عن لبنه وآخر عن زبدته وآخر عن بيع عربته أودراجته أودناره أو صندوقه أو ثيابه وآخر عن خنزيره الذى علفه وغيره عن حذائه الذى ماأتلفه . وتجد آخر يعلن عن رفشه وبعضهم عن عفشه وآخر عن خزانته وبعضهم عن سريره وبعضهم عن آلة موسيقاه أو محراثه أو منكاشه أو مجرفته أو حصادته وعصارته ومذراته وآلة تصويره وآلة خياطته وآلة حياكته وآخر عن كلبه والصدق يغلب عليهم فى اعلانهم عن متاعهم وآنيتهم وأدواتهم

أما التفنن فى الاعلان عن الاستخدام وطلب عمل فى مخزن أو حقل أوادارة أو منزل ذكورا كانوا أم أناثا صغاراً أم كباراً فهذا مما بلغ الغاية التى لم يبق وراءها وراء فكل طالب وكل طالبة يضع شروطه ومزاياه وعمله وربما الأجرة التى يريدها باخصر عبارة تستهوى القارىء وتستدعى الراغب فيه الى مفاوضته ومخابرته على أسرع مايمكن وكل يوم تقرأ اعلانات كثيرة فى طلب حالب بقرات تبلغ عدد كذا فى محل كذا باجرة كذا ومستخدم لمخزن يعرف كذا وطاهية تحسن ادارة بيت فيه كذا من الأنفس وبواب لمحل كذا وسائس باجرة كذا وحوذى وسائق وراع كذلك وحراث ومجلد ووراق وسكاف ومطرزة وعاملة فى معمل الى غير ذلك

من الأساليب التى لم يسمع بها الشرق وهى من اختراع الغرب لأن الاعلان نشأ فيها ومنه نشأت الجرائد

الاعـلان عن الحاجيات والـكماليات لطيف ونافع ولـكن ما كان يظن أن الغربيين اذا أعلنوا عن بيع كذا وايجار كذا وعمل كذا انهم يتزوجون بالاعلانات ويستمتعون بالاعلانات أيضاً تساوى فى طلب ذلك الرجال والنساء لأنهم يعتبرون الزواج وما يشبهه من الحاجات الطبيعية التى لا عيب فيها وغاية الأمر انهم يعلنون عن ذلك بدون تسمية اسم الطالب والطالبة . وهذه الطريقة كانت البادئة بها فيما أظن جريدة «الجورنال» البارزية ثم تبعتها على الأثر جرائد العالم وكان للسويسريين حظ وافر منها وان كان عدد الطالبين والطالبات أقل من عددهم فى باريز

وذلك بأن يطلب أحدهم خادمة تستخدم لـكل شيء باجرة كذا على أن تقوم بعمل كذا وان يكون عمرها كذا من السنين أو ان الخادمة تطلب ذلك ولا تتوقف عن أن تصف صفاتها وجمالها وسنها وتصف رزانتها ووقارها . اكتب هذا وامامى صحيفة اعلانات لوزان وفيها كثير من هذا القبيل منها ان امرأة اسرائيلية تريد التعرف الى زوج عمره بين الخامسة والعشرين والثلاثين وان تكون له ثروة ثم وصفت عمرها وما تملكه . ومنها ان عقائل واوانس يردن أن يتعرفن الى خواجات تكون لهـم مراكز طيبة ومنها ان شابا فى الثالثة والثلاثين لا يتناول المسكرات حسن الخلقة والخلق من كل وجه له منصب حسن فى الارياف يريد أن يتعرف الى فتاة فى الخامسة والعشرين الى الثـلاثين ويؤثر أن تكون مسيحية ومعودة النظام ويقبـل بأن تكون حاملة شيئاً من النقود وانه رزين لا يفشى سراً واذا أرسلت اليه الصورة الفوتوغرافيـة يعيدها في الحال والرجاء ان يكتب فى ذلك بنمرة كذا لادارة جريدة لوزان

والقوم هنا لا يكتفون بتعليق اعلاناتهم على الحوائط والمركبات فى السكك الحديدية والـكهربائية وعجلات النقل وفى الصحف والمنشورات والكراسات وعلى الأبواب والنوافذ ورؤوس الأبنيـة بل ان التاجر يعلن عن محله حتى فى الورق

الذى يصر لك به قيصاً أو بدلة أو كتاباً أوحذاء أو منديلا أوورقاً أوأى شيء تبتاعه بل ان الخيط الذى يربط به الاضبارة أو الرزمة قد كتب عليه اسم محله وغرته وما فيه وهكذا فى جميع مايخطر ببال

وتعتقد جميع المحال التجارية والشركات الصناعية والمدارس وغيرها انها اذا لم تكثر من الاعلان عنها يتناساها الناس وتقل أرباحها وهذه لوزان لولا ماتفنن أهلها في الاعلان ماأصبحت عاصمةالعلم فيسويسرا الفرنساوية وبلغ طلبة كليتها ألفاً وأربعمائة منهم نحو ألف غريب من غير السويسريين وهكذا المدارس الخاصة التى يعيش بالعلم فيها أناس لايستقل بعددهم ومنها مايدرس فن تدبير المنزل وآخر الفنون الجميلة وغيرها التجارة وبعضها اللغات وبعضها الالعاب الرياضية الى آخر ماتفننوا فيه فجاء الغريب يستفيد منه فكان للوزان فصلان فصل الصيف يكثر فيه السائحون للنزهة وفصل الشتاء يكون خاصاً بالطلاب والمتعلمين ويستفيد من ذلك أهل البلاد مئات الألوف من الايرات

وبلغ من تفنن القوم بالاعلانات ان أحدهم ألف كتاباً فيفن الطبخ فكسد كساد بضاعة العلم فى بلاد العرب ففكر فلم يجد أحسن من أن يعلن أن الفتاة التى تراجعه مرسلة اليه ثلاثة فرنكات يقدم لها خير نصيحة قبل زواجها تكفيها غوائل الدهر وحوادث الايام فكان يبعث لكل مرسلة بالمبلغ المطلوب بنسخة من كتابه ويقول لها تعلمى هذا فباع من كتابه ثلاثة آلاف نسخة . وكتب بعضهم اذا أردت أن تغتنى فاعمل عملي وأنا لاأعلمك ماعملت الا اذا بعثت بكذا فرنك حوالة . فكان جواب هذا الشاطر لمن طلب اليه النصيحة أن يقول له اعمل عملى فتغتنى لامحالة أى اكتب فى اعلانك كما كتبت وهناك المال يفيض عليك

ولكن هذه الطرق نادرة جداً والصدق هو الغالب على الاعلانات كما قلنا ولذلك اعتمد الناس عليها وزادت عنايتهم بأمرها وأسست لها البيوت والشركات

المهمة التي تدخلها فتظن نفسك في مصرف كبير أو معمل خطير . والاعلانات مادة الصحف في الغرب وكثير من أمهات جرائدها لا تصدر يوماً واحداً لولا الاعلانات لأن ماتأخذه من القراء والمشتركين لا يبلغ ثمن الورق مع أنها تطبع بمئات الالوف فتأمل ياتاجر بلادنا

سويسرا : التربية العملية

٦٣

من أعظم أسرار امتياز الغربي عن الشرقي ان الفرد عندهم يعيش بنفسه لنفسه ونحن نتكل في عيشنا في الاغاب على الوالد والوالدة والقريب والحكومة ويقل جداً فيهم من اغتنى من غير المذاهب الطبيعية في المعاش من صناعة وزراعة وتجارة وأقل منه فتى أو فتاة في مقتبل العمر تقعد به همته عن اتخاذ أسباب الكسب انتظاراً لارث ربما يورثه اياه أبوه أو أمه أو لوظيفة تليق بعظمته يتناول راتبها الباهظ بعمل ضئيل قليل

حالة تدهش في الغرب من عيش الاستقلال ونحن حالنا على ماتعهد من عيش الاتكال الذي انقص عدد العاملين والعاملات وقذف بنا من حالق مجد وسعة الى دركات ذلة وفاقة . كلما ذكرنا وأيم الحق ان في دمشق نحو ثلاثة عشر ألف شحاذ أكثرهم أصحاء أقوياء نقضي العجب من حالنا ونسجل بأننا سواء وحكومتنا في هذا النوم أو التناوم عن السعي في مداواة أمراضنا الاجتماعية وبدون ذلك لا تقوم لنا قائمة ولا نتحرر من قيودنا السياسية والاقتصادية

واني آسف وأبكي لمئات من الشبان في سورية ولا سيما في دمشق وحلب وحماة وطرابلس والقدس سئموا الحياة وسئمتهم الحياة لبطالتهم وهم يعيشون عالة على أهلهم ومنهم الموسع عليه في رزقه لا يتنزلون للاحتراف بحرفة ولا يرون أنه

يليق بهم الا ان يتصدروا على مقاعد الحكم آمرين ناهين يؤثرون البطالة منتظرين أن يموت أولياؤهم ليستولوا على أموالهم وفى الغالب أن يموت الموسر عندنا وهو موسر بالنسبة لمحيطه ويخلف أولاداً كثاراً تقسم بينهم الثروة فينال الواحد جزءاً قليلا لا يستطيع انماءه ولا يقوم بتفخله و بذخه هذا اذا لم يكن فاسد الاخلاق ولم يصرف دخل سنة فى شهر وهناك بشره بالفقر الى أرذل العمر .

أما الغرب فحاله غير حالنا اذا تعلم الولد التعليم الابتدائى غالباً يبدأ أهله يقطعون عنه راتبه ويطالبونه باجرة الدار وثمن الطعام ليلقى بنفسه فى معمعان الحياة ويعلم أنه فرد مسؤول عن نفسه لا يقوم باعالته غير عمله ولهذا مئات الالوف من الامثلة ولقد قلنا فى مقالة سبقت أن ليس فى الارض امرأة ضاهت الرجل فى عمله كالمرأة السويسرية فلا تكاد تجد في النساء من لا يحترفن فى هذه الجمهورية السعيدة غنيات كنا أو فقيرات ولذلك تزيد ثروة البلاد يوماً بعد آخر وترتقى فى كل فرع من فروعها المدنية الحيوية . وحال معظم أمم الحضارة كذلك

اكتب هذا وأمامي أربع فتيات فى النزل الذى أويت اليه فى لوزان لا أطلب لوطنى الا أن يكون رجاله دع نساءه فى درجتهن من التفانى في الحياة العملية والتناغى بحب الاستقلال فى الاعمال . الفتاة الاولى انكليزية والثانية المانية والثالثة سويسرية فرنساوية والرابعة سويسرية المانية وكلهن سواء فى كره الاتكال ومثال صالح غريب المثال

قالت لى الفرنساوية السويسرية وهى في الحادية والعشرين من عمرها تعطى دروساً في الموسيقى وقد سألتها عن والدها وحالته في الدنيا : انه متعهد ابنية ولنا بيتان يحتويان على زهاء عشرين مسكناً نؤجرهما فى « شالى » من ضواحى لوزان وشقيقى الواحد صاحب نزل فى نيس والآخر معلم بستاني في لندرا فقلت لها مثلك فى الشرق يستريح ولا يعرف الا الازياء والرفاهية فقالت ان الناس كلهم فى سويسرا يعملون وكل واحد يعيش لنفسه فليس من العدل أن أعيش عالة على والدى أو والدتى ولا على أحد اشقائى بل أعمل واجمع ثروة لنفسي عملا بسنة العاملين والعاملات

أما الفتاة الانكليزية وهى فى الحادية والعشرين أيضاً فقد هجرت بلادها وجاءت لوزان تدخل في احدى البيوت الخاصة التى توفرت على تعليم الفتيات اللائي تخرجن من المدارس العليا فى انكلترا والمانيا وروسيا أو غيرها وأردن أن يتقدمن فى معرفة الفرنساوية وآدابها والرياضيات البدنية والرقص والغناء وغير ذلك من لوازم المرأة الاوربية الراقية التى تليق لترأس المجتمعات العالية والتصدر فى الردهات والقاعات . قالت أنها تعلم الانكليزية وهى لا تتناول مالاً وانما تعيش مع الفتيات في مدرسة وتتعلم الافرنسية بهذه الواسطة . وقد ذهب الفتيات خلال عطلة رأس السنة الى الجبال للتزحلق والتدحرج والتسلق على الثلج فاقفل باب النزل فعرض عليها هى ورفيقتها الفتاة الالمانية أن يذهبا مع الفتيات فآثرتا البقاء في لوزان فجعلتهما مديرة تلك المدرسة فى النزل الذى نحن فيه مدة العطلة تنفق عليهما ريثما تفتح أبواب منزلها أو مدرستها .

أما الفتاة الالمانية رفيقة الانكليزية فهي فى الثالثة والعشرين وحالها أيضاً حال رفيقتها تعلم الالمانية وتتعلم الافرنسية وتزيد عليها بأن تعطي دروساً خارج المدرسة وأهلها أصحاب يسار في الجملة ولكنها تحتاج لتعلم الافرنسية وهذه هى الواسطة التى رأت أن تعمد اليها فى اتقان لغة هوغو وموسيه لتضمها فى صدرها الى لغة كيتى وشيلر .

أما الرابعة وهى المانية سويسرية فحالها أدهش من حال الفتيات الثلاث وذلك لان والدها صاحب مخزنين فى لوسرن وانترلاكون لو حسب مايملكه على حساب بلادنا لعد من الاغنياء عندنا على أنه لا يعد فى المحاويج بل المتوسطين هنا فأراد أن يعلم ابنه وابنته الافرنسية لمسيس الحاجة اليها فى تجارته وحتى يكونا على أتم الاستعداد لتلقى مصاعب الحياة فجاء بالولد وهو فى السابعة عشرة يجعله فى نزل فى أرباض لوزان خادماً يأكل وينام ويتناول راتباً قليلا ويتعلم الافرنسية ويتمرن عليها بالعمل وكان تعلم مبادئها بالنظر فى المدرسة

وشقيقة هذا الفتى فى التاسعة عشرة من عمرها شأنها شأن شقيقها تحب أن

تتعلم الافرنسية وتدبير المنزل وتعيش مستقلة فجعلها أبوها خادمة براتب ٢٥ فرنكا في الشهر في النزل الذي نحن فيه وهي وحدها تتولى جميع أعمال المنزل الا ملاحظة الطبخ فان صاحبة الدار تنظر فيه بنفسها فترى تلك الفتاة من الساعة السابعة صباحاً الى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلا تعمل بكد لم أر مثله وتقوم بجميع أنواع الخدمة على صورة مدهشة فبينا تراها تكنس بضع غرف في الدار وترتب فرشها وتصلح أدواتها الكثيرة أو تفرك الدهليز والممشى والزجاج والدرفات والأبواب اذا هي تتعهد المطبخ أو تخرج كالبرق في جلب حاجة من السوق أو تقدم الطعام على المائدة وترتب السفرة أو تجلو الطباق والصحون أو غير ذلك مما يكثر عدده في البيوت الاوربية تعمل كل ذلك ومنه الشاق الوسخ ومع هذا لاتراها الا باسمة في حين حرمت من رفاهيتها في دار أبيها وعنده الخادمات والخدمة .

هذا مثال مما رأيته بالذات من أمثلة التربية الاستقلالية في البنات هنا وبعدها هل يعجب المرء من غنى هؤلاء الاوربيين بعد ان عدوا كل عمل شريفاً اللهم الا مايثلم العرض ويعبث بالمروءة وهذا لاتكاد تخلو منه أمة مهما ادعت أنها أمة أخلاق وتدين وشرف .

كل فتاة من هاته الفتيات وفرت على أهلها بعملها مئة أو مئة وخمسين ليرة في السنة وربحت التعلم العملي والتدرب على الحياة الاقتصادية الاستقلالية فبالله عليك أيستطيع أحد أبناء الطبقة الوسطى عندنا وهي تعد من الفقراء في الغرب أن يقول لابنه اذهب الى بلد كذا واخدم وتعلم فضلا عن أن يقول لابنته علمتك القراءة والكتابة والحساب فعلميها لمن يعلمك الطبخ وتدبير المنزل والخياطة والتفصيل .

رأينا في مصر والشام أناساً من المساتير لم يعقهم عن تعليم أولادهم التعليم المطلوب الا ضيق ذات يدهم وكثرة أولادهم لانهم كلهم يريدون أن يعيشوا مرفهين ابن الحراث كابن الغني صاحب المزارع والعقارات . ورأينا أناساً فادوا

بالمال واقتطعوا جانباً من رؤوس أموالهم ليعلموا به أولادهم على أمل أن يعينوهم في أيامهم السود فكان من أولادهم من تعلموا تعليما ناقصاً ولم يكن منهم الا أن عظمت نفوسهم وظنوا أنفسهم شيئاً مذكوراً وشمخت أنوفهم عن العمل الا فى الاعمال التى يصورها لهم الخيال انها نافعة شريفة وذهب ماصرفه أولياؤهم من الذهب عبثاً

الاولادإذاربوا كما ربى السويسري والالماني والانكليزي بناته جاءمنهم محكنون يعرفون قدر العمل والعمال ويدخلون فى الحياة من الصغير فيرتقون الى الكبير . يتهمون الالمان بالشح والفرنسيس بالاقتصاد الزائد والانكليز بقسوة القلب والحقيقة أن البشر كله من طينة واحدة يحن الى أولاده ويستميت فى ترفيههم ولكن الفرق بيننا وبينهم انهم يلقنون أولادهم معنى الحياة المستقلة ونحن ننشئهم على حياة الاتكال والرضا بالقلة . .

أيأتى يأتى على الشرق الاقرب يوم نرى فيه الرجال والنساء صغارهم وكبارهم يعملون لنشهد أو أبناؤنا واحفادنا مثالا من الامم التي تود البقاء لا الدثور والفناء أم نبقى هكذا يسرق بعضنا بعضاً ونعد عمله مهارة أو ينتظر صغيرنا كبيرنا ليموت فيرثه ونحسبه من الموفقين أم تضعف وطنيتنا وحبنا لبلادنا فنتركها تنعى من بناها الى بلاد أخرى حيث الحياة سهلة والعيش مخضل

طف المدينة والمزرعة وأدخل المعمل والمخزن وانظر الباعة والأشراف فى سويسرا تجدهم كلهم لا يستنكفون عن العمل . في لوزان سوق تقام مرتين فى الأسبوع على عادة معظم المدن الأوربية مثل سوق الاحد وسوق الجمعة فى دمشق تباع فى ذاك السوق جميع أنواع المأكول والملبوس والمنظور فترى فيه نموذجاً صالحاً من حاصلات البلاد وصناعتها وأكثرها رخيص قصدته عدة مرات للفرجة وابتياع بعض اللوازم فدهشت وقد رأيت بعض النساء الغنيات والفتيات البارعات الجمال يبتعن بأنفسهن حاجات بيوتهن يجعلنها فى كيس براق من المطرز ويحملنها الى مساكنهن وقد تكون بعيدة وعند أكثرهم على مابلغنى الخادمات والطباخات والوصيفات قلما يعهدن اليهن بشراء حاجة ولو طفيفة ويذهبن بأنفسهن لابتياعها

وهكذا تجد الديمقراطية تشربتها نفوس الكبير والصغير فلا يجد أحد من المعيب ان يخدم نفسه وداره وأهله وسواء فى الشرف من يكسح القمامات والثلج من الشارع ويرزق خمسة فرنكات فى النهار ومن يملك مصرفاً كبيراً يعد ماربحه كل يوم بمئات من الفرنكات مادام كلاهما يعمل فى دائرته بقدر طاقته ولا يتعلق بأحد وأول مايسأل الزوج عن فتاة يخطبها قبل أن يسأل عن جمالها ماهى معارفها وما تستطيع عمله . فاللهم علمنا علماً ينفعنا فى نهوضنا حتى لانخجل من انحطاطنا فى أنفسنا دع خجالتنا أمام غيرنا فان الفرق بين بلادنا و بلادهم أصبح كالفرق بين النور والظلمة والجنة والنار وما راء كمن سمعا

قل سيروا فى الارض

٦٤

ليس كالسياحة تجدد الحياة وتزيد الاختبار وتعلم وتهذب وتزيد فى الاعتبار بحوادث الليل والنهار . وانى لأتمنى لكل من ساعدته الحال ان ينهض ليعتبر ويتعلم ويتسلى فان النفس في قرارها تصدأ كما يصدأ الحديد بالرطوبة فهى تحتاج للنور وللحرارة والا فتذبل كالزهرة

قال وليم هازلت من مفكري الانكليز « ان الوقت الذى أمضيناه فى السياحة الاجنبية مقطوع من عمرنا مفصول من حياتنا لاسبيل الى وصله ولا وسيلة الى ادماجه والمرء مادام خارج وطنه رجل آخر غير الذى كان هنالك حتى ان المسافر ليودع نفسه فيمن يودع ولله در القائل « خرجت من موطنى ومن نفسى » فمن أراد أن ينسى الحزن والشجن فليذهب الى غير بلده من بلاد الله يجد فى عجيب المناظر وغريب الأحوال سلوة وروحاً وتغيب من عينه مذكرات الهموم وباعثات

الامي ولذلك كنت أنفق حياتي خارج بلادى لو وجدت من يقرضني حياة أخرى أنفقها في وطني حتى أقضي حقوقه اه . »

كلمات حكمة وخبرة ولذلك ترى أكثر الأمم رقياً أكثرها سياحاً والعكس بالعكس . والانكليز والاميركان هم في المقدمة ثم يجيء الالمان والفرنسيس وغيرهم من أمم المدنية الحديثة وأمتنا العربية يكون محلها في قائمة السياح في الآخر بالطبع لأنها اعتادت سير القهقرى وانا لو أخرجنا المصريين من جملة السائحين في الغرب لانجد لنا الا عدداً يضحك بالنسبة لأرباب الرحلات من الأمم . أما العرب السوريون ممن يهاجرون الى أميركا فهؤلاء لايقصدون من رحيلهم الا الكسب ولا يعرفون على الاغلب كيف يستفيد المرء من سياحته علماً وعملا

نتمنى لأمتنا أن يسيح منها العلماء والوجهاء والتجار والموظفون وأرباب الصنائع والزراعات الواسعة ممن يمكنهم ولو بعض الشيء تطبيق مارأوه عند من ارتقوا عنهم مراحل . فهذه الطبقات الغنية هي التي تستفيد بالاحتكاك بغيرها من أهل طبقتها في الغرب اذا أخذت على نفسها البحث والدرس خلال التنقل وترويح النفس

السياحة لا تكلف اليوم من العناء والمال ما كانت تكلفه منذ مئة سنة فان العارف قد يستطيع أن يطوف أهم عواصم العالم ولا ينفق في يومه أكثر من ليرة مرفهاً رفاهية لا تتيسر له في بلده ولو كان من أغنى أغنيائها لأن البلاد في الغرب كلها منظمة ومعظم الفنادق والبيوت سواء في الأخذ بأسباب الراحة . والعيش فيما خلا العواصم الكبرى سهل للغاية وهو أرخص مما هو في بلادنا فان المصطاف أو المشتي في سويسرا قد يستطيع أن يكون في عائلة ولا ينفق في شهره ثمن الطعام والمنام الجيد أكثر من ١٥٠ فرنكا وهذا قلما تجد له مثيلا في بلدة أوربية اللهم الا في المدن الصغرى أو القرى وكل مدينة من مدن سويسرا حرية بأن يتعلم فيها الشرقي سنين لا أياماً ومن رأي مدينة أو ثنتين يكون قد رأى نموذجاً صالحاً من هذه المدينة الفاضلة

بيد ان من يسيح فى الغرب لا يصح له أن يتخلى عن غشيان العواصم الامهات مقر المدنيات الضخمة كرومية ولندن وباريز وبرلين وفيناوهذه العواصم يكتفى منها السائح ببضعة أيام والأولى أن ينظر الى دولاب الحركة فى المدن الصغرى اذ يستطيع أن يحيط بها فكره أما العواصم الكبرى فان أهلها قد ضاعوا فيها ولا تكاد تجد واحداً منهم يعرفها حق معرفتها فباريز مثلا كلما غبت عنها أشهراً وعدت اليها تجد فيها غرائب جديدة وجواد نخمة لم تكن من قبل وكل شيء فيها يزداد على الزمن فخامة وعظمة فالمرء الواحد فيها اذا أراد درسه السائح الشرقى لا يتيسر له فى أقل من بضعة أشهر ولكن النظرة الاجمالية يكفى لها خمسة عشر يوماً ومثلها سائر العواصم وأصعبها على السائح احاطة لندن مدينة الثمانية ملايين نسمة و نيويورك مدينة الخمسة ملايين .

ان مدنية الغرب متشابهة فى أكثر الاوضاع فمن رأى نموذجاً منها اكتفى والزيادة على ذلك من النوافل . من زار باريز مثلا يشهد أعظم نموذج فى الحضارة الحديثة . وخير لمن يعرف لغة مملكة فى الأكثر أن يذهب اليها . وان كان من يعرف لغة أوربية كبرى مثل الافرنسية أو الانكليزية يستطيع أن يسيح بدون عناء فى كل مملكة ويتفاهم مع أهلها ولا سيما أهل الطبقة العليا والتجار والعلماء

ثلاث لغات أصول هى التى تفرعت منها لغات القارات الثلاث أوربا وأميركا واوستراليا الانكلوسكسونية واللاتينية والسلافية فمن عرف الروسية مثلا لا يشق عليه السياحة فى البلقان وأكثر النمسا ومن عرف الانكليزية استطاع السياحة فى أميركا الشمالية وأوستراليا ومن عرف الافرنسية كانت عليه سياحة ايطاليا واسبانيا والبرتقال والبرازيل والارجنتين مثلا من أسهل الاشياء

أما من لم يكتب له الأخذ بحظ من هذه اللغات وأراد الاستفادة من الغرب فليس أحسن له من استصحاب ترجمان من بلاده ويكون ممن سبقت له الرحلة الى ديار الغرب واذا أريد الاقتصاد فالاولى أن يجتمع كل ثلاثة أو أربعة أشخاص ويرافقهم ترجمان مؤتمن عندهم وعندها تقل النفقة نحو الثلث . ولقد شاهدنا

كثيراً من أغنياء مصر ساحوا أوربا وهم لايعرفون لغـة من لغاتها ولكنهم بواسطة التراجمة استطاعوا أن يحسنوا التصرف بيد أن الأولى أن يكون المرء نفسه عارفاً باحدى لغاتهم وهناك حدث ماشئت ان تحدث عن استفادته وسروره

وبالجملة فان الخوف من السياحة توهم ليس فى محله فلا المال وقلته ولا عدم الاحاطة بلغة أفرنجية بل ان المحرك الأعظم فى السياحة الارادة ومن صحت عزيمته زعزع الجبال فما بالك بالسياحة وابناء السابعة والثامنة اليوم يسيحون فى أوربا وأميركا بدون أن يخشوا ضرراً والفتيات الجميلات يضربن فى البر والبحر ولا من يتعرض لهن بسوء فهل من العدل أن يكون فتيان الغرب وفتياته أرقى منا كعباً وأكثر أقداماً مادامت لنا فى السياحة فوائدلا يقدرها الخامل فى بلده والسياحة مدرسة لتعليم الكبار كما أن المدرسة هى المعلمة للصغار فاللهم علم كبارنا وصغارنا علماً نافعا .

نحن فى البلاد الفرنسوية

٦٥

ليس عجيبا ان ترى العثماني والايرانى وغيرهما من سكان آسيا الغربية والساحل الشمالى من أفريقية يطربون فى البلاد الفرنسوية ويؤثرونها على غيرها من بلاد الغرب فى التجارة والتعلم والنزهـة فان معرفة لغة قوم هى مفتاح جميع هـذه الاعمال وتعليل صحيح لعامة هذه الاحوال .

انتبهت فرنسا قبل غيرها لاستتباع الشرق الاقرب بتعليمه على مناحيها و تلقينه لغتها فكانت منذ زهاء قرنين تبعث البعوث وترسل المعلمين مبشرين بمدنيتها ولغتها فلم يمض زمن طويل وفرنسا اذ ذاك صاحبة الكلمة الاولى فى السياسة الغربية قبل انكلترا والمانيا وروسيا الا والخاصة في هذه البلاد يعرفون الافرنسية ويأخذون

عنها ويؤثرون الفرنسيس على غيرهم لانهم لم يعرفوا غيرهم خصوصاً وان المرونة التي يجدونها عندهم تشبه مرونتهم والفرنسيس عرفوا بلين الجانب وكثرة التفاني بتعليم ماعندهم لغيرهم لانهم يرون لغتهم أرقى اللغات الاوربية وأمتهم في مقدمة الشعوب التي قاتلت لاجل الحرية .

ان ميل الفرنسيس (١) للابتكار في كل شيء دعا الى نشر أفكارهم وأوضاعهم في بلادنا

---

(١) كتب أحدهم مقالة افتتاحية في جريدة الايكو دي باري قال فيها : انه مما اثبتته التجارب أن الفرنسوي خلق مخترعاً وقد أتى الفرنسيس أمثال لافوازيه وكوفيه وكلود برنار وبيشا وباستور من الاعمال العلمية ما استحقوا به أن يكونوا مؤسسين لجميع العلوم الحياتية والكيمياء والتشريح والفسيولوجيا والجيولوجيا وقامت أهم الاختراعات الغربية في الاربعين سنة الاخيرة على أيدي الفرنسيس فهم الذين اخترعوا سر التلغراف بلا سلك وأوجدوا صناعة الاوتوموبيلات وعملوا مدفعاً من عيار ٧٥ وعثروا على الاسباب الرئيسة التي سمحت بالطيران . وهكذا في السياسة فان الفرنسيس أول من أوجدوا في أوربا وحدة وطنية وهي الوحدة الفرنسية وأول من أسسوا وطناً وهو الوطن الفرنسوي وهم كانوا أول الناشرين تحت ستار الحرية والمساواة الافكار الثورية

فالفكر الفرنسوي حاد ينتبه بسرعة لصلات المجهوله في الاشياء وهو براق يدرك بدون كبير عناء المؤثرات التي تحدث بين أجزاء عناصر المادة فهو ذو خاصية تخدم حاجته للمعقول وحبه للوضوح . الفرنسوي جريء على مثال لويس الثالث عشر ونابوليون والموت الذي كثيراً ما يكون جزاء المخترع قلما يفزعه بل يبعث همته ويضاعف مضائه . وللفرنسي ميل لحوادث وذوق في اكتشاف المجهول وهذا مما حدا بكثير من الضباط أن يتجشموا الاخطار الى آسيا وافريقية لفتح أراض جديدة واسعة وهذا الذوق هو الذي ساق فيما مضى النورمانديين والبروتونيين الى سلوك البحار التي لم يسلكها أحد ليؤسسوا مدائن في الشواطيء البعيدة

هذا هو الوجه الحسن واذا جئنا الى نقيضه نرى الفرنسوي يخترع ولكنه ماقط عرف الانتفاع بثمرة اختراعه ولا يحقق وينظم ما اخترعه . وخفته المقيمة تحمل الى غيره الانتفاع بتطبيق ما أوجده هو . فهو يفتح المستعمرات بدمه وماله ولكن الالمان اوالايطاليين أو الاسبانيين هم الذين يستثمرونها . اختراعاته في العلوم لايقع عليها حصر ولكنه لم يستعملها قط لتحسين أدواته أو حاصلاته فقد أسس مثلا الكيمياء ولكن المانيا هي التي وجدت في الصناعة الكيماوية مورداً عظيما من الثروة أي مليارا وستمائة الف مليون من الحاصلات السنوية منها نحو سبعمائة مليون صادرات وانشأت تسعة آلاف معمل فيها مائتا ألف عامل يدفع اليهم ٢٦٠ مليون فرنك مشاهرات وأجوراً . —

الفرنسوى يتحرك فى الهواء أسرع من الطير . وهو طيار خارق للعادة بجرأة طبيعية فيه تظنها بلادة منه . ولكنه لايستطيع أن يجعل للطيارين وللمراكز الطيران نظاما معقولا واذا سقطت فى درجات الاشياء الصغرى ترى الفرنسوى على هذه الصورة من الاضطراب وعدم الانتظام وقلة الاهتمام ويقال في ذلك ان الفرنسوي يكره وهو على هذه الصورة من الحركة ان ينثنى الى ضرورة انتباه طويل متساوق ويشعر بأنه يختنع اذا لم ير نفسه مائلة الى الاعمال المختلفة التى تحثه واذا وجب عليه أن يعمل عملا مجهولا يحتاج الى صبر . اما الالمانى فهو على العكس من ذلك له قليل جداً من النبوغ في الاختراع والايجاد بل لا يكاد يذكر له شيء منه ولكنه مختص كل الاختصاص بالانتفاع بما اخترع وتنظيمه .

وما عدا الفلاسفة والموسيقيين فى المانيا القديمة الذين اخترعوا وأوجدوا فان الالمانى لايخترع لان فكره ثقيل وبطيء ومفكر لم يخلق لهذه الانوار الفجائية التى توحى بالمجهول ولكنه متى اخترع اختراع فهناك حدث ماشئت ان تحدث عن حسن استخدامه له فهو يحب العمل الذى يحتاج لثبات ولا يستعجل لان الضرورى عنده أن لا يعمل بسرعة بل ان يعمل بجودة وان يكون على استعداد لحين الحاجة فيكون مجهزاً لساعة العمل ولا يبدأ قط بطيئا .

جاء الالمانى بعد الفرنسوى في الطيران ولكنه أدهش العالم بتنظيمه له فلم يخبط على غير هدى بل رأى بسرعة كل ماينبغي أن يرى ووفاه حقه . له قليل من المستعمرات ولكنه يسكن مستعمرات غيره فينزلها التجار والصناع الذين يبعث اليها بهم . الالمانى لم يخترع التلفون ولكن لالمانيا الآن نحو مائتى ألف كيلو متر من الاسلاك التلفونية أي أكثر من فرنسا وعدوا المخابرات التلفونية فى بلاده بـ ٨٠٠ مليون مقابل ١٩٠ مليونا فى فرنسا وما من قرية المانية مهما صغرت الا وهى مرتبطة بهاتف تخابر به وادارتها في البريد أول ادارة فى العالم . وهى تعترف أن ليس بين كيماوييها الكثار واحد مثل لا فوازيه وبرتلو ولكن لها معامل تجربية تعينها الحكومة والمدن والنقابات الصناعية . ان كان الفرنسوى

مخترع الاصباغ الصناعية فالالمانى بفضل مدارسه ومعامله أتى فيها بالعجائب حتى كاد يختص بتجارة الاصباغ . وما من بلد يعنى فيها بتجديد أدواتها على الدوام لتكون كاملة من كل وجه على أحدث طرز كما يعنى فى المانيا . والقاء أدنى نظرة على محطة من محطات سككهم الحديدية تشهد لهم بذلك الخ

ثم انتبه الانكليز والاميركان ثم الالمان والطليان للأمر ولكن بعد ان رسخ التمدن الفرنساوى فى النفوس وكثر أنصاره بطبيعة الحال مع أنه ربما كان فى أوضاع الامم الاخرى ما يماثله أو يفوقه . واذ قبلت مصر والعثمانيـة وايران ان تعلم الافرنسية بصفة اجبارية فى مدارسها مثل لغة البلاد كان ذلك من أكبر المعونات على بث هذه اللغة البديعة فاتخذناها لغة التخاطب والتكاتب فى التجارة والسياسة .

للبلاد المصرية والعثمانية والايرانية فى البلاد الفرنسوية اليوم مئات من الطلبة يدرسون العلوم المنوعة فى مدارسها فى حين لا تجد سوى عدد محدود من الطالبين فى مدارس انكلترا وأميركا وأكثرهم من المصريين والهنود أما فى المانيا والنمسا وايطاليا وروسـيا فان عددهم يعـد على الانامل والايرانيون أكثر الشرقيين اختلافاً الى مدارس روسيا للجوار والسياسة .

فاذا طربت النفس يوم دخولها أرض فرنسا وسويسرا الفرنسوية وبلجيكا الفرنساوية فذلك لأننا نشعر باننا بين قوم يفهمون من نحن ونفهم من هـم . اننا نستفيدهنا أضعاف استفادتنا فى أى أرض سواها لأننا نجد تقاربا فى الافكار والمناحى ولاننا نعرف تاريخ هذه البلاد كما نعرف تاريخ بلادنا وقد حصلت لنا على الزمن أنسة باوضاعها المرنة اللطيفة ومن تعلم لغة قوم قلت ما بينه وبينهم من الفوارق وتيسر له أن يشاركهم ويشاركوه فى كل ما لا يضر بعاداته وأخلاقه الخاصة

ان المدنية الاوربية تتسرب كل يوم الى عقولنا فى طرق مختلفة تنقلها الصحف والسياح والمدارس والجيش والاسطول بل ينقلها البرق والهواء ونحن لو أردت أن تجردنا مما استفدناه منها منذ عهد محمـد على الكبير وسليم الثالث لرجعت بنا قروناً الى الوراء ظننتنا معها من أهـل القرن السابع أو الثامن للهجرة على نحو

ماتشاهد اليوم الافغانيين أو المراكشيين أو الجاويين الذين سدلوا دون مدنية الغرب حجابا كثيفاً فحرموا من حسناتها ولم ينجوا مثل غيرهم من شرورها .

ان سكان الشرق الاقرب اذا ذكروا الفرنسيس كثيراً فذلك لانهم يعتقدون فرنسا فاتحة العالم وممدنته على نحو ما كانت على عهد نابليون الاول ففرنسا هي التي وضعت فى الحقيقة أساس النهضة المصرية الحديثـة وفرنسا هى التي كانت كذلك فى سورية منذ جاء نابليون عكا طامعاً فى فتحها لأنها كانت مفتاح سورية حتى اذا جاءت حادثة الستين المشؤمة وكان لفرنسا اليد الطولى فى اعطاء لبنان استقلالا اداريا عظمت تلك المنة على أهلها وعمت المدنيـة الافرنسية بلاد الشام من طرق مختلفة خاصة وعامة وطنية وأجنبية رسمية وغير رسمية .

نحن اليوم اذا لجأنا الى فرنسا فى معظم حالاتنا فللاثر الناتج من تلك التربية والدعوة الطويلة المتأصلة ولا يضرنا الأخذ من مدنية القوم ولكن يضرنا الغلو والجمود فكما ان الفرنسيس أنفسهم لا يستنكفون أن يقتبسوا ماعند الامم الاخرى كالانكليز والالمان والاميركان مثلا مما ليس فى أوضاعهم فنحن من مصلحتنا أن لا نكون حكرة لامة فنأخذ عن كل قبيل أحسن ماعندهم ولا نقول هذا سويسرى وذاك بلجيكى وهذا فرنسوى وآخر ألمانى وغيره ايطالى أو انكليزى فكلهم أرقى منا مراحل ونحن فى حاجـة لكل من يعلمنا مدنيـة تنهض بنا من خمولنا ليساوينا بنفسه بعد ونعد شيئاً مذكوراً فى سلسلة المراتب البشرية .

رأيت كثيراً من خاصة الطليان والالمان والانكليز يشيرون الى أن السوريين خاصة من بين سكان الشرق الادنى يغالون بحب الفرنسيس وليس حتى فى البلاد التى حكمتها فرنسا فى أقطار الشرق بلد كسورية يحسن أهلها الظن بالفرنسيس فكنت أقول لهم ان ذلك صحيح ولكن لا على اطلاقه فان القوم هناك درجات ومن يحبون الفرنسيس هم الذين أحسن هؤلاء اليهـم بتعليمهم على أساليبهم وتلقينهم لغتهم المذبة فأممكم أيضاً اذا مدت يدها لسورية تعلمها لغاتها وأمجادها يعترف السوريون لها بصنيعها ويصبحون زبنها فى التجارة . وكيف يحب السورى المانيا مثلا وهو

لا يعرف عنها الا مايقرأه فى الجرائد الفرنسوية والكتب الافرنسية والمانيا حتى الآن لم تفتح لها مدرسة راقيـة فى سورية والفرنسيس ملأوا سهلنا ووعرنا بمدارسهم الدينية والعلمانية على اختلاف درجاتها

لا ينال المرء الا بقـدر مابذل . والامم الانكلوسكسونية هى أرقى الامم بأخلاقها وآدابها ولكن أنانيتها الكثيرة دعتها الى أن أحبت فى العهد الأخير الانتفاع من الشرق دون أن تبذل فى سبيل رقيه درهما أو تخطو الى اعلاء شأنه قدماً . ولذلك يبقى الشرق الاقرب يتغنى بالفرنسيس والفرنسوية حتى ينافسهم غيرهم من أمم الحضارة الحديثة منافسة حقيقية . ولا عار علينا اذا صرحنا بأننا نطرب فى أرض فرنسا لاننا لا نعرف غيرها فى الواقع ونفس الأمر فقد سبقت فعلمتنا آدابها وذكرتنا أمجادها فنحن بها عرفنا الغرب والمرء لا ينفق الا مما عنده وعرفان الجميل لاهله طبع الكرام . ولا ينسى الايادى التى لك عندهم الا اللئام والسلام

الحياة السياسية والاقتصادية فى بلاد المجر

٦٦

تسكن بلاد المجر عناصر مختلفة قد يثور بينها ثائر الخلاف أحياناً ولذلك كان لمسألة الجنسيات فى الارض المجرية شأن عظيم وحروب قلمية ولسانية لا تكاد تهدأ وتدور المناقشات فى الغالب على برامج المدارس وعلى القدر الذى يجب أن يعطى للغة المجرية فى التعليم فى المقاطعات التى فيها رومان وسلوفاكيون وصربيون . وهناك اضطرابات تحدث زمن الانتخابات النيابيـة تتدخل فيها القوة المسلحة لتحمى حرية الانتخاب وأزمات وزارية قد تطول سنة وجلسات نيابية شديدة الوطأة قد يتلاكم فيها النواب ويتضاربون وربما أطلق بعضهم عياراً نارياً على خصمه أو هدده بالقتل أو ضربه بكتاب وذواة كما حدث ولا يزال يحدث

نحو نصف سكان بلاد المجر هم من العنصر المجري والنصف الآخر من عناصر مختلفة (المان وسلوفاكيون ورومانيون وروتنيون وخرواتيون وصربيون) بلاد أشبه ببرج بابل اختلطت فيها الالسنة وتبلبلت والمجريون يحاولون بكل ممكن ان يحترم غيرهم جنسيتهم باحترامهم لغتهم والاعتراف بتقدمهم السياسي والمدني وهذه هي حالة المجر ولولا أن العناصر غير المجرية مؤلفة من أجناس كثيرة ليس بينها أقل صلة وطريق الانتخابات النيابيــة الجارية في المملكة تحول دون أدنى مقاومة لما تم للمجر هذا التقدم على غيرهم .

ولئن حاول الامبراطور فرنسيس يوسف ملك النمسا والمجر أن يصلح أسلوب الانتخاب بوضع الاقتراع العام منذ سبع سنين فان مسائل الجنسيات مابرحت مقدمة على المسائل الاجتماعية وقد وقع التحكيم على أن تكون النمسا متجانسة بالجرمانية وان يكون للمجرية حق التقدم في هنغاريا(بلاد المجر) وقد كان في مجلس النواب المجري سنة ١٩١١ — ٤٥٣ مبعوثاً : منهم ٣٨٧ مجرياً و ٤٠ خرواسياً و ٣٤ وطنياً وهذه نسبة تستدعي الاستغراب والمجلس الاعلى أو مجلس الاعيان مؤلف من أعضاء وراثيين مثل البالغين من الارشيدوقة وأعضاء الاسر الشريفة التي تدفع على الاقل ضريبة عن عقاراتها لا يقل عن ٦٠٠٠ كورون ومن أعضاء يعينهم الملك مدة حياتهم بانهاء رئيس المجلس ومن أرباب المناصب العاليا مثل كبار الحكام ومن ٣٣ أسقفا كاثوليكيا و ٩ اساقفة روم أرثوذكس و ٦ يمثلون المذاهب اللوثرية والكالفانية البرتستانية ومن ثلاثة ينتدبهم مجلس نواب خرواسيا .

وللمجلس الاعلى أن يرد مايشاء من المشاريع والقوانين التي يقررها مجلس النواب ولكنه لا يستعمل هذا الحق الا نادراً لان مجلس النواب موقر في صدره وغاية ما يستطيع عمله أن يرجيء الاقرار على قرار مجلس الامة

ومن الامراض التي أصيبت بها بلاد المجر كما أصيبت بها فرنسا والعثمانية مرض كثرة الموظفين الذي يزداد استحكاما اليوم بعد اليوم ففي احصاء رسمي أخير ان في المجر ٣٠١،٤٨٠ موظفا في شعب لا يتجاوز احد وعشرين مليون نسمة

فان الوزارة التى تولت شؤون المجر منذ سنة ١٩٠٦ — ١٩١٠ قد أحدثت عملا لـ ٤٥ ألف رجل والوزارة التى خلفتها أحدثت فى العشرة الاشهر الأولى لتوليها الامر ثلاثين ألف وظيفة . وهذا السواد العظيم من الموظفين ينفع الحكومة مدة الانتخابات النيابية لانه يمثل نحو ثلث المنتخبين بيد أن كثرة الموظفين فى الحكومة لا يفسر بأن الاشغال تمشي بسرعة على طريقة حسنة بل ان الوقت والمال والقوة تضيع فى هـذا التطويل والقيود . يساعد على ذلك الاهمال المغروس فى طبيعة الموظفين على الاغلب ولا سيما فى المجريين فمن لم يتابع البحث عن أوراقه ويلحقها من ديوان الى آخر ويوصى صاحب الشأن تضيع وتهمل ولا نغالى اذا قلنا أن المجر على كثرة تغاليهم فى التناغى باستقلالهم قد فتحوا للحكومة من أبواب التدخل في أمرهم حتى فى المسائل الخاصة مايصح معه أن يحكم بأن البلاد المجرية أكثر الممالك التى جعلت نفسها تحت وصاية حكومتها فى كل شأن من شؤونها

ولقد عددت مجلة القرن العشرين الحرة وهى لسان حال علم الاجتماع فى بودابست عـدة أحوال نابت فيها سلطة الحكومة مناب الاقدام الخاص والتبعة الشخصية فقالت ان الحكومة تعطي راتباً للكاهن الذى يعمد الوليد وللموظف الذى يقيده فى السجل وترزق المعلمين وتوصى الطابعين وصناع الأدوات المدرسية وتدفع لمؤلفى الكتب المدرسية ولنقادها ولانشاء دكات للمدارس ويستعمل خشب الحكومة وحديدها والحكومة تعاون المطابع ومخازن الدخان وعمال الدخوليات (أوكترو١) والكتاب والاخباريين وغيرهم والجمعيات العلمية والصناعية والزراعية والنقلية والمجمع العلمى والممثلين والمغنين وكل من لهم مشاريع يريدون ابرازها الى حيز الوجود ولارباب الضجة والسكوت وتدر المال على الصنائع الاهلية واستملاك محال الوقود وتساعد العامل الصغير والصانع الكبير ومنها يطلب الممثل قرضاً والصراف مالا

هذا وحرية الأديان والمساواة لم تتم فى المجر الا سنة ١٨٩٥ وكان للكثلكة المقام الأول ولرجال الدين سلطة نافذة ويكفى أن يقال ان مساحة بلاد المجر

تبلغ ٣٢٤،٨٥٠ كيلومتراً مربعاً تملك الاسقفيات والاديار والبيع ١٢ ألف كيلومتر مربع منها وبذلك يحكم رجال الدين لان من المال قوة فكيف فيمن اجتمعت له القوتان القوة الروحية والقوة المالية

أهم القوانين الدستورية فى المجر ٤٥ قانوناً يرد عهد الاول منها الى القرن التاسع أى الى أحد عشر قرناً وأهمها قانون سنة ١٧٢٣ و ١٨٤٨ وضم النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ الذى تم الاتفاق بين المجر والنمسا على أن يدافع المجر عن مملكة النمسا كما يدافعون عن مملكتهم أنفسهم ويكونون مستقلين الا فى الجيش والبحرية والامور الخارجية فيدفعون قسطاً صالحاً من المال لمعاونة حكومة فينا وتتعهد الاسرة المالكة النمساوية بالمحافظة على استقلال المجر وحرية البلاد واستعمال جميع قوة النمسا للدفاع عن سلامة الاملاك المجرية وملك النمسا يحكم المجر كما يحكم بلاده ولكنه يمثل مملكتين متباينتين ولا يكون ملك النمسا ملكاً شرعياً الا اذا أقر على تتويجه مجلس المجر ويقضى القانون الاساسى فى البلاد أن يقيم الملك ستة أشهر فى فينا وستة أشهر فى بودابست ولكن هذه العاصمة لا تنال حظ قدومه سوى شهر واحد على الاغلب وهو يتلطف كل التلطف مع الامة المجرية الا أن هذه لا تنسى ما نالها من سحق النمساويين لها فى ثورة ١٨٤٨ التى لا يبرح المجر يذكرونها ويحتفلون كل سنة بذكرى مقتل الثلاثة عشر قائداً مجرياً الذين اعدموا سنة ١٨٤٩ لاشتراكهم بحرب الاستقلال ضد النمسا ويسمونهم الثلاثة عشر شهيداً وترفع الاعلام السوداء على النوافذ وقد كانت جنازة كوشوت سنة ١٨٩٤ من أعظم الدلائل على ذلك كما كان الاحتفال بافتتاح قبته سنة ١٩٠٩ بالغاً حداً دل على مبلغ تعلق هذه الأمة برجالها الذين سعوا لاستقلالها .

للمجر انشودتان أنشودة الملك والجيش وانشودة الأمة ولها عيدان وطنيان الأول فى ١٥ آذار والثانى فى ١١ نيسان فالأول هو عيد المجر الحقيقى يحتفل فيه بذكرى سنة ١٨٤٨ وقد قرر مجلس الأمة المجرية اشتراك الاشراف فى جميع

التكاليف العامة والغاء حقوق السادة وحرية الصحافة وفى ١١ نيسان هو اليوم
الذى صدق فيه الملك فرديناند على القوانين الدستورية

لايحب المجر النمساويين ويريدون أن يخالفوهم فى كل شىء ولو بالصورة
الظاهرة وما أنس لاأنس يوم اجتاز بنا القطار من الأرض النمساوية وابتعدنا
ساعتين عن فينا ودخلنا فى الأرض المجرية فان الأرض تكاد تلبس حلة غير الحلة
الأولى وقال لى رفاقى فى القطار وكانوا مجريين أنت الآن فى أرض هنغاريا يامولاي
ثم خرج الشرطة والمفتشون كأننا دخلنا الى مملكة أخرى وان مابين فرنسا والمانيا
من التباين لايشعر به على الحدود بأكثر مما يشعر بالتباين بين المجريين والنمساويين

والمجر يطلبون اشارات خاصة لعسكرهم كما يطلبون أن يكون التعليم العسكرى
باللسان المجرى ولهم مطالب أخرى يسعون اليها لئلا يكون للنمساويين عليهم أقل
سلطة وتأثير وان كان لهؤلاء تأثير كبير فى الأمور الاقتصادية والعلمية كاللالمان
هـذا مع أن بلاد المجر غنية بصناعتها وزراعتها وعلمائها ويكفى بأن ثروة المجر
قدرت سنة ١٩١١ بثمانية عشر مليار فرنك قيمة أملاكها العقارية وخمسة مليارات
قيمة أموالها غير المنقولة ومثلها صناعتها وباثنى عشر مليوناً نقودها وبثلاثمائة مليون
أموالها فى الخارج أى بأربعين مليون مليار وثلاثمائة مليون فرنك يخرج منها
ديونها العمومية خمسة مليارات ونصف

هذا حال مملكة أفقدتها النمسا استقلالها ولكنها لم تقض أو لم تستطع القضاء على
حياتها الوطنية والاقتصادية كما فعلت روسيا مع بولونيا وبقيت بولونيا بحالها
أو زادت ولولا معاونة روسيا للنمسا مااستطاعت هذه ان تغلب المجريين

ليست الامة المجرية عريقة فى المدنية كالامم القديمة فى أوربا فقد جاءت حوالى
القرن التاسع وانضمت الى أهل أوربا ونزلت بلادها اليوم ولذلك تجد فيها حتى
الآن شيئاً من أوضاع القرون الوسطى فى نظاماتها الاجتماعية فان تسعة اعشار
من يعملون فى الحقول المجرية الى اليوم هم من السلافيين « الصقالبة » أوالرومانيين
المغلوبين على أمرهم افتتح المجر البلاد وامتلكوا الأراضى وما زالوا يستثمرونها

بأيدى غيرهم ولم يبرحوا فى كثير من البلاد على طريقة القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

واذا تأملت ملياً فى حال المجرى تجده يشبه التركى فى كثير من أحواله فانه يعمل القدر اللازم حتى لا يموت جوعاً هكذا شأن الفلاح والصانع وكذلك شأن طالب العلم وصاحب المنصب كأن حكم العثمانيين على بودابست مئة وخمسين سنة قد طبعهم بطابع تركى فقد رأيت المجريين يشكون من ضعفهم وقلة توفرهم على العمل ويقولون ان منا كثيرين من يعملون شهرين وينقطعون عن العمل عشرة أشهر وهذا عيب كبير فى مجتمعنا

تقدر مساحة أملاك صغار الفلاحين فى المجر بعشرة ملايين هكتار أى ان يكون الواحد يملك ستين هكتاراً والوسط الذى يملك ستمائة هكتار يقدر بثلاثة ملايين وكبار المزارعين بستة ملايين ومجموع ماتملكه الحكومة والمدن والمقاطعات والكنائس والاديار بعشرة ملايين هكتار

وقد أصيبت بلاد المجر بداء الهجرة فهاجر منها منذ ١٩٠٠ الى ١٩١٠ سبعمائة الف رجل فارتفعت أجور العملة وبيعت أملاك صغار الفلاحين من أواسطهم وكبارهم ومهاجرهم مقتصد بحيث يرسل مهاجروهم الى بلادهم كل سنة مئة وستين مليون كورون ومن يعودون الى بلادهم يعودون أغنياء وقليل ماهم والعائدون يبتاعون الاراضى بالأثمان الفاحشة

وللاسرائيليين المقام الاول فى تجارة البلاد تعرفهم بسيماهم ولاسيما فى بودابست عاصمة البلاد فان ثلث سكان هذه العاصمة من الاسرائيليين أى ثلثمائة الف من أصل تسعمائة الف وبيدهم التجارة والصرافة والصناعة وهم أكثر الامة تعاماً وأقدمهم على الاعمال هذا مع أنهم ليسوا قدماء في البلاد بل أن هجرتهم اليها ترد الى العهد الذى طردت فيه اسبانيا وفرنسا والمانيا وبلاد القاع الاسرائيليين من بلادها فوجدوا فى بلاد المجر صدراً رحباً وخلفوا اليونان فى التجارة . وحيث توطدت قدم التاجر الرومى يصعب على التاجر الاسرائيلى أن ترسخ قدمه والرومى

كالاسرائيلى بشوش لين العريكة يعرف من أين تؤكل الكتف فى التجارة بخلاف المجرى

يقدر عدد الاسرائيليين فى المجر بثمانمائة وأربعين الفاً منهم ستمائة الف « تمجروا » أى أصبحوا مجراً حتى فى أسمائهم ومناحيهم ولا يزال عددهم ينمو فان كان أبناء اسرائيل يقبلون على التوطن فى هنغاريا فليس لان التجارة والصناعة والصرافة تستميلهم الى نزولها لان جميع الصناعات الحرة مفتحة الابواب أمامهم

هذه معلومات قليلة عن بلاد المجر التقطتها فى يومين اثنين صرفتها فى عاصمة بلادهم أزور معاهدها البديعة وبودابست من أجمل عواصم أوربا وهى مدينتان فى مدينة أى بوداوبست يفصل بينهما نهر الطونة وترتبط البلدان باربعة جسور كبرى بديعة من أجمل ماهندس المهندسون والجسران الجديدان الاخيران هما من صنع مهندسين مجريين أما المدينة فمقسمة شوارع فخمة فسيحة وهى نظيفة لا تقل عن أحسن العواصم

وأهل المجر يحبون الاتراك ولايزالون يذكرونهم بالخير لانهم يرون أن اخواننا أسدوا اليهم جميلا غير مرة وآخر مرة فى ثورة المجر الاخيرة يوم لجأ زعماء الثورة الى الارض العثمانية فحاهم سلطان العثمانيين « واظنه المرحوم السلطان عبد المجيد » من أن تنالهم يد النمسا التى طلبت بالحاح تسليمهم وآثران يشهر حربا على النمسا أو تشهرها عليه على أن يسلم من دخل حماه ولذلك ترى المجر يذكرون هذه المنة على الدهر ويشفعونها بالشكر وحسن الذكر

حياتنا والحياة الاوربية (١)

٦٧

سادتي الاعزة : تقاضاني بعض الاحباب دينا لم أر بداً من قضائه على حين اشتداد الازمة بل الازمات فى بلادنا . أرادونى أن أحاضركم بشىء مما جنيته

(١) محاضرة لنا القيناها فى المنتدى الادبى فى الاستانة يوم ٢٤ ربيع الاول ٣٣٢ و ٢٠ شباط ٩١٤

فى هذه الرحلة الثانية الى ديار الغرب من ثمرات مدنيته الزاهرة فلم يسعنى الا اجابة الطلب مع الشكر لحسن ظنهم وان كان البحث فى نهوض القوم أو في فرع من الفروع ار تقائهم يحتاج الى درس عميق وبحث دقيق ولكن مالايدرك كله لا يترك جله فاذا أتيتكم بأمور تعرفونها أو أكثرها فذاك لانى أحببت المبادرة الى امتثال الامر مع علمى بأني لا آتى بجديد على أنه لا جديد تحت الشمس :

كانت السياحة في سالف الزمان ضربا من شاق الاعمال ولكنها أصبحت فى هذا العصر على سهولتها حاجة من حاجات المجتمع يحتاج الخاصة اليها أكثر من غيرهم ويدخل في الخاصة أرباب النعمة من التجار والزراع والصناع كما يطلق على العلماء والمفكرين والباحثين والمتعلمين وقد وردت عدة آيات فى الكتاب العزيز فى الحث على السياحة ولكن الشرق ضعف فى العمل بهدى قديمه ولم يهتد الى وجه الصواب فى حديثه .

كان أجدادنا يطوون الاميال والفراسخ أياما وشهوراً لينتقلوا من قطر الى آخر ونحن اليوم نسيح فى شرق الارض الى غربها فى أيام يسيرة ونقطع بضعة الوف من الكيلومترات في ساعات معدودة ومع هذا نرى السائحين منا الى الآن أقل من السائحين فى العصور الماضية هذا اذا قابلنا بين سرعة المواصلات وتوفر أسباب الراحة فى عصرنا وفقدانها فى أعصار أجدادنا أيام كان يقول ابن زريق البغدادى وقد رحل من بغداد الى الاندلس .

ماآب من سفر الا وأزعجه رأي الى سفر بالبين يجمعه
كأنما هو فى حل ومرتحل موكل بقضاء الله يذرعه

اننا اذا رحلنا اليوم الى الغرب نجدد حياتنا بعد ذبولها ونقوى حواسنا بعد انثلام حدها وندخل فى طور نتعلم فيه ونعتبر ونتعود عادات حسن أكثرها وجدير بنا أن نقتبسها عمن سبقونا مراحل وأشواطا . لانها نتيجة علم متوارث ونظر بعيد متسلسل . فكل مانراه في ديار الغرب هو عمل قرون خلت . وأجيال عامت فعملت :

وأحب آفاق البلاد الى الفتى   ارض ينال بها كريم المطلب

تكثر الخواطر على السائح منا في ربوع امم الحضارة الحديثة فلا يلبث ان يذكر بلاده ويقابل بين حالها ومايشاهده هناك من السير نحو الكمال بخطا سريعة في حين يرى امته تسير سير السلاحف .

ان القباع سار سيراً نكرا   يسير يوماً ويقيم شهرا

نعم يسير الغرب بسرعة البخار والكهرباء . ونحن مازلنا نسير بسير الجمال والبغال والحمير . وشتان بين نظام السيرين .

سر اين شئت من بلاد المدنية تجدها نسقاً واحداً في الاستمتاع بنعم الجمال والكمال وقد تشاهد لبعضها على بعض امتيازا في أمور تتفرد بها ولا فرق في اصل المادة بين الشرق والغرب : سهول واودية وجبال وانهار وبحيرات وبحار . ولكن الفرق في تربية العقول ونمط الحياة فالسر اذا في السكان لا في المكان .

سحت هذه المرة في ايطاليا وسويسرا وفرنسا والنمسا والمجر فرأيتها الا قليلا متشابهة في راحتها ونعيمها وعمرانها وعلمها وآدابها وصناعاتها : الناس كلهم يتفننون فيما يعملون ويسيرون اليوم بعد اليوم نحو الكمال فيارب ماهذه الروح التي تجرد منها جسم الشرق وسرت في عظام الغرب وأعصابه وشرايينه فأتى أهله بالعظائم ونحن بقينا خامدين مبهوتين منحلين متضائلين

لاتغبط المجدب في علمه   وان رأيت الخصب في حاله
ان الذى ضيع من نفسه   فوق الذى ثمر من ماله

مدنية الغرب غريبة في كل مظهر من مظاهرها ، لأن أهلها أحسنوا الانتفاع من كل قوة في الوجود ونحن أضعنا بجهلنا القوى القريبة الانتفاع . هذا شأنهم في كل شيء فكأن الغرب حلف أن لايخالف الشرق والشرق آلى أن يخالف الغرب على كثرة حاجته اليه واضطراره الى الأخذ عنه .

رأيت أولاداً وبنات دون العاشرة يسيحون في الغرب من قطر الى آخر وحدهم بدون أدنى رهبة وارتباك ، ولم أشهد كثيراً من رجالنا يستطيعون السياحة في أوربا وأميركا على مايجب ، وبهذا تعرف درجتهم ودرجتنا وتسجل بأن صبيانهم

أقوى من رجالنا ، وفتياتهم أعقل من نسائنا فاذا كانت النسبة مفقودة بين ابن العاشرة وابن الخمسين فهلا تكون المسافة بين حالنا وحالهم أطول وأجزل .

اننا فى درس المدنيـة الغربية نأخذ ماتهيأ لنا وتمثل لانظارنا بادىء الرأى ولو أردنا استقصاء البحث لاقتضى علينا أن نصرف السنة والسنتين لندرس حال مدينة واحدة من مدنهم فما بالك بالمملكة أو الممالك . ينفد العمر ولا تنفد مادة الكلام عن رقى الغرب وكلما تأملنا مشاهده ؛ وحللنا مادة قواه ؛ نبكى لضعفنا وقوتهم ؛ وجهلنا وعلمهم ، ونكاد ندخـل فى اليأس المميت ، من تحسين حالنا لولا أن اليأس محرم ، وأن التاريخ يحدثنا أن أمماً كانت أحط منا منزلة فارتقت لما صحت عزائم بنيها على انهاضها ، والأمم لاتموت الا اذا اسلمها بنوها العارفون للموت .

مواد هذه المدنية التى تأخذ بالعقل والقلب كثيرة ومن أهمها تقدم الغربيين فى بيوتهم عنا ؛ ورقى الأسرة هنالك وانحطاطها هنا . والمملكة التى تتألف من بيوت راقية هى التى تحرز شوطاً أبعد من غيرها ؛ وما الممالك الراقية ، الا مجموعة بيوت راقيـة ؛ والكليات تتألف من الجزئيات ، ومن تماسكت أجزاء مادته ؛ كانت أسبابه اقرب الى القوة بالطبيعة .

كل من يدخل مدينة من مدن الغرب ويختلط بسكانها بعض الاختلاط فلا يبقى مقتصراً في معلوماته على حياة الشارع والمطعم والفنـدق والمسرح والقهوة والاماكن العامة يسجل فى مذكرته أمثلة لا يكاد يحصيها من رقي الأسرة الأوربية تجسمت فى جميع حالاتهم اى تجسيم ، وحامل المسك لايخلو من العبق

تحمل مدنية الغرب فى مطاويها حسنات وسيئات ؛ ولكن حسناتها تربو على سيئاتها فترى فيها الفضيلة التى بزت الفضائل ؛ والرذيلة التى تربو على مجموع الرذائل ؛ ولكن المليح ، يغطى وجه القبيح ، فكأن شعار المدنية الحديثة الارتقاء ؛ فى كل شىء ؛ والجمع بين المتناقضات ؛ اما الشرق فهو وسط او دون الوسط ؛ والوسط والدون لايكادان يعملان عملا محموداً فى هذا الوجود .

أذكر لكم أمثلة ثلاثة من عشرات من الأمثـلة وقعت العـين عليها فى باب ارتقاء الأسرة الغربية تمثل أدوار الأعمار وأدوار البيوت . المثال الأول أسرة

فرنساوية مؤلفة من والد ووالدة وطفلتين وطفلين من سكان الولايات من أهـل مقاطعة الجورا على الحدود السويسرية جاءت لوزان لتطبب أحد أولادها ونزلت فى المنزل الذى أقمت فيه فلاحظت أمرها مدة أربعة أسابيع انظر عناية الأبوين بتربية أولادها فكان الوالد يوقظ أولاده فى الساعة السادسة والنصف ويأخـذ فى الباسهم ثيابهم مع زوجته وهذه تسرح شعور الأبنتين وتمشطهما فاذا تناولوا طعام الصـباح يرافق الثلاثة من أولاده الى المدرسة لانه وضعهم فى المكتب مع أن مدة مقامه فى تلك المدينـة لا تتجاوز شهرين ثم يعود الى الدار ويحمل ابنه الى الطبيب ويعود به بعد ساعتين فيجىء الاولاد فى وقت الظهر وبعد تناولهم الطعام يعود فيشيعهم ثانية الى المدرسة وربما عاد اليهم فى المساء ليستصحبهم أو اكتفى بانتظارهم للخروج بهم مع والدتهم الى النزهة . عناية فائقة فى هـذين الوالدين الذين لا يعرفان غير تعهد صحة أولادهما وتعليمهم وتربيتهم وتخريجهم على الآداب والفضيلة والتدين . هذه الأسرة من أسر الأرياف والفلاحين من أهل الطبقة المتوسـطة التى تكون على شىء من اليسار ولطالما هنأت الوالدين على عنايتهما باولادهما وقلت لهما أن الأسرة الفرنسوية لو كانت كلها مؤلفة على هـذا النحو وتربى بمثل هذه العناية وتتعهد بما يشبه هذا الحنان الفتان لاستحت فرنسا أن تشكو من قلة نفوسها وانحلال التربية فى بعض عواصمها . ولهذه الأسرة مئات الألوف من الأمثلة ومثل ذلك يقال فى جميع ديار الغرب

والمثال الثانى الذى رأيته يمثل درجة أخرى من درجات الأسرة رأيته فى ايطاليا فى قصر من أعظم قصور الكبراء الذين جمعوا بين الطريف والتليد وأعنى به منزل صديقى الامير ليوني كايتانى الذى صرفت أياما فى الاشـتغال فى مكتبته أبحث عن تاريخ بلادى وأجدادى فان هذا الرجل الشريف فى أمته الغنى بعلمه وماله لم يرزق سوى ولد واحد هو دون العاشرة ولما جاء وقت تعليمه أرسله الى سويسرا يتعلم فيها ولم تأخـذه الشفقة عليه وآثر أن لا يراه وأن يربى تربية راقية صحية على أن يكون فى داره القوراء بين والديه وأهله وقبيله .

والمثال الثالث آتيكم به من بودابست عاصمة المجر فان العلامة غولد صهير شيخ

المشرقيات فى هذا العصر لم يرزق سوى ولد واحد علمه فلما زوجه أخرجه من بيته على عادة الافرنج فى اخراج أولادهم من دورهم متى شبوا وتأهلوا ليؤلفوا أسرة برأسهم ويعيشوا مستقلين عن أبويهم فلا يقع نفور بين الكنة وحماتها ولا بين الولد ووالده . والراحة فى الاستقلال فى كل شىء . هذه أمثلة ثلاثة من أطوار الأسرة الاوربية تمثل أطوار تلك الأمم أما تحليل أجزاء تلك التربية ومادة تلك النفوس الكبيرة فيحتاج لمعمل كيماوى كبير يحشر اليه علماء التربية من أجدادنا والمحدثين من أهل الغرب ليقولوا لنا خلاصة تحليلهم لمادة الحياة الاوربية النامية . والعبرة بالكيفية لا بالكمية .

دعانى الأستاذ غولد صهير لتناول طعام العشاء فى بيته وقال لى أنه سيكون معنا ابنه غولد صهير المهندس وكنته ولما قدمنى اليهما قال لى : ان كنتى وهى تعرف خمس لغات فقط تكتب بها وتتكلم بسهولة عارفة بالآثار المصرية [illegible] فقلت لها : بارك الله فيك أيتها العقيلة المحترمة : مجرية في مقتبل الشباب تدرس آثار مصر ومصر باريز نا وأهلها أرقى شعب اسلامى ليس فيهم لدرس آثار بلادهم سوى رجل واحد هو العلامة أحمد كمال بك وكيل المتحف المصرى هذا الرجل الفرد فى وادى النيل يتوفر على البحث فى عاديات مصره على الاصول الغربية وهو منذ زهاء عشرين سنة يلوب على من يعلمه مايعلم ليخلفه على الاقل فى منصبه لانه بلغ سن الشيخوخة ولم يجد فى ثلاثة عشر مليون مصرى من يقبل على تعلم ماأفنى حياته فى تحصيله وألف فيه ونوع الاساليب فى نشره فى الكتب والمحاضرات والمقالات . أنا أعلم أيتها العقيلة النبيلة أن فى أوربا نحو عشرة من علماء الآثار المصرية ولكن ما كان يخطر لى ببال أن أرى في بلاد المجر فتاة تشارك الرجال فى علمهم وتساهمهم في من يحتاج الى نظر دقيق ومادة منوعة في العلم . فان كان نساؤهم على هذا المثال فلا عجب اذا كان من رجالهم العجب العجاب

الى اليوم لم نفكر فى هذا الشرق الاقرب فى تعليم فتياتنا كما يتعلم فتيات الغرب ، والنساء نصف البشر ولا يقوم النصف الاول الا بنهوض النصف الثانى فان كانت كنة غولد صهير أستاذ تفسير القرآن والأصول والحديث والملل

والنحل فى جامعة بودابست عالمة بالآثار المصرية . فكم عالمة بل عالم عندكم معاشر العرب بآثار البتراء وبعلبك وجرش وتدمر وبابل وأشور وحمير والحيرة

أنا مع الأسف على كثرة بحثى فى تراجم الناس وأيامهم لا أقدر أن آتيكم بواحد يكون على النمط الاوربي فى بحثه ودرسه كما لا أجد فى أمتى المهندس الذى أريده ولا الكيمياوى ولا الطبيعى ولا المصور ولا النقاش دع من يماثلهم من النساء اللاتى شاركن الرجل فى معظم حياته المادية والمعنوية فى الغرب . وعما قريب يشاركنه فى الحياة السياسية .

كل ما تعلمناه الى يوم الناس هذا . وقلدنا فيه الامم الراقية لم يخرجنا من الظلمات الى النور . فلم نبرح عيالا على الغرب فى معظم شؤوننا ومرافقنا وقيام أمرنا ، فما دمنا نريد التحرير السياسي وليس لنا من أسباب التحرير العلمي قليل ولا كثير هيهات أن تقوم لنا قائمة .

كيف تعمر بلادنا وتستبحر الحضارة فيها ونقلد الغربى فى حياته السعيدة وليس عندنا مصور ولا مهندس ولا نقاش ولا معمار ولا موسيقار ولا كيمياوى ولا غيرهم وزيادة على ذلك جهل النساء وهو من أعظم الويلات .

لم نعمل حتى الآن احصاء بعدد الاميين فى بلادنا ولكن المفهوم ان عدد الاميين هو ٩٥ فى المئة فى بلاد العرب فى حين أصبح عدد المتعلمين فى أكثر مدن الغرب مائة فى المائة تساوى فى الاخذ من العلم بالحظ اللازم النساء والرجال والمتعلم منهم التعليم الابتدائى أرقى من المتعلم منا التعليم الراقي وكل شىء نسبى

قالت لى فتاة بولونية فى الثامنة عشرة من عمرها تدرس علم التربية والتعليم فى جامعة جنيف على أحد مشاهير هذا العلم وهى عارفة ببضع لغات أوربية وقد سألتها عما تقصده من تعلم هذا العلم فقالت : أريد أن أؤسس مدرسة فى بلدى لان الواجب على المرء ان يكون شيأ فى هذا الوجود . فقلت لها : جزاك الله عن هذا السعى لامتك خيرا ولكن نساءنا فى الشرق لا يردن ولا يريد أولياؤهن مثل ما تريدين ، اكتفين بان يكن لا شىء فى هذا العالم ولذلك لا تجد بين ألوف من الطالبات البولونيات والروسيات والمجريات والالمانيات والايطاليات والرومانيات

والبلغاريات والصربيات واليونانيات والاسبانيات والبرتقاليات والبرازيليات والارجنتينيات طالبة عربية اللهم الا واحدة مصرية فيما أعلم تساهم بنات جنسها وتزاحمهن على دكات الجامعات فى سويسرا وفرنسا وانكلترا وألمانيا فتأملوا حال أمتكم وانظروا الى أى درجة بلغ بين أظهركم انحطاط عقول بنات حواء .

كلما نظرت ملياً فى سعادة الحياة فى الغرب وشقائها فى هذا الشرق يتجلى لى سر تعليم المرأة كما يعلم الرجل وانها هى التى أوجدت تلك الحياة البيتية السعيدة فبالحب والجمال والعواطف والرغبة فى الكمالات تمت للبيت الغربى سعادته ومن سعد فى بيته أو توقع السعادة فيه كان حرياً بأن يعمل الأعمال العظيمة خارجه اذ يجد له فى منزله سلوى وعزاء وراحة وهناء .

رأيت كثيراً من شباننا يشكون انحطاط تربية المرأة العربية وقلة ماعندنا من الفتيات المتعلمات اللائي يلقن للزواج الذى تكون من سعادة أسرة حديثة قوامها الآداب العصرية والفضيلة والمعارف ولكننى لم أرشابا من هؤلاء المتعلمين ولا ممن سبقوهم من العلماء من عنى بتعليم أخته أو ابنته التعليم الراقى ولا من فكر في تأسيس مدرسة ابتدائية على الطراز الحديث لتلقين البنات مبادىء تنفعهن حقيقة فى تأليف البيوت التى يرفرف عليها طير السعد والرغد . النظريات عندنا كثيرة ولكن العمليات لم نسلك طريقها وياللاسف حتي الآن

أوربا ممدنة العالم وجنات النعيم المقيم وقرارة الراحة ومستقر الهناء أيقضى ياترى على مدنيتك البديعة وتنحل بما حوت ديارك من جمال الوجود وجمال الفعال ووفرة العلم والغنى وآثار الغبطة ومعاهد الصفاء والنعمة ليقوم الشرق فيستلم زمام هذه المدنية ويكمل مابدأت به أو يمزقه تمزيق الاخرق الاحمق كثروة ورثها وارث لم يعرف قيمتها أم تسلم لك هذه الحياة السعيدة وتقل مؤلماتها وموبقاتها ويعم الشرق أثرها ويشاركك فى كل معنى من معانيك البديعة ويكون حظه كحظ البلاد الراقية من ربوعك ويتحرر من أسره السياسى وأسره الاقتصادى وأسره العلمى ويتخلص من التبعية لك فى كل مايدل على ضعفه وتراجع أمره .

تيار الغرب ينهال علينا فيأتينا تارة بحمأة وطوراً بقليل ماء فهل نرزق التوفيق

ياترى فنكرع من معينه ونطرح كدوراته أم نتناوله على علاته ولا نكاد نسيغه .

ان مالدينا اليوم من أسباب القوة لايقوم فى وجه ذاك التيار لانها ضئيلة لاكفاء لها بالمقاومة . ولعمرى أن ألف أمي وأمية لايوازى عقلهم عقل متعلم أو متعلمة واحدة .

كانت حكوماتنا ومجتمعاتنا حتى الآن تعد الجهل قوة والانحطاط نهوضاً . وكلما كانت الأفكار منصرفة الى وجهة واحدة يعينها صاحب الشأن كانت تلك المجتمعات تغتبط وتفرح . ولطالماقال بعض من أحسنت الأمة ظنها بهم قروناًواستولوا على عقلها وقلبها وتصرفوا بعجرها وبجرها اذا قيل لهم أن العلم الفلانى مفيد ينبغى أن يكون فى الأمة أفراد يعرفونه : أن هذا العلم لاتنفع معرفته ولا يضر جهله .

بيد أن الأيام أثبتت أننا فى أشد الحاجة لكل علم وفن ومجتمعنا العربى العثمانى لايقوم حق القيام الا متى عمد أفرادنا الى الأخذ من كل مطلب من مطالب الحياة كما هى سنة من سبقونا . ومن الأسف أننا لم نبرح فى مجتمعنا نشاهد ناشئتنا الكريمة على الاغلب تميل الى المذاهب الاتكالية وأكثرها يؤثر التوظف فى فروع الادارة والجندية ولوكانت هذه غير رابحة فى الجملة . ان جعل وظائف الحكومة هدفاً لنا فى تعلمنا هو الذى أفقر هذه المملكة وجعلها فى مؤخرة الممالك فى عمرانها وثروتها وراحتها . والمال أساس الاعمال ولا يأتي به الا المتعلمون من الرجال .

فهل لكم يارجال الأمة أن تحققوا هذا الظن بكم فقد سئمنا ونحن نسمع من أقيال المتعلمين من أمثالكم على الوظائف والزهد فى الصناعات الحرة وانى لاأخجل اذا قلت أن صانع الخزف والفخار والقرميد أنفع لهذه الأمة من وزير متوسط القريحة ضعيف مادة العلم لايحسن عمله وقد وصل الى منصبه بالمصانعة والشفاعات وان دباغ الجلود أو صباغ الحرير والقطن أشرف من فقيه تعلم بعض فروع المعاملات ليتولى بعض الاعمال القضائية والشرعية .

وبعد فرجائي اليكم ياشبان هذه الامة ، وبغيركم لاتجدد شبابها ، أن تجعلوا نصب أعينكم الاعمال الاستقلالية ويكفى بعضكم أن يتولى الاعمال الادارية وغيرها فى المملكة فان الكل لاتتسع خزينة هذه الامة لاعاشته خصوصاً وأنتم تعلمون

مائة الموظفين وان حيوبهم فى الغالب فارغة تتقاذفها الرياح لانها خالية وهم على الدوام مثل تجار البورصة اقبال وادبار والادبار فى الا كثر هو الغالب .

من لى بأن يعمل كل واحد من شبان هذه الامة الواجب عليه أولا ويتوفر على دراسة الفرع الذى يمت به فإن سن الدراسة معينة محدودة لا ينبغي أن يعمل فيها مايجب عمله فى غيرها ومتى أتم الطالب ذاك الدور فلا جناح عليه اذا اشتغل بالعموميات فمشاركة الطالب فى المسائل العامة يجب أن تكون فى سن الدراسة الى حد محدود وبعد ذلك فهو فى حل من الاشتغال بما أراد .

أنا أحب أن أشهد من أبناء أمتى وقرة عينها رجالا يفكرون فى ترقية نفوسهم وذويهم وبيوتهم والاخذ بأيدى اخوانهم أكثر مما أحب أن أراهم يفكرون فى المسائل الاجتماعية الكبرى التى يضيع بها الوقت على غير طائل بالنسبة اليهم وان كان الواجب على كل وطنى أن يصرف من فكره ووقته شطراً ولو قليلا للنظر فى المسائل العمومية .

تلامذة الكليات فى ألمانيا هم الذين هيأوا الوحدة الالمانية ووضعوا أساسها فى القرن الماضى ولكن كان العلم رائدهم وكان عملهم يقف عند حد محدود فهل يأتى يوم على هذه الامة البائسة ياترى تشهد فيه طلاب مدارسها العليا بعد أن يتموا وظائفهم المدرسية يفكرون فى الخير العام لامتهم خصوصاً متى أتموا سنى الدراسة وأصبحوا أحرارا فى أعمالهم واراداتهم . نعم أيها الاخوان « ان الشفيق بسوء ظن مولع » وان مايتمثل للانظار من مدنية أوربا مهما كان ظاهره فيه الرحمة فرحمته لاهله لا لنا ونحن لارحمة لنا الا اذا أتتنا على أيدى رجال لنا أمثالكم وهؤلاء لايأتون بعمل تام الا اذا شاركهم النساء وحسن نظام البيوت وتنظيمها على الاساليب الغربية نعم نحن لاحياة لنا الا اذا تعلم الرجال وربات الحجال التعليم اللازم وقام كل واحد بواجبه ووجدنا المقاصد فى التربية والتعليم .

ان القليل المتعلم منا لايؤلف أقل أمة صغيرة . وهذه الزهرات التى أراها مهما بلغ من نضارتها تضيع بين ماهنالك من عوسج وبلان فلا سبيل الى وقايتها الا بتنقية هذا الشوك ما أمكن ولا ينقى بغير معول العلم والتربية ومعرفة الواجب والعمل بسنة

الغرب التى سلكها في الترقى على تعديل طفيف يدخل فيها بطبيعة الاقاليم والعادة .

ان ناديكم هذا مثال من أمثلة التضامن ولكن أمتنا لا تعد مرتقية الا متى كان فى كل مدينة بل فى كل قصبة من مدنها وقصباتها أندية تنسج على منواله فى التعارف والتعاطف وتوقد فى الصدور جذوة الغيرة الوطنية وتحمس النفوس الى طلب العلم ويأخذ القوى بيد الضعيف حتى يساويه في المنزلة ويتدبر الكل فى مستقبل مجيد للامة يخرج بها الى حالة أحسن من حالتها الآن ويتعلم ابن الفلاح الصغير كما يتعلم ابن الغنى الكبير واذا لم تقم جميع أعضاء هذا الجسم لا ينمو ولا يتم له البقاء .

واجباتكم أيها الاعزة كثيرة جداً والاولى البداءة بالجزئيات ولكن على شرط أن نبدأ ونجعل تاريخ الامم التى نهضت قدوتنا ومهماز نا على العمل يجب أن تكون مدنية الغرب اذا أردنا أن نحيا حياته مصدر نا ومورد نا وبدون ذلك الفناء المطلق والعياذ بالله أو الاندماج فى جسم الامم الغربيـة التى تبسط أيديها علينا اليوم بعد اليوم .

اننا لا نحيا الا بقوميتنا على نحو ما كان أجدادنا أمس وحال أمم الحضارة الحديثة اليوم ولكن هذا اللفظ الجميل ـ لفظ القومية ـ لا يطابق معناه مبناه الا باتخاذ جميع أسبابه على نحو مايعمل المجر والبولونيون والايطاليون وما يجرى من منافسة محمودة بين الفالونيين والفلامنديين فى البلجيك والالمانيين والفرنسويين فى سويسرا

ومن دواعى الحسرة ان من رحلوا من أبناء العرب الى ديار الغرب يدرسون في معاهد العلم ليستحقوا الاسم العربى الشريف بالفعل لا بالقول أقل عدداً من أكثر عناصر هذه الدولة . نعم هم أقل من الاتراك والروم والأرمن هـذا مع أننا أكثر من نصف سكان هذه المملكة المحبوبة وبلادنا أغنى من بلاد تلك العناصر التى أخذت ماستطاعت من الحكومة لتعليم أبنائها وقامت بسد العجز من أموالها الخاصة .

بلغنى أن فى نية الحكومة السنية ارسال ستين طالباً من أبناء العرب الى مدارس أوربا العليا فان صح النبأ عد من أعظم الاصلاحات . وان كان هذا العدد دون الواجب أيضاً وذلك بأنا اذا ضمنا عـدد طلابنا الآن بستين طالباً بلغ من قابل مجموع طلبتنا فى الغرب مائة وعشرين وهم لا يبلغون نحو سبع طلبـة الايرانيين

في مدارس أوربا مع أن العرب العثمانيين أكثر سواداً من الايرانيين بالتحقيق .

هذه عددنا وهـذا ماأعددناه ؛ هـذه أدواؤنا وتلك أدويتنا ، وبأيديكم وأيدى أمثالكم خلاصنا ، فلا تخيبوا آمالنا فيكم معاشر الشبيبة المستنيرة العبء ثقيل عليكم وبتضامنكم وتماسككم يهون كل عسير على شرط أطراد العمل وأتقانه ، ومضاعفـة الافعال أكثر من الأقوال ، وصرف المسعى الى المنتج النافع ، والزهد فى التافه العبث . والله يتولاكم ويسدد مراميكم ، ويقر عيون أوطانكم بنجاحكم ويجعل منكم أعضاء عاملة فى جسم مجتمعنا وأصواتاً داعية الى كل نافع ورافع أنه سميع الدعاء

ارض يونانه

٦٨

اغتنمت فرصة ارساء الباخرة الرومانية التى ركبتها من الاستانة الى الاسكندرية في ميناء بيرا لازور آتينة مدينة ارسطو وسقراط والمسافة بين بيرا وآتينة تسعة كيلو مترات تقطعها السكة الحديدية الكهربائية فى خمس عشرة دقيقة . رأيت آتينة مدينة وسطى لاتزيد نفوسها عن مائتى ألف وهى فى منبسط من الأرض وعلى مقربة منها أكمة قام عليها الاكروبول والمدينـة نظيفة فى الجمـلة مبلطة أرصفتها بحجر أبيض يشبه الرخام وفيها حدائق نظيفة وابنيتها الحديثة من الرخام أيضاً وأهم مالفت نظرى فيها معاهدها التى قامت بعطايا المحسنين من أبنائها مثل الستاد أو الملعب العجيب الذى أنشىء بمال أفيروف ونصب تمثاله أمامه . وافيروف هو الذى خلف ملايين من الفرنكات أعطاها لأمتـه ومنها أنشأت قسما من الدارعة اليونانية المنسوبة لاسمه .

نعم فى آتينة تتجلى عطايا اليونان المحدثين فترى مدرسة البنات عالية داخلية وخارجيـة أنشأها ارساكى من ماله وترى مكتبة الامة أسسها فاليانوس وترى لافيروف حبوس النساء والاولاد ولسنيا المجمع العلمي ولسينكروس حبوس الرجال

وقد أنشأ على نفقته من آتينة الى فالير طريقاً معبـدة وطولها ٩ كيلو مترات .
وأنشأ فارفاكيس مدرسة عالية للأولادوجاياس قصرالمعرض وهومؤسس مدرسة البنات العليا للروم فى الاستانة وهكذا تجد فلاناً من أغنياء اليونان أنشأ مدرسة صناعية وآخر مدرسة زراعية وغيره مدارس أبتدائية وليلية للفتيان والفتيات فتجد اليونانى مع أنه أكثر الامم هجرة لبلاده ـ لأن نصف اليونان هاجروا الى مصر والسودان وأميركا وشواطىء البحر المتوسط وغير ذلك من البلاد ـ أكثرهم تعلقاً بحبها وتفكراً فى انهاضها يغتنى أحـدهم من مصر أو من أميركا ويجود بالالوف لبلاده لينهض بها وهذه خاصة من خصائص اليونان وان كان المشهور عنهم كزازة الايدى .

نهضت يونان فى المدة الأخيرة نهضة عظمى بفضل نشر التعليم على اختلاف صنوفه بين أبنائها وهو الدواء الشافى لكل مرض اجتماعى .

التعليم فى يونان مجانى اجبارى وفيها اليوم ١٤١٤ مدرسة ابتدائية للذكور منها ١١٩٧ من الدرجة الأولى و ١٣٤ من الصف الثانى و٢٩ من الصف الثالث و ٥٤ من الصف الرابع وعندهم ٤٠٠ مدرسةللبنات منها ٣٠٠ من الدرجةالاولى وفى القرى ٨٨٤ مدرسة تقبل الذكور والأناث على السواء وعندهم مدرسة عليا لتخريج المعلمات وقد أنشأت جمعية آتينة الأدبية عدة مدارس مسائية يتعلم فيها مئات من الفتيان المضطرين أن يعملوا فى نهارهم وليس لهم من الوقت غير الليل . فى يونان ١٨٧٨ أستاذاً و ٦١٠ معلمات و٧٦٨ معلماً في مدارس الاولاد فى الحقول ولهم مدرسة صناعية عليا تنقسم الى قسمين قسم يعلم الفنون والعلوم ويخرج المهندسين والميكانيكيين ومنهم من يعد من الدرجة الأولى والقسم الآخر يعلم الصناعات النفيسة أى النقش والرسم والتصوير والحفر والصناعات النقشية . وعندهم مدرسة تجارية ومدرسةجامعةعليا فيها أساتذة اشتهروا بأعمالهم العلمية حتى فى أوربا .

هذا مع أن لليونان فى الممالك العثمانية مدارس كثيرة راقية فان لهم فى الاستانة وحدها ٧٨ مدرسة فيها ٥٩٧ معلماً يدرسون ١٦٠٣٧٣ طالبا دع مالهم فى البلاد

التى ضمت الى بلادهم حديثاً وكل المدارس التى هى خارج عليهم لا تنال شيئاً من الرواتب من الحكومة بل ان يونان هناك يقومون بنفقاتها .

ربما لم تصب بلاد بمصائب الهجرة أكثر من اليونان فان الداخل منهم الى نيويورك وحدها كل سنة يقدر باربعين ألفاً فما بالك فى الاقطار الأخرى فاذا كان عدد يونان قبل الجزر وسلانيك ويانيا التى انضمت اليهم نحو ثلاثة ملايين فان المقدران مثل هذا العدد منهم موزع فى أقطار العالم وهم يحافظون على لغتهم وعاداتهم حيثما كانوا بحيث كادوا يجعلون لغتهم في الاسكندرية ومصر والاستانة لغة رسمية لكثرة انتشارها وحرصهم على التناغي بها .

ومع كثرة المدارس فى اليونان ترى طلبتهم فى جامعات الغرب كثاراً جداً ولا سيما فى باريز ولندن . واليونان ان لم يكونوا أكثر الامم اقبالا على تلاوة الصحف والتشوق للاخبار السياسية فهم فى جملة الامم المتقدمة فى هذا الشأن فلا تكاد تجد واحداً لا يتلو جريدة أو كتاباً أو مجلة فى كل مكان والفقير منهم يستعير جريدة جليسه ولذلك لا تربح جرائدهم كثيراً فان لهم فى أثينة (١١) جريدة يومية واذ كان العدد الواحد ينتقل من يد الى أخرى كما تنتقل جرائدنا فى الشام ومصر فى أيدى قرائها الذين لا يحبون أن يشتركوا ولا أن يبتاعوها اقتصاداً بارداً منهم صعب على جرائدهم ان ترقى .

ولليونان جرائد كثيرة فى الاستانة والقاهرة والاسكندرية وجرائد أسبوعية فى بعض عواصم أوربا ومنها ما يصدر بغير اللغة اليونانية ليبثوا فيها أفكارهم ويؤثروا فى الاسواق المالية والمجالس السياسية .

هذا ما أمكن الالماع اليه من حالة رقي المعارف فى يونان وأرضهم القديمة قبل الحرب لم تتجاوز ٦٤ ألف كيلومتر مربع وهى غير مخصبة فى الجملة بل أكثرها جزر متقطعة فى عرض البحر حتى ان سواحلها تبلغ فى مساحتها سبع مرات مساحة سواحل انكلترا وتربو ١٢ مرة على سواحل فرنسا ولذلك كان اليونان فى كل زمن يحصرون قواهم فى بحريتهم ويصرفون فيها أموالهم وقسما عظيما من ميزانيتهم وقد كان لبواخرهم التجارية يد طولى فى استقلالهم سنة ١٨٢٤ لا ينكرها التاريخ .

واختلف العلماء فى أصل اليونان الحاليين هل هم من نسل القدماء الذين ملأوا الأرض فتوحا وفلسفة وصناعات نفيسة والأرجح عند الباحثين فى أصول الشعوب أنهم اخلاط من الناس جاؤا منذ قرون الى هذه الارض واستعمروها بعد أن فرغت من سكانها الاصليين أما هم فيصعب عليهم سماع هذا الحجاج ويحاولون بالطبع أن ينتسبوا لافلاطون وأرسطو وسقراط وديوجنس وهوميروس وغيرهم من فلاسفة يونان الذين بيضوا وجه التاريخ بعلمهم وحكمتهم.

آثينة تشبه المدن الاوربية ممزوجة بشيء من الحياة الشرقية ولكن الفقر ظاهر على السكان والغلاء فيها أكثر من جميع أوربا قال صاحب كتاب يونان الحديثة (1) ان أسعار العيش فى يونان يزيد ٥٠ فى المئة عما هو عليه فى انكلترا ونحو ٢٥ فى المئة عما هو فى الولايات المتحدة

المدنية الرومية الحديثة منقول أكثرها عن فرنسا وفرنسا ساعدت اليونان كثيراً ولذلك حفظوا لها جميلها ومابرحوا حتى اليوم يتخذونها معلمة لهم ومربية حتى أن معلمي جيشهم الى الآن هم ضباط من الفرنسيس وفى الحرب الالمانية الفرنسوية بعث اليونان بكتيبتين من متطوعتهم ليقاتلوا فى صفوف الجيوش الفرنسوية فقتل بعضهم وبيضوا وجوههم مع من أسدى اليهم جميلا ومن طبع اليوناني معرفة خدمة الأمزجة المختلفة والميل الى النافع له ما أمكن بكل وسيلة.

ان ما فى آثينة من بقايا العاديات القديمة ليس بالشيء الذى يلفت نظر السائح اللهم الا اذا أحب أن يزورها ليتذكر مافيها. وأين عظمة رومية من عظمة آثينة ولا نغالى اذا قلنا ان بقايا عادياتنا فى جرش ووادى موسى وبعلبك وتدمر أفخم وأعظم من بقايا عاديات اليونان كلها التى لم تقو على عاديات الايام.

فى العاصمتين

٦٩

رأيت هذه المرة فى العاصمتين عاصمة الترك الاستانة وعاصمة العرب القاهرة ماطالما شكا منه الاجتماعيون من الاتكال المجسم والغلو فى حب التوظف والاستخدام

(1) Percy F. Martin la Grèce nouvelle

رأيت ابن الاستانة لا يفكر ولا يريد أن يفكر فى غير استحصال الرزق من باب الحكومة ورأيت المصرى كذلك كلاهما يستميتان فى طلب الوظائف وقد زهدا فى الاعمال الحرة فلا تكاد ترى فى الاستانة متعلماً الا وهو يرغب أن يبيع استقلاله من غيره ويكون بيده آلة تحرك بدون اختيارها . ومن الاسف ان هذا الخلق استحكم حتى لا تشهد سوى أسباب الرزق الضئيلة بيد الاتراك أما التجارات الواسعة والصناعات الرابحة فهي للرومى والارمنى والالمانى والافرنسى وغيرهم من الشعوب والامم وكذلك المصرى المتعلم لم يتعلم الا للخدمة فى الدواوين وترك التجارة وغيرها من مذاهب المعاش للرومى والايطالى وغيرهما .

داء استحكمت حلقاته حتى أفقرنا . يسلب الغريب منا أموالنا يحملها الى بلاده ولا يزال آخذاً بالانتشار والعبر فى القطرين تتلو العبر داعية القومين الى أطراح المذاهب الاتكالية وان ابواب الاستخدام اذا فتحت اليوم قليلا فغداً تقفل حتى فى وجوه الكفاة من الطالبين وخزائن فروق ومصر تضيق صدراً عن انفاق مايلزم من المال على العمال والمستقل فى عمله أنفع لنفسه ولقومه من المتعلق باذيال غيره الذى يعيش عالة على السوى .

كنت فى القاهرة فى زيارة صديق لى من أهل العلم والمكانة فى الحكومة المصرية فجاءته فتاة مسلمة ودفعت اليه ورقة بخطها كتبت فيها صورة ما نالها من من تنحية ديوان الصحة لها من الخدمة فى المستشفى وحرمانها من خمسة جنيهات كانت عينت لها منذ تخرجت من مدرسة القصر العينى وطالبة اليه أن يساعدها لارجاعها الى مركزها .

فقال لها صاحبي أن مصلحة الصحة قد أسدت اليك معروفاً يجب عليك أن تشكريها عليه . وهو أنه فتحت أمامك باب الاستقلال فى عملك ومصر فى حاجة الى طبيبة مسلمة مثلك وليس فيها كثيرات من أمثالك وأنت تكتبين العربية والانكليزية وتحسنينهما كما لحظت من كتابتك فانصح لك أن تعمدى الى نشر اعلانات عن محل تتخذينه وتشتهرين مع الزمن فلا ترضين بعد مدة ان تدفعي هذا القدر من المرتب الذى تعدنيه شيئاً للممرض الذى تستخدمينه فانك سترين بحين

العشرات من الجنيهات فى شهرك وتخدمين بذلك بلادك ونفسك .

فلم يحل هذا الكلام محل القبول من قلب الطبيبة وأخذت تورد الحجج على صحة ماتريده وانه لاقبل لها الا باستخدام ولا رزق لها الا فيه وانها اذا نالت الخمسة جنيهات فقد حيزت لها الدنيا وأخذت بحظ من السعادة لها ولاسرتها لان هذه أنفقت ما كانت تملكه فى تعليمها فلم يعد فى وسعها ان تزيد على ذلك .

وهكذا بقى صاحبي وانا نورد البراهين القاطعة التى تلقن الفتاة معنى الاستقلال وتبعد بها عن مواطن الاتكال حتى كل اللسان وانتهى الامر الى ان يكلم فى امرها أحد اصحاب الشأن ليرجعوها الى وظيفتها التي اخرجت منها من غير سبب ولا تجد سعادتها الافيها .

هذا مثال رايته بالامس فى مصر وكل يوم يقع مثله عشرات فى الاستانة . وان المرء ليأسف جد الاسف على عقول تضيع من غير فائدة واعمال وكفاآت تذهب هباء .

اناس يرضون بالدون من العيش وفي استعدادهم ان يبرزوا في كل عمل تصح ارادتهم على اتخاذه وان يغتنوا ويرتاشوا ويعيشوا مرفهين لا مقتراً عليهم واحراراً لا مقيدين مستعبدين

فى الشرق قوى كثيرة تضيع وبعض مايمكن الانتفاع به من موجوده لايحسن استخدامه والمتعلم من أهله يعتقد أن الراحة والغبطة في الاعتماد على خدمة يخدمها ومادرى أن تعبه في هذه الراحة وأنه لاراحة بدون تعب ولو كان هذا الخلق غرس فى طباع الانكليز والاميركان والالمان والفرنسيس وغيرهم من أمم المدنية الحديثة كما غرس فى طباع سكان هذه الديار ماقامت هذه الحضارة التى تدهشنا ولما استقام نظام الاسرة على صورة تبهرنا آثارها .

اليس من الاسف ان نكون حتى في بلادنا غرباء فاذا اراد احدنا ان يترفه بعض الرفاهية لايجد نزلا ولا مطعما ولا قهوة ولا مسرحا لوطنى بل كلها للافرنج . والتركى والعربى باهتان شاخصان لايعرفان من اين تؤكل الكتف لانهما يجهلان اصول الحياة وتحصيل الرزق ويحبان التفخل والفخفخة وضخامة الالقاب .

ولطالما رأينا من نعدهم من كبرائنا يطأطئون رؤوسهم ذلة لتاجر صغير في مظهره في الحقيقة ولكنه كبير في ذاته لانه جمع مالا وعدده ارادة ان يقرضه مايستعين به على تمشية اموره او يتبلغ به يسيراً ريثما تصرف له مشاهرته. وهذه الحال تراها على اشدها في القطر المصرى لان ابن مصر منفاق على الاكثر لايفكر في أن يوازى غالباً بين دخله وخرجه ولذا انتقلت الاملاك اوجزء كبير منها من ايدى المصريين الى الغرباء والرومى في المقدمة والحال في الاستانة أدهى وامر .

وبعد فحيث اشتد العراك بين الامم وبعبارة اخرى في العواصم الشرقية التي تكون فيها المنافسة على اتمها تجد الوطنى يتضاءل ويضعف امام الغربي بل ينهزم شر هزيمة وتتجلى للناظر صورة الاتكال والاستقلال — بل صورة من العلم النظرى الذى هو القشور وصورة العلم العملى الذى هو اللباب

اشتدت في فرنسا على عهدها الاخير محبة الوظائف وكثر فيها جيوش الموظفين والمستخدمين فأحس القوم بهذه الآفة التى تهدد كيانهم فانشأ بعض المستنيرين حقيقة يستنكفون من تولى الوظائف حتى ضاق ذرع الحكومة اوكاد في البحث عن الكفاة اذ لم يقبل عليها الا المتوسطون وزهد في خدمتها النوابغ وما أنس لاأنسى وزيرا تعارفت اليه في باريز ترك الخدمة وتولى ادارة مصرف صغير وكم في الغرب من رجل عظيم خطبته المناصب فابى وآثر ان يكون تاجراً او صرافا او صاحب معمل او مدير شركة او محرر جريدة او استاذاً في مدرسة على ان يكون وزيراً كبيرا يقدم ويؤخر في مصالح امته ويحل ويعقد في اقدارها . والامثلة كثيرة في هذا الباب فهل يتعظ شرقنا المسكين .

﴿ تم الجزء الأول ﴾

فهرس غرائب الغرب

الجزء الاول

الرحلة الاولى

الرحلة الثانية

المكتبة الأهلية . بمصر

غرائب الغرب

كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي أدبي

فيه كلام على مدنية : فرنسا ، وانكلترا ، والمانيا ، وايطاليا ، واسبانيا ، وسويسرا ، والبلجيك ، وهولاندا ، والنمسا ، والمجر ، والبلقان ، واليونان ، والاستانة ، ومصر ، والشام ومقالات في علائق الشرق بالغرب ، والغرب بالشرق ، منذ الزمن الاطول ، ولا سيما صلات الغرب مع العالم الاسلامي ، والعربي منه خاصة ، في جنوبي ايطاليا وفرنسا والاندلس .

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

— الجزء الثاني —

الطبعة الثانية

١٣٤١ هـ المطبعة الرحمانية — بمصر ١٩٢٣ م

*

الرحلة الثالثة

العربية والافرنسية

٧٠

لما رست بنا الباخرة سفنكس فى ميناء الاسكندرية منصرفنا من دمشق الى باريز (يوم ١٥ تشرين الأول) ١٩٢١ خرجت سيدة باريزية عائدة من سياحة لها قصيرة فى القطر المصرى فذكرت عند أول حديث ماشاهدته ودهشت به فى القاهرة من انتشار اللغة الافرنسية بين طبقات الشعب وجمهور الغربيين النازلين فى تلك العاصمة فقلت لها لا تعجبى فان علاقة الفرنسيس مع العرب قديمة جداً ترد الى أكثر من ألف سنة وبعبارة أصح ترجع الى القرن الأول للهجرة أيام دخل العرب الجنوب الغربي من أوربا فاتحين واستولوا على شبه جزيرة ابيريا أو اسبانيا .

ولقد سردت على السائحة بعض ماعلق فى الذهن من علاقة الأمتين احداها بالاخرى فرأيت أن لا يفوت هذا الموضوع قراء المقتبس أقدمه بين يدى نجواهم بعد طول العهد بمحاورتهم وعسانى أغنم هذه الفرصة السانحة وأحدثهم بما يقع لى فى هذه السياحة الثالثة يضيفونه الى (غرائب الغرب) التى طالما حدثتهم بها لا تزلفاً ومصانعة بل حب الفائدة والاطلاع ورجاء ان ننسج فى حضارتنا على منوال من سبقونا اليوم أشواطاً فى ديار الغرب ونستعيد بعملنا حضارتنا التى أدهشت ابن القرن العشرين وما هى الا ابنة القرن الثامن والتاسع والعاشر ونشفع عمل الأجداد بما يتلقفه الاحفاد عن أهل الحضارة الغربية الحديثة .

بدأت اللغة الافرنسية بالانتشار فى القطر المصرى فى القرون الحديثة على عهد دخول نابوليون الأول وقد صحبه جمهور من العلماء قاموا بأعمال علمية لاتزال ترددها مصر بالشكر وجميل الذكر على وجه الدهر . ولما افتتح محمد على جد

الأسرة السلطانية الحاضرة القطر المصري واحتاج الى تنظيم شؤونه كان أعوانه على ذلك علماء فرنسا فأعانوه فى تنظيم رى القطر المصرى واصلاح جبايته وانشاء مدارسه وتأليف جيشه البرى والبحرى

وما برحت تلك الروح الشريفة التى بثها علماء فرنسا فى مصر على عهدى نابوليون ومحمد على سارية فى أعصاب مصر حتى يومنا هذا حتى كانت سبب سعادتها وعلى الرغم من احتلال الانكليز القطر المصرى منذ أربعين سنة وحرصهم على نشر لسانهم شأن كل أمة راقية لم يبرح العمل الذى قام الفرنسيس بوضع أساسه فى وادى النيل يتسلسل ويجود وجمعياتهم ومجامعهم العامية ومدارسهم شاهد عدل على ذلك .

ولقد تركت مصر منذ اثنتى عشرة سنة وكان يصدر فيها عشر جرائد يومية باللغة الافرنسية وتصدر بها جريدة واحدة باللغة الانكليزية ولكن وجهها الثاني باللغة الافرنسية ومن هنا يدرك القارىء مبلغ تعلق المصريين باللغة الافرنسية وكذلك من فيها من النزلاء اليونان والطليان والأرمن والسوريين وغيرهم من أمم البحر المتوسط . فاذا شاهدنا المصريين منذ أول نشأتهم الحديثة يغشون المدارس فى فرنسا أكثر من انكلترا وغيرها من أمم الحضارة الحديثة واذا شاهدنا لغة فرنسا منتشرة أى انتشار فى القطر المصرى فلا عجب اذا ادعينا والدليل معنا ان مصر ولامراء حسنة من حسنات المدنية الافرنسية كما هى بزراعتها حسنة من حسنات النيل المبارك . ومثل ذلك يقال عن سورية بل عن البلاد العثمانية جمعاء والأمة العثمانية كانت أشد الأمم الشرقية علاقة بفرنسا وعنها أخذت علومها وبروح حضارتها وسياستها تشبعت منذ عهد سليم الثالث . وكذلك فعلت فارس فى القرن الماضى

تلطفت فرنسا فى بث لغتها بطرق مختلفة وأهمها المدارس الدينية والعلمانية التى أنشأتها الجمعيات وأمدتها بالمال وحمتها على مايجب وأرخصت أثمان كتبها وجرائدها وجعلت عاصمتها مثابة المتعلمين والمسترشدين منذ القديم ولا سيما من

سكان الشرق الاقرب فاستحكمت على الزمن علائق الحب بين الأمتين العربية والافرنسية وان ماتراه اليوم من الحركة الاجتماعية السياسية فى مصر والشام وآسيا الصغرى ان هو الا من آثار الجامعات الافرنسية ونور سرى فى عقول العرب والترك فى هذه الديار فانبعثت منه هذه الشعلة التى تراها ويعجب بها الغرب قبل الشرق . فنور الشرق الابعد لعهدنا ظهر فى جامعات السكسونيين ونور الشرق الأقرب تجلى من معارف الفرنسيس اللاتين

ومن الأدلة على توطد الصلات القديمة بين العرب والافرنسيس ومنها كان انتشار لغة هؤلاء بيننا ان العرب أطلقت على أمم أوربا اسم الافرنج أو الفرنجة وهو تحريف (فرنك) Les Francs

وما الفرنك فى الحقيقة الا الفرنسيس أنفسهم اذ كان للغتهم الكفة الراجحة بين لغات أوربا فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام ومصر فقد ذكر ميشو [1] المؤرخ فى كتابه الحروب الصليبية ان الافرنج فى سورية لم يكونوا يتكلمون فى الحرب الصليبية بغير اللغة الافرنسية وكان اسم فرنسا فى الحروب الصليبية يمتزج بجميع الحوادث العظيمة فى تلك الحرب ويسمون المستعمرات التى وراء البحار فى هذا الشرق بفرنسا الشرق

وهذا ولا جرم مبدأ جعل اللغة الافرنسية لغة دولية رسمية بين أمم الحضارة منذ الزمن الاطول فكانت المفاوضات والاجتماعات والعقود والعهود السياسية والتجارية تجرى باللغة الافرنسية بينهم وخلفت هذه اللغة اللاتينية فى أوربا فى هذا المعنى وكان لها المقام الأول الى النصف الأول من القرن الماضى وقد كانت فرنسا هى المرجع الأول فى السياسة الاوربية ولم يكن ذلك بصنع رجال السياسة من أبنائها فقط بل بصنع علمائها وما توفروا عليه من خدمتها أمثال باسكال وموليير وفولتير ومونتسكيو الذين أقاموا دعائم مجدها ودعوا ساسة الامم الى الاعتماد عليها فى السياسة والتجارة والاصطلاح عليها فى المخاطبة والمكاتبة

(1) Michaud : Histoire des Croisades

لما فيها من الخصائص ولانها من بين اللغات الاوربية أكثرهن وضوحاًومنطقاً وبياناً ولاذالنثر الفرنساوى تام فى ذاته لامثيل له فى آداب الامم الاخرى بشهادة كثير من الالمان والانكليز .

نعم كانت الافرنسية وما زالت شائعة عند أبناء الطبقات المستنيرة والشريفة فى روسيا وفنلندا والدانمرك وألمانيا والنمسا وايطاليا والمجر وهولاندا واسوج ونروج واسبانياوالبورتقال بل وفى انكلترا . دع رومانياواليونان والتشكوسلافاكيا واليوغوسلاف ومصر والجزائر وتونس وغيرها ولم تضعف العناية بها الابانتشار فكرة القومية بين الشعوب المتحضرة فاضحت كل أمة تعنى بلغتهاالوطنية قبل كل لغة وتنقل الى لغتهاجميع ماتحتاجه من العلوم والصنائع عن أشهر علماء الأرض ومع هذا ظل للافرنسية المقام الأول بين لغات الغرب وان كان الناطقون بالانكليزية والالمانية أكثر عدداً

في الأرض مائتان وثمانون مدرسة جامعة، من صنوفهاتنبعث منها أشعة المدنية وفرنسا يصيبها من هذا المجموع سبع عشرة [1] فى أرضها وأربع فى البلجيك تدرس بالافرنسية وأربع فى سويسرا كذلك فلغة يتعشقها أهل الطبقات المستنيرة فى الارض وتخدمها فى كل العلوم خمس وعشرون جامعة هى لغة حية يحتاج الناس اليها بحسب قربهم وبعدهم عن بلادها وعلائقهم الحاضرة والغابرة بأهلها

مواطن اللغة الافرنسية

٧١

انتشار لغة الامة تبع لحاجة الناس اليها ولسياسة أهل تلك اللغة وتفوقهم

(١) أنشئت جامعة باريز فى سنة ١١٥٠ وجامعة مونبليه نحو ١١٨١ وجامعة كرونوبل ١٣٣٩ واكس مارسل ١٤٠٩ وبزانسون ١٤٨٥ وبوردو ١٤٤١ وكان ١٤٣١ وكلرمون ١٨٠٨ وديجون ١٧٢٤ وليل ١٥٣٠ ونانسى ١٥٧٢ وليون ١٨٠٨ وبواتيه ١٤٣١ ورين ١٧٣٥ والجزائر ١٨٤٩ وستراسبورغ ١٨٧٢ وتولوز ١٢٣٠

فى مضمار الصنائع والتجارات . ان تاريخ نشوء اللغة الافرنسية لا يتجاوز العشرة قرون فمن المؤرخين من يرى ان ذلك يرد الى معاهدة فردون التى عقدت سنة ٨٤٢ ولكن هـذه اللغة لم تؤلف حقيقة الا فى القرن الحادى عشر وكلما كانت سياسة فرنسا تقوى تزداد لغتها انتشاراً ويعتمد عليها فى كتابة العقود والعهود والمخاطبات فأصبحت على الزمن لغة علم وسياسة ودامت محتفظة بهذه المكانة الى أواسط القرن الماضى

جاء في تاريخ اللغة والآداب الافرنسية (١) ان هذه اللغة لاسباب سياسية كثيرة ولكثرة مالقيت فرنسا من المصائب والانتباه العام فى روح القوميـة فى شعوب أوربا المختلفة كل هـذه الأسباب جعلت من المستحيل بقاء الامتياز الذى كان لفرنسا فى القرن الثامن عشر . واذا بقيت لغة السياسة فذلك أشبه بالسلطان في احتفاظه بالاستانة لان خروجـه منها يولد منافسات كثيرة ولم تعد اللغة التى يضطر الرجل المهذب ان يحسنها كما يحسن لغته

وما برح الناس من مدريد الى بطرسبرج يعتبرون تعلم اللغة الافرنسية من دواعى الظرف والبهجة والفائدة ولئن نازعت اللغة الانكليزية الافرنسية في عالم التجارة وأصبح الناس فى أكثر الموانى البحرية يفهمونها وكذلك انتشرت الألمانية وأضرت فى بعض المحال باللغة الافرنسية وكذلك عم التكلم باللغة الايطالية فى البحر المتوسط فان الافرنسية مازالت منتشرة فى مستعمرات فرنسا القديمة مثل سان بير ومكلون والكوادلوب والمارتينيك والرينيو نولوزيان وعدد النازلين فى تونس والجزائر من أصل فرنساوى ٣٢٢ الفاعدا الجيش . وقدروا سكان كندا الفرنسيس بنحو مليون و نصف وكذلك سكان دومينيك وسانت لوسى وموريس وسيشل .

ومن المتعذر تقدير عدد المتكلمين فى أوربا الغربية باللغة الافرنسية أو باللهجات الافرنسية ولا يفوتنا النظر ان كل من يسكنون أرض فرنسا لا يتكلمون بالافرنسية فان مليونى نسمة من سكانها يتكلمون بلهجات اخرى من أصل جرمانى أوسلتى أو

(1) Petit de Julleville : Histoire de la langue et de la littérature française.

ايطالى أو لغة أخرى ومنها جزيرة كورسيكا وفوق ذلك فان نحو أربعة ملايين نسمة يتكلمون باللغة الافرنسية خارج حدود فرنسا منهم ٢،٨٧٧،٠٠٠ فى الباجيك و٩٠٠٠ فى بلاد ماليدى فى بروسيا الرنانية و٢١٧ ألفاً فى الالزاس والاورين و٦٤٣ ألفاً فى سويسرا وفى تورين فى أودية الااب بضع مئات الالوف يتكلمون الافرنسية أيضاً وكذلك سكان جزائر الانكليز النورماندية فانهم يتكلمون بلهجة نورماندية بحيث انه يمكن تقدير من يتكلمون باللغة الافرنسية فى أوربا الغربيـة بأربعين مليوناً وزيادة

وهـذا العدد قليل بالنسبة للشعوب التى تنمو سكانها نمواً كبيراً كالشعوب الانكلوسكسـونية والشعوب السلافية ولذلك رأينا كثيرين من فلاسفة فرنسا ورجال الاجتماع فيها ينادون بتلافى هذا النقص ابقاء على مجد أمة عظيمة عاشت بمعنوياتها كثيراً كما عاشت بماديانها ومنهم الفيلسوف فوليه فى كتابه نفس الشعب الافرنسية (١) قال : الى الموانع الحربية والاقتصادية الناشئة من قلة السكان يجب أن نضيف تقهقر لغتنا من العالم فقد كان يتكلم بها فى العالم الأوربى ٢٧ فى المئة من السكان واليوم لا يتكلم بها فى العالم كله سوى ٤٦ مليوناً (فرنسيس وسويسريون وبلجيكيون وكرابيون وكناديون) فى حين يتكلم بالالمانية مئة مليون وبالانكليزية ١١٥ مليوناً و١٤٠ مليوناً من الخلق لغتهم الرسمية هى الانكليزية . قال: والتجارة لا تكون خاصة الا بين الشعوب التى تتكلم لغة واحدة فمن الاسف ان عدد الذين يتكلمون بالافرنسية ينقص اه

هذا ماقاله عالمان حجتان بشأن انتشار اللغة الافرنسية ونحن نرى انها آخذة بالانتشار كثيراً فى المستعمرات الافرنسية وفي البـلاد التى لها علاقة سياسية أو تجارية مع الفرنساويين ولـكن المسألة الصعبة هى في حل معضلة تناقص نفوس الفرنسويين بالنسبة لجيرانهم وبهذا كتب التفوق لهم فقد قيل كثرة العيال أحد اليسارين

---

(1) A. Fouillée : Psychologie du peuple français

ومن أجمل ماقاله أحدهم مؤخراً اننا اذا لم نغلب معاشر الفرنسويين بكثرة عديدنا فسنغلب على الدوام بنبوغنا وعبقريتنا . اما لغتهم فتعد في الطبقة الاولى بين لغات الغرب وان عرضت لها بعض العوارض كما يعرض للافراد والامم فانها بالذكاء واتخاذ الاسباب تزول وتضمحل

وبينما انا أنشيء هذه السطور جاءت الصحف تحمل خطبة للمركيز روبير دى ڤاليرا أحد أعضاء المجمع العلمى الباريزى (في اللغة الافرنسية والحرب) قال فى جملتها : منذ وجد البشر وأخذوا يتكلمون نشأت لهم ثلاث لغات واستحقت ان تدعى عامة وهى اليونانية والرومانية والافرنسية فقد قالوا ان اليونانية ترشحت من غناء الارباب والزيزان Cigales فاصبحت لغة الجمال أما لغة الرومان فقد تألفت من جهاد المطامع التى كانت تنبعث من عمل المقننين والجنود فأصبحت لغة الحكم والسلطة وكانت اللغة الافرنسية لغة الظرف والعقل المسالم بتساوق نغمتها ووضوح عبارتها . وهذه خاصية غريبة عرفت بها على الدوام ولا شك ان ذلك أتانا من تمازج العنصر السلتى باللاتينى ونعم التمازج وذكر ان شارلكان كان يقول بانه لو أحب ان يخاطب المولى لخاطبه بالاسبانيولية ولو أحب أن يخاطب النساء لخاطبهن بالطليانية واذا أحب أن يخاطب حصانه يخاطبه بالالمانية ولكن اذا أحب أن يخاطب الرجال فيكلمهم باللغة الافرنسية قال فاللغة الافرنسية هى من بين اللغات اللغة البشرية وبها انتشرت معظم الحقائق على الارض وبالافرنسية أعطيت اجمل الوعود وجرى العمل بها .

قال جان جاك روسو أن لغات الجنوب هى ابنة الفرح ولغات الشمال ابنة الحاجة . وقالت مدام دى ستايل اذ اللغتين الايطالية والاسبانيولية هما موزونتان للايقاع والتلحين بل هما كالغناء الرخيم . والافرنسية لائقة بالمحاضرات والتخاطب ومناقشات النواب . والنشاط الطبيعى فى الامة الانكليزية قد أورث لغتها حالة في التعبير تقوم مقام السجع فى اللغة . واللغة الالمانية أكثر فلسفة من الايطالية وأكثر شعراً متيناً من الافرنسية وأكثر ملاءمة للقوافي فى الشعر من الانكليزية ولكن يبقى لها نوع من اليبوسة جاءتها على الغالب فى كونها لم تستعمل فى المجتمع ولا فى الجمهور .

علائق العرب بالفرنسيس

٧٢

ان البحث فى علاقة العرب بالفرنسيس يحتاج الى محاضرات طويلة فنقتصر من لباب هذا الموضوع على هذا القدر معتمدين على ماقاله سيديليو صاحب كتاب تاريخ العرب وهو من الذين أنصفوا العرب جداً فى التفلسف في تاريخهم كما أنصفهم كثير من علماء الغرب ممن لم يتأثروا بالعوامل الدينية والسياسية ولا أعمتهم الاغراض التجارية والاستعمارية

حدثنا التاريخ ان العرب استولت من أرض فرنسا على اقليم سبتمانيا فى الجنوب الغربي من غاليا (فرنسا) على ساحل البحر المتوسط وعلى مدينة ناربون وجعلوها قاعدة أعمالهم الحربية واستولوا أيضاً على مدينة كاركاسون ونيم واتون وبون وسانس وافنيون وبوردو [1] . ولما أراد الامير عبدالرحمن ان يستولى على تور قام له بين هذه المدينة وبين بواتيه رجل اسمه شارل مارتيل من أمراء تلك البلاد وصده عن بلاده فتراجع العرب ولو ظفروا فى تلك الواقعة لانتشر الاسلام فى فرنسا وسرى منها الى سائر أقطار أوربا

ثم استولى العرب على مرسيليا وأرل بل وعلى أقليم البروفنس فى جنوبى فرنسا ووصلوا كما قلنا الى بواتيه وهى على ٣٣٢ كيلو متراً من جنوبى غربى باريز . حمى شارل مارتيل شمال فرنسا من غارة العرب (٧٣٢ — ٧٣٩ م) وترك للعرب اقليم سبتمانيا حيث أقاموا أماكن دائمة وعقدوا عهوداً مع أهل البلاد وأدخلوا كثيراً من كلماتهم فى الاصطلاحات اليومية فى الحياة وكان رجال الكهنوت في تلك البلاد يؤثرون حكم العرب على حكم الغزاة من الجرمانيين لان هؤلاء لايستنكفون ان يستولوا على أملاكهم الكنائسية . وقد أخذت الصلات العديدة

(1) Sédillot ; Histoire générale des arabes.

تنعقد بين المسيحيين والمسلمين فتزوجت احدى بنات الدوج داكيتين من أمير عربى

ولما رجع العرب عن اقاليم سبتمانيا سنة ٧٥٩ احتفظت العرب هناك باملاكها وبيوتها وعلى عهد شارلمان توطدت العلائق بين العرب وشارلمان ملك فرنسا وتبودلت الهدايا بين هذا وبين هارون الرشيد

وبينما كان التوحش ضارباً أطنابه على غاليا وجرمانيا كان العرب قابضين على زمام الاحكام فى جنوبى فرنسا من جبال البيرينات الى جبال الالب يحملون من مستعمراتهم الى بورغونيا وسويسرا فى الشمال والى التيرول ولومبارديا فى الجنوب ماتعلموه من العلوم في مدارسهم

وفى ذاك العهد انتقلت الى الغرب عادة استعمال الأرقام العربية والكسور العشرية وبقيت أسماؤها مع مالحقها من التعديل عربية صرفة ويذكر سيديليو ان التعابير النادرة جاءت اللغة الافرنسية من العربية أكثر من اللاتينية وان كان فى الافرنسية على عهد أول نهضتها لفظة واحدة يونانية مقابل خمسمائة لفظة لاتينية فمن العدل ان يقال انه كان مثل ذلك من اللغة العربيــة قال فالعرب اساتذتنا فى العلوم بل فى سائر المعارف البشرية

ومع أن علاقات العرب بالاسبان كانت أكثر من علائقها مع الفرنسيس فان عبد الرحمن الثالث الاموى كان على اتصال دائم مع أمراء من اسبانيا وفرنسا والمانيا والممالك السلافيــة (الصقالبــة) وكان القصر الملوكى فى تولوز (فرنسا) صورة من صور قصر الخلافة فى قرطبة يتبارى فيه الشعراء ولما انتقل أحد أمرائهم ليتولى عرش فرنسا سنة ٩٩٩ ادخل ماأخذ عن العرب تبدلا حقيقياً فى باريز من حيث الأخلاق واللغة .

أما الحروب الصليبية (١٠٩٥ — ١٢٩١) فقد ساعدت على هــذه الحركة الاجتماعية كل المساعدة واختلط الفرنسيس خاصــة بالعرب فى الشام ومصر ولا سيما فى حملة سان لويس الذى بقى عــدة سنين فى الشرق وكان لفريدريك الثانى

المعاصر لهذا الأمير حرس من العرب ويستقبل فى قصره أبناء ابن رشد الفيلسوف وكان علم الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية تقرأ فى كتب العرب

ولما انجلى العرب عن اسبانيا (١٤٠٣ — ١٥٧١ — ١٦٠٩ م) جاءت قبائل عربية كثيرة الى فرنسا من جديد ونشرت فيها أسماء بيوت جديدة وكذلك كان من فتح الجزائر فانه أدخل فى الافرنسية ألفاظاً عربية كثيرة ولا شك ان هذه الصلات التى لم تنقطع مدة قرون بين العرب والفرنسيس قد نقلت الى الافرنسية عدداً وافراً من التعابير والمصطلحات الشرقية

ومن البديهى ان العرب كانوا سادة البحر المتوسط فى القرن السابع وبعده فاعطوا الطليان والفرنسيس الالفاظ البحرية وكان الطب العربى أساس علم الطب عندالفرنسيس أخذوه مع كثير من الألفاظ العربية . وكان ملوك فرنسامن أهل العنصر الثالث يقلدون العرب فى كل شيء والعرب نقلوا الى الغرب علوم أتينة وروميه وغيرهم وبلغتهم وصلت الى أوربا بل الى أهل المدنيات الحديثة . ويقول الأب لامنس (١) فى كتابه ملاحظات على الالفاظ الافرنسية المشتقة من العربية ان نحو تسعمائة لفظة أخذتها اللغة الافرنسية عن العربيـة وأدخلتها فى معجمها واستعمالاتها .

هذا مثال صريح من اختلاط الامتين منذ القديم وكان من أثره تأثير لغة العرب فى لغة الفرنسيس ونقل كثير من العادات الشرقية العربية الى أواسط أورباوغربها والفرنسيس ولا سيما سكان الجنوب أشبه بالعرب في طبائعهم ومناخ بلادهم . لاجرم ان طول العشرة تؤثر في كل مظاهر الحياة فى الأمم ولما كانت الشعوب اللاتينية أقرب بيلادها من بلادنا في أوربا وآسياوأفريقية كانت سابقة الأمم الى الحضارة ومنها انتقلت هذه الى جرمانيا وبريطانياوغيرها . فكان تأثرنا بها وتأثرها بنا أكثر من غيرنا من أمم الشرق الكبرى كالصين والهند فسبحان المعز المذل المحول المقلب

(1) Lammens : Remarques sur les mots français dérivés de l'arabe

٧٣

دعانى صديقى الأستاذ المسيو كابريل فران من رجال المشرقيات فى باريز الى حضور محاضرة له يلقيها فى مجمع الابحاث الاوقيانوسية . وهذا المجمع العلمى يبحث فى كل ماله علاقة بالشؤون البحرية أنشأه من ماله ألبر الأول أمير موناكو وهو من فضلاء رجال البحر خدم العلم البحرى خدما جلى ، ومما قام به انشاء مسابير (جمع مسبار) لمعرفة أعماق البحار قاس بها الى تسعة آلاف متر فى المحيط الباسيفكى وأخذ ينفق عن سعة زائدة على هذا المجمع وغيره مما يخدم علم البحار وخص بذلك فرنسا لأنه تعلم في مدارسها وتأدب بأدبها وبلاده صغيرة لاتحتمل هذه العناية ومساحتها عبارة عن بضع مئات من الكيلومترات ، وأهلها بضعة ألوف من الخلق فقط لا يزورهم الا قاصدهم .

وأول ما يذهب الذهن اليه عند دخول هذا المعهد الفخم ، ومعرفة تاريخ امارة موناكو وأميرها وافضاله على العلم يخلد بذلك اسمه ويخدم البشر

ترى ماذا عمل أغنياء الترك وأغنياء العرب للخير العام منذ أربعة أو خمسة قرون الا اذا كانوا استحلوا أكل الأوقاف وعرقوا لحم الفلاح ، ونهبوا أموال الأمة بالطرق المحرمة فى العقل والنقل ، ومع هذا يحترمهم بعض الاغمار ويسجد لسلطانهم عبيد الدنيا وان لم ينالوا من أفضالهم ونوالهم وكان من حقهم أن يجبهوهم ويرذلوهم لانهم كالحلمة الطفيلية فى جسم أمتهم يغتذون من دمائها ولا يعطونها واحداً من مئة مما يجب عليهم اعطاؤه .

يجاد عليكم بأموالكم　　وتعطون من مئة واحدا

وخلاصة محاضرة المحاضر العلامة البحث فى البحرية فى الشرق ، ولا سيما في الصين والهند وجاوه وسواحل بلاد العرب وبحر القلزم والأبيض والظلمات

وذكر أيادى العرب على علم البحار فى القديم وبعض الاسفار البحرية التى قام بها الملاحون من أجدادنا فى القاصية وأثمرت الثمرات المطلوبة الى أن تطرق فى الكلام الى ذكر ابن ماجد الملاح البصرى الذى قام بأعمال بحرية كبرى فى عهد الملاح البورتقالى فاسكو دى غاما الذى كان أول ملاح مهد سبل السير فى البحار على الغربيين وقال ان الملاح العربي اجتمع بالملاح البورتقالى وأظهر له نواقص سفينته وعلمه مالم يكن يعلم .

ولابن ماجد هذا كتاب فى الملاحة دخل دار الكتب العربية بدمشق نسخة منه وتكلم عليها فى أحد أجزاء مجلة المجمع العلمي العربي ، وظفر المحاضر بنسخة منه فى مكتبة باريز وهو الآن آخذ بطبعها بالعربية كما ألفها مؤلفها لانها حوت من الحقائق عن طرق البحار قبل ايجاد البخار ولا سيما فى المحيط الهندى وما يلزم للابحار فيه وما يعترض في طريق سالكه من الجزر والتيارات والأهوية وغيرها ما هو العجب العجاب

وبعد أن أفاض على هذا النحو تعرض لذكر الخليفة المأمون العباسى وعدد ماله من اليد البيضاء على العلم ، وذكر كيف جمع العلماء على اختلاف نحلهم من أقطار البلاد التى كانت مشهورة بارتقائها فى عهده للبحث فى العلوم والصناعات وعلمهم بعمله التسامح وكيف لما غلب ملك الروم طلب اليه أن يسلمه كتب العلم التى عنده وهو عمل مدهش لم يعهد لملك ولا لحكومة ان طلبت مثله من عدوها في القديم ولا فى الحديث ، وبه يعرف قدر المأمون وتفانيه في خدمة الانسانية .

وقال ان عملا واحداً مما عمله المأمون أفضل مما ينسب لوالده الخليفة هارون الرشيد من ليالى ألف ليلة وليلة .

ذكر هذا والحماسة قد بلغت منه مبلغها حتى سرى من كهربائيتها شظايا نالت قلوب الحضور فى ذاك البهو البديع ، وبعد ان استرسل على هذا النحو فى الكلام على مدنية العرب ، وان على الاوربيين أن يعرفوهم أكثر مما عرفوهم تفضل

وذكر اسم كاتب هذه السطور وذكر له عمله العلمي فى بلاده ، ثم علق آمالا على دمشق وسورية وخدمة علمائها للعربية والمدنية ورد على من قال من الانكليز ان الغرب والشرق لا يجتمعان وقال بل يجتمعان ويتمازجان وينتفع أحدهما بأخيه كما هو حاصل الآن وكلما تعارفا زالت الوحشة وزادت الفائدة والعائدة وختم المحاضرة بعرض بعض صور السفن الشرقية القديمة والحديثة بالفانوس السحرى وانفض الجمع وكان من طبقات مختلفة

قلت وكلام العالم المحاضر على الشرق والغرب خاصة كلام من ذاق وفهم وعاشر وسامر . ومعظم أرباب الفهم من علماء المشرقيات في الغرب على هــذه الصورة فى تقريب القلوب ، ورفع غشاوات الجهل والتجاهل ، والامم لا تتحد الا باتحاد المقاصد وبالتساند والتعاضد والشرق محتاج الى الغربي والغربى كذلك وهذا لا يتم الا بالاختلاط ، وأخذ المتأخر عن المتقدم ما تشتد حاجته اليه من العلوم والصناعات .

احتفال الفرنسيس

بالادب والعلم

٧٤

فى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم الثالث من شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢١ احتفل المجمع العلمى الفرنساوى تحت قبة مازارين المشهورة وهى مقره فى مدينة باريز بقبول المســيو جوزيف يديه عضواً فى المجمع العلمي خلفاً للمسيو ادمون روستان المتوفى منذ ثلاث سنين وقد حضر الاحتفال جمهور كبــير من العلماء والأدباء والسادة والقادة والأوانس والعقائل من أهل هــذه العاصمة لا يقل عددهم عن ثمانمائة انسان وكان فى جملة الحضور المسيو ميلران رئيس الجمهورية

الافرنسية بصفته أحد أعضاء مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية لا بصفته رئيساً للجمهورية ، وجلس على كرسي الرئاسة المسيو بارتو مدير المجمع العلمى ، وناظر الحربية والمسيو فريدريك ماسون أمين سر المجمع الدائم ؛ وجلس أعضاء المجامع الخمسة فى مقاعدهم ناحية .

تكلم العضو الجديد أولا فذكر طرفاً من منشأه ؛ ثم أفاض فى بيانه ما شاء وشاءت الاجادة وعدد أيادى سلفه الشاعر روستان على الأدب ، وما كان من احسانه فى شعره ورواياته الشخصية التى أدخلت فى التمثيل الفرنساوى روحا جديدة أقر بها أكبر النقاد والباحثين من أهل العلم حتى من كانوا يقاومون سراً شهرة الشاعر ويضعون العثرات فى سبيل نبوغه

ولما استرسل على هذه الصورة من تحليل روح سلفه الشعرية والأدبية ، وأورد شيئاً قليلا من قصصه وأشعاره ومراميه السامية جاءت النوبة للمسيو بارتو فأجاب العضو الجديد معدداً له خدمه العلمية ونشأته ومن تخرج به من الناشئة منذ عشرين سنة وهو أستاذ فى مدرسة دار المعلمين العاليـة ثم أستاذ فى كوليج دي فرانس ؛ ثم تطرق الى ذكر الشاعر روستان وأشار الى حسنات أخرى له وحاله من وجهة ثانية تحليلا كيماويا أدبياً ببيان هو آخر ما وصل اليه البيان الفرنساوي بعد معالجة أهله له عشرة قرون

دهشت وأيم الحق بما تلا العالمان من خطابيهما اللذين تمثلت لى فيهما الآداب الفرنسوية بأجمل مظاهرها والبلاغة الحقيقية التى أخذت باهداب الموضوع من عامة أطرافه فكان اللفظ فى كلامهما على قدر المعنى والتفنن فى الابداع بالغاً الغاية فى النيقة ، وقد حوى كلامهما من جمال الأسلوب وسحر البيان ما يشهد لهذه الأمة بأنها سابقة الأمم الغربية بأسرها فى البيان والتبيان

سمعت ماتلاه الخطيبان وقرأته فى المساء بحرفيته بامعان وكنت أود لو أعربه لقراء المقتبس لولا أن فيه جملا تحتاج الى شرح حتى يدرك المقصد منها من لم يتأدب بآدابهم من أبناء العربية على ان ترجمته بلساننا تستغرق أعمدة أربعة أعداد من هذه الجريدة على الاقل

تمثلت لى فى هـذه الجلسة التى دامت نحو ثلاث ساعات حالة الأمم الغربيـة فى الثبات وتسلسل الفكر وتقديس الخلف لما قام به السلف فهذا المجمع المؤلف من أربعين عضواً ويسمونهم « الخالدين » مازال يعمل على احياء اللغة وخدمتها منذ نحو ثلاثة قرون يجتمع فى قصره المنيف محافظاً عليه كما كان على عهد انشائه وله من ريع أملاكه ثروة طائلة وكلهم يسيرون سيراً واحـداً ويضربون الى هـدف واحد فى خدمة لسانهم ولا يرون من أمتهم الا التنشيط ولا من الحكومات التى توالت عليهم الا العطف والحرمة . تمثلت هـذا وتمثلت مجمعنا العلمى العربى فى دمشق وما لقى من الحكومة العربية ومن بعض السخفاء لأول مرة من ضروب المقاومة والسخرية فقلت وهـذا أيضاً سر من أسرار الخالق فى خلقه يقضى على الأمم المريضـة بعقلها فى أيام محنتها وسعادتها ان تنكر المحسوسات وتجادل فى البديهيات وتستعدى الصاحب والعشير . والجاهل عدو نفسه .

***

لم أكد أفرغ من هذه التصورات حتى حملت الصحف نبأ مفاده ان رئيس الجمهورية غادر باريز الى مونبليه فى جنوب فرنسا ليحضر الاحتفال بمرور سبعة قرون على جامعة مونبليه الطبية فاستغربت هـذه المصادفة لأن جامعة مونبليه هى ابنـة العلم العربى فلنا فيها حصـة معاشر العرب لا فى بنائها ولا أملاكها ولا فى عروضها وخرتها وكتبها وأدواتها بل فى وضع أساس علم الطب فيها وغيره من العلوم المادية التى كان فيها العرب أيام عزهم سادة الأمم كافة وكانت الأرض تقتبس منهم ويفاخر الأذكياء بالأخذ عنهم .

نعم ان علماء العرب والاسرائيليين الذين قرأوا على عرب الاندلس العلوم الطبيعية على ما كانت معروفة به في القرن الثانى عشر للميلاد هم الأولى أدخلوا الى مونبليه كما حملوا الى كثير من مدن فرنسا وايطاليا وغيرهما بضائع العلوم المختلفة التى خاض فيها العرب وبرزوا وهذا الرأس المال قليلا كان أو كثيراً هو الذى نماه أبناء الغرب فارتقى الى الصورة التى نراه عليها اليوم ولولا العرب لتأخرت مدنية

الغرب قروناً كثيرة بعد وربما ظل الى اليوم كانه فى ظلمات القرون الوسطى

كثير من باباواتهم وكرادلتهم وأساقفتهم وقساوستهم كانوا يأتون الاندلس ويحضرون العلوم المختلفة على علماء العرب ويرجعون الى بلادهم يبشرون بها ومنهم من ارتقى الى كرسى البابوية بفضل ماالقفه عن العرب وكم من كتاب عربي فى علم شريف كالعلم الطبيعى والرياضى والفلك والكيمياء اتصلت بأهل الغرب ترجمته اللاتينية ككتب « كرمونة » الطليانى وفقداليوم أصلها العربى وياللاسف أما الاسرائيليون الذين كانوا يومئذ فى أوربا محقرين مضطهدين فقد كان لهم عند عرب الاندلس مكانة وأى مكانة فجاء منهم نوابغ أيضاً خدموا العلم وأخذوه عن العرب وبشروا به فى بلاد الغرب

فاذا قال بعضهم اليوم ان علم الطب الذى أخذته جامعة مونبليه عن العرب منذ سبعمائة سنة كان مؤلفاً من تقاليد شرقية ومن بقايا الكتب التى نجت من حريق مكتبة البطالسة ففي قوله الفخر أيضاً لناويكفى أن كلام أبقراط وجالينوس لم يبلغهم الا من طريقنا وبلغتنا فترجمه أطباء يهود من العرب وعلق عليه ابن سينا وابن رشد والرازى وابن زهر . وجميع المادة الطبية التى أخذها الغربيون عنا كانت مدة القرون الوسطى بل دامت الى القرن السابع عشر مادة تدريس الطب فكانت مونبليه تقرأ بها العربية لتفهم العلوم المكتوبة بها !

فاذا فاخرت جامعة مونبليه اليوم بتعداد نوابغ رجال الطب والعلم فيها وعددت غناها بأبحاثها العلمية ومبادئها وحياتها وانهاأول جامعة فى أوربا أحدث فيها قصر للتشريح وحديقة للنبات فان هذا الفخر ينالنا منه ولا شك نصيب عند المنصفين ولكن ما الشأن الآن فينا وماذا ينفع الفخر اذا لم نكن نحن اليوم بأخذنا عن الغربيين ما أسلفه أجدادنا اليهم من العلم عاملين على أن نمثله بل نمضغه ونهضمه ونخرج به علماً جديداً فلا نكون مقلدين بل مقلدين أو مجتهدين معاً . وعقل البشر ماسدت عليه منافذه وفضل الله لم ينحصر فى شرقي ولا غربى

بل فيمن يعلم ويعمل . فهل يتعلم قومى ياترى حتى ينبغ فيهم أمثال أعضاء المجامع العلمية فى باريز وأساتذة جامعة مونبليه حتى يضعوا اسمنا فى قائمة الأمم المتحضرة الحديثة

***

كتب مؤخراً أحد كتاب اسوج كتاباً سماه سر الحكمة الفرنساوية عدد فيه أهم الصفات التى اشتهر بها الفرنساويون فقال (١) الذكاء وسرعة الفهم (٢) العشرة اللطيفة والانسانية (٣) فكرة الاسرة (٤) الفردية وحب الذات (٥) تصلب الرأى (٦) حب الاقتصاد (٧) احترام المرأة

صفحة من تاريخ فرنسا (١)

٧٥

عرفت معظم أمم أوربا بالتنقل فى البلاد من القديم ، وزاد فيها هـذا الخلق مع الحضارة زيادة كبرى . وكلما استفاضت الحضارة كان التنقل أكثر وأفيد . ومن الناس من يحب الهجرة ، فاذا نزل بلداً ليصرف فيـه ابتغاء الكسب أشهراً أو أعواماً ، يستميله حب ذاك البلد فيقيم فيه ، وربما اتخذه بعـد ذلك وطنه ، ونزل فى سبيل حبـه عن مشخصاته ومقوماته ؛ وتلبس بعادات الأمم التى نزل عليها ، وتعلم لسانها وأصبحت عاطفته مع الزمن عاطفة أهلها . والشعوب الانكلوسكسونية أكثر حباً للهجرة والاستيطان فى أرض الغير من الشعوب اللاتينية ولاسيما الشعب الافرنسى منها الذى عرف بأنه أقل الشعوب هجرة وسياحة لجمال بلاده وحبه لها ولانها بلاد عريقة فى المدنية حوت كل شىء . ومنذ عهد

---

(١) اعتمدنا على كتاب زهرة التواريخ الافرنسية لهانوتو Hanotaux : La fleur des histoires françaises وعلى كتاب التاريخ العام للافيس ورامبو Lavisse et Ram Baud : Histoire generale وعلى تاريخ الحضارة لسينوبوس Seignobses : Histoire de la civilisation

الحروب الدينية لم يعهد أنه هجر أرض فرنسا عشرات الألوف من الفرنسيس صبرة واحدة كما فعلوا يومئذ وراحوا يهاجرون الى أرض وجدوا فيها منفذاً لحريتهم الوجدانية .

لا يكفي الانسان أن يعيش ويسمن وان ينتقل من مسكنه فمن فطرته أن يتحرك وينتقل . هو فى حاجة الى الحركة واستعمال رجليه ليذهب الى القاصية يرى غيره ويحادثهم ويأخذ عنهم أموراً ويقايضهم لا فى أصناف السلع والبضائع فقط بل يتبادل واياهم الافكار والعواطف . ينتقل ليستعمل قوته العاقلة وينمي موارده ويوسع دائرته . البشر سواء كانوا منظمين أهل أوضاع وشرائع أوهمجا لا يدخلون تحت نظام وسواء دعوا قبيلة رحالة أو أمة ساكنة شأنهم شأن الفرد فان الشعوب تنهض وتضرب فى طول الأرض وعرضها لترى ماذا كان فيها وما يكون .

كان الغاليون أجداد الفرنسويين مولعين بالحوادث يركبون الاخطار لنيل الفخار ولم يكن العالم القديم فى نظرهم من السعة بحيث يكفيهم فى حملاتهم ورحلاتهم ولا عجب فهم من نسل أولئك الشعوب الرحالة التى انتقلت من سهول آسيا وكانت العالم القديم من عامة أطرافه وقد نقلوا الى أخلافهم هذا الدم المتحرك فى أجسامهم ومن القبائل من يحب الاعتصام وراء جباله ومنهم من يحب الاستكانة على سواحله والفرنسيس يحبون الأرض والبحر على السواء . وقد تجلت فكرة التنقل تجلياً غريباً فى الحروب الصليبية فلم يستهو ذلك الفرنسيس فقط بل استهوى معظم أمم أوربا وكثرت العوامل التى قادت الى هذه الحروب وأدت الى غزوة الغرب للشرق على تلك الصورة دهراً طويلا . وكيف كانت الحال فان من هذه الحروب بدأ انتشار الفرنسيس فى الشرق وعرف أهله وعرفوهم .

ولما رجع الفرنسيس فى احدى الغزوات الصليبية من سورية دعتهم فى الطريق مدينة سالرن الى الأخذ بناصرها وتخليصها من أيدى العرب الذين كانوا أخذوا بمخنقها فهب منهم رجلان مهذبان من أهل نورمانديا وهما ولدا تنكريد دى هوتفيل : روبر لافيزى وزوجر فأعانوا القوم على تحريرهم ثم انصرفوا ولما كانوا

قد تذوقوا جمال تلك البلاد المنيرة عادوا اليها وأسسوا فيها ملكا طال عهده قرنين وبواسطتها عرف في صقلية وايطاليا الجنوبية اسم فرنسا وأخلاقها وعلومها كما عرفت في الشرق كله أو شرق البحر المتوسط وأصبحت بلرم ومسينا ونابل الايطالية اليوم مدناً أفرنسية أمس وترى في بعض بيع صقلية الهندسة الغوطية الى جانب الهندسة اليونانية القديمة ومعها الهندسة العربية والهندسة البيزنطية وقد تركوا أسماء افرنسية وشارات افرنسية في تلك الارض التي هي أول ماستعمره الفرنسيس .

أتت عدة قرون والمسألة الايطالية والصقلية والنابولية كانت مما يهتم له ساسة الفرنسيس ودام ذاك الى عهد حروب ايطاليا التي جمعت مصالح الشعبين الافرنسي والايطالي واجمعا على مقصد واحد في المدنية وقاما بما سمي « النهضة » .

أن النورمانديين وهم ملوك البحر لم يقتصروا على دائرة خاصة في تطوافهم وفتوحهم بل كانت سفنهم منذ أوائل العهد الاطول للقرون الوسطى تمخر عباب البحار الاسبانية والبورتقالية وتجتاز جبل طارق وتسير مع شواطيء افريقية فعرفوا جزائر آسور وكناريا والرأس الاخضر وقيل أنهم أسسوا مراكز تجارية لهم في شاطيء الذهب وشاطيء العاج حيث قامت في العهد الحديث مستعمرات افرنسية مهمة حتى لقد أدعى بعضهم أن هذه الرحلات البحرية التي وصلها النورمانديون الفرنسيس قد سبقوا بها خريستوف كولمبس فاتح أميركا الى معرفة العالم الجديد ورأوا أرضاً وهم يشقون العباب على سفنهم الشراعية .

ومن المحقق أن أحدهم جان دي بيتانكور احتل سنة ١٤٠٢ جزائر كناريا باسم ملك فرنسا ولكن حرب المئة سنة في فرنسا قطعت الرغبة في مثل هذه الأعمال . ولما كشف فاسكو دي غاما الملاح البرتغالي طريق رأس الرجاء الصالح وخريستوف كولمبس الجنوي قارة أميركا ، فكشفا بذلك طرق العالم الجديد الكبرى كانت فرنسا مستعدة للدخول في هذا العراك .

كانت المدنية الى ذاك العهد محصورة في عبر البحر المتوسط فقط ، وقامت

المدنيات القديمة ، وعاشت على ضفافه وفي القرون الوسطى كانت رومية مركز الدائرة العقلية والأدبية فى الأرض ومواني البحر المتوسط برشلونة ومارسيليا وجنوه وبيزا والبندقية وسيطات التجارة مع بلاد الشرق .

وعلى عهد النهضة انبعثت المدنية الحديثة من شبه جزيرة ايطاليا التى ورثت مباشرة تقاليد بيزانطية وتراثها . ومالبث القوم فى أوربا ان عرفوا بوجود أراضى واسعة وراء ماعرفوه من الشرق ومن بلاد الهند التى طالما طمع فيها الطامعون وأيقنوا أن وراء البحار جزائر وقارات ثمينة وسكاناً ودعاء ينزلون بلاداً كثرت فيها مواد القوى الطبيعية وأصبح معينها فائضاً لا ينضب . ولما عاد أرباب الرحلات الاول من تلك الاصقاع النائية ذكروا لقومهم عظمة البلاد التى رأوها متجلببة بجلباب الغنى والسعادة وحدثوهم عن الانهار العظمى وماتظل من البقاع البكر وعن وفرة المناجم وغناها وعن سهولة العيش فى تلك المشاهد الغريبة .

ولم يمض زمن طويل حتى قامت الاساطيل التى كانت حصرت وكدها فى التطواف فقط فى الابعاد المحدودة فى البحر المتوسط تطوف في بحر الظلمات والبحر الغربى كما كان الاوربيون يعرفونه . ففتحت فى العالم طرق عريضة للعمل واستسهلت المخاطر والرحلات الطويلة التى تحتاج الى كثير من الاقدام واقتحام العظائم واقتضى لتلك الثروات الجديدة رجال جدد وعقول جديدة . فعلى شواطىء ذاك المحيط قبالة تلك القارة التى ظهرت من العدم الى الوجود نشأت ونمت بطول العراك والنشاط العظيم شعوب قوية بعيدة مجرى الهم طموحة الى العلاء والنماء فكان للاسبانيين والبورتغاليين المقام الاول المحمود فى هذا الشأن ثم للفرنسيس والانكليز ثم جاء الهولانديون والالمان وكلهم من سكان شواطيء بحر الظلمات وبحار الشمال فكانوا على استعداد لاجتياز البحار اذ كانت هذه أملاكهم وعلى ضفافها بلادهم وكانوا عرفوا طرقها أيام تشرد بعض أبنائهم في أسفارهم البحرية فأخذوا يقذفون بأنفسهم فى تيار هذا المعترك فما عتموا ان احتلوا أرض خريستوف كولمبس التى أحرز أمريكو فيسبوسى الملاح الفلورنسي

شرف نسبتها اليه (أميركا) فأنشأوا فيها أمماً جديدة ، وأحـدثوا مدنيات هى بنات علومهم وآدابهم ، وهكذا قبضوا على قياد المسائل العظمى بين البشر

وبينما كان الفتور يعرو الأمم البحرية ويضجرهم العمل حتى أوشكوا أن يتركوا خوض البحار ويزهدوا فى البحر المتوسط وخوض لججه قام مهنـدس افرنسى مسوقا بنابل من نبوغه وقريحته الى فتح ترعة السويس ، فوصل الشرق بالغرب وعادت قوى الأمم الى نشاطها ، وأخـذت كل أمة تفكر بايجاد مملكة لها على البحر كما لهـا مملكة فى البر . وكان للفرنسيس فى ذلك شأن عظيم . ففى سنة ١٥٠٣ اكتشف ملاح نورماندى فرنساوى البرازيل وفى سنة ١٥٠٦ وصل ملاح فرنساوى آخر الى الأرض الجديدة وفي سنة ١٥٢٩ وصل آخر الى صومطرا وقد طاف أمثال هؤلاء الملاحين جميع شواطئ أفريقية ، واستعمر الفرنسيس الأرخبيل الفرنساوى ، ثم استولوا على كندا ، ومع كل هذا فان البرتغاليـين والاسبانيين ثم الانكليز والهولانديين قد كتب لهم النجاح فى مستعمراتهم أكثر من الفرنسيس ، فان هؤلاء لم يستطيعوا لاختلاف كلمتهم فى الداخل أن ينشئوا ممالك باقية لهم كما فعلت الأمم البحرية الاربع .

بدأت فرنسا باستعمال السنيغال وسيراليون وشاطئ العاج وريـنيون وجزيرة موريس فى أفريقية وبعض أجزاء الهنـد فى آسيا وجزائر الارخبيل وكويان ولوزيان وكندا وذلك فى أوائل القرن الثامن عشر ، وأظهر بنوها اسـتعداداً للاستعمار من المفاداة والجرأة والعمل حتى صح أن يقال ان كل حفنة من تراب تلك البلاد جبلت بدم افرنسى لأنهـا كانت تكره نزول الغرباء عليها ، حتى اذا انتصف القرن كان ريع تلك المستعمرات عظيما جدا .

وكان من نتائج اشتغال فرنسا بحروب لويس الخامس عشر أن فقـدت مستعمرتين عزيزتين عليها كندا والهند ، وذهب عمل أبطالها وعقل علمائهـا ومنظميها أدراج الرياح . ولما شغلت بالثورة لم تضع الأزمة أوزارها حتى لم يبق لفرنسا بحرية يعتد بها وفقدت زهرات من مستعمراتها .

وفى القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيس بالانتشار فى الاقطار وصحت عزائمهم على الاستعمار فبدأوا باستعمار الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ فافتتحوها عقيب حروب هائلة مستخلصين لها كما قال هانوتو من شعب صعب القياد لا يخضع ولا ينقاد ، ثم خفق العلم الفرنساوى على خاليدونيا الجديدة وأرخبيل تاهيتى فى المحيط ، وأخذت فرنسا الكوشنشين من مملكة انام سنة ١٨٦٣ وعلى عهد الجمهورية الثالثة الحالية تم امتلاك الجزائر بالاستيلاء على تونس ، وانضمت الى مستعمرة الرينيون الحقيرة بلادمدغسكر وأراضى الأرخبيل المحيطة بها ثم كومور ومايوت وتومى بى وأضيفت الى خاليدونيا الجديدة بلاد الهبريد الجديدة ، وانضم الى الكوشنشين كمبودج وانام والتونكين الى حد مكونج ، لا جرم ان أهم مستعمرات فرنسا هى على مقربة منها فى شمالى أفريقية ، فاذا تم لها استصفاء مراكش مع ريفها خفق علمها على جزء عظيم من بلاد العرب فى الغرب الأقصى والأوسط والأدنى ، واتصل ذلك بمستعمراتها فى داخل أفريقية وغربيها فتنتشر بذلك تجارتها ولغتها وأخلاقها وامجادها وتكثر بأهالى تلك البلادسوادها

***

اذا القينا رائد الطرف على تاريخ فرنسا نجدها ظهرت فى مظاهر الحياة فى حالتى بؤسها ونعيمها ولما تمت لها وحدتها واستدارت رقعتها واتسعت فى القاصية مملكتها رأت كما قال مؤرخوها أن المرء لا يعيش منفرداً بل هو يريد أن يحب ويحب وأن الكامل من صدر عن كرم ودعته الحاجة الى التفكر فى خير الناس وأكثر الشعوب قوة من اذا آنست من نفسها ذلك رأت دافعاً منها يدعوها لان تعمل ما حولها وأن تنشر فى الخارج شيئاً من مواردها وأن تفيض ذرواً من فضل نشاطها الذى غرسته الطبيعة فيها ، قالوا : ولطالما تكرر لفرنسا بل ربما أتت ذلك مئة مرة فى خلال القرون الماضية أن أثبتت شجاعتها الادبية بأن خفت الى معاونة الشعوب الضعيفة والمغلوبة ومن خانها نكد الطالع وسوء البخت فافتقرت وتقطعت أوصالها فقدمت اليهم معاونتها المادية وبذلت نحوهم عواطفها وكثيراً

ما كانت تهب دفاعاً عن عاطفة أو تأييداً لفكر وقد انتقدتها الأمم الاخرى على هذه الاخلاق وعدوا ذلك فضولا منها ودخولا فيما ليس من شأنها وكثيراً ما كان ذلك يضر بها ويجلب نفعاً لغيرها ولكن هذا الخلق على ما يظهر طبيعى فى الفرنسيس فقد فطروا على حب الدعاية وبث الدعوة لما جبلوا عليه من حب التآلف والميل الى الانس والتعارف

حب العشرة حاجة من حاجات القلب والسعى فى التقرب ممن لا يعرفك هو مبدأ حبه لك وحبك له ومن عادة الذكاء الافرنسى ان اشتدت حاجته الى التفاهم والاتصال بالغير ولذلك زعموا أن من أول امتيازات اللغة الافرنسية ان كان فيها من الوضوح والجلاء ماليس فى غيرها من لغات الغرب . وما دام الفرنساوى لم يستول على قلوب من يحفون به لاشراب قلوبهم ما يعتقده حقاً فانه يفتش على أساليب فعالة لافهامهم ما يراه هو بنفسه فالرجل الفرنساوى اذا كانت له عقيدة لا يكون سعيداً الا اذا شاركه في ذلك من يحب من الناس ولذلك كثرت أسماء الفرنساويين فى قائمة المجاهدين فى سبيل بث فكر أو نشر مذهب فى كل قرن وتجلى ذلك فى القرون الوسطى فامتزج فى أجدادهم حب الايمان بحب التنقل فى البلدان فكانوا يحجون الأراضى المقدسة ويزورون المعتقدين بحسب عرفهم . وكان لرومية والقدس وسان جان دى كومبوستل ولورد وغيرها نصيب وأى نصيب من تلك الزيارات كما تزور الامم اليوم باريز ورومية وآثينة لانها مهد مدنيات عظمى . وكانت هذه الرحلات فى القرون الوسطى من أعظم الاسباب فى التواصل والتعلم والتحسس فيلتقى الناس على الطريق ويتفاهمون ويقص بعضهم على بعض أموراً ويأخذ أحدهم عن الآخر أشياء . ومن الأغانى القديمة نشأ فى الفرنسيس الميل الى طرد العرب من أرض فرنسا بعد أن استولوا منها على شطر عظيم . من التغنى بتلك الأغاني أولع قومهم بالحج الى بيت المقدس وقبر المسيح وأثرت فيهم مواعظ رجال الكنيسة والرهبان الذين رأوا أن ينشؤا فى عالم النصرانية مذهبا أدبيا واحداً باسم الكثلكة الرومانية . بتلك الاغانى

استعدت الافكار للقيام بحملات فى القاصية ولا سيما على المسلمين وبذلك نشأت الفتوة والفروسية فيهم والقسورة عندهم هم الذين يفادون بمالهم وراحتهم وحياتهم ليقوموا على الارض بعمل عظيم من الشجاعة والعدل وطيب السريرة ثم فسد هذا المثال من الرجال ولكن كان فى ابان انتشاره من أشرف ماتطمح اليه النفس البشرية من مظاهر الشرف والفخار على رأى هانوتو اذ كان واحدهم يرمى الى مقصد عال من خدمة الدين والعطف على اليتامى والمنهوكين والاخذ بأيدى المقهورين والعاثرين . وسرت العدوى عدوى التجنن بالصليب فى فرنسا كما وصفها كتابهم واستولت على أفئدة السذج وكان داعية ذلك بابا افرنسى الأصل اسمه أوربانوس الثانى وراهب وهو بطرس الناسك وهما اللذان أوقدا جذوة الحروب الصليبية وجمعا الناس فى فرنسا لغزو الاراضى المقدسة وسكانها فهرعوا ألوفاً ألوفاً وقضوا فى الوصول اليها زرافات ووحداناً وبعد سنتين فتحوا أنطاكية ثم بيت المقدس وغيرهما وكان معظم الامراء الذين استولوا على شطر من سورية من الفرنسيس ولكن عرضت لهم معايب ومصاعب اضطرتهم بعد سنين طويلة الى ان يرجعوا ادراجهم ولو كتب لهم البقاء لكانت دعوتهم فى البلاد التى غزوها سرت من ذلك الحين بيد أن قواتها خانتهم ومن وراءهم من الامم لم تمد اليهم أيدى المعونة ورفعت فرنسا صوتاً مرات فى حمل الامم الغربية على مناصرتها فلم تفلح فلما جف لديها معين الاقناع لم تر الا الرجوع ونادت بالرحيل

ثم جهزت حملة ثانية بدعوة القديس برناروس وبمعونة ملكهم لويز السابع الفرنساوى وكونراد الثالث أمبراطور المانيا فأخفقت أيضاً وهكذا اشترك الفرنسيس فى الحملات الصليبية الثمان التى حملها الغرب على الشرق . وكانت السابعة والثامنة بقيادة أعظم ملوكهم القديس لويس الذى كان يرى أن يهاجم القوة الاسلامية فى أهم حصونها أى فى مصر وتونس لا فى فاسطين وسورية فاستولى على دمياط ومصر وغلبه المسلمون فى المنصورة وأسروه فى تلك الوقعة ولم يطلق سراحه الا بارجاع دمياط ثم جهز حملة قوية سنة ١٢٧٠ على تونس وهلك

هناك بالطاعون ولكن الفرنسيس لم ينسوا تونس فجاؤها سنة ١٨٨٠ يجددون ذكر ملكهم الشجاع التقى فى نظرهم الذى عبد أمامهم الطرق الى فتحها

وبعد قرنين استخلص العرب من الصليبيين بلادهم فى سورية وابلى الفريقان فى ذلك بلاء حسنا وبذل الفرنسيس خاصة دماء وشجاعة وبسالة واقداما . وقد عادت هذه الحروب على شعوب أوربا بالفوائد العظيمة فحركت دمها ومازجت بين عالمين وعرفت قصور مدنيتها وأدركت أموراً من مدنيات قديمة واتسع أمامها مجال العمل والاقدام وكان فى تجدد الحملات الصليبية تجدد النهضة وكان الاشتراك بها يعد من الكمال البشرى لان الانسان قلما فادى بحياته فى سبيل غاية كل هذه المفاداة المخلصة وكان لفرنسا المقام الاول فى هذا الباب لما أحرزت من المجد فانتشر ابناؤها على شواطيء البحر المتوسط وتنقلوا من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب وبينا كان الفكر الدينى هو العامل الاقوى فى الفرنسيس على عهد القرون الوسطى جاء دور النهضة العلمية ويطلقون اسم « النهضة » على العصر الذى جاء بعد القرون الوسطى مباشرة وليس معنى ذلك أن القوم قطعوا ما بينهم وبين الماضى من الصلات وطاقوا الغابر ليأخذوا بأهداب الجديد الحاضر فان ذلك صعب والتاريخ كالطبيعة لا يعمل طفرة ولا ركضا وعمله تدريجى . وقد اختار من سبقوا من الكتاب أن ينعتوا ذلك العصر بعصر النهضة لانهم كانوا مأخوذين بلطفه الذى يشبه الربيع فان البذور التى رقدت طويلا فى الارض أخذت فجأة تقوى وتنمو فانبعثت المدنية كما تزهر الاشجار فى آذارها وكان العامل الاقوى فى هذه النهضة استمتاع الناس بحياة حرة أكثر من العصور السالفة وتمتعهم بعيش طيب فيه البذخ والرفاهية . مظاهرات الى ارتقاء الفكر ارتقاء محموداً والى الابداع فى التصوير والنقش

خلصت القوميات فى أوربا من قيودها . واذ كان عمل الجماعة أقوى وأثبت اواشد احكاماً مما كان عليه فى القرون الوسطى أصبح الميدان فسيحا لعرض الافكار الحرة والمقاصد التي تحتاج لتعمل الى زمن ولم يعد الاشخاص فقط ولا

جماعات خاصة ولا المدن ولا النواحى تعمل وتستحصل مشتركة بل كان العامل فى ذلك الشعوب والاوطان وكانت المدنية ترمى بجد ذاتها الى مقاصد فتحت لها منافذ واسعة الى العالم والمستقبل وأخذت الامم يختلط بعضها مع الآخر ويتبادلون الافكار والاكتشافات وقد استفاضت فى حوض البحر الابيض خصوصاً تجارة مهمة عقيب الحرب الصليبية وسكنت بعض السكون نفحة الطوائل والثارات بين جميع الشعوب البحرية سواء كانوا كاثوليكا أو روماً أو مسلمين . وكانت بين مدن البندقية وبيزا وجنوة ونابل وبلرم ومارسيليا وبرشلونة وبين الاستانة والاسكندرية وتونس والجزائر صلات مستديمة وكان تعليم الملاحين فى البحر المتوسط متحداً ويتكلمون لسانا واحدا وكانوا حيث يحلون يعثرون بآثار فخيمة من عظمة القدماء وهم اليونان والرومان . وأخذ الناس في كل مكان يتغالون فى أوربا باقامة البيع واعلاء قبابها ونصب التماثيل وأعمال العمران من ملاعب وميادين وحجار وموان وعمد وأروقة وأهرامات . وأنشأ أهل الشمال يجلبون صنائعهم الهندسية وعلومهم العملية يمزجونها بما لدى سكان الجنوب فظهر من ذلك نور أخذ بالابصار أو كاد وحصل من ذلك صنائع سموها بضائع النهضة وكانت النهضة ايطالية بادىء بدء ولكنها تأثرت بمؤثرات سكان الشمال فنشأ فى ايطاليا من نوابغ المهندسين والمصورين أمثال ليونارد دي فنسى وميكل آنج ورافائيل لم ينبغ فى جميع الامم الاوروبية أمثالهم فى عصرهم ولا فى الذى بعده

ولم تكف فى قيام صنائع النهضة مسحة (ملعقة) البنائين ولا ريشة المصورين ولا مقراض النقاشين . بل زاد ولوع الناس بالتعلم والحكم على الأشياء بفهم وأخذوا يتطلبون من كل مكان الكتب وكانت نادرة ثمينة بحيث بنيطونها الى سلاسل فى خزائن الكتب القليلة التى كانت تجعل فيها وكان تطلب الكتب عاما والاسفار الى ذلك العهد تنسخ ببطء واحدا بعد واحد لتحفظ فى قلايات الاديار ويخص بمطالعتها الملوك وكبار السادة والأعيان أو أغنياء الرهبان ، أما الطلبة ومحبوا الاطلاع فكانوا يكتفون بتلقيها وتلقينها بالكلام أو بالتصوير

والعالم طامح الى التعلم والمعارف . وفي هذه الاثناء اخترع غوتنبرغ الطبع فكثرت المؤلفات والكتب وتناولتها الأيدى بسرعة فوحدت الافكار والذكاء البشرى ووسعت العقل فتوسع العالم وبينا كان غوتنبرغ يخترع الطبع كان فاسكو دى غاما وخريستوف كولمبس يكتشفان أميركا . فاشتركت فرنسا فى هذه النهضة المباركة العجيبة ، ونزلت فى الميدان الذى فتح أمام الذكاء الغربى وبينا كانت البندقية وجنوة وبيزا فى ايطاليا آخذة بالانحطاط كانت بوردو ولوريان ونانت والهافر من بلاد فرنسا آخذة بالاستفادة والارتقاء . فكانت فرنسا فى الصف الأول بين الممالك المتحدة الموحدة وكانت لها ميزة على الأمم الغربية لان ملوكها جلبوا اليها من حروب ايطاليا كل ما استطاعوا اقتطافه من ثمرات النهضة وذلك لاختلاطهم بسكان شبه جزيرة ايطاليا قبل غيرهم .

هذه صفحة جليلة من تاريخ الفرنسيس وتنقلهم فى البر والبحر وماأبدوه من مظاهر الشجاعة فى الدهر الغابر بحسب عرفهم وتصورهم وعلى ما تقتضيه درجة ارتقائهم وتطورهم وكيف غزوا الشرق يوم تدنيهم باسم المدنية . واستعمروا بعض أقاليمه يوم نهوضهم باسم المدنية . فسبحان مبدل الأفكار ، ومكور الليل على النهار .

قصر فونتنبلو

٧٦

عمر الملوك منذ ألف البشر اجتماعهم قصورا كثيرة ذكرها التاريخ ولكن قل فيها ما تعاورت الأيدى على تنميقه مثل قصر فونتينبلو على ٥٩ كيلو مترا من باريز ، ونظن كثيراً من القصور التى اشتهرت في القديم اذا جعلت الى جنبه تعد أكواخا وبيوتاً ضئيلة ، قصر تبهجك عظمته لان فيه ما حوت العظمة من

المعاني فى المبانى ، قصر تتجلى فيه الصناعة والهندسة والتفانى فى الابقاء على آثار الأجداد ، ان كان ظاهره كسائر القصور باهت لانه بنى بحجر وآجر غير رونقهما الدخان وتطاول الأزمان ، فان فى الداخل مالا يكاد يتصوره العقل من آثار الصناعة والتفنن ، زرته في اليوم الثمن عشر من كانون الاول ١٩٢١ والشمس مشرقة تحدج بأشعتها أعاليه وساحاته وغاباته فما أبهج وما أعظم .

لا يزيد سكان المدينة التى قامت بالقرب من هذا القصر على خمسة عشر ألف نسمة وكان يأتيها السياح من العاصمة ومن الآفاق بالمئات يقضون ساعات أو أياما على مقربة من عادياتها التى تدل على ان العظمة تساسلت فى فرنسا منذ زهاء خمسة قرون ، وان ما اشتهر بنيها من سلامة الذوق وقوة الابداع حقيقة لا يمارى فيها اثنان .

ذكرت فونتينبلو فى التاريخ لأول مرة فى القرن الثاني عشر وكانت قلعة بادئ بدء وأقام فيها لويز السابع بيعة ووسع سان لويز القصر وأقام فيها شارل الخامس دار كتب وهى التى نقلت بعد الى باريز وكانت النواة التى منها ألفت دار كتب الامة فى عاصمة الفرنسيس . ولقد كان فرانسوا الأول هو الموجد الحقيقى لقصر فونتينبلو نخاطب كبار الرسامين والنقاشين والبنائين من الطليان فلم يجبه منهم الا أناس كانوا يعدون فى الطبقة الثانية بعد ميكل آنج وليوناردى فنسي ورافائيل وظل هنرى الثانى يداوم على العمل الذى بدأ به سلفه فرنسوا الاول

وكان هنرى الرابع بعد فرانسوا الاول أكبر بان لقصر فونتينبلو . فعمل فى بنائه منذ سنة ١٥٩٣ الى سنة ١٦٠٩ وأنفق فيه مليونين ونصف مليون ليرة وجاء لويز الثالث عشر وعمل أيضاً فى بناء القصر ، وكان لويز الرابع عشر يأتي فونتينبلو كل سنة وأصلحت مارى انطوانيت بعض جهات من القصر . ولما نشبت الثورة الفرنساوية ترك القصر زمناً . ولما قبض نابليون الاول على زمام الملك أنفق فيه اثنى عشر مليون فرنك وأصلحه . وفى هذا القصر كتب هذا الامبراطور صك تنازله عن الملك سنة ١٨١٤ وفى قاعة كتب القصر اليوم

مسودة هذا الصك وفيه ودع حراسه فسمى المكان الذى خرج منه صحن الوداع وقال فى مفكراته عن قصر فونتينبلو ، وهذا ولا شك منزل الملوك بل منزل العصور .

وما زال القصر منذ وجد يزوره ملوك أوربا ويأتون اليه فى الاوقات الرسمية ويغشاه رجال فرنسا من ملوك ورؤساء جمهورية زائرين متصيدين

يتألف القصر من عدة أبنية مختلفة بنيت كما رأيت فى مختلف العصور بدون رسم خطة معينة . ولذلك دعى بمجمع القصور وفيه نموذج من مدنيات خمسة عصور فى البناء والفرش والآنية والرسم والنقش وكل قصر بل وكل شعبة من قصر صرفت فى تزيينها القرائح وبذلت في ايجادها الاموال . فترى فيه سرر الملوك والملكات . وغرف زينتهم ومطالعتهم وجلوسهم وأماكن حظياتهم ووصيفاتهم وكتمة أسرارهم وغرف انتظارهم زوارهم وقاعات استقبال العظماء في المواسم وجوقات موسيقاهم ومحال رقصهم ومناضدهم ومقاعدهم ومتكآتهم وساعاتهم وأدوات تسليتهم وخزانة الكتب التى وضعت فى ممشى طوله ثمانون متراً في عرض ستة أمتار وزيادة وفيها نحو ثلاثين ألف مجلد مذهبة وكثير من الخطوط القديمة والعاديات فى النقش والرسم مالو أردت وصفه لاستغرق عدة صفحات .

أما الغابات المحيطة بالقصر فهى من أجمل ما خلق الخالق وتعاورته الايدى بالتحسين وساحتها ١٧ عشر ألف هكتار ولها ألفا كيلو متر من المماشى والطرق و ١٦١٦ هكتاراً للمتنزهات و ٤٠٠٠ هكتاراً من الصخور وفيها من أشجار السنديان والزان والصنوبر والسندر . والسنديان أكثر الشجر وهى من العظمة والضخامة على جانب لا تشتغل الفأس فيها الا مرة كل ثلاثين سنة وريعها نصف مليون فرنك . ولكل ناحية من هذه الغابة مزايا وفضائل أفردها القوم بالتأليف وغالوا في درسها والبحث فيها ولا سيما أحجارها وأشجارها . ومن أشجارها ما دعوه باسم آلهة القدماء تنويهاً به وجعله المفكرون متنزههم والشعراء مدعاة

قرائحهم والعاملون سلوى نفوسهم . وأدهش ما يدهشك في القصر . والغابة في فونتينبلو تسلسل الفكر في الفرنسيس وتفانيهم على اختلاف الادوار التي أتت عليهم من ملكيات مطلقة ومقيدة وجمهورية في الاحتفاظ بالقديم والعمل على تحسينه وتزيينه لتذكر الاحفاد اعمال الاجداد . فلاعجب اذا كانت فونتينبلو بهجة النفوس وهي خلاصة قرائح كثيرة وأيد لا يعلم عددها . فونتينبلو احدى العاديات التي تفاخر بها فرنسا وحق لها أن تفخر لانها تنم على عظمتها وثروتها .

الموسيقى الغربية

٧٧

مدعاة السرور ، مجلبة النشأة ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكروب ، مهونة الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الاخلاق القومية ، مصورة الفواعل النفسية أصدق عامل على التحمس والتحسس ، أقوى دافع الى النهوض ، معلمة أنفع الدروس الشريفة ، مذكرة بالمطالب العالية مما لا يعلمه الضعف ، دافعة عن مزالق الشباب وطيش الحلوم ، فيها يتجلى العقل البشري الفعال بأشارات وأي اشارات ، تعمل عملها في الافئدة والوجدانات

هذه هي الموسيقى وهذا ما يتوخاه الغربيون منها ولذلك تجدلها في كل صقع من أصقاعهم نغمة ورنة ، وفي كل مملكة من ممالكهم وتراً خاصاً ، بل أوتاراً تهز القلوب ، وتعمل عملها فتقوي الضعيف ، وتجبر الكسير ، وتهيب بالمستمع الى ميدان المضاء وتمكن فيه أواخي الحزم والعزم ، وتطرد عنه الوساوس والهواجس ، وتجعله في الذروة يشرف على التصورات البشرية ، فيتدبرها في سره ، ويهيم ويتعلم ، ويطرب ويسلو .

تدخل الموسيقى عندهم في معظم مظاهر الحياة الخاصة والعامة ، فلا مجتمع

دينياً كان أو مدنياً ، ولا ملهى ولا مسرح ولا ملعب ولا مرقص ، ولا مطعم ولا فندق ، الا وللموسيقى فى الغالب دخل كبير فيه يتعلمونها صغاراً ، ويرضعون حبها مع اللبن ، لان الحاجة اليها مغروسة فى الفطرة البشرية ، والدافع اليها الطبع أولا ثم التطبع ، فكيف بهما اذا اجتمعا ، ولذلك يحسنها أو يستحسنها رب الاسرة وصاحبة البيت ، والطفل والابنة ، والامّى والفتاة ، والسيد والمسود ، والموسر والمعسر ، والعامل والماهن ، والكبير والصغير ، والقائد والجندى ، تساووا فى حبها ، واجمعت كلمتهم على عموم نفعها . والاخذ بحظ منها .

قال لى من طاف أميركا الشمالية وتوغل فى ريفها وقراها ان أصغر فلاح فيها يملك آلة البيانو يطرب عليها هو وأهله وأولاده وأصحابه . وقالت مدام دى ستايل انك لاتجد فى سكان المدن ولا القرى ولا الجنود ولا الحراثين من لا يعرف الموسيقى فى المانيا ففى أحقر كوخ تسمع صوت الموسيقى على نحو ماتسمع ذلك فى ايطاليا الا قليلا والاولاد والطلبة يطوفون يوم الاحد فى الشوارع يمجدون الله وينشدون الاناشيد الحماسية

آلات الموسيقى متحدة في الغرب ولكن الصور التى تخرجها مختلفة وان أسمعوك فى بلد ماهو من صنع غيرهم فتسمع فى كل أمة ألحان رجال الفن في أمة أخرى . وأمم الغرب مهما تباعدت في المقاصد وتباينت فى المصالح لاتجدها الا متفقة فى تمجيد المغنين من الموسيقيين يضربون أوتارهم غير نكير ولو بلغ الحقد أو التنافس أو التنابز مداه فى صدورهم فليس لهم شئ أجمعوا على تقديسه مثل نغمة تصدر عن يد صناع ولحن يلحنه نفس نفيس

الشرقى أمام الموسيقى الغربية كالمقلد بالسمع . أو كمن يسمع بأذن غيره يطول به العهد حتى يطرب لما طرب أهلها بها لان موسيقاه وأغانيه تخالف موسيقاهم وأغانيهم ولانه ألف نغمات أخرى . وان لم يفهمها ولكنها قريبة من مصطلح قومه . مؤتلفة مع مناخه ومحيطه . ودرجة رقيه وتاريخه . فالعربى يطرب من الموسيقى التركية وبالعكس للمجاورة والألف . والفارسى يحب الموسيقى العربية

لتمازج تاريخ أمته بالعرب . وكلما قويت الروابط بين الامم . وسهلت الشقة وارتفعت تأثيرات التخوم . والمبعدات بين القلوب . زاد طرب الجار من نغمة جاره .

سمعت الموسيقى فى أكثر بلاد الغرب فى ايطاليا والنمسا والمجر وسويسرا والمانيا وانكلترا وفرنسا وهولاندة والبلجيك واسبانيا فكان طربى بالموسيقى الاسبانيةا كثر من غيرها لانها تترشح من الانغام العربية لتمازج تاريخ العرب بتاريخ الاسبان ، وكذلك تطرب النفس بالموسيقى التركية ، لأنها ترشح من موسيقانا ، وقد أتت قرون والعرب والترك متلاحمون فى البلاد ، مشتدة روابطهم ، متحدة كلمتهم

ولقد طربت من موسيقى أهل الغرب الأقصى وأهل الجزائر وأهل فارس طربى من الموسيقى الشامية ودون طرب كل عربى بالموسيقى المصرية لأنها أرقاها وقد بلغت بالنسبة الى سائر البلاد مرتقاها . تأثرت مرة لنغمة فارسى كان ينشدني قصيدة من نظمه فى الحرية ، وتأثرت مرة من فتاة صربيـة فى قطار كانت ترنم بنغمتها الوطنية ، وأنا لم أفهم معانى الفارسى ولا الصربية . ولكن ماذهبت اليه النفس من التـذكارات ، فعل فيها فعـله فأخرجها عن كثافتها ، وسمعت مؤخراً مغنية اسبانيـة فى مسرح الاولمبيا في باريز تتغنى بالاسبانيولية وتبيع بنفسجاً ترشقه على الحضور فكان منظرها وحركتها ونغمتها من أجمـل مارأته العـين فى الغرب ، وطربت به حقيقة ، وما ذلك الا للأثر الناتج عن تأثيرات الموسـيقى ، وما يتذكر الانسان من الوقائع والحوادث

كانت لنا فى بر الشام موسيقى راقية فكادت تندثر لزهد الناس فى هذا الفن لأنه دليـل ارتقاء الأمة ، والأمة كانت مشتغلة بنفسها ترجع القهقرى ، وكان المشتغلون بهـذا الفن مرذولين ممتهنين ، فبينا نجد الموسـيقار والمنشد فى الأمم الأخرى عشير الملوك والرؤساء والعلماء منعما مرفهاً اذا مات مشي في جنازته

العظماء — كما فعل الفرنسيس بجنازة سازه سان الموسيقار — وعدوه من المفضلين على أمتهم ومجدوه وقدسوه ، ترى مثيله فى أرضنا مهاناً لا يؤبه له ، ان أخذ بفنه عاش فقيراً ومات خاملا حقيراً ؛ وكم من نابغة فى الموسيقى عندنا تخلى عن هباته خشية ان يلحق به العار ، وزهد نفسه طوعاً أو كرهاً بما يحبه ، وكان فى مستطاعه أن يبرز فيه لعلمه بضيق العيش من هذا الباب ، ولأن صاحبه لا يعد فى الطبقة التى هو حرى ان يعد فيها

جاء دور كان الفقهاء يعدون ساقطاً من العدالة كل من يغنى عندنا ولا سيما اذا كان غني بالأجرة [1] ويتسامحون مع من يغنى مع جماعة من أصحابه وكانوا يعدونه فناً يفقر صاحبه ولكن الغرب على العكس من ذلك ، يفاخر بهذا الفن أعظم عظيم ؛ ولا يستنكف أن يأخذ نفسه بادبه ، ويرزق عشرات الألوف منه . فاذا مات مات عن ثروة طائلة وخلف لأهله مجداً وغنى .

لغة عامة

٧٨

بعد انتظام سير القطارات والسيارات والمركبات الكهربائية فى البر والسفن فى البحر والطيارات فى الجو اشتد اختلاط الأمم بعضها ببعض وأصبح الشرق لا يستغنى عن الغربى ولا الاوربى والاميركى عن الاسياوى والافريقى والبشر فى حاجة تزيد مع الايام مساساً الى التخاطب والتكاتب والتعامل والتواصل للاتجار والاستثمار والعلم والسياسة وغير ذلك من مقاصد الحياة والاجتماع . أمسى البشر فى حالة من احتكاك أبناء اللغات المختلفة لا سبيل معها الا الى التفاهم لان حياتهم مناط ذلك وهذا يشعر به حق الشعور من ساح فى بلاد بعيدة ونزل على

(١) الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة باعلى الصعيد للادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

أمم وعناصر متباينة . ان من يحسن الانكليزية أو الافرنسية من لغات الغرب ومن يعرف العربية أو الفارسية من لغات الشرق مثلا قد تسهل عليه السياحة أكثر من غيره في الغرب أو في الشرق ولكن هذا غير كاف للاختلاط والتعارف والكسب والتعلم وكم من دانيمركي أو هولاندي أو أسوجي أو فنلاندي أو بوهيمي أو بورتقالي أو مجري أو عربي أو فارسي أو تركي أو جاوي أو ياباني أو صيني لايحسن غير لغته فاذا جئت تتجر معه أو تأخذ عنه شيئاً من مظاهر الحياة التي لاتجدها عند أمتك تخفق لعدم فهمك وفهمه .

أكثر الطبقات المستنيرة في الأمم تعرف لغة أو أكثر غير لغتها فالافرنسي المتعلم قد يعرف الانكليزية أو الالمانية والايطالي قد يحسن الافرنسية والالمانية والياباني قد يتمكن من الانكليزية . ولكن العبرة لا بالفرد بل بالمجموع فانك اذا كنت على بضعة كيلومترات من الجنوب الغربي في فرنسا ودخلت أرض اسبانيا وكنت لا تعرف غير الافرنسية لاتجد في الشعب من يكلمك الا بالاسبانية وكذلك اذا اتجهت صوب الشمال فنزلت انكلترا أو هولاندة أو السويد أو نروج فالك كذلك . اليك الحال في أوربا والخطب في أميركا أقل لان الأكثرية في شمالها تتكلم الانكليزية وفي الجنوب يتكلمون الاسبانيولية والبورتقالية وفي كندا يتكلمون الافرنسية والانكليزية . أما أوربا وآسيا وأفريقية فهي برج بابل بتبلبل ألسنة سكانها وناهيك بهذا عائق عن التمازج والتعامل فقد اعتصمت كل أمة في حدودها وتناغت بحب لغتها ولا سيما بعد تقرير مسائل القوميات وجعلها في الاغلب المعيار الأول لان يكون علمها واحداً

دعت الحاجة تيمورلنك في القرون الوسطى وكان جيشه مؤلفاً من عناصر تتكلم بلهجات شتى وهو في حاجة الى توحيد مقصده فألف لغة الاردو أي الجيش ليتفاهم جيشه فرسخت هذه اللغة المصطلح عليها في الهند حتى كادت تكون أكثر لغات تلك البلاد انتشاراً وساعدته على فتوحه وارتفعت بها اشكالات عظيمة . واخترع أحد ضباط الروس منذ بضع سنين لغة سماها « الاسبرانتو » أخذها من

أصول اللغات اللاتينية على الأكثر لتكون واسطة التخاطب في العالم فنجح في بث اختراعه وعلى كثرة مالقى من معارضة المعارضين أربى عدد المتكلمين بلغته الجديدة على مليون متكلم يتعلمها المرء فى ثلاثة أشهر كما أكد العارفون بها وأصبح الدعاة اليها كثيرين من رجال العلم فى الغرب قائلين أن نحو لغة الاسبرانتو يتعلم فى ساعة ومفرداتها خصوصاً لمن يعرف احدى اللغات اللاتينية كالافرنسية والايطالية والاسبانية والبورتقالية يمكن حفظها فى أسبوع ويكتب بها من يتعلمها عقيب الشهر من بداءته بها على أيسر وجه وفى ختام الثلاثة أشهر يتكلم بها جيداً ويكتب بها فيجيد وقالوا أن من الفوائد المادية والمعنوية التى تنشأ من انتشار هذه اللغة أن تتحاب الأمم فى الغالب لانهم يتفاهمون في الحال على اختلاف مداركهم وطبقاتهم وكم من مشاكل حدثت لسوء التفاهم وكم بغضاء تأصلت ومنشؤها عدم الفهم والتفاهم .

وعلى مافى هذه اللغة الجديدة من السهولة يكون السبق فيها للشعوب اللاتينية أو لمن يحسن فهم احدى لغاتهم وعدد هذه الشعوب في أوربا وجنوبى أميركا يربو على مائتى مليون نسمة يؤلفون كتلة مهمة امام اللغات الانكلوسكسونية والسلافية والجرمانية التى يزيد المتكلمون بها كل يوم لوفرة سكانهم ومواليدهم . أما الانكليز والاميركان والجرمان مثلا فيردون على الاغلب هذه الفكرة فكرة اللغة الواحدة ويقولون كان علماؤنا فى القديم يتخاطبون ويتفاهمون قديماً باللغة اللاتينية وناهيك بها من لغة ونحن اليوم نتفاهم مع الشعوب الأخرى باحدى اللغات الحية كالانكليزية والالمانية والافرنسية ثم أن احدنا قد يحسن التخلص بتعلم احدى هذه اللغات فى بضعة أشهر لسهولة طرق التعليم والتدريس وخير للانكليزى أن يتعلم الافرنسية مثلا لغة حوت أجمل القرائح وهى لسان عشرات الملايين من الخلق من أن يتعب نفسه بلغة ملفقة كلغة الاسبرانتو لا نبوغ فيها ولا عبقرية .

قال أحد الدعاة الى تعلم الاسبرانتو وهو من كبار رجال العلم فى فرنسا بعد

أن عدد مزاياها ولا يتوهمن واهم ان نشر هذه اللغة خيال فى خيال أو تقويم باطل أو حلم حالم فان عدد من يتكلمون بهذه اللغة ويكتبون بها الآن فى العالم مليون انسان فاذا بذلت العناية قليلا بها لا تلبث النتائج أن تزيد والفائدة أن تعم . ولعله يأتى يوم وليس ببعيد يعجب فيه أبناؤنا توقفنا فى الاصطلاح على لغة عامة سهلة التعلم وكيف لم نقبل على الاخذ بها بادىء الرأي . لاجرم أن صغار احفادنا سيتجاوزون حد الاستغراب متى قرأوا الحجج الصبيانية التي يدلى بها المعارضون لفكرة اللغة الواحدة . أن دعاة التقليد واعداء التجديد وانصار الارتجاع واحباب التقهقر والساخرين والماحكين المدعين والمتعالمين ورثة من كانوا يهزأون بالقائل بدوران الارض ويقبحون مكتشف حركة الدم ومخترع السكك الحديدية والسيارات والطيارات — أن المدافعين عن كل قديم مهما رث وبلى قد اخترعوا لهم اعتراضات صبيانية لقلة الفهم ولذلك نقيم لهم الاعذار فعدم الفهم معذرة وعلة. نعم أنهم لم يدركوا أن تعلم لغة بسرعة خارقة للعادة ليس فى قواعدها شاذة ومفرداتها لاتينية معدلة قد يغير وجه العالم كل التغير وذلك يوم يستطيع البشر أن يتبادلوا العبارات باللسان والقلم وبهذا الايجاد السهل المختصر ينشأ عهد جديد فى صلات الانسانية .

هذا ملخص ما قاله شارل ريشه أحد اعضاء المجمع العلمي فى باريز وقال أن طبقة المتعلمين ممن يصرفون اليوم سنين طويلة فى تعلم لغة أو لغتين غير لغتهم ثم هم لا يحسنونها يخلصون من هذا العناء الثقيل وتصرف كل أمة وكدها الى تعلم لغتها الخاصة وتكون اللغة الحديثة معواناً للكل ولا يؤثر ذلك فى سير لغة من اللغات الحية المتعارفة بل تزيد العناية بها أكثر من ذى قبل . قلنا تزيد العناية بكل لغة بين أهلها ولكنها لا تنتشر عند الامم الاخرى فالناس اذا انتشرت الاسبرانتو لا يحرصون كثيراً على تعلم غير لغتهم مهما بلغ من سمو آدابها وحوت من المعارف والفوائد وربما جاء زمن على الاسبرانتو ان تكتب بها كل العلوم وتكون لغة السياسة والتجارة العامة وينبغ فيها الشعراء والكتاب

والممثلون والخطباء فان لم تتراجع اللغات الحية بذلك يقل الراغبون فيها . على أن جامعة باريز نفسها أخذت تلقى دروساً بالاسبرانتو على طالب تعلمها وتجد فى بعض البلاد الهولاندية قد كتب على احدى نوافذ دور البريد عندهم « هنا يتكلم بلغة الاسبرانتو » ويوشك أن تكون العناية عامة بهذه اللغة بين الامم على كثرة المقاومين والمعارضين وستأخذ قاعدة بقاء الانسب حكمها على شدة المعارضة والمقاومة فى الامور المفيدة موقتة لا تثبت الا عشية أو ضحاها فسبحان من جعلنا شعوباً وقبائل وجعل من آياته اختلاف ألسنتنا وألواننا .

البلجيك

٧٩

كنت أظن بعد أن أصيبت البلجيك فى الحرب العامة بوطأة الألمان وخربت ليج وبروكسل ولوفين ونامور ان هذه البلاد أصبحت قاعاً صفصفاً ولما زرت عاصمتها بروكسل فى شهر كانون الأول ١٩٢١ رأيت فيها ما أدهشنى . رأيت فى طريقى جميع القرى والجسور والمحطات التى خربتها المدافع الألمانية قد أعيدت الى أحسن مما كانت ولم يبق لتلك الحرب الطاحنة الا آثار فى ماليتها لا يراها الغريب .

أظهر البلجيكيون فى حربهم الى جنب الحلفاء (فرنسا وانكلترا وايطاليا وأميركا) انهم من أول الشعوب فى أمور الحرب كما هم من أول شعوب العالم بالصنائع والزراعة . ولقد أردت زيارة نموذجات من مدارس البلجيك لازورها كما زرت كليتها الحرة فى بروكسل فقيل لى انها كلها تنسج على منوال المدارس الفرنساوية أما أنا فلم أصدق ذلك لأنى رأيت للبلجيكيين أسلوباً مخالفاً للألمان والانكليز والفرنسيس فى بعض مظاهر مدنيتهم فالأولى أن يكون للمعارف قسط من هذا الخلاف

كان نابوليون يدعو بلجيكا «ساحة حرب أوربا» وسماها الجغرافي اليزه ركاو « ساحة تجربة أوربا » وما من مملكة في العالم ضيقة النطاق الى هذا الحد يبذل فيها أبناؤها مثل هذه الهمم والعزائم . فقد وقفت الامة البلجيكية في مقدمة العالم من حيث سير الافكار الاجتماعية وهذا وجه مكانتها . نشأ لها ذلك من دؤوبها على الاخذ بأسباب الارتقاء . وان جميع المسائل الكبرى التي تهيج لها أعصاب الشعوب العظمى هياجاً قل أو كثر لتحدث في البلجيك غلياناً دائماً فيجد لها أبناؤها أساليب من الاصلاح يحلونها بها أحسن حل [1] . فأصبحت البلجيك بحياتها المجتمعة وقوتها الداخلية والخارجية المزدوجة ونشاطها البطيء في الظاهر ولكنه منتج خصيب لانه متواصل وشجاعتها العتيدة وصحتها المتينة وعقلها الرشيد — أشبه بمعمل اجتماعي بديع .

ولقد تنشأ من ذلك أعراض التسمم الزائل في ذاك الجسم اذ يصاب بشيء من تأثيراته بيد أن تركيب الشعب البلجيكي قد بلغ من القوة بحيث يحتمل كل ضروب التجارب بدون خشية . ومما لا جدال فيه ان الافكار مهما كان نوعها اذا دخلت بوتقة العقل البلجيكي تتركب تركيباً مقولا وتلبس صوراً حقيقية من المنافع . لا تصنع بلجيكا الماس بل ينحت فيها الماس الخام فيصبح حلياً في السوق تعمل منه كميات كبيرة . البلجيك بلاد معامل الحديد وتصفيحه وتحليله فهي معامل لكل فكر جديد كما هي معامل للحديد .

البلجيك بلد الصناعات والتجارة وأحسن الاقطار بزراعة تربتها فهي من أغنى بلاد الارض وان موقعها الممتاز بين ثلاث ممالك كبرى هي منبعث أشعة المدنية — انكلترا وفرنسا والمانيا — قد جعلها كالصلة والعائد بين هذه المدنيات والكلمة العامة الشاملة وهي تستدعي أعجاب الممالك الأخرى وتفوق عليها بخصب تربتها ففي أرضها البالغة ثلاثة ملايين هكتار تجد جميع أنواع التربة . ومعادن الحديد لا تبعد كثيراً عن سطح الارض . ولذلك زكت أرضها ونمت صناعتها وتفردت بتجارتها .

(١) بلجيكا الحديثة لهنري شاريو Henri Charriaut : La Belgique moderne

قالوا أن الاندلس « حديقة الزهور فى أوربا » ويقال فى البلجيك بما فيها من كل نافع تنتجه أنها « مبقلة أوربا » . وليس فى البلجيك الا كل نافع وفيها اللطيف أيضاً . ونعنى بذلك مناظرها الجميلة وجبالها التى يأتيها سياح الغرب كما يأتون سويسرا يلتمسون الراحة والهناء فى ربوعها وحماماتها البحرية المقصودة وعلى ضفاف أنهارها البديعة . وفيها من آيات البناء والنقش والتصوير بدائع مدهشة وفى بروكسل وبروج ولوفين أجمل دور البلديات فى أوربا وفيها من العاديات كل بديع جميل . فى ثلاث ساعات يقطع القطار هذه المملكة وأنت تتنقل فيها من غريب الى أغرب . بروكسل من أجمل عواصم العالم وأنفرس من أهم موانيها واذا وافيت الفلاة والخلاء فكأنك رجعت بضعة قرون الى الوراء

ان الشعب البلجيكى مثال الشعوب الصغيرة بعددها الكبيرة باعمالها فعدده ٧،٥٧٢،٠٠٠ ومساحة بلاده ٢٩.٤٥٦ كيلومتراً مربعاً عداما أضيف اليها من مقاطعتى أوبين ومالميدى بعد الحرب وصادراتها ٣٩٥١ مليوناً ووارداتها ٤٩٥٨ مليوناً وخطوطها الحديدية ٩٤٦٤ وينزل فى كل كيلو متر من أرضها نحو ٢٦٠ شخصاً وهو اقصى مابلغته أرض غصت بسكانها . وهى على البحر الشمالى تمتد على ضفافه من الشمال الغربى ٦٧ كيلو متراً ويحدها من الشمال والشمال الغربى هولاندة على ٤٣١ كيلو متراً ومن الشرق المانيا على ٩٧ كيلو متراً ودوقية لوكسمبورغ الكبرى على ١٢٩ كيلو متراً وتحدها فرنسا من الجنوب والغرب على ٦١٤ كيلو متراً . وامتازت البلجيك بمهندسيها وتطريق الحديد وتوليد الكهرباء حتى ان معظم شركات الكهرباء فى مصر والشام هى ملك شركات بلجيكية كما امتازت بمصوريها ونقاشيها وموسيقيها . ولها فى الشعر والادب مقام محمود منذ استمتعت باستقلالها السياسى سنة ١٨٣٠ ومن كتابها فى أيام الثورات من كانوا يكتبون باللغتين الافرنسية والفلامندية على السواء . وهاتان اللغتان هما لغة البلاد تتقاسمان السكان نصفين ففى الجنوب والغرب الافرنسية مستحكمة وفى الشمال والشرق اللغة الفلامندية وهى أشبه بالهولاندية احدى فروع اللغات الجرمانية .

ان اختلاف البلجيكيين فى اللغة لم يفصل عراهم فى الوطنية كما هو شأن كثير من الامم يختلفون بلغاتهم ولكن كلمتهم واحدة في سياساتهم . فقد رأينا السويسريين يتكلمون أربع لغات ولايحبون أن يقولوا أربعة عناصر بل جميعهم وطنيون سويسريون لافرقا بين الذى يتكلم الالمانية والافرنسية والايطالية أو الرومانشية . ورأينا الغاسكونيين والبروتنيين والبورغونيين والسافواياردين والباسكيين وغيرهم يتكلمون لهجات مختلفة وتجمعهم الجامعة الافرنسية وشاهدنا الكاتالانيين والاندلسيين والجلالقة والبيسكانيين يتخالفون فى عاداتهم وطبائعهم ولهجاتهم ثم تجمعهم جامعة الاسبانية فيقال لهم كلهم اسبانيون

ومن الغريب فى البلجيك أن ترى شعباً نازلا فى هذه البقعة الضيقة من الارض ولا تمتزج اجزاؤه بعضها الى بعض ولا يتناسى مشخصاته على حين تجمع بين هذين العنصرية وهم الفالونيون والفلامنديون المصالح المشتركة والخطوط الحديدية والطرق النهرية الى غير ذلك من ادوات التمثيل والامتزاج . بعض المواد اذا جعلتها فى بوتقه واحدة تنتهى بفعل الحرارة ان تتحول الى مادة جديدة وتذهب مميزاتها بتة . وان اقليمي الفلاندروفالونيا اللذان تتألف منهما بلاد البلجيك لتمزجهما بوتقة مدنية واحدة محصورة فيختلطان ولكن لا يتمازجان ويظل كل عنصر سالماً من مؤثرات جاره واجتماعهما صنعى لا طبيعى .

رأينا الشقاق بين أهل هاتين اللغتين على أشده فى كل مكان بين الخاصة والعامة ولم يفت اختلافهما فى عضد الوطنية ومع هذا لا ترى فى البلجيك الا فالونيين وفلامنديين ممادل على أن الدولة لا تتحول كما أن طبقة الشعوب كذلك فالوطن فى الحقيقة كما قال توسيديد مجموعة مدن وبيوت وقلاع واسوار بل الوطن هو الروح الحية فى المدينة وما تقرأه فى قلوب الوطنيين ان هو الا بقايا مما كان فى قلوب الاجداد .

الى اليوم ترى الخصام على أشده بين هذين الشعبين اللذين يؤلفان شعباً واحداً فى معظم مظاهر الحياة ولكنهم فى المسائل الوطنية لا فرق بين ابن الشمال

وابن الجنوب . فينقاتلون بالمدى كما يتقاتل أبناء البلاد الحارة كالاسبان والطليان ولكن كلمتهم فى الشدائد سواء على نحو مارأيناها يوم الحرب العامة فكانوا مثال الوطنية كما هم أجمل مثال فى المدنية .

وما برح الخصام بين الفلامندية والفرنسية مستحكمة حلقاته فقد تحررت البلجيك من هولاندة واسبانيا والنمسا بالتأثيرات الافرنسية واللغة الافرنسية وما زال شعار الفلامندية منذ نحو قرن «حرية بلا لسان» وشعار مدينة أنفرس للنساء الفلامنديات :

لا تسمحن أن يجرى الحديث بالافرنسية

فاذ لغتنا الوطنية تموت

وبعد فقد أحرز البلجيكيون على الرغم من تطاحنهم فى مسائل الاشتراكية والدين واللسان مقاماً عالياً فى مظاهر الحضارة حتى صحت فيهم كلمة ستوارت ميل : « لا تعمل أعمال كبرى برجال صغار » فالعظائم للعظام وعمل العظيم عظيم

زرت قاعدتى البلجيك بروكسل وأنفرس ورأيت منافستهما في طريق المدنية واختلاف صورها كاختلاف لسانهما واختلفت الى المتاحف والقصور وعجبت من تبريز أهلها فى كل مرة كيف لم يجعلا ولو فى احدى الجامعات البلجيكية (بروكسل ـ لوفين ـ غاند ـ ليج) درساً للعربية تبلغ فيه عن الاقل مستوى الدانيمرك وسويسرا واسوج ونروج فهذه من الممالك الصغيرة التى لا تميل الى استعمار قطر من الاقطار العربية ومع هذا تجد فى جامعاتها نصيباً من العناية بالعربية لغة المدنية القديمة

في البلجيك زهاء سبعة آلاف مدرسة ابتدائية فيها نحو مليون من الاولاد الذكور والاناث ومع هذا تجد عشر أهلها أميين على حين لا تجد فى هولاندة أكثر من ٢٣ فى الالف وفى فرنسا ٤٧ فى الالف . والاحزاب المتغلبة فيها ثلاثة أحزاب حزب الاحرار والحزب الدينى وحزب الاشتراكين وليس في بلجيكا كما تقدم روح بلجيكية كما ليس فى المانيا روح المانية ولا فى فرنسا روح فرنساوية

ولا فى انكلترا روح انكليزية . ومامن شعب فى الارض يملك روحاً خاصة بل هو مزيج أرواح مختلفة ولكنها مؤتلفة .

رأيت فى بروكسل صورة جميلة من الحياة أحب أن لايفوتنى تدوينها . رأيت رجلا فى الثانية والخمسين يمسك بيده ولداً عند بائع القند والسكر عمره أربع سنين يبتاع له بقدر مايستطيع أن يحمل ثم التفت الىّ أبوه وخاطبنى بقوله يجب أن يقوى هذا الولد أتدري أى نمرة هو بين أولادي ؟ قلت لا . قال : هو ابنى الثامن عشر فدعوت له ولاولاده بالصحة والهناء . وفى ذلك دليل كبير على كثرة تغالى هذه الأمة بتكثير نسلها ومبلغ العناية باولادها مما يشهده الغريب فى كل دقيقة وهو سائر فى الشوارع فيرى الأم تحمل طفلها وهى سائرة مبتهجة به واذا ركبت فى المركبات الكهربائية أو دخلت فى محال الزحام يوسع لها ليرتاح طفلها وبقدر ماتجد في الشوارع من أبناء العاشرة أو العشرين مثلا تجد من أبناء الاشهر أو السنتين والثلاث ولذلك كان مستقبل البلجيك باهراً لتوفرها على النسل وكان أهلها كثيرين جداً اذا قيسوا بالأرض التى ينزلونها .

عمران هولاندة

٨٠

هولاندة أوندرلاندة أو الفلمنك أو بلاد القاع هى من البلاد الغريبة بتركيبها الطبيعى كلها بسائط لاجبل فيها اللهم الا أكمات على الحدود الالمانية لايتجاوز أعلاها ثلثمائة متر أى علو برج أيفيل فى باريز أما من جهة البحر فان سواحلها نازلة عن الشواطىء قليلا ولذلك سميت بلاد القاع .

بلاد صغيرة اذا قست طولها من الشمال الى الجنوب لايتجاوز الثلثمائة كيلومتر ولا يكاد عرضها من البحر الى تخوم ألمانيا يتجاوز المائتى كيلومتر ومجموع مساحتها

السطحية ٣٨ ألف كيلومتر مربع منها ٣٣ ألفاً أرض تصلح للزراعة و ٥٠٠٠ كيلومتر ماء . وتعد من حيث مساحتها السطحية المملكة السابعة عشرة ولكن عظمة الممالك لا تقوم بكبر رقعتها بل بما فيها من مواد العظمة الحقيقية وأدوات الحياة الطيبة .

ليس فى الارض مملكة تحارب المياه والمياه تحاربها مثل هولاندة ففيها على ضيق مجالها أربعة انهر كبيرة وهى الرين والموز والاسكوت والايسل . واقنية لا تكاد تعد تقطع القرى والمدن وتجرى الى كل وجهة وبحيرات داخلية بل بحر داخلي ويسمي الزويدوزيه تبلغ مساحته ٣٥٠ ألف هكتار ويشغل جزءاً مهما من أرض البلاد . فهولاندة تعيش بهذه المياه تحمل الى تربتها الخصب واذا غفلت عنها داهمتها من البر والبحر ولا سيما من البحر فاخربتها وهناك البلاء . ولذلك ترى الهولاندى أبداً فى حرب دائمة مع الحياة منذ العصور المتطاولة . ومن أجل وهذا قالوا : ان الخالق خلق العالم ماعدا هولاندة فان الهولانديين أوجدوها . وقالوا في أمثالهم القديمة التي يتغنون بها : من لم يوقف سير المياه لا يستحق أن يملك ارضا .

وكم من أرض كانت بحراً فردمها الهولانديون فاصبحت مباقل ومباخس وكم من ارض طغا عليها البحر فاصبحت جزراً وجزيرات . عراك منذ القديم بين الهولانديين والمياه وفى هولاندة « وزارة المياه » كما فيها وزارة مالية ووزارة مستعمرات مثلا . خصوصية لها لا يشاركها فيها غيرها ولها فى سطو البحر عليها وسطوها على البحر تاريخ خاص غريب .

فى ثلاثة وثلاثين ألف كيلومتر مربع من الأرض ينزل نحو سبعة ملايين من الهولانديين ويعدون من أغنى شعوب أوربا وأكثرها عراقة فى الحضارة وأشدها اختلاطاً بالأمم وتعلماً للغات المختلفة وقد يحكم على المتعلم فيها أن يدرس الالمانية والانكليزية والافرنسية خلال التعليم الابتدائي والاوسط وقلّ أن تلقى متعلماً لا يحسن التخاطب بلغة أو لغتين ماعدا لغته وكثير منهم يتعلم اللغتين الجاوية والمالايو لارتباط تجارة بلادهم بالهند الشرقية

قالوا فى الهولاندى ان بشرته قست وطبعه جف [1] بما يهب عليه من هواء البحر وندى المياه وان الشعوب كالاطفال فكما ان الطفل الذى قاسى العمل يختلف عن الولد الذي عاش فى النعيم والسعادة هكذا الأمم التى عاشت فى الهناء والمجد ليست بتصورها كالأمم التى ارتقت فى العمل وتحت التهديد وضربات الايام والليالى . لاجرم أن ألفة التجارة بل الذوق الطبيعى فى الهولاندى لها يفسر ولو بعض شيء ماتراه فيه من الحذر والاحتياط . فأخذ الهولاندى باسباب الحيطة حتى لايخدعه أحد من الناس قد جعل فيه طبيعة خاصة . ثم ان النزاع القائم بينه وبين المياه منذ الزمن الاطول ومدافعة الناس عن حدوده كحروب هولاندة مع اسبانيا وحروبها مع فرنسا وانكلترا وحروبها الدينية التى كانت على أشد حالاتها فى بلادها نشأ منها هذا الخلق فى الهولاندى خلق الحذر والجفاء . وكان آخر المحن التى أورثته شيئاً من هذا القبيل تجنيد هولاندة ستمائة ألف جندى خمس سنين خلال الحرب العامة حتى نجت من شر الحرب اذ كان الالمان يمسكونها من البر ويريدون أن يدخلوها في الغمار والانكليز وحلفاؤهم يشدونها من البحر يريدونها على الاشتراك معهم فانجاها الله بحيادها وفرط استعدادها .

الهولاندى رجل عمل لامثيل له فى موضوعه ويعتبر الهولانديون فى مقدمة تجار أوربا فان روح التجارة تحمسهم أبداً . للهولاندى رأس موزون بصير كل البصر فى المسائل . عملى لاينظر الى مابعد بل يتقن النظر الى ماقرب منه ويعمل ما يعمل مدفوعاً بعامل الفكر فى الحكمة أو الحساب أو لاستعداد فطرى فيه يدعوه الى أن يتلبس بالعدل فهو عادل والعدل يفضي به الى المساواة التى يحبها .

اشتهر الهولانديون بنظاماتهم الاجتماعية وشركاتهم ونقاباتهم بحيث ترى

---

(١) كتاب روح شعب وحياته أو هولاندة فى العالم لهنرى أسلين : Henry Asselin
L, âme et la vie d'un peuple.. La Hollande dans le monde

بلادهم كلها مجموعة شركات واتحاد جماعات ونقابات فى كل ضرب من ضروب الاجتماع والتعاون . الهولاندى كالصينى يحتقر الوقت بعض الاحتقار ويتجاهل الساعة خلافاً للانكليزى الذى يقول الوقت نقد . وترى الهولاندى مع هذا يعيش جيداً ويعمل جيداً ويربح كثيراً ولا يتعجل ويسرع خطاه . هو يصحو من نومه متأخراً ويأتي الى عمله فى الساعةالتاسعة أوالعاشرة وينصرف فى الخامسة أو السادسة ليستقبل ضيوفه أويذهب الى التمثيل أو يتعاطى شيئاً من غير أعمال النهار . فالهولاندى لايضبط نفسه بالساعات فى العمل بل يعمل على هنيته عملا متقناً يفيد فى مجموعه .

عرفت المرأة الهولاندية بأفراطها فى حريتها وهى فى ظاهرها ربة دار تعنى باصلاح داخليتها وتتولى نظام مسكنها ومطبخها على أنها فى الحقيقة راقية بعلمها تميل كل الميل للمسائل العقلية وتحب الاطلاع على أعمال الفكر الانسانى تطالع كثيراً وفى أربع لغات على الأقل ولها وقوف على أقوال الحكماء والأدباء والحركة العلمية وتشدو شيئاً كثيراً فى العلم والادب . ولا تعرض بضاعتها من ذلك لأنها الى السذاجة والعزوف عن الظهور .

ولقد فطر الهولانديون على الحرية فلا تسمع منهم ماتسمعه اذا لقيت أحداً من الشعوب اللاتينية كقوله انه سر للتعارف اليك وانه ليفرح اذا لقيك فى منزله ومحله فان هذه الالفاظ لا أثر لها فى حديثه فاذا قال لك الهولاندى أنه يسر ان يستقبلك فى داره أو يحترمك فان كلامه خال من كل رياء يمكنك أخذه على ظاهره لانه الحق المجرد خال من المبالغة والحشو والظرف المألوف عند الطليانى والاسبانى والفرنساوى .

زرت أحد علماء المشرقيات في ليدن وانصرفت من لدنه بعد ساعة لزيارة خزانة جامعتها فتقدم الي أحد تلامذته وخاطبني باللغة العربية بقوله أن السيدة فلانة زوجة استاذى تدعوك مع زوجها غداً الى تناول طعام المساء فى دارها على أن لاتستصحب معك الترجمان . فمن يسمع لاول وهلة بطرز هذه الدعوة

يحسبها جافة والحقيقه أن فيها كل الظرف خصوصاً والترجمان لافائدة له لان الداعى وعقيلته يتكلمان الافرنسية . وطبقة التراجمة في الغالب من احط الفئات فى أوربا فلا يليق أن تجاس الى مائدة أمثال تلك الطبقة الراقية العالمة .

وبعد فقد سبقت هولاندة غيرها من الامم بحريتها ومعاهدها الحرة المنظمة وبينا كان الفرنسيس وغيرهم يقاتلون الملوك ورجال الدين والنبلاء لاستحصال حرياتهم كان الهولانديون قد تخلصوا من ظالميهم ممتعين بحريتهم حتى لقد جلا اليهم من فرنسا وحدها مئة الف برتستانتى فى الحروب الدينية عقيب أن أهلك الكاثوليك في فرنسا عقيب مذبحة القديس برتلماوس مئة الف انسان فى خمسة أيام وهنأالبابا ملك فرنسا اذ ذاك على ما أتاه ورجاله من هذه المنقبة : وبينا كانت المراقبة شديدة على الافكار في فرنسا كان روسو وفولتير وأمثالها من الحكماء يطبعون كتبهم فى هولاندة هربا من ظلم الظالمين وسخافة المراقبين .

ومع هـذا فقد كان شارلكان ملك اسبانيا وأمبراطور ألمانيا وسيد سبع عشرة ولاية هولاندية هو الذى حكم على لوثيروس صاحب المذهب البرتستانتى في فررمس وتعهد بسحق الاصلاح الدينى الذى كان سرى في انحاء أوربا وكان العدو اللدود للوتيريين والكالفيين من الهولانديين . وكانت شدة ديوان التفتيش الدينى الذي أقيم فى جنوبى هولاندة أى فى أرض البلجيك اليوم لمصادرة العقول من جملة انفصال الهولانديين عن ابن شارلكان فيليب الثانى . والبرتستانتية هى المذهب السائد الآن فى بلاد القاع و٦٢ فى المئة من أهلها برتستانت أوانجيليون و ٣٥ كاثوليك و ٢ من الاسرائيليين فالبرتستانتية هى دين الحكومة وفى هولاندة كما في البلجيك أربع جامعات وهى جامعـة ليـدن وأوترخت وامستردام وغرونتغ ويكفى أن يقال أن ستة من علماء هولاندة نالوا جائزة نوبل مما لم تحصل عليه أمة من أمم الأرض . وفى هذا برهان على كثرة نوابغهم وعلمائهم فى كل فن ومطلب . زرت أمهات مدن هولاندة والمسافة بينها قريبة فى السكك الحديدية مثل ليدن ولاهاى واوترخت وامستردام وروتردام ورأيت

كثيراً من قراها واكثر بنائهم بالقرميد والآجر لقلة مقالعهم وكم من دار مررت بها وقد كتب عليها أنها عمرت في سنة كذا من القرن السادس عشر وحيثما طفت ترى عناية الامة بالغة باطفالها فتراهم ينزهونهم في البرد الكالح ودرجة الحرارة ١٨ تحت الصفر والوجوه باسمة مستبشرة . والهولانديون كثير نسلهم بحيث اكد أحد علماء الاحصاء أنهم سيبلغون ثلاثين مليوناً بعد عشرين سنة

هولاندة والاسلام

٨١

الهولانديون قليل عديدهم ضيق نطاق أرضهم كثيرة فعالهم متسعة مستعمراتهم . شعب في الغرب عدده سبعة ملايين يقود في الشرق أربعة وأربعين مليونا من البشر . ونعني مستعمرة الهند الهولاندية أوجاوة وما اليها من مئات من الجزائر . وقد شبهها أحد كتاب هولاندة بنطاق من الزمرد يتثنى على طول خط الاستواء . ومساحة هذه المستعمرة ٣١ر٣٥ ميلا جغرافيا مربعاً أي مساحة قارة أوربا ما عدا روسيا الوسطى وروسيا الشرقية [1] تزرع الشاي والقهوة والخيزران والقطن والارز والمطاط وقصب السكر والقرفة والفلفل والصمغ والطبرخة « غوتاپرشا » وجميع أثمار البلاد الحارة والمعتدلة وبقولها حاصلاتها وفيها من المعادن البترول والبنزين والكازولين والقصدير والذهب وغيره .

دخل البورتقاليون هذا الارخبيل قبل أن يفتحوا ملقة سنة ١٥١١ ببضع سنين وجاء الاسبانيون خصماؤهم من الشرق الى جزائر الملوك فلم يلبثوا ان تراجعوا الى جزائر الفيلبين الشمالية وفي أواخر القرن السادس عشر توفق بضعة شعوب من الاوربيين الى بلوغ تلك الجزائر فجاء الانكليز سنة ١٥٩٤ والهولانديون سنة ١٥٩٦

(١) مقالة الهند الهولاندية في الموسوعات الاسلامية
Indes Nèer landaises dans L. Encyclopéodie de L' Islam.

ثم الفرنسيون والدانيمركيون والاسوجيون على سفنهم الحربية ليبتاعوا الابازير والافاوية والاحجار الكريمة وغير ذلك من الحاصلات . وكان البرتقاليون والصينيون وسكان آسيا الجنوبية قد احتكروا لانفسهم هذه الاصناف . وفى سنة ١٦٠٢ توحدت الشركات الهولاندية الصغرى وكانت عديدة تتجر فى تلك البلاد باسم شركة الهند الشرقية الممتازة فتوسعت أعمالها خلال القرن السابع عشر وزادت نفوذاً فى السياسة والاقتصاد وامتدت كلمتها من أفريقية الى اليابان وعلى شواطىء جنوبي آسيا وأرخبيل الهند الشرقية وتوطدت أقدامها فى تلك الاصقاع الى أواخر القرن الثامن عشر . وفى سنة ١٨٠٠ نزلت هذه الشركة الى حكومتها عن جميع حقوقها فكان شأن هولاندة مع شركتهم هذه شأن الشركة الانكليزية التى فتحت الهند . وكانت الشركة الهولاندية تدير شؤون البلاد وتعقد مع بقايا أمراء المسلمين محالفات ولما فقدت هولاندة استقلالها فى حرب نابليون انتقلت أحكام هذه المستعمرة الى أيدي الانكليز ثم تقرر فى مؤتمر فينا إرجاعها الى هولاندة فأخذت تنظمها وتستثمرها وفى سنة ١٨٢٥ حدثت فيها ثورة اضطرت معها هولاندة الى أن تقوم ببعض الاصلاحات وتأصلت كلمتها فيها فتوطدت العلائق بين الوطنيين والهولانديين ومعظم السكان من أهل الاسلام بلغوا (١) خمسة وثلاثين مليوناً وفيهم كثير من الهنود المولدين وألوف من العرب الحضارمة أهل حضرموت وقد وصفوا كلهم بالذكاء وأخذوا يقتبسون المدنية الغربية وان من أبناءهم من أدهشوا باستعدادهم الفطرى أقرانهم من الهولانديين في جامعات أوترخت وامستردام وليدن ومدرسة الادارة فى دلفت

قام استعمار هولاندة بين الجاويين على تبادل المنافع وارتبط الهولانديون بالجاويين برباط المصاهرة وقد يصبح الهولاندى وأولاده جاويين أكثر مما يصبح

(١) سياسة هولاندة الاسلامية لسنوك هرغرونى
L. Snouck Hurgronje : Politique musulmane de la Hollande

الجاوى هولاندياً . وذلك لما عرف به الجاويون من التسامح وحب السلام ولما عرفت به ادارة هولاندة من اللين فى الجملة بعد شدتها خلافاً لما تعامل به دول الاستعمار ـ فيما قيل ـ البلاد التى يسكنها سكان من الجنس الاسود أو الأحمر أوالأصفر . ومن دواعىالفخر لهولاندةمما يصح ايراده دليلاعلى حسن استعمارها ان سكان الهند الهولاندية مازالوا على نمو متصل خلافاً لما عرف من أن الشعب المظلوم المستعبد يقل نسله ويتراجع أمره فان سكان جزيرة جاوة وحدها وهى أكبر تلك الجزائر وأعظمها جمعاً بين المدنية الاسياوية والمدنية الاوربية قد بلغ فى الأحصاء الأخير ثلاثين مليوناً منهم ٢٥٠ ألفاً من الصينيين و٦٥ ألفاًمن الاوربيين وكلهم من المولدين فى الجزيرة على حين لم يكن عددهم سنة ١٨٩٥ سوى خمسة وعشرين مليوناً

ترك الهولانديون للمسلمين حريتهم الدينية يحجون ويزكون ويقيمون الصلوات ويحلون مشاكل الزواج والطلاق وغيرها على مايشاؤن . والغالب ان الاسلام دخل الجزيرة منذ سبعة قرون فتم اسلام أهلها فى ثلاثة قرون وأخذ بعض شبانها منذ قرنين ونصف قرن يرحلون فى طلب العلم الى مكة المكرمة ويعودون الى بلادهم ينشرون كلمة التوحيد بين الوثنيين والبوذيين فيزداد الاسلام انتشاراً بواسطتهم وبواسطة التجار وهم ناجحون فى هذا الشأن أكثر من الأديان التى لها دعاة منظمون وجمعيات تنفق للدعاية الى مذهبها عن سعة .

وقد انحصرت تجارة الداخلية بالحضارمة والوطنيين على الاغلب والتجارة الخارجية بالأوربيين ولا سيما الهولانديين . وللعرب هناك زهاء بضع صحف عربية تكتب بلغة لا بأس بها وهذا دليل على كثرة من يقرأون العربية ، وكما راعت هولاندة قاعدة حرية الاديان مع الأكثرية من المسلمين رخصت لدعاة البرتستانتية والكثلكة بانشاء مدارس فى تلك البلاد فاسسوا زهاء ألفى مدرسة فيها ١٥٠ ألف طالب وفي مدارس الحكومة أكثر من ٢٧٠ ألف طالب وربما بلغ عدد تلاميذ المدارس فى تلك المستعمرة ٤٣٠ ألفاً اذا حسبت المدارس

الخاصة ، وهناك مدارس عالية لتدريس الطب والصنائع النفيسة والحقوق وغيره تتمة سلسلة التعليم العام . والمستعمرة متصلة مع سائر موانى الشرق والغرب بسفن تجارية آية بنظامها ونظافتها . ويتكلم بالهولاندية كثير من الوطنيين من تجار وموظفين ومتعلمين بحيث انتشرت لغة هولاندة هنا انتشارها فى جنوبى أفريقية بواسطة من توطنها من الهولانديين .

فى هذه المستعمرة اليوم حركتان سياسيتان وهى عبارة عن حزب كبير يدعو الى الاستقلال الادارى فى البلاد لاعتقادهم ان الوطنيين أصبحوا قادرين على رؤية شؤونهم بأنفسهم وحزب صغير وهو مؤلف من هنود ووطنيين ، يقول بالاستقلال المطلق لتلك الجزائر ونزع ربقة الحكم الهولاندى . وهناك أناس يخافون من هذا الاستقلال اذا تم مخافة أن يرفع على البلاد العلم اليابانى أو الانكليزى يوم يرتفع عنها العلم الهولاندى

ولا تعمد هولاندة فى الغالب الى القوة فى قتال هذه الأفكار التى تضر بمستقبلها خصوصاً وهى تعرف ان الجاويين ليسوا أمة حربية ، وقد جعلت لهم جيشاً مؤلفاً من أبنائها وهم نحو ثلثه لحفظ النظام . ولهذه المستعمرة أسطول حربى خاص بها . وقل ان حدثت فى الماضى حوادث بين المستعمر والمستعمر كما حدث فى الهند والجزائر مثلا اللهم الا ثورة سنة ١٨٢٥ ومعظم شؤون الهند الشرقية بأيدى الوطنيين ولا يزال هناك بعض أمرائهم من المسلمين الذين أبقت عليهم هولاندة يتمتعون بحقوقهم الا قليلا وترجع الاعمال الكبرى الى أناس من الهولانديين والحاكم هولاندى يعينه ملك بلاد القاع .

---

*

هولاندة والعرب

٨٢

سألت العلامة الأستاذ هوتسما Houtsma مدير دائرة المعارف الاسلامية وعضو المجمع العلمي العربي وناشر كتاب زبدة النصرة للعماد الأصفهاني وتاريخ ابن واضح اليعقوبي والاضداد لابن الانباري وغير ذلك من كتب العرب — عن منشأ الاستشراق العربي فى هولاندة والسبب الذى دعا اليه فأجابني حفظه الله وهو الحجة الثقة في هذا الباب بما تعريبه : « عملا بوعدى أرسل اليكم عجالة في مبدإ الدروس العربية وارتقائها ويرد ذلك الى الزمن الذي أسست فيه جمهورية الولايات الهولاندية المتحدة أواخر القرن السادس عشر التى نشأت من معارضة البرتستانت للحكومة الكاثوليكية الاسبانية . وأول ما صرفت اليه العناية فى تعليم اللاهوت البرتستانتى درس تفسير الكتاب المقدس ودرس اللغة العبرية واللغات السامية الأخرى ولا سيما العربية وهناك سبب آخر كان يدعو الى تعلم العربية وهو كثرة اتجار الهولنديين مع سكان البلاد المغربية (مراكش والجزائر وطرابلس) وأهل الشرق الاقرب .

وربما كان الأستاذ توما اربنيوس[1] Th Erpenius المتوفى فى ليدن سنة ١٦٢٤ هو مؤسس هذه النهضة . وذلك انه كان تلقف من اللغة العربية حظاً صالحاً مستغربا بالنسبة لعصره وعزم أن يرسل الى الشرق لان الكتب المطبوعة بالعربية كانت على عهده نادرة جداً ومن بواعث الاسف انه اضطر الي العدول عن سياحته هذه فبلغ فى رحلته الى البندقية ، ولكنه توفق الى الاجتماع في باريز وغيرها بعرب من الجزائر ومراكش وجمع كمية من المخطوطات العربية فتوسعت معلوماته . ولما عاد الى ليدن نشر (سنة ١٦١٣) كتابا فى نحو اللغة العربية

---

(١) فى معجم لاروس اربن Erpen ولعله هو هو

واللاتينية وفى سنة ١٦١٥ نشر حكايات لقمان وأعد للطبع كتاب التاريخ العام للشيخ المكين الذى طبع بعد وفاته سنة ١٦٢٥ ولطبع هذه الكتب أنشأ بنفسه فى ليدن مطبعة جهزها بأمهات الحروف العربية ما زالت الى اليوم باقية على ما تعاورها من التغيير الذى اقتضاه الزمن ·

وكان تلميذه يعقوب غوليوس Y Golius أسعد حالا منه فانه رافق بعثة الولايات الهولاندية المتحدة الى مراكش سنة ١٦٢٢ — ١٦٢٤ ثم زار الشرق وقد دخل أخوه بطرس فى الرهبنة الكرملية وقضى جميع حياته فى الشرق ، وترجم كتباً مسيحية بالعربية وبقى يعقوب فى ليدن ودرس العربية الى حين وفاته سنة ١٦٦٧ ونشر معجما عربياً لاتينياً وأعد للطبع كتاب الفلك للفرغانى الذى ظهر سنة ١٦٦٩ وقد ظل طول حياته على اتصال مع أصحابه من العرب الذين لقيهم فى سياحاته ، أو من كانوا يأتون نادراً الى هولاندة ، وعنى كل العناية بابتياع مخطوطات عربية لخزانة كتبه الخاصة ولخزانة المدرسة الجامعة ، وقد اغتنت مجموعة الجامعة بعد قليل من الزمن بوفاة وارنير L. warner من تلاميذ غوليوس وسفير هولاندة فى الاستانة (١٦٥٥ — ١٦٦٥) الذى وقف عليها مجموعة كتبه العربية والفارسية والتركية وكان أكثرها من خزانة حاجى خليفة المشهور بمعرفة الكتب[1] ومن تلامذة غوليوس أيضاً رلاند A. Reland أستاذ فى جامعة اوترخت فى بداءة القرن الثامن عشر . وصاحب التصانيف الكثيرة بالجغرافية والآثار القديمة فى فلسطين وكتاب فى الدين المحمدى (١٧١٨) خلا من شوائب التعصب للنصرانية وكتب لغاية علمية صرفة . ولم تلبث العناية

(١) من غريب الاتفاق ان كاتب شلبي أو الحاج خليفة صاحب كشف الظنون وجامعا وغيرهما من الكتب الجيدة قد أخذ الرياضيات والطبيعيات والجغرافيا وغيرها فى القسطنطينية عن عالم هولاندى جاء تلك العاصمة ليدرس اللغات الشرقية ودان بالاسلام ولما هلك كاتب شلبي بيعت كتبه فاقتنى أكثرها السفير الهولاندى وهى التى وقفها على جامعة ليدن فكانت المادة المهمة لتميز مجموعة الكتب العربية فى ليدن عن غيرها لانها انتقاء عالم كبير مثل كاتب جلبي وفيها لباب العلوم ولم تؤخذ سقيا ورعياً وليس فيها الغث والسمين · لهولاندة على كاتب شلبي يد بيضاء بتلقينه علوما لا عهد للترك بها تعلمها وألف فيها وأفاد وقابلها على صنيعها بان أعطاها من علوم العرب والاسلام مالا عهد للهولانديين به (المترجم)

بالدروس العربية بعد الأستاذ رلاند ان ضعفت عن القرن السابق . وذلك لان التجارة مع الشرق لم يعد لهـا تلك المـكانة التى كانت لها سابقاً . وأصبحت الصلات مع الشعوب الذين هم من أصول عربية تقع على الندرة فلم يرحل الى الشرق عالم واحد ليأخذ عن أهـله علومهم . وقل الاتصال مباشرة مع الحياة الشرقية . ولم يعد للغة العربية من فائدة الا لعلماء اللاهوت ممن رأوا فيها غناء فى فهم الكتاب المقدس وأشهر هؤلاء المستعربين شولتنس A. Schultens من أساتذة جامعـة ليدن (١٧٢٩ — ١٧٥٠) الذى حاول ارجاع معنى الـكلمات العبرية الى أصل عربى وبهذه الصورة يتأتى شرح جميع مشكلات التوراة وكان من أمر ابنه وحفيده وكلاهما أستاذ فى العربية ان سارا على خطتهمثل كثير من المستعربين فى ذاك العهد . وقد نشر شولتنس (١٧٣٢ — ١٧٥٥) سيرة صلاح الدين لبهاء الدين . وعلى ذاك العهد كسفمجد علوم المشرقيات فىهولاندة وأصبحت فى ظلمات بانبعاث النور من ناحية المشتغلين بالمشرقيات من الفرنسيس بنبوغ سلفستر دى ساسى Sylvestre de Sacy أوائل المائة التاسعة عشرة وكادت تعجز عن مجاراة علماء المشرقيات من الألمان وعلى هذا فلا أقول شيأ فى هاما كير Hamaker و نينس Neynis وجو نبول Juynboll وغيرهم من أساتذة العربية وان نشر الأخير عدة كتب منها جزء من تاريخ أبي المحاسن والمعجم الجغرافى مراصد الاطلاع .

وما الداعية الحقيقى للغة العربية فىهولاندة الادوزى R.P. A.Dozy أستاذ جامعة ليدن (١٨٥٠ — ١٨٨٣) الذى وسد اليه ويا للأسف تدريس التاريخ العام بدلا من تدريس العربية الذى كان يشغل منبره اذ ذاك الاستاذ جونبول وقد عنى لأول أمره بتاريخ العرب فى اسبانيا الذى جلاه للأبصار بسلسلة من المطبوعات مثل كتب عبد الواحد المراكشى (١٨٤٧ — ١٨٨١) والبيان المغرب لابن عـذارى (١٨٤٨ — ١٨٥١) وابحاث على التاريخ السـياسى والأدبى فى اسبانيا خلال القرون الوسطى (الطبعة الثالثة سنة ١٨٨١) وتاريخ مسلمى

اسبانيا (١٨٦١) وهو من أجمل ما كتب فى بيان النبوغ العربى ومن حيث أسلوب انشائه . ولم تقتصر ابحاثه على تاريخ العرب فى اسبانيا بل نشر سنة ١٨٤٨ معجما مطولا في أسماء ألبسة العرب ونشر فى آخر عمره (١٨٧٧ — ١٨٨٠) ذيلا عاما لمعاجم العربية وهو من أهم المصنفات لكل المستعربين الأوربيين . وكذلك كتابه فى تاريخ الاسلام الذى كتبه سنة ١٨٦٣ باللغة الهولاندية ونقله شوفين الى الافرنسية وأظنه ترجم أيضاً بالعربية .

وهنا أنجز معروضى الوجيز عن الدروس العربية فى هولاندة فان ما قام به تلامذة دوزى فى هذا الشأن مثل دي خوى M.j.de Goeg [1] ويونغ P. de Jong معروف لديكم فلاأطيل بتكراره هنا .

ولكم بما رأيتم من هذا البيان الجلى أن تحكموا بأنفسكم على ما بذله الهولانديون من الغيرة التى لا تعرف النصب ليتمكنوا من معرفة لغتكم الشريفة ويدركوا أسرار الآداب العربية . وبديهى ان علماء المشرقيات من الهولانديين يهتمون جد الاهتمام للعمل الباهر الذي تقومون به فى الشام لاحياء هذه الآداب لتعيدوا للعرب ما كان لهم قديماً من المقام المحمود فى ساحة العلم البشرى اه .

هذا ما تفضل به صديقنا الكريم من المعلومات النافعة عربناه شاكرين له يده البيضاء على آدابنا ولغتنا . ولا شك ان القارىء قد تبين له مبلغ عناية الهولانديين بل معظم أجيال الغربيين بالعربية وآثارها . ولا عجب فهم مثال الدؤوب على كل عمل نافع وقد أفادوا بما نشروه من آثار أسلافنا تاريخ مدنية باهرة . ولا بأس بأن نشير بهذه المناسبة الى المطبعة الشرقية التى أعانت المشتغلين

(١) أن العلامة دى خوى المتوفى سنة ١٩٠٩ ناشر كتاب تجارب الامم لابن مسكويه والعيون والحدائق ومكتبة الجغرافيين العرب وهى مؤلفة من جغرافية الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى وابن الفقيه وابن خرداذبة وابن رستة وابن واضح والمسعودى مع الفهارس وناشر تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبرى — قد عدّ من أعظم علماء المشرقيات فى الغرب لاحيائه هذه الكتب النفيسة ولاسيما المكتبة الجغرافية وتاريخ الطبرى فهو من مفاخر هولاندة بلا مراء . أما الاستاذ يونغ فهو ناشر كتاب المشتبه للذهبى وكتاب الانساب لابى الفضل المقدسى ولطائف المعارف للثعالبي وكتاب الخراج لابن آدم وغيره فيعد من كبار المستعربين أيضاً (المترجم)

بالمشرقيات من بلاد القاع وغيرها على نشر ما أحيوه منذ ثلثمائة سنة من كتب السلف الصالح فى ضروب المطالب المدنية كالتاريخ والجغرافيا والرحلات والفلسفة والآداب واللغة والشعر والاجتماع بل والحديث والفقه والاصول . وما زالت هذه اللغة من لطف الله بها يخدمها الاعاجم ويغار عليها من ليسوا من أبنائها . فيحسن خدمتها الدخيل أكثر من الاصيل . وكيف لا نهنئ الهولانديين وقد خدموا لغتنا وشرعوا بنشر آثارها يوم لم يكن لنا مطبعة واحدة فى جميع بلاد هذا الشرق القريب ولا من يفكر من علمائها وأدبائها فى طبع رسالة أو كراس أو كتاب من علومها يوم كان الانحطاط باديا فى جميع مظاهر حياتنا

كانت المطبعة التى أسسها فى هولاندة مؤسس النهضة العربية فيها هى التى أنشأها فى ليدن المستشرق اربنيوس بمعاونة حكومته . وما زالت هذه المطبعة تنتقل من يد الى أخرى حتى كان مديرها سنة ١٨١٢ جوها لابريل Brill ثم تولاها ابنه . ثم صارت شركة مغفلة بهذا الاسم يديرها اليوم أحد الشركاء السيد بلتنبورج C. Peltenburg وقد طبعت حتى الآن نحو ٣٥٠ مصنفاً باللغات الشرقية ولا سيما العربية فان نحو نصف ماطبعت بالعربية جاء مثال جودة الطبع والوضع والعناية . وهى تطبع من اللغات الشرقية باللغة المصرية أى بالحروف الهيروغليفية ولغة كهنة المصريين ولغتهم العامية وباللغة القبطية ومن اللغات السامية بالاشورية والبابلية والعبرية والآرامية (السريانية والسامرية) والحبشية والعربية . وتطبع باللغة التركية وبالفارسية والسنسكريتية وهما من اللغات الآرتية ومن لغات مالايو البولونيزية باللغة الجاوية والمالاوية والمادورية والباتاكية والروتية ومن لغات الشرق الاقصى بالصينية واليابانية والسيامية

وقد اعتمد علماء المشرقيات فى أوربا وأميركا على هذه المطبعة حتى فى الممالك التى فيها أحسن المطابع العربية كالمانيا وانجلترا ومطبوعاتها غالية الثمن لانهم يطبعون منها عددا قليلا بقدر حاجة علماء المشرقيات والمجامع العلمية الا قليلا . ومن الكتب والرسائل التى طبعت فيها ومنها ما نفد ومنها ما أعيد

طبعه ثانية كتب ابن سينا والفارابي والجاحظ والغزالى والطبرى واليعقوبى وابن الأثير والخوارزمى والبلاذرى والمقـدسى والذهبى والاصطخرى وابن حوقل وابن الفقيه وابن رسـتة والهمداني وابن تغرى بردى والجمحى والمسـعودى والدينورى والادريسى وابن قتيبة وابن بدرون وابن هشام وابن القيسراني وابن خطيب الدهشة وابن مسكويه وابن الانبارى والثعالبى والشيرازى والبخارى وابن حزم والاصفهانى والسجستانى والمقريزى والمقرى وابن آدام وابن خرداذبة وابن منقذ وابن سعد وابن سعيد وابن قوطية وابن ولاد وابن اسحق والرازي وارسطو والميموني والرامهرمزى وابن جبير وغيرهم من كبار المؤلفين المحققين.

وآخر ما تطبعه مطبعة بريل الموسوعات الاسلامية Encyclopédie de l' Islam وهى تصدر باللغات العلمية الثلاث الألمانية والانكليزية والافرنسية . وقد وصلوا بها الى أواخر حرف L فتكلموا فى الـكراسة السادسة والعشرين على الاسلام ويؤازر فى هذه الموسوعات كبار علماء المشرقيات فى الغرب ومنهم بعض الهنود والجزائريين . وقد نشرت هذه المطبعة من دواوين الشعر طائفة صالحة منها حماسة البحـترى . وديوان أبي فراس وديوان عبينة بن الابرص والمفضليات والهاشميات وصريع الغوانى وحسان بن ثابت والقطامى ونقائض جرير والفرزدق وغيرها . وكما تطبع ليدن الـكتب العربية والشرقية فان مدينة هارلم الهولاندية تطبع الطوابع الفارسية ولا يستغرب ذلك من مملـكة صغيرة فيها نحو خمسمائة مطبعة وأربعة عشر ألف عامل فى الطباعة وألف ومائة جريدة ومجلة . هولاندة بعيدة عن الشرق بموقعها ولـكنها قريبة بما تنشره لهوماتعقده من الصلات الحسنة الادبية .

معاهد انكلترا

المتحف البريطاني ـ جامعة اكسفورد ـ جامعة كمبريج

٨٣

لم يكتب لي أن أقضي في انكلترا سوى أربعة أيام صرفت نصفها في لندرا لزيارة المتحف البريطاني وابتياع كتب من مطبوعات الغرب وخصصت اليومين الآخرين بجامعة اكسفورد وجامعة كمبريج

ان مدينة لندرا وحدها وسكانها ثمانية ملايين ونصف تؤلف اليوم نحو عشر عواصم كالقاهرة بمساحتها وسكانها وتبلغ وحدها مقدار أربعين مدينة من مثل مدينة دمشق تحتاج ولا جرم الى أن يصرف المرء فيها أشهراً حتى يزور معاهدها وقصورها ويعرف نموذجاً من اداراتها ونظاراتها ومتاجرها ومصارفها فما بالك به اذا سمت همته لان يزور معامل لنكشير ومناجم الغال ومافي ولاياتها من الصنائع والبدائع ولا سيما في ليفربول ومنشستر وبرمنغهام. ولذلك اكتفيت بنموذج مما يهمني من المدارس والمتاحف والمكاتب. أما البحث في مدنية الانكليز وأخلاقهم فمرجعه الكتب ولم يبق الباحثون فيها مقالا لقائل ولا مجالا لجائل.

ركبت السيارة أطوف في أحياء لندن وضواحيها بضع ساعات وما أظنني لمحت الا جزءاً منها وناهيك بعاصمة هي مجموعة بلدان وحواضر وقرى وناهيك بعاصمة فيها من أنواع المحطات للسكك الحديدية عشر محطات كلها آية في الضخامة واذكر اني خرجت من احداها وأنا قاصد الى كمبريج في القطار وعلى جانبي قطاران آخران يخرجان في نفس تلك الدقيقة من المحطة. وكل شيء هنا يدل على عظمة الانكليز وتغاليهم في الرفاهية والصحة وما أذكر اني رأيت بلداً في الغرب أشبه بلندرا أكثر فيه التأنق في المطاعم واستجادة ابنيتها وأثاثها وضروب الراحة فيها الا قليه نظافة من مركباتها الكهربائية والبخارية ومن محطات سككها الحديدية

وسكككها الكهربائيـة . أما محال الاطمئنان العامـة فى الشوارع فهى على غاية مايتصور من الاتقان والنظافة ولا عجب فهي منـذ القديم مضرب الامثال بفرط نظافتها .

***

المتحف البريطاني فى لندرا بمثابة خزانة كتب الأمة ومتحف اللوفر فى باريز وفيه الكتب والعاديات معاً . أسس سنة ١٧٥٣ ولم تكن فيـه اذ ذاك الا بضع مجموعات فلم يلبث أن اغتنى بسرعة غريبة وبنى بناؤه الحالى بين سنتى ١٨٢٣ـ١٨٥٢

المتاحف والمكاتب دليل محسوس على ارتقاء أمة وانبساط ظل سلطانها وعظمة تاريخها الغابر والحاضر . وناهيك بانكلترا أعظم حكومات الأرض بمستعمراتها وقد بلغ المتفيئون ظلالهـا زهاء أربعمائة مليون من البشر أو نحو ربع سكان المعمور . ولا عجب اذا كان متحفها وكليتها آية الآيات وموضوع إعجاب الامم بأسرها وفى دار كتبها اليوم ثلاثة ملايين من المجلدات أو تزيد . فيها أنفس المجاميع المخطوطة الانكليزية وغيرها من اللغات ومجموعة المخطوطات العربية وحدها تعد بالالوف جعل فهرستها فى ثلاثة مجلدات كبرى . وجعلت المكتبة تحت قبة عالية أعلى من قبـة كنيسة ماربطرس في رومية وأحط من قبـة كنيسة البانتيون بباريز . وجعل حوالى القبة التى يجلس تحتها ستمائة مطالع بالراحة دون أن يشوش الواحد منهم على جاره ـ مخازن الكتب على رفرف من الحديد طبقات بحيث يسهل الاتيان بمـا يطلبـه الكاتب منها . وكتب المراجعـة كالمعاجم والفهارس ونحوها جعلت تحت القبة يتناولهـا المطالع حالا وهى تربو على عشرين ألف مجلد وهناك غرفة خاصة بمن يريدون الرجوع الى الصحف والوثائق السياسية والبرلمانية .

وقد جعل المتحف على صورة عملية منظمة مستوفاة شروط الصحة فيه . وهو من أغنى متاحف العالم قسم أقساماً وكل قسم حوى آثار أمة من الامم اذا رأيته تظن المتحف البريطانى لايحوى غيره لكثرة ماجهز به من الآثار وبذل فيه من العناية فنها آثار المصريين والهنود والصينيين واليابانيين وغيرهم من أمم الغرب

ولا سيما بريطانيا العظمى لحدث عما حوت فروعها ولا حرج من النوواويس والقبريات والدروج والبردى والالواح والنقوش والاوانى والسلاح والقيشانى والمفصص والجصص والمنحس والمصفح والمذهب والمفضض

وميزانية المتحف البريطاني مليون جنيه فى السنة ويقسم الى اثنتى عشرة دائرة يتولى كلا منها حافظ من الحفاظ وهم حافظ المطبوعات والمخطوطات والعاديات الشرقية والقرون الوسطى وأصول الشعوب والآثار اليونانية والرومانية والنقود والايقونات والمصورات والخرائط والرسوم المطبوعة والصور المختومة والنبات والحيوان ومطمورات الارض ومعادنها . ولا أغالى اذا قلت أن الزائر اذا أحب أن ينظر فى كل قطعة من عاديات المتحف ويبحث فى كل فرع من فروع المخطوطات والمطبوعات فى خزانة الكتب يحتاج الى صرف سنة من عمره ويخرج بعد ذلك وهو غير كثير الالمام بما حوت تلك البقعة من المفرد والمركب والقديم والحديث ولذلك اكتفيت بالالماع الى ماهناك لان وصف مافيه يحتاج وحده الى مجلد برأسه

***

فى بريطانيا العظمى سبع عشرة جامعة منها عشر جامعات فى انكلترا أقدمها جامعتا اكسفورد وكمبريج والجامعات العشر جامعة لندرا ودورهام وما نشستر وليفربول وليدس وبرمنغهام وشيفلد وبريستول وأكثرها حديثة انتظم أمرها في العقد الثانى من القرن التاسع عشر أو فى أوائل القرن العشرين وقد كثرت الجامعات عقيب ارتقاء المدارس الوسطى (الكوليجات) فى انكلترا وفى ايكوسيا أربع جامعات وهى جامعة سانت أندرى وجامعة غلاسكو وجامعة ابردين وجامعة اديمبورغ وجامعة والس فى بلاد الغال وجامعة دوبلين والجامعة الملوكية فى ايرلاندا

وقد وصف منذ ستين سنة جامعتى اكسفورد وكمبريج عالمان كبيران أحدهما عربى وهو « أحمد فارس » والثاني فرنساوي وهو « تين » فقال الاول : واعلم أن

كمبريج واكسفورد هما مدينتان فى بلاد الانكليز كل منهما يحتوى على نحو عشرين مدرسة وألفى طالب ففي الاولى تعلم الهندسة والرياضيات والالهيات وفى الثانية علوم الأدب والفقه والمنطق والفلسفة ولا يمكن التعلم فيهما الا بنفقة زائدة وما أحد يقصدهما الا أولاد الكبراء والاغنياء ولاسيما اكسفورد فهناك ترى طالب العلم شامخاً بأنفه مصعراً خده كأنما هو طالب ملك الصين والهند وأكثرهم يصرف همه فى ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم ظهريا فمتى حان وقت الامتحان عرف مايريد الشيخ أن يمتحنه به من المسائل اذ هى محصورة معدودة فيجتهد فى حفظها وترسمها فاذا سردها عليه وأحسن سردها أجازه بصك يذكر فيه انه نال مرتبة المعلمين وهى عندهم متنوعة ولكل من هذه المدارس أوقاف يعيش منها القسيسون الملازمون لها وربما كان أيضاً من غير القسيس فان كل من نبغ فى علم من العلوم أجرى عليه الرزق من الوقف وفى كل من المدينتين مكتبة عربية غير أن كتب اكسفورد أكثر اه .

وقال « تين » ان اكسفورد مجموع أربع وعشرين مدرسة أو معهد خاص مستقلة ولكل واحدة ريع يقدر على الاقل بخمسة عشر ألف جنيه ومنها مايبلغ ريعه أربعين ألف جنيه فصاعدا وفيها جامعة الاساتذة جعلت مركزاً للمدارس ويقبض المدير من ألف الى ثلاثة آلاف جنيه فى السنة والمعلم من ٢٠٠ الى ٣٠٠ جنيه والمعيد المراقب من ٤٠٠ الى ٥٠٠ والجامعة عندهم أشبه بجماعة من الاساتذة يشبهون أساتذة الكوليج دي فرانس فى باريز فالطالب غير مضطر الى حضور الدروس وراتب معظم الاساتذة من خمسمائة الى ستمائة جنيه ومنهم من يقبض أقل من ذلك ومنهم ألف جنيه ومن أساتذة اللاهوت من يقبضون ١٧٠٠ جنيه فى العام وقد يقبض العميد فيهم من ١٠٠٠ الى ٣٠٠٠ جنيه ماعدا الدار التى يسكنها والحديقة التي يتمتع بثمارها وبقولها وهؤلاء الأساتذة مضطرون أن يعيشوا عيشاً مرفهاً وان يقروا الضيوف ويعاونوا فى جميع ضروب الاعانات بحيث انهم ينفقون فى الغالب جميع رواتبهم شأن الاساقفة ومعظم كبار الموظفين (١)

(١) يقبض قاضي القضاة فى لندرا ٢٥٠ الف فرنك فى السنة أو عشرة آلاف جنيه والقضاة العاديون ١٥٠ ألفا وفيهم من يقبض ٢٠٠ الف وقضاة المقاطعات يتناولون ٣٧،٥٠٠ فرنك

فى اكسفورد نحو ١٣٠٠٠ طالب وفى كمبريج ١٢٠٠ ومنهم فى لندرا وهذا الدرس المتمم العالى هو خاص فى العادة بطبقة الأشراف والأغنياء من الاقلية وذلك لانه يكلف نفقة طائلة (من ٢٠٠ الى ٣٠٠ جنيه فى السنة وتكثر جداً أبواب الصرف) ولان هذا الدرس هو من الكماليات للذهن (الرياضيات المجردة واللغتان اليونانية واللاتينية) ولانه يؤخر الدخول فى الاعمال المثمرة . ولكل طالب غرفتان أو ثلاث غرف فى المدرسة بحيث يتألف منها خلية نحل . وعلى الطالب أن يحضر صباحاً فى الكنيسة ويحضر درساً واحداً ومن يتخلف مساء عن الساعة التاسعة يعاقب فى الغالب بغرامات مالية والتلميذ الصغير أكثر حرية من الطالب الكبير واليافع عند مايكبر لا ينتقل من نظام ديرى الى استقلال مطلق بل ان تنقله مدبر بحكمة فهو يترك في المدرسة لنفسه فى شؤون كثيرة اما فى المدرسة الجامعة فلا يخلى وشأنه بالمرة ومثل هذا الاحتياط جميل فى باب عدم الافراط فى الحرية . واعتياد الحرية ضمان أخلاق والمراقبة ضمان طبيعى . ثم ان اكسفورد وكمبريج مدينتان صغيرتان فلا ينزل الشاب عاصمة تدعوه ملاهيها ولذائذها الى اضاعة وقته بل يعيش فى الخلاء ويعانى الرياضات البدنية ولا يبحث عن ملهيات فى دور التمثيل والمقاهى والجواد العظمى ويبتعد عن اغراء المغرين وحديث المحدثين ولذائذ المتلذذين - وليس فى هاتين البلدتين شىء من الفحش ومن تميل أنفسهم اليه يذهبون الى القرى المجاورة أو الى لندن ونصف الطلبة أعفة طاهرة ذيولهم وأهم نقص فيهم الميل لتعاطى الخمر . وكانت المسكرات شائعة هنا منذ خمسين سنة شيوعا كثيراً كما هو الحال بين أهل الطبقة العالية فأصبح تعاطيها الآن نادراً . ويبقى الطالب فى هاتين الجامعتين على شىء من التدين ويقل فيهم الانحلال ولو بالصورة الظاهرة بل هم يدينون بالبرتستانتية أو مايتشعب عنها من مذاهب المصلحين .

مدة التدريس ثلاث سنوات ويراجع الطالب في السنة الأولى المواد التى تعلمها في المدرسة والفحصان الاولان يجريان فى النحو واللغة وهما عبارة عن البحث في مؤلفين أو ثلاثة من مؤلفى اليونان واللاتين ومساجلة باليونانية أو

اللاتينية نثراً أو شعراً وبعض أسئلة فى الانجيل والتوراة . والفحص الثالث عبارة عن المساجلة فى نفس المواد ولكن بصورة أوسع نظراً وأوفر نقداً وأشد عناية بالتاريخ والفلسفة . ثم يكون للطالب الخيار في اختيار أحد الاربعة الفحوص النهائية والاول فى الرياضيات والثانى فى العلوم الطبيعية والثالث في الآداب واللغات القديمة والرابع فى التاريخ الحديث والشريعة والاقتصاد السياسى . وأهم ما يتعلمه الطالب تهذيب خلقه وتوجيه ارادته وتعريف ميوله . ولما كان معظم الطلبة من أبناء النبلاء أو الأغنياء كان عيشهم على أسلوبهم الخاص ودبدبتهم المعهودة وكثير من الاغنياء يبعثون بأولادهم الى هاتين الجامعتين ليتعرفوا الى أهل تلك الطبقة التى تأوى الى المدرسة وتكون لها بمثابة ناد ومجمع وقد يكون التميز على أشده بين النبلاء وغيرهم فى بعض المدارس سواء كان فى الطعام واللباس ومنزلة الطلبة وثروتهم مما يعتد به كثيرا ومن الطلبة من يصرفون خمسمائة جنيه وأكثر خرجهم الخاص .

هذا ما قاله العالمان فى وصف الجامعتين الانكليزيتين اللتين تخرج برجالهما رجال انكلترا أمثال ايراسم وميلتون وباكون ونيوتن وبايرون ودريدن ودون سكوت وفيكليف . ولا شك ان بعض الاحوال قد ارتقت وبعض المصطلحات قد تغيرت بطول العهد . ففى جامعة بكريج اليوم زهاء ثلاثة آلاف طالب فى ١٩ مدرسة أو دائرة منها ثنتان للسيدات وفى المدينة نحو خمسين ألف ساكن ويرد تاريخ انشاء جامعة كمبريج الى القرن الثالث عشر وكذلك جامعة اكسفورد وهذه مؤلفة اليوم من خمس وعشرين مدرسة . وفى اكسفورد مكتبة البودلين المشهورة وفيها مجموعة مهمة جداً من المخطوطات والمطبوعات العربية نشرت مجموعتها الاولى منذ قرن ونصف .

ولا تزال تلك المباني الشاهقة الشائقة كما كانت يوم بناها بناتها ومنها ما يرد تاريخه الى القرن الثالث عشر مثل مدرسة الثالوث فى كمبريج فانها من أجمل ما رأته العين من أبنية القرون الوسطى فى الغرب .

المجتمع الانكليزى

السياحة والانكليز ـ توريث البكر ـ الجمعيات والمنتديات ـ أشرافهم ونبلاؤهم

٨٤

أكثر الامم الغربية جرأة على الضرب فى الأرض وغراماً بالارتحال الأمة الانكليزية كما هى أكثر الامم أقداماً على العظائم . وحيثما انقلبت فى الغرب وفى الشرق فى القطارات اوالسفن فى الفنادق والأماكن العامة لاتجد الا انكليزاً رجالا ونساء يسيحون على اختلاف طبقاتهم . وسواء عندهم الرحلة البعيدة والقريبة . ينفقون النفقات الطائلة فى هذا السبيل مما لاتستطيع سائر الأمم أن تجاريهم فيه اللهم الا سكان الولايات المتحدة وهم انكليز أيضاً ان لم يكونوا بعنصرهم فبتربيتهم . السياحة دليل النشاط وأنشط الامم الانكلوسكسونية . ومن الغريب ان الانكليزي اليوم يسيح فى المانيا والنمسا بل فى فرنسا وايطاليا ويكاد لا ينفق جزءاً من عشرة مما ينفقه فى بلاده وذلك لارتفاع ورقه النقدى ونزول أسعار الورق فى هذه الممالك ولاسيما ألمانيا والنمسا وبولونيا والتشكوسلوفاكيا ورومانيا واليوغوسلافيا

ذكر « تين » ان كثيراً من نواب انكلترا يغتنمون فرصة العطلة النيابية ليذهبوا الى فرنسا أو اسبانيا أو ايطاليا أو ألمانيا يصححون معلوماتهم السابقة ويأخذون أفكاراً جديدة يذهبون لا مرة ومرتين بل ستاً وثماني وعشر مرات ليقفوا على أمور ويتتبعوا تموجات الرأى العام . وعلى هذا فان احكامهم محكمة أبداً تتهيأ لها أساليب الصحة والتحقيق . اذا حدث خطب فى الدانيمرك وبولونيا وروسية والولايات المتحدة لا يعتم الانكليزي أن يهرع فى الحال لأخذ ايضاحات صريحة عما حدث ومتى وافى الانكليزي بلداً أجنبياً يتعرف الى العظماء من أهله ويدعوهم اليه ويقلبهم وينفضهم كما يقلب المرء كتاباً وينفضه وربما دون كل ما دار

بينهما من الحديث ومتى اذا لب الى أهله يبلغ أمته ماوقع عليه من الحقائق ويحمل الى أهل عالمه وأبناء حرفته ومحيطه مايزيدهم معرفة فيهام بسبيله وكم من انكليزي طاف المزارع والمعامل فى غير بلاده وكتب عنها تقارير ممتعة وألقى عنها محاضرات جيدة وكم من رجل زار المعامل فى أوربا وأميركا فألف فيها وحاضر والفقير منهم يقتصد جزءا من المال من عمله ليجري به سياحة خلال السنة ويعود وقد حفل وطابه بما طاب له من الحقائق وما رأته عينه من النظريات . وما من فتى نشأ من أسرة طيبة لايسيح العالم كله . وكل تربية تامة تستلزم سياحات فى الخارج ومقاماً فيه طال أو قصر . وترى خلال العطلة المحامين ورجال القضاء والاساتذة يأتون زرافات الى ألمانيا وكثير منهم لايتمكنون الا من رؤية ظواهر الأشياء . والاناء لايستطيع أن يملأ بأ كثر من حجمه . بيد أنهم كلهم يعودون ببعض أفكار أو بمبادىء يقل خطاؤها أو بأوهام غير فظيعة على الجملة . واذا انضمت جميع هذه الاستعلامات فى سلك جاء منها رأى عام يقرب من الحقيقة فى المسائل الكبرى ولاشأن له فى السياسة ويكون على جانب من الصحة حاويا نصحاً وموعظة ثم ان رجـل الدولة الذي يكشف ببصيرته الطريق السليم تعضده أمتـه وتأخذ بيده فى مهمته . البحارة يهللون لربانهم وكثيراً مايذهب الجمهور الى البحث عنه وسوقه الى أخذ سكان السفينة بيده يديرها .

وبمثل هذا النوع من التربية اذا انتشرت فى الطبقة العالية من الأمة تتناول بالطبيعة العقول الكبيرة والعقول الصغيرة من أهل تلك الطبقة . فاذا كان الفرد فيهم على استعداد لايسقط لقلة تربيتهم الكافية الخاصة بل يتلقى مايقويه ويزيد فى مضائه وتصل قريحته وعبقريته الى الدرجة التى قدرلها الانبعاث ولا يعتم أن يأتى بثمرة طيبة لان مركزه وثروته وصلاته توفر عليه طول مدة التمرين والاهتمام بجمع المـال والعيش . قالوا ومن دواعى الأسف ان طبقة برمتها تنال بصورة ظالمة ثروة موروثة ومكانة قبـل أوانها ثم يأتى فى جملتها بعض انذال وكثير من

البهائم وأناس وسط فى مداركهم . ولكن لاسبيل الى تأليف طبقة مختارة الابمثل هذه الوسائط . وهذا أشبه بزريبة فيها مئة رأس من الخيل يسبق منها ستة وتجد فيها سابقاً دونه السوابق ولكنه واحد فى كل ألف . ولا تنجح المملكة اذا لم ترزق رؤساء أصحاب مكانة وكم من مملكة تداعت أركانها لخلوها من رجل عظيم يقودها اه .

***

قاعدة من قواعد التوراة سار عليها الانكليز فاختلطت بدمائهم وأصبحت لهم شريعة موافقة وعادة راسخة وهى توريثهم بكر الأولاد وحرمان سائر الابناء والبنات من ارث والديهم . قال أحمد فارس : ومن عادة الكبراء والنبلاء أن لايورثوا جلاءهم (لقبهم) وأملاكهم الا للابن البكر فان شاء أعطى اخوته وان شاء حرمهم ففى هذه الحالة يلتزم الاهلون أن يقوموا بكفايتهم واذا كان البكر مسرفاً فبذر أموال أبيه اشترى أصحابه أو أهل البلاد له ولاخوته وظائف من الدولة أو تبعثهم الى البلاد الخارجية . والحكمة فى توريث البكر دون غيره هو بقاء الجلاء فى العيلة وصون ناموس البيت واذا تقدم الابن بنت بقى له حق اللقب والوراثة هذا اذا كان التراث عقاراً فاما اذا كان حصص مضاربة مثلا أو أشياء متنقلة قسم بين الاخوة اه .

وبهذه القاعدة حفظت بعض البيوت فى كثير من أصقاع انكلترا كما كانت منذ بضعة قرون لم تهدم ولم تقسم وظلت بحدائقها وأسوارها ومرافقها وفرشها ونظامها على نحو ما أسسها الجد الاقدم . ومن دور الكبراء ماهو متاحف مهمة بذاتها وكم من دار نبيل من نبلائهم حوت مجموعة من العاديات أو المجوهرات أو النقوش والصور مالو كان فى حكومة صغرى لعد من موجبات فخارها . ولقد قال ناقدو قاعدة توريث البكر كثيراً مايكون أكبر الاولاد فى الطبقات الشريفة منذ عهد المدرسة متهتكا بعشقه مأخوذاً بالتمليق فلا يجىء منه الا أحمق منفاق متجنن يسيح فلا يأتي من رحلته بفائدة بل يحمل العادات القبيحة من غير بلاده ويسترسل فى شهواته

وقد يملّ من حياته . ولو لم تكن طبقة النبلاء تتجدد بمن يدخل فيها من أهل الطبقة الثانية ذات العقول والقرائح لاصبحت أعضاؤها مؤوفة وضعفت عقولهم وكانت شراً على المجتمع كما هو الحال فى ممالك أخرى . ثم أن عدم التساوى بين الاولاد يورث أموراً مرة فيضطر الولد الثاني ان لم يدفعه أخوه الى الجيش أو الكنيسة أو الاداره الى أن يبقى زمناً محروماً النعمة سليباً من الراحة فيهاجر ويتأخر فى زواجه ويخدم غيره عشراً أوعشرين سنة على حين تجد أخاه مستقلا وغنياً من ولادته ليس له الا أن ينزل فى بستانوفى قصر أخذ بأطراف اللذائذ . بيدانهذا الولدالثانىلايحزن لما يصيبهمن فقد أرثوالده كما تتوهم بل يعتادذلك منذ الطفولة لقدمالعادةبذلك ومشروعيتها فيحتملها ويقبلها كأنها من ضروريات الطبيعة ثم هو لايخشى النصب لان مزاجه يدعوه الى العمل ويهجس له كبرياؤه أن الاجمل بالمرء أن يكدح لمعاشه بنفسه لا أن يتكل على غيره .

الانكليز مكثرونمنالاولاد معتادونالرفاهةيربحون كثيراً وينفقون كثيراً فاذا نشأ الولد فى محيط يرىفيهالبذخعلىأتمه ثمتعلم منذ نعومة أظفاره بعد تهيئة عقله بالدرس والتربية أنه محروم مما يراه منالثروة الا أن يعمل بنفسه الا يكون له مما يراه مهماز يسوقه الىالعمل ويستسهلالسفر الىالصين والهند واستراليا يرتاد العالم ليغتنى ويقتنىوينشىء عيلةويقيم مجداً . بهذه الطريقةيغنىالضعفاء ولكن فكر الاقدام وحب السبق وقوةالنشاط وجميع قوى الفطرة البشرية تعمل عملها . والمرء يقوى بالجهاد والامة يتجدد شبابها والذهبيسيل كالسيل على البلاد

لاتكمل المدنية اذا خلا المجتمع من طبقة من الاشراف أو تنقصه الحياة العظمى المستقلة المنبعثة الى أقصى أشواطها المجردة من هموم الشح المستعدة للجهال . قال أحدهم : ويل للقصور وسلام على الأكواخ . والاولى أن يقال سلام على الاكواخ وسلام على القصور . قال « تين » تغدو انكلترا فىالحقيقة جمهورية تصوغ لها طبقة الاشراف ماتحتاج اليه من الوزراء والنواب والقواد والساسة كمدرسة هندسة تعد القدر اللازم من المهندسين . كثير منهم ضعفاء

عجزة لا ينالون خدمة حقيرة الا أن ينفقوا دخلهم ولكنك تأخذ من هذا العدد من تحتاج اليهم من أركان الجيش ولا اثمن من الحصول على مثل هذا الضرب من الرجال

***

بقدر ماترى من عزوف الانكليز خارج انكلترا عن الناس واشمئزازهم تجدهم فى بلادهم الى الألفة والتعاطف وكل شيء يتم عندهم فى الاندية (الكلوبات) ومن الغريب أنك لاتجد فى انكلترا وزارة للمعارف كما تجد وزارة للأمور الخارجية والمستعمرات مثلا والامة تعلم أبناءها بالمعاونات والعطايا والأوقاف . وتكثر الجمعيات الخاصة فتجد فيها جمعيات لانقاذ الغرقى وتنصير اليهود ونشر التوراة وترقية العلم وحماية الحيوانات وقمع الرذيلة والغاء عشور أرباب الدين وجعل العملة أرباب أملاك وبناء بيوت جميلة وتوفير دراهمهم وللهجرة ونشر المعلومات الاقتصادية والاجتماعية وحسن استعمال يوم الاحد ومقاومة المسكرات وتأسيس مدرسة للمعلمات وهلم جرا .

هذا فى جمعياتهم وهى تعد بالألوف اما منتدياتهم التى يعمرها فى الغالب كل من عرف عندهم باسم لاجنتلمن وهو من بلغ الكمال فى التربية والتهذيب فانها أكثر وأعظم . وكانت الاندية أماكن لتناول الطعام والشراب أولا ثم انقلبت مع الزمن قصوراً نخمة [1] محترمة ولم يدخلها النساء لأول أمرها وكان لاعضاء النادى فندق خاص بهم يحتوى على غرفة مائدة ومكتبة ومحل للتدخين وحجر للنوم بحيث يكون المرء فى ناديه كأنه فى بيته الذى يؤويه . ثم استخدمت الاندية للاحزاب السياسية ثم انقسمت أقساماً بحسب مقاصدها . وانكلترا فى مقدمة الامم فى التناغى بطبقاتها لا يستطيع فيها أهل طبقة معينة أن يختلطوا بغير طبقتهم

ومن الأندية السياسى والعلمى ومنها أندية الرياضات البدنية والحمامات والصيد واللعب والشرب وأندية العزاب والممتنعين عن التدخين والشراب . وهناك

---

(١) من خطاب لنا كتبناه سنة ١٩١٣

أندية خاصة بابناء حرفة معينة وطبقة معينة وفكر معين حتى صارت الاندية تعد بالمئات فى بريطانيا العظمى . ومن ثمرات الأندية عند البريطانيين ان أهل كل حرفة وطبقة يعرفون فى أنديتهم أقدر الرجال فيهم فاذا جاء وقت انتخاب مجلس النواب يكون لمبرزيهم منهم أعرف الدعاة لهم فيختارونهم للنيابة عن الامة أى ان أعضاء نادى الاشراف وأعضاء نادى الحوذيين والسواقين والسكافين والطباعين والوراقين والغزالين والفحامين بل وكل مايخطر ببالك من أرباب الصناعات المختلفة يستعينون بالاندية على اختيار مدارك اخوانهم فينيبون عنهم أخطبهم واعقلهم وآمنهم واعلمهم

ومن غرائب الاندية فى لندرا اليوم نادى السكوت وهو للصم البكم ليس فيه كلام يسمع ولا جرس يقرع ومن يدخل النادى من المشتركين فيه يكبس زراً كهربائيا ينير قطعة من المكان فيفتح له وبنور الكهربائية ايضا اصطلحوا على اشارات للتفاهم بينهم ويدخله الرجال والنساء يلعبون بالبيلاردو او يتحادثون احاديث صم ويغنون غناء الصم . وفى لندرا ناد للمعتزلين عن الناس يدخله من ضاقت صدورهم من الوحدة والعزلة ولايقبل فيه النساء الا بعد سن الخامسة والعشرين وقد جعل دوليا عاما ولا يؤدى المشترك فيه شيئا وهو غريب فى بابه لانه يضم اناسا من اهل الارض بأسرها ومن جميع الطبقات الراقية وفيه طائفة كبيرة من ارباب المكانة والشهرة .

وعندهم ناد اسمه نادى « العجل الذهبى » ونادي « القط الاسود » «ونادينا » وهو نادى أعاظم الادباء ونادى ١٠١ ونادى الست ساعات وهو ناد اعضاؤه ستة يدخلون اليه كل يوم الساعة السادسة ويخرجون الساعة الثانية عشرة ومع كل واحد منهم كتاب . و«النادي الدائم» وعدد أعضائه مئة يقسمون أن لا يبرحوا منازلهم مهما كلفهم الامر من المخاطر حتى انه حدث يوماً حريق قرب ناديهم فلم يخرجوا منه الا بقوة رجال الشرطة . وفى لندرا أندية قلما تقبل فيها النساء وفيها أندية للنساء العازفات عن الزواج . ومن أنديتهم نادى اللوبياء السوداء على مثال نادي

نيويورك وهو مؤلف من أربعين عزباء يجتمعون مرة فى السنة ويضع رئيسه فى صندوق أربعين حبة لوبياء بيضاء ومنها واحدة سوداء ويسحب كل عضو حبة فمن سقطت السوداء فى يده حكم عليه قانون النادى بان يتزوج والنادي يتكفل له بنفقة تزويجه كما يبتاع له أثاث بيته ويقوم بنفقة سفره ثلاثة أسابيع مدة شهر العسل . ومنها أندية لطالبات الزواج على مثال نادى اليابان يتم بواسطته كل أسبوع مائتا قران ويتزوج أكثر المقترنين بالنظر الى صور خطيباتهم الشمسية وفى لندرا ناد للمنتحرين شعاره بالموت شفاء الاسقام كلها ولا يقبل فيه النساء ولا العزاب . ولها ناد للارواح يدخله علماء ومحامون وجراحون وباحثون ممن يهتمون بكشف الاسرار عن مخاطبة الارواح ولها ناد لمن لا أنوف لهم ورئيسه مصرى أنفه أقنى للغاية يكاد لا يظهر و نادى مشوهى الخلقة ونادى السوداويين يجتمعون فيه كل أسبوع وهم عبارة عن حوذيين وسواقين وملاحين ليتسابوا ويتشاتموا ويظهروا فضل قرائحهم فى علم الطعن والقذف ومن قصر من الاعضاء أو أبدى لطفاً فى ألفاظه وحركاته يغرم في المرة الاولى وفى الثانية يطرد من حظيرة أقرانه . وفيها نادى العبوسين يدخله من ساءت أخلاقهم يلتزمون السكوت فيجلس الواحد منهم الى ناحية يدخن غليونه بدون أن يتكلم . وعندهم نادى من يقسم الناس أربعة أقسام أي نادى البخلاء المقترين وفيه أناس من كبار أرباب الاملاك وأعاظم الماليين . ونادى قتلة البشر وهم يؤثرون القتل على ثلم الشرف ورئيسهم قتل خمسة وعشرين شخصاً في البراز اهـ . قال من وصف أندية الانكليز : الاندية مرآة صادقة تقرأ فيها عنوان القلب والابدال الذى طرأ على الهيئة الاجتماعية والاخلاق على توالى القرون ولطالما مرت فيها أجيال من الناس ذكروها فذكرتهم وأقدم أندية لندرا النادى البحرى الملوكى أسس سنة ١٦٧٤ وأنشىء غيره فى النصف الاول من القرن السادس عشر وأسس نادى طرف الغار سنة ١٨٠٥ الى غير ذلك من الاندية التى كان ولا يزال يختلف اليها العالم والمفكر والموظف والسياسى والبحرى وأهل جميع الطبقات .

طبقة اللوردات أو الاشراف في انكلترا غريبة في غناها وعاداتها وشممها وهي تعد جزءاً مهما من البلاد وما زالت أراضيها تنتقل بحسب قانون الوراثة في البكر من يد الى يد على اختلاف القرون. وكم من لورد نبيل يملك ألوفاً من الافدنة جعلها غابات ليصيد بها مرة أو مرتين في السنة وكم من لورد لا يعرف أملاكه حتى قيل ان أحدهم يملك مزرعة عظيمة وكل يوم يطبخ الطاهي الطعام لاثني عشر انساناً يحضرون لتناول الطعام على أمل حضور اللورد ويسرج له سائسه حصانه وينتظره في المكان الذي يرجى أن يصل منه وهو لا يجيء بل لم يحضر ولا مرة واحدة. ولكن هؤلاء الملوك بغناهم يظهرون يوم الشدائد بخطر غريب من الحمية والوطنية والسخاء وقد رأينا منهم في الحرب العامة الاخيرة ماأدهش من بذلهم في سبيل نصرة انكلترا وحلفائها.

في انكلترا سبعة وعشرون دوقاً ماعدا الدوقات الذين هم من دم ملكي يملكون نحو ٢٥٠٠ مزرعة كبرى أي أراضي نصف المملكة على التقريب. ويقدرون مساحة اراضي الدوق دي سزرلاند ١٫٣٥٨٫٥٤٥ فداناً بلغ دخلها منذ عشرين سنة زهاء ١٤١ ألف جنيه ويجي بعده لوردات منهم من يملك دخلا سنوياً قدره مائتا ألف جنيه ومنهم أقل وأدنى مايملك أحد الدوقات الصغار عشرة آلاف فدان. ويتألف من هؤلاء الدوقات والقابهم وغناهم امتن اساس في بنيان المجتمع الانكليزي الحاضر وهم المحور الذي تدور عليه الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد. ولطالما كان هؤلاء الاشراف منذ القديم موضع احترام انكلترا. وقد تركت حقولهم وغاباتهم بدون ان تتعهدها الايدي تركوها لتكون متنزهاً ومجالا للارتياض والصيد على حين تنقطع الوف من الايدي عن العمل لقلة الاراضي التي تعمل فيها ويتحكم الاشراف في مزارعيهم ومزارعهم تحكما غريباً.

وبعد فان غنى انكلترا المشهور محصور في ايدي الاسرات الممتازة المختارة من طبقة الإشراف واغنياء الطبقة الوسطى. والرفاهية وقف عليهم وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من اهل الطبقات الاخرى كما هو الحال في فرنسا وقد

بلغ فى هذه الحرب او بعدها عدد المعوزين الذين تجري عليهم الحكومة الانكليزية الجرايات وتطعمهم الجمعيات الخيرية زهاء مليونى انسان من خمسة وأربعين مليونا ويقول بعض المفكرين ان السبب فى هذا الشقاء ان أهل القرى يقصدون المدن ويتخلون عن الزراعة لقلة مالهم من الأراضى المملوكة فبعد ان كانت أراضى انكلترا تطعم البلاد أكثر من نصف السنة أصبحت لاتكفيها خمسة وثلاثين يوماً وكل يوم تقفر المزارع وتعمر المدن هذا مع ماأصاب المعامل من الفتور لقلة رواج المصنوعات بعد الحرب . واملاك الاشراف مهملة لا يستفاد منها وتلك الايدى العاملة تنقطع اضطراراً عن عملها لأنها لاتجد ماتعمل في الصناعة والتجارة وكانت تعمل فى تلك الأراضى لو وزعت عليها توزيعاً معقولا فاشراف انكلترا هم العائق الكبير فى كل اصلاح وارتقاء وأملاكهم هى الحاجز الاقتصادى الحائل دون نماء الراحة العامة فعليهم التبعة العظمى في غلاء المعيشة وقلة الأعمال والشقاء الاجتماعى .

ومع هذا فتحت منذ ثلاثين سنة طريقة جديدة لادخال لوردات جدد علاوة على القدماء وهم من كبار أرباب المعامل والماليين مثل الدوق دى نور فولك وواردانه السنوية سبعة وثلاثون مليون فرنك ماعدا الاربعمائة فدان التى يملكها فى حى وستمنستر فى لندرا وريعها مليون جنيه والدوق دى بوفور أراضيه البالغة ٢٥٠ فداناً فى لندرا هو مليونا جنيه واللورد نورتا مبتون وريع أملاكه مليونا ليرة وغيرهم كثيرون وبذلك أدخلت بريطانيا العظمى روحاً جديدة فى طبقة النبلاء والمال أشرف مادة يحترمها البشر قاطبة وان تنوعت أساليب هذه الحرمة وكل من يقتنى لايسأل الناس غالباً عن الطرق التى بها بلغ مابلغ شريفة كانت أو وضيعة .

النفس الانكليزية

٨٥

كتب كثير من علماء الاجتماع والحكمة من الفرنسيس فى النفس الانكليزية ومنهم مونتسكيو وتين وبوتمي وفوليـه وديمولين [١] كتبوا فى أدوار مختلفة فنهم من كتب فى القرن الثامن عشر ومنهم فى القرن التاسع عشر وغيرهم فى القرن العشرين وفى أمثال العامة « أعرف الناس بك ربك وجارك » ومما قالوه نقتبس الفصل الثانى : انكلترا من بلاد الشمال ولها بينها مركز امتازت به فليس لاقليمها مايعادله بين الاقاليم لانها تتمتع بمناخ يكاد لايختلف طوره فلا ترى فى الشتاء تبدلا في الهواء من شمالى انكلترا الى جنوبها على مسافة تسعمائة كيلومتر فيستطيع سكان بريطانيا أن ينتقلوا من ناحية الى أخرى بدون أن تتأثر أجسامهم من هذا التنقل وتختلف انكلترا عن سائر بلاد الشمال بتعرج شطوطها وخصب تربتها في حين يضعف الهواء المرء في أواسط بلاد روسـيا أوفى شمالي بروسيا فيكتفى الروسي بما حضر لديه من حاجاته ولذلك يقل فيه فكر الاقدام على الأعمال أما الطبيعة فى بلاد الانكليز فتنادى ساكنها بقولها انك ياهـذا تهلك اذا تراخيت وتستمتع اذا جددت . فالهواء فى بلاد الانكليز رطب ولكنه صحي وثقيل بحيث

---

(١) روح الشرائع ومذكرات على انكلترا لمونتسكيو Montesquieu : De l' esprit des lois et notes sur l' Angleterre
ومذكرات تين على انكلترا Caine : Notes sur l' Angleterre
وعلم الروح الانكليزية فى السياسة خلال القرن التاسع عشر لاميل بوتمى Emile Boutmy : Essou'd, une psychologie politique du penple anglais au X I. X e sicile
ومختصر فى روح الشعوب الاوربية لفوليه Fonillée : Es quisse psychologique des penples européene
وسر تقدم الانكليز السكسونيين لاديمون ديمولان Ed. Démolins : A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons.

يكاد يصعب استنشاقه والجسم يهزل فيه اذا لم يتغلب عليه بحركات كثيرة .

تطفح انكلترا بطوال القامات ضخام الاجسام أشداء البنية وفيها من المعمرين الشيوخ أكثر من كل بلد من بلاد أوربا . والأرض الانكليزية بما تترطب به من الضباب أو يغمرها من هطول الامطار تحتاج على الدوام الى التجفيف بالقساطر حتى لا تغدو بطائح أو غابات وهي بفضل تمهدها خصبة ممرعة . ومناخ انكلترا يحتاج الى الغذاء الكثير ولا سيما اللحوم وأرضها مستعدة كل الاستعداد لتربية الماشية . والبحر بما ضم قاعه من الاسماك يدخل في مضايق الى أرض بريطانيا العظمى فيصبح الصيد على طرف الثمام .

وبالنظر لرطوبة الهواء دائماً واصفرار الشمس بما يداهمها من الغيوم التي تنخل أشعتها نخلا لا تزال الظلمة سائدة شطراً من النهار يضطر معه أبن تلك البلاد ان يحسن لباسه ومنامه ودفئه ويبحث عن الاعمال التي تستلزم كدحاً وكداً فهو في حاجة الى جوخ لثيابه والى جدران غليظة لمسكنه فتراه يصرف جزءاً مهما من وقته في النسيج والتقطير واستخراج الفحم أوتراب النفط للوقيد خلافاً لابن جنوبي أوربا فانه لا يعوزه مثل تلك العدة ليعيش . والانكليزي اذا لم يجد عامة حاجاته في أرضه يجلبها من الخارج على سبيل المقايضة مع ما ضمنته احشاء بلاده من المعادن والمناجم ويسهل عليه تناول ذلك بما له من وسائل النقل السريعة الرخيصة الاجور

واذ كانت الطبيعة الخارجية للامة الانكليزية مدرسة ابداع ونشاط وحذر وتدبر نشأت هذه الفضائل من أسباب جلب المصالح ودرء المضار وكانت من كمال الأخلاق في هذا الجنس ودعا الجهاد في الحياة وهو هنا أصعب منه في كل بقعة الى أن ينسلخ عنه بالانتخاب الطبيعي كل من لم يرزقوا هذه الصفات اللازمة كالمرضى والجامدين والجبناء والعطلين ولم يبق من هذا العنصر غير الاقوياء أهل الدراية العاملين وتأصل ذوق العمل بنشاط دائم فمال في النفوس حتى صار كأنه أرثي فيها .

ولقد حسبوا أن غذاء انكليزي واحد يكفي ثمانية أشخاص في بلاد اليونان وبما لبريطانيا من الموقع المتميز باعتزالها في جزائرها سهل اندماج سكانها . وقد نفعها كثيراً الاختلاط مع الخارج وبما لها من الشطوط التي تبلغ ضعفي شطوط فرنسا بمساحتها يصعب لتعرجها ان تغزى موانيها . وقد كثر في تربتها الحديد والفحم الحجري . وهذا من أكبر الدواعي في امتداد تجارتها ثم ارتقاء صناعتها فساعدتها الاسباب المادية على النهوض بعد ان كان أهلها في القرن السادس عشر أشبه بالاسبانيين بكسلهم وكان الجوخ يأتيهم به الهولانديون من بلادهم وليس عندهم معمل لنسجه ويبعثون هم اليهم بالصوف وقد بدأ عمل الجوخ عندهم في القرن السادس عشر على أيدي مستعمرين من الهولانديين .

قالوا ان الشعب الانكليزي شعب انتفاعي وهذا يصدق على كثير من الشعوب ولكن العامل الأكبر اليوم في هذه الامة الهوى في العمل للعمل والميل اليه حباً به . وما الحياة السياسية في انكلترا الا ابنة الميل الى تمرين القوة والبذل منها بطائل وبدون طائل ومن يجتاز البلاد الانكليزية يشعر بحاجة الامة الى هذا التمرين والى هذا الصرف من القوة بما يراه من الحركة على السيارات واشتغال قوم بالالعاب الشاقة فيوقن بان الرياضات البدنية الشديدة ليست في انكلترا مدعاة للتسلية بل هي ضرورية لدفع حاجة طبيعية لا تقل في شدة الحاجة اليها عن الجوع والعطش .

كل من زار لندرا يشهد الرجال من الانكليز يركضون في الشوارع كأنهم عرض لهم عارض مهم جداً يوشك أن يذهب اذا أبطؤا عليه فيركضون نحوه بدون أن ينظروا ذات اليمين وذات الشمال للتخلية والتسلية فهم لا يضعون نصب أعينهم غير الغاية العملية التي هي هدفهم ومنتجعهم حتى اذا وصل العامل الى مكتبه أو عمله ينصرف اليه بجملته ولا يدخل فيه غيره ولا يلتفت الى مايصده أو يخطر بباله في غير ماهو بصدده فتراه لا ينقطع لحظة عما هو مأخوذ به ولا يني في مهمته ولذلك كانت أجرة العامل الانكليزي أرقى من أجور عملة الامم الأخرى لانه

لايلهيه شيء أثناء العمل ويعمل نحو ضعف مايعمله الايرلاندى أو الالمانى مثلا. وهذا المزاج الخاص يؤثر فى جميع الفروع أثراً مدهشاً .

لا يستنكف نساء من عمل يتعاطينه لتكون لحياتهن غاية فينصرفن الى تأسيس جمعيات الاحسان ويخدمن فى المستشفيات ويعملن أعمالا قد تعدها بعض الأمم المتمدنة من الاعمال الوضيعة ولكنها تكون لخدمة الانسانية ولذا أدخل خمسون ألف امرأة في الحزب الحر فى انكلترا وشاركن الرجال ومنهن المطالبات بحقوق الانتخاب قد نلنه مؤخراً والمؤمنون من الانكليز بالدين لايؤمنون به وينصرفون عن كل شيء بل يعملون باسمين ويجتهدون فى الحياة لايصدهم ماأخذوا أنفسهم به من الغاية عن النظر فى دنياهم . واذا كان الانكليزى لايعتقد بالدين فى باطنه يأتى الكنيسة مع أولاده وأهل بيته لاعتقاده بأن الايمان خير من الانحلال .

وبعد فان الذوق واعتياد العمل يجب أن ينظر اليهما كأنهما خاصة جوهرية وصفة لازمة اختيارية لهذا الجنس فهما يصحبان الانكليزي حيث يذهب تشفهما الاسباب المكتومة من نياته وهما مفتاح أسبابه . وان الدواعى التي أدخلت ضرورة العمل فى هذا الجنس قد أضاعت اليوم من شأنها وذلك لان كثرة الغنى العقلى والمادي قد زاد عدد الاغنياء وأضعف على التدريج فى جزء من سواد الامة الانكليزية الغزيرة الارثية التي بها يعترف الانسان بقانون العمل ويقبل به فأصبح الكسالى والضعاف فى هذا المحيط الجديد أكثر حظاً فى البقاء فتألف منهم عنصر خاص تحرص حكومته على جلب المنافع اليه وأهل السعة من الانكليز يبذلون الفضل من أموالهم له وكل هذا على الجملة لا يضر الصفات التى ورثها الانكليز وتأصلت فيهم مدة قرون .

للاقليم في انكلترا تأثير مهم فى الشعور والمدارك فهى البلاد التى يجف هواؤها وتكثر كهربائيتها التى تقوى الالياف وتمتن الانسجة . ومثل الحس يكون التصور الطبيعي أى حاسة تمثل المحسوسات فانها فى الانكليزى تتأخر ولذلك نرى الاعمال

الجراحيـة أقرب الى النجاح على يد الانكليزى منها على يد الايطالى مثـلا لأن الاول قلما يضطرب كالثاني . وقدشاهدخصوم الانكليزمن عسكرهمفى حروب اسبانياوواترلو وانكرمانوالحرب العامة عجباً اذ لم يكونوا يتأثرون للاعضاء تبتر والقذائف تنفجر والعظم يكسر والارواح تنزع .

ان أرض انكلترا على ماخصت به من العبوسة والامطار الغزيرة والضباب المتواصل والطبيعة الساكنة قد أثرت في نفوس بنيها حتى لم يجـدوا فى الوجود مايشغلهم ولذا شغلوا بخاصة أنفسهم وقل كلامهم وفضولهم كما قل شعورهم بما يأتيه من الخارج . والكلام كالشعور والفكر يرتقى ويصفو بالرفاهيةورغدالعيش وهو أثر من آثار الثروة العامـة والفراغ . وصف تين الشعب البريطانى بقوله: من السرور الذى يشفعه السكوت وهو من أعظم ماتطمح اليه نفس كل انكليزي أن يجاهد فى أمر ويتحمل المشاق ولا يرجع عما نوى . وقدأعربشاعرهم تنسون عن مثل هذا الفكر بمامعناه: ماأعظم على النفوس ان تقف دون غاية وتجعل لقواها حداً وان تصدأ كالسيف يعلق على الحائط بدلا من أن يلمع فى يد حامله ويصفو بالاستعمال وليس استنشاق الحياة هو الحياة بل اننا اذا فقدنا كثيراً فقد بقى علينا كثير فما كنا عليه مابرحنا فيه . قلوب أبطال شأنها التساوى بأنفسها حتى أصبحت على الزمن وبيـد القدر نهب الضعف ولكنها مسلحة بارادة شـديدة في مضائها وبحثها وايجادها ولا تلين قناتها أبداً .

ووصف أمير سون الفيلسوف الاميركانى العنصرالانكليزىبما يأتي . قالت الطبيعة أن الرومان لم يبق لهم سلطان فلكى ابنى مملكة جديدة سأختار عنصراً جديداً كله مثال الرجولية معروف بالقوة الوحشية ، وانى لاأعارض فى منافسة تجرى بين الذكور مهما كانوا الى القسوة فليغرز الجاموس قرنه فى وجه جاموس آخر وليمض أكثرهما قوة يفتح الطريق فان لى عمـلا أريد أن أتمـه ويستدعى ارادة وعضلات .

يقل فى العنصر الانكليزى على الجملة الاستعداد لتصور الأفكار العامة

ويكره النظريات المجردة كما يكره المذاهب المقررة فليس للانكليزي شيء من المجردات يشغله بل تراه أبداً مأخوذاً بضرورة العمل . أليس معنى هذا ان حاسة العموميات ضعيف تركيبها فى انكلترا بل ان العقل عملي لا يقبل الا مايلزمه وينفعه يعرف كيف يضبط نفسه ويحدد حدوده حتى اذا سار بنفسه سار سيراً نافعاً لاسيراً نكراً فعقله لا يشبه قائداً فى جيش يفكر فى وضع خطط الهجوم والدفاع بل يشبه ضابطاً يقود بعيداً عن معمعان الحرب قسما من الجند الاحتياطي المساعد فلا ترى فى هذا الضابط قابلية لأن يكون فى الطليعة ولكنه يجيد فى اتخاذ مراكز له فى النقط التى تجاوزها الجيش المهاجم وينظم فيها المقاومة .

العقل الانكليزى يفكر فى الأمور القريبة التى هى أكثر ما يكون مساءاً به مباشرة وله من مشاغله فى تحصيل ثروته وتحسين زراعته ما يصده عن الحق ولا يفرغ ذهنه الى النظر الى الأشباح الفارغة فهى بعيدة من الأرض جداً غريبة عن الحياة الدنيا غير ملتئمة مع شروطها وضرورياتها . ولذا ترى الانكليزى فى مسائل الدين لا يتعدى أفق العالم الناظر بأحوال النفس . والاخلاقي الذى يبحث فى المرئيات وليس هو صوفياً أو مفكراً ولا موحداً وهو لا ينظر الى القواعد الموضوعة والألفاظ بل ينظر الى الغاية من التدين أكثر من الواسطة وهكذا هو فى السياسة فلا تقوم حريته فقط على الدستور الذى يمنح الحرية على التقاليد الموروثة التى تحمي حمى الحرية القديمة المتأصلة فيه .

من غريب حال الانكليز ان كثيرين من حملة العلم فيهم لم يتعلموا العلوم اللازمة للالمام بالتربية العامة فهم اخصائيون لا تشوبهم شائبة وان من يحاول فى انكلترا أن يحدث أحد علمائهم فى العلم المجرد لا يجد من يستمع لكلامه . فالعالم الطبيعي عندهم هو الذى يعرف كيف يصنع نموذجا ميكانيكياً يطبق فيه العلم على العمل فقط ؛ حتى انك لاترى فى كتبهم فى الكهربائية الا حبالا مرسومة تعلق وتمتد ومواسير يقطر منها ماء وغيرها ينتفخ وآخر ينقبض . وهكذا انكلترا فى صناعاتها لا يصدر منها الا ما يقع تحت حسها ولا تقص فى قصصها الا مايماثل

حالتها الطبيعية وكذلك تاريخها ورواياتها التشخيصية وفلسفتها . وقد قدر لهذا الشعب أن ينشر البرتستانتية بثباته ويخرج من الكنيسة والكثلكة اذ كانت دين ساطة قادرة روحية تقنن وتحظر وتعاقب والناس معها مكرهون على القيام بتعاليمها .

أما المذهب البرتستانتي فهو دين الحكومة الذاتية الوجداني فالاول موجد النظام والقاعدة والآخر محافظ النشاط ومبدعه . وهذا هو المذهب الذي يناسب أمة خلقت لتعمل .

ان تأخر سن البلوغ فى شبان الانكليز وعفة النساء الانكليزيات وتعدد الأسر والبيوت كل ذلك من أخلاق الانكليزى الحديث كما كان قديماً من خصائص أخلاق الجرمانيين سكان انكلترا الأصليين . وامتازت الامة الانكليزية من بين الأمم بأنها ظلت متجانسة لم تمتزج بغيرها ، فالانكليز وهم أهم عنصر تتألف منه انكلترا هم جرمانيون من بلاد الشمال ومن أجداد الجرمانيين انكليز وجدت وسكسونيون وكلهم من عنصر المانى والذين جاؤا بعد ذلك لاستيطان انكلترا الدانيمركيين والنورمانديين هم فروع تشعبت من تلك الدوحة

الانكليز خارج بلادهم لا يمتزجون بغيرهم من الأمم وهم فى أرضهم أكثر الأمم حرية وأشدها اكراماً وأيسرها لقبول الغرباء . ليست انكلترا جزيرة بل قارة . وانكلترا كما قال الشاعر شكسبير قلعة شادتها الطبيعة بنفسها اتقاء نتانة الحرب وشدتها وانكلترا تشتبه في الأفكار والمنازع التى تأتيها من أوربا نفسها ، واذا اقتدت بالبلاد الأخرى فاقتداؤها موقت كأنه للتسلية أو هو سطحى كأنه زى من الأزياء تلبسه اماسواد الشعب فلم يمس بشىء فى منازعه وهو راض بأخلاقه الأولية وبالجملة فقد كانت دواعي الاختلاط قليلة جداً بين الانكليز وغيرهم ولا سيما عامة الأمة ، فالانكليزى أشبه بساكن الولايات فى أوربا وفكره كالشراب بقى زمناً فى مأمن من الاهتزاز تخثر وكثف ولم تعد له تلك الميوعة التى تؤهله الى الاختلاط بشراب آخر وما قط تمازج العنصر الانكليزى بغيره من

العناصر فى البلاد التى أخضعها السلطانه فهو كالمعدن البعيد جداً عن نقطة التذويب فلا يتأتى أن يجعل منه أدنى مزج ، وما قط شادوا بأنفسهم الشعوب التى افتتحوا بلادها ، وما تلطفوا فى استمالة قلوبهم ·

ويشعر الانكليزى بأنه أقل من غيره علاقة بالمجتمع البشرى ، وقلما يقتبس من صلاته مع غيره شيئاً يستفيد به فى تركيب أخلاقه وقلما يبحث عما يفكرون فيه واذا بحث فبحثه مجرد لا يدخل نتيجة فى عواطفه وأعماله فهو ناسك بعيد عن العالم وعن غيره من الأمم بل هو بعيد عن جاره الذي يساكنه فى حى واحد وعن المحيط الذي يعيش فيه ولا يشعر بأقل ضجر من العيش وحده ، ولا يجد حاجة أن يقص ما عمله على غيره ، ولا يسوقه سائق نفسى أن يقف على ما يعمله غيره فهو فيما خلا الشؤون التى تمسه مباشرة لا يهتم الا بما له علاقة بالمسائل الوطنية العامة التى لها به مساس ولكن لا مباشرة بل من طريقة وطنيـة . قال فوليه : لا مراء فى أن للانكليزى نقائص مع ماله من الصفات ، فان استقلاله يعرضه للانانية وشعوره بالوحدة يقوده الى الجفاء والغرابة فى الفكر تؤدى به الى التعته وفلسفته فى التعبد بالحقائق واحترام النجاح والقوة والغنى أوصله الى احتقار الضعيف والفقير

يقول أميرسون : انك تحسب الانكليزى اذا اجتمع مع الاجانب أخرس فهو لا يصافحك ولا يتركك تنظر ما فى عينيه فى الفندق ويلفظ اسمه بحيث لا يسمع فكل واحد من هؤلاء الجزائريين جزيرة بعينها . ويقول مونتسكيو : « يصعب على الفرنسيس أن يكون لهم أحباب فى انكلترا وكيف يحب الانجليز الغرباء عنهم وهم لا يحبون أنفسهم وأنى يعطوننا ماناً كل وهم لا يتواكلون . يجب أن نجرى على خطتهم فلا نهتم بأحد ولا نحب أحداً ولا نعتمد على أحد . قال يجب أن تراعى طبيعة البلاد كما هى فاذا كنت فى فرنسا فأصحب كل الناس وفى انكلترا لا تستصحب أحداً وفى ايطاليا أقرّظ جميع الناس وفى المانيا أشرب مع كل الناس » وقال كارلايل الانكليزى : الانكليز شعب أخرس وشرح ذلك بقوله : ان السكوت يزيد فى علاقتهم

ونظامهم مع مايبين عنه اللسان . الانكليزى يميل الى الاختفاء ولايهمه الظهور بل يهتم لتجويد العمل من حيث هو عمل نافع ولذلك ترى جرائد انكلترا لايوقع كتابها على مقالاتها وهى مع هذا أرقى من جرائد فرنسا التى يوقع كتابها على مقالاتهم ليقال عنهم أنهم كتبوا وصحفهم أكثر صحف أوربا مادة وأكثرها صدعاً بالحق وأقلها انغماساً فى الرشاوى لخدمة أغراض خاصة . وقال فولنى العالم الفرنساوى فى سر نجاح الانكليز فى الزراعة والتجارة والصناعة : « انهم بالسكوت يجمعون أفكارهم ويتفرغون الى التدبير والتقدير على ماينبغى ويحسبون دخلهم وخرجهم ويصفو فكرهم أكثر وينبعث كلامهم جلياً ومن هنا كان التدقيق والرواء رائد جميع أعمالهم العامة والخاصة »

قال فوليه : ان انكلترا لامثيل لها بصناعتها وتجارتها وانتشار مستعمراتها والتئامها التئاماً عملياً مع الحكومة الحرة وهى دهشة بشعرها وآدابها وحركتها العلمية والفلسفية ومع هذا لم تعمل على مايظهر شيئاً يرفع من قدر الجنس الانسانى برمته كما فعلت ايطاليا وفرنسا وألمانيا وقلما تهتم بنشر ماتقنته من الحقائق لتحملها الى خارج بلادها فليس من ذوقها الدعوة الى مبادىء حادثة ولكنها قامت للعالم بمثال باهر من الحرية والعمل والأمثلة تساوى أحياناً أكثر من المبادىء . بعض الشعوب أولعت بان وضعت نصب عينها غاية فى الكمال العام ورجحت انكلترا أن تضع موضع العمليات لعظمة جنسها وانتشاره كلمة معجبة كتبتها احدى المدن الانكلوسكسونية على سلاحها وهى « أريد »

ان كان من خلق الانكليزى الاقدام على العظائم فان حب الجديد والذوق فى المجهول ليس فيه الا على ضعف أيضاً فالانكليزى يبقى انكليزيا ويعيش عيشاً انكليزيا حيثما نزل . والانكليزى أقل من الفرنساوى والايطالى فى اليأس من النجاح وأكثر منهما هزؤاً بالمتاعب والمخاطر لعلمه بان لها حداً لاتتعداه ولا بد من حل مشكلاتها . وقلما تراه يحسب حساباً لنكد الطالع فترى الشاب يتزوج من

فتاة وهو فى مقتبل العمر ولا يطالبها ببائنة (دوطة) بل يقترن بها بلامهر ويقدم على تأسيس أسرة فيزيد نفقاته ثلاثة أضعاف ما كانت عليه والصانع يقدم على ادخال اصلاح فى عمله بجرأة ويتخذ أسباب النجاح وهو يعلم أنه لا يلبث أن يتم اصلاح مصنعه حتى يقوم صانع آخر ينافسه ولكنه يكون استفاد من الفترة بين اصلاحه واصلاح منافسه وترى المهاجر منهم لا سبد له ولا لبد ومع هذا يئن ويرزح تحت أثقال المتاعب وهناك سبب آخر وأعنى به الهوى فى العمل أو التجنن فيه وفى الحركة والذوق فى العمل من أجل هو عمل وكل ذلك مما تقتضيه حالته الطبيعية . وانا لنرى المرسلين منهم يتغربون فى الارض ولا يخافون بل يتعزون بما يتم على أيديهم فى الاقاصى وينامون ملء جفونهم شاكرين ويعملون أعمالاً فى السر ابتغاء وجه الله

ومن خلق الانكليزى أنه متشدد فى الاحتفاظ بالحالة الحاضرة فارباب العقول الغريبة فى تصورها كثيرون ولكنك لا ترى فيهم أحداً يميل الى الثورة وقد اشتهرت انكلترا بانها بلد التقاليد المستعصية حتى على اللازم من التجديد وثلاثة أرباع سكانها لا يشعرون بالحاجة الى ادخال تعديل فى القوانين والأخلاق والربع الآخر يقبل بالتعديل فى بعض أحوال مخصوصة ويتعلق بها ويلاحقها بنشاط . ولذا رأينا الشعب الانكليزي قد جالد لاول وهلة ريثما أدخلت عليه أساليب الارتقاء حتى المادى منه فلما تسرب اليه صار فى لحمه وعظمه وهكذا شأن الامة العظيمة تتشدد فى تقاليدها وتستنكف فى الغالب عن قبول كل جديد الا اذا ثبت لها ماينقضه ثبوت الشمس والقمر . فقد قيل: القوة الحقيقية في كل مملكة ماعرفت به من الاخلاق الطبيعية . وتقليد الاجانب على أي صورة كانت عار على الوطنية .

مهما بلغ من انحطاط مكانة الرجل الانكليزى في المجتمع ومهما بلغت حرفته من الامتهان لا يحسد من كان أعلى منه منزلة وله من عمله الذى يستمتع بمنافعه أعظم سلوى ولذلك قل ان مالت الطبقة العاملة فى انكلترا الى تغيير نظام الاشراف

فى المجتمع لاعتقادها بأن الاعمال مقسمة لان الحظوظ متباينة وبينا ترى فرنسا تقول للوزير كن فكان مهما كان وضيعاً وللنائب كن نائباً فكان مهما كان منحطاً فى أصله وللشريف كن شريفاً فيكون تجد انكلترا لا تسمح لوضيع أن يعد فى جملة العظماء الا بعد ثلاثة أجيال وذلك على نظام وترتيب تدريجى لعلم القوم بأن الطبيعة فى انكلترا تتأخر في كل شيء ولذلك اقتضي أن يكون ارتقاء الناس كذلك

« قال تين » : ان ثلاثة أشياء فى انكلترا أحسن منها مما فى فرنسا وعلى العكس فالسياسة فى انكلترا راقيـة لانها ثابتة لا تتغير كما هى الحال فى فرنسا كل عشرين سنة . وهى حرة لانها تدعو الافراد الى الاشتراك بها بالفـعل وتسلم القيادة فيها الى الطبقة العالية لانها أقدر من غـيرها وتكون لها مشغلة تصدها عن البطالة . وصحافة الانكليز أكثر مادة وأصح نظراً ومجالسهم أوسع اختصاصاً . وكذلك الحال فى الدينيات فان الاخلاق تقوم مقام الطقوس والمعتقدات . وكأن الدين عند الانكليز يدعو الي الحكم الذاتى والى سلطة الوجدان وتهذيب الارادة ويترك مجالاً كبـيراً للتأويل والعواطف الشخصية والدين لا يعارض العـلوم الحديثة وميول العصر الحاضر ورجال الدين يتزوجون . والدين تؤسس المدارس والدين يوصى بالعمل ولا يدعو الى الزهـد والقائمون عليه كجمهور الناس لا امتياز لهم عليهم .

قال ولم تغزَ انكلترا منذ ثمانمائة سنة ولم تقم فيها حرب أهلية منذ مئتى سنة ورأس مالهـا أكثر من فرنسا مرات وعلائم الرفاهية والغنى فيها أكثر من كل شعب من شعوب الأرض الانكليزى يحسن الزراعة والصناعة والعمل أكثر من الفرنساوى ويحسن تربية نفسه بنفسه والخاصة عند الانكليز أرقى من الخاصة عند الفرنسيس وعلمهم راسخ وعملهم نافع وفرنسا تفوق انكلترا بجودة مناخها وتقسيم الثروة بين أفرادها لان لديها نحو خمسـة ملايين مالك أرض ولذلك كان الفقراء أقل شـقاء فى فرنسا مماهم فى انكلترا وليس فى أرض الفرنسيس أغنياء ضخام الثروة كالانكليز لان الثروة تقسم بينهـم والمواريث عنـدهم متساوية

والفرنسيس يفضلون جيرانهم بحياتهم البيتية والاجتماعية اه

من خصائص الانكليزي أنه يشبه ميكانيكياً تعلم علم الحيل (الميكانيك) بالتجربة لا بالنظر فتراه مهما أن ينتج بما له من آلة ما أمكن من النتائج ولا يحرص على تبديل محركها أو أدواتها لعلمه بأنه اذا فعل ذلك أقتضى عليه أن يوقف العمل وان يبذل الوقت والاهتمام سدى من أصل رأس ماله المحدود وهو يدرك بأنه اذا حدث للآلة ما يضر سيرها تقف أحياناً وتنقطع فائدته وفائدتها ولذلك يجد من نفسه داعياً الى القبول بتعديل آلة على أن يغير أدواتها القديمة بأدوات جديدة ولكن بدون أن يوقف الآلة ويقلل من مغلها

يعتقد الانكليز بالضعف البشرى ويشعرون بضرورة أخذ الامور بالتدريج والبداءة بها من الصغير للوصول الى الكبير حتى لا تقف القاطرة فى هذا الجهاد وتهور فى منحدر لا تقوم منه فهم فى شرائعهم يكتفون بتعديلها واصلاحها مع الزمن وماقط حدثتهم أنفسهم أن يضربوا بما لديهم عرض الحائط ويضعوا غيره من عند أنفسهم والانكليزى مع هذا اذا رأى الخير فى تعديل قانونه يصر عليه فقد رأينا أصحاب الصحف على عهد الاصلاح النيابى الكبير قد صعب عليهم أن يصدروا منشوراتهم النافعة لأنه قضى عليهم أن يدفعوا عن كل نشرة طابعاً فأجمعوا أمرهم على ان يصدروها بدون طوابع فغرمتهم الحكومة وحبستهم ولكن جرائدهم ومنشوراتهم ظلت تصدر على عادتها بدون طوابع واصروا على رفعها ومضت اربع سنين على هذه المسألة حبس لأجلها زهاء خمسمائة رجل حتى اضطر مجلس النواب ان يجيب الطلب وان تضررت الحكومة من رفع قسم مهم من الميزانية .

يعمل الانكليزى عمله حباً بالعمل نفسه على حين يعمل غيره من الأمم لاحراز الثمرة التى تعقب الشرف او الراحة والرفاهية والدليل على ذلك مانراه فى اهل الطبقة العالية منهم ممن لهم ثروات تغنيهم من تعاطي الاعمال فنراهم يصرفون نصف ايامهم فى الالعاب الرياضية الشديدة غير مبالين فكأن الرياضات

لهم كالفطرة المستحكمة كما كانت الألعاب الاولمبية فى يونان ايام عزهم ثم انك لاتجـد غنياً لايصرف شطراً من وقتـه فى النظر فى شؤون مقاطعته وابرشيته وكثيراً مايهلك قواه فى هذا السبيل بينما تجد ابنه فى اوستراليا او مانيتوبا يعيش مع رعاة الغنم فى تلك البلاد القاصية المنفردة وابنه الآخر من المرسلين فى جنوبى افريقية يعمل شاق الاعمال .

وبينا ترى الانكليزي اكثر الأمم تحاشياً مما فيه عبودية واحرص الناس على التناغي بالحرية الشخصية والحرية المدنية كحرية الاجتماع وحرية التكلم وحرية القول تراه فى نظام أسرته قد احتفظ حتى الآن بنظام الحكم المطلق فنرى الابنة تأتي زوجها بدون أن يعطيها والدها بائنة لأن العادة جرت بين الأغنياء وأرباب اليسار أن يحفظوا لبكر الأولاد العـقارات ويقسموا الأشياء المنقولة بينه وبين أخيه الاصغر منه سناً وتنال الابنة حصة من ذلك ويكون فى الغالب دخلا قليـلا تناله من واردات أبيها . حرمت ذلك حتى لاتجيء دار زوجها بما يرفع رأسها عليـه لأن الرجال يريدون أن تكون لهـم السلطة التامة فى بيوتهم واذا اتفق أن زوجاتهم جاؤهن بشيء من المال يضيفونه الى ثروتهم ويحرمونهن حتى الوصاية على أولادهن والتصرف بأموالهن ، والزوجة معزوجها وما يختار هولا ماتختار هى . والوالد والوالدة يربيان ابنهما بعيـدا عنهما ولا تأخـذهما به شفقة والولد اذا غاب عن والديه ينساهما واذا مثل بين أيديهما يحترمهما

قال « تين » : الانكليز مشغولون باشغالهم ليس عندهم من الوقت مايظهرون فيه بمظهر الأنيس المتهـذب أما الفرنسيس فهم أهل لطف وظرف يفتح بعضهم الى بعض قلوبهـم ويبوحون بذات أنفسهم وهم أشكال يتبذلون بينهم فى خطبهم ويتنزهون ويسيرون ويركضون ويذهبون طلقاً حتى يسقطوا . الانكليز نوابغ فائقون وهم لاينسجون حتى ولا على آثار الاقدمين الذين يعجبون منهم فى باريز يطيش المرء مما يرى من العالم فلا يعرف الا العادات الظاهرة وليس له من الوقت مايتمكن به من معرفة الرذائل والفضائل . لو سئلت عن مرامي الانكليز لصعب

على فى الحقيقة ان أجيب عليها فلا الحرب ولا المنشأ ولا المراتب ولا السعداء من الناس ولا الهـذيان فى نيل رضى الوزراء مما يتمتعون به بل هم يريدون أن يكون الرجال رجالا ولا يعتبرون الا شيئين الغنى والاهلية . أريد بلفظ نبوغ أمـة الاخلاق وصورة الفكر فى الشعوب المختلفة التى تقاد بتأثير بلاط ملوكى أو عاصمة واحدة . فالانـكليزى والفرنساوي والايطالى ثلاثة مظاهر من مظاهر النبوغ .

وقال أيضاً أرى مدينـة باريز مدينة جميـلة وفيها أمور بشعة وأرى لندرا مدينة بشعة فيها أمور جميلة جدا . فى لندرا الحرية والمساواة ولكن حرية أرباب الحشمة من الناس ومساواتهـم وفى ذلك تختلف عن حرية البندقية وهى حرية العيش فى الظلمة والتزوج من بنات الهوى . ومساواة لندرا هى مساواة حشمة ووقار وبذلك تختلف عن حرية هولاندة التى هى حرية السفهاء والسفلة . ليس أمام الانـكليزى اذا تلفت صحته غير سبيلين اثنين اما أن ينتحر او يصبح لصاً . وقال : ان المال محترم عند الانـكليز للغاية أما الشرف والفضـيلة فليس لهما تلك الحرمة . لما كان الانكليز لايتحابون فى بلادهم حتى لاينخدع أحدهم بصاحبه أصبحوا قساة . الانجليزى يبدى نحوك أدبا قليلا ولكنه لايبدو منـه ماينافى الأدب قط

انجلترا اليوم أكثر بلاد الأرض استمتاعا بحريتها ولا استثنى من ذلك ولا جمهورية . أدعوها حرية لأن الامير ليس له فيها سلطة حتى يسيء لاى كان وذلك لان سلطته محدودة مراقبة ولكن اذا أصبح مجلس النواب الحاكم المتحكم تصبح حرية بلا حد اذ تكون بيده القوة الاجرائية على أن السلطة اللامتناهية هى للمجلس والملك الآن والقوة الاجرائية للملك المحدود السلطة فعلى الانجليزى الصالح أن يتوخى الدفاع عن الحرية من اعتداء الملك والمجلس. قال أحدهم لما مسكوا الحبل الأزرق سنة ١٧٣١ للمستردى بروغلي: انظروا الى هذه الامة انها طردت الاب وأنكرت الابن واستضعفت روح القدس

أخلاق الانكليز وعاداتهم

٨٦

جزيرة أو جزائر بريطانيا العظمى عزلتها الطبيعة عن أوربا كأنها قارة برأسها فجاءت أخلاق أهلها وعاداتهم نمطاً غريباً يدهش لها الغربي قبل الشرقي . وفي أكثرها الجيد الصالح . ومن أكثر علمائنا الذين قضوا أعواماً في بلاد الانجليز واختلطوا بهم واطلعوا على أحوالهم العلامه أحمد فارس [1] فقد أجاد في وصفهم فاقتبست جملا من كلامه لأن من أقام في بلد أعواماً لا يشبه من زاره أياماً قال:

ينقسم جيل الانجليز الى خمس طبقات «الطبقة الأولى» الأمراء والوزراء والنبلاء وذوو المناصب السامية ويلحق بهم الأساقفة « الثانية » الأعيان أو العلية وهم الذين يعيشون من أرزاقهم وأملاكهم لا من معاطاة شغل أو حرفة وليس لهم جلاء أي لقب عظيم « الثالثة » العلماء والقضاة والفقهاء ويلحق بهم القسيسون والتجار أهل المراسلات «الرابعة» التجار أصحاب الدكاكين والكتاب وهم الذين يحتاجون الى تحصيل معاشهم بالاحتراف والاصطراف ولكن من دون ابتذال ماء الوجه « الخامسة » أهل الحرف والصنائع والعملة ويلحق بهم الفلاحون وهم الجمهور الاكبر فعادات أهل الطبقة الأولى مباينة بعض المباينة للثانية ولكن ليس بينها و بين الاخيرة مناسبة أصلا وعادات أهل الطبقتين الثالثة والرابعة متساوية لا اختلاف فيها الا ماندر أما أهل الطبقة الثانية فان لهم من وجه نزوعا الى الاولى بالنظر الى العز والاستبداد ومن وجه آخر ينزعون الى الباقي بالنظر الى الجنسية والالفة والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن والمباهات بما عندهم من الصنائع والأحكام والاذعان للقوانين التي بنيت عليها

(١) الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا (الطبعة الثانية بمطبعة الجوائب في قسطنطينية ١٢٩٩ هـ)

معاملات دولتهم ودواوينهم . ولما كان أصحاب الطبقة الاخيرة هم الجمهور الاكبر وهم الحريون بان يقال لهم بريتانيون أو انجليز لكونهم بقوا على قديم أحوالهم وأطوارهم ولم يعرفوا غيرهم من الاجيال الا بالمعاشرة ولا بالمطالعة وجب أن نقدم ذكرهم أولا فنقول : ان أول خلة يراها الغريب فيهم هى عدم اكترائهم له ونفورهم منه فلا يفرحون لفرحه ولا يحزنون لحزنه بل لا يعنى أحدمنهم بشأن جاره ولا يهمه أمر غير أمر نفسه فكل ذى حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدة حياته ولا يتطالل الى معرفة شيء غيرها فالفلاح مثلا لا يعرف شيئا الا ما آل الى الحرث والزرع والقين لا يدرى مما يحدث فى بلاده سوى مايختص برواج سعر الحديد والطاب على الادوات المصنوعة منه وهلم جرا الى المهندس والطبيب . واذا استراح الرجل منهم ساعة قضاها بذكر ماعمل وما سوف يعمل. ويمكن أن يقال ان بهذه الخصلة استتب عز دولة الانجليز وعظمت شوكتها . لان الرعية لا تعترض ذوي الامر والنهى في تدبيرهم ولا تتطاول الى معرفة ماتقتضيه سادتهم وأهل شوراهم . وهم أطوع خلق الله لاولياء أمورهم . ويمكن أن يقال أيضا انهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون أنفسهم وهم فى هذه الحالة أسعد خلق الله وان جميع رسومهم وأحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير

ومن طبع الانجليز الرث وهو البلادة وقلة الفطنة فلا تكاد احداثهم تفهم شيئا من كلام الغريب بينهم بل الكهول أيضا لا يعون مايلقى عليهم الا بعد الروية والتأمل وشتان مابينهم وبين الفرنساوية فان الحدث من هؤلاء يبتدر الى الجواب كانما قد درسه ودراه من قبل سؤالك اياه ولو قلت أن البريتاني القح ليس له من نوعى العقل سوى نصف المكتسب ونصف الغريزى لما أخطأت وتلك صفتهم من القديم

ومن طبعهم انهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض وكيف يسهرون وهم انما يرقدون فى الساعة التاسعة ويقومون صباحا فى الساعة الرابعة وربما

بقى الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا أهل المدن وغاية محاورتهم اذا تلاقوا فى الطريق أن يقول أحدهم طيب بطرس فيقول الآخر طيب يوحنا . واذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد أن يبتديء أحدهما أولا بوصف الهواء وصحوه أو برده ثم يخبره بما عرض له من وجع فى كتفه أونالول فى رجله أو اختلاج فى عينه فيقول السامع يحزننى ذلك جدا ولا يكاد احدهم يضحك ضحكا طبيعيا وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس

ومن طبعهم أيضا أن لايحترموا الشيخوخةمن حيثهى شيخوخة ولاتهاب الاولاد والديهم كما تهاب الاولاد عندنا ولا يحن الوالدون أيضا على أولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرا ان الاب يقتل ولده والولد يقتل أباه وأمه . ومن منكر عاداتهم التى لايمكن أن يحولوا عنها مع علمهم بأن جميع الافرنج خالفوهم فيها حلقهم لحاهم وشواربهم . ومن عادة العامة الملاكمة ويقال لها «البوكس» والملاكمة للعامة بمنزلة المسايفة للعلية غير أن هــذه محظورة يجب فيها الحد وتلك مسكوت عنها وقد كانت سابقاً بمنزلة الملهى فى اجتماع الناس للتفرج عليها . وفى أواخر القرن الماضى كانوا يتعلمونها فى المكاتب . ومن طبع الانكليز عموماً التهافت على الشهرة والنباهة بين أقرانهم بأى سبب كان ولا سيما فى أسباب المعارف والعلوم . ومنهم من يعتقد بالطيرة والتفاؤل وظهور روح الميت عند قبره وهذا الوهم فاش حتى عنــد عامة سكان المدن وشرع الانكليز أطول الشرائع أحكاماً وأكثرها قيلا وقالا وأوسع من علم العربيــة قلباً واعلالا . فان بعض الدعاوى التى تستدعى دهاء الفقهاء ومحالهم ربمـا يدوم خمسين ســنة فأكثر ويمكن تقسيم شرعهم الى أربعة أقسام . الأول ماتناقلوه من أحكام الرومانيين والزماندليين والسكسونيين الذين فتحوا بلادهم ويدخــل فى ذلك أمور من قبيل العادة . وفى الحقيقة فان جل عاداتهم ســنة لهم . الثانى مابنى على العدل والانصاف ومراعاة المصالح على وجه الاستحسان والترجيح اذ لم يرد فيــه ولم يجر فيه حكم فيحكم بالرأى حسبما

يرجح عندهم أنه الاصلح . الثالث أحكام مجلس المشورة وهى غير متناهية الرابع أحكام ديوان الكنيسة

وتحيتهم فى الصباح هى أن يقولوا صباح طيب وفى المساء مساء طيب ثم يردفوها بقولهم « هودويودو » وترجمتها كيف تعملون أنتم تعملون وهو سمة تنبىء عن مزيد ميلهم وتوقانهم الى العمل حتى انه يوجد فى لغتهم نحو عشرة ألفاظ مرادف للعمل وهو أكثر ماعندهم من المترادف ولا يخاطبون بضمير المفرد الا البارى تعالى أو فى الشعر وهو ضربة لازب فاما عند الفرنسيس فاستعماله انما هو فى مخاطبة الادلال كأنه يكلم المحب محبوبته أو الوالد ولده . ومتى خاطبت أحداً من فلاحى الانكليز وهو مصغ اليك أبدى همهمة عند كل جملة أعنى قوله « هم » فكأنها عندهم حرف بمعنى نعم وعند كل فقرة تقضى بالاعتبار يقول اه واذاهم خاطبوك نقضوا رؤوسهم ولا يكادون يشيرون بالايدى كما هو دأب أهل مالطة وايطاليا وغيرهم وليس للهجتهم مطلقاً نغمة مطربة سواء تكلم بها جاهل أو عالم أو ولد أو امرأة اذ ليس في كلامهم مدّ ولا حركات طويلة وأصوات الرجال من حناجرهم بخلاف اللغة الفرنساوية فان فيها غنة تستحب من الأولاد والجوارى جدا وربما طرب لها من ليس يعرفها . ومن عادة النساء اذا كلمن أحدا من الخاصة ان ينحنين له عند كل سؤال وجواب وعادة الغلمان ان يضعوا أيديهم على رؤوسهم وكذا هى عادة الخادم مع مخدومه عند كل سؤال وجواب حتى القسيسون أيضا يرتاحون لهذه الدغدغة واذا خاطبوا أحدا بكلام توبيخ وغيظ قالوا له « سر » وهى بمعنى « سيد » حتى انهم يقولونها عند طردهم كلبا ونحوه فيقولون مثلا اخسأ ياسيدى وقد يستعملونها أيضا لتعظيم المخاطب واجلاله . والرجل يقول عن زوجته معلمتى والمرأة تقول عنه معلمى . واذا خاطب زوجته أحد من الخاصة بلفظة « مادام » كان ذلك اشارة الى تنافرهما فخطاب الرضى انما هو أن يقول لها يامحبتى ويا عزيزتى وربما قالوا ياقلبى ولا يكادون يفهمون ياروحى وياعينى

اذا دخلت على أحد من أهل العربية احتفى بك غاية الاحتفاء وان لم يكن

بينكما صلة أو معرفة وعند الانصرف لايزيد على أن يقول لك فيأمان الله وربما لم يقم لك واذا دخلت على افرنجي أراك أنه مشغول عنك بما هو أهم من الزيارة وسألك أن تسرع في عرض حاجتك وعندانصرافك من عنده ينهض لك ويرافقك الى الباب وعند الفرنسيس لابد من أن يكلمك هناك كلاما يوجب وقوفكما ولو دقيقة أشارة الىأنه لم يملمنك وعامة الانكليز هم دون عامة فرنسا أدبا وكياسة كما أن علية أولئك أفضل من علية هؤلاء وليس عند الانجليز فضول وتكليف على الدخيل فيهم بل ولا على من هو منهم فلا يزورونه في غير وقت الزيارةولا يستعيرون منه ولا يتعرضون لما يأتيه •

ومن ذلك الجد في المساعي وعدم الشماتة وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة أو لنكاية الخصم في الكتابةوعدمالتهافت على الحسد فاذا رأوا عندك مثلا متاعا نفيساً لم يكن عندهم مثله لم ينفسوا عليك في احرازه ولا يقولون ياليت كان لنا مثله . ومنها انهم يضبون على مابهم فلا يتظلمون ولا يجدفون أي يستقلون عطاء الله ولا يقولون ليس لنا وليس عندنا فكل واحد منهم يريك أنه مستغن عنك ولا تكاد تسمع خادماً يطعن في مخدومه أو خادمة تعيب مخدومتها وان كانا يكابدان عندها . واذا نبغ فيهم انسان في فن وصنعة لم يجد من يتصدى لتجهيلهوتخطئتهفلا يحسد ولا يبخس حقه . بل يجد من ينشطهو ييسر له أسباب العلم ، ولا يتشبثون بأعقاب الاقاويل ولا يأتون النميمة والغيبة الا قليلا ؛ ومن ذلك حسن الترتيب والتدبير في الاشتغال والمصالح والتوقيت للعمل فلكل شيء عندهم وقتولكل وقتشغلفاذا اتفق ازارهم أحدفي ساعة الشغللم يتحاشوا أن يقولوا له مثلا قد أنسنا بكولكن علينا قضاء مالابدمن المصالح فلاتؤاخذنا وزرنا في يوم كذا فينصرف عنهم عاذراً لاعاذلا ومن ذلك اختصارهم الكلام مع المخاطب اذا اعتمدهم بشيء فاذا احتاج الصغير الى الكبير في شيء قال له اني أرجو أن تكون من المحسنين الي بتنويل طلبتي فأكون لك من الشاكرين فيكونجواب الكبير له بغير ملث سأبذل جهدي في مصلحتك وأخبرك

وأما اذا رأى المسؤول نفسه غير قادر على احساب سائله و نفعه قال لهمصرحاً أن سؤالك فوق طاقتي فاقصد غيري ولكن متى وعد فلا بد من انجاز وعده فلا محال ولا مطال

ومن الخصال المحمودة الحرص على ما يؤتمنون عليه فاذا سلمت لأحدهم مثلا طرساً فانه يصونه عنده بمنزلة طرس نفسه حتى اذا استرجعته بعد سنين أعاده عليك كما تسلمه بل ربما أزال عنه الوسخ ورده اليك نظيفاً وقال لك وهو معتذر قد تجاسرت على أن أزلت الطبع عن الطرس وأرجو أني لم أسيء فيما فعلت . وقس على هذا سائر ماتأتمنهم عليه وينضم الى ذلك احترامهم للرسائل فلا يفتح أحدهم كتاباً جاء باسم غيره بل يبذل جهده في ايصاله اليه واذا زارك منهم زائر فلا يمد يده ولا طرفه الى مابين يديك من الصحف فاذا أراد أن ينظر في كتاب لم يلمسه الا بعد أن يستأذنك

ومن ذلك تنشيط أولادهم الى الاشغال وتمرينهم على مايكسبهم واياهم الرزق الكافي والمواظبة على الاعمال والصبر على مايتعاطونه جل أو حقر فانهم لايملون من السعي ولا يرون في الكسل راحة ولا يقول أحدهم اني كبرت عن تعلم شيء فلا يزالون دائبين كالنمل مادامت فيهم نسمة تتحرك ومع كل هذا التجلد والتحمل فمتى ضيم أحدهم أو سقط شرفه أومال نجمه فاهون شيء عليه نحر عنقه . ومن رام أن يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم أنه مستغن عنهم ولا يعرض لهم في طلب شيء ولا في استعارته وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون أياماً وشهوراً وسنين ولا يسألونه عن مقدار دخله وخرجه ولا يريدون أن يسمعوا ذلك منه اذا ذكره . ومتى وثق أحدهم بانسان وعرف منه الجد والاستقامة والامانة يأتمنه على زوجته وبناته فيذهبن معه ليلا ونهاراً بلا مانع ومن يحضر الى بلادهم بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه منهم وصموا آذانهم بعد ذلك عن سماع مايقال فيه من الذم . واذا زارهم أحد أول مرة ولم يكن من معارفهم فلا بد من أن يعطي الحاجب تذكرة مكتوبة باسمه فيناولها الخادم سيده في صحفة

من الفضة أو البلور ولا يكاد يدخل عليهم زائران فى وقت واحد وقد يكون عند البواب دفتر يكتب فيه أسماء الزائرين في كل يوم . وفى الجملة فان معاشرة هؤلاء الرؤوس تتعب الرأس والرجل معاً وتضيع كثيراً من الوقت والمال . وربما دعاك أحدهم الى غداء فقام عليك ذلك الغداء ثمن عشرة أغدية . ومما يحمد من هؤلاء النبلاء انهم لا يضعون فى أرديتهم سمات الشرف ويطوفون به فى الطرق تهويلا على العامة كما تفعل نبلاء فرنسا وانما يتحلون بها فى أوقات معلومة وكذلك الخواتين لا يتحلين بالحلى والجواهر الا فى الولائم والسهريات ونحو ذلك .

ومن ذلك خطابهم خدمتهم بالرفق واللين وان أظهروا عليهم العجرفة والعنجهية فالمخدومة تقول لخادمتها اذا أمرتها بأن تناولها شيئاً هاتى هذا الشىء ان أعجبك . وبعد أن تأخذه منها تشكرها وربما تباخلت عليها فى الاكل والشرب وأرضتها بمثل هذا الكلام الطيب فيطيب خاطرها . ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدومة متباعدة عن الخادمة ومظهرة لها فرق المقامين وتباين الشانين فلا تدل عليها بشيء واذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الأدب . ويحمد أيضاً من عاداتهم انهم اذا استخدموا شخصاً لسنة وأرادوا صرفه لغير ذنب نبهوه من قبل صرفه بثلاثة أشهر وعند الفرنسيس ينبهونه من قبل ثمانية أيام فاما اذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه بأسبوع أو أدوا اليه أجرة الشهر وصرفوه

قال ابن فارس هذا واني سمعت من كل من عاشرته وقد عاشر الانكليز أن يصفهم بالكبر والعجرفة وكبرياء علية الانكليز انما هى فى وجوههم أكثر منها فى ألسنتهم وقلوبهم . وان وسم الناس اياهم بالعجرفة مطلقاً ليس فى محله الا انى لا أنفى عنهم الاتصاف بعزة النفس وترفيعها عن أن تذل لغيرهم وهى من الخلائق المحمودة لدى جميع الخلائق فاما كبر السفلة منهم فهو ابداء العبوس أيضاً مضافاً اليه عدم التأدب فى الكلام والحركات ونبرهم فى الخطاب وسوء الضحك واللقاء والمنقلب وهلم جرا . هذا وكما اشتهر عن الانكليز الكبر كذلك اشتهر عنهم الصدق

ومما يحمد من الكبراء ومن ذوى المراتب السامية هنا انهم لا يتداخلون فى التجارة ومن منكر عاداتهم انه اذا دخل أحد على جماعة من هؤلاء العلية ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط لم يسلم الا عليه ما لم يعرفه بهم صاحبه فاما اذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم أحداً فلا يحيي مطلقاً بخلاف عادة الفرنسيس فان من يدخل على جماعة أياً كانت يضع يده على رأسه أو ينزع برنيطته احتراما لهم وكذلك اذا خرج وان لم يكن يعرفهم .

انكلترا والاستعمار

٨٧

من لم يطلع على التاريخ والجغرافيا لا يعتقد عند ما يقع بصره على البلاد الانكليزية أن حكومتها استعمرت مملكة واسعة أعظم من مملكة قيصر وأعمر منها . ولقد ارتكبت انكلترا أغلاطاً كثيرة وركبت أخشن مراكب الجنون للوصول الى مستعمراتها ، وعلى ما فى طرق استعمارها من النقص الذى لم يتم بالاصلاح حتى الآن يصعب أن يقال (١) أن شعبا نجح فى هذا الباب أكثر من الانكليز اذا اعتبرنا اختلاف العناصر والأخلاق والاهوية والطباع

تتناول مستعمرات انكلترا نحو ثلث مساحة الارض وربع سكانها واذا استثنينا اليابان والصين نجد انكلترا قد اتصلت من الاصل أو بالحكم مع أكثر من ثلث الشعوب المتمدنة في العالم فلها فى قارة أوربا أربع مستعمرات وفى قارة أميركا احدى عشرة مستعمرة وفى افريقية أربع عشرة مستعمرة وفى آسيا ست مستعمرات وفى أوستراليا ثماني مستعمرات ولكل واحدة قانونها الخاص تشتد

---

(١) انكلترا وحكومتها ومعاهدها لدى فونبلانك

A. De Fonblanque : L. Angleterre son gouvernement — ses institutions,

صلاتها بالمركز (لندرا) أو تلين بحسب عراقتها فى المدنية وجهادها فى سبيل الحرية والقومية .

والفضل الاول فى حفظ جزائر بريطانيا ومستعمراتها الى الاسطول الانكليزى الذى حطم كل اسطول ماعداه لجيرانه حتى غدا الاول فقد قال المؤرخون أن الانكليز ما كانوا يحلمون بأن ينقلبوا من قرصان بحر الى دولة بحرية عظمى فقد استأجر هنرى الخامس سفن الهولانديين فى القرن الخامس عشر للاستعانة بها على حملته الى فرنسا ولم يكن للبلاد قبل عهده بحرية حربية لحماية الشواطئ وكانت جميع تجارة بريطانيا الخارجية بيد الهولانديين واللومبارديين والهانسيين تستميلهم الحكومة البريطانية بما كانت تمنحه من الامتيازات التى تحرم منها رعاياها من الانكليز . ولم تهتم انكلترا الا عهد ريشار الثانى بحماية علمها ولم تؤثر الاسباب التى اتخذتها الا على عهد هنرى السابع وظل الانكليز الى آخر أيام الملكة اليزابت غير مستعمرين . بدأ القرن السابع عشر وليس لانكلترا خارج أوربا ولا مستعمرة وقد سبقهم جيرانهم النازلون على ضفاف البحر الاتلانتيكى .

كتب أحد رجال البحرية فى انكلترا أواخر القرن السادس عشر يصف البحرية الانكليزية فقال : لا يتأتى للبحرية الانكليزية أن يكون لها وجه شبه مع البحرية الهولاندية . فقد أصبحت هولاندة كما كانت مدينة صور القديمة ومدينة البندقية الحديثة مستودع كثير من البضائع يصرف منها واحد من المائة ببلادها والباقى خارجها والهولانديون يأتون الينا متاجرين كل سنة على ٥٠٠ الى ٦٠٠ سفينة ولانكاد نبعث اليهم بأكثر من ٣٠ الى ٤٠ سفينة فالهولانديون يتجرون مع جميع موانى فرنسا ونحن لا نتجر الا مع خمس أو ست موانى وسفنهم وحدها تبلغ أكثر من جميع ما يملكه مجموع أمم النصرانية فهم يبنون فى السنة ألف سفينة . هذا وليس فى بلادهم شجر ، وحاصلات أرضهم لا تشحن أكثر من مائة سفينة اه

وأن تحطيم السفن الانكليزية فى بحر الشمال والمانش سنة ١٥٨٨ للاسطول الاسبانى الذى لا يغلب L'invincible Armador كان مبدأ تفوق انكلترا ببحريتها وقد ساعدت انكلترا يومئذ الأنواء فلم تبق منه الا طويل العمر وقد وقع لانكلترا مسألتان ساعدتاها على هذا التفوق وهما اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ وكانت جنوة وبيزا وفلورنسة والبندقية واكسبورغ وتروي ومدن الهانس مجمع التجارة والتجار ففتح اكتشاف أميركا أمامها بابا جديدا فأصبحت مملكة من ممالك المحيط الباسيفيكى وفاقت على الدول الخمس التى كانت ممتدة على شواطىء هذا المحيط .

دخلت البورتغال أول الدول فى ميدان الاستعمار ثم اسبانيا ثم هولاندة وقد بلغت هاته الدول الثلاث أرقى درجات سعادتها الاستعمارية فى منتصف القرن السادس عشر وقامت فرنسا بمثل هذا الأمر بعد ذلك بقليل وكانت فيه أرقى من انكلترا وهذه جارت الأخيرة ، ولم تصرف أكثر من قرن لتعوض الوقت الذى أضاعته ولم يعترف بها بأنها دولة بحرية قوية تطمح الى الاستيلاء على البحار الا يوم صلح أو ترخت سنة ١٧٠٣ وعجيب تأخر انكلترا عن جيرانها الدول الخمس المفتحة موانيها على البحر الاتلانتيكى كيف لم تنتفع حالا من تجارتها مع أميركا على مالها من المركز الغريب وهى أقرب الأمم الى العالم الجديد وشواطئها تمتد على طول ٧٩٠٠ كيلو متر أى ضعفى شواطئ فرنسا واذا كان الانكليزى فى أى نقطة من بلاده لا يبعد عن الساحل أكثر من خمسة وعشرين فرسخاً هذا مع تعدد موانيهم وأنهارهم ووصول سفنهم حتى الى العاصمة والى كثير من الحواضر بدون أدنى عائق على حين ليس لهولاندة والبورتغال من الموانى ما يعدها لاعداد الأساطيل الكبيرة ولفرنسا واسبانيا مشاغل فى اليابسة تحتاج لان تصرف قواها البرية فيها وتعنيا بها زيادة على البحرية .

كان من الاضطهاد الذى وقع على البرتستانت لأول انتشار مذهبهم فى انكلترا أن هاجر كثير منهم الى أميركا والى غيرها فاستعمروا البلاد واستصفوا الممالك

وأنشأوا فى أيام نكبتهم لأمتهم ممالك بنيت على التضامن وكان سداها الاقدام ولحمتها الوطنية . وأخذت انكلترا تطوف البحار التى كانت مجهولة الى ذلك العهد تؤسس فيها أماكن مثمرة تقرب بين محطاتها وتوطد سلطانها وتحمل الى القاصية علمها فتألف من ذلك عنصر مؤلف من بحارة شجعان ومستعمرين مقدمين وتجار للربح متعطشين يغلب عليهم الصدق فى متاجرهم . وحسن الذمة شرط فى التجارة ولكنهم لا يعبأون بالشرف فى المسائل الأخرى فهم قلما يراعون عهودهم مع الدول الأخرى بعيدون عن الانسانية متشبعون بالانانية . والظلم عادة لمستعمريهم ونشأ من ذلك حب التوسع فى الملك على صورة لامثيل لها فى أمة . وان من تفرقوا فى أميركا من مهاجرة الانكليز ونزعوا أيديهم من الكنيسة البابوية قد ربوا على استقلال الفكر والاتكال على المولى الحامى المطلق لخلقه . ومن هذه الجماعات أو مجموع كنائسهم المجددة نشأت تلك المملكة الاميركية . فانجلترا قبل هؤلاء المستعمرين كانت تتوسع اليوم بعد اليوم أما فرنسا واسبانيا فكانتا تتراجعان فى مستعمراتها الحين بعد الآخر .

دخل فى الاستعمار بالهجرة أو الفتح شعوب أوربا العربية لقيام بلادهم بالقرب من الاوقيانس الباسيفيكى والاتلانتيكى والهندى أى اسبانيا والبورتقال وهولاندة وانكلترا وفرنسا والدانيمرك ثم تبعتها ألمانيا وايطاليا وأنشأوا البلاد وأسسوا الممالك ولكنهم كانوا باستعمارهم كلهم دون استعمار الرومان واليونان والفينقيين فى حسن معاملة المستعمرين والاحسان اليهم فى البلاد التى نزلوها على شواطىء البحر المتوسط وبحر الشمال فكان رائد المستعمرين من المحدثين القضاء على من نزلوا بينهم ولا سيما العبيد وهذا مما يؤسف له [1] ويصعب تطبيقه على ارتقاء النصرانية والعهد الحديث عن مستوى الوثنية والعالم القديم

***

(١) معجم السياسة والاجتماع لبلوك Block: Petit dictionnaire politique et social

وهاك الآن نموذجاً من ادارة الهنـد أكبر مستعمرات انكلترا بل أكبر ممالك الأرض بعدالصين تدرك منها أسلوبهم فى حكومتهم الغريبة التركيب المنوعة الاجزاء التى تحيلها فى بودقتها بالزمن الطويل الى انكليزية صرفة بمباديها ومراميها الا قليلا .

لما استولى [1] الانكليز على الهند عقيب ان دالت دولة المغول ورفع عن بعض ارجائها علم الفرنسيس لم يجدوا أمامهم حكومة وطنية فى البلاد ولا جماعة اجتمعوا لتدبير شؤونهـم توبطهم المصلحة المشتركة بها بل رأوا هنا وهناك عصابات غير طبيعية نشأت بالاتفاق بطبيعة الفتح وظلت بطبيعة الحال عبارة عن مجتمعات منفصمة العرى تجمع تحت لوائها ملايين من الناس فى أماكن متباينة وكان لهذه الأقوام بحسب مكانتها زعماء يقودونها سموا أنفسهم أمراء وراجات ونوابا وسلاطين وأمبراطرة ولم تتغير هذه الصورة من الحكومة منذ الاعصر التى استولى فيها الفرس والمقدونيون والبارثيون والتتار والمغول وغيرهم على تلك القارة

ومع مانراه من حال ذاك الشعب المهزع المنتشر الاطراف الخالى من كل جامعة قد أنشأ له مدنية باهرة دامت قروناً تنير العالم بدائعها وظلت الى يوم الناس هذا لم تمسسها يد بسوء . فارتبط الهنود من الشمال الى الجنوب من جبال حملايا الى رأس كومور برباط واحـد وعملوا بقلب واحـد وتشبعوا بروح واحدة تدفعها الثبات الذى لايوصف والغاية المشتركة التى وجهوا كلهم وجهتهم اليها وذلك انهم لم يرموا الى غرض سياسى ولا الى غرض اقتصادى بل لأن المجتمع الذى ألفوه ورتبوا درجاته [2] لم تكن غايته زمنية دنيوية بل كانت دينية فاستقام الامر للمستعمرين لأن القوم لاتهمهم السياسة ولان النواب والراجات المغلوبين على أمرهم ليست لهم أصول راسخة فى البلاد ولا منزلة فى قلوب الأمة فكان الدين هو الذى يحرص القوم على بقائه والانكليز أحرص الناس على احترامه ولا سيما بين طبقات البراهمة التى كان لها تأثير شديد فى العامة

(١) من مقالة فى المجلة الزرقاء الفرنسوية Revue Bleue

(٢) فى الهند سنة ١٩٢٠ قبيلة مختلفة Caste وقال آخر انها ١٤٠٠

أدرك الانكليز فى الحال صراحة بأنهم فى حل من أن يؤسسوا فى الهند الحكومة التى تروقهم من حيث الادارة والنظام السياسى والتشريعى على أن لايمسوا المعتقدات ولا رجال الدين بسوء فانشأوا حكومة جديدة سموها حكومة الاستقلال ولم يراعوا فى تأسيس هذه الحكومة أصول الشعوب اذ كان هنا البنغاليون الجياع والماهراتيون الشجعان وفى مكان أبعد سكان ميزور وفى المقاطعات الأخرى السيخيون النشيطون فتجد الفلسفة العالية والتصوف البديع الى جنب الخرافات المستحكمة والتعصب الشديد بل راعوا اختلاف طبائع الاقاليم من حيث وضعها الطبيعى عملا بما قاله أحد رجالهم من أن الاختلاف فى أصقاع الهند أشد مما تراه فى ظاهر أرضنا وسياراتنا . ولم ير المستعمرون من مصلحتهم أن يؤلفوا وطنية هندية فيكون لسكان بنجاب وبنغال وطنية خاصة بل عزموا على توسيع الاختصاص والسلطة وتقسيم البلاد فى ادارتها على خلاف ماجرت عليه فرنسا فى ربط البلاد كلها بالعاصمة مباشرة لأنها ترمى الى تجنيس أهل البلاد المستعمرة بالجنسية الفرنسوية . وبعد تجارب طويلة تمت لانكلترا سنة ١٨٦١ صورة ادارة الهند وكانت هذه الصورة معدلة منظوراً فيها وهى الصورة التى جرت عليها شركة الهند الشرقية سنة ١٧٧٣ واستصدرت بها قانوناً من مجلس النواب فقسمت الهند أولا الى ثلاث ولايات بنغال ومدراس وبومباى دعوها رئاسات Présidence لان ادارتها كانت بيد مجلس ينشر القوانين وينفذ القرارات وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وهو دور الحروب والمنازعات الهائلة رأت انكلترا من الضرورة أن توحد الادارة السياسية مع الادارة الحربية لتقوية كل منهما فعهدت سنة ١٧٧٣ بولاية الهند لحاكم بنغال بحيث يكون له التقدم على حاكمي مدراس وبومباى ولكن ولايته اسمية لا فعلية فأخذت الولايات الثلاث تضيع الوقت فى الاخذ والرد والادارة مختلة الأساليب لاترجع الى يد تضم شملها حتى اذا كانت ثورة السيباى سنة ١٨٥٧ وهى التى كادت تخرج انكلترا من الهند وضعت الحكومة صورة ادارة كانت أساساً للامبراطورية الهندية

وهو عمل ادارى لم توفق اليه أمة ولم يخطر فى خاطر حاكم .

فقسمت أراضي الهند الى طبقتين جوهريتين أراضي السلطنة البريطانية أى البلاد التى تحكمها انكلترا مباشرة وهى عبارة عن ولايتى مدراس وبومباى اللتين بقيتا على ما كانتا عليه فى حدودها وولاية بنغال وقاعدتها كلكوتا جعلت عاصمة المملكة وقسمت الى ثمانى مقاطعات لها حق الانتخاب . والطبقة الثانية أمارات الوطنيين التى تركت تحت سلطة الراجات الاسمية أو الفعلية فقسمت الى قسمين فى وضع الحماية الانكليزية عليها وبذلك صار الحكم للوالى العام والرئاسات وحكومات الولايات والامارات الوطنية

ولحاكم الهند أو نائب ملكها مجلس مؤلف من ستة وزراء لهم معاونون وفى بعض الاحيان ولا سيما عند سن القوانين يضطر الى أخذ آراء المجلس وله الحرية أن يعمل بها أو يرفضها وهؤلاء الوزراء يشبهون من وجوه كثيرة وزراء لويس الرابع عشر لاوزراء أدوارد السابع وهم وزير الداخلية والخارجية والمالية والمعارف والتجارة والحربية والعدلية والاشغال العمومية ويحق لوالي مدراس وبومباي أن يحضرا فى المجلس عضوين فوق العادة وهذا المجلس الوزاري يجتمع فى المكان الذى يستنسبه الحاكم العام خيثما التأم فهناك العاصمة . ويضاف الى هذا المجلس بعض الاعضاء فيصبح برلماناً أى مجلس نواب فيكون نصف هؤلاء الاعضاء الاضافيين من الاعيان أوربيين كانوا أو وطنيين على أن لايكونوا من موظفى الحكومة يعينهم الحاكم العام فبذلك يصبح العنصر الرسمى فى هذا المجلس أكثر من العنصر الأهلي وهذا العنصر قليل العدد ولذلك لاحكم له ومعاونته اسمية فى الأغلب

أما المجلس التشريعى فله سلطة واسعة لايقف أمامها الا امتيازات البرلمان البريطانى وحقوق السلطنة الانكليزية وتنفذ قراراته عند مايصدق عليها حاكم الهند . وهذه الطريقة التى تسهل احالة السلطة الاجرائية الى السلطة التشريعية تحل مسألة تقسيم الادارة على أيسر وجه فى حين تمنحها وحدة الآراء والاميال

وفى مجلس النواب كما فى مجلس الوزراء يعمل كل عضو بما فيه المنفعة العامة وينظر فى المسائل التى يحسن معرفتها بخلو غرض ويعطى رأيه حراً وللموظفين ضمانات لاتضر بالنظام ولكنها تقى أشخاص كل الوقاية

تنظر الحكومه العامة فى المسائل الملكية خاصة كالديون العمومية والكمارك والرسوم الاميرية والمقايضات والبريدوالبرق ونفقات الحربية والاديان وقانون الجزاء والتمتع والعلائق الخارجية والحقوق الادبية وغيرها ولتوجه دفة السياسة الى الوجهة التى تختارها وتوحد بين المصالح العامة والخدم العامة فهى المنظمة والمدبرة وحافظة العهد الدستورى أما ولاة الاقاليم فلكل منهم مجلس خاص ومجلس تشريعى لاتسرى احكامه على أحكام الحاكم العام كما أن هذا لايعتدى على امتيازات الامبراطورية وما عدا ذلك فالحكومة مالكة حريتها برمتها ولها مطلق التصرف ان تقرر ماتشاء. ويخاطب واليا مدراس وبومباى لندرا مباشرة ويتناولان التعليمات بأنفسهما أما سائر الولايات فادارتها ترجع الى ولاة وبعضها الى متصرفين يعينهم الحاكم العام ويتناولون رواتبهم من الامبراطور ويختارهم من الموظفين الذين قضوا عشر سنين فى الهند على الاقل وهم يخابرون كلكوتا فى شؤونهم ولكن فى الامور الادارية والهم سلطة كسلطة واليى مدراس وبومباى ولهم الميزة عليهم بأنهم أكثر خبرة ونفوذاً

أما الجيش فيؤلف من جيش عامل من الاوربيين والهنود ويقدر بمائتين وسبعين ألفاً منهم ثلاثة وسبعون ألفاً من الانكليز ومن جيش مساعد تقدمه الأمارات الوطنية المستقلة عدده ٣٨٠ ألفاً ولكن على الورق فقط وعنده أربعة آلاف مدفع واذا استثنى من الجيش العسكرى الانكليزى وبعض الآلايات كالسيخيين والباتام والغوركا فالجيش الهندى لايساوى شيئاً. واذا استثنى من الجيش المساعد فيلق مملكة الكواليور لايساوى شيئاً أيضاً. قال أحد كبارهم: ان هذا الجيش عبارة عن خليط من الأوباش لاعلم له بالتدريب الحربى وليس لديه سلاح منظم وان الايين أو ثلاثة من جيشنا مع بطارية خيالة تمزق شمل خمسين

ألفاً من مثل هؤلاء المحاربين فمجموع هذا الجيش العامل وقدره سبعمائة ألف مع الجيش الاحتياطى هو عبارة عن تضليل يزول كالسراب أو كالدخان عند مداهمة الخطر

وتقسم كل ولاية وارداتها مع الولايات العامة على نسبة محدودة وتقوم بنفقات القضاء والمعارف والاشغال العمومية واعانة البائسين ولكل ولاية الحق فى أن تستلف نقوداً على واردات خمس سنين تصرفها فى الطرق التى تراها نافعة لعمران ولايتها وتقتصد ما تشاء وفى الهند أربع محاكم عالية فى بومباى وبنغال والشمال الغربى ومدراس تميز اليها أهم الدعاوى المدنية والجزائية وينتخب أعضاؤها من قبل السلطنة الانكليزية ويقبض كل عضو من مئة ألف الى مائتى ألف فرنك راتباً سنوياً وفى كل حاضرة ولاية محكمة استئناف ومحكمة جزاء نقالة ثم محاكم المقاطعات ويعمدون تارة الى استعمال قانون لندرا واذا وقع اختلاف بين أوربيين من رعايا انكلترا يطبقون عليهم القانون الهندى وأحياناً قانون الجزاء الانكليزى الهندى

ومأمورو الادارة الملكية عبارة عن ٧٦٥ موظفاً فيكون بذلك موظف واحد لكل ربع مليون ساكن وتحت أيديهم صغار الموظفين من الوطنيين (١) ومن مبدأ إنكلترا فى الهند ان تبقى جميع الوظائف الكبرى فى أيدى الاوربيين وتعطي جزءاً مهما منها للوطنيين ولا ترى الحكومة ان تقبل أحداً من رعاياها الهنود وتجعلهم انكليزاً فى جنسيتهم وهم يهزأون بفرنسا التى جنست رعاياها فى بوندشيرى بجنسيتها وأعطتهم حق الانتخاب لارسال نواب وأعيان .

أما الأمارات الهندية المستقلة فهى منقسمة الى طبقتين تقل فى الأولى السلطة الانكليزية عليها ومنها الأمارات الاسلامية التى تركت وشأنها لان ذلك أقل فى النفقة عليها ولكن حالتها الى الزوال لادنى اشارة تصدر من الحاكم العام ثم ان أمراء تلك الأمارات الاسلامية هم غرباء ويدينون بدين يكرهه السواد

---

(١) فى الهند ٢٥٠٠ موظف وطنى يقبضون مسانهة من ١٢ الفاً الى ٢٥ الف فرنك فيكون عدد الموظفين الوطنيين الذين يقبضون من ٣٠٠ فرنك الى ١٠٠٠٠٠ فرنك بنسبة ٩٠ فى المئة

الأعظم من رعاياهم فهكذا تجد في مملكة النظام مملكة حيدرآباد الدكن [1] تسعة ملايين من البراهمة مقابل مليون من المسلمين وفي سائر الممالك المستقلة [2] خمسون مليون برهمى أما ممالك كواليور واندور وبارودا فليس لها من المهراتية الا الاسم لأن أمراءها دخلاء عليها . اما ممالك الطبقة الثانية من الوطنيين فتختلف عن هذه كثيراً ومن هذه الممالك ميزور وراجبوتانا وترافانكور وجيبور وجوبور وملوكها من البراهمة ولئن اعتادوا العبودية فذلك لأنهم كانوا الى عهد قريب خاضعين للمهراتيين والمغوليين ولذلك ترى الحكومة من الحكمة ان تضيق خناقهم وهى لاتخافهم ولكنها لاتركن اليهم الا قليلا قال جايمس ستيفن : ان الانكليز فى الهند هم نواب تمدن محارب وسلام تدعمه القوة وما من بلاد نظمت شؤونها وحالفتها الدعة والراحة مثل الهند البريطانية ومتى خفت شدة الحكومة يكر نظام الهند كأنه مأخوذ بسيل جارف اه . وتنقسم درجات التعليم فى الهند الى ابتدائى ووسط وعال وهو النقطة الضعيفة من ذاك البناء الانكليزى الهندى البديع

ان من يسكنون البلاد الواقعة بين نهر الاندوس وشاطىء كوروماندل ويطلقون عليهم اسم الهنود يجب أن يجعلوا من الشعوب التي تشمئز من الغريب وتعاديه شأن كل الشعوب التى لها تاريخ قديم وفلسفة معروفة وتمدن خاص بها وهذا يصدق على الاكثرية من البراهمة كما يصدق على الاقلية من المسلمين فالبراهمة يرون من واجباتهم ان لايحيدوا قيد شبر عن تعليم أولادهم الصنعة التي يعلمها آباؤهم بالارث وتلقينهم الفروض الاجتماعية والعالمية والدينية التي تصدر عن زعمائهم وان جزءاً من هذا الشعور ليتعلمه الطفل بالفطرة والتقليد وباقيه يحصله فى مدرسة قريته أو يأخذه عن رئيسه الدينى مع مايأخذ من آداب

---

(١) مؤسس هذه الدولة هو من نسل احد قواد اورنك زيب المشهور الذى خلص سنة ١٧٢٤ من سلطة المغول وعاصمة مملكته حيدر آباد وهى انكليزية محضة جسيمة البقعة جميلة بين المدائن

(٢) عدد هذه الامارات عشرون امارة وهى ماعدا مملكة باهوبال وباهاوال لاشأن لها من حيث السياسة ودخلها ١٢٥ مليون فرنك

أمته ودينها فيملأ ذهنه بالتراكيب المبهمة والصلوات ولا سيما صلاة الغداة ومعناها « لنعبد النور السامى من هذه الشمس ربة كل موجود في الوجود التى تقود فكرنا كما تقود عين معلقة بقبة السموات »

أما التعليم الحديث فان رب الاسرة يدفعه عن أسرته مشمئزاً بقدر ما كان يشمئز لاوكون من هدايا اليونان ويرفضها ولذلك يعز على البراهمة أن يخونوا مبادئهم المقدسة وأكثر مايحذرونه من الامور التى يحملها اليهم الغرب المدرسة فان شيئاً خفياً فى فطرتهم يدعوهم فى السر : اياكم والمدرسة الانكليزية فهى عدوتكم

وعلى هذا حارت انكلترا فى سياسة التعليم التى تجرى عليها بين البراهمة لانها لا تستطيع ان تعلمهم التعليم الاوربي الا اذا أضرت بمعتقداتهم الدينية ومعتقدهم هو وطنيتهم وهى لاتريد أن يخرجوا عنها حتى ان انكلترا اضطرت سنة ١٨٤٠ ان تجيب مطالب ثلثمائة ألف رجل اجتمعوا فى سهل بنارس يقيمون الحجة على الرسوم التى تريد وضعها على البيوت وعزموا أن يهلكوا جوعاً أو تجيبهم الحكومة الى الغاء هذه الرسوم فاجابتهم مكرهة مخافة أن يحدث وباء فاذا عادت روح الاعتصاب وسرت في أعصاب مائتى مليون رجل لمقاومة سياسة التعليم ماذا تعمل بريطانيا ؟

ولم تر انكلترا أسلم لها من تلقين الهنود مبادئها بالتدريج على أن تعلمهم ماتعلمه أبناءها فى عاصمة الجزائر البريطانية وتشربهم حب الانكليزية على شرط أن لايحيدوا عن جادة الاخلاص لها ولا يسيئوا استعمال المفتاح الذي تسلمهم اياه ويستخدمونه لفتح الباب في ايذائها

والمسألة لاتخلو من اشكال أيضاً فيما يتعلق باهل الطبقة العالية من المسلمين فقد جاء فى احد التقارير عن الهند مانصه : « اذا صرفنا النظر عن الاسباب الاجتماعية والتاريخية فى الشعب الاسلامى فى الهند نرى لانحطاطهم أسباباً ذات شأن لها علاقة بتربيتهم التى تؤثر فى حياتهم . » فتعليم الجامع يجب عندهم أن

يكون سابقاً دروس المدرسة ولا يتيسر أخذ الطفل من المسلمين الا بعد أن يقضى بضع سنين فى مدرسة يتعلم فيها اللغة العربية والفقه الاسلامى ولكن تعليم المدرسة الدينية يقوده الى أن يختار الخدم الدينية مؤثراً لها على أربح المسالك والاعمال . وقد أيدت التجارب هذه الملاحظة اذ حدث انحب الوظائف العامة قد أثر قليلا فى المسلمين فى الهند وظلوا يقاومون التعلم الانكليزى كل المقاومة ولحسن طالعهم لم تعن الحكومة الانكليزية بان تجعل المسلمين أوربيين كما صرحت على جعل الهنود كذلك ورأت انكلترا ان تنقذ الطبقة العالية من الهنود من الاوهام القديمة لتستخدم منهم أناساً فى الادارة والقضاء والمالية وقد رأى لورد ماكولى سنة ١٨٣٥ على مافيه من العقل الذى أثر تأثيراً سيئاً فى الهند ان من الواجب تعليم اللغة الانكليزية فى مدرسة شبان الهنود من أرباب الطبقات المختلفة لترشح التربية الانكليزية من الاعلى الى الادنى وكان يقصد من ذلك ان يأخذ مايلزم للبلاد من الموظفين من أهل البلاد أنفسهم

وفى سنة ١٨٥٤ أنشأت انكلترا ديوان المعارف العمومية فعنيت بادخال اللغة الانكليزية الى مدارس بنغال وبنارس ونظمت مدارس الوطنيين مع محافظتها لها على صفاتها الخاصة وفي سنة ١٨٥٧ أثمرت البذرة التى وضعها لورد ماكولى فى تربة الهند فأسست ثلاث كليات فى كلكوتا وبومباى ومدراس على مثال الكليات الانكليزية فيها أنواع الراحة والرفاهية وتدرس فيها الدروس التقليدية وأنشئت فى حاضرة كل مقاطعة مدرسة عالية وفى المدن الصغرى مدارس وسطى ثم أنشئت كليات لاهور لاقليم بنجاب والله آباد لاقليم الشمال الغربى وساغ للمتخرجين من تلك الكليات أن يتدرجوا في المراتب مثل من تخرجوا من كليتى اكسفورد وكمبريج

فتخرج من تلك الكليات أناس من أرباب الذوق والادباء والمشرعين وقل فى المتخرجين العلماء اذ لاحظ السير هنرى مين ان عقل الهندى المستعد لقبول ماحلا وطاب من المعارف هو محروم ممايتصور من قياس مدقق للحقيقة فالهندى

يجيد التكلم والكتابة والتفكر الدقيق ولكنه متوسط الاستعداد للحساب والارقام وأصبحت الحكومة تبعث الى لندرا بارقى طبقة من متخرجى كليات الهند ليكونوا نموذجاً على اشتغالها وراموزاً لمن طبعتهم بطابعها فكانت تكرم وفادتهم فى لندراولم تعقهم ألوانهم السمراءوتناسب أعضائهم وعيونهم التى تقدح شرراً وقاماتهم القصيرة وحركاتهم المتناسقة وأمزجتهم الشديدة عن أن يستميلوا قلوب الناس اليهم ونالوا من الكرم البريطاني أنواع الرعاية والعناية وفتح الانجليز لهم أبواب دورهم الانيقة الشريفة كأن كل فرد منهم كان أميرا خطيرا وراجاً كبيرا فأخذوا بما شاهدوا وتكلنزوا على أجمل أسلوب وعاشوا عيش الوطنيين الانجليز وقدروا حق قدره كل مافي الوطنية من الاحترام والامن والشرف والاستقلال العالى .

فكانوا يتعاشرون ويتسامرون ويتعارفون فى المجالس الى من يخطبهن من الآنسات الفتانات الشقر البيض ويلعبون معهن أنواع الالعاب المألوفة والرياضات الانجليزية النافعة وكانوا في جميع أحوالهم مثال الظرف فى ألبستهم والترتيب فى قبعاتهم حتى اذا أتموا دور التمرين التى كان كل يوم منها ابتسامة للمستقبل وتشبعوا بهواء الغرب وتبطنوا أسرارفلسفة هربرت سبنسروشوبانهور ونيتشى وخفقت أفئدتهم بما علمت وتلبس شعورهم بالبدائع وحشيت عقولهم بخطب مجلس النواب الانكليزى - يركبون البحر عائدين الى بلادهم بلادالشمس والحرية يحملون أجمل ذكرى مما رأوه وفى صناديقهم وأصونتهم الاوراق المطيبة والزهرات الذابلة وقطع من الشريط وبعض الفساطين يؤبون والكبر آخذ منهم ويعود محيطهم البرهمى يتحيفهم ويرجعون الى سابق أوهامهم وأحقادهم علي الادارة الانكليزية التى لم تؤثر فيها كثرة تغذيهم بمبادىء أصحابها

ولقد شاعت اللغة الانكليزية بين أمراء الهند حتى صارت لهم بمثابة لغة الاسبرانتو فى الغرب يتكلم بها الهنود وهم من أجناس مختلفة وأصحاب لهجات متباينة فالمتكلمون باللغة السنسكريتية والبراكريتية والبالية والتيلنكا والبنغالية

والهندستانية والمالا كالية والتامولية وغيرها من لهجات الهند يحسنون الانكليزية كأهلها وهذا ماحدا انكلترا ان تضاعف مدارسها وكتاتيبها وكلياتها ثم رأت من الحكمة أن تعتمد على العنصر الاسلامى فاعظمت له مكانتـه وأقلت من مكانة العنصر البرهمى فزاد ذلك البراهمـة نفوراً وأخـذوا ينادون فى سرهم وجهرهم « الهنـد للهنديين » وأرادوا محاربة الانكليز حرباً اقتصادية فلم يكن من أبناء جنسهم أناس يكفون للظفر فى هـذه المعارك فلم يسعهم الا أن يلجؤا للاجانب فكان الألمان وهم الشعب الذى يحاول أن يخلف الانكليز فى كل مكان هم الذين مدوا أيديهـم للهنود وأصبح ماتخرجه هندهم من بالات القطن وصناديق الشاي وأكياس القهوة يسافر الى ميناء همبورغ بدل منشستر

ثم حدثت مشاغبات وفتن وقتل رجال الثورة بعض أعضاء الحكومة فلم يسع انكلترا الا أن تعطى الهند نظاماً جديداً مصبوغاً بالصبغة الديمقراطية أكثر من ذى قبل وأشركت الهنود فى سياسة بلادهم واستعملت انكلترا الرفق فيمن دعوا الى الثورة من رجال الصحافة والمحاماة وكان من تقربها من روسيا وتحالفها مع اليابان أكبر مفتر لهمم الهنود عن نزع أيديهم من يد حكومتهم أما المسلمون الذين رأت بريطانيا بعد حين ان تعتمد عليهم فقد تحركت نفوسهم وأدركوا قصورهم خصوصاً عند مارأوا اخوانهم شبان العثمانيين الأحرار الذين حرروا المملكة العثمانية من السلطة الاستبدادية كل هـذا ليصدق على سكان الهند ماقاله أحد المفكرين من رجال السياسة الانكليزية « سيبقى الشعب الهندى على الدوام شاهداً ناطقاً بالماضى غير ممسوس بيد الغرب الا مساً خفيفاً » ومحاولة تجديد شبابه هو من الغلط وقلة الخبرة اه .

هذا وصف لادارة حياة الممالك فى أكبر مستعمرة لاكبر دولة وقد كانت الهند مدة قرن ملك شركة تستثمرها بمراقبة [1] مكتب تعينه الحكومة ويقيم فى لندرا وبعد ثورة السيباى سـنة ١٨٥٧ انحلت الشركة وجعلت تحت ادارة

---

(١) الهند اليوم لالبرميتين Albert Métin : L'Inde d'aujourd'hui

الحكومة مباشرة . وأصبح مكتب المراقبة وزارة الهند التى مازالت تؤلف دائرة على حدتها غير وزارة المستعمرات . وسموا الهند أمبراطورية وجعلوا الملكة فيكتوريا ملكة انكلترا اذ ذاك أمبراطورتها وذلك سنة ١٨٧٧ وما زال ملك بريطانيا العظمى يقرن الى القابه لقب « أمبراطور الهند »

لم تعدل كما رأيت فى الفصل الذى سلف الادارة الانكليزية الابطاء شديد والتبديل الذى وقع حتى الآن فى الاصول القديمة لم تغير من طبيعته فان الشركة الانكليزية أتمت عمل الادارة المغولية وما ادارة الهند كما قال أحد رجال انكلترا الا أشبه بادارة والد مستبد يملك فى الجملة جميع الأرض ويرى من واجبه أن يقوم بواجب أعمال صاحب ملك غنى وذكى . وفى الهند اليوم مائة ألف جندى وضابط وموظف من الانكليز يقبضون رواتب مهمة ويقضى على رجال الادارة ان يحسنوا اللغة الوطنية لأن الترجمان لا يعبر عن فكر المترجم عنه وله وقد يرتكب الغلط عن قصد فيبؤ الاوربى بتبعة ذلك أمام المرؤوس أو المتقاضى والهنود يجدون من رجال الادارة عدلا وفضل شرف فيما قيل . وعمال الهند من الانكليز موسع عليهم فى المشاهرات فيبدأ أحدهم براتب ثمانية أو عشرة آلاف فرنك فى السنة ثم يزيد بسرعة حتى ان من يصل الى مرتبة راقية فى الجملة يتقاعد فى سن الخامسة والاربعين وينال راتباً سنوياً قدره ألف جنيه ويعود الى انكلترا مستريحاً ويقبض نائب ملك الهند ٤٣٠ ألف فرنك مسانهة . ورواتب الموظفين فى المستعمرات الانكليزية باهظة خلافاً لسائر الامم فى مستعمراتها التى تتوخى الاقتصاد فلا يدخل فى خدمتها الكفاة من أهل الطبقات المختارة .

ويعيش ضباط الانكليز وعمالهم فى الهند فى عزلة عن الوطنيين لا يختلطون بهم ولا يساكنونهم ولا يقبلونهم فى أنديتهم . وبعض الفنادق تقفل فى وجوه الوطنيين حتى المتخرجين فى الجامعات الانكليزية منهم ويحظر على الدارسين من الوطنيين فى محطات السكك الحديدية أن يدخلوا غرفة الانتظار بل هى خاصة بالانكليز والاوربيين . ولكثير من شركات الخطوط الحديدية مركبات خاصة

بالبيض وأخرى مقصورة على غيرهم من الوطنيين . والتميز بين الغربي والشرقي ماثل هناك للعيان في كل حال وشأن . ونسبة الوطنى الى الاوربي فى الهند كنسبة الخادم الى سيده والعامل الصغير الى مديره . وصغار الموظفين من الهنود لا يلقون آمريهم الا في حالة من الخضوع كأن يغضوا من أبصارهم ويضعوا أيديهم على صدورهم . قال ميتين : ان كل من ذهب من الهنود الى أوربا أو نظر فى الاخلاق الغربية يتألم من القسوة البريطانية ويثنى على سهولة الاستقبال التى يجدها المرء فى قارة أوربا . ولقد لقينا في رحلتنا محاميا شاباً مسلماً كان يتأسف على ألمانيا ويقول ان الالمان أكثر الأمم بشاشة وجذلا فلا نكاد تصل الى حانة الجعة فى بلادهم حتى يوجهوا اليك الخطاب ويضعوا لك الأسئلة ويجيبوك على أسئلتك .

ولا يقبل فى المجتمعات الانكليزية من الوطنيين الامن بلغوا درجة عالية من الشرف والغنى كالأمراء والاقيال مثلا وأبناء الرسول وكبار تجار المدن الكبرى وقليل من كبار الموظفين الهنود وذلك فى مجتمعات من يفوقونهم فى درجاتهم وقد تشاهد بعض أغنياء من التجار فى الردهات الانكليزية وذلك فى المدن التى اختلط أهلها منذ القديم مع الغربيين مثل بومباى ومادراس وكلكوتا . بيدان تقزز الانجليز من الداخلين عليهم ظاهر علي أتمه فلا يكون الوطنيون الا بمعزل ويحظر علي الانجليزى أن يتزوج بهندية ومن يفعل ذلك يقضى عليه ان كان موظفاً أن يستقيل أو يقال . والتسرى مع الوطنيات نادر مكتوم فى بعض المدن .

اليك جملة حال الهنود مع مستعمريهم وليس استعمار الانجليز حسنات كله ولا سيئات كله ففيه الجيد وفيه دون ذلك . ومن المحقق الثابت ان الهند ارتقت ارتقاء محسوساً فى عهد حكومتهم شأن معظم مستعمراتهم ونشروا لغتهم بينهم مع الزمن الطويل ولكن كل وطنى من الهنود لا يروقه الا أن يرى بلاده مستقلة عن كل سلطة أجنبية .

*

الاندلس

صدر الكلام ومصادره

٨٨

زرت [1] فى الشتاء الماضى (١٣٤٠ — ١٩٢٢) بعض أمهات مدن الاندلس فأرادنى غير واحد من الاحباب على أن أحدثهم بطرف مما شاهدت فى ربوعها من بقايا حضارة العرب ، فأجبتهم الى رغبتهم ، شاكراً حسن ظنهم ، وقد رأيت أن أشفع مشاهداتى ، بشيء من مطالعاتى ، عن هذا القطر ليتعرف القارئ من الغابر . وجه الحاضر ، ويقيس فى الجملة ما كان هناك فى عهد أمتنا ، على ما هو كائن اليوم فى عهد غيرهم ، أذكر ما أثره العرب فى تلك القاصية من حضارة ، وأثلوه من مجد خالد على جبين الدهر ، والسبب الذى به ارتفعت الأندلس حتى عدت أرقى مملكة فى عهد شبابها ، والاعراض التى عرضت لها . فهرمت فزال سلطانها ، وتداعى عمرانها ، وابذعر سكانها ، وربما نفعت فى الاخلاف . سيرة الاسلاف ، خصوصاً فى أرض لم يكتفوا بأن فتحوها ، بل عمروها وتدبروها ، وحكموها واحكموها ، ومدارسة حياة الأجداد ، تربي أخلاق الابناء والاحفاد ، يصيبون فيها حكمة بالغة ، وموعظة حسنة ، والتاريخ يلقن الفكر الجديد ، وينير الطريف بالتليد ، والله وارث الأرض ومن عليها .

وهاك ما رجعت اليه من الكتب والرسائل فى تأليف الفصول التالية ، ومنه تعالى أستمد المعونة ومن الراسخين فى العلم تصحيح ماعساهم يعثرون عليه من الهفوات .

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى « طبع بيروت » (٢) نفح الطيب للمقرى

(١) نشرت اولاً فى المجلد الثانى من مجلة المجمع العلمي العربى

« مصر » (٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي « ليدن » (٤) قلائد العقيان للفتح بن خاقان « مصر » (٥) مطمح الانفس له « الاستانة » (٦) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى « ليدن » (٧) الاحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب « مصر » (٨) رقم الحلل له « تونس » (٩) الحلل الموشية له « تونس » (١٠) معيار الاختيار فى ذكر المعاهـد والديار له أيضاً « فاس » (١١) طوق الحمامة فى الألفة والالاف لأبى على بن حزم الأندلسى « ليدن » (١٢) الذخـيرة فى شعراء الجزيرة لابن بسام « مخطوط » (١٣) أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر « مونيخ » (١٤) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى « مصر » (١٥) المسالك والممالك لابن حوقل « ليدن » (١٦) أحسن التقاسيم للمقدسى « ليدن » (١٧) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبى « ليدن » (١٨) تقويم البلدان لأبى الفدا « باريز » (١٩) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم « مجريط » (٢٠) الجزء الثانى والعشرون من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى وفيه أخبار ملوك الأندلس من العلويين والأمويين ومن ملك بعد بنى أمية الى حين انقراض الدولة العبادية «غرناطة » (٢١) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية «الجزائر» (٢٢) كتاب محمد بن تومرت مهدى الموحدين « الجزائر » (٢٣) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المئة السابعة ببجاية للغبريني « الجزائر » (٢٤) المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس لابن أبى دينار « تونس » (٢٥) ديوان ابن حمديس الصقلى السرقوسى « رومية » (٢٦) النجوم الزاهرة لابن تغري بردى « ليدن » (٢٧) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق « ليـدن » (٢٨) تاريخ المسعودي « باريز » (٢٩) تاريخ الـكامل لابن الأثير « مصر » (٣٠) تاريخ ابن خـلدون « مصر » (٣١) الحلة السيراء لابن الابار « ليدن » (٣٢) كـتاب القضاة بقرطبة للخشنى « مجريط » (٣٣) تـكملة التكملة لابن الابار « مجريط » (٣٤) التـكملة لـكتاب الصلة لابن الابار « الجزائر » (٣٥) صبح الأعشى للقلقشندى « مصر »

(٣٦) معجم البلدان لياقوت الحموى « ليبسيك » (٣٧) المكتبة العربية الاندلسية
وفيها ستة كتب وهى الصلة لابن بشكوال ، وبغية الملتمس لابن عميرة الضبى
والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن الابار وتاريخ علماء الأندلس
لابن الفرضى وفهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب
العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموى الاشبيلى نشرها المستشرقان
الاسبانيان كوديرا وريبرا «مجريط» F. Codera et J. Ribera : Bibliotheca
(٣٨) المكتبة العربية الصقلية لميشيل Arabico - Hispana (Madrid)
آمارى « ليبسيك » M. Amari : Bibliotheca arabo - sicula (Leipzig)
(٣٩) محاضرة ابن زيدون لأحمد زكى باشا نشرت فى السنة الثانية من مجلة البيان
« مصر » (٤٠) السفر الى المؤتمر لاحمد زكى باشا أيضاً « مصر » (٤١) قصيدة
ابن عبدون وشرحها لابن بدرون « ليدن » (٤٢) رسالة ابن زيدون وشرحها
للصفدى (٤٣) ترجمة ابن عباد « ليدن » (٤٤) ترجمة ابن زيدون « ليدن »
(٤٥) ترجمة ابن عبدون وملوك بنى الأفطس « ليدن » (٤٦) قاموس الاعلام
لشمس الدين سامى « تركى طبع الاستانة » (٤٧) مجلة المقتطف (٤٨) مجلة المقتبس
« مصر والشام » (٤٩) دائرة المعارف الاسلامية « ليدن » Encyclopédie
de l' Islam, Leyde (٥٠) تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزى « باريز » : Dozy
(٥١) التاريخ العام للأفيس Histoire des Musulmans d' Espagne, Paris
ورامبو «باريز» Lauisse et Rambaud : Histoire générale, Paris
(٥٢) تاريخ العرب والمغاربة فى اسبانيا والبرتقال لكونده «باريز» : J. Conde
Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne
et en Portugal, Paris (٥٣) تاريخ العرب العام لسيديليو « باريز » :
Sedillot : Histoire générale des Arabes, Paris (٥٤) تاريخ العرب
هوار « باريز » C. Huart : Histoire des Arabes. Paris (٥٥) عجالة فى تحليل
نفوس الشعوب الأوربية لفوليه « باريز » Fouillée : Essai d'une psy -
chologie des peuples européens. Paris (٥٦) المخطوطات العربية

في الاسكوريال لهارتويغ دارنبورغ (باريز) Hartiwig Derenbourg : Les
manuscrits arabes de l' Escurial, Paris (٥٧) الصنائع فى اسـبانيا
لكوميز مورينو «مجريط» Gòmez-Moreno:El arte en Espana«Madrid»
(٥٨) الـكتابات العربية فى غرناطة لاميليو لافوانتى أي الـكنترارا « مجريط »
Emilio Lafuente y alcàntrara : Inscriptiones arabes de Grenada
«Madrid» (٥٩) دليل اسبانيا والبرتقال لبيدكر « ليبسيك » Baedeker :
Espagne et Portugal, Leipzig (٦٠) بحث وصفى لمصانع العرب تأليف
رافائيل كونترووراس «مجريط» Raphaël Contreras : Etudes descriptives
des monuments arabes. Madrid (٦١) تاريخ الأديان العام لسلومون ريناخ
« باريز » Salomon Reinach: Histoire générale des religions. Paris
(٦٢) اسبانيا فى القرن العشرين لمارفو « باريز » Marvaud : L' Espagne au
XXe siècle.Paris (٦٣) الاسبانيون والبرتقاليون فى بلادهم لـكيلاردى «باريز»
Quillardet : Espagnols et Portugais chez eux. Paris (٦٤) اسبانيا
والبرتقال مصورتان « باريز » L' Espagne et le Portugal illustrés. Paris
(٦٥) دائرة المعارف الافرنسية الـكبرى « باريز » La grande encyclopédie
française, Paris (٦٦) معجم لاروس المصور «باريز» Nouveau Larousse
illustré, Paris (٦٧) بحث فى حياة ابن زيدون لاوغست كور « الجزائر »
Auguste Cour : Ibn Zaidoûn, Alger (٦٨) تعليم اللغة العربية فى اسبانيا
لميكائيل آسين بلاسيوس « الجزائر » M. Asin Palacios : l'enseignement
de l'arabe en Espagne. Alger (٦٩) معجم الـكل فى واحد أو موسوعات
العلوم البشرية Tout en un:Encyclopédie des connaissances humaines
(٧٠) دستور فى الصنائع الاسلامية لسالادين وميجون Saladin et Migeon :
Manuel d'art musulman (٧١) معجم الالفاظ الاسبانية والبرتقالية المشتقة
من العربية لانجلمان «ليدن» Engelmann : Glossaire des mots espagnols
et portugais dérivés de l'Arabe. Leyde (٧٢) معجم الالفاظ الاسبانية

العربية لريتوانجن «مادريد» Rittwagen : De Filologia Hispano Arabica « Madrid »

تحية الاندلس

٨٩

عشقتها ولم تسعدني الايام بامتاع النظر فى جمالها ، واستطلعت طلع أخبارها ؛ فروى الرواة عنها عجائب اقلها مما يستهوى النفوس المتمردة ، ويأخذ بمجامع القلوب الجافة العاصية . تفردت بين بنات جيلها بما خصت به من معانى الحسن والاحسان ، فكثر الخطاب والطلاب . وهى لا تفتأ تبدى لمن أمّ حماها صنوفاً من اللطف والظرف . وتخاطب البعيد والقريب بثغر باسم ، وترشقهم بنظرات ، لا تخلو من غمزات ، تريد بها الهزوء بنكبات الزمان ، والاستخفاف بسخافة الانسان .

عشقتها منذ عهد الصبا ، وعشق الصبا شديد ، لما قرأته الباصرة من وصف سجاياها وحملته الى البصيرة ففكرت فيه ، وتدبرت خوافيه وحواشيه . وزادنى غراماً بها ما سمعت من أن أناساً قبلى أصيبوا بما أصبت به . وعدوا النزول فى حماها ولو ساعة سعادة العمر ، وحسنة الدهر : العشق فنون وعشقى كان لأرض الاندلس عليها من كل عربى ألف ألف سلام ، على مر العصور والأيام .

عشقتها لكثرة ماتلوت من آثار من درجوا على أديمها من أبنائها وغير أبنائها ، وكانت المخيلة تتصورها فى مظاهر صح بعضها يوم اللقاء ، وآخر كان بالطبع كالخيال ؛ فى الاندلس تم نحو نصف مدنية العرب الباهرة ، وقضوا فى أرجائها نحو ثمانية قرون كانت بجملتها وتفصيلها عهد السعادة والغبطة ، ودور ظهور النوابغ وأرباب الابداع والقرائح ، وكم من أمة من أمم الحضارة الحديثة على كثرة ماقتبست وأوجدت ، لم يتيسر لها حتى يوم الناس هذا ان تبلغ مكانة الاندلس ، فكان هذا الصقع فى منقطع أرض المغرب ، وآخر أرض العرب ، بين البحرين المحيط والمتوسط برهاناً أزلياً على فرط استعداد العرب للعلوم والصناعات ، وناعياً على من أنكروا لافراطهم فى الشعوبية فضل هذه الأمة على الحضارة .

أقام الغربيون ضروبا من المصانع من بيع وأديار ومتاحف ومكاتب ومدارس وجسور وسدود وطرق ومعابر وتماثيل ونصب وبرك ؛ لكنهم لم يصنعوا على كثرة تفننهم فى هذا الشأن ، منذ عهد اليونان والرومان ، طرزا من البناء يكلمك ولا لسان له فيقول . وينظر اليك فيعمل فى شغاف قلبك ولا عين له فتنظر ؛ ويطربك بتساوق نغماته من دون ماصناجة ولا وتر ولا ألحان . مصانع كثيرة بقيت بقاياها فى طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة سلبتها الفتن والجهل تارة شطراً من بهائها ، وسالمتها حيناً فابقت عليها ؛ أو رممت شيئاً مما أضرت به عوامل الايام وان لم تعد اليها نضرتها الأولى .

سلام على أرض طيبة خصها الخالق بأجمل الهبات الطبيعية الطيبة ، فلم ينقصها زكاء تربة فى نجادها ووهادها ، ولا مياهاً عذبة دافقة من هضابها على شعابها ؛ ولا أشجارا باسقة وزروعا خصبة فى سهلها ووعرها ؛ ولا اعتدال مواسم وجمال اقليم ، ومصحة أبدان زانها الصانع السماوى بايجاده كما زانها الصانع الأرضى بابداعه ، وما أجمل الطبيعى والصناعى ، اذا تواعدا الى الاجتماع فى خير البقاع .

ليالى الأنس . فى جزيرة الاندلس ، وأيامها الغر ، فى سالف الدهر ؛ فيك قامت سوق الآداب . بما ارتفعت به رؤوس العرب على غابر الاحقاب ؛ وكمل فى ربوعك الذوق العربى حتى ظن بعضهم انك نسيت كل شيء ماعدا الأدب ؛ وما هذه الآثار الأبدية الاثرة عاملك وصناعاتك وزراعاتك : سلام على أرواح علمائك وفلاسفتك ونوابغك وأدبائك وأمرائك ما كان أرجح أحلامهم ؛ يوم سنوا للعرب سنة الأخذ من السعادتين ، وشرعوا لهم شرعة المدنية المثلى ؛ حملوا فأجملوا من الشرق الى الغرب تعاليم فى الدين والدنيا كانت صفوة العقول الى عهدهم فادهشوا من عاصرهم ، وخلفهم من الاجيال ؛ ونسجوا لهم على غير مثال نسيجاً رقيقاً ، كتبوا لهم فيه سجلا رقت حواشيه ؛ ونظاماً متقناً فى حكم الانسان للانسان ، يطبع فى تاليه اذا تدبره ، طبيعة حسن الذوق والطبع ؛ وينشئه على أرق مثال من الخيال فى الكمال والجمال . مثال حي من حضارة العرب فى القارة

الأوربية عامة . وفى شبه جزيرة اسبانيا خاصة ؛ يفتخر به العرب على اختلاف أصقاعهم وحق لهم الفخر ؛ لأن الأندلس العربيـة الاسلامية كانت وما زالت مدرسة الغرب المسيحى ؛ نزل طلابه فى قرونهم المظلمة على علماء العرب فأوسعوهم من مكارم أخلاقهم ، وأكرموا مثواهم بما علموهم ، وما أسخى العربي على طالب قراه ، والمعتصم بحماه ، فلما جاء دور الانحطاط ، وازف رحيل ذاك الرعيل ، من أرض كان الغرب كله يعدهم فيها أثقل دخيل ؛ أبقوا لهم تلك المصانع ناطقة بفضلهم معاملة لهـم معانى ليست فى معاجم نفائسهم ، ومكذبة على غابر الأيام من ينكر المحسوس ؛ ويغمط الحق لصاحبه ، ويستهويه الغرض ، فيشوه وجه الحق الجميل .

الى اليوم لم يزل فى الغربيين أناس يصعب عليهـم الاعتراف بمزية للعرب بباعث من بواعث النفوس اللئيمة ؛ فلا يكادون يصدقون حتى بما ورد عن هذه الأمـة فى كتبهم دع كتبها من أعمال هـذه الحضارة الغريبة ، وما ذاك الأثر الضئيل الباقي من عاديات الاندلس العربية . الا برهان جلى على ما كان هناك من عدل شامل ، وعقل كامل ؛ ونظر نافذ ، ويد صناع ؛ أربت على ما عمل من مثلها في سائر البقاع والاصقاع

تقويم الاندلس

٩٠

أخذت العرب اسم الاندلس من اسم سكانها الأصليين الفانداليس Vandales فقالوا فاندالسـيا أو فاندالوزيا Vandalitia أو Vandalusia وأطلقوا عليها اسم الجزيرة من باب التغليب فقالوا جزيرة الاندلس كما قالوا جزيرة العرب وما هى فى الحقيقة الا شبه جزيرة لاتصالها من أقصى الشمال بجبال البيرنات أو الثنايا كما كان يعرفها العرب ، قدروا القسم الجنوبي من شبه جزيرة فانداليس أو أبيريا

أو اسبانيا بمسيرة ثلاثين يوماً طولا وزهاء عشرين يوماً عرضاً يحدها البحر من أطرافها الأربعة الا من الشمال الشرقي . وميزان وصف الاندلس كما قال ابن سعيد: انها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جانب .

والاندلس في عرف أهلها اليوم عبارة عن ثماني ولايات ولاية المرية وولاية قادش وولاية قرطبة وولاية غرناطة وولاية حولفا ؛ وولاية جيان وولاية مالقة وولاية أشبيلية ومساحتها السطحية ٨٦٦٨٧ كيلو متراً مربعاً وسكانها زهاء أربعة ملايين فهي نحو خمس اسبانيا الحالية بسكانها ونحو سدسها بمساحتها السطحية . هذا ما يطلق عليه اليوم اسم الاندلس بيد ان حكم العرب تجاوز ذلك الى برشلونة وما وراءها من الشرق والى لشبونة وما جاورها في الغرب ولم يبق في أيدي الاسبانيين والبرتقاليين من هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها زهاء نصف مليون وأربعة آلاف كيلومتر مربع سوى أراض مصخرة ضئيلة من الشمال تعرف ببلاد الجلالقة وآستوريا .

فالعرب لم يملكوا اذاً الجزيرة باسرها حين افتتحوها وانما ملكوا معظمها ولذلك لا تعرف مساحة الاندلس العربيـــة على التحقيق ويقول المسعودى ان ان مسيرة عمائر الاندلس ومدنه نحو من شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة وقال غيره ان في أرض الاندلس العامر والغامر فكانت من ثم مساحة الاندلس تختلف بحسب تغلب العرب على أعدائهم أو تغلب أعدائهم عليهم وكم من الاقاليم والمدن في الشمال والغرب والشرق دخلت مرات في حكم العرب ثم خرجت عنهم فقد كان عملها لعبد الرحمن بن معاوية في القرن الثاني ثلاثمائة فرسخ في ثمانين ثم صغرت في القرن الثامن حتى أصبحت — كما وصفها العمرى — كمفحص القطاة ضيقاً ، ومدرج النمل طريقاً .

لا جرم أن مقام العرب في الانداس كان غير طبيعي لمجاورتها لأمم قوية الشكيمة مخالفة لها في الجنس واللسان والدين حتى ان عمر بن عبد العزيز لما ولى السمح بن ملك عليها أمره أن يكتب اليه بصفتها وأنهارها وكان رأيه انتقال أهلها

منها لانقطاعهم عن المسلمين قال المؤرخ وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .

وصف المراكشى ما كان فى أيدي الاسبان والبرتقال من أرض الاندلس سنة ٦٢١ هـ فقال أول المدن فى الحد الجنوبي الشرقى على ساحل البحر الرومى مدينة برشنونة (برشلونة) ثم مدينة طركونة ثم مدينة طرطوشة والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وافراغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها صاحب برشنونة وهى الجهة التى تسمى ارغن . وفى الحد المتوسط مابين الجنوب والغرب مدينة طليطلة وكونكة واقليج وطلبيرة ومكادة ومشريط (مجريط ؟) وويذ وايلة وشقوبية هذه كلها يملكها الادفنش وتسمى هذه الجهة قشتال . وتجاور هـذه المملكة فيما يميل الى الشمال قليلا مدن كثيرة أيضاً وهى سمورة وشلمنكة والسبطاط وقلهرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالببوج وتسمى هذه الجهة ليون . وفى الحد المغربى الذى هو ساحل البحر الأعظم اقيانس مدن أيضاً منها مدينة الاشبونة وشنترين وباجة وشنترة وشنتياقو ويابرة ومدن كثيرة يملكها رجل يعرف بابن الريق ووراء هذه المدن مما يلى بلاد الروم مدن كثيرة ثم ذكر مايملكه المسلمون لعهده من الاندلس فاورد حصن بنشكلة وطرطوشة وبلنسية وشاطبة وجزيرة الشقر ودانية ومرسية وغرناطة وحصون لرقة وبلش وقلية وبسطة ووادى آش والمرية وحصن منكب ومالقة والجزيرة الخضراء .

وقوّم القلقشندى الاندلس فى المئة الثامنة فقال ان الاندلس أقامت بأيدى المسلمين الى رأس الثمانمائة سنة من الهجرة ولم يبق منها بيد المسلمين الا غرناطة وما معها من شرق الاندلس عرض ثلاثة أيام فى طول عشرة أيام وباقى الجزيرة على سعتها بيد نصارى الفرنج وان المستولى على ذلك منهم أربعة ملوك الأول صاحب طليطلة وما معها ولقبه الادفونش سمة على كل من ملك منهم وعامة المغاربة يسمونه الفنس وله مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل على طليطلة وقشتالة واشبيلية وبلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية وسائر أعمالها . الثانى صاحب لشبونة

وما معها وتسمى البرتقال ومملكته صغيرة واقعة فى الجانب الغربى وهى تشتمل على لشبونة وغرب الاندلس. الثالث صاحب برشلونة وارغن وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة . الرابع بيرة وهى بين عمالات قشتالة وعمالات برشلونة وقاعدته مدينة ينبلونه ويقال لملكها ملك البشكنس .

هـذا فى الجملة تقويم الاندلس فى القديم وكلما توغلت فى سمت الشمال صعب المرور لكثرة الجبال وترامى المسافات وهى اليوم فى الخطوط الحديدية سهلة فى الجملة فاذا جئت من مدينة باريز وهو الطريق الذي سلكناه تصل الى مجريط فى ست وعشرين ساعة وهى ١٤٥٥ كيلومتراً ومن مجريط الى قرطبة ٤٤٢ كيلومتراً ومن قرطبة الى اشبيلية ١٣١ كيلومتراً ومن غرناطة الى جبل طارق ٣٠١ كيلومتر ويتأتى اختصار هذه المسافات اذا كانت القطر تقصد الى البلد مباشرة بدون تنقل أو تعاريج ولكن تقل فيها الخطوط المستقيمة والقاطرات .

فتح الاندلس

٩٠

لما فتح موسى بن نصير مولى بنى أميـة أفريقيـة وما حولها أى تونس وما وراءها سنة ثمان وسـبعين للهجرة وبلغ طنجة سار يريد مدائن على شط البحر وفيها عمال صاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى ماحولها . وكان يليان أحد ملوك الاندلس لموجدة وجدها على بعض الملوك من قومه فى تلك البلاد بعث بالطاعة لموسى ، وأقبل به حتى أدخله المدائن بعد أن اعتقد لنفسه ولاصحابه عهداً رضيه ، واطمأن اليه ، ثم وصف له الاندلس ودعاه اليها فبعث رجلا من مواليـه يقال له طريف فى أربعمائة رجـل ومعهم مائة فارس فسار فى أربعة مراكب حتى نزل جزيرة سميت به لنزوله فيها ، وكانت هذه الجزيرة معبر مراكبهم ودار صناعتهم ،

فاغار على الجزيرة فأصاب شيئاً ورجع سالماً وذلك سنة احدى وتسعين . ثم دعا موسى مولي له يقال له طارق بن زياد فبعثه فى سبعة آلاف من المسلمين ، جلهم من البربر والموالى ليس فيهم عرب الا قليـل ، فدخل فى تلك السفن الاربع فى سنة اثنتين وتسعين وأخذت السفن الأربع تختلف بالرجال والخيل وضمهم الى جبل على شط البحر منيع فنزله وسمى به جبل طارق والمراكب تختلف حتى توافى جميع أصحابه .

ولما بلغت ملك الاندلس رذريق صاحب طليطلة غارة طريف على الاندلس جمع جموعه قيل مائة ألف أو شبه ذلك فبعث موسى على سفن كثيرة ، كان عملها بخمسة آلاف مقاتل فتوافى المسلمون بالاندلس عند طارق اثنى عشر ألفاً ومعهم يليان فى جماعة من أهـل البلد يدلهـم على العورات ، ويتجسس لهم الأخبار ، فالتقى رذريق صاحب طليطلة وطارق بن زياد بموضع يقال له البحيرة فانهزم رذريق ثم مضى طارق الى مضيق الجزيرة فمدينة استجة ، وحارب فلّ العسكر الأعظم وهزمه ثم ورد طارق عيناً من مدينة استجة على نهرها على أربعة أميال فسميت العين عين طارق ، وفرق جيشه فأرسل فرقة الى قرطبة ، وأخرى الى رية ، وثالثة الى غرناطة ، وسار هو فى عظم الناس يريد طليطلة . ففتحت كلها وكذلك مدينة تدمير ، وأسر أحد ملوك الاندلس ومنهم من اعتقد على نفسه اماناً ، ومنهم من هرب الى جليقية فى الشمال ، ثم سار طارق حتى بلغ طليطلة ، وخلى بها رجالا من أصحابه ، فسلك الى وادى الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق.

وفى سنة ثلث وتسعين دخل موسى بن نصير فى ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر وقد بلغه ماصنعه طارق بن زياد فحسده وخشى أن ينال شرف الفتح دونه أمام الخليفة من بنى أميـة . فلم يلبث ان فتح من المدن مالم يفتحه طارق مولاه فافتتح مدينة شذونة وقرمونة واشبيلية وحاصر هـذه أشهراً فهرب أهلها الى مدينة باجة فمضى موسى الى مدينـة ماردة وقاتلهم عليها أشهراً فصالحه أهلها على أن جميع أموال القتلى وأموال الهاربين الى جليقية للمسلمين

وأموال الكنائس وحليها له ثم افتتح سرقسطة ومدائنها .

ذكروا أن المسلمين انتهوا الى مدينة لوطون قاعدة الافرنج . ولم يبق لاهل الاسلام شيء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك الا جبال قرقوشة وجبال بنبلونة وصخرة جليقية ، فاما الصخرة فلم يبق فيها مع ملك جليقية الا ثلثمائة رجل تلفوا بالموت والجوع والحصار فلما لم يبق منهم الا ثلثمائة رجل ورأى ذلك المرتبون على حصارهم استقلوهم فتركوهم فلم يزالوا يزدادون حتى كانوا سبب اخراج المسلمين من جليقية وهي قشتيلية .

هذه زبدة مما قاله المؤرخون في فتح الاندلس ولا شك أن قرب سواحلها من شواطيء أفريقية قد ساعد العرب كثيراً على هذا الفتح فان المجاز أو الزقاق كما كان يسميه العرب بين البرين بر العدوة [1] وبر الاندلس قريب جداً يسهل معه نقل الدخائر والجيش من أفريقية وذلك لأن الزقاق في موضع يعرف بجزيرة طريف من بر الاندلس يقابل قصر مصمودة بازاء سلاقي الغرب الاقصى وعرضه اثنا عشر ميلا ومن الجزيرة الخضراء في الاندلس الى مدينة سبتة ثمانية عشر ميلا . والباخرة تقطع المسافة اليوم من الجزيرة الخضراء أو جبل طارق الى طنجة فرضة الغرب الأقصى في نحو ثلاث ساعات .

وأنت ترى ان معدات الفتح عند العرب كانت قليلة ومع هذا استصفوا الاندلس في مدة وجيزة ، وذلك لأن الاختلاط القديم المستحكم للجوار بين أهل الاندلس وبين أهل شمالي أفريقيــة وتغلب الاندلسيين أحياناً على بلاد البربر أي الغرب الأقصى والأوسط ، قد هيأ لسكان البــلاد بل لقوادها وحكامها من العرب أن يعرفوا معالم الاندلس ومجاهلها ، ويقفوا على مواطن الضعف من حكوماتها ،

---

(١) العدوة بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدوة على ما سامت الاندلس من شمالي افريقية وبعد عن بلادهم ويعنون بالعدوة المغرب الاقصى والاوسط والادنى أي مراكش والجزائر وتونس . وقال صاحب التاج وبر العدوة بالاندلس واليه نسب شهاب الدين بن ادريس العدوى عن قاسم بن اصبغ قيده الرشاطي . ولعل العدوة هذه بلدة من بلاد الاندلس ليست مشهورة والمشهورة ان العدوة كما قلنا وأيده علماء الجغرافيا من العرب .

فقد جاؤوها والاختلاف بين ملوكها على أشده والبلاد قد جاعت قبل مجيئهم ثلاث سنين (من سنة ثمان وثمانين الى سنة تسعين) ثم وبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر. واذا صح ان الملك الاعظم فى طليطلة جيش على العرب مئة ألف مقاتل وهو مستبعد فان جيش موسى بن نصير البالغ اثنى عشر ألفاً قد تغلب عليه لا بعدده بل بما للعرب من الاضطلاع بأمور الحرب هذا وأهل البلاد كانوا فى الجملة يريدون الخلاص مما هم فيه من سوء الحال ولا سيما اليهود فانهم كانوا قبل بضع سنين قد ذاقوا الامرين من حكوماتهم ومواطنيهم المسيحيين فلما جاء العرب الفاتحون كانو أدلاءهم وأكبر ردء لهم لعلمهم بأنه ينفس خناقهم بالفاتحين. وكان المسلمون كلما دخلوا بلداً جعلوا نصف حاميته من اليهود والنصف الآخر منهم. ثقة فى ابناء اسرائيل وضعها المسلمون فيهم مدة كونهم فى الاندلس.

تولى البلاد المفتوحة عمال الدولة الاموية فى الشرق وتعاقب عليها قوادهم ومواليهم منذ سنة ٩٢ هـ وخطب باسم خلفائهم على منابرها ثم خطب مدة قليلة للعباسين [1] بعد سقوط دولة الأمويين بالمشرق حتى اذا كانت سنة ١٣٨ جاء من الشرق هارباً عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المسمى بالداخل فتغلب بواسطة جماعة من أهل بيته وموالى آل مروان وبما له من العصبية فى قبائل زناتة أخواله. وكانت والدته منهم حتى استولى على الأندلس، وبذل أهلها له الطاعة. فأصلح من شأنها ورفع أبناؤه وأحفاده من بعده شأن خلافتهم هنالك وأجمعت القلوب على حبهم وقل المنتقضون على ملكهم المتوثبون على

(١) دعا عبد الرحمن بن معاوية لنفسه عند استفلاظ امره واستيلائه على دار الامارة قرطبة ويقال انه اقام اشهراً دون السنة يدعو لابى جعفر المنصور متقيلاً فى ذلك يوسف الفهرى الوالى قبله الى ان افرد نفسه بالدعاء. ويقال ان عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم اشار عليه بذلك عند خلوصه اليه فقبله الا انه لم يعد اسم الامارة وسلك الامراء من ولده سنته فى ذلك الى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فهو الذى تسمى بالخلافة بعد سنين من سلطانه ودعى بامير المؤمنين لما استفحل امره واستبان له ضعف ولد العباس وانتشار سلطانهم بالمشرق وذلك فى آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن احمد المتضد منهم ذكر ذلك ابو مراون ابن حيان مؤرخ الاندلس.

سلطانهم ، ولقد أنصف المنصور العباسى عند مالقب عبد الرحمن الأموى بصقر قريش لانه « عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياًمفرداً . فمصرالأمصار وجند الاجناد ، ودون الدواوين ، وأقام سلطاناً بعـد انقطاعه . بحسن تدبيره وشدة شكيمته »

انقرض ملك بنى مروان من الاندلس سنة ٤٠٧ هـ على رأس مائتى سنة وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوماً بعدان جمعوا الشمل ، ورأبوا الصدع . وأحيوا المعالم ونشروا العـدل ، وخـدموا الحضارة . وكانت أيامهم اعراساً وأفراحاً ، فتفرق الملك بايدى ملوك الطوائف فكان « كل ملك لما بيـده فضبط اشراف العمالات أزمة أمورهم . وركبوا ظهور غرورهم ، وتنافسوا فى انتحال الالقاب السلطانية فأتوا من ذلك بكل شنيعة » الى ان قام رأس المرابطين وأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين اللمتونى صاحب المغرب الأقصى وأعاد للبلاد مع ابنه على بن يوسف سالف نضارتها ، ودعا للخلافة العباسية على منابر الاندلس ولم تزل الدعوة للعباسيين وذكر خلفائها على سائر الاندلس والمغرب الى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصادمة فى بلاد السوس .

تنفس خناق البـلاد بالقوة الجديدة التى جاءت بها دولة المرابطين لشد ازر المسلمين فى الاندلس . كما عادت اليهم بعض القوة على عهد الموحدين ، وكان هؤلاء لا يتوقفون عن نجدة اخوانهم فى الاندلس ، حتى ان الخليفة المنصور من الموحدين لما دنت وفاته جمع بنيـه والموحـدين ووصاهم بوصايا منها : أيها الناس أوصيكم بتقوى الله « وأوصيكم بالايتام واليتيمة » أراد بالايتام أهـل جزيرة الاندلس وباليتيمة بلاد الاندلس . الاأن أحوال الجزيرة اختلت فى أواخر دولة أمير المسلمين على بن يوسف فأوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم . وميلهم الى الدعة ، وايثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، واسـتولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبـلادهم ، وكادت الأندلس تعود الى سيرتها الأولى ، بعد انقطاع دولة بنى أمية فاسـتدعى عقلاء الجزيرة بنى مرين من بر العدوة فجاءهم أميرها سـنة ٦٥٨ فى جيش ضخم فملك

بالاندلس ثلاثة وخمسين مسوراً مابين مدن وحصون وهو اول من ملك العدوتين من بنى مرين وجاهد الفرنج فدوخ بلادهم وكانت قبل جوازه الى الاندلس تستطيل على المسلمين وملكوا قواعد الاندلس وأكثر حصونها مثل قرطبة واشبيلية وجيان وشاطبة ودانية ومرسية وغيرها ولم تنتشر للاسلام راية منذ وقعة العقاب [1] سنة ٦٠٩ الى أن جاءت رايته وكانت الحروب والغزوات متصلة بين العرب وأعدائهم فى القرن الخامس والسادس والسابع وكثيراً مايؤدى ملوك العرب الجزية للافرنج بعدان كان هؤلاء فى القرن الأول والثانى والثالث والرابع يؤدون الى العرب الجزية . ولما أغاظ ابن تاشفين لا لفونس الكلام فى المكاتبة قال هذا : « بمثل هـذه المخاطبة يخاطبنى وأنا وأبى نغرم الجزية لاهل ملته منذ ثمانين سنة وكان ذلك سنة تسع وتسعين وأربعمائة »

وبعد ان زال حكم الموحدين من اسبانيا دخلت فى حكم محمد بن يوسف بن هود من بطليوس الى مرسـية وقرطبة واشبيلية سنة ٦٢٦ ولما هلك التف المسلمون حول محمد بن يوسف بن الأحمر من أسرة بنى نصر فاستولى على الاندلس سنة ٦٢٩ فدام فيه وفى أعقابه نحو قرنين ونصفاً كان الضعف رائد دولتهم أولاً حتى لقد صالح ابن الأحمر الفنس ملك اسبانيا سنة ٦٦٥ على أن اعطاه نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين من الشرق فقال أبو محمد الرندى يرثى الاندلس ويستصرخ أهل العدوة من بنى مرين قصيدته المشهورة التى يقول فيها

دهى الجزيرة خطب لاعزاء له — هوى له أحـد وانهـد ثهلان
أصابها العين فى الاسلام فامتحنت — حتى خلت منه أوطان وبلدان
فسل بلنسية ماشأن مرسـية — وأين شاطبـة أم أين جيان
وأين قرطـبة دار العـلوم فكم — من عالم قد سما فيها له شان

---

(١) هذه الوقعة وقعة العقاب هى المعروفة عند الافرنج باسم لاس نافاس دى تولوزا Las Navas de Tolosa وهى قرية من عمل ولاية بيان اشتهرت بانتصار ملوك ارغن وقشتالة ونافار على العرب سنة ١٢١٢ — ٦٠٩ هـ وقد ضربوا العرب ضربة لم يتمكنوا بعدها من التوغل فى بلاد اسبانيا

وعاد أمر المسلمين فضعف وبنو الأحمر آخر ملوك الأندلس يستصرخون الموحدين من أهل العدوة فينجدونهم حتى رسخت أقدام الملوك من بني الاحمر أو بنى نصر فى بقعة صغيرة من البلاد جعلوا غرناطة عاصمتها ولما انقرضت دولة الموحدين اعتمد بنو الاحمر على قوتهم فى حماية سلطانهم حتى ضعف أمرهم وصحت نية الاسبان على اخراجهم من شبه جزيرة اسبانيا باتفاق ازبيلا الكاثوليكية وفرديناند واتحاد ملوك ارغن وقشتالة ونافار تحت سلطان واحد وكان خروج آخر ملك من بنى الأحمر من بلاد الاندلس سنة ٨٩٧ هـ ويومئذ انتهى حكم العرب هناك .

عمران الاندلس

٩٢

فى أرض اندلس تلتذ نعماء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع ولا تقوم بحق الانس صهباء
وان يعدل عن ارض يحض بها على الشهادة ازواج وابناء
واين يعدل عن أرض تحث بها على المدامة امواه وافياء
وكيف لا يبهج الابصار رؤيتها وكل روض بها فى الوشى صنعاء
انارها فضة والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ولا انتثار لآلى الطل انداء
وانما أرج الند استثار بها فى ماء ورد فطابت منه ارجاء
واين يبلغ منها ما أصنفه وكيف يحوى الذى حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض حين بدت فريدة وتولى ميزها الماء

دارت عليها نطاقا البحر خفقت وجداً بها أو تبدت وهى حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فيها خلعت عذارى مابها عوض فهى الرياض وكل الارض صحراء
« ابن سفر المرينى »

كانت شبه جزيرة اسبانيا فى عمرانها قبل الفتح العربي منحطة عن عامة الممالك الاوربية . حكمها الرومان وكانوا من خير من شاد بنياناً ، واقام فى المعمور عمرانا ؛ ومع هذا لم ينلها من عنايتهم كبير أمر ؛ فلما جاء العرب الفاتحون فى العقد الاخير من المئة الاولى . كان عهدهم الاول عهد الفتوح على نحو ما كان عهدهم فى الشام ، فلما التفتوا فيه الى تجويد البناء حتى اذا ورد على الاندلس من الشرق بل من دمشق عبد الرحمن الداخل الاموى سنة ١٣٨ ه نقل مع جماعته أسلوب أمته فى العمران ، وكان سبقه اليها جمهور من الشاميين ؛ نقلوا أسلوب بنائهم وعاداتهم وأصول معايشهم ؛ فاعتمدوا فى بناء قصورهم ودورهم على الهندسة الدمشقية فى الغالب . وجعلوا فى الدور فناء أو صحناً فى وسطه بركة ماء وعلى جانبيها الازهار والاشجار ، وتقوم بعض طنوف الطبقة الثانية من البناء على عمد من الرخام وغيره ، والدور طبقتان فقط طبقة سفلية للصيف والطبقة العلوية للشتاء ويدخل الى الدار من دهليز . رسم خطط هذه الدور بادئ بدء مهندسون من الروم ثم أصبحت مع الزمن هندسة خاصة للعرب على ما كان شأنهم فى الشام .

يقول بعضهم أن العرب لما وصلوا اسبانيا لم يكن لهم هندسة مخصوصة فقلدوا فيهم كالاسبانيين الابداع والايجاد ولكنهم تفننوا فى النقش . واقدم مصانعهم مسجد قرطبة ، انشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٥ م والنقوش فيه والفسيفساء من عمل صناع من الروم ومن هنا نشأت الصناعة العربية وتمثلت فى المساجد والبيع والقصور والحمامات والابراج والابواب الحصينة . ومن اغرب المبانى مسجد طليطلة مثال الهندسة العربية وقاعدة منارة مسجد اشبيلية وكثير من الارتجة والابواب . ولما استولى الاسبان على اشبيلية جعل ابن الاحمر غرناطة عاصمته فقام قصر الحمراء

وظهرت بدائعه ، وهو أجمل زهرة من زهرات الصنائع النفيسة التى تفتقت اكمامها بايدى العرب . وظل صناع العرب فى اسبانيا قروناً بعد ذهاب دولتهم يعملون فى المصانع الاسبانية ويدخلون فى هندستها بعض أساليبهم فاثروا بها تأثيراً عظيما فى المعاهد المبنية على الاسلوب الغوطي والايطالى (الرنيسانس) .

ولقد كان لملوك الاندلس وامرائها وقوادها وعامة من تولوا خطط الحكم والقضاء والحسبة ، غرام باستكمال فخامة الملك . وتشييد القصور . وجلب المياه وبناء الارصفة ، واقامة القلاع والحصون . بدأ بذلك عبد الرحمن الاول وجرى آل بيته وعظماء مملكته ، على قدمه في هذا الشأن . ومنهم عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨) الذي كان « أول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل . وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة أبهة الجلالة فشيد القصور ، وجلب اليها المياه ، وبنى الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالاندلس . وعمل السقاية على الرصيف ، وأحدث الطرز . واستنبط عملها ، واتخذ السكة بقرطبة ، وفخم ملكه . وفى أيامه دخل الاندلس نفيس الوطاو غرائب الاشياء . ومنهم عبدالرحمن ابن محمد الذى قال فيه صاحب العقد : « ان الملوك لم تزل تبنى على أقدارها ويقضى عليها بآثارها وانه بنى فى المدة القليلة . مالم تبن الخلفاء فى المدة الطويلة ، نعم لم يبق فى القصر الذى فيه مصانع أجداده ، ومعالم أوليته ، بنية الا وله فيها أثر محدث ، أما تزييد أو تجديد

كانت البلاد نسقاً واحداً فى العمران حتى كان للقرى أيضاً نصيب وافر من العناية ولذلك كثر عددها حتى قالوا انه كان على الوادى الكبير فقط أربعة عشر ألف قرية فكنت على رواية ابن سعيد اذا سافرت من مدينة الى مدينة ، لا تكاد تنقطع من العمارة ؛ مابين قرى ومياه ومزارع ؛ والصحارى فيها معدومة ، أى فى القسم الذى تأصل فيه حكم العرب . ومما اختصت به ان قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها بل هى طراز من مناظر قد أتقنت بالبياض والزخرفة تخطف بالابصار عند وقوع شعاع الشمس عليها .

لاحت قراها بين خضرة ايكها كالدر بين زبرجد مكنون

قويت حركة العمران بالطبع حيث كان يقيم الخليفة والسلطان ، ولما ابتنى عبد الرحمن بن محمد فى غربي قرطبة مدينة الزهراء خط فيها الاسواق وابتنى الحمامات والخانات ، والقصور والمتنزهات ، واجتلب الى ذلك بناء العامة ، وأمر مناديه بالنداء ، الا من أراد أن يبنى داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمائة درهم فتسارع الناس الى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الأبنية بين قرطبة والزهراء والمسافة أربعة أميال .

كان بناء الاندلسيين بالآجر والحجر وكان الحجر عندهم أنواعاً منه الخمرى والأحمر والأبيض والمجزع وكانوا ينحتون السوارى والعمد من مقالعهم على الأغلب . وقيل ان سوارى جامع قرطبة جلبت من البيع القديمة من جنوبي فرنسا وايطاليا ومن أفريقية والاستانة وسواء قطعت من مقالع الاندلس ، أو جلبت من القاصية ، فان فى ذلك فضلا كبيراً للعرب : يدل على معرفتهم الأشياء الحسنة ، وقدرتهم على حمل هذه الاثقال فى البر والبحر . مع قلة الآلات الرافعة ، وقصور علم الحيل عما هو عليه فى عصرنا

قال أحد الباحثين من الفرنجة : فى اسبانيا ميدان لدرس الصناعة العربية المغربية منذ بدايتها وكان التردد بادىء بدىء بادياً عليها الى أن ظهرت فى مظهرها هذا على غاية من الغرابة والظرف . وقال بعضهم ان الهندسة العربية قد أفرغت جهدها فى قصور الحمراء ، وأتت ماوسعتها الاجادة والظرف بأمثلة ، تأخذ بمجامع القلوب فى العمران . ولو لم يكن جل الاعتماد على الخشب والجص فى البناء ، وهما مما تقل متانته ، لاتت منها آثار خالدة أكثر مما أتت ، ولكن مجموعها مدهش غريب يمجد خيمة العرب الرحل فى البادية . ومن أغرب مااصطنعوه عمل المقرنص فى القباب مؤلفاً من عدة قباب صغرى متناسقة ، بدون أن ترى اللحمة بينها ، والنقش فيها قليل الا ما كان من جمل نقشت بالحروف الكوفية أو العربية المشبكة الاندلسية

قلنا ومعظم الآثار التى بناها الاسبان بعد سقوط آخر دولة الاندلس كانت بأيدى صناع من العرب ، أبقوا عليهم لقيام مصانعهم . وذلك لان الاسبان كانوا متأخرين فى الهندسة والصنائع النفيسة ، وأهم مايتنافس فيه الاسبان الى اليوم القيشاني فانك تراه فى كل بيت وكنيسة ، وحائط ونزل ومدرسة ومتحف ، وهو أنواع منه مايجعل على الأرض ، ومنه مايجعل على طول قامة الانسان فى الجدران المختلفة ، وللآجر عندهم شأن عظيم فى البناء . وقد يدم قروناً كما شاهدنا ذلك فى خرائب الفسطاط بمصر وأكثره من بناء القرن الاول للهجرة

يصعب تعداد المصانع التى شاهدها العرب فى أوقات مختلفة . فى الاصقاع التى نزلوها ، كما يصعب اعطاء حكم تام على معالمهم ، لان كثيراً من بنيان الاندلس عور بتداول الايام . فصح فى مدنها ودساكرها قول أحد الاندلسيين فى بلنسية وقد عاث العدو فيها

عاثت بساحتك الظبا يادار ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد فى جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الاقدار
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

أهل الاندلس

٩٣

كان الجيش الذى فتح الاندلس بادىء بدء مؤلفاً من قليل من العرب ومن البربر سكان الغرب الأقصى والأوسط وما اليهما . نزل كل فريق منهم في بقعة فاعمرها وأقطعهم القواد مارحل عنه أهله من المزارع والمداشر . وقد فرق الحسام

ابن ضرار الذى ولى امارة الاندلس فى سنة ١٢٥ وخضعت لسلطانه جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد ، وأبعدهم عن دار الأمارة قرطبة . اذ كانت لاتحملهم وأنزلهم مع العرب البلديين أى السابقين الى الاندلس ، فى سنة الفتح سنة ٩٢ للهجرة . والشاميون هم الذين دخلوا سنة ١٢٥ . انزلهم على شبه منازلهم فى كوَر شامهم ، وتوسع لهم فى البلاد ، فانزل فى كورتى اكشونبة وباجة جند مصر مع البلديين الأول ، وأنزل باقيهم فى كورة تدمير وانزل فى كورتي لبلة واشبيلية جند حمص مع الأول أيضاً ، وانزل فى كورتى شذونة والجزيرة جند فلسطين وانزل فى كورة ريه جند الاردن . وانزل فى كورة البيرة جند دمشق ، وأنزل فى كورة جيان جند قنسرين أى حلب ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة . وبقى العرب البلديون من الجند الأول على مابأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم فى شيء منها فلما رأوا بلاداً شبه بلادهم خصباً وتوسعة ، سكنوا واغتبطوا وتمولوا .

قال ابن الخطيب : أنزلوا القبائل الشامية فى كوَر على شبه منازلهم التى كانت فى كوَر شامهم ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة وبقى العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم وسكنوا واغتبطوا . وكبروا وتمولوا ، الامن كان نزل منهم لاول قدومه موضعاً رخياً ، فانه لم يرتحل وسكن به مع البلديين . وحكى غيره انه نزل فى البيرة من كان قدمها من جند دمشق من مضر وجلهم قيس وافناء قبائل العرب . ونزل رية جند الاردن وهم يمن كلهم من سائر البطون ، ونزل شذونة جند حمص وأكثرهم يمن وفيهم من نزار نفر يسير ، ونزل مدينة الجزيرة البربر واخلاط من العرب قليل . ونزل في جيان جند قنسرين والعواصم وهم أخلاط من العرب من معد واليمن ، ونزل قبائل البربر مدينة بلنسية .

وما عدا قبائل العرب والبربر الذين تفرقوا فى بلاد الاندلس على مارأيت كان فيها أخلاط من الشعوب من رومان وغوط ومهاجرة من أقطار شتى فامتزجوا كلهم فى بودقة واحدة . قال هوار : ولما أصبح عبد الرحمن ملكا على جميع اسبانيا الاسلامية (٣٢٠ — ٩٣٢) استند لقتال طبقة الاشراف من نسل العرب المهاجرين

على الاسبانيين الذين دانوا بالاسلام وعلى كثير من الاسرائيليين والمسيحيين فتوصل بذلك الى جعل الكل أمة واحدة عرفت فى الشرق باسم الاندلس .

ولقد استمرت قبائل العرب الشاميين « فى غمار من الروم يعالجون فلاحة الارض وعمران القرى يرأسهم أشياخ من أهل دينهم . أولو حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم » فاحتفظ العرب بسكان البلاد الاصليين ، وهيأوا السبل لدخول المهاجرين اليها من المسلمين على اختلاف عناصرهم ومن غيرهم ، فأسلم كثير من أهل البلاد ، واختلطت أنسابهم بأنساب العرب ، وكان المغلوبون يقلدون الغالبين لاول الامر فى مناحيهم وعاداتهم ، شأن المغلوب مع الغالب ، قال فوليه : بعد ان حكم العرب اسبانيا قروناً دخلتها كمية وافرة من الدم الافريقى فكان ذلك من موجبات ارتقاء العقل فى اسبانيا . ومزج الدم الاسبانى بالدم العربى هو ولا شك من جملة الاسباب التى تحمل بالاسبان على اختلاف أصقاعهم الى الطموح الى العظائم ومراتب الشرف اه .

ولما دب الضعف فى الاندلس أصبح العرب يتشبهون بجيرانهم من الافرنج . روى المقرى : ان بنى الاحمر كثيراً مايتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم . وذكر ابن خلدون أوائل المئة التاسعة ان أهل الاندلس يتشبهون بأمم الجلالقة « فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء » فبعد ان كان القشتاليون والجلالقة دع أبناء الأندلس من غير المسلمين يتشبهون بالعرب أصبح هؤلاء فى أواخر أيامهم يتشبهون بهم ، شأننا اليوم مع أمم الغرب نقلدهم فى أزيائهم ولباسهم وعاداتهم ، ونفسح المجال لكل ماينفقونه علينا من بضائعهم العلمية والاجتماعية ، سنة الله فى الضعيف مع القوي .

امتزج المستعربة Lesmozarabes أو المسيحيون الذين يتكلمون بالعربية فى الاندلس ، بالقادمين عليها فلقى المعاهدون منهم رعاية من الفاتحين اللهم الا فى

الادوار التي كانوا يكيدون فيها للمسلمين ، ويخرجون عن الذمة فان الفقهاء كانوا يفتون بتغريبهم واجلائهم عن أوطانهم ، وقد أجاز منهم يوسف بن تاشفين الى بر العدوة « عدداً جماً ، أنكرتهم الاهواء ، وأكلتهم الطرق ، وتفرقوا شذر مذر » على انه لم يقع شيء من هذا القبيل الا في النادر لان العرب كانوا يحرصون على بقاء أهل البلاد فيها ليعمل التطور عمله فيسلم من يسلم مع الزمن منهم أو يعطي الجزية ويتعلم العربية فتخف الفوارق بينه وبين أهل عصبية الفاتح .

فمن ثم ساغ لنا أن نقول ان أهل الاندلس لم يكونوا كلهم من نسل العرب بل كان منهم العرب قال صاحب فرحة الانفس : أهل الاندلس عرب في الانساب . والعزة والانفة وعلو الهمم . وفصاحة الالسن ، وطيب النفوس ، وأباء الضيم ، وقلة احتمال الذل . والسماحة بما في أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع واتيان الدنية هنديون في أفراط عنايتهم بالعلوم ، وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون في نظافتهم وظرفهم . ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم . وحسن نظرهم ، وجودة قرائحهم . ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم . ونفوذ خواطرهم . يونانيون في استنباطهم للمياه . ومعاناتهم لضروب الغراسات . واختيارهم لاجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر . وصنوف الزهر ، فهم أحكم الناس لاسباب الفلاحة ، وهم اصبر الناس على مطاولة التعب . في تجويد الاعمال . ومقاساة النصب في تحسين الصنائع ، وأحذق الناس بالفروسية ، وأبصرهم بالطعن والضرب . وقال ابن حزم : ان أهل الاندلس صينيون في اتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها . والنظر في مهماتها . وقال ابن بسام : في جزيرة الاندلس اشراف عرب المشرق افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقي النسل فيها بكل اقليم ، على عرق كريم .

*

تسامح العرب

٩٤

العرب من أكثر الامم تسامحاً مع المخالفين لهم في المعتقد والجنس واللسان، ولولا تسامحهم ايام عزهم بالاسلام، لم تبق بقية من الأمم المغلوبة في بلادها محتفظة بدينها ولسانها ومقدساتها. وذلك لأن الشريعة السمحاء تقضي بالرفق والرحمة. وعدم التعرض لدين المخالفين وأموالهم خصوصاً اذا كانوا أصحاب دين سماوي. ولذلك اكتفوا من أهل الاندلس بجزية [1] وتركوا لهم حريتهم: فأعجب بهم مخالفوهم، لانهم حملوا اليهم سلاماً، وكفوهم مؤونة فتن كانت عليهم غراماً، تأتي على الأنفس والنفائس. وتلك معالم الامن والامان.

كره العرب التعصب ولا سيما في الاندلس وعمدوا الى كل تسامح معقول فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا بينهم من الاسبانيين والبرتقاليين حتى انهم كانوا (سيديليو) اذا شجر خلاف بين مسلم ومسيحي من الجند، يعطي الحق غالباً للمسيحي. وجعلوا

---

(١) هذا كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش (غيدوس) الذي سميت باسمه تدمير اذ كان ملكها ونسخة هذا الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش انه نزل على الصلح وان له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم الا يقدم له ولا لاحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وانهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وادى الذي اشترطنا عليه وانه صالح على سبع مدائن أوريوالة وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرة واية ولورقة وانه لا يؤوى لنا آبقاً ولا يؤوى لنا عدواً ولا يخيف لنا آمناً، ولا يكتم خبر عدو علمه، وان عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا (شراب من العنب غير مخمر وهو أشبه بالصليبة في بلاد الشام) وأربعة أقساط خل وقسطي عسل وقسطي زيت، وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي وحبيب بن أبي عبيدة . . . ابن ميسرة الفهمي وأبو قائم الهذلي وكتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة.

ايام الآحاد أيام عطلة ، بدل الجمع ؛ ورخصوا ان يتعبد كل انسان على الصورة التى يراها . فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب ؛ حتى لم يكد يشعر هذا الا فى النادر و باغراء رجال الدين ، انه مغلوب على أمره ، فاقد لاستقلاله ؛ واعتمد الامويون فى أكثر أيامهم على جيش من الصقالبة أهل صقلية يشترونهم أو يأخذونهم أسرى كما كان يفعل العثمانيون بجيش الانكشارية وصارت لافراد من الصقالبة حظوة عند الملوك والامة حتى ان حبيباً الصقلي من فتيان الاموية بقرطبة ألف كتاباً تعصب فيه لقومه سماه (بالاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) . وربما كانت منزلة الصقالبة بقرطبة منزلة الشعوبية أعداء العرب فى بغداد ولا من ينكر عليهم . ومن أثر التسامح ؛ شاعت اللغة العربية في كل أرض نزلها العرب . بل لم يمض أكثر من نصف قرن حتى اضطر رجال الكنيسة ان يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها المسيحيون ؛ لان هؤلاء زهدوا فى اللغة اللاتينية ؛ ونشأ لهم غرام بالعربية . فأخذوا يتقنون آدابها ، ويتغنون باشعارها ، ويكتبون فيها كأبنائها ، ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها .

وكان كثير من أذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين ؛ دع من كانوا فى البلاد التى فتحتها العرب من المسيحيين ، يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الاندلسى أو أحد رجاله يستخدمون فى الادارات ؛ وتجرى على سادات الاسبان أحكام الاسلام فيختلطون باشراف العرب ، ومن ظل محتفظاً منهم بدينه نسى مبادئه فصار يحجب نساءه كالمسلمين ؛ ويقتدى بازيائهم وألبستهم وعاداتهم ، فى مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم . ومن المسيحيين والاسرائيليين من وزروا فى الاندلس لملوك المسلمين وهم مقيمون على دينهم ومنهم من كان أبوه أوجده اسبانياً فاسلم [١] والمسلمون لا يضنون بشىء على أهل ذمتهم يجرون عليهم

---

(١) راجع نبذة فى امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقاب فى كتاب (السفر الى المؤتمر) .

الرواتب والارزاق ، كما تجرى على بطانتهم وأهل نحلتهم ويأمنونهم على مصالحهم ؛ وينتدبونهم فى سفاراتهم . ويطلعونهم على أسرارهم ، ويأمنون الاطباء منهم على أرواحهم وحرمهم

وشاع زواج العرب بالاسبانيات والبرتقاليات اللائي كن بجمالهن . أجمل صلة لتمازج الفاتحين بخصومهم ، والتحام القرابات بينهم ، بل أن ملوك المسيحيين على عهد توزع الاندلس بين ملوك الطوائف . أمسوا يتزوجون من بنات الامراء المسلمين ، فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة أمير أشبيلية . وعقد مثل هذا الزواج كثيراً . وكان عدد المتزوجات من الاسبانيات والبرتقاليات بالمسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الاسبانيين والبرتقاليين آخر أيام الاندلس كثيراً جداً حتى جرى لذلك كلام فى الشروط التى تمت بين الغالب والمغلوب .

ومن العرب من آثر زي الاسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج وكلف بلسانهم مثل محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الاندلس (٥٦١) وكثير من الوزراء كانوا يعرفون لسان جيرانهم مثل محمد بن الحاج (٧١٤) ويتشبهون بهم فى الاكل والحديث وكثير من الاحوال والهيئات .

هذا ما عمله الغالبون المسلمون من العرب مع المسيحيين المغلوبين من الاسبان والبرتقاليين . أما معاملتهم للاسرائليين فكانت أيضاً مما يدهش له ؛ فأصبح هؤلاء فى الاندلس منزلة سامية فى العلم والصنائع والتجارة ، وكانت غرناطة فى القرن العاشر تدعى مدينة اليهود لكثرتهم ومكانتهم فيها .

أصبح أهل البلاد يتكلمون بالاسبانية والبرتقالية والعربية على السواء وأخذوا بعد حين لا يتعاقدون بينهم إلا باللغة العربية وقد وجد من عقودهم نحو الفى صك من هذا القبيل كتبها المستعربة من الوطنيين الاصليين باللغة العربية ؛ والعربية كانت لسان القائمين بالدولة الاسلامية . هجر ما عداها فى جميع الممالك . فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الاسلام وطاعة العرب . هجر الامم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الامصار والممالك التى خفقت عليها رايات الفاتحين . وصار اللسان العربى

لسانهم، حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم ومدنهم ؛ وصارت الالسنة العجمية دخيلة فيها ، وغريبة عنها ، قاله ابن خلدون :

ولذا أتت ثلاثة قرون على بقايا الاسبانيين المتراجعين الى الجبال الشمالية وقد نسيت تقاليد البلاد إلا من استوريا وما اليها من الاصقاع واضطرت الحكومات الصغرى التى اعتصمت فى أقصى الشمال أن تصانع وتعاهد وتتعلم من أعدائها ، وهم أرقى منها نظاماً ومدنية وحكومات أوربا الكبرى لذلك العهد تطلب رضاها وتتعلم منها وتتلطف معها ، حتى بلغ الامر بعبد الرحمن الثالث الذى أشبه ملكا من ملوك هذا العصر لا ينقاد لاوهام العنصر والدين ، ولا يتوقف فى أمر فيه مصلحته ، وتسير سياسته بحسب الاحوال — ان وجد له حلفاء من زعيم البربر إلى ملك ايطاليا الى أمبراطور القسطنطينية وكانت سفراء فرنسا واليونان والالمان تتوارد على قرطبة . وقد وضع هذا الخليفة حداً للحروب بين العرب والاسبانيين والبربر فى الاندلس ، وحصن حدود مملكته من ملوك ليون وقشتالة ونافار واستولى باسطوله على غربى البحر المتوسط ، وبسط سلطانه على افريقية الشمالية فكان ميسين [1] العلوم والفنون وحامى التجارة والصنائع وقد اصبحت اسبانيا العربية على عهده وعهد اخلافه فى القرون الوسطى أكثر البلاد مدنية وحسن ادارة قالته دائرة المعارف الاسلامية .

لا جرم أن خلفاء الاندلس كانوا من التسامح مع الكافة بالمكان الذى يغبطون عليه ، ويجب التنويه به . لانه لم يسبق له نظير فى عصورهم عند الامم الاخرى ؛ فقد جاء من خلفائهم من كانوا يبيحون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم أحراراً وبلغت الحال ببعض المتحمسين منهم . ان كانوا يقفون على أبواب الجوامع ليتسقطوا المسلمين بالدعوة الى دينهم ، وكان عبد الرحمن الثانى عزم أن يجمع

---

(١) ميسين هو نديم أغسطس قيصر الرومانى استعمل نفوذ مولاه لتنشيط الآداب والعلوم فاغدق نعمه على فرجيل وهوراس وبروبروس وأصبحت كلمة ميسين مرادفة لحامى الآداب والعلوم والفنون ومات فى السنة الثامنة قبل المسيح .

مجمعاً مقدساً من النصارى برئاسة رئيس أساقفة اشبيلية لقمع عادية التعصب الاسبانى إذ أخذ دعاة الدين المسيحي يسبون الاسلام جهاراً حتى يقتلوا فى سبيل دعوتهم ، وتكتب لهم الشهادة بزعمهم ؛ ولكن الخليفة مات قبل التئام هذا المؤتمر سنة ٢٣٨

ولطالما ارخى خلفاء الاندلس العنان لخطبائهم ووعاظهم ومؤرخيهم وكتابهم يوسعون المجال لاقلامهم وألسنتهم ، حتى فى أعمال الخلفاء ، ولا يجدون منهم إلا لطفاً وعطفاً ، ذلك انالناصر كان كلفاً بعمارة الارض ، وإقامة معالمها ، وتكثير مياهها ، واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه ، وعزة سلطانه ، وعلو همته ، فانه لما ابتنى الزهراء . واستفرغ وسعه فى تنجيدها واتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، انهمك فى ذلك حتى عطل الجمعة بالمسجد الجامع ، فقرعه القاضي منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة بخطبة على المنبر امام جمهور المؤمنين ابتدأها بقوله تعالى (اتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين ، وجنات وعيون ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ثم أفضى الى ذكر المشيد . والاستغراق فى زخرفته ، والسرف فى الانفاق عليه ، فجرى فى ذلك طلقاً ، وتلا فيه قوله تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير . أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وأسرف الخطيب فى ترويع الخليفة وتقريعه ، ولم يحسن السياسة فى وعظه . فاستشاط الخليفة غضباً ، واقسم أن لا يصلى خلف الخطيب الجمعة أبداً فقال له ابنه : وما الذى يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به فزجره أبوه وانتهره وقال : أمثل منذر بن سعيد فى فضله وورعه وعلمه وحلمه لا أم لك يعزل فى ارضاء نفس ، ناكبة عن الرشد.

ومثال آخر : شنع أحد المؤرخين على أحد الملوك المعاصرين فى الاندلس ، فخنق ابن

الملك وهمَّ بقتل المؤرخ ، فلما شعر أبوه بذلك قال له اليك عن هذا الفكر الخبيث ولئن قتلته لأكونن أنا المطالب بدمه . تقتله ليعيرنا الناس باننا نقتل مؤرخينا . حتى إذا مضت أيام دخل المؤرخ الحمام ليستحم ، فلما خرج ليلبس ثيابه ، رأى فيها صرة تضم ألف دينار ، ورقعة من الملك يقول فيها : ان الذى أوصل اليك هذه الدراهم وأنت لاتشعر ، قادر ان يرسل اليك من يقتلك فكفّ غرب لسانك عنا واذا عدت فأرخت ثانياً لاتشنع علينا أعمالنا . قال دوزى اذا قيست حرية العرب بحرية الافرنج تشبه هذه الاستبداد .

وما زال هذا التسامح المحمود حتى انتقل ملك العرب فى الاندلس الى المرابطين والموحدين وكانوا افريقيين لايخلون من شىء من التعصب وليس فيهم تسامح الامويين العرب فتبدلت الحال بعض الشىء ، وذهبت أو كادت طلاوة تلك المدنية التى أقاموها وكانت لا بالغربية ولا بالشرقية فبهر خبرها ومخبرها لولا أن قام الملوك من بنى نصر فى غرناطة ، ورأبوا الصدع . وجبروا الكسر ، وكانوا كلما صغرت رقعة ملكهم ، زادت الرقعة الباقية ارتقاء ، فتنتقل القوة والنفوس من بلد زال عنها سلطانهم الى بلاد يرفرف عليها علمهم ، ويزيد ملوكهم تسامحاً مع ذمتهم ومجاوريهم . وهمة فى تعهد صناعاتهم وزراعتهم وعمران مدنهم التى حصنوها بالعدل والاحسان

العرب والاسبان

٩٥

قال بعضهم لو لم يقم كلوفيس [1] بحروب دينية فى القرن الخامس لتعذر على

---

(١) كلوفيس ا ٤٦٥ — ٥١١) ملك الفرنجة (فرنسا) سنة ٤٨١ افتتح سقع باريز واستخلصه من أيدى الرومان سنة ٤٨٦ واستولى على ولاية الاكيتين من الفيزيغوت وغلب الالمان سنة ٤٩٦ والبورغوند سنة ٥٠٠ ودان مع أمته بالنصرانية سنة ٤٩٦ فكان أول من وحد بلاد غاليا (فرنسا) فى دينها وسياستها .

المسلمين فتح اسبانيا . ونحن نقول لولم يفتح العرب الاندلس ويحمل اليهم عبد الرحمن الأموى مدنية قومه لتأخرت المدنية الحديثة قروناً عن الظهور فى ربوع أوربا (١) وقد أجمع المنصفون أن العرب لولم ينجلوا عن الاندلس لكانت حال اسبانيا اليوم أرقى مما هى بمراحل ولا يؤمل لهذا الشعب وقد رأى صنوف العذاب من رجال الدين ورجال الحكم . وأكلت نوابغه الحروب والاستعمار وديوان التفتيش الدينى . أن تنشأ له نهضة كنهضة ايطاليا فى القرن الخامس عشر تنتقل منها الى أوربا بأسرها .

وان المرء اذا نزل اسبانيا اليوم ليشعر ولا سيما فى القسم الجنوبى منها أنه فى بلاد عربية لو كان لسان القوم العربية . ويرى كثيراً من السحنات أشبه بوجوه العرب منها بوجوه الامم اللاتينية . وبعض عاداتهم وطبائعهم تنم عن روح عربية على سعى رجال الدين فى نزعها من بينهم ، منذ استعاد الاسبان أرض الاندلس أواخر المئة التاسعة . لاجرم أن أربعة قرون ونصفاً لم تكف لان تنزع من القوم ما تأصل فيهم فى ثمانية قرون وتمثلوه وتمثل بهم من مدنية العرب .

ذكر بعضهم أن فى الاندلس أهم آثار اسبانيا . والاندلس من اسبانيا بمثابة اقليم البروفانس فى جنوبى فرنسا وصقلية من ايطاليا . وقد جمعت الاندلس جميع المحاسن والغرائب المبعثرة فى طول اسبانيا وعرضها ؛ ولهجة الاندلس مائلة الى العربية كثيراً والاحتفالات والاخلاق قد حفظت فيها الاساليب العربية .

نعم لا تزال تسمع فى اللغة الاسبانية كثيراً من الألفاظ العربية من أسماء البلاد والأنهر والنواحي وبعض المرافق والمصطلحات . وكل كلمة تبدأ عندهم بأل التعريف العربية هى عربية لا محالة ؛ ومن الأسماء ما يبدأ ببنى ومنها ما يبدأ بوادى فدخلت مئات من الألفاظ فى اللغة الاسبانية وتأصلت فيها كما دخلت

---

(١) من تاريخ الكنيسة تعريب هنرى جسب قال موسهايم الجرمانى : حق علينا ان نقول ان العرب ولاسيما عرب اسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة فى الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التى بزغت فى أوربا منذ القرن العاشر فصاعدا .

البرتقالية والايطالية والافرنسية لغات الامم اللاتينية ، وهي ظاهرة كل الظهور في اللغة الاسبانية وأقل منها في اللغة البرتقالية والى اليوم تسمع بوادي الرامة ووادي الحجارة ووادي القنال ووادي البياضة ووادي الكبير وقلعة وقليعة والرملة وقصبة وقصر ومدينة وجنة والمدور والبطاقة والقنديل والأنبيق والساقية والمنارة والربض والمسجد والربع والشمسية والفندق والمحراب ومئات غيرها أفردها علماء اللغة منهم بالتأليف .

أخذ الاسبان عن العرب أشياء ظنوها بعدُ من مصطلحات أجدادهم وبنات أفكارهم ، وتأصلت فيهم من حيث يشعرون ولا يشعرون . حدثني الثقة ان أحد علماء المشرقيات من الاسبان وهو موسيقار يحسن العربية ويطبع الآن كتاباً يثبت فيه بالأدلة التاريخية ان الموسيقى الكنائسية في القرن الثالث عشر كانت مقتبسة من الموسيقى العربية . ويخيل لمن يسمع الموسيقى الاسبانية والغناء الاسباني ويرى الرقص الاسباني انها عربية الا قليلا بحيث ساغ لنا أن نقول اذا كان الروسي شرقياً « تأورب » واستغرب فالاسباني عربي شرقي « تأورب » واستغرب أيضاً

ولا تزال الى اليوم ترى كثيراً من النابهين من الاسبانيين يدعون ان أصلهم عربي يذكرون ذلك مفاخرين ويعدون ذلك من أمارات الشرف والتغني بذكرى القديم الجميل . وقد رأينا الاسبانيين في القرن التاسع عشر والعشرين نهضوا نهضة لا بأس بها للبحث عن ماضيهم أو ماضي اسبانيا الاسلامية وصرفوا في ذلك وقتاً ومالا وتوفر على هذا العمل طائفة منهم حرصوا أجمل حرص على الأخذ من المدنية العربية ليكفروا عن سيئات أجدادهم الذين عوروا بعملهم مصانع العرب وخططهم وحرقوا ومزقوا أسفارهم وآثارهم .

أذكر مثالين من هذه النهضة يعدان في الباب الأول من أبواب تسلسل الفكر الراقي والدؤوب المحمود وهو مما يقل الآن فينا بعد أن أورثنا الاسبانيين أخلاقنا وطباعنا واليكم البيان : قال لي الاستاذ الاب آسين بلاسيوس مدرس العربية

في جامعة مجريط وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وأنا أنظر خزانة كتبه : جمع أكثر هذه الخزانة أستاذي ريبرا وفيها كتب كثيرة مطبوعة وأهمها الجزازات « الفيش » التي رتبها طول حياته وفيها أسماء ثلاثين ألف عالم من علماء الاندلس وقد استنسخها البرنس ليوني كايتاني الايطالي صاحب تاريخ الاسلام الكبير ليطبعها في جملة ما يطبع من آثار العرب . قال : لما كنت في بلدي وجئت مجريط لأعمل مع أستاذي أحمل ما تيسر لطالب جمعه من الكتب ضممت مجموعتي الى مجموعته في هذه الدار ولما حانت وفاته وكان عزباً أوصى لي بكتبه على أن أشتغل بها مدة حياتي وأفتح أبوابها لطلاب الاستشراق ثم أتركها كما تركها هو لمن أرى فيه الكفاءة للعمل بعدي أو أجعلها في احدى دور الكتب العامة .

هذا هو المثال الأول والمثال الثاني مجموعة السنيور اوسما Osma ناظر مالية اسبانيا سابقاً وهي من الفسيفساء والقيشاني الاسباني والسلاح والرخام والسجاد والادوات والاواني الفضية والزمردية والاواني الخزفية والبلورية والالبسة والنقوش والتصاوير والاعمال الخشبية والنقود العربية والاسبانية ذهبية وفضية ونحاسية من صنع عرب الاندلس وصنع اسبانيا المسيحية في القرون الوسطى هذا عدا وثائق تاريخية وسجلات من القرن السادس عشر من الآثار النصرانية وقد بدأ بجمع هذه المجموعة عم السنيور اوسما والد زوجته وأحد أشراف اسبانيا منذ زهاء خمسين سنة ودامت ابنته بعده وزوجها يطرسان على آثار هذا المغالي بالآثار الاسلامية والنصرانية . ولما جاءتها الوفاة أوصت بالقسم الذي جمعته في حياتها والذي ورثته عن أبيها لزوجها السنيور اوسما على أن تدعى المجموعة كلها باسم لقب والدها فسميت مجموعة مجمع بلنسية للدون خوان Instituto de Valencia de Don Juan وصحت عزيمة الوزير الاسباني أن يضيف الى المجموعة ما جمعه في حياته ويجعله في دارين بناهما في أهم أحياء مجريط الحديثة فبنى الدار الأولى على الطراز الاندلسي والثانية على الطراز المسيحي في القرون الوسطى وكلا الدارين متلاصقان جعلت كل مجموعة في الدار التي تناسبها

فأصبحت الداران متحفاً مرتباً ترتيباً علمياً راقياً بمعرفة صاحبها الآن واشارةمن يختلف الى داره من غلاة العاديات والآثار وحماة العلوم والفنون الذين يضمهم فى ناديه مرة فى الاسبوع يتفاوضون الصناعات والنفائس . وقد وقف الوزير المولع بالآثار مؤخراً مجموعته البديعة وأقام عليها خمسة من الامناء منهم الاستاذ آسين المشار اليه ووقف عليها مبلغاً من المال لا يقل عن خمسة ملايين بستاس أو نحو عشرة ملايين فرنك بحسابنا اليوم وأعطاها خزانة كتبه البالغة ألفى مجلد على أن تبقى مجموعته ويزاد فيها ليدرس تاريخ الصنائع والفنون فى اسبانيا وقد توخى فى وصيته تنشيط الطلبة الوطنيين والاجانب على درس هذا الفرع من العلم فى اسبانيا وخص المولعين بهذا الشأن من الانكليز ممن يصرفون مدة فى مجريط لهذا الغرض يدرسون مجموعته فيعاونهم معاونة مالية وخص من الانكليز طلبة جامعة اكسفورد لانه درس فيها فى صباه فأراد أن يعنى عناية خاصة بمن يتخرجون فيها .

هذان مثالان من عناية الخلف بآثار السلف ولو قام فى أذهان خاصة الاسبان مثل هذه الافكار منذ جلاء العرب عن بلادهم لكانت اليوم مجاميعهم ومجموعاتهم أعظم ثروة خلفتها أمة مغلوبة لامة غالبة ولعدت فى اسبانيا من أكبر موجبات فخرها كما تربح ولايات الاندلس اليوم من بقايا الآثار العربية التى يقصدها السياح من عامة أقطار الارض

العلم فى الاندلس

٩٦

قال لنا الدكتور روزيه[١] رئيس جامعة لوزان فى سويسرا سابقاً انى طوفت بلاد الاندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب ، فأعجبت بها كل الاعجاب ،

---

(١) من محاضرة « العرب فى الاندلس » القيناها فى النادى العربى بدمشق مساء ٢ حزيران ١٩١٩

ومما شهدته السدود القائمة الى اليوم فى ولاية بلنسية . فان أهل هذه الولاية من الاسبان اليوم يعيشون بفضل هندسة مهندسى العرب لهذه السدود ، ولم يتيسر لمدنية القرن العشرين أن تقيم أرقى مما أنشأه أبناء جنسكم فى القرون الوسطى . ولحسن الحظ لم يقو التعصب الدينى الذى دك كثيراً من المعالم فى أرض أندلس على نسف هذه السكور على وادى الأحمر وغيرها والا لهلك أهل ذاك الاقليم عطشاً ؛ ومن الاسف ان مدنية هذه بعض آثارها تذهب ولا من يبكيها . فقبح من قضوا عليها ، وأوصلوكم الى ما أنتم عليه من الانحطاط .

جملة لا يزال صداها يتردد في أذننا منذ فاوهنا بها العالم السويسرى من بضع سنين وقد ذكرنا بها عهد الاندلس وعهد عمرانه الزاهر ؛ وارتقائه الباهر . ذكرنا بالامس أمة عربية أوروبية تشبه الغربيين فى تصوراتها وآدابها وعلومها ؛ ولكنها شرقية عربية مسلمة باقامة شعائر دينها وأخلاقها وعاداتها ؛ وقلنا اننا معاشر العرب على كثرة عنايتنا أيام عزنا بتقييد علوم ديننا ولساننا وما الى ذلك . لم نكن في العناية بالعلوم التى هى اليوم العلوم الحقيقية كالرياضيات والطبيعيات والكيمياء والفلسفة والطب والفلك دون ذلك بكثير . والا لما قامت مصانع الاندلس على النظام الذى يرى الناس أثره ويعجبون به على اختلاف العصور . ولما أعجب الاستاذ روزيه اليوم بهندسة العرب لسدود بلنسية الباقية لعهدنا ، بعد انقراض دولة العرب من تلك البلاد زهاء أربعة قرون .

ولقد حدث الثقات ان الغربيين من المجاورين للاندلس كالفرنجة أى الفرنسيس والالمان وسكان برومية أى الطليان وكانوا أمثل الافرنج مدنية لذاك العهد لم يكونوا الا دون جيرانهم عرب الاندلس فى العلم وأعمال العمران والصناعات والزراعة ولولا علماء الكيمياء والهندسة والنبات والطب من العرب لتأخرت المدنية فى أوربا زمناً طويلا .

ولذلك كانت الاندلس فى عهد العرب كعبة العلم يحج اليها أذكياء الطلاب من فرنسا وايطاليا وغيرها كما يحج اليوم طلاب العلم الى كليات فرنسا والمانيا وانكلترا والبلجيك وسويسرا وهولاندة

أخذ عشرات من الافرنج العلوم عن عرب الاندلس وترجموها باللاتينية ومنها مافقد أصله العربي اليوم وبقيت ترجمته فقط (١) . وأن العلوم التى تلقاها جربرت الذى أصبح بابا رومية باسم سلفستر الثانى عن عرب الاندلس كانت موضوع اعجاب معاصريه حتى أتهموه بالسحر .

كانت الاندلس قبل أن تغلب بنى أمية عليها سنة ٩٢ ه خالية من العلم لم يشتهر عنـد أهلها أحد بالاعتناء به ، الا إنه يوجـد فيها طلسمات قديمة فى مواضع مختلفة وقع الاجماع على أنها من عمل ملوك رومية اذ كانت الاندلس منتظمة بمملكتهم . ولما استقر الامر لبنى أمية عنى جماعة من أهلها بطلب الفلسفة ونالوا أجزاء كثيرة منها وفى أيام الامير الخامس من بنى أمية وهو محمد بن عبدالرحمن أي فى أواسط المئة الثالثة تحرك أفراد من الناس الى طلب العلوم أى غير علوم الشريعة واللغة ولم يزالوا يظهرون ظهوراً غير شائع الى قريب وسط المائة الرابعة.

ذلك لان رجال الدين كانوا أصحاب صولة وتأثير في النفوس . ومن عادة من جهل شيئاً أن يعاديه . فتوهم بعضهم ان هذه العلوم الدنيوية مدرجة الى الزهد فى العلوم الاخروية . فكانوا يشددون النكير على من يتعاطونها ، ولكن أكثر ملوك بنى أمية ومن بعدهم من ملوك الاندلس ، كانوا أعقل من أن يطاوعوهم فى النيل ممن يريدون الايقاع بهم . لمخالفتهم لهم فى العلوم التى يعنون بها .

اشتهر بين وسطي المئة الثالثة والرابعة من العلماء أبو عبيدة مسلم البلنسى المعروف بصاحب القبلة كان عالما بحركات الكواكب وأحكامها وصاحب فقه وحديث ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة من أهل قرطبة كان بصيراً بحساب النجوم والطب وغير ذلك ، متصرفاً فى العلوم . متفنناً فى ضروب المعارف ، وكان معتزلي المذهب ، توفى سنة ٣١٥ ومنهم محمد بن اسمعيل المعروف بالحكيم وكان عالما بالحساب والمنطق نحوياً لغوياً توفى سنة ٣٣١

انتدب الامير الحكم فى أيام أبيه عبد الرحمن صدر المائة الرابعة الى العناية

---

(١) راجع ماكتبه هوار فى تاريخ العرب فى أسماء نقلة الافرنج فى العلوم عند العرب وما كتبه نالينو فى كتابه علم الفلك عند العرب المطبوع فى رومية .

بالعلوم فاستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار الشرق عيون التواليف الجليلة في العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه ما كاد يضاهي ماجمعته ملوك بنى العباس في الأزمان الطويلة . فكثر تحرك الناس في أيامه الى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم .

وقام بعده ابنه هشام فعمد الى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها وأراد استخراج مافيها من ضروب التآليف بمحضر خواص من أهل العلم بالدين وأمرهم باخراج مافي جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا الطب والحساب وأمر باحراق ماعدا ذلك وافسادها فاحرق بعضها . وطرح بعضها في آبار القصر . وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغايير ، فعل ذلك تحببا الى عوام الاندلس وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم . اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند اسلافهم ، مذمومة بالسنة رؤسائهم . وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة ، ومظنونا به الالحاد في الشريعة . فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك . واضمحلت نفوسهم ، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم . ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون مايعرفونه منها ويظهرون ماتجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك الى أن انقرضت دولة بنى أمية من الاندلس .

قال هذا القاضي صاعد وتؤيده رواية ابن سعيد في المغرب قال : وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم فان لهما حظاً عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة . فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه . فان زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة ، وكثيراً مايأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وان كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ماذكره الحجاري .

قال ابن حزم : وأما كتب الفلسفة فامامها فى عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبى وله فيها تصانيف جحدها لما رأى من انحراف منصور بنى عبد المؤمن عن هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك ابن حبيب الذى قتله المأمون بن منصور المذكور على هـذا العلم باشبيلية وهو علم ممقوت بالاندلس لا يستطيع صاحبـه اظهاره ، وكان مطرف الاشبيلى قد اشتغل بالتصنيف في علم النجوم ، الا أن أهـل بلده كانوا ينسبونه الى الزندقة بسبب اعتكافه على هـذا الشأن ، فكان لا يظهر شيئاً ممـا يصنف .

وقال أيضاً من رسالة أهل قرطبة : انهم من التمكن فى علوم القرآآت والروايات فقط وكثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء ، واسع العطن ، متنائى الاقطار فسيح المجال . وقد ذكر ابن حزم فى رسالته هـذه من نبغ فى الاندلس من المؤلفين فى علوم الدين والنسب والتاريخ والطب وعـد بعض كتبهم قال : وأما الفلسفة فانى رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي دالة على تمكنه من هذه الصناعة واما رسائل أستاذنا أبي عبـد الله محمـد بن الحسن المذحجى فى ذلك فمشهورة متداولة ، وتامة الحسن ، فائقة الجودة عظيمة المنفعة . وقال لم يؤلف فى الازياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمح ، وهما من أهل بلادنا وكذلك أحمد بن نصر .

وقال آخر : وأما كتب علم الموسيقى فكتاب أبى بكر بن باجة الغرناطى من ذلك فيه كفاية ، وهو فى الغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالشرق واليـه تنتسب الالحان المطربة بالاندلس التى عليها الاعتماد ، وليحيي الخـدج كتاب الاغانى الاندلسية على منزع الاغانى لابي الفرج ، وهو ممن أدرك المئة السابعة قال صاعد: ولما افترق الملك فى صدر المائة الخامسة من الهجرة بين ملوك الطوائف واقتعد كل منهم قاعدة من أمهات البلاد ، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبـة من امتحان الناس ، واضطرت الفتنة الى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع . فبيع ذلك باوكس ثمن ، واتفه قيمة ، انتشرت

تلك الكتب بأقطار الاندلس ، ووجد فى خلالها اعلاق من العلوم القديمة ، كانت أفلتت من أيدى الممتحنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعية شيء ما كان لديه منها ؛ فلم تزل الرغبة ترتفع من حين ذلك فى طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً ؛ ثم أبيحت تلك العلوم الى أن زهد الملوك فيها وفى غيرها فقل طلاب العلم وصاروا افراداً بالاندلس .

فمن اعلام هذه العلوم على ذاك العهد أبو غالب بن عبادة الفرائضى كان مشهوراً بعلم العدد وأبو أيوب عبد الغافر بن محمد أحد المهرة بعلم الهندسة . وعبد الله ابن محمد المعروف بالسرى كان عالماً بالعدد والهندسة وكان ينسب اليه العلم بصناعة الكيمياء ومنهم أبو بكر بن أبي عيسى كان مقدماً فى العدد والهندسة والنجوم وسائر العلوم الرياضية فكان يجلس لتعليم ذلك فى أيام الحكم . وعبد الرحمن ابن اسمعيل بن زيد المعروف بالاقليدى كان متقدماً فى علم الهندسة معتنياً بصناعة المنطق وأحمد بن حماد القرطبى (٣٣١) عالم بالحساب والهندسة وأبو القاسم أحمد ابن محمد العدوى كان معتناً بعلم العدد والهندسة نافذاً فيها وأبو عثمان سعيد ابن فتحون بن مكرم المعروف بالحمار السرقسطي كان محققاً اماماً فى علم النحو واللغة ؛ وله تآليف فى الموسيقى ورسائل فى الفلسفة . وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرحيط كان أمام الرياضيين فى الاندلس فى وقته ؛ واعلم ممن كان قبله بعلم الافلاك ، وكانت له عناية بارصاد الكواكب وله كتاب حسن فى تمام علم العدد وهو المعنى المعروف بالمعاملات ؛ وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتاني ، وعنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى . وصرف تاريخه الفارسى الى التاريخ العربى ، ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة توفى فى سنة ٣٩٨ وقد أنجب تلاميذ جلة ؛ ولم ينجب عالم بالاندلس مثلهم ، فمن أشهرهم ابن السمح وابن الصفار والزهراوى والكرماني وابن خلدون

فاما ابن السمح القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس فكان متحققاً بعلم العدد والهندسة متقدماً فى علم هيئة الافلاك وحركات النجوم ، وكانت له مع

ذلك عناية بالطب وله تواليف حسنة فى الهندسة وعمل الاسطرلاب والازياج ، ومنها زيجه الذى ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند توفى سنة ٤٢٦ وأما ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر كان متحققاً أيضاً بعلم العدد والهندسة والنجوم ، وقعد فى قرطبة لتعليم ذلك ، وكان له أخ يسمى محمداً مشهور بعمل الاسطرلاب ، لم يكن بالاندلس قبله أجمل صنعاً لها منه .

وأما الزهراوى فهو أبو الحسن على بن سليمان كان عالماً بالعـدد والهندسة معتنياً بعلم الطب . وأما الكرمانى فهو أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن من أهل قرطبة أحد الراسخين فى علم العدد والهندسة ، رحل الى الشرق وانتهى الى حران من بلاد الجزيرة وعنى هناك بعلم الهندسة والطب ثم رجع الى بلاد الاندلس وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل اخوان الصفا ، ولم يدخلها أحد من أهل الاندلس قبله ، ومحله من العلوم النظرية المحل الذى لايجارى فيـه ، توفى بسرقسطة سنة ٤٥٨ وأما ابن خلدون (هو غير عبـد الرحمن بن خلدون المؤرخ) فهو أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمى من اشراف أهـل اشبيلية فى علوم الفلسفة مشهور بعلم الهندسة والنجوم والطب ، مشبهاً بالفلاسفة فى اصلاح أخلاقه ، وتعديل سيرته . وتقويم سياسته ، توفى سنة ٤٤٩

ومن مشاهير تلاميذ أبى القاسم أحمد بن عبدالله الصفار ابن برغوث والواسطي وابن شهر والقرشى والامطش المروانى وابن العطار فاما ابن برغوث فهو محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن برغوث كان متحققاً بالعلوم الرياضية مختصاً منها بايثار علم الافلاك وهيئاتها وحركات الكواكب وارصادها وكان له مع ذلك تحقق بعلم النحو . ومعرفة القرآن والفقه والوثائق ، واشراف حسن على سائر العلوم ، توفى سنة ٤٤٤ وأما الواسطى فهو أبو الاصبغ عيسى بن أحمد أحد المتمكنين من علم العدد والهندسة والفرائض وقعد بقرطبة لتعليم ذلك ، وله أيضاً بصر بجمل من علم هيئة الافلاك وحركات النجوم . وأما ابن شهر فهو أبو الحسن مختار بن شهر الرعينى كان بصيراً بالهندسة فى النجوم متقدماً فى اللغة والنحو والحديث والفقه

شاعراً متكلما ذا دهاء ومعرفة بالسير والتواريخ وأما ابن العطار فهو محمد بن خيرة العطار فكان من تلاميذ ابن الصفار متقناً لعلم العدد والهندسة والفرائض وله بصر بصناعة النجوم وعناية بعلم حركاتها .

ومن مشاهير تلاميذ ابن السمح أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى بن الناشيء وهو بصير بالعدد والهندسة معتن بصناعة الطب وأحكام النجوم وأبو جعفر أحمد بن عبد الله المعروف بابن الصفار المتطبب ومن نظراء هذه الطبقة عبدالله ابن أحمد السرقسطي كان نافذاً في علم العدد والهندسة والنجوم . وقعد لتعليم ذلك في بلده توفي سنة ٤٤٨ ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم الاشبيلي كان بصيراً بعلوم البرهان والاسان والمساءلة متفننا في ضروب المعارف صنعا لطيف اليد توفي سنة ٤٢٠

ومن مشاهير أصحاب ابن برغوث ابن الليث وابن الجلاب وابن حي فاما ابن الليث فهو محمد بن أحمد بن الليث كان متحققا بعلم العــدد والهندسة معتنيا بعلم حركات الكواكب وارصادها وكان مع هذا بصيرا بالنجوم واللغة والفقه توفي سنة ٤٠٥ واما ابن حي فهو الحسن بن محمد التجيبي من أهل قرطبة كان بصيراً بالهندسة والنجوم كلفا بصناعة التعديل وله فيها مختصر على مذهب السند هند وخرج من الاندلس ســنة ٤٤٢ ولحق بمصر ثم رحل الى اليمن واتصــل بأميرها المسبحي وكان ملكه اذذاك يشتمل على بعض أفريقية وجميع مصر والشام وجزيرة العرب والحجاز وتهامة ونجد واليمن حظي عنده وتوفي سنة ٤٥٦ وأما ابن الجلاب فهو الحسن بن عبد الرحمن المعروف بابن الجلاب أحــد المتحققين بعلم الهندسة وهيئة الافلاك وحركات النجوم وله مع ذلك عناية بالمنطق والعلم الطبيعي .

ومنهم أبو الوليد هشام بن أحمــد بن هشام بن خالد الكناني المعروف بابن الوقشي من أهل طليطلة أحد المتفننين في العلوم المتوسعين في ضروب المعارف من أهل الفكر الصحيح والنظر الناقد والتحقق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ في علم النحو واللغة والشعر والخطابة والاحكام لعلم الفقه والأثر والكلام وهو

مع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله عالم بالانساب والأخبار والسير مشرف على جمل سائر العلوم ومن نظراء هؤلاء أبو جعفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيح من أهل طليطلة أحد المعتنين بعلم الهندسة والنجوم والطب وهو من لدات القاضى أبي الوليد هشام بن أحمد بن هشام وأبى اسحق ابراهيم بن لب التجيبى المعروف بالقويدس قعد للتعليم بذلك زمنا وكان له بصر بعلم هيئة الافلاك وحركات النجوم ونفوذ فى العربية توفى سنة ٤٥٤ ومنهم محمد بن عبد الله بن مرشد مولى ابن طاهس الوزير كان كاتبا كامل الصناعة يجمع الى ذلك النبوغ فى علوم كثيرة من الحساب والتنجيم والهندسة توفى سنة ٤٤٨

وكان فى القرن الخامس للهجرة افراد من الاحداث فى الاندلس مشتغلون بعلم الفلسفة ذوو افهام صحيحة وهمم رفيعة فمنهم من سكان طليطلة وجهاتها أبو الحسن على بن خلف بن أحمر وأبو مروان عبد الله بن خلف الاستجي وأبو جعفر أحمد ابن يوسف الهلاكى وعيسى بن أحمد بن العالم وابراهيم بن سعيد السهيلى الاصطرلابى. ومن أهل سرقسطة الحاجب أبو عامر بن الأمير المقتدر بالله وأبو جعفر أحمد ابن جوشن . ومن أهل بلنسية أبو زيد عبد الرحمن بن سيد .

وأبرع هؤلاء فى الهندسة على بن أحمر الصيدلانى وأبو جعفر أحمد بن جوشن وأعلمهم بحركات النجوم وهيئة الأفلاك أبو اسحق ابراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقيال — والزرقيال نسبة لآلة سموها الزرقالة وهى صحيفة لرصد الكواكب — فانه أبصر أهل القرن الخامس بارصاد الكواكب وهيئة الافلاك وحساب حركاتها وأعلمهم بعلم الازياج واستنباط الآلات النجومية وأحمد ابن يوسف يعرف بابن كماد (حماد ؟) كان من أهل المعرفة بالعدد وصناعة النجامة وبنى ازياجه ومنها القبس والمستنبط على ارصاد أبي أسحق الطليطلى المعروف بالزرقالة وأما أبو عامر بن الأمير بن هود فهو مع مشاركته لهؤلاء في العلم الرياضى منفرد دونهم بعلم المنطق والعناية بالعلم الطبيعى والعلم الالهى .

وكان عبد الرحمن بن اسمعيل بن بدر المعروف بالاقليدس الاندلسى متقدما

فى علم الهندسة معتنيا بصناعة المنطق . وموسى بن ميمون الاسرائيلى الاندلسى قرأ علم الأوائل واحكم الرياضيات وشدا أشياء من المنطقيات وأبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة عالماً بعلوم الأوائل لم يبلغ أحـد درجته من أهـل عصره فى مصره وله تصانيف فى الرياضيات والمنطق والهندسة أربى فيها على المتقدمين قال القفطى الا أنه يتمسك بالسـياسة المدنية وينحرف عن الأوامر الشرعيـة استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وكانت وفاته فى سنة ٥٣٣

وممن اعتنى بصناعة المنطق خاصـة من سائر الفلاسـفة أبو محمـد بن حزم القرشى وكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ووزر لابنه المظفر وكان ابنه أبو محمـد وزيراً أيضاً لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم نبذ هـذه الطريقة وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن وعنى بعلم المنطق . ومنهم أبو الحسن على بن اسمعيل بن سيده الاعمى وكان أبوه أيضاً أعمى عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيها تأليفاً كبيراً ذهب فيه الى مذهب متى بن يونس وهو بعد هذا أعلم أهل الاندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وله فى اللغة تواليف جليلة منها المحكم والمحيط الأعظم والمخصص وشرح اصلاح المنطق وشرح كتاب الحماسة ٤٥٨

ومن أعاجيب النوابغ الاندلسيين الذين فقدوا بصرهم ولم يفقدوا بصيرتهم ابن الحناط الكفيف الذى قال فيه ابن حيان انه كان أوسع الناس علماً بعلوم الجاهلية والاسلام بصيراً بالآثار العلوية عالماً بالافلاك والهيئة حاذقاً بالطب والفلسفة ، ماهراً فى العربية واللغة والآداب الاسلامية ؛ وسائر التعاليم الاوائلية ؛ ولد أعشى ضعيف البصر ؛ متوقد الخاطر ؛ فقرأ كثيراً فى حال عشاه ؛ ثم طفىء نور عينيه بالكلية فازداد براعة ونظر فى الطب بعد ذلك فانجح علاجاً وكان ابنـه يصف له مياه الناس المستفتين عنده فيهتدى منها الى مالا يهتدى البصير ولا يخطىء الصواب فى فتواه ببراعة الاستنباط ؛ وتطبب عنده الاعيان والملوك والخاصـة فاعترف له بمنافع جسيمة .

وأما العلم الطبيعى والعلم الألهى فلم يعن أحد من أهل الاندلس بهما كبير

عناية ومن المشتغلين بهما ابن النباش التجانى وأبو عامر بن الأمير بن هود وأبو الفضل بن حسداى الاسرائيلى . وأما صناعة الطب فلم يكن بالاندلس من استوعبها ولا لحق باحد من المتقدمين فيها وأول من اشتهر منهم بالاندلس أحمد ابن اياس من أهل قرطبة ومحمد بن عبد الله الأوسط ويعرف بالحرانى ومنهم يحيى بن اسحق أحد وزراء الناصر لدين الله وسعيد بن عبد الرحمن بن محمد ابن عبد ربه مولى الأمير هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل وهو ابن أخى أحمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر صاحب العقد وكان له بصر بحركات النجوم ومهاب الرياح وتغيير الأهوية . ومنهم عمر بن بريق واصبغ بن يحيى وأحمد ابن حكم بن حفصون وكان هذا طبيباً نبيلا . دقيق النظر ، بصيراً بالمنطق . مشرفا على كثير من علوم الفلسفة ، ومنهم محمد بن تمليخ وأبو الوليد محمد بن الحسين المعروف بابن الكنانى كان عالما بالطب حسن العلاج ومنهم عبد الملك الثقفى كان عالما بالطب والهندسة وكان الطب أغلب عليه ومنهم عمر وأحمد ابنا يونس بن أحمد الحرانى . ومنهم محمد بن عبدون الجبلى وكان قبل ان يتطبب مؤدبا فى الحساب والهندسة ومنهم سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل وعبدالله ابن اسحق المعروف بابن الشناعة المسلمانى الاسرائيلى وأبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكنانى المظفر وكان بصيرا بالطب متقدما فيه ذا حظ من المنطق والنجوم وكثير من علوم الفلسفة ومنهم أبو العرب يوسف بن محمد أحد المتحققين بصناعة الطب توفى سنة ٤٣٠

ومن أشهرهم أحمد بن ابراهيم الانصارى من أهل بلنسية كان من أهل العلم بالفرائض والحساب لايجارى فى التعاليم قعد لتعليم الحساب والهندسة ٥٩٣ ومنهم أبو عثمان سعيد بن البغونش عالم بعلم العدد والهندسة والطب ٤٤٤ ومنهم الوزير أبو المطرف عبدالرحمن اللخمى عنى عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وارسطوطاليس وغيرهما من الفلاسفة وتمهر فى علوم الادوية المفردة حتى ضبط منها مالم يضبطه أحد فى عصره وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له جمع فيه ماتضمنه كتاب ديسقوريدوس

وكتاب جالينوس فى الأدوية المفردة وكان له فى الطب منزع لطيف ، وذلك أنه لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن التداوى بالاغذية أو ما كان قريبا منها . فاذا دعت الضرورة الى الأدوية فلا يرى التداوى بمركبها ، ما وصل الى التداوى بمفردها ، فان اضطر الى المركب ، لم يكثر التركيب ، بل اقتصر على أقل ما يمكن منه .

ومنهم أبو مروان بن زهر الاشبيلى وأبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن الذهبى وأبو عبد الله محمد البجائى المعروف بابن النباش معتن بصناعة الطب ذو معرفة جيدة بالعلم الطبيعى ومشاركة فى الالهي وتحقق بعلم الأخلاق والسياسة وبصر بصناعة المنطق . وممن عنى بطلب الفلسفة والهندسة والمنطق أبو الحسن عبد الرحمن بن خلف بن عساكر كان صنع اليدين متصرفا فى ضروب من الاعمال اللطيفة والصناعات الدقيقة .

ولم تزل صناعة أحكام النجوم نافقة بالاندلس قديما وحديثا فمن مشاهير المشتغلين بها أبو بكر يحيى بن أحمد المعروف بابن الخياط وأبو مروان الاستجى أحد المتحققين بعلم الاحكام والمشرفين على كتب الاوائل والاواخر وله فى التسييرات ومطارح الشعاعات وتعليل بعض أصول الصناعة رسالة فاضلة لم يتقدمه أحد اليها . ومن المذكورين أبو الاصبع عثمان القرى من أهل قرطبة وكان علمه الذي ينسب اليه ويغلب عليه التنجيم ومنهم عبد الرحمن بن وافد اللخمى من أهل طليطلة رحل الى قرطبة فلقى بها القاسم خلف بن عباس الزهراوى وأخذ عنه علم الطب وكان مع تقدمه فى ذلك فقيهاً عالماً متفنناً وله فى الفلاحة مجموع مفيد وكان عارفا بوجوهها وهو الذى تولى غرس جنة المأمون بن ذى النون الشهيرة بطليطلة توفى سنة ٥٦٧ وممن لم يشتهروا محمد بن عيسى بن ينق أبو عامر من أهل شاطبة لازم أبا العلاء بن زهر باشبيلية وأخذ عنه علمه وبرع فى الطب والأدب وتوفى سنة ٥٤٧

ومن الاطباء بالاندلس جواد الطبيب النصرانى كان فى أيام الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط وله اللعوق المنسوب الى جواد وله دواء الراهب والشرابات

والسفوفات . وكان خالد بن يزيد بن رومان النصراني بقرطبة صانعاً بيده عالماً بالادوية الشجارية وابن ملوكة النصراني كان في أيام الامير عبيد الله وأول دولة الامير عبد الرحمن الناصر وكان يصنع بيده ويفصد العروق وكان على بابه ثلاثون كرسياً لقعود الناس وعمران بن أبي عمرو واسحق الطبيب المسيحي كان مقيما بقرطبة وكان صانعاً بيده مجرباً يحكى له منافع عظيمة وآثار عجيبة وتحنك فاق به جميع أهل دهره ومنهم سليمان أبو بكر بن تاج كان في دولة الناصر وابن أم المؤمنين وأبو بكر احمد بن جابر وأبو عبد الملك الثقفي كان أديباً عالما بكتاب اقليدس وبصناعة المساحة وهرون بن موسى الاشبولي وعبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم والرميلي كان بالمرية في أيام ابن معن المعروف بابن صمادح ويلقب بالمعتصم بالله

ومنحم بن الفوال يهودي من سكان سرقسطة كان متقدما في صناعة الطب متصرفاً في علم المنطق وسائر علوم الفلسفة ومروان بن جناح كان يهودياً وله عناية بصناعة المنطق وتوسع في علم لسان العرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب ومنهم اسحق بن قسطار وكان يهودياً أيضاً وكان بصيراً بأصول الطب مشاركاً في علم المنطق مشرفاً على آراء الفلاسفة وله تقدم في اللغة العبرانية وبراعة في فقه اليهود وهو حبر من أحبارهم ومنهم حسداى بن اسحق وكان من أحبار اليهود متقدماً في علم شريعتهم وهو أول من فتح لاهل الاندلس منهم باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك وكانوا قبل يضطرون في فقه دينهم وسني تاريخهم ومواقيت أعيادهم الى يهود بغداد فيستجلبون من عندهم حساب عدة من السنين يتعرفون مداخل تاريخهم ومبادئ سنيهم فلما اتصل حسداى بالحكم ونال عنده نهاية الحظوة توصل به الى استجلاب ما شاء من تآليف اليهود بالمشرق فعلم حينئذ يهود الاندلس ما كانوا يجهلون واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه .

ومنهم الفضل حسداى من ساكني مدينة سر قسطة ومن بيت شرف اليهود بالاندلس عني بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها فاحكم علم

لسان العرب ونال حظاً جزيلا من صناعة الشعر والبلاغة وبرع في علم العدد والهندسة وعلم النجوم وفهم صناعة الموسيقى ، وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتمرن بطرق البحث والنظر واشتغل أيضا بالعلم الطبيعى ، وكان له نظر فى الطب ومنهم أبو جعفر بن أحمد بن حسداى كان آية فى الطب والمنطق ومنهم ابن سمحون أبو بكر حـ...

وكان أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى من مرسية وأعيان أهل الاندلس وأكابرهم فاضلا فى معرفة الادوية المفردة وكان أبو جعفر الغافقى والشريف محمد بن محمد الحسنى وخلف بن عباس الزهراوى وابن بكلارش من أكابر علماء الاندلس فى صناعة الطب وابن الصلت أمية بن عبد العزيز من بلد دانية من شرق الاندلس وهو من أكابر الفضلاء فى صناعة الطب وفى غيرها من العلوم وكان أوحد فى العلم الرياضى متقنا لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود .

ومن أعظم فلاسفة الاندلس أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة وكان فى العلوم الحكمية علامة وقته متميزاً فى العربية والادب والطب متقنا لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قالوا انه لم يكن بعد أبى نصر الفارابى مثله فى الفنون التى تكلم عليها من تلك العلوم فانه اذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالى وهما اللذان فتح عليهم بعد أبى نصر بالمشرق فى فهم تلك العلوم ودونا فيها بان لهذا الرجحان فى أقاويله وفى حسن فهمه لاقاويل ارسطو والثلاثة أئمة دون ريب ومن حكمائهم الالهيين أو المتصوفين الشيخ الاكبر محيى الدين ابن عربى صاحب الفتوحات دفين دمشق .

ومنهم أبو العلاء بن زهر كان غاية فى علوم الاوائل والطب وأبو مروان ابن أبى العلاء زهر وكان من كبار الاطباء . والحفيد أبو بكر بن زهر كان متميزاً فى العلوم ولم يكن فى زمانه أعلم منه بصناعة الطب ومنهم أبو الحفيد محمد ابن أبى بكر بن زهر وأبو جعفر بن هارون الترجالى من أعيان اشبيلية وكان

محققا للعلوم الحكمية متقنا لها معتنيا بكتب ارسطاطاليس وغيره من الحكماء المتقدمين فاضلا فى صناعة الطب عالما بصناعة الكحل . وأبو الحجاج يوسف ابن موراطير من شرقى الاندلس وموراطير قرية من بلنسية كان فاضلا في صناعة الطب فالامور الشرعية أديبا شاعرا ومنهم ابن أخته أبو عبد الله بن يزيد وأبو مروان عبد الملك بن قبلال وأبو اسحق ابراهيم الدانى وكان أمين البيمارستان وطبيبه بالحضرة وكذلك ولداه وأبو يحيي بن قاسم الاشبيلى كان صاحب خزانة الاشربة والمعاجين التى يأخذها الخليفة المنصور من عنده .

وأبو الحكم بن غلندو الطبيب وأبو جعفر احمد بن حسان وأبو العلاء بن أبى جعفر احمد بن حسان وأبو محمد الشذونى وله معرفة جيدة بعلم الهيئة والحكمة والطب مشهور بالعلم وأبو الحسين بن اسدون شهر بالمصدوم الطبيب وعبدالعزيز ابن مساماة الباجى وأبو جعفر بن الغزال وأبو بكر بن القاضى أبى الحسن الزهرى وابن الحلاء المرسى وأبو اسحق بن طملوس من جزيرة شقر من أعمال بلنسية وأبو جعفر الذهبي وأبو العباس بن رومية النباتى العشاب وأبو العباس الكنبنازى وابن الاصم وغيرهم من الأطباء الذين كانوا يجمعون الى الطب أدبا وشعراً أو فقهاً وحديثا وقرآناً أو فلسفة ومنطقا أو نجوما أو كيمياء .

هذه جملة اجمالية في بعض رجال العلم غير الدينى فى الاندلس ذاك القطر الذى اليه تنسب نحو نصف المدنية العربية الذي نقل أهله المدنية القديمة الى أهل المدنية الحديثة فكانوا خير صلة وعائد بين الرومان واليونان والفرس وبين الانكليز والطليان والالمان والفرنسيس وقد تم ما تم من ذلك بفضل عقول خلفاء العرب وملوكهم هناك فقد كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أحد ملوك الاندلس عالماً متقناً مكرما للعلماء والشعراء ولم يزل يبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى أن اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب وكان ممن صحبه من العلماء والمتفننين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين وكان هذا متحققا بجميع أجزاء الفلسفة يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من

الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد الى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو نفق عليهم علم الموسيقى لانفقته عندهم ولم يزل أبو بكر يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار وينبه عليهم ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم ؛ وهو الذى نبهه الى أبى الوليد محمد بن رشد ؛ وأشار اليه بتلخيص كتب الحكيم ارسطاطاليس لان أمير المؤمنين كان يشكو من قلق عبارته أو عبارة المترجمين عنه وغموض أغراضه .

ومن المتأخرين فى هذه العلوم أبو على الصعلعل حسن بن محمد رئيس الموقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة (٧١٦) قال لسان الدين : وكان فقيها اماما فى علم الحساب والهيئة أخذ عنه الجلة والنبهاء قائما على الاظلال والرخائم والآلات الشعاعية ماهراً فى التعديل مداوم النظر ذا استنباطات ومستدركات وتواليف نسيج وحده ورجعة وقته ؛ ومثل أبى جعفر أحمد بن حسن بن باصة السلمى الموقت بالمسجد الاعظم بغرناطة كان نسيج وحده وقريع دهره معرفة بالهيئة وأحكاما للآلة الفلكية ينحت منها بيده ذخائر يقف عندها النظر وتستدعى الحيرة جمال خط واستواء صنعة وصحة وضع وبلغ فى ذلك درجة عالية ونال عناية بعيدة حتى فضل بما ينسب اليه من ذلك كثيراً من الاعلام المتقدمين وازرت آلاته بالحمائريات والصفاريات وغيرها من آلات المحكمين وتغالى الناس فى أثمانها أخذ ذلك عن والده الشيخ المتفنن شيخ الجماعة فى هذا الفن ؛ ومثل أبى العباس أحمد بن مفرج النباتي المشهور (٦٣٨) وابن جابر الرياضي المشهور والوزير ابن الحاج (٧١٤) كان من العارفين بالحيل الهندسية بصيراً باتخاذ الآلة الحربية الجافية والعمل بها انتقل الى فاس واتخذ الدولاب المنفسح القطر البعيد المدى ؛ والمحيط المتعدد الاكواب الخفى الحركة ، ومنهم ابن خاتمة الاديب الطبيب من أهل المئة الثامنة الذى كتب فى الوباء [1] كتابا عرف فيه الميكروب والجراثيم وأثبت العدوى بما لا يقل عن عالم من علماء هذا العصر ؛ وفيه يقول ابن

(١) المقتطف م ٢٨ ص ٣٠٤

الخطيب انه حسنة من حسنات الاندلس ، ومن رجالات الاندلس وأعلامها ابن طملس الوزير ، كان كاتبا مهندسا الى من ضارعهم في علمهم من الاطباء والفلاسفة والحكماء والكيماويين ممن لا يعدهم أناس من المؤرخين في صف العلماء جهلا وتعنتا .

هذا في العلوم الطبية والطبيعية والفلسفية والفلكية والرياضية وقد نبغ في الاندلسيين من العلماء في التاريخ والجغرافيا والادب والرحلات أفراد مابرحت كتاباتهم مرجعا الى اليوم لكل عالم ومؤلف .

وقد أشبهوا علماء الغرب لهذا العهد في العناية بالعلوم المادية وبرزوا فيها حتى نشأ لهم أئمة عظماء على مارأيت سابقاً وألفوا فيها فاحسنوا احسانهم في صنائع لايحسنها الا صنع الايدى دقاق النظر وكثيراً ما كانوا يبسطون المسائل ويتوسعون في تحقيقها ومنهم من يؤلف العشرة والعشرين مجلداً في علم واحد كما فعل أبو حيان مؤرخ الاندلس فالف كتابه في ستين مجلدا وألف أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة كتاب السماء والعالم في مئة مجلد وموضوعه اللغة جعله على الاجناس في غاية الايعاب بدأ بالفلك وختم بالذرة . وكثر فيهم المكثرون من التآليف المجودون فيها ومنهم من كان له مئة تأليف جيد . وقالوا ان تآليف ابن حزم بلغت نحو أربعمائة مجلد وتواليف عالم الاندلس عبد الملك بن حبيب السلمى بلغت ألفاً .

ومن مشاهيرهم ابن جبير الكناني (٦١٤) الذي رحل الى المشرق كما رحل كثير من علماء الاندلس قبله الى مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها في طلب العلم وأخذ الحكمة ثم عادوا الى بلادهم وكتب رحلته المشهورة البديعة ..

واشتهر في الجغرافيا أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ صاحب كتاب معجم مااستعجم والمسالك والممالك ومحمد بن أبي بكر الزهرى الغرناطي من أهل المئة السادسة والشريف الادريسي صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ويقال له كتاب رجار وذلك لانه صنفه باسم رجار الثاني صاحب صقلية وجنوبي ايطاليا سنة ٥٤٨ وغيرهم .

ومن مؤرخيهم الحميدي وابن حيان وابن خلدون وابن الفرضي وابن بسام وابن بشكوال وابن الابار وابن سعيد وابن الخطيب ومن أدبائهم المشهورين ابن جزى وابن هانى وابن سهل الاسرائيلى ويحيى القرطبى وابن رزين وابن عمار وابن لبون والباجى وابن الدباغ وابن الجد وابن القبطرنة وابن عبد البر وابن السيد وابن عصام وابن عطية وابن خفاجة وابن وهبون وابن اللبانة وابن الصائغ وابن سارة الشنتريني وعبادة وابن وهبون وابن خروف وابن خاقان والمصحفى والاشجعى وابن جهور وابن سلمة والدانى وابن برد وابن أبي أمية ومنذر بن سعيد والزبيدى وابن القوطية وابن العربي (أبو بكر) وابن الأعلم والرمادي ومن أديباتهم حفصة بنت الحاج الركونى وعائشة بنت قادم وفاطمة الشيلارى وولادة بنت المستكفى بالله ومريم الفيصولى (الفصولى) وصفية بنت عبد الله التربي والغسانية والباشية والوادى آشية ولبنى كاتبة الحكم بن عبد الرحمن ومزنة كاتبة الأمير الناصر لدين الله وغالية المعلمة وريحانة المقرئة وفاطمة المغامى ، وقمر البغدادية وحسانة التميمية وأم العلا بنت يوسف الحجازية وأمة العزيز الشريفة الحسينية وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح المرية ، والعروضية مولاة أبي المطرف عبدالرحمن بن غلبون واعتماد جارية المعتمد المشهورة بالرميكية والعبادية جارية المعتضد وبثينة بنت المعتمد بن عباد ، وحفصة بنت حمدون ، وزينب المرية ، وغاية المنى ، وعائشة القرطبية ، وأسماء العامرية ، وأم الهناء بنت القاضى عبد الحق ، ومهجة القرطبية ، وهند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبى الشلبية ، وحمدة بنت زياد المكتب وأختها زينب ، قال ابن سعيد انهما شاعرتان أديبتان من أهل الجمال والمال والمعارف والصون الا أن حب الادب كان يحملهما على مخالطة أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها ، وسعدونة وغيرهن

هذه حالة العلوم فى تلك المملكة التى بادت وباد سلطانها ، وقد رأيت كيف كثر المهندسون فى بلنسية وغرناطة وقرطبة واشبيلية وغيرها من حواضر الاندلس وبأعمال هؤلاء الاعلام زخر بحر العمران ، وقامت مدنية العرب على أمتن بنيان حتى دهش بها ابن القرن العشرين العلامة روزيه السويسرى على ما تقدم بك آنفاً .

تفنن عرب الاندلس

٩٧

لم تقف همة الاندلسيين عند حد الابداع في هندسة الدور والمصانع وعمل النقش والتزويق وتنجيد البناء والزخرف فيه وبناء الجسور وتعبيد الطرق وانشاء السكور والسدود ؛ فان هذه الاعمال في العمران كانت نتائج لازمة للثروة العظيمة التي فاضت عليهم من زراعاتهم وصناعاتهم ومتاجرهم ، فقد تفننوا أنواع التفنن في الزراعة ؛ ونقلوا الى الاندلس من الشام أنواعاً من الاشجار والازهار والغراس والبقول لم يكن لاسبانيا عهد بها ومنها انتقلت الى أوربا الغربية ؛ ومن جملة ما أدخلوه من أنواع الشجر والنبات الفستق والموز والنخيل والارز والقطن والتوت وقصب السكر والزعفران والهليون وزهر الكاميليا الحمراء والبيضاء والورد الياباني وغير ذلك ؛ وتفننوا في هذا تفنن الغربيين لعهدنا بزروعهم وورودهم وثمارهم وبقولهم حتى كانت الاندلس المعتدلة الاقاليم ، الحسنة المناخ . تعطي ثلاثة مواسم في السنة لحسن استثمارها . فتدر على أهلها اخلاف الرزق والغنى سواء في العناية عندهم الاعذاء أي الاراضي التي تسقى بالامطار أو التي تسقى سيحاً أي بماء الانهار . ذلك لانهم حفروا آباراً . وأسالوا المياه من القاصية ، وعمروا خزانات وسدوداً .

وكان لهم بصر بالصنائع حملوا معهم من الشام أيضاً صناعة صقل السيوف وهي الصناعة التي نسبت الى دمشق حتى اليوم فقيل لها بالافرنجية Damasquinage أو Damasquinerie أو Damasquinure أي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ وقد اشتق منه الفعل عندهم Damasquiner كما نقلوا صنعة الأقمشة من الحرير والكتان مزينة بالرسوم من دمشق أيضاً فنسبت اليها عندهم وقالوا في فعلها Damasser أي عمل ثيابا على النمط الدمشقي .

واختصت قرطبة بدبغ الأديم أي الجلود واشبيلية بالحرير (كان فيها سنة ١٥١٥ ستة عشر ألف نول يعمل فيها ١٣٠ ألفاً من العملة فأصبح عددها سنة ١٦٧٣ أربعمائة نول فقط وذلك بعد جلاء العرب والاسرائيليين) وكان بمالقة يعمل الزجاج كما « يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقاصي البلاد » والى اليوم ينسبون هذا الصنف الى مالقة فيقولون في بلاد الشام المالقي للصحاف والاواني المعروفة . واشتهرت المرية بعمل الوشي والديباج والجوخ (كان فيها ٦٠٠٠ نول للاجواخ) و « لكورة باجة خاصية في دباغة الأديم وصناعة الكتان » وكان في المرية « لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللاسقلاطون [1] كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية مثل ذلك وللعنابي والمعاجر [2] المدهشة والستور المكللة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف »

وكان الديباج والوشي يعمل أولا في قرطبة ثم غلبت عليها المرية فلم يتفق في الاندلس من يجيد عمل الديباج اجادة أهل المرية . وانفردت سرقسطة بصنعة السمور ولطف تدبيره وهي الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية خصوصية لاهل هذا الصقع « وفي جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق » وكان في جيان ٦٠٠ نول للحرير ويعمل السجاد في رية والسلاح والحلي في قرطبة ومرسية وطليطلة وسرقسطة . وأخذت شاطبة تصدر الورق بكثرة منذ سنة ١٠٠٩ قال ياقوت وفي شاطبة يعمل الكاغد الجيد ويحمل منها الى سائر بلاد الاندلس وبالجملة فلاهل هذه الديار « خصائص كثيرة ومحاسن لاتحصى واتقان لجميع مايصنعون » قال ميجون : كانت في الاندلس عدة معامل مشهورة لصنع الفسيفساء ويسمونه المفصص ونقلت صناعة الفسيفساء عن الرومان

---

(١) بلد بالروم تنسب اليه الثياب السقلاطونية وقد تسمى الثياب بنفسها سقلاطوناً قال في التاج هي كلمة رومية (٢) المعجر ثوب يمني يلتحف به ويرتدى والجمع المعاجر

وهكذا رسخت الصنائع فى امصار الاندلس ، برسوخ الحضارة وطول أمدها قال ابن خلدون : فانا نجد فى الاندلس رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمبانى والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو ، من الآلات والاوتار والرقص ، وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع فى البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف ، وجمع المواعين واقامة الولائم والاعراس ، وسائر الصنائع التى يدعو اليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك ، وحظ متميز بين جميع الامصار . »

وذكر سيديليو ان العرب من حيث الاخلاق والعلم والصناعة كانوا أرقى بكثير من الاسبان وهم أمتن أخلاقاً وطبائع . وفيهم الكرم والاخلاص ، والاحسان الذى لم يكن عند عداتهم كما ان فيهم عزة النفس التى امتازوا بها فى كل زمن ، وكان الافراط المضر فيها داعياً الى احداث البراز . وساعد على عظمة العرب فى اسبانيا انتشار الآداب والعلوم والفنون على عهدهم انتشاراً كثيراً وكذلك الزراعة والصناعة وعم الذوق فى اللذائذ العقلية جميع طبقات المجتمع . والشعر يرقي النفوس . وغدت المنافسة الشريفة على أتمها فى الافكار . وكانوا يكتبون على جميع المصانع اسم من أمر ببنائها ، واسم بانيها . والأمة تمدح المحسن بها ، والمحسن لبنائها ، وارتقت عندهم الهندسة والموسيقى والرقص الى درجة ذات بال ، ولا يزال الى اليوم فى الغرب يدرس أسلوب بنائهم ، ويعجب بما نقشوه فيها من النقوش ، وكان لدولة الموحدين فى الاندلس ذوق خاص فى البناء انشاؤا الجوامع والمآذن والاماكن العامة والمستشفيات والرباطات ، فى كل بلد من بلادهم وأقاموا الطرق والجسور والسدود وحفروا الآبار وأجروا الانهار اهـ .

ولقد كانوا يستخرجون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب ويستقطرون السكر ويعملون اللبود « المشهورة فى جميع الارض بالجودة والصبغ الحسن . ولهم من الالوان والاصباغ والحشائش التى يلون بها

الحرير وأنواع الصوف والثياب ماليس في بلد من بلدان الارض له نظير حسناً وكثرة . » ويحملون حاصلاتهـم ومصنوعاتهـم الى أقطار المملكة العربية بل الى أقاصي البلاد الشرقية والغربية فى البحار على سفن الاندلسيين التجارية وكان لهم منها أساطيل فى كل فرضة من فرضهم تقلع على الدوام من موانى الاندلس لتحمل الى شواطىء أفريقية وآسيا وأوربا مايروج فيها من سلعهم ومعادنهـم وثمارهم وحبوبهم .

قال كاباتون : كانت مدنية العرب فى اسبانيا ظاهرة فى الامور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعيـة لاخصاب الاراضى البائرة فى الاندلس من الاساليب العلمية التى اتخذوها لريها وهى أساليب ان لم تكن من اختراع العرب فهم الذين أكملوا نواقصها وأحسنوا استخدامها كما أنهم أسسوا معامل للحرير والجلود والبلور وغزل الصوف والقطن والكتان والقصب وأقاموا مالا يحصى من المعاهد العامة وفيها مايستدعى اعجاب الامم بأسرها حتى بعـد ثمانية قرون من انشائه اه .

وقال أحد علماء الفرنجة : كان فى الاندلس على عهد الحضارة العربية أربعون مليون نسمة من أرباب الصنائع والعمل (سكان اسبانيا اليوم نحو ٢١ مليونًا وسكان البرتقال ٦ ملايين) وعلى ذلك العهد قامت فيها المدن المهمة التى يعجب الناس الى اليوم بخرائبها وعلى ذاك العهد كانت الزراعة ناجحة وبفضـل هندسة العرب كانت المياه تجرى الى كل مكان فى بسائطها فتحمل الخصب والامراع . وقال آخر : ان عهد استيلاء العرب على اسبانيا كان أسعد أيامها لنجاح زراعتها بما قام فيها من أعمال السقيا وبفضل غراسهم وزروعهـم وحسن استثمارهم لمعادن الارض ومناجمها ولما اغتنت البلاد كثر فيها سكان الدساكر والقرى كما كثر سكان المدن الكبرى .

***

ولا عجب — وحال البلاد من ارتقاء الصنائع والزراعة وتعدين المناجم واتساع

التجارة قد بلغ هذا الحد — ان كانت جباياتها من حقوقها وغير واجبها الى سنة ٣٤٠ ه نحو عشرين ألف ألف دينار قال ابن حوقل : ولست أشك على مايوجبه النظر وتواطأ به الخبر فيما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه من خدمه والمصادرين الذين كانوا فى جملته عن أسباب الاندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها واعشارها وصدقاتها وجواليها تمام أربعين ألف ألف دينار وبلغ خراج الاندلس على عهد عبد الرحمن الثالث عدا ما كانت دولته تستوفيه عيناً ٦،٢٤٥،٠٠٠ دينار . وحكى ابن خلدون عن الثقات من مؤرخى الاندلس : ان عبد الرحمن الناصر خلف فى بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطير خمسمائة الف قنطار وكان هذا الملك يقسم الجبايه اثلاثاً ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف الف واربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السّتوق (١) والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان . وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر الى ثلاثة آلاف الف دينار بالانصاف .

***

كان للاندلسيين حذق باستخراج العلوم واستنباطها من ذلك ان عباس بن فرناس حكيم الاندلس صنع فى بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود وهو الذى استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفه بالمثقال (؟) ليعرف الاوقات على غير مثال واحتال فى تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين وطار فى الجو مسافة بعيدة ثم سقط . فهو أول من حاول الطيران من بنى الانسان

وكان أهل قرطبة أول من عنى بتبليط المدن وكذلك انارة الطرق فى الليل عرفت لاول مرة فى قرطبة أيضاً ولما ارتقت العلوم على عهد بنى الاحمر فى غرناطة اكتشفوا بل اخترعوا بارود المدافع وعرف منذ ذاك العهد ولا تزال مدافعهم

(١) الستوق الزيف البهرج الملبس بالفضة

التي دافعوا بها عن غرناطة محفوظة الى اليوم في أحد متاحف اسبانيا .

وفي الاندلس عرف الطبع فكان أحد أبنائها هو السابق في مضمار هذا الاختراع الذي لم تنتفع الانسانية بافيد منه . فكانت لهم فيه طريقة لم ينته الينا خبرها بالتفصيل بل عرف اجمالا ان عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر من أهل المئة الرابعة « كان ينفرد بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يبعثها للطابع فتطبع وتخرج اليه فتبعث في العمال وينفذون على يديه » فاذا كان هذا هو الطبع المعروف وما نظنه الا هو فيكون ابن بدر العربي قد سبق غوتمبرغ الالماني مخترع الطباعة بنحو أربعة قرون .

وذكروا أن ملوك غرناطة فرضوا جوائز للمخترعين لينشطوهم ويلقوا المنافسة بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة على نحو مافعل لويز الرابع عشر وكولبر في فرنسا . وعني الاندلسيون بتأليف رسائل يفهمها كل انسان تكون معواناً على الانتفاع بالاعمال العامة وهم انشأوا دساتير سهلة التناول يتدارسها الصناع والعملة فتفيدهم فيما هم بسبيله .

واخترع الاندلسيون الخطوط المخصوصة بهم كما اخترعوا الموشحات التي استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها وكانت طبقاتهم في نظمهم ونثرهم لاتخفى على بصير ولم يكن يخلو بلد من كاتب بليغ وشاعر مفلق بل « كان من مدنهم مثل شلب قل ان ترى من أهلها من لايقول شعراً ولا يعاني الأدب ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبته منه » وخص أهل وادي آش بالادب وحب الشعر . وعلل ذلك أحد العارفين بقوله أن أهل الاندلس أشعر الناس لما أكثر الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والانهار والطيور والكؤوس لاينازعهم أحد في هذا الشأن .

وكانت للاندلسيين عناية بنقد الشعر لا يجوز عليهم ساقطه ونبغ كثيرون منهم في هذا المعنى والفوا فيه التآليف الممتعة . وكانت لهم مدارس لتعليم

القرآن والكتابة والحساب وتعلم العلوم على اختلاف ضروبها فى الجوامع من غير نكير يعلمون الفلك والجغرافيا واللغة والطب والنحو ومبادىء الطبيعة والكيمياء والمواليد الثلاثة ذكروا أنه كان فى قرطبة ثمانون مدرسة عامة وسكانها مليون نسمة وان الموحدين انشأوا فى الاندلس مدارس عامة ومدارس عليا وأغدقوا احسانهم على العلماء يريدون أن يعيدوا الى الاندلس بهاءها على عهد الامويين وان الحكم انشأ فى قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة اتخذ لها المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن وأجرى عليهم المرتبات وعهد اليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم وفى ذلك يقول بن شخيص :

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتب لليتامى من نواحيها
لومكنت سور القرآن من كلم نادتك ياخير تاليها وواعيها

واحدث رضوان النصرى (٧٦٠) المدرسة بغرناطة ولم تكن بها وكانوا كما قال ابن سعيد يقرأون فى جميع العلوم فى المساجد باجرة فهم يقرأون لان يعلموا لا لان يأخذوا جارياً فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ذلك أن يترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم .

وكثيراً ما كان ملوك الاندلس يقترحون على الناس حفظ الكتاب الفلانى من كتب الادب والعلم ومن حفظه فله كذا دينار فما هو الا أن يحفظه مئات طمعاً فى الجائزة وعم التلذذ بالادب جميع طبقات المجتمع عندهم . وكثير من الشعراء كانوا ينتجعون بشعرهم الملوك والامراء يمدحونهم فيصلونهم ويؤونهم زمناً على نحو ما كانت الحال فى القرون الوسطى فى المتشاعرين المتغنين بالشعر المتكففين به فى بلاد الافرنج ويسمونهم بالافرنسية التروبادور والتروفير [1]
Les Troubadours et les Trouvères

---

(١) التروبادور شعراء كانوا يقولون الشعر باللغة الافرنسية القديمة فى القرن الحادى عشر الى

***

وكان تعليم البنات شائعاً عندهم وكثير منهن يحفظن بضعة دواوين من دواوين العرب وينظمن ويترسلن كالاوربيات اليوم واذا عرفت ان المدارس كانت مبذولة فى المدن والقرى فلا تستغرب بعد ذلك ان قال أحد مؤرخي الافرنج ان سكان اسبانيا الاسلامية الا قليلا كانوا يقرأون ويكتبون على حين كان اهل الطبقة العليا فى أوربا المسيحية أميين لا يقرأون ماعـدا أفراداً قلائل من الشمامسة جعلوا الـكتابة من شأنهم .

وكان للاندلسيين غرام بتسبيل الـكتب على المطالعة ولهم خزائن كتب عامة وخاصة وكانت قرطبة أكثر بلاد الاندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الـكتب صار ذلك عندهم من آلات التعين والرئاسة فلا يكاد يخلو دار من خزانة فيها كتب قيمة . وقد انشأ الحكم الثانى عدة مكاتب المطالعين فكان يرسل وكلاءه الى المشرق يستنسخون الاسفار فما هو الا أن يؤلف المؤلف تصنيفه حتى تستنسخ منه نسخة أو نسخ لتحمل الى خليفة الاندلس ولا يفوت بلاده شيء من حركة العقول وكانت دار كتبه تحتوي على أربعمائة الف مجلد جاء فهرسها فى أربعة وأربعين مجلداً ولطالمـا أجزل ملوك الاندلس الصلات لبعض مؤلفى الشرق والاندلس حتى يذكروا فى مقدمتها أنهم الفوها برسم خزائنهـم ومن المؤلفين من كانوا يرضون بذلك ومنهم من لا يرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه .

وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والادباء فى الاندلس مجامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الاكاديميات فى هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحـكمة بينهم فنتج من اجتماعهم فوائد مهمة للعلم والمدنية . وكان المظفر بن

القرن الخامس عشر والتروفيرشعراء بلغة وال من القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر كانوا يختلفون الى الملوك والعظماء ينشدون الاشعار ويضربون على الاوتار وربما أقاموا فى قصورهم مدة ثم ينتقلون .

الافطس صاحب بطليوس من أعلم الملوك بالادب وله التصنيف المترجم بالتذكرة والمشتهر بالكتاب المظفرى فى خمسين مجلداً فى الفنون والعلوم واستأدب لبنيه أبا عبد الله بن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة فيفيد ويستفيد وكان لأبى عامر أمير الاندلس فى دولة هشام المؤيد مجلس معروف فى الاسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته .

وقد انشأ الحكم مجمعاً فى قصر مروان وقلده غيره من أمراء الاندلس فأنشأوا مجامع لهم . وانشأ احمد بن سعيد النصرى مجمعاً فى طليلة فكان يجتمع عنده أربعون عالماً من طليطلة والبلاد المجاورة ثلاثة أشهر فى السنة أى فى شهر تشرين الثاني وكانون الاول وكانون الثاني يعقدون اجتماعاتهم فى ردهة فرشت أحسن فرش فيبدأون عملهم بتلاوة آيات من الكتاب العزيز ثم يتذاكرون فى تفسير ما قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد الى البحث فى فنون شتى من العلم والحكمة .

***

وكان أمير المسلمين على بن تاشفين لايقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء[1] فكان اذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد اليه أن لايقطع أمراً ولا يبت حكومة فى صغير من الامور ولا كبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الاول من فتح الاندلس . وأمير المسلمين هذا هو الذى اجتمع له ولابيه من أعيان الكتاب وفرسان

---

(١) كان للقضاة فى الاندلس مشاورون حتى لا يصدروا الا عن آراء ناضجة واليك مثالا من تقليدهم : « هذا كتاب تنويه وترفيع ، وانهاض الي مرقى رفيع ، أمر بكتبه الامير الناصر للدين أبو جعفر بن أبى جعفر أدام الله تأييده ونصره ، للوزير الفقيه الاجل المشاور الحسيب الاكمل أبى بكر بن أبى جمرة ادام الله عزه انهضه به الى الشورى ليكون عند ما يقطع بامر ، أو يحكم فى نازلة ، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه ، لما علمه من فضله وذكائه وجده فى اكتساب العلم واقتنائه ، ولكون هذه المرتبة ليست طريفة له بل تليدة ، متوارثة عن اسلافه الكريمة وآبائه ، فليتحملها تحمل المستقل بأعبائها ، اللاحق بأنبائها ، العالم بمقاصدها المتوخات المعتمدة وانحائها ، والله يزيده تنويها وترفيعاً ويبوءه من حظوته وتمجيده مكانا رفيعا ، وكتب في التاسع لذى حجة ٥٣٩ الثقة بالله عز وجل اﻫ .

البلاغة مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار فانقطع اليهما من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى اشبهت حضرتها حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الاندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأ لاهل الآداب خلدت فيهم ولهم قصائد أشادت مآثرهم ، وابقت على غابر الدهر حميد ذكرهم .

كان أهل دانية اقرأ أهل الاندلس لان مجاهداً العامرى كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق الاموال فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده فكثروا فى بلاده قلنا واذا كان عرض الاندلس فى بعض أدوارها مافرق جامعتها السياسية فاستفاد من ذلك أعداؤها فقد كان لتفريقهم الى ممالك صغرى داعياً الى التنافس أحياناً حتى صار لكل اقليم مزية ليست لغيره ، واختص كل ملك بشيء فاتخذ أسباب النجاح فيه ، واستدعى أهل الاخصاء من رجاله .

ومن لطيف تدبيرهم فى الانفاق على الجند دون تحميل الامة أعباءه وهو تحت السلاح ما عمله ابن جهور رئيس قرطبة من جعل أهل الاسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها فقط ورؤوس الاموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون فى الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفريقه فى الدكاكين وفى البيوت حتى اذا دهم أمر فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه .

ومن أجل أعمالهم فى اقامة قسطاس العدل ان هشام بن عبد الرحمن الداخل كان يبعث الى الكور قوماً عدولا يسألون الناس عن سير العمال ثم ينصرفون اليه بما عندهم . واعترض له يوماً متظلم من أحد عماله فبدر الى الشاكى وقال له : احلف على كل ماظلمك فيه فان كان ضربك فاضربه أو هتك لك ستراً فاهتك ستره أو أخذ لك مالا نخذ من ماله مثله الا أن يكون أصاب منك حداً من حدود الله فجعل الرجل لايحلف على شيء الا أقيد منه .

ولقد بنى الخليفة عبد الله بن محمد الساباط بين القصر والجامع بمدينة قرطبة

وكان يقف فيه قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرى الناس ويشرف على اجتهادهم وحركاتهم ويسير بجماعاتهم ويسمع قول المتظلم ولا يخفي عليه شيء من أمور الناس وكان يقعد أيضاً على الابواب فى أيام معلومة فترفع اليه فيه الظلامات وتصل اليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرحباً مستطيلا لذلك فلا يتعذر على ضعيف ايصال بطاقته بيده ولا انهاء مظلمة على لسانه وفتح باباً في قصره سماه باب العدل وكان يقعد فيه للناس يوماً معلوماً فى الجمعة ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم ستراً . فكانت سيرة عمالهم مع الرعايا ان يتحفظوا من كل أمر يوجب الشكوى منهم وينقبضون عن التحامل على من دونهم .

وهكذا فانه لا يكاد يخطر ببالك شيء من أدوات الحضارة ومقومات العمران وأساليب العلم والمعرفة الا قام به أو ببعضه ملوك الاندلس وأهلها حتى التماثيل فانها كانت تجعل فى قصور العظماء والصور تزين بها غرفهم وردهاتهم لذلك أبقوا على أكثر ما كان فى البلاد قبل الفتح من التماثيل للاعتبار بها خصوصاً بعد ان انغمسوا فى الحضارة قال أبو عامر البرياني فى الصنم الذى بشاطبة :

بقية من بقايا الروم معجبة — أبدى البناة بها من علمهم حكما
لم أدر ما أضمروا فيه سوى أمم — تتابعت بعد سموه لنا صنما
كالمبرد الفرد ما أخطا مشبهه — حقاً لقد برد الايام والامما
كأنه واعظ طال الوقوف به — مما يحدث عن عاد وعن إرما
فانظر الى حجر صلد يكلمنا — أشجى وأوعظ من قس لمن فهما

وقد أقاموا حدائق للحيوانات والنباتات وعنوا حتى بصراع الثيران فضارعوا الاسبانيين وربما فاقوهم وأولعوا بالرقص ولهم منه أنواع وكذلك آلات الطرب كالخيال [1] والكرج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة

(١) الخيال هو الذى يسمى خيال الظل أو الخيال الراقص أو خيال جعفر الراقص وجعفر اسم مخترعه يسميه العامة كركوز «قره كوز» وبالفرنسية Marionnette, polichinelle والكرج تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيول فيكررن

والقيثار والزلامى والشفرة والنورة والبوق وكان فى مدينة آبدة من أصناف الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ماتظنهن فيه احذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدكر واخراج القزى والمربط والفتوخة

أما الموسيقى فقد كان زرياب أدخلها الاندلس فكان يجرى عندهم مجرى الموصلى فى الغناء وله طريق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه وعلا عند الملوك وأحسنوا اليه حتى كادوا يفرطون وشهر شهرة ضرب بها المثل . ولا عجب اذا قلنا ان تفرق الاندلس اصقاعاً وممالك كان أشبه بتفريق المانيا وايطاليا قبل وحدتهما الى أمارات صغيرة تتنافس فى مضمار العلم والصنائع والعمران .

مدينة مجريط

٩٨

سار بنا القطار من باريز الى جنوبي فرنسا ماراً بأراض عامرة بزراعتها دالة على سلامة ذوق أهلها وتفننهم فى ضروب الحياة المادية والأدبية ولما اجتزنا جبال البيرنات « جبل الثنايا » دخلنا ليلا محطة إرون الاسبانية قاصدين الى

ويفررن ويثاقفن وهى من آلات الرقص وتسمى بالفرنسية Carrousel, chevaux de bois والروطة ضرب من الرباب معربة عن الاندلسية Rotta أو Rote, وبالافرنسية rotte أو Rote, والمؤنس قربة يركب فيها مزمار ولعلها من اصل اسبانى يقابلها بالفرنسية Musette أو Cornemuse والكثيرة ضرب من السنطور تنقر أوتارها بالاصابع Cithare والقثار Guitare آلة ذات ستة أوتار ولها يد مقسومه الى انصاف الحان يركب عليه دساتين والزلامى نوع من المزمار هو تصحيف الزنامى نسبة الى زنام مستنبط الناى وكان زنام زماراً مشهوراً عند هرون الرشيد يضرب به المثل فى حسن صناعته . والشقرة والنورة مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه والعود معروف وبالفرنسية Luth والرباب معروف وبالفرنسية Rebec والقانون مشهور وبالفرنسية Harpe والبوق معروف . والدكر نوع من الرقص أو اللعب يعرفه الزنج والحبش وبالفرنسية Kalenda والقزى نوع من لعب المشعوذين والفتوخة جمع فتخة وهى خاتم كبير وهى لعبة الخاتم « من مقالة للعلامة الاب انستاس مارى الكرملى : المقتبس م ١ ص ٤٣٥ »

مجريط عاصمة اسبانيا الحديثة كثرت لواعج الاشواق الى الصقع الاندلسي واشتدت تباريح الذكرى

وأكثر مايكون الشوق يوماً   اذا دنت الخيام من الخيام

تمثلت للعين تلك الأمة العربية الغربية ، وما أثلته من الامجاد فى هذه البلاد ، وظهرت فيه من مظاهر الحياة الراقية ، تذكرت جيلا عظيما ، لم يبق سوى التحدث بطيب أخباره . والتطلع الى جميـل آثاره ، ذكرت عشرات الألوف من العظماء ضمت الاندلس أعظمهم ، وكان كل واحد أمة برأسـه ومنهم من لم ينبغ أمثال لهم فى أمة فى القرون المتواصلة وودت لو أمكن العمل بحكمة المعرى حين قال :

خفف الوطء ما اظن أديم الا   رض الا من هذه الأجساد
وحرام بنا وان قدم العهـ   ـد هوان الآباء والأجداد

مدينة مجريط أو مدريد هى عاصمة اسبانيا منذ سنة ١٥٦٠ وسكانها اليوم يقربون من سـبعمائة ألف وهى العاصمة التى اختارها فيليب الثانى لتوسطها من البلاد وكانت على عهد العرب حصناً أو بليدة ولم ترزقها الطبيعة نهراً كبيراً ولا ضاحية بديعة مشجرة مثمرة بل كان قديماً فى أرباضها بعض الغابات فخطمت ولم يبق منها الا القليـل . على أن فيها اليوم مافى جميع عواصم الغرب من المرافق والمصانع . زرت بعضها وهى لاتختلف عن مصانع الأمم اللاتينية الا قليـلا بل هى أقل عظمة من مصانع ايطاليا وفرنسا وليس فى مجريط أثر يعتد به من آثار العرب ، وأما آثار الاسبانيين الحديثة فليست مما يعجب به كثيراً لأنها حديثة عهد على الأغلب وتكاد تكون الصبغة الدينية متجلية فى كل مصنع من مصانعهم.

وأكثر أحياء المدينة ضيقة وبيوتها مزدحمة كسائر المدن المنحطة فى أوربا الا ان بعض الأحياء والدور المستحدثة هى على الطراز الغربى الجديد ولها حدائق وساحات على جانب من السعة مسـتوفاة شروط الصحة . وقد أنشئت فى زمن الحرب العامة فى مجريط وغيرها من مدن اسبانيا بيوت أقامها أغنياء الحرب أى الذين اتجروا فيها وربحوا وربحت بهم اسبانيا لحيادها وقد أحسنت لنفسها بالتزامها

خطة المسالمة ومن هذه البيوت مايقتضى ألوفاً من الايرات . فلما اشتدت الازمه على أوربا عامة لحق اسبانيا من أثرها شيء بالطبع فوقف العمل فى بعض تلك البنايات وكذلك كثير من المشاريع والمعامل التى أحدثوها مغتنمين فرصة تقاتل جيرانهم

في مجريط تسعون كنيسة من الكنائس التى لاشأن لها في نظر التاريخ وعلم العاديات . وليس لها مقام رفيع فى باب البناء الحسن . والمصانع التى من هذا القبيل ليست بالكثيرة العدد وقد قام القصر الملكى اليوم محل القصر العربى وكان هنرى الرابع جعل هذا القصر محلا للصيد . وفى متحفهاالوطنى بعض آثار العرب التى أفلتت من أيدى الذين زهدوا فيها بصنع المتعصبين من رجال الدين وخربوها وأتلفوها . أما تاريخ هذا الحصن العربي أى مجريط فليس بعظيم وخلاصته أنه أخذ من العرب ثم استعادوه الى أن استولى الاسبان على طليطلة سنة ١٠٨٦ م فأصبحت مجريط يومئذ اسبانية وقد زادت مكانة مجريط فكبرت رقعتها فى الجزء الثانى من القرن التاسع عشر وذلك لاتصالها بالخطوط الحديدية مع الولايات ومع فرنسا والبرتقال وقد أنشيء فيها في العهد الأخير تراموای كهربائي Métropolitain تحت الأرض على مثال تراموای باريز ولندرا وبرلين ونيويورك .

دير الاسكوريال

٩٩

أهم ما فى ضاحية مجريط دير الاسكوريال على أحد وخمسين كيلو متراً منها بناه فيليب الثانى ونجزت عمارته سنة ١٥٨٤ وعمر فيه حفيده فيليب الرابع البانتيون مدفن العظماء من الآل الملوكى وقيل انه أنفق على الدير خمسة عشر مليوناً ونصف

مليون من البستاس أى الفرنك الاسبانى .

والاسكوريال كما قال عنه واصفوه من الافرنج مثال مما تعمله الارادة ومما لا تعمله فقد قيل ان الارادة قادرة فى بعض الاحوال وعاجزة عن إيجاد عمل واحد يدل على نبوغ وعبقرية وهذه الشعلة الالهية قد نقصت فى عمل بانى الدير : فمن انه نشأ فى عهد لم يشتهر بقوة الايجاد ولا بسلامة الذوق فجاء بناؤه جافاً رغم ما تعاوره من أيدى المهندسين لم ينم عن لطف ولا حوى أسباب الجمال . وغلب على البناء تصنع الملك فيليب في مظاهر أبهته وعظمته ولطالما ضيق صدور أسرته وحاشيته منه فى هذا الشأن فلم يكن لهم هم الا أن يدهنوه وكان من طبعه أن يتدخل فيما لا يعلم حتى أفسد على المهندسين عملهم أو كاد وجاء العمل الذى أبقاه للاعقاب حتى يفتخروا به وليس فيه كبير أمر من جمال الهندام والنظام أشبه بسجن مظلم وديماس منحوت .

وأهم ما يلفت النظر فى هذا الدير دار كتبه وفيها خمسة وأربعون ألفاً من المجلدات حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم ومنها الكتاب المقدس الذى كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا فى القرون الوسطى وبعضها كتب باللاتينية ومنها ما كتب بالاسبانيولية أو اليونانية ومنها المزين باجمل الرسوم ومنها المذهب المكتوب على رق ويهمنا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهى الفا مجلد كانت السفن الاسبانية غنمتها من مركب لاحد ملوك مراكش المتأخرين . وكان فى هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربى فالتهمتها النار فى الحريق الذى نشب فى الدير مع ما التهمت من الكتب الاخرى .

فليست الكتب العربية فى خزانة الاسكوريال اسبانية المصدر كلها كما أكد لنا أحد علماء الاسبان وصاحب البيت أدرى بالذى فيه أخبرنى أن الاسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لاحد سلاطين المغرب الاقصى فوقعت فى أيدى الاسبان وقال آخر أن أصل هذه المجموعة كانت لاحد سفراء اسبانيا

لدى الباب العالى ولما غادر الاستانة أهداها لملكه فوضعها هذا فى الدير الذي كان مالكاً له ولآله من بعده والرواية الاولى أصح .

وقد وصف هذه الكتب باللاتينية أحد رهبان الموارنة من سنة ١٧٤٩ ١٧٥٣ وفيها ١٩٥٥ مخطوطاً رأيت نموذجات منها وقرأت وصف الآخر فيما كتبه أحد علماء المشرقيات من الفرنسيس ولا سيما القسم الذى يهمنى منها

عرانى فى هذا الدير ما عرا كثيرين قبلى من السويداء ثم السكون والراحة والبرودة التى تدعو الى العزلة والتفكر والانكماش والدرس وانك لتشعر وأنت تسير تحت قباب الاسكوريال العارية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة الاديار كما تشعر فى مدارس اكسفورد وبيعها والنازل هنا بطبيعته يرى دافعاً من نفسه يدفعه إلى أن يشغل نفسه بشىء وما من ملجأ أوفق لنسيان العالم يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر فى كشف المسائل المتعذرة المبهمة المجهولة مثل هذه المعاهد .

قرطبة والزهراء

١٠٠

بأربعة فاقت الامصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيء وهو رابعها

لم يكتب لى أن أزور مدينة طليطلة لاشهد فيها قصور العرب القديمة ومساجدها القائمة الى اليوم وعادياتها المأثورة وكانت من عظائم مدائن الاندلس وهى من قرطبة على عشرين يوماً فاكتفيت بزيارة ثلاث مدن من أمهات المدن الاندلسية قرطبة واشبيلية وغرناطة وهى العواصم الثلاث التى تأصل فيها حكم العرب وطالت أيامه .

وقرطبة كانت فى عزها أعظم مدائن الاندلس فأصبحت الآن وليس فيها من

السكان سوى ثمانية وخمسين ألف ساكن وقيل ان مساجدها بلغت ألفاً وستمائة مسجد وحماماتها ستمائة وذكر آخرون انه كان فيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر دورها ثلاثون ألف ذراع وكان بخارجها ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبر وفقيه مقلص [1] تكون الفتيا فى الاحكام والشرائع له يأتون كل جمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويطالعونه بأحوال بلدهم .

قال المراكشى : بلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة . حكى ابن فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى هذا ما فى ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها وكان الماشى يستضىء بسرج قرطبة ثلثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء .

وفى تواريخ الافرنج ان قرطبة كانت منقطعة القرين بين مدن الغرب أى أوربا وليس مايشبهها بعمرانها وسكانها فكان فيها خمسمائة ألف ساكن و٢٨٧ ربضاً وهى مكتظة بالسكان وقد قامت المتنزهات البهجة المغروسة بأنواع الاشجار على طول الوادى الكبير والقصور والمصايف مغطاة بالخضرة وكان فى هذا الوادى الكبير أربعة عشر ألف قرية .

فقرطبة كانت أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب « لها شبه كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق » ووصفها المقدسى فقال : « وصف ماشئت من طيبها ورحبها فانها جنة الاندلس على ماحكى لى وهى مصر الاندلس وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفيق طيب وان ثم عدلا ونظراً وسياسة طيبة ونعمة ظاهرة وديناً وهى فى جهاد ونفير أبداً مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات

---

(١) المقلص هو الذى يلبس القالس أو القلنسوة وكان يحق للمقلس وحده فى الاندلس ان يفتى وكان عليه ان يستظهر الموطأ والمدونة أو عشرة آلاف حديث وللمقلسين الحق ان يلبسوا القالس فقط وتكتب بالصاد (قاله دوزى فى ملحقه على المعجمات العربية) .

وفوائد » وذكروا ان لاهل قرطبة رئاسة ووقار لاتزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم .

ليس في قرطبة اليوم من آثار العرب سوى قطعة من مسجدها الأعظم بناه عبد الرحمن الداخل وكان معبداً للويزغوت على اسم القديس منصور وقد ملكه المسيحيون وأخذ المسلمون نصفه سنة ٧٨٥ م ولما شرع بالبناء ابتاع عبد الرحمن النصف الآخر منهم كما فعل الوليد الاموى في دمشق يوم بنى جامعها واستصفى النصف الآخر من أربابه المسيحيين وعوضهم عنه كنائس أخرى .

وزاد الناصر عبد الرحمن بن محمد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة وفيها القبو الكبير الذى يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للاذان وهو من أعجب البنيان . وحبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة لما كملت زيادته ربع جميع ماجرته اليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين في جميع كور الاندلس وأقاليمها على ثغور الاندلس كافة تفرق غلات هذه الضياع عاما بعد عام على ضعفائهم الاأن تكون بقرطبة مجاعة فتفرق فيهم .

ومما قيل في آثار مدينة قرطبة وعظمها حين تكامل أمرها في مدة بني أمية ان عدة الدور التى بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ومساجدها ثلاثة آلاف وعدة الدور التى بقصرها الزهراء أربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته .

وقالوا ان المسلمين لما فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الدائرة قد هدمها مرور النهر على ممر الازمان فتقدم الى فضيلة النظر فيها عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه عند مااتصل به خبرها فامر السمح بابتنائها فصنعت على أتم وأعظم مابنى عليه جسر من حجارة سور المدينة . وربما كان هذا أول عمل في العمران قام على أيدى عرب الاندلس في القرن الأول للهجرة .

قال بعضهم لم يكن للعرب هندسة خاصة لما دخلوا قرطبة وكانوا يعتمدون على هندسة أهل البلاد التى تغلبوا عليها فنسجوا فى بناء المسجد على مثال مساجد مصر ومسجد القيروان وكان هذا من أعظم مساجد الاسلام وقيل أنه بنى على شكل مسجد دمشق وكان فيه ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة والباقى منها الآن ٨٦٠ وهى أدق من سوارى الجامع الأموى اليوم وقال آخر ان البانى واخلافه جلبوا هذه السوارى من ابنية قديمة وبيع مسيحية فى القاصية كجنوبى فرنسا وأفريقية أى قرطاجنة والاستانة وتبين ان أكثرها من مقالع اندلسية ومحراب هذا المسجد الجامع لايزال محفوظاً وهو دهشة الى اليوم والى مابعداليوم وعلو قبته تسعة أمتار حفر فى قطعة واحدة من المرمر وعمل بالفسيفساء وزبرت عليه آيات كريمة . وله اثنان وعشرون بابا معمولا بالنحاس بقى الآن منها ١٢ بابا وعلى بعضها صورة نقوشها الاصلية وقد قام البرج الذى هناك مقام المنارة التى أنشأها عبد الرحمن الناصر . يقول جوسيه لو أقيمت البيعة التى أقاموها وسط الجامع على عهد شارلكان فى مكان آخر لصار لها شأن وهى هنا من أبشع آثار الهندسة اذ أحدث بانوها بها ضرراً على بناء وحيد من نوعه فى العالم .

وكان فى جامع قرطبة سبعة آلاف مصباح تنعكس أنوارها على النقوش المذهبة والزمرد والياقوت والمفصص وغيرها فتزيد فى جماله وعلى ما أصيب به هذا المسجد من الأضرار بقى الى اليوم من أغرب ابنية الأرض .

قال غوتيه : لاسبيل الى وصف التأثر الذى يشعر به المرء عند دخوله هذا المسجد الاسلامى القديم فيتراءى لك انك تسير فى غابة مسقوفة لافى بناء مصنوع وحيث اتجهت يضيع بصرك فى صفوف من السوارى تلتقى وتمتد على مرمى البصر مثل غراس من المرمر ظهرت من تلقاء نفسها على أديم الأرض اه .

نعم ان البيعة التى أقيمت وسط جامع قرطبة والبيع الصغرى التى جعلت فى أكثر زواياه قد شوهت من محاسنه وابدلته عن أصله وفى نية ديوان الآثار فيما بلغنى أن يرجع القديم كما كان وينقل الآثار المسيحية من جامع قرطبة ليبقى

بدون زيادة ولا نقصان طرازاً فى البناء منقطع القرين فى الأرضين الا ان البيعة الوسطى بيعة شارلكان يصعب نقل انقاضها لما فيها من الزخرف ولما صرف عليها من المال .

هذا مابقي من آثار الأجداد فى قرطبة وقد زرتها وأرباضها فرأيتها وهى على منبسط من الأرض تشبه ضاحيتها ضواحى دمشق وهندسة أكثر بيوتها الجديدة على الطراز العربى البديع ولأهلها الى هذا العهد حرمة له وغرام به وحرص عليه يعدونه من جملة مقدساتهم . وعلى أربعة أميال من قرطبة بنيت مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ ﻫ بناها الناصر لدين الله الأموى فى ست عشرة سنة وطولها ألف وستمائة ذراع وعرضها ألف وسبعون ذراعاً وجعل فى سورها ثلثمائة برج وخص ثلثها قصوراً للخلافة وثلثها للخدم وثلثها بساتين وكان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل اليها الرخام من أقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثمائة سارية وأهدى ملك الفرنج لبانيها أربعين سارية رخام واما الوردى والأخضر فمن أفريقية والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير عليه صورة أسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان وغير ذلك والكل بالذهب المرصع بالجوهر وكان ينفق عليها ثلث دخل الاندلس وكان دخلها يومئذ خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف درهم .

وقال أحد المؤرخين ان مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية جلبت من رومية وقسطنطينية وقرطاجنة وتونس وأفريقية فيها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد والنحاس المموه وكان عدد الفتيان فيها ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى وعدد النساء بقصر الزهراء ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة امرأة وكان على الحجر الذى جلب من مقالع الاندلس أو حمل من القاصية نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ولماجلبه أحمد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ونصب عليه

اثني عشر تمثالاً . وقال بعضهم عمل فى الزهراء عشرة آلاف عامل خمساً وعشرين سنة وفى الشرق من الوادى الكبير مدينـة الزاهرة التى بناها المنصور بن أبي عامر التي يقول فيها ابن عربي لما دخلها ووجدها متهدمة :

ديار بأكناف الملاعب تلمع   وما ان بهامن ساكن فهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب   فتصمت أحياناً وحيناً ترجع
نخاطبت منها طائراً متفرداً   له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى   فقال على دهر مضى ليس يرجع

وقد حرقت الزهراء وهدمت فى حدود سنة ٤٠٠ هـ وبقيت رسومها وخربت قرطبة وما فيها من القصور والمرافق فى حرب البربر وسقطت قرطبـة فى أيدى العدو سنة ٦٣٣ هـ بعـد ان كانت مدة خمسة قرون وخمس قرن فى أيدى العرب ولم يعد حكمهم اليها بعد ذلك ولما خلت قرطبة من سلطان يرجع الى أمره صار كل من قويت يده عمر مدينة فخربت قرطبة وعمرت اشبيلية .

مدينة اشبيلية

١٠١

على شاطىء الوادى الكبير في أجمل بقاع الاندلس وأعدلها هواء وأزكاها تربة قامت هـذه العاصمة التى كانت من أعظم مدن الاندلس بعد سقوط قرطبة فى أيدى الاسبان وكانت مدينة الحظ والسرور على اختلاف الدهور والعصور وليس اليوم فى اشبيلية بقايا كثيرة من آثار العرب الا الجيرالدا أو منارة الجامع الاعظم وهى أعجوبة اشبيلية ترى من مكان بعيـد بناها مهندس عربى من سـنة ١١٨٤ — ١١٩٦ لأبى يوسف بن يوسف من دولة الموحـدين وهى من الآجر يدق حجمها كلما ارتفعت فى الهواء وقاعدتها عبارة عن مربع ذي ١٣ متراً و ٥٥ سنتمتراً ويزيد سمك الجـدران علي مترين وقد تشوهت بما زاد عليها الاسـبان

بعد خروجها من أيدى العرب وهى الآن قبة جرس البيعة الكبرى .

قال فى ذيل اللباب : فدخل (يعنى أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن) اشبيلية فى غرة صفر سنة ٥٩٣ فاخذ فى اتمام بناء الجامع وتشييد مناره وعمل التفافيح من أملح ما يكون من عظمة لا أعرف له قدراً الا أن الوسط منها لم يدخل على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من أسفلها وزنة العمود الذى ركب عليه أربعون ربعاً من الحديد وكان الذى صنعها ورفعها فى أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلى وموّهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهباً اه .

ومن أجمل ما فى كنيسة اشبيلية اليوم والجامع أمس ناووس من الصلب فيه بقايا خريستوف كولمبس الملاح الجنوى الذى اكتشف أميركا يحمله من أربعة أطرافه ملك قشتالة وملك ارغون وملك ليون وملك نافار وهو من صنع ميليدا سنة ١٨٩٢ كان فى كنيسة هافان ثم نقل الى اشبيلية سنة ١٨٩٨ بعد ان تحررت كوبا من اسبانيا .

تقرب اشبيلية من البحر ولا ترتفع عن سطحه أكثر من ثمانية أمتار وقد قال الفرنجة فيها : ليست الجير الدا ولا سائر مصانع اشبيلية ولا كنوز آثارها وجميل نقوشها على الحيطان هى التى اشتهرت بها اشبيلية البديعة ورددت المثل الذى سار فيها « من لم ير اشبيلية لم ير غريبة » بل ان ما اشتهرت به فى جميع اسبانيا مظاهر سرور الحياة فيها من مراقص وأفراح ومواسم وحركة البهجة الدائمة التى تنبعث من سكانها على الدوام .

جرت مناظرة بين يدى منصور بن عبد المؤمن بين العالم أبى الوليد بن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر فى كلامه : ماأدرى ما تقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فاريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . وبهذا عرفت ان اشبيلية بلدة طرب وسرور فى معظم أدوارها . ولطبيعة الاقليم دخل كبير فى هذا الشأن.

فى اشبيلية قصور كما فى قرطبة مصايف زرتها وزرت حدائقها وطوفت

فى اعطافها وهى ملك لاناس من أغنياء البلاد تتناقل من سيد فيهم الى سيد ومنها ماجعل كما هو بيت بيلاتوس على الداخل اليه جعل يتقاضاه الحارس ليصرف على الفقراء كما جعلت الحكومة على كل داخل الى معهد من معاهد العرب وغيرهم جعلا من النقود لتصرف منه على الترميم فليس فى البلادمايعفى الناظر اليه والزائر له من دفع النقود من متاحف وآثار الااذا كان بعض المغاور والحصون والسدود الخربة التى قامت فى كل ناحية من انحاء البلاد التى ظل فيها حكم العرب نافذاً دهراً طويلا .

كانت اشبيلية تعد من العواصم بكثرة سكانها ولما سقطت فى أيدى الاعداء هاجر من مسلميها فقط زهاء ثلثمائة ألف مسلم الى قرطبة وجيان وبلنسية وغرناطة حيث كانت راية بنى نصر تخفق . وناهيك ببلدة يهاجر من سكانها هذا العدد وسكانها اليوم ١٤٨ ألفاً وتعد من المدن المتجددة وليس لها مسحة من القديم الا ما كان من بعد عهد العرب وقد سقطت من بعد جلائهم عنها الى الحضيض .

مدينة غرناطة

١٠٢

بلد يحف به الرياض كأنه   وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة   ومن الجسور المحكمات سواره

هذا ماقاله ابن الخطيب في هذه العاصمة آخر ماحكمته العرب من أرض الاندلس من عواصمها وحواضرها جمعت فيها بقاياهم وجالياتهم فظلوا فيها نحو قرنين ونصف قرن وعمروها فادهشوا العالم بعمرانها . جاءها جميع المسلمين الذين لم يحبوا ان يبقوا فى البلاد التى وقعت فى قبضة العدو يحتمون بملوكها من بنى نصر جاؤها ألوفاً ألوفاً من قرطبة واشبيلية وبلنسية يحملون اليها ما كان مبعثراً من الصنائع والثروة فى تلك الأرجاء .

قالوا ان غرناطة قاعـدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لانظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الأنهر الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة . وحكى ابن سعيد ان غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى أهل دمشق بها عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والاشجار وقد أطل عليها جبـل الثلج Sierra Nevada — كما أطل جبل الثلج أو جبل الشيخ أو جبل حرمون على دمشق — وفي ذلك يقول ابن جبير :

يادمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجري وهي تنصب اليهـا

قال ابن سعيد أشار ابن جبير الى أن غرناطة في مكان مشرف وغوطتها تحتها تجري فيها الأنهار ودمشق في وهدة تنصب اليها الانهار وقد قال الله تعالى في وصف الجنـة تجري من تحتها الأنهار . أما غوطة غرناطة اليوم فليست كغوطة دمشق باشجارها الملتفة ولا كما كانت كذلك على عهد العرب بل هي جرداء مرداء ولذلك كان منظرها أشبه بمنظر سهل البقاع اذا أطللت عليه من سفوح لبنان الغربي .

وغرناطة في كورة البيرة من أشرف كور هذا الاقليم نزلها جند دمشق .

قال الرازي : وخص البيرة أي سوادها وريفها لا يشبه بشيء من بقاع الارض طيباً ولا شرفاً الا بالغوطة غوطة دمشق .

وقال ابن الخطيب : وخصها أي خص غرناطة لا فيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الركاب وسمر الليالي قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب وتتخلله الانهار والجداول وتزاحم فيه الغرف والجنات في ذرع أربعين ميلا ونحوها تنبو العين فيها عن وجهه ولا تتخطى المحاسن منها مقدار رفعة الهضاب والجبال المتطامية منه بشكل ثلثي دائرة قد علت منه المدينة فيما يلي المركز من جهة القبلة مستندة الى أطواد سامية وهضاب عالية ومناظر مشرقة فهي قيد البصر ومنتهى الحسن ومعنى الكمال .

وينزل الثلج شتاء وصيفاً على جبل غرناطة وينبجس منه ستة وثلاثون نهراً كما تنبجس من سفوحه العيون . قال أبو الحجاج ابن حشان :

أحن الى غرناطة كلما هفت　　نسيم الصبا تهدى الصبا وتسوق
سقى الله من غرناطة كل منهل　　بمنهل سحب ماؤهن هريق
ديار يدور الحسن بين خيامها　　وارض بها قلب الشجي مشوق
أغرناطة العلياء بالله خبرى :　　ألهائم الباكى اليك طريق ؟
وما شاقنى الا نضارة منظر　　وبهجة دار للعيون تروق
تأمل اذا أملت حوز مؤمل　　ومد من الحمرا عليك شقيق
وأعلام نجد والسكينة قد علت　　وللشفق الاعلى تلوح بروق
وقد سل شنيل فرنداً مهنداً　　نضى فوق در ذر فيه عقيق
اذا نم منه طيب نشر اراكه　　أراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت　　ثغور أقاح فى الرياض أنيق

ولما غدت غرناطة عاصمة ابن الاحمر من دولة بنى نصر بالسيف تارة وبحسن السياسة مع الأحزاب المعادية أو بمحالفة القشتاليين الاسبانيين وبنى مرين المراكشيين تارة أخرى جعلها العرب الذين طردوا من المدن المجاورة وطناً لهم ونشط ملوكها الصنائع والتجارة وعمروا الطرق والمجاري وتسلسل ذلك فيها فاتم الثاني مابدأ به الأول وزينوا البلاد بابنية بديعة فأصبحت غرناطة أغنى مدينة فى شبه جزيرة ايبريا وبحكمة أمرائها انبعثت منها شعلة المدنية المغربية فى اسبانيا وأنست عنايتهم بالزراعة والصناعة عهد قرطبة وما كان فيها من العلوم والصناعات وجمال البناء وأصبحت قصورهم مثابة العلماء والأدباء والفلاسفة « فصارت المصر المقصود والمعقل الذي تنضوى اليه العساكر والجنود » ولما استولى عليها الاسبان سنة ١٤٩١ م بعد ان حاصروها سبعة أشهر فنيت فى خلالها ازواد المحاصرين من العرب وفنيت خيلهم كما فنى كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات — كان سكانها نصف مليون نسمة (نفوسها اليوم ٧٦ ألفاً) فانحطت على عهد الاسبان

بعد حين وأقفرت من السكان بما أصدره الملوك الكاثوليك من الأوامر الخرقاء ولما اشتدت فيها وطأة ديوان التفتيش الديني ظل الحكام والرهبان يستأصلون شأفة العرب حتى لم يبقوا منهم باقية وكان لها على عهد العرب ١٠٣٠ برجاً متزاحمة بالبيوت وقال ابن الخطيب ان الأبراج بلغت الى مايناهز أربعة عشر ألفاً وكان في جوارها ماينيف على ثلاثمائة قرية عدا مايجاور الحضرة من قرى الأقليم أو مااستضيف اليها من حدود الحصون المجاورة (وكان أكثرها امصاراً فيها مايناهز خمسين خطبة تنصب فيها لله المنابر وترفع الايدي وتتوجه الوجوه ويشتمل سورها وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء ماينيف على مائة وثلاثين رحى)

قصر الحمراء

١٠٣

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها　　من بعدهم فبألسن البنيان
أو ماترى الهرمين قد بقيا وكم　　ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه　　أضحى يدل على عظيم الشان

الحمراء ويقال لها القصبة الحمراء ومعنى القصبة عندهم القلعة وتسمى حمراء غرناطة وهي مطلة على مدينة غرناطة اطلال الصالحية من سفح قاسيون على دمشق. سميت بالحمراء لاحمرار جدرانها بل للون التربة التي قامت عليها في سفح جبل غرناطة ومعظمها مبني بالخزف والكلس والحصباء . وفي قصبة الحمراء قصور العرب وهي ثلاثة قصور منفصلة عن القلعة وتدخل فيها المدينة الصغرى القائمة على تلك الاكمة وقد بني كل قصر منها في زمن غير زمن القصر الآخر وبقي من القصر الأول شيء قليل وهي المقصورة والكنيسة وكان جامعاً بناه محمد الثالث من ملوك بني نصر قال فيه ابن الخطيب ان أعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء

على ماهو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش ونخامة العمل وأحكام أنواع الفضة وابداع أثرها أنفق عليه من مال الجزية فظهر بها منقبة له يتيمة فاق بها من تقدمه ومن تأخره من قومه .

والقصر الثاني قصر الآس وفيه الآس الكثير كان مقر السلطان ومجلس الحكم أودار السلطنة يقعد فيه للمظالم ويستقبل السفراء وكبار رجال المملكة . والقصر الثالث منعزل عن القصرين الآخرين قليلا وكان فيه دائرة حرمه ومساكنه الخاصة وفى هذا القصر صحن الاسود وهو فى الجزء الأوسط منه .

فقاعة السفراء عبارة عن مربع مساحته ١١ متراً بعلو ١٨ كان الملك يستقبل بها وفيها عرشه الى الشمال أمام المدخل وهى تطل على ربض البيازين ومدينة غرناطة وقد ركبت فى كل نافذة وسطى أعمدة صغيرة من العجمى أو الشمسية تدفع حرارة الشمس . ونقش هذه القاعة من أجمل ما حوت الحمراء وكان فيها ١٥٢ صورة مختلفة طبعت بالجص الطرى على الجدران فى قوالب من حديد وهى الى الحمرة والزرقة المشبعة .

أما فناء الاسود فهو صحن واسع فيه اثناعشر أسداً رابضاً من الرخام تحمل الاناء العظيم القائم وسط الدار ويخرج الماء من أفواهها وتسيل الفوارات من أعلى الصحن الذى جعل قطعة واحدة كبيرة كأنه حوض واسع من أحواض بيوت دمشق القديمة وكأن ابن حمديس الصقلى وصف هذه الدار عندما وصف دار المنصور ببجاية فقال :

واعمر بقصر الملك ناديك الذى … اضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره … أعمى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه … فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسى «الصبيح» مع «المليح» بذكره … وسما ففاق خورنقاً وسديرا
ولو ان بالايوان قوبل حسنه … ما كان شيئاً عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الاولى … رفعوا البناء واحكموا التدبيرا

ومضت على الروم الدهور وما بنوا | لملوكهم شبهاً له ونظيرا
اذكرتنا الفردوس حين أريتنا | غرفاً رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم | ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت | حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه | حقر البدور فاطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر | ثم انثنيت بناظرى محسورا
وظننت انى حالم فى جنة | لما رأيت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت أبوابه | جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم | فغرت بها أفواهها تكسيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندها | من لم يكن بدخوله مأمورا
تجرى الخواطر مطلقات أعنة | فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب أنه | فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه | مسكا تضوع نشره وعبيرا
يستخلف الاصباح منه اذا انقضى | صبحاً على غسق الظلام منيرا
وضراغم سكنت عرين رئاسة | تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها | وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك | فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما | أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها | ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول | ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه | درعاً فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها | عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى | سحر يؤثر فى النهى تأثيرا
قد صولجت أغصانها فكأنما | قنصت لهن من الفضاء طيورا

وكأنما تأبى لواقع طيرها ... أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعدّ من الفصاح فانشدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما فى كل غصن فضة ... لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك فى الصهريج موضع قطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما ... جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبراً نظّروا ... بالنقش بين شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت ... فلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائلاً ورسية ... شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ... أبصرت روضاً فى السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى ... حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها ... فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة ... مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأن ماء اللازورد مخرم ... بالخط فى ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة ... تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الارض الذى أضحي له ... ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت ... واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياسة ... منها ودمرت العدا تدميرا

وهناك قاعة الحكم وقاعة بنى سراج والمقصورة . تخرج من واحدة فتدخل فى أخرى فتخالك فى جنة عالية قطوفها دانية لا تستطيع وصفها لبدائعها الكثيرة وهناك قاعة اسمها قاعة الاختين كانت على ما يظهر لجلوس نساء الملك في الشتاء ونقشها من أقصى ما بلغه النقش العربى من الاتقان وأهم مافيها المقرنص الذى حوى نحو خمسة آلاف شكل مختلف بعضها عن بعض تألف منها مجموع يصعب وصفه لجماله وقبتها أعجوبة البناء ومثال الصبر والعمل وكأنها

كانت في يد صانعها كالعجين يعمل فيها ماشاء من الصور أو كأنها خلقت خلقة ولم تمسسها يد بشر

وبالقرب من قصور الحمراء جنة العريف وهى حديقة كبرى فيها جميع أشجار القطر وأزهاره قامت هندستها فى منحدراتها واكماتها وبسائطها على أسلوب يأخذ بمجامع القلوب وفيها سطوح ومغاور ومخابىء وفوارات وسياج تشبه المصايف الايطالية في عهد النهضة وفيها كثير من شجر السرو ومن جملتها سروة يدعونها سروة السلطان عمرها نحو ستمائة سنة وتحتها فيما يقال تواعدت أمرأة أبي عبد الله مع ابن سراج

ولقد كان للسلطان أوائل المئة الثامنة فى غرناطة ما يناهز مائة جنة مثل جنة العريف على ما روى صاحب الاحاطة وناهيك بمدينة فيها مثل هذا العدد الدثر من الجنان وذلك فى الحقيقة من أمارات المدنية والرفاهية .

ورد ذكر الحمراء لأول مرة فى واقعة حدثت سنة ٢٧٧ ﻫ فاعتصم بها القيسيون من العرب وقد تأثرهم عصاة من الاسبانيين فنجا الأمير الأموى بحيلة غريبة وخرج مخرجاً مدهشاً مع رجاله ولما استولى الموحدون على غرناطة التجأ المرابطون الى هذا القصر . واشتهرت الحمراء على عهد دوله بنى نصر أو بنى الاحمر الذين استقلوا بأمارة غرناطة بعد سقوط قرطبة واشبيلية وجعلوها عاصمتهم فأنشأ محمد بن الأحمر قصره الملكى بالقرب من السور والقلعة وفى عهد الامبراطور شارلكان جعل جامع الحمراء كنيسة فأبدلت صورة القصر الملكي القديم وأنشئ باب المدخل الذى يجتاز منه السور الذى طوله ٣٥٠٠ متر وفيه عدة أبراج .

وقالوا ان فرديناند وايزابيلا الكاثوليكية عنيا كل العناية بالحمراء لما اغتنما فرصة اختلاف العرب وأمرائهم وعزما على اخراج جميع العرب من اسبانيا وقد أمرا بترميم نقوشها الداخلية ورمما جدرانها وكان شارلكان على شدة حرصه على آثار الحمراء والابقاء عليها عمر مبانى ليخلد فيها اسمه ولكنها لم تتم وأوردوا فى معرض البرهان على ولوعه بالآثار العربية ما نسب اليه من القول عند ما وقع

بصره على آثار الحمراء : يالشقاء من أضاع كل هذا .

جاء فى دائرةالمعارف الاسلامية : واذا وقع التنظير بين قصر الحمراء والقصور والجوامع التى بنيت على ذاك العهد فى القاهرة مثلا كجامع السلطان حسن الذى بنى سنة ١٣٥٦ م تبين الفرق العظيم بين البنائين فانك ترى لهندسة جامع القاهرة أمثالا كثيرة فى حين بنى قصر الحمراء على غير مثال محتذى ولا يوجد فى مملكة من الممالك قصر اسلامى مثل الحمراء وبقدمه لم يبن له شبيه مع انه شيد بمواد سريعة الانحلال اللهم الا أبنية العصر الأموي التى عثر عليها الباحثون فى بادية الشام شرقى بلاد موآب وبعض الخرائب من العصر العباسي فى سامرا والرقة .

وقصارى القول ان الحمراء مصيف تحف به حدائق واسعة ومتنزهات وفيه المياه الجارية والنبات والحيوان الكثير ونقوشه تبهر الأبصار وفى مسالك الأبصار : ان الحمراء كثيرة المبانى الضخمة والقصور ظريفة جداً يجرى بها الماء تحت بلاط كما يجرى فى المدينة فلا يخلو منه مسجد ولا بيت وبأعلى برج منها عين ماء وجامعها من أبدع الجوامع حسناً وأحسنها بناء وبه الثريات الفضية معلقة وبحائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة فى جملة ماحق به من الذهب والفضة ومنبره من العاج والآبنوس .

ولما استولى ملوك قشتالة على الحمراء سلموها الى مهندسين من العرب بلغ من حذقهم انك لاتعرف ماأدخلوه فيها من الاصلاح ولا تميزه عن الاصل الذى كانت عليه من قبل . ودام هذا الترميم فى الحمراء الى ثورة العرب سنة ١٥٦٩ وفى سنة ١٥٢٢ أصيبت بهزة أرضية وفى سنة ١٥٩٠ بحريق في مطحنة بارود سببت خراب أقسام منها ثم تركت وشأنها فى القرن السابع عشر والثامن عشر وقد نسف جنود نابليون سنة ١٨١٢ قسماً منها بالمواد الملتهبة معتبرين الحمراء حصناً وذلك عند جلائهم عن اسبانيا ثم أخذت همة حكومة اسبانيا تتجدد لاعادة الحمراء الى حالتها الأولى .

ويقول جوسيه ان ملوك اسبانيا لما دخلوا الحمراء لم يعاملوا آثار خصومهم

معاملة أعداء بل معاملة أصحاب . وبعدان ذكر كيف كانوا يتعهدونها وكيف عهدوا الى مهندسين من العرب استخدموهم لترميمها قال : وأهملت الحمراء من بدء القرن السابع عشر الى أواسط القرن الثامن عشر فأخذ يسكنها جنود بياطرة وأرباب حرب وحاكة وفاخرانيون وأسرات فقيرة فكانت الأوساخ فيها وفى جدرانها والناس يعبثون بما فيهاوربما أصابها شىء من البارود والقذائف فتبدلت محاسنها وبليت بعض حيطانها ونقوشها ورسومها ومعالمها ثم صحت نية حكومة اسبانيا على تعهد تلك القصور وارجاعها الى حالها وكانت الهمة فى هذا الشأن تفتر ثم تتجدد بحسب سلطان ملوك اسبانيا ودرجتهم من العقل والفهم .

وفى هذا القصر أو المدينة البديعة ماعدا الآثار العربية قصر شارلكان أراد أن يوسع به دائرته سنة ١٥٢٦ بناه من الجزية التى كان يتقاضاها من العرب للسماح لهم باجراء بعض شعائرهم . ومن أعمال شارلكان ابنية لم تتم لقلة المال فيما يظهر والغالب انه حاول بما أنشأه من الأبنية ان يطمس آثار العرب ليجعل لبنائه الرجحان فلم يتم له ماأراد وبقيت الحمراء أجمل مثال في القصور على مر العصور والدهور .

وليس فى الحمراء من الفرش والأوانى الباقية من عهد العرب سوى جرة طولها أكثر من متر صنعت من تراب بالميناء ولها لمعان لازوردى وذهبى رسم عليها حيوانات ونقوش عربية وهى من صنع معامل غرناطة فى القديم

هذه صورة مصغرة من وصف هذا القصر وما طرأ عليه إلي يومنا هذا وهو مقصد السائحين من أهل الأرض وكأن ابن حمديس وصفه اذ قال :

قصر يقصر وهو غير مقصر　　عن وصفه فى الحسن والاحسان
وكأنه من درة شفافة　　تعشى العيون بشدة اللمعان
لايرتقى الراقي الى شرفاته　　الا بمعراج من اللحظان
عرج بأرض الناصرية كى ترى　　شرف المكان وقدرة الامكان
فى جنة غناء فردوسية　　محفوفة بالروح والريحان

وتوقدت بالجمر من نارنجها فكأنما خلقت من النيران
وكأنهن كرات تبر أحمر جعلت صوالجها من القضبان
ان فاخر الأترج قال له ازدجر حتى تجوز طبائع الأعيان
لي نفحة المحبوب حين يشمني طيباً ولون الصب حين تراني
مني المصبغ حين يبسط كفه فبنان كل خريدة كبناني
والمـاء منه سبائك فضية ذابت على درجات شاذروان
وكأنما سيف هناك مشطب القته يوم الحرب كف جبان
كم شاخص فيه يطيل تعجباً من دوحة نبتت من العقيان
عجباً لها تسقى الرياض ينابعاً نبعت من الثمرات والاغصان
خصت بطائرة على فنن لهـا حسنت فافرد حسنها من ثان
قس الطيور الخاشعات بلاغة وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أتيح لها الـكلام تـكلمت بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة فخر الجماد بها على الحيوان
أوفت على حوض لها فـكأنها منها إلى العجب العجاب رواني
فـكأنها ظنت حلاوة مائها شهداً فذاقته بكل لسان
وزرافة فى الجوف من أنبوبها ماء يريك الجرى فى الطيران
مركوزة فى الرمح حيث ترى له من طعنه الحلق انعطاف سنان
وكأنها ترمى السماء ببندق مستنبط من لؤلؤ وجمان
لو عاد ذاك الماء نفطاً أحرقت فى الجو منـه قميص كل عنان
فى بركة قامت على حافاتها أسد تذل لعزة السلطان
نزعت الى ظلم النفوس نفوسها فلذلك انتزعت من الابدان
وكأن برد الماء منها مطفىء ناراً مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من أفواهها يطرحن أنفسهن فى الغدران
وكأنما الحيتان اذ لم تخشها أخذت من المنصور عقد أمان

كم مجلس يجرى السرور مسابقاً   منه خيول اللهو فى ميدان
يجلو دماه على الخدود ملاحة   فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه فى سمكها علوية   وقبابه فلكية البنيان

كتابات الحمراء

١٠٤

تقرأ فى قصر الحمراء كثيراً من الآيات والمواعظ والأشعار زبرت على الآجر أو بالجص بالخط الأندلسى المشبك وهو أقرب الى النسخ المتعارف فى هذه البلاد الشرقية منه بالخط المغربى ومما تقرأه على أحد الأبواب « أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة أسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبى الوليد بن نصر كافى الله فى الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية فشيد ذلك فى شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة جعله الله عزة واقية وكتبه فى الأعمال الصالحة الباقية »

ومنها « الملك الدائم والعز القائم » ومنها « الحمد لله على نعمة الاسلام » ومنها « عز لمولانا أبي عبد الله » ومنها « ولا غالب الا الله » ومنها « وما بكم من نعمة فمن الله » ومنها « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين » ومنها « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ومنها « فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » ومن الأبيات التى رسمت على احدى القباب فى مدح أبي الحجاج يوسف الأول

تبارك من ولاك أمر عباده   فاولى بك الاسلام فضلاً وأنعما

فكم بلدة بالكفر صبحت أهلها وأمسيت فى أعمارهم متحكما
وطوقتهم طوق الاسار فأصبحوا ببابك يبنون القصور تخدما
وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة ففتحت باباً كان للنصر مبهما

***

ولو خير الاسلام فيما يريده لما اختار الا أن تعيش وتسلما
الى أن قال :
فامنت حتى الغصن من نفحة الصبا وأرهبت حتى النجم فى كبد السما
فان رعشت زهر النجوم مخيفة وان مال غصن البان شكرك يمما
ومنها: ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا وصيرت مافيها لجيشك مغنما

وكتب فى قاعة السفراء

أنا محلاة عروس ذات حسن وكمال
فانظر الابريق تعرف فضل صدقى فى مقالى
واعتبر تاجى تجده مشبهاً تاج الهلال
وابن نصر شمس فلك فى ضياء وجمال
دام فى رفعة شأن آمناً وقت الزوال

وكتب أيضاً

وحكيت كرسى العروس وزدته انى ضمنت سعادة الازواج
من جاءنى يشكو الظماء فموردى صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأننى قوس الغمام اذا بدا والشمس مولانا أبو الحجاج
لازال محروس المثابة ماغدا بيت الإلاه مثابة الحجاج

وكتب على القبة

تحييك منى حين تصبح أو تمسى ثغور المنى واليمن والسعد والأنس
هى القبة العليا ونحن بناتها ولكن لى التفضيل والعز فى جنسى
جوارح كنت القلب لاشك بينها وفى القلب تبدو قوة الروح والنفس

وان كان أشكالى بروج سمائها ... فني عدا مابينها شرف الشمس

ومما كتب أيضاً على بركة صحن الاسود وهو من نظم الوزير أبي عبدالله محمد بن يوسف بن زمرك تلميذ لسان الدين بن الخطيب :

تبارك من أعطى الامام محمدا ... مغانى زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدائع ... أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها ... تحلى بمرفض الجمان النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر ... غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد ... فلم ندر أياً منهما كان جاريا
ألم تر ان الماء تجرى بصفحها ... ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه ... وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا
وهل هى فى التحقيق غير غمامة ... تفيض الى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة اذغدت ... تفيض الى أسد الجهاد الايايا
فيامن رأى الآساد وهى روابض ... عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الانصار لاعن كلالة ... تراث جلال تستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلداً ... تجدد أعياداً وتبلى أعاديا

ومما كتب فى احدى القاعات أيضاً من نظم الوزير ابن زمرك

أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا ... تأمل جمالى تستفد شرح حاليا
أباهي من المولى الامام محمد ... باكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولله مبناه الجميل فانه ... يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للابصار من متنزه ... تجد به (؟) نفس الحليم الامانيا
تبيت له خمس الثريا معيذة ... ويصبح معتل النواسم راقيا
به القبة الغراء قل نظيرها ... ترى الحسن فيها مستكناً وباديا
تمد لها الجوزاء كف مصافح ... ويدنو لها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها ... ولم تك في أفق السماء جواريا

ولو مثلت فى ساحتيها وسابقت   الى خدمة ترضيه منها الجواريا
ولا عجب ان فاقت الشهب في العلى   وان جاوزت فيها المدى المتناهيا
فبين يدى مولاى قامت لخدمة   ومن خدم الاعلى استفاد المعاليا
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا   به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللته بحليها   من الوشى تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى فى ذراه ترفعت   على عمد بالنور بانت حواليا
فتحسبها الافلاك دارت قسيها   تظل عمود الصبح اذ لاح باديا
سواري قد جاءت بكل غريبة   فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره   فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
اذا ما أضاءت بالشعاع تخالها   على عظم الاجرام منها لآليا
فلم نر قصراً منه أنم نضرة   واعطر ارجاء وأحلى مجانيا
مصارفة النقدين فيه بمثلها   أجاز بها قاضى الجمال التقاضيا
فان ملأت كف النسيم مع الضحى   دراهم نور ظل عنها مكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها   دنانير شمس تترك الروض حاليا

ومن الأبيات اللطيفة

وجاد بها برد الهواء نسيمها   فصحت هواء والنسيم قد اعتلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية   تقبس عنها الشهب فى الافق الأعلا
وانى بهذا الروض عين قريرة   وانسان تلك العين حقاً هو المولى

وفى الاندلس الى اليوم على كثرة ماانتاب مصانعها وقلاعها ومدارسها وتربها وجسورها وسدودها من التخريب لاتزال ترى بعض كتابات من النظم والنثر وبعضها مثال البلاغة والفصاحة لأن الاندلسيين عاشوا وتنعموا في أرض معتدلة الهواء جميلة الطبيعة فلابدع ان جادت القرائح على تلك النسبة وظهرت فى كتابهم وشعرائهم آثار الابداع والاعجاب .

ذكرى مؤلمة

١٠٥

مضت أعوام تلتها أعوام : والنفس تتحدث بالارتحال الى الاندلس المحبوبة ، تستنفض معالمها ومجاهلها ، وتستبطن معاهدها ومصانعها . فتتدبر . وتذكر ، وتستفيد وتفيد . ولما اتاحت لها الاقدار : بلوغ تلك الامصار ، عرض لها ما كدر صفو تلك الذكرى ، ذكرى التطواف فى الاندلس بعد عزها للاعتبار ، بالدمى والاحجار ، واستنطاق الآثار ، واستقراء الاخبار ، لمعرفة عمل العرب فى تلك الديار . .

اتفق نزولى غرناطة فى اليوم الثاني من كانون الثاني ، اليوم الذى خرج فيه أبو عبد الله آخر ملوك بنى الاحمر من عاصمة الاندلس : وانتقلت أحكامها الى أيدى الغالبين من الاسبانيين : والجرس يدوى فى كنيسة الحمراء دوياً متواصلا لا متساوقاً مدة أربع وعشرين ساعة ، احتفالاً بهذا اليوم الذى يعده أهل اسبانيا عامة وسكان غرناطة من بينهم خاصة من أسعد أيامهم الغر . احتفلوا به ضروب الاحتفال ، ومن جملة مظاهر سرورهم مأدبة أدبها يومئذ شيخ مدينة غرناطة فى النزل الذى حللته فى جوار الحمراء واسمه نزل « واشنطون » على اسم واشنطون محرر أميركا الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطربوا على ذكر استيلاء أجدادهم على آخر أرض احتلتها العرب من شبه جزيرتهم .

تذكرت ذاك اليوم المشؤوم ؛ وقد رفع الصليب الفضى على أعلى برج فى الحمراء اشارة الى ظفر الاسبان الاخير وخروج العرب من هذه الديار ، وقد أخذ أبو عبد الله بن الاحمر يتحفز فى حاشيته ليخرج من الحمراء قبل أن يبغته العدو فيها ، ويتلفت وهو يجتاز جبل الثلج الى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكى ، وأمه ترافقه وتقول له : لا تبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال. كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرناطة السنوى وقد احتفلوا به حتى اليوم

أربعمائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مرة نصرتهم على أعدائهم ويوماً تمت لهم فيه وحدتهم القومية والدينية ، وقد مثلوا أفظع مأساة ارتكبتها أنفس متعصبة جاهلة ، وسلكوا للخلاص من مخالفيهم طرقاً بشعة ، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا أرضهم وحلوا دياراتهم ، وهم فى رفعة ومنعة ، وغبطة وسعة . يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذراريهم يحفزون أرواحهم ليوقظوها ، ويهيجون كوامن الصدور ليعتبروا بما وقع لهم فى سالف العصور وليعلموهم ان غلبة سنة ١٤٩٢ وان كانت من باب تسلط الجهل على العلم الا أنها دلت على أن الثأر لاينسى ولو بعد ثمانية قرون .

وما كان أجدر بالعرب ان يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من الاندلس من أيام البؤس ، المشتملة بالحزن . المملوءة بالاستعبار ، يتناشدون فيه التعازى والمراثى ، ويتطارحون حديث محنة مضت ، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد ، وشرر شرها لم يزل يتولد ويتوالد .

قيل ان أناساً من جالية الاندلس فى بر العدوة مابرحوا الى اليوم وقد انقضت أربعة قرون على مغادرتهم بلداً نبت لهم فيه العز ، وأثمر المجد والسعد ، يخلف الوالد منهم لبنيه فى جملة مخلفاته ، مفاتيح داره فى الاندلس على أمل أن يعود أولاده اليها ذات يوم ويفتحوها وينزلوها . تذكار ان عده بعضهم فى باب الهزل ، وقيده فى سجل المستحيلات ، يحوى ولا جرم فى مطاويه أجمل العظات ، وأعظم التذكارات .

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله ان يقيم كل سنة المآتم على ماحل به خصوصاً فى البلاد التى يبعث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين فان بعض العناصر الاوربية كالاسبان لم يكتفوا بطرد العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم فى الريف من بلاد مراكش ان يجلوهم عنها بعد ان تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرناً أقاموا خلالها مدنيات وانشأوا أمجاداً لهم ودولات .

ان العرب الذين أنشأوا من العدم مدنية الاندلس وقاموا فى عصور الظلمات

بأعمال لايكاد يصدق الناظر اليها انها بنت قرائحهم ، وثمرة عقولهم ، ولم تتناصر على ذلك أصدق الروايات ، لايعجزهم اليوم ، والعصر عصر النور ، أن يقوموا بمثل ماعمله أجدادهم ، لو نفس خناقهم ، وملكوا زمناً قياداً نفسهم . بعض أهل الغرب اليوم حرب على الشرق وسوف تكون لهذا الغاية للاحتفاظ بدياره وآثاره ، وأمامه اسبانيا والبورتقال اللتان ثأرتا لنفسهما من مستعبديهما بعد قرون ولم تكونا فى رقي العرب اليوم عدداً وعدداً ، ومضاء وغناء .

أضعف أمة اليوم فى الغرب لايبلغ عدد أهلها عدد أهل أقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم تتناغى الليل والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر أجدادها وتقدس أعمال نوابغها ورجالها ولا تنسى يداً للمحسن اليها ، ولا اساءة مجرم جان عليها . العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم في جنوبى أوربا ونشأت لهم حكومات فى شبه جزيرة أبيريا وجزيرة صقلية وسردانية فارتكبوا بذلك جناية فى عرف أهل تلك الديار ، أفليس من العدل ان تغتفر لهم هذه الهفوة أو الغزوة ، فى جانب ماحملوه الى من غلبوهم من ضروب المعارف والصناعات . ومستحسن الآداب والأخلاق . العرب حملوا الى الاندلس حضارة رائقة ، ونظاماً محكما ، أحلوها محل الفوضى والتوحش ، والسخافات والخرافات .

تود كل أمة اليوم مهما بلغ من تراجع الحضارة بينها ان تحكم نفسها بنفسها وتمثل مشخصاتها ومقدساتها ، فهل ينال العرب هذه الأمنية وهم ليسوا دون بعض الأمم الاوربية التي أخذت تتمتع الواحدة تلو الأخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن فليس كل أمم أوربا بحضارتهم الانكليز والالمان والفرنسيس ولا كل الشعوب العربية على مستوى واحد فى الحضارة والنور .

جلاء المسلمين وتنصيرهم

١٠٦

لما استولى العرب المسلمون على الاندلس لم يكرهوا أحداً من سكان البلاد الاصليين على الدخول فى دينهم ، بل أظهروا التسامح المقبول الذي يأمرهم به الدين الحنيف ، وأطلقوا للناس حريتهم في ذلك ؛ فكان بعض الاسبانيين يدينون بالاسلام برضاهم .

فعهد العرب اذاً فى الاندلس كان عهد تسامح وحرية . لم تعهده من قبل ولا من بعد ولم يمنع عن بث الدين المسيحى الادعاته المفرطون ، ممن كانوا يقفون على أبواب المساجد والجوامع ؛ ويدعون المسلمين الى دينهم ، ولا جوزوا أخذ مال أحد من أهل ذمتهم بل اكتفوا بجزية بسيطة ؛ وساووهم فى جميع الامور بانفسهم .

مثال من لطف الحكم تعامه الفاتحون من كتابهم فلم يحيدوا عنه قيد غلوة ؛ وهم فى عز سلطانهم ، والقول الفصل فى الارض كلها لهم ولقومهم مدة قرون طويلة .

هكذا فعل العرب فى أبان قوتهم . فانظر ماذا صنع الاسبان يوم قوى سلطانهم وكيف عاملوا العرب نقلا عن شاهد العيان قال :

لما استولى صاحب قشتالة على مدينة بلش عام اثنين وتسعين وثمانمائة ودخلت في ذمته جميع القرى التى تلى بلش وقرى جبل منتميس وحصن قارش خرج أهل بلش من بلدهم مؤمنين . وحملوا ماقدروا على حمله من أموالهم فنهم من جوزه العدو الى أرض العدوة ومنهم من أقام فى بعض تلك القرى ومنهم من صار الى أرض المسلمين التى بقيت بالاندلس .

ولما استولى الغالبون على مدينة مالقة وباش وجميع الجهات الغربية لم يبق للمسلمين فى تلك الناحية ملجأ . وفى عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت فى صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها وفى سنة ٨٩٤

خرج نحو حصن موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة.

وكان صاحب قشتالة كثيراً مايستعين بالمرتدين والمدجنين على قتال المسلمين يدلونه على عوراتهم، ولطالما أمر بهدم المدن والقرى التى يستولى عليها يبنى بأنقاضها مسورات في بضعة أيام كما فعل فى غرناطة. ومن جملة الشروط التى شرط أهل غرناطة على ملك قشتالة أن يؤمنهم فى أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع مابأيديهم ولا يغرمون الا الزكاة والعشر لمن أراد الاقامة ببلدة غرناطة. ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع أصله، ويحمل أمتعته. ويحمله فى مراكبه الى أى أرض أراد من المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة ثلاث سنين، ومن أراد الاقامة من المسلمين بغرناطة فله الامان على نحو ماذكر وكتب لهم بذلك كتاباً، وأخذوا عليه عهوداً ومواثيق فى دينه مغلظة. وبعد ذلك أخلى المسلمون مدينة الحمراء كما أخلوا غرناطة ودخلها الاسبانيون. ولما سمع أهل البشرة ان أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم الى ملك الروم ودخلوا فى بيعته فلم يبق للمسلمين موضع بالاندلس.

ولقد صرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز الى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التى كانت فيه، فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن، ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والأمتعة، ومن المسلمين من طمعوا فى عناية ملك النصارى بهم فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعة وعزموا على المقام فى الاندلس.

ثم ان الملك أمر الأمير محمد بن على بالانصراف من غرناطة الى قرية اندرش من قرى البشرة فارتحل بعياله وحشمه وأمواله وأتباعه، ثم ظهر له أن يصرفه

فبعث للمراكب تأتى لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الامير محمد ومن معه فى تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة ففاس من عدوة المغرب .

وأخذ ملك الاسبان بعد حين ينقض الشروط التى اشترطها عليه المسلمون ، وشرع يفرض عليهم الفروض ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الاذان، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارباض والقرى ، وبعد ذلك دعاهم الى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا فى دينه كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ، وامتنع بعض أهل الأندلس من التنصر كأهل قرية ونجرو البشرة واندرش وبلفيق ، فأحاط بهم ملك قشتالة وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأخذ صبيانهم وسلب أموالهم ونصرهم واستعبدهم ، وامتنع أناس فى غربى الاندلس من التنصر وانحازوا الى جبل وعر منيع ، فلما امتنعوا عليه وقاتلهم فلم ينل منهم منالا أعطاهم الامان على ان يجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين على ان لا يسرح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التى كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا ولم تقم للاسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة .

قال السلاوى : التزم أهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمه ولما نقض الشروط وهى سبعة وستون شرطاً عروة عروة ومنها اقامة شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك الى أن آل الحال لحملهم على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة . وكان أهل الاندلس كثيرا ما يهاجرون الى بلاد الاسلام غير ان عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم (غير العرب من الاسبان) وأثر فيهم ذلك أثراً ظاهراً لطول صحبتهم لهم ، ونشأة أعقابهم بين أظهرهم الى ان كانت سنة ست عشرة وألف ، فهاجر جميع من لم يتنصر منهم الى بلاد المغرب وغيرها ، وفى خلال ذلك منع العرب من التكلم بالعربية [1] .

---

(١) لما انقرضت دولة العرب وبقى بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم

قال المقرّي : كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها فى التنصر حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا فى بعض الجبال علي النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً الى ان كان اخراج النصارى اياهم اعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج طوائف بتطاوين وسلا والجزائر وعمروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلموا احرفهم وقلدوا ترفههم (١) ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام .

***

هذا مارواه مؤرخو العرب واليك ماقاله مؤرخو الافرنج فى هذه الكارثة : جاء فى التاريخ العام للافيس ورامبو : صحت النية سنة ١٦٠٩ على نفى العرب Les morisques وكانوا يؤلفون عنصراً خاصاً عصى علي التمثل ولم يتزل عن

نسوا أو الزموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أى الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الخميادو — Aljamiado) ووجه التسمية أن العرب يسمون كل ما ليس بعربى اعجمياً وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أى الاسبانية باسم « الاعجمية » ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله فى اللغات الافرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الاجاميا) ولما كان أهل اسبانيا يقلبون أغلب الجيمات خاآت قالوا (الاخاميا) أو (الخميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد أن سكنوا حركة اللام (Alj amia) وعلامة النسبة عندهم (do) توضع فى آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) أى الاعجمى . (السفر الى المؤتمر)

(١) قال ابن ابى دينار ان المهاجرين من الاندلس الى تونس سنة ١٧ ــ ١٠١٨ ١٠ هـ كانوا خلقاً كثيراً فاوسع لهم عثمان داى فى البلاد وفرق ضعفاهم على الناس واذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا فى البلاد فعمرت بهم واستوطنوا فى عدة أماكن وبنوا أكثر من عشرين بلدا فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الاشجار ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد ، وذكر السيد حسن حسنى عبد الوهاب من علماء تونس فى رسالة بالافرنسية ذكر فيها أصول التونسيين انه دخل تونس فى القرنين وتصف القرن الذي انتهى بها جلاء العرب عن الاندلس لا أقل من مئة ألف أندلسى وأن الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلسيين نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم ملوك بني حفص فيها خطط القضاء والادارة والتعليم .

مشخصاته ومميزاته على كثرة مابذل فيليب الثاني من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع بكل مايمكن لاهلاكهم فعمدت الحكومة الى الخروج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولا نجاز وحدة اسبانيا وانقاذ البلاد من أولئك المحالفين سراً للاتراك والانكليز والفرنسيس على حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهنري الرابع يضع خططه السرية فحاذرت اسبانيا العواقب وقام رئيس أساقفة بلنسية يدعو الى طرد العرب مدعياً ان منهم تسعين ألفاً يستطيعون حمل السلاح واذا أغار على اسبانيا عدوها تسوء حالها ويحرج موقعها . واذا كان القشتالى كسلاناً فقيراً كان يكره من العرب منافستهم الشديدة له التي اكسبتهم غنى بفضل اقتصادهم نادى رئيس الاساقفة ان مما يخشى منه ان يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا بالمسيحيين الى العدم والشقاء . وقال غيره انهم يدخرون على الدوام وعلمهم عبارة عن سرقتنا فهم الدودة التي تقرض اسبانيا . وعلى هذا كان من التعصب الديني ان قضي على العرب . ولما تعذر تنصيرهم رأوا ان الطريق الوحيد الى الخلاص من خطرهم المادى والمعنوى يكون بطردهم فقوى نفوذ رجال الكهنوت على ممثلي طبقات الاشراف فى البلاد وكانت عقول هؤلاء أكثر استنارة يحرصون على الاحتفاظ بالعرب فى بلادهم لانهم عاملون ينفعونهم بعملهم ويدرون عليهم ربحاً كبيراً فقاموا ينكرون الشدة التي ارتأى أن يعمد اليها المجلس والحبر نديم الملك فلم يلبث بقايا العرب فى بلنسية والاندلس ومرسية وقشتالة وارغون وكتلون ان غربوا (ايلول ١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا الى أفريقية حيث هلك عدد كبير منهم وثار أربعون ألفاً منهم فاعتصموا فى جبال بلنسية فذبحوا أو استعبدوا ففقدت اسبانيا بهم على أقرب تقدير من خمسمائة الى ستمائة ألف من أحسن العاملين فى الزراعة والصناعات وعجلت بذلك خرابها وبعملها هذا ابتاعت وحدتها الدينية بالثمن الغالى وفرح الرأى العام الاسبانى اذ ذاك بما تم فى هذا الشأن وعدوه من أعظم الاعمال التي قامت فى عهد ملكهم ومنهم من رأوه نعمة من السماء ! وقال مؤرخ اسباني : يا لسعادة ملك توفق الى

أن يعمل هذا العمل من طرد العرب . ولكن الامم خارج اسبانيا عدوا عمل الاسبانيين من تغريب العرب جنوناً بل وصفه ريشليو بأنه أفظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون .

وفي التاريخ العام أيضاً أن خضوع العرب في اسبانيا قد أقلق ملوك الكاثوليك [1] وفتح أمامهم مسألة تطالوا الى حلها بما عهد في عنصرهم من المضاء الوحشي وبما اشتهرت به قرون التدين من التعصب وعدم التسامح فرأوا ان بعض مئات الالوف من الاسرائيليين والمسيحيين يكثرون سواد المخالفين وهم كثير نسلهم لا يعلم ماذا يكون منهم وهم على ماهم فيه من النمو يغتنون ويعملون فاشتد القلق من قوم يخالفون الاسبانيين بحضارتهم بل يعجبون بها ولهم ميول وعقائد وعواطف تخالف ماعليه الجمهور فبدأوا بالاسرائيليين حتى أن ميكل لوكاس أعظم سادات قشتالة ذبحه سكان جيان أمام المذبح في الكنيسة سنة ١٤٧٣ لاتهامه بالعطف على الاسرائيليين .

وكان من مذابح سنة ١٣٩٠ ان اضطر ألوف من اليهود في معظم مدن قشتالة ان يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع الى دينه الاصلي أو كان ظاهره مسيحياً وقلبه وعاداته قلب اسرائيلي وعاده . وكان منهم طبقة غنية محترمة وفي سنة ١٤٨١ وقع تخييرهم بين التنصر والجلاء فآثروا الثاني إلا ان ديوان التفتيش لم تأخذه بهم رحمة كما لم يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشقوا عصا الطاعة بما رأوه من تعصب الكردينال كسيمنس [2] الذي عمد الى تنصيرهم بأبشع الطرق من الحبس والشدة وأخذ الاولاد ولما فرغ صبرهم وعمدوا إلى السلاح نقض ما أعطوه من الشروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فضلوا أن يتنصروا على أن يهجروا بلادهم فانهم لم يسلموا أيضاً واشتد ديوان التفتيش

---

(١) يريد ملوك اسبانيا فان ملك اسبانيا لايزال الى اليوم يدعى في الرسميات صاحب العظمة الكاثوليكي Sa Majesté, Cataica

(٢) هو مرشد ازابيلا الكاثوليكيه ملكة قشتالة حكم اسبانيا بعد موت فرديناند الكاثوليكي مات سنة ١٥١٧ وقد كان من أعظم من قضوا على العرب ومدنيتهم على مامر بك في الفصول السابقة

فى مراقبتهم وكان الاسبانيون يرون فى عمل هذا الديوان الدينى سلامة عنصرهم وسلامة دينهم ولذلك كانوا شاكرين لعمله مهما قسا وغرم .

وقال ريناخ : لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس انه لاسبيل الى قيام وحدتها الا بنفى اليهود سنة ١٤٩٢ ونفى العرب (١٦٠٩) فسار مئات الالوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم فى الطرق عشرات الالوف فخرمت اسبانيا من أحسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين وأطباءها الحاذقين وقد قتل فى اسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الدينى نحو مئة ألف انسان على الاقل ونفى منها مليون ونصف وبذلك خربت مدنية تلك البلاد الجميلة .

وقال سيديليو : كان طرد العرب من اسبانيا من موجبات تأخرها كما وقع لمدينة نانت يوم طرد منها من كان مخالفاً للكثلكة فاضر ذلك بالصناعة الفرنساوية وقد تمكن الكردينال كسيمنس من تعوير جميع آثار المسلمين وأمر بأحراق ثمانين ألف مخطوط عربى فى ساحات غرناطة .

سقوط الاندلس

١٠٧

كان العرب فى الاندلس فى جهاد دائم مع أعدائهم منذ وطئ طارق بن زياد وموسى بن نصير أرضها ، ورفعوا علم الامويين على ربوعها ، ودفعوا باعدائهم الى أقصى الشمال . يسكن الجلالقة وغيرهم حيناً إذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة ، ومتى شاهدوا اختلاف أمور العرب أو آنسوا من بعضهم ميلا اليهم أو نزوعاً الى الاحتماء بهم لينالوا من خصومهم يحملون حملات منكرة ، ويقاتلون أعداءهم بكل مافيهم من قوة ولذلك قلت غارات الاسبانيين والبرتقاليين

على البلاد التى نزلها العرب على عهد دولة بنى أمية أوائل المئة الخامسة وان كان الثوار لم ينقطعوا تماماً فى الداخل عن مجاذبة الاموين حبل السلطة .

ثم فسدت عصبية هـذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف على الاندلس واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزا كل واحد منهم على ما كان فى ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الاندلس ودعى نفسه ملـكا فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر وأمثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور

مما يزهدنى فى أرض اندلس — اسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملـكة فى غير موضعها — كالهر يحكى انتفاخاً صورة الاسد

أو كما قال ابن حزم : فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ويخطب لهم في زمن واحد أحدهم فى اشبيلية والثانى بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة وأصبح العرب والبربر فى خصام مستديم والجميع فى خلاف مع أهل المغرب الاقصى من الجنوب وفى حروب مع بقايا الامم الاسبانية والبرتقالية من الشمال والغرب .

سقطت الاندلس لتشتت أهواء امرائها وأصبح بعضهم « ولا هم له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه ؛ ولهو يقطع به أيامه » واسترسلوا الى اللذات وركنوا الى الراحات ، وأغفلوا الاجناد واحتجبوا عن الناس ، ولم يعودوا ينظرون فى الملك ، ومنهم من قتل كبار قواده ؛ ووسد الامور الى الضعاف فـكثرت المظالم والمغارم ؛ وكثر الثوار مرات بشرق الاندلس وغربها من القضاة وغيرهم ، وهكذا تبدد شمل الجماعة « فضبط أشراف العمالات أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، فأتوا من ذلك بكل شنيعة »

قال ابن حزم : كانت طرطوش وسرقسطة وافراغة ولاردة وقلعة أيوب

فى يد بنى هود وبلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز والثغراى مافوق طليطلة من جهة الشمال فى يد بنى رزين وطليطلة فى يد بنى ذى النون وقرطبة فى أيدي أبناء جهور واشبيلية فى يد بنى عباد ومالقة والجزيرة الخضراء فى يد بنى برزال من البربر والمرية فى يد زهير العامرى ثم ابن صمادح ودانيـة وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) فى يد مجاهـد العامرى وبطليوس ويابرة وشنترين ولشبونة فى يد بنى الافطس وأصبح كل امرىء وما اختار من الالقاب والاسماء حتى ان المستعين لما جلس على عرش الخلافة قال للناس أجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة فى أيامه منفردة ومثناة (أى الوزير وذي الوزارتين) أراذل الدائرة ، وأخابث النظار ، فضـلا عن زعانف الكتاب والخدمة .

قسمت الاندلس بعد سقوط الأمويين ، الى تسع عشرة مملكة منها قرطبة واشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطليطلة وباجة ولشبونةوغيرها . ولقد كان يخشى بعد هذا التفرق وتراجع أمر الدولة الأموية ان تسقط الاندلس دفعة واحدة ولكن قدر الله أن يكون ملوك الجلالقة وقشتالة وغيرهم مشتتة كلمتهم متفرقة أهواؤهم وقيض للبلاد دولةأخرىجديدة قوية جاءتهامن الجنوبأى من المغرب الأقصى وهى دولة المرابطين ففرج بها عن العرب بعض الفرج فجاء يوسف بن تاشفين وقاتل الادفنش سنة ٤٨٠ وانتصر عليه وكانت البـلاد الى البوار بسبب استيلاء النصارى عليها وأخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة .

ثم عادت أحوال الاندلس فاختلت اختلالا مفرطاً آخر دولة أمـير المسلمين على بن يوسف أوجب ذلك « تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم الى الدعة ، وايثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا فى أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، فاستولى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . » . حتى جاء الموحدون كما كان المرابطون من قبل بدعوة عقلاء الاندلس وأمرائها وقد

كانوا يدعونهـم الى نصرتهم بضروب الفصاحـة من الشعر والنثر ويستنفرون الناس من العدوة .

لما اشتدالحصار على أهل اشبيلية سنة ٦٤٥ صنع ابراهيم بن سهل الاسرائيلى قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدوة ويستنصر بامراء العرب وذلك اذ كان العدو عليها قال فيها :

يامعشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية كابراً عن كابر
ان الاله قد اشترى أرواحكم بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم وبكم تمهد فى قديم الاعصر

الى أن قال :

والخيل تضجر فى المرابط عرة الا تجوس حريم رهط الاصفر
كم نكروا من معلم ، كم دمروا من معشر ، كم غيروا من مشعر
كم أبطلوا سنن النبي ، وعطلوا من حلية التوحيد صهوة منبر

الى أن قال :

عند الخطوب النكر يبدو فضلكم والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لو صور الاسلام شخصاً جاءكم عمداً بنفس الوامق المتحير
ولو انه نادى النصير لخصكم ودعاكم ياأسرتي يامعشرى

نعم كانت التفرقة بين أمراء العرب فى الاندلس مما علم أعداءهم كيف يتحدون ليدفعوهم عن أرضهم كما وقع للعرب فى صقلية سنة ٤٣١ فانهم بعد ان دافعوا عنها جيوش البيزنطيين والنورمانديين والروسيين والفاكريكيين قسموا صقلية الى أمارات صغرى فانشأوا جمهورية فى بلرم وأخرى فى سرقوزة وكان ذلك من أكبر الدواعى فى زوال سلطانهم . لاجرم ان ضعف الوازعين الدينى والمدنى من ميل القوم الى الراحة والدعة وضعف الأخلاق الحربيـة فيهم وانتشار الفوضى فى أحكامهم كان منه ان تأذن الله بذهاب ريحهم لا كما يدعي بعض العامة من أن

رواج سوق الشعر كان السبب في زوال الاندلس وتبديد شمل أهلها فقد كان الشعر عندهم من جملة المسليات لان للعرب عامة غراماً به وبالأدب وسيلة الى العلوم كافة والعرب أمة أولعت منذ عرف تاريخها بالفصاحة والبلاغة .

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والاسبان والبرتقاليين في المدة التي ارتفعت فيها أعلام المسلمين على الاندلس يدرك أن القوتين قوة الغالب والمغلوب كانت متعادلة في أكثر الأيام ولكن تكتب الغلبة للفريق الذي كان جنده منظماً أحسن من جند خصمه وكان بعض خلفاء الاندلس يعتمدون على جنود لهم من الرقيق كالصقالبة وغيرهم ويعفون رعاياهم من التجند على حين كان زعماء الاسبان يصرفون أيام شبابهم في تعلم الضرب بالسيف والرمح لقتال أعدائهم [1] والعرب لايجوزون أن يستبدلوا العادات الحربية بأعمال الزراعة وما في المدنية الراقية من التمتع والهناء فكان الناس في الممالك النصرانية يضطرون الى الخدمة في الجندية ويرافق الاشراف ملوكهم الى الحرب مع أتباعهم .

أما العرب فلا يخرج أحدهم الا الى الجهاد واذا خرج فيكون خروجه على الاغلب متكارهاً لمدة معينة فكانت أوضاع الاسبان حربية محضة تكون لهم بها الغلبة في القتال أما في البحر فكان العرب أشد بأساً وأقوى أساطيل ولهم في كل فرضة من فرض الاندلس سفن معدة وقد أقاموا لهم دور صناعة في المرية وطرطوشة وطرخونة وكانت معامل اشبيلية وقرطاجنة تخرج كل سنة سفناً جديدة تمخر في عرض البحار .

استولى الملوك من بني الأحمر قرنين ونصف قرن كما تقدم لنا الكلام في ذلك

---

(١) وصف لسان الدين أمة قشتالة بقوله : وحال هذه الامة غريب في الحماية الممزوجة بالوفاء والرقة ، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية ، عادة العرب الاول . واخبارهم في القتال غريبة من الاسترجال ، والزحف على الاقدام ، اميرهم ومأمورهم ، والجثو على الارض ، او الدفن في التراب ، والاستظهار في حال المحاربة ببعض الالحان المهيجه ، ورماتهم قسيهم عربية جافية ، وكلهم دروع ، ولا لجام عندهم ، والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع ، ورماتهم يسبقون الخيل في الطراد ، وحالهم في باب التحلي بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب اهـ

وهم الذين استولوا علي بقايا مجد العرب بعد ان انتضر سلطانهم سنة ٦٦٣ ه علي الفرنج واسترجع منهم اثنين وثلاثين بلداً من جملتها اشبيلية ومرسية ثم عاد العدو وأخذ بخنقهم ولكن لم ينل منهم لاجتماع كلمتهم فى الداخل على الجملة ولما دب الهرم فى جسم دولتهم وقرى الاسبان باتحاد ايزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك الاراغون أي باتحاد المملكتين الرئيستين فى الشمال تأذن الله بفناء الاندلس فلم يبق أمامهم الا التسليم والاستسلام وفى ذلك كان هلاكهم وبوارهم .

جبل طارق وطنجة

١٠٨

كان جبل طارق الذى نسب الى طارق بن زياد فاتح الاندلس وهو المكان الذى بلغه فى جيشه أواخر المئة الاولى بأيدى العرب مدة استيلائهم على الاندلس فلما دالت دولتهم عاد الى الاسبان ولبث فى حكمهم الى القرن الثامن عشر واستولى الانكليز عليه فى سنة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم محاولة الاسبان فى سنة ١٧٠٤ — ١٧٧٩ بمعاضدة الاسطول الفرنسوى للاستيلاء عليه فلم يستطع الاسطولان الفرنساوى والاسبانى تخليص هذا الحصن من أيدى الانكليز .

يعلو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ متراً وهو متصل مع القارة الاوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويشرف على المدينة . وقد جعل الانكليز فيه قلعة شحنوها بالمدافع فجاءت من أحصن ما فى العالم من الحصون . فهو فى الحقيقة قطعة من أرض اسبانيا ولكنه انكليزي الحكم والنظام يشرف على البحرين المحيط والمتوسط ويأخذ بخنق السفن الغادية والرائحة بين القارات الثلاث أوربا وأميركا وأفريقية .

يبلغ سكان جبل طارق اليوم ٢٢ ألفاً ماعدا الحامية الانكليزية وأهلها مزيج من شعوب أوربا وأميركا وآسيا وأفريقية وكذلك ابنيتها مزيج من طراز الابنية عند الامم الكثيرة واللغتان الشائعتان هنا الاسبانية والانكليزية . ولا يحق اليوم لغير الانكليزي التبعة ان يقتني ملكا في هذا المرفأ الضيق النطاق ويراقب الاجانب فيه مراقبة شديدة والمدينة كلها عبارة عن شارع واحد ضيق بني في الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من جزيرة طريف وهي أشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر .

جئت جبل طارق من غرناطة وانتهيت بالجزيرة الخضراء آخر عمل اسبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضع دقائق يجتازها المجتاز على ظهر سفينة .

وعلى بضعة أميال من جبل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على البحر في بر العدوة من ثغور الغرب الأقصى وأول أرض أفريقية يقع نظر الخارج من القارة الاوربية عليها فينتقل السائح انتقالا فجائياً من مدنية راقية الى مدنية مشعثة منحطة وليس بين القارتين الاوربية والافريقية الا مجاز صغير كان العرب يسمونه الزقاق .

اغتنمت فرصة انتظار الباخرة الانكليزية التي تسافر من جبل طارق الى مارسيليا في يومين فزرت طنجة وطوفت في ارجائها وسكانها اليوم نحو أربعين ألفاً فيهم كثير من الاسبانيين والبرتقاليين والطليان والفرنساويين وهي من المدن التي استعمرها الفينيقيون فيما مضى ولا تزال محتفظة بطرازها الشرقي على كثرة ماتداول عليهامن الأمم بعدالاسلام فقد استولى عليها البرتقاليون سنة ١٤٧١ م والانكليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيس سنة ١٨٤٤ وبقيت منذ ذاك الحين في يد المراكشيين وهي الآن مشاع لكل الدول أو تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسيس والاسبان كما يتنازعون على السبق في حماية بلاد الغرب الأقصى . ويقيم فيها كثير من معتمدي الدول والسلاطين المخلوعين من أمراء المسلمين في الغرب الاقصى أمثال مولاى عبد العزيز ومولاي الحفيظ .

نعم ان المراكشيين مازالوا فى هذا الثغر وما وراءه من البلدان على تصلبهم فى عاداتهم رغم التيار الشديد الهاجم عليهم من أوربا وهم منها على ثلاث ساعات بحراً لا يفصلهم عنها الا بحر الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر ميلا « وهو أضيق موضع فيه وأوسع موضع فيه نحو ثمانية عشر ميلا » قال الفقيه المرادى المتكلم القيروانى بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله الى مدينة سبتة :

سمعت التجار وقد حدثوا ... بشدة أهوال بحر الزقاق

فقلت لهم قربونى اليه ... لشفه من حر يوم الفراق

فلما فعلت جرت ادمعى ... فعاد كما كان قبل التلاق

علم المشرقيات فى اسبانيا

١٠٩

كان على اسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون ان تكون اول دولة غربية تعنى باللغة العربية ولكنها تعد من الاواخر لان الارتقاء يتبع بعضه بعضاً ولا تنفق امة الا مما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ ان اول مدرسة (١) عربية أنشئت فى طليطلة اوائل القرن الحادي عشر ومن هذه المدرسة نشأت تربية الاسبانيين على مناحى العرب وفى سنة ١١٣٠ أنشأ رئيس اساقفة طليطلة مدرسة للتراجمة فى هذه المدينة وبها رسخت اللغة العربية والافكار العربية فى اسبانيا المسيحية . وكان من نتائج وقعة العقاب ان حررت اسبانيا من رق العبودية للمسلمين وأدرك ملوك قشتالة ان ليس من العقل مقاطعة الماضى القديم وانهم فى حاجة بعد الى أن يتعلموا من معلميهم القدماء ومنافسيهم الالداء من العرب فحاول الفونس العاشر أن يعمل لاسبانيا المسيحية ماعمله العرب لاعلاء

---

(١) مجلة المقتبس المجلد الرابع .

شأن الاسلام وذلك بالاخذ باحسن مافى الحضارتين ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأسست سنة ١٢٥٤ فى اشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها العربي الصرف واستدعى الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيار احسن المعارف النافعة وهى أقرب الى التسامح من المدرسة الاولى اذ كانت تجمع الى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبرانى .

كان لليهود يد طولى فى نقل العلوم من العربية الى اللاتينية لأن المرابطين والموحدين الذين استولوا على الاندلس بعد الامويين كانوا الى التعصب . بددوا كتب الفلسفة وأحرقوها ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الاسرائيليين لضاع كثير من أوضاع مدنية العرب في الاندلس .

ثم بدا لرجال الدين من الاسبان ان يسعوا في نشر دينهم بين المسلمين فاخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان ويجادلوا مخالفيهم بالبرهان فوضع أحد الدومنيكيين أول معجم عربي باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ وفى سنة ١٣١١ — ١٢ امتدح البابا اكلمنص الخامس فى أحد المجامع الدينية من انشاء درس لتعليم العربية فى مدرسة صلمنكة وفى أواسط القرن الثالث عشر كان الدومنيكيون مثال الغيرة فى نشر اللغات الشرقية بين أبناء رهبنتهم ومنها العربية وأنشأ صاحب أراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقيــة فى ميرامار وأنشأ المجمع الدينى فى طليطلة ينفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية أشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجمعيات الدينية ولاسيما الفرنسيسكانية الى القرن الثامن عشر فى اسبانيا هى القائمة بدعوة المستشرقين الى درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه .

ولم تنل مدرســة صلمنكة شهرة طائلة فى أوربا حتى غدت احدى المراكز العلمية الأربعة وهى باريز واكسفورد وبولون الا أنها بتأثير العلم العربى أقامت على أساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن فى مدرسة صلمنكة في أواخر القرن الثالث عشر غير خمس وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة لليونانية

وأخرى للعبرانية وثالثة للعربية فأصبحت في القرن السادس عشر سبعين حلقة فيها سبعة آلاف طالب .

ولما اعلن الاسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيتهم ودينهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف القوم باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كنائس بل أخذوا ينصرون المسلمين بالاكراه وفى سنة ١٥٠١ — ٢ طردوا من مملكتى قشتالة وغرناطه كل من ظلوا محافظين على الاسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لانها افسدت أفكارهم وزهد المسيحيون فى علوم المسلمين وقام فى أذهانهم انها خطر عليهم .

صدر أمر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد ان أحرق فى ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية ان تباد كتب العرب من بلاد اسبانيا عامة فتم ذلك فى نصف قرن ولولا المترجمات منها الى العبرية واللاتينية لبادت مدنية العرب من تلك البلاد . وأخذ ديوان التفتيش الدينى على نفسه ابادة كل أثر للعرب وما كان متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا ابداء أسفهم الا سراً وفى الكتب العربية المكتوبة بالعجمية أى المكتوبة بحروف اسبانية دليل على تعلق أولئك المتنصرة بقديمهم .

وفى سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثاني متنصرة المسلمين من استعمال اللغة العربية وأرادهم على أن تنزع من أسمائهم التراكيب العربية وعن أجسامهم الالبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه فى سواد أبناء المذهب الكاثوليكى ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان عددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية سخيفة ولم يبق من الحضارة العربية واللغة العربية فى اسبانيا غير ذكراها وزهد القوم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى تعليم العربية فى اسبانيا اللهم الا على طريقة افرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً ولربما اتهم من يتعلمها بالالحاد بعد ان كان أهل الطبقة العليا من الاسبان أيام عز العرب يحلون باقوال فلاسفة العرب كلامهم

ويدرسون الفلسفة العربية درس مستبصر مستفيد لا درس ناقد عنيد ويعدون الاطلاع على الآداب العربية من أمارات الظرف والكياسة .

وعلى هذا لم يبق لمدرسة الفرنسيسكان فى أشبيلية من أساليب تعلم العربية الا أثر ضئيل وأراد شارل الثالث أن يعيد الى اسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعي لذلك رهباناً موارنة من سورية ليعلموا الاسبانيين لغتهم الاصلية الثانية ويحق للنصف الثانى من القرن الثامن عشر ان يباهى باساتذة متمكنين من أسرار العربية فى اسبانيا .

ولما ادخل الاصلاح الى الكليات القديمة فى أواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر عادت العربية تدرس فى جامعات اسبانيا رسمياً ولما استلمت الحكومة الاسبانية سنة ١٨٥٧ زمام اصلاح التعليم من دون رجال الدين او الملك أو الاشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود اليها حياتها التى كانت لها فى شبه جزيرة اسبانيا من القرن الثانى عشر الى القرن الخامس عشر فاخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تلقاء نفسها فى قائمة دروس التعليم العالى وأخذ المستعربون ينتفعون من المخطوطات العربية المحفوظة فى مكتبة الاسكوريال ومكتبة الامة ومكتبة المجمع العلمى التاريخي ومن المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عبرية المحفوظة فى كاتدرائية طليطلة . دع مكتبة خزائن كايانكوس وكودرا وريبرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات .

والعربية اليوم تدرس رسمياً فى كلية مجريط وغرناطة وبرشلونة وصلمنكة وبلنسية وأشبيلية وغيرها ولكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة الا فى العاصمة و بعض الولايات وقد نشر المستشرقون من الاسبان منذ أواخر القرن التاسع عشر كتباً عربية كثيرة متعلقة بتاريخ الاندلس وتراجم رجاله وبعض العلوم التى اشتغلوا بها ومنها الجيد وأكثره مملوء بالاغلاط والتحريف وهو دون مانشره الهولانديون والجرمانيون والبريطانيون والطليان من هذا القبيل من حيث الصحة والاتقان .

وأنت ترى ان الاستشراق العربي كان الدين هو الداعي اليه كما كان في معظم بلاد أوربا ثم امتزج الدين بحب المدنية ثم امتزج كلاهما باسم الاستعمار ولكن المحصول في شبه جزيرة ايبريا أي في اسبانيا والبرتقال قليل . وفي جامعة لشبونة عاصمة البرتقال درس عربي اليوم ومدرسة الاستاذ لوبيس الذي نشر بعض الكتب العربية فهو المرجع في البرتقال اليوم كما أن الاستاذ آسين مرجع الاسبان في مجريط وكلاهما عضو في المجمع العلمي العربي .

اسبانيا بعد العرب

١١٠

من القى نظرة بليغة على تاريخ شبه جزيرة اسبانيا يوقن ان الانحطاط دب في اهلها منذ قرون وان تراجع امرها يرجع تعليله الى امور كثيرة افاض فيها الاجتماعيون والمؤرخون والحكماء ، وانحطاط الاسبان كيف كانت الحال مؤكد لايختلفون هم فيه ومنهم من يقول ان منشأه حر وبهم مع العرب وفتح امريكا فنفدت قوة الامة في اعمال هي الجنون بعينه . ويقول ـ القشتاليون ان جلوس ملك غريب على عرش اسبانيا انتج سلسلة من المصائب مازالت حتى اليوم تجرع صاب عذابها . ويزعم بعض مؤرخيهم ان الاصل في انحطاطهم كون البلاد قاحلة والطبيعة لم تساعدها على النمو . ويدعي آخرون ان السبب في بقاء اسبانيا منحطة ميل الشعب الى المقاومة والمشاكسة وغرامه في الاستقلال بحيث انقلب ذلك الى فوضى وغدت بلادهم مسرحا للفتن الاهلية وشغلت برد غارات المغيرين عليها ويدعي فريق آخر ان هذه الاخلاق في الاسبانيين وتحمسهم في رد غارات العدو وتغني اهل كل صقع بمزاياهم وركونهم الى العزلة والاستئثار ـ كل ذلك من امارات الوطنية فيهم وان كانوا في الاكثر اذا شكا عضو من أعضاء البلاد او قطر

من اقطارها لايشاركه فى شكواه جاره ولا اخوه . وعماد الوطنية عندهم هو لدين الكاثوليكي يسيرون سيره ويندفعون بعوامله . ولا شأن فى اعمالهم للآراء التى تمليها المصلحة وتنبعث من عظمة الامة . وينسب بعض الكتاب الذين كتبوا عن اسبانيا عقب انحلال مملكتها الاستعمارية السر فى انحطاط امتهم الى تشبعها بدين مملوء بالخرافات ممزوج بالتصرف ويجيب آخرون انضعف الوازع الدينى فى قومهم هو الذى كان به مبدأ انحطاطهم وما قام مجدالا منه قديما الا بسائق الدين فلما قل المعتقدون كثر المنحطون .

ويقول فوليه : ان اسبانيا مؤلفة من عدة ممالك وفيها الاهوية المختلفة فالشمال منها اوربي والجنوب اشبه بقطر افريقي — فيه الليمون والبورتقال والتمر والرطب وانها في بعض اصقاعها تشبه روسيا حرها مدة ثلاثة اشهر من السنة كحر جهنم وشتاؤها تسعة اشهر وقد فطر الاسبانى على شيء من القسوة تشبه لفحات جباله وفيه جفاء كطبيعة تربته ومحرق شمسه وانه ظل افريقياً وان كان يعد فى الاوربيين

ومزاج الاسباني صفراوى عصبي ومعنى ذلك ان في باطنه حرارة شديدة تحرقه فيعرف كيف يقمع هواه المذيب وان في استطاعته ان ينام على احقاده طويلا حتى اذا عرضت له الفرصة وثب ، وهم قساة على الحيوانات الاهلية قساة على الانسان قساة على انفسهم . وقد جاءتهم القسوة من اعتيادهم النظر الى الانسان يحرق بالنار ايام ديوان التفتيش الدينى وما زالت القسوة متسلسلة فى دمهم يساعدها ايضا اعتياد الاسبان صراع الثيران واذا ادعى بعضهم ان صراع الثيران يورث النشاط — ومتى كانت قسوة القلب تورث نشاطا — فان هذا الصراع هو التوحش بعينه وليس من الضرورى اهراق الدماء حتي ينشأ ابطال

الاسبانيون صادقون مخلصون اذا أعطوا عهدا وعندهم شعور بالاحترام والشرف وهم كرام يحبون اقراء الضيفان وربما زاد هذا الخلق فيهم فى الجنوب اكثر من الشمال ولكن لايجزم بانهم يميلون كثيرا الى الانسانية

اماتعصبهم فبه يضرب المثل وكان منه فساد أمرهم . قالوا ان التعصب بالنسبة للدين بمثابة الغيرة بالنسبة للحب واذ كان الاسبانى غيوراً جداً فى حبه فهو

متعصب جداً لدينه ومع هذا فقد رأينا الايطالى غيوراً فى حبه ولكنه غير متعصب فى الدين . قال فوليه ان أغناس دى لويولا (مؤسس الرهبنة اليسوعية) على ماكان فيه من المضاء والفتوة قد ساعد بدون أرادته على أضعاف بلاده لأن فساد آداب جماعته من الاسبان ومراقبتهم كل ضرب من ضروب الحرية كانا من الاسباب التى قضت على النفوس بالانحطاط . قال ولم ينشأ فى اسبانيا فلاسفة لأنه لايتأتى تحت سلطة ديوان التفتيش أن يتفلسف المرء بل يكون نصفه لاهوتيا والنصف الآخر فيلسوفاً والى اليوم لايزال الحال كذلك ليس للفلسفة من يمثلها في اسبانيا فى الحقيقة ونفس الامر

لاجرم أن الاسبانى شأن كل أمة انحطت يحتاج الى دراسة تاريخه دراسة تدبر وهو اليوم متأخر جداً فى مضمار العلوم ــ والتربية . وقد غرس فى العنصر الاسبانى الصبر والثبات وحب الأقدام . ودعا اختلاف طبيعته الى تخالف السكان فى المناحى والمنازع وكان كل جزء من البلاد قبل انشاء الخطوط الحديدية والطرق المعبدة منعزلا بذاته ضمن حدوده فاضطرت الشركات الى فتح زهاء مئة نفق طويل فى انحاء البلاد حتى يتيسر ربط الأجزاء المهمة بعضها ببعض وكذلك الحال فى صعوبة المواصلات البحرية فان فرضها وسواحلها على كثرتها وطولها صعبة المجاز على السفن . ومع هذا رأينا أمماً كثيرة غزت شبه جزيرة ايبريا مثل الايبريين (الذين سميت الجزيرة باسمهم) والسلتيين والفينقيين واليونانيين والقرطاجنيين والرومانيين والسوافيين والفانداليين والوزيغوطيين والعرب والاسرائيليين والسوريين والبربر والمرابطين والموحدين

ولم تمتزج تلك الشعوب التى دخلت اسبانيا على توالى القرون فى بودقة واحدة وكان السكان على الدوام متخالفين فى طبائعهم تخالفهم فى بيئاتهم بل لم تتم وحدتهم على ماهنالك من صلات ضعيفة سياسية لان أفراد الامة لم يتعاونوا كلهم على تأليف هذه الوحدة . فانا نرى البغضاء قد تأصلت فى قلوب الاسبانيين فليس التنافر على أتمه بين ابن الشمال وابن الجنوب فقط بل بين أهل المدن المتجاورة

شأن الأمم المنحطة . كان الاسبانيون وما زالوا وابن قشتالة منهم ينفرون من ابن الاندلس ويحتقرونه وأهل برشلونة يبغضون أهل بالنسية وأهل طرخونة يكرهون أهل رية وأهل مرسية لايميلون - الى القرطاجنيين وأهل قادس يمقتون أهل شريش وهكذا يستعدى أهل كل مدينة أهل المدينة الأخرى ولولم يقم منهم ملوك عقلاء يضمون بالقوة شملهم ويدفعون العرب عن بلادهم لما قامت لهم قائمة وقيل لولم ينضو أمراء النصرانية فى تلك الحقبة - من الزمن تحت لواء واحد لكان الخطر على النصرانية نفسها وكان الواجب أنه لايتأخر اتحاد الاسبانيين حتى يقوم الملوك المتأخرون بلم شعثهم لولم يكن أمراؤهم مختلفين بينهم وكذلك كان يصعب زحزحة العرب عن سلطانهم لولم يكونوا على اختلاف بينهم أيضاً .

ولقد كان أهل قشتالة يرون لسلامة اسبانيا - وهم الذين قاموا بأعمال مهمة فى جمع سلطان الاسبان وطردوا العرب من الاندلس أن يقطعوا شأفة المخالفين لهم فى الدين من العرب النازلين فى اسبانيا ولولم تفتح أميركا وتشتغل اسبانيا فى حرب فرنسا وانكلترا وتبدد قوتها فى الممالك التى ضمت اليها من طريق الارث لتم لها ماتريد من فتح مراكش .

لم تستفد اسبانيا من فتوحها لأن ملوكها كانوا يدبرون أمرها على هواهم ويربطون أهلها برباط الدين ولكن هذه الوصلة لم تقو على نزع الفوارق فى طبائعهم وعلى كثرة تحمس الفرد للوطنية لاتتعدى حماسته اسوار بلده خلافاً للفرنسيس والانكليز والالمان والطليان وغيرهم من الامم الكبرى فانها نهضت متحمسة حماسة ناشئة من نصر أحرزته وغلبة تمت لها على حين ترى اسبانيا لم تحرز مثل هذه النتيجة من انتصاراتها فى بلادها وفى الخارج وأن فقد الشعور الوطنى هو أهم عامل فى انحطاط اسبانيا تضاف اليه أسباب سياسية واقتصادية .

***

لا مراء فى أن النسبة مفقودة بين المشاريع التى قام بها ملوك اسبانيا وبين موارد البلاد الحقيقية من حيث الاقتصاد والجندية . ومن الجنون أن يعتقد أن

التوسع فى الفتوح فى الخارج ينمى قوى المملكة . ومن أبشع الجنون أن يعتقد ملوكهم أن مناجم الذهب فى العالم الجديد أميركا لا تنضب أبداً وأن الذهب المجلوب من أميركا يغنى الامة على وجه الدهر . قال فوليه : وكان فى افتتاح الاسبان أميركا باعثاً على تقلقل النفوس وتزعزع المبادىء فأصبح الناس يرقبون الفرص للاغتناء ونسوا أن الثروة بالعمل والاستمرار ولذلك قل فيهم المتشردون اذ رأوا كثيرين منهم اغتنوا بالمصادفات وآخرين افتقروا كذلك . وهكذا ماتت الارادة فى هذا الشعب . وما تاريخ استعمار اسبانيا الامثال وأى مثال لشعب ينتحر .

ثم ان ديوان التفتيش قرض بيوتاً وأسراً كانت مباءة ذكاء وجرائم فهم وعلم فبقضائه عليها قضى على الصناعات والفنون والآداب . وكانت اسبانيا تستعمل فى دعايتها للدين « النار والحديد » فتسطو على الوجدانات المتحمسة وتقضى على الارادات القوية ثم تستكثر من الرهبنات فتكثر من العزب فيزيد العقم ويقل النسل ثم ان حروب شارلكان الجنونية ولا سيما فتح أميركا حرم البلاد أهل النشاط والاقدام وأضعف طبقة الاشراف بل قرض العالم من القرى فاقفرت وأغلقت بيوت برمتها وان طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ وجميع سكانها الذين كانوا من أصل عربي بين سنة ١٦٠٩ - ١٦١٠ قد حرمها شعباً عرف بهمته ومضائه فخلت محل العاملين حثالة من الناس كانت أقرب الى الكسل المغروس فى سكان الجنوب المعروفة باحتقار الاعمال اليدوية وكثر التسول وحظر رجال الدين الاستحمام لأنه يشبه الوضوء عند المسلمين بزعمهم فكثرت الأمراض الجلدية وتعذر على الأطباء أن يصفوا لمرضاهم النظافة والاغتسال مخافة أن يفشو أمرهم ويقعوا تحت طائلة القصاص .

والظاهر أن الاسبانيين لم يكن لهم فى دور من الادوار ذوق فى الاشغال اليدوية وكانت بلادهم قليلة السكان قبل نزوح العرب منها فما بالك بها بعدهم ومدنها قليلة وكذلك العامر من قراها فهى من هذه الوجهة لا تشبه فرنسا ولا ايطاليا بحال من الأحوال . وبعد فاذا كانت الصناعة والتجارة قد بلغتا درجة

حسنة فى بعض العصور والامصار فى اسبانيا فذلك بفضل العرب والغرباء عن البلاد . وما زالت معامل اشبيلية وبرشلونة مشهورة بنسيج صوفها وقطنها وحريرها وأسلحة طليطلة وجلود قرطبة معروفة منذ عهد العرب هناك . فللغريب الى اليوم اليد الطولى على اسبانيا ومعظم المشاريع العمرانية فيها لجماعة من الانكليز والفرنسيس والالمان وغيرهم .

اذا اشتهر عن الاسبانى أنه من نسل أمة حربية فلم يعرف عنه أنه من أمة جندية . وشتان بين من يحارب منفرداً لحساب نفسه وفائدتها وبين من يقاتل صفوفاً صفوفاً بانتظام لنفع وطنه وخدمة غرض شريف ترمي اليه أمته فقد كانت عدة المحاربين تحت العلم الاسبانى من غير الاسبان فى حروب ايطاليا والفلاندر تسعة أضعاف المحاربين من أهل العنصر الاسبانى وهكذا فى كثير من حروبهم فى جنوب أميركا وفى جزائر البحر .

كان رائد حروب الفتوح الثاني La Reconquista الفكر الدينى فى الامة ومورد ها اموال الرهبان وبركات البابا الرسولية وتنشيط الاشراف فلما اراد الاسبانيون أن يعملوا خارج تخومهم خانتهم القوى وأعوزهم المال والرجال ولقد ذكر العارفون بأن ماساعد على انحطاط اسبانيا اكثر من فقر تربتها وبوار اراضيها وشقاء سكانها واوهام حكامها وفتح امريكا وطرد العرب واليهود منها فخرمت بطردهم موارد كثيرة من الرجال والعقول الذكية المفكرة — ان ماساعد على انحطاطها فى الاكثر كان اعتزالها الدينى الذى فصلها عن بقية العالم واهم ذلك رسوخ اقدام قوميات فى ارضها ولم يشعر الاسبان فى زمان من أزمنة تاريخهم بانهم متضامنون ولذلك كانت الامة تدفع المال لرجال تستأجرهم جنودا حتى اذا ظفروا فى القاصية تقيم الاعياد والحفلات تكريما لهم وادهش من ذلك ماقال احد المؤرخين : بين اكثر أمم اوربا عقيب النهضة تحاول ان تكسر قيود الرق الدينى كانت اسبانيا تقاوم كل فكر اصلاحي يرمى الى التجدد وتقاتل فى ارضها وخارج ارضها كل مايراد منه تحرير العقول من الاستعباد فكانت اسبانيا تساعد البابوية الاين فى الضرب

على ايدى المجددين والمصلحين الذين كانت تنبعث انوار عقولهم فى الغرب بسرعة البرق

وكان من جهاد اسبانيا ان فقدت جميع املاكها ومستعمراتها الخارجية عن حدودها الطبيعية وان خرجت عنها البرتقال وكادت بلاد الكتلانكيين ان تودى معها واقتطعت انكلترا من ارضها جبل طارق وجاءت عليها ادوار قويت فيها الضغائن واشتد فيها الفقر وكثرت الضرائب ولا يستثنى من هذه الا رجال الدين وطبقة الاشراف حتى كادت اسبانيا ان تقسم اجزاء كما قسمت بولونيا قديما

وكلما قام المصلحون فيها أذوا وقتلوا حتى كان احد ملوكهم يقول ان الاسبانيين كالاولاد يبكون كلما حممتهم وغسلتهم . وما زالت البلاد على الرغم من حكمها الدستورى فى نزاع بين القديم والحديث ولا سلطان فيها الا لرجال الدين والجيش وبعبارة ثانية لرجال الدين وحاشية الملك الذين يخدمون على الاغلب مصالحهم الشخصية . اما النواب فيوشكون ان يكونوا اسما بلا مسمى وليس هناك رأى عام ولا جماعة من المنتخبين والنواب قد ينتخبهم الوزراء ويقرهم الناس وتكاد اسبانيا لا تشبه بادارتها الحكومات النيابية الا قليلا وذلك لان كبار الموظفين الذين يختارون اعضاء لمجلس الشيوخ — كالقواد والحكام ورؤساء الاساقفة قد اعتادوا ان لا ينظروا المسائل التى يبحثون فيها الا من حيث مصالح طبقاتهم الخاصة وهكذا بقية طبقات الاشراف والمنتخبين من الولايات لايجرون الا على هذا المثال . اما القضاء فيكاد يكون هزؤا والدعاوى تكلف نفقات باهظة أكثر من كل ممالك أوربا والذى يوكل اليه جلب الجناة قد يفسح لهم في الاكثر مجال الهرب مقابل مال قليل لأن الدرك يتقاضى راتباً ضئيلا فهو شريك المجرمين والجناة والمتهمين والبلاد أبداً غاصة بجمهور منهم وقد قال أحدهم : ان اسبانيا لايحق لها أن تحسد مراكش على قضائها لان القضاء فى الأولى هو كالقضاء فى مراكش الى الانحطاط والسقوط . وسوء الاستعمال محسوس الأثر فى كل عمل من أعمال الحكومة هناك .

لا يقل عمل العمال فى دوائر الحكومات الاوربية كما يقل فى حكومة اسبانيا فان من موظفيها من لا يعمل أكثر من ساعتين ومنهم من يأتون خلسة الى دوائرهم ثم يذهبون حالا دون أن يأتوا بعمل . ومتى فوضت الوزارة الى أحدهم وزارته لا تطول أكثر من أشهر — لا يفكر فى عمل مفيد بل يحرص على يقين أقاربه والمخلصين له فى المناصب . ومن أقبح قواعد الادارة فى اسبانيا تأسيس اللامركزية الشديدة فترى الولايات لا تستطيع أن تعين شرطياً ولا حارساً بل أن حق التعيين من شأن العاصمة مجريط ولا بسط المسائل ملفات من الاوراق طويلة عريضة لا ينظر فيها أشهراً وصاحبها يذوب كمداً على نجاز عمله . واذا خلت وظيفة التدريس فى احدى مدارس الولايات لا يعين الخلف قبل مضي شهرين أو ثلاثة فتغلق المدرسة خلال هذه المدة ويتشرد الأولاد .

وليس للاعمال الصحية أثر في غير المدن أما القرى والدساكر فانها محرومة من كل نظام صحي . وتخف التبعة الملقاة على عاتق الموظفين بنسبة أعمالهم ولا ترى فى الحقيقة أحداً يسأل عن عمله والشعب لا يهتم الا لارضاء سادته ورؤسائه وقلما يثور للمطالبة بحق له الا اذا فقد الخبز أي بسائق الجوع ولا يثور دفاعاً عن أفكاره وأمانيه الوطنية . الشعب الاسبانى ملكى يتفانى فى الحكم الملكى كما هو مغموس فى الدين وكان لرجال الكنيسة عندهم فى كل دور شأن وأي شأن . وجميع الحروب المدنية التى نشبت فى اسبانيا لم توقد جذوتها الا باسم الدين فاذا بدأنا بحرب الاسبان مع العرب لانقاذ اسبانيا من حكم هؤلاء نجد العامل الاكبر فيها — اختلاف الاديان . وهكذا مقابلة الاسبان للاصلاح الدينى وحرب الاستقلال وكانوا يحاربون فيها الفرنسيس لالحادهم أكثر من حربهم لهم لانهم أعداؤهم الذين قهروهم وغلبوهم على أمرهم ولولا حماية الاسطول الانكليزى ما وجدت البرتستانتية لها منفذا فى بعض مدن الساحل من اسبانيا

لئن كانت المرأة فى اسبانيا لا شأن لها فى الشؤون العامة وتعد ذات مقام منحط بخلاف ممالك اوروبا الراقية فلها شأن فى بعض المسائل التى يهتم لها رجال الدين

فيسوقونهن الى التدخل فيماليس من خصائصهن توصلا الى مقاصد لهم . ومقاصد الرهبان هنا كثيرة لأن الرهبنات تملك نحو ثلث أراضى المملكة ولها عقارات وشركات منها ما تستثمره علناً ومنها ما تستثمره بالواسطة . وسلطة الرهبان وثروتهم تزيد مع الايام قوة واستحكاماً . وفى اسبانيا زهاء سبعين ألف راهب يتقاضون من ميزانية الحكومة أربعين مليون بستاس أي ثمانين مليون فرنك فى السنة علاوة على ما لهم من ريع أملاكهم ولقد سألت أحد الاسبانيين ذات يوم عن الصناعات الرائجة فى بلادهم فأجابني بين الهزل والجد : عندنا ياسيدى ثلاث صناعات رائجة وهى صناعة الرهبان وصناعة النسوان وصناعة الثيران (١)

كانت اسبانيا فى اوائل القرن الماضى امة زراعية يحكمها الرهبان والقضاة فاستحالت من سنة ١٨٠٣ الى ١٨١٥ امة حربية وكان للجيش المقام الاول فى كل عمل حتى صار ينفق ستون فى المئة من ميزانية الدولة على الجيش . وأتى عليها زمن في اواخر حرب كوبا وعندها ٤٩٩ قائدا و٥٧٨ زعيما وزهاء ٢٣ الف ضابط اى نحو خمسة او ستة اضعاف مايلزمها لجيشها المنظم . فاصبحت القوتان العظيمتان الرهبنات والجيش تستنزفان قوة البلاد المادية والمعنوية يضاف الى ذلك سوء ادارة الحكومة هناك ففقد التناسب فى أجزاء البلاد واختل تقويمها وقلت رغبة

---

(١) كان صراع الثيران الى القرن السادس عشر خاصاً بالفرسان يعمدون اليه للتمرين الحربى أو للاحتفال بأعياد وكان فيه خطر على حياة المتصارعين اذ يقضى على الفارس أن ينحر الثور برمحه وفى أوائل القرن الثامن عشر أصبح صراع الثيران أقل خطراً وجعلته الحكومة للفرجة وانشأت له معاهد وهى تربو على مائتى معهد فى اسبانيا لها أوقات معلومة فى السنة ويفتخر من كان ثوره عاصيا على الصراع والنزال اذ يدل على مبلغ عنايته وتربيته كما اذا صرعه تحدث عن تفاخره ولا حرج . وقد أقامت الحكومة ميادين لصراع الثيران تتسع لالوف من المتفرجين وذلك فى أمهات مدنها فميدان بلنسية يسع ستة عشر ألفا وميدان أشبيلية اثني عشر ألفا وميدان غرناطه سبعة عشر ألفا وهكذا أحدثت اسبانيا ساحات لهذه الفرج فى مالقة وسرقسطة وصلمنكة وقادس ومجريط والجزيرة وبرشلونة وغيرها أقل ما يسع منها تسعة آلاف نسمة ومن ذلك تحكم على مبلغ صبابة القوم بصراع الثيران ومكانته من نفوسهم .

السكان فى العمل ومنهم من يعدونه شائنا فيدعون الشرف ولا يسمون لادنى عمل ولذلك تركوا فى الماضى الاعمال المهمة للمسلمين والعبيد ثم اخذ فكر الاغتناء يسود بسرعة بين القوم حتى اصبح افراد منهم يهيمون على وجوههم فى الارض ليغتنوا فى برهة قليلة ونشأت من ذلك مخاطر ومهالك ولم يعن العناية التامة باستحصال خيرات البلاد والانتفاع بزراعتها ومعادنها الانتفاع المطلوب .

وللك بعد هذا ان تتصور كم عدد المتسولين ـ عددهم مئة الف ـ والمتشردين والطفيليين من كل صنف من الاصناف . لا جرم أن عددهم لم يبلغ فى مملكة ما بلغه في اسبانيا . وكان من نتائج طرد العرب واليهود من اسبانيا ان انتقلت صناعات هؤلاء وأعمالهم الى الغرباء من غير الاسبانيين ولا تزال الى اليوم . حتى ان بعض الصنائع كالحرير والجلد والصوف والحبال قد بارت بخروج العرب من الاندلس ولا تزال معامل غرناطة واشبيلية وطليطلة وغيرها آخذة فى الانحطاط سنة عن سنة.

ومن أسوأ الأعمال فى اسبانيا جباية الخراج وتوزيعه وفساد الطرق فى انفاقه فلو استعاضت اسبانيا عن الانفاق على الجيش وعلى عشرات الالوف من الرهبان وعلى جمهور عظيم من الموظفين الذين لا يعملون عملا بفتح مدارس وتعبيد طرق وفتح أقنية وغرس أشجار لكان حقيقاً فى ذلك نجاحها الاقتصادى على ما أثبت ذلك المفكرون .

وبينا نجد فى فرنسا عشرين مليوناً ونصف مليون من سكانها البالغين زهاء أحد وأربعين مليوناً يعملون فى الزراعة نجد خمسة ملايين من الاسبان فقط أى ربع سكانها يعملون فى الزراعة . والزراعة مورد حياة البلاد الوحيد . ونجد فى اسبانيا ٤٨،٨ فى المئة من أرضها بوراً على حين لا ترى فى بريطانيا العظمى سوى ٢٨،٤ من أرضها لا يستفاد منه و٢٣ من أرض هولاندة و١٩،٣ فى ايطاليا و١٠،٢ فى المجر و٩،٩ فى ألمانيا و ٩،٤ فى البلجيك و ٦،٩ فى النمسا و ٩ فى فرنسا أما الاثنان والخمسون في المئة من أرض اسبانيا فانها لا تزرع الا زراعة ناقصة بحيث أن الكيلومتر المربع لا يقوم باطعام أكثر من أربعين شخصاً وهذا ولا شك منبعث من أنانية الأغنياء وجهل الفقراء

فى اسبانيا ١٥ ألف كيلو متر من الخطوط الحديدية و ٥٥ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة فى حين ترى فى فرنسا ومساحة المملكتين واحـدة تقريباً ٦٩٨ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة و ٥١.٤٣١ كيلو متراً من الخطوط الحـديدية وليس فى اسبانيا سوى ٢٩٨ كيلو متراً من الخطوط الحديدية فى كل عشرة آلاف كيلو متر على أنك تجد فى مثل هذه المساحة فى ايطاليا ٥٨٠ كيلومتراً وفى النمسا ٧٦٢ وفي فرنسا ٨٧٤ وفى ألمانيا ١٠٠٧ وفى بريطانيا ١١٨٠ وفى البلجيك ١٦٢٣ ولذلك يضطر المسافر فى اسبانيا ان يركب القطار من بلدة الى أخرى قريبة ومنها يذهب فى تعاريج على غير فائدة لانها ليست متصلة بجاراتها بسكة حديدية مباشرة ومع أن معظم الخطوط الحديدية لشركات أجنبية فقد أصيبت بمرض البلاد نفسها وأعنى سوء الادارة ورداءة الحال .

داءان قتالان كان على الحكومة هنا ان تقاتلهما واعنى بهم انانية الاغنياء وجهل الفقراء . فالعلم متأخر جدا فى ارض اسبانيا لان نصف سكانها لا يقرأون ولا يكتبون وفى احصاء اخر ان من سكان اسبانيا ستة ملايين يقرأون وخمسة يكتبون ويقرأون واربعة عشر مليونا أميون وليس فى البلاد اكثر من ٥٢ الف كتاب ومدرسة للذكور والاناث ولكليهما معا وفى فرنسا ٨٢.٢١١ مدرسة ابتدائية و١٠٥٧ مدرسة وسطى وفى اسبانيا عشر جامعات وهى جامعة مجريط وبرشلونه وغرناطة وافيدو وصلمنكه وسانتياغو وسرقسطه واشبيلية وبلنسية وفالادوليدا واذا فرضنا ان الواجب تعليمهم اربعة ملايين من الاولاد لاقتضى ان يكون لهم ٨٠ الف معلم ومعلمة اذا أردنا ان نسلم خمسين ولدا لكل مرب فى حين ليس فى البلاد سوى ٢٦ الفا اما المدارس الخاصة فلا تتجاوز الخمسة آلاف مدرسة وفيها نحو ستة آلاف استاذ دع رداءة التعليم فان التلميذ يصرف اوقاته فى التعليم الدينى والصلاة والمعلم غير موسع عليه يعمل متثاقلا بل قد يستجدى ويستوكف الاكف أحيانا لان الحكومة قد تقطع عنه راتبه الضئيل لقلة المال وليس هناك أماكن لائقة بالتـدريس وحقيق بمن كان مثـل هؤلاء المعلمين أن يحتاج الى من يعلمه

التعليم فى اسبانيا صورى غير عملى وجميع طبقات المدارس محتاجة الى الاصلاح الكثير وفى أمثال الاسبان « المعرفة الكثيرة تقود الى الالحاد » قال أحدهم : وليس على من يدعون أن التعليم لا فائدة منه وليس فى العلم من الفضائل التى تنسبونها اليه فى ارتقاء الشعوب الا أن ينظروا الى اسبانيا فهناك مثال من الجهل يضاف اليه اعتقاد أعمى .

***

كانت اسبانيا أيام عزها تملك البورتغال و نابل و ميلان وأقليم الفرانش كونته والفلاندر فى أوربا ومعظم مايدعى اليوم باسم أميركا الجنوبية وكثيراً من المستعمرات المهمة في أفريقية والهند وماليزيا ومن بورنيو الى كليفورنيا وما كان المحيط الكبير الا بحيرة اسبانيولية وبعد قرن من موت فيليب الثاني تناقشت وزارات أوربا فى الطريقة التى يجب بها تقسيم اسبانيا ولم تنجح هذه الأمة فى مستعمراتها لانها لم تحسن حتى الآن ان تستعمر أرضها فقد استولت على جزائر ماريان والكارولين وغيرهما من أرخبيل المحيط قروناً بدون أن يخطر لها أن تستعمرها ولا تزال غير محتفلة بأملاكها فى خليج غينة وجزائر كناريا وقد تخلت عن المكسيك سنة ١٨٣٦ وعن شيلى فى سنة ١٨٤٥ وعن الارجنتين فى سنة ١٨٥٤ وعن بيرو سنة ١٨٦٥ وعن كولومبيا سنة ١٨٨١ وعن كوبا وبورتوريكو وفيلبين سنة ١٨٩٧ وانتهت سطوتها الاستعمارية سنة ١٨٩٨ وكانت أيام حكمها فى تلك المستعمرات من أشأم الأيام السوداء فلم تكن اسبانيا ترسل الى أميركا الجنوبية — بل الى سائر مستعمراتها — سوى رهبان وموظفين وهؤلاء أضروا بها أكثر مما نفعوها . ولطالما أنذرت المستعمرات دار الملك بالانسلاخ عنه فكان يهزأ بأقوال أهلها . ولقد أنذرت بلدية هافان عاصمة كوبا منذ سنة ١٨١٠ انها اذا لم تبدل قانونها الاقتصادى والجمركى تصبح كوبا بلدة غريبة فهزأت اسبانيا بهذا القول لأن اسبانيا ومستعمراتها كانت اذذاك ٣٨ مليونا من النفوس على حين لم يكن سكان الولايات المتحدة جمعاء يناهز الثمانية ملايين

نسمة بيد ان العبرة بالكيفية لا بالكمية ولم تربح اسبانيا من حكمها الاعوام الطويلة بلادأميركا الجنوبية الانشرها لغتهاولا سيما في المكسيك[1] وعدد السكان الاصليين هناك يقدر بثمانية ملايين ثم دخل فيهم غيرهم من المهاجرين ولا تزال الهجرة متصلة فتفقد اسبانيا كل سنة نحو مئتى ألف اسبانى يهاجرون الى أميركا وغيرها ويرتحل نصفهم على أن لا يعودوا اليها ولكنها تربح منهم أموالا فيرسلون اليها كل سنة بنحو مائة وخمسين مليون بستاس ومنهم من ينشىء المدارس والكنائس والمباني الخالدة المتلمدة ليعطوها للحكومة عنوان حبهم بلادهم ومعرفتهم جميلها . وقوام هذا الحب العاطفة القديمة ليس الا .

أخذت الشعوب الاسبانية فى أميركا تميل بالعلم المجرد عن كل صبغة دينية حتى قال أحد رؤساء الكليات الاسبانية يجب علينا اذا أنصفنا أن نذهب الى أميركا نتعلم فى جامعاتها لانهم صبوا الى العلم المحض على حين لم تزل كلياتنا تتأثر بمؤثرات رجال الكهنوت . وكتب أحدهم متذمدة ليس عندنامعاشر الاسبانيين ديوان تفتيش دينى الآن بل فينا فكر ديوان التفتيش الذى مازال يسرى فينا ويذلنا . ولذلك ترى ألوفاً من أبناء جمهوريات أميركا الجنوبية يرتحلون الى أوربا ليدرسوا فى جامعاتها ولا يغشون اسبانيا التى تجمعهم بها رابطة الدين والجنس واللغة لعلمهم بانحطاطها وهيهات ان يعود الى جامعة صلمنكة الاسبانية ـ المشهورة فى القرون الوسطى بانها احدى الجامعات الأربع التى كانت تفيض النور على عالم النصرانية ـ بهاؤها ورونقها القديم والمدارس فى جنوبي أميركا تسير على خطة المدارس فى فرنسا .

***

يقول بعض من كتبوا على اسبانيا انها بلاد ديمقراطية والحال انها ارستقراطية

(١) يقدر عدد المتكلمين باللغة الاسبانية أو القشتالية فى اسبانيا وامريكا الجنوبية عدا البرازيل وغريانا وامريكا الوسطى والانتيل وفيلبين وفى مستعمرات اسبانية أخرى بزهاء ثمانين مليوناً . ولغة البرازيل البرتقالية وعدد المتكلمين بهذه اللغة فى أوربا وأميركا نحو ثلاثين مليونا

لأن الثروة والتعليم والتهـذيب العقلى والحياة المرفهة السهلة كل ذلك خاص بفئة صغيرة من أهلها وجمهورا لامة يعيش محروماً كل ذلك . والغلاء فاحش فى البلاد لا فى الكماليات التى تجلب من الخارج بل فى الحاجيات وليس للاسبان حياة المجتمعات فان الاجتماعات والضـيافات خاصة بالكبراء وقلما يخرج القوم من بيوتهـم وقلما يسافرون ولا ذوق لهم فى الاسـتمتاع بالطبيعة لسماع أصوات الطيور فى الغابات والتمتع بالهواء الطلق والمناظر الجميلة والطبقة الوسطى قريبة من الدنيا لولا طلاء ظاهرى عليها على انك ترى فى الشعب السذاجة والاسـتقامة والكرم صفات أحتفظ بها .

العامة فى الاسبان تتكلم كالخاصة لغة واحدة فصيحة لا تفاوت بينهاوالشعب خاضع صبور يحتمل مصابه . وقل ان ترى فى اسـبانيا من أبناء الطبقة الوسطى من يحسنون المدخل والمخرج ويعملون عملا صالحاً اللهم الا فى بعض المراكز وقد تألفت منذ نحو ثلاثين سنة منهم طبقة مستنيرة فى الجملة ولكنها قليلة ومع هذا بقيت المرأة فيهم على حالتها الأولى . وان القوم لينقصهم كثير من مبادىء الآداب الأولية الشائقة بين الأمم الراقية كالفرنسيس والانكليز والألمان وغيرهم فتراهم يدخنون فى كل مكان خاص وعام ويبصقون فى القطار والمقهى والنزل والفندق والبيع على صورة تشمئز منها النفس . والطبقة العليا الغنية فى الاسـبان تعيش عيشاً يقرب من عيش جمهور الناس فى انكلترا وفرنسا .

كانت التيوكراسية والبلوتكراسية والبوروكراسية أى الحكم الأهلى والدينى والقرطاسى — أو الحكومة التى تدعى بأنها تصـدر عن وحى سماوى أو تكون مأخوذة بوازع دينى أو تطيل فى أوضاعها ومعاملاتها — من أمراض اسبانيا الاجتماعية فيما مضى ويزيد عليها اليوم مرض آخر وهو حب الجندية La Caciquism وليس فى الاسبان عيوب متأصلة فى عنصرهم بل عيوب عرضية ناشئة من التربية وقلة المعرفة وفساد النظام والأحكام ومعظم هذه الأمراض عارضى . ثم ان الاسبان من جهلهم بأنفسهم يجهلون غـيرهم ويكرهون الغريب وان أظهروا له على رواية

بعضهم كرماً ولطفاً وقد اقتبسوا هذا الخلق من العرب كما قال فيهم أحد الباحثين .

وانا على ما نرى الآن من عيوبهم فى قذارتهم وتشردهم وجهلهم وقلة عنايتهم بالعمل احتفالهم بالصناعات وميلهم الى الاعتناء السريع نشهد فيهم صفات صالحة للبقاء وهى الثبات والصبر وحب الاستكثار من البنين والبنات والميل الى الشعر وهم من كثير من الوجوه يشبهون أهل سورية فى هزلهم واستكانتهم وتبلغهم بميسور العيش أوانبعاث هممهم الى أقصى مراميها . والاسبانى ولاسيما فى الجنوب يميل الى البطالة والراحة ويتفخل ويتعجرف ويولع بالخيالات وهم فى المدن والقرى يجتمعون أولاداً ونساء ورجالا على الابواب وفى منعطفات الطرق ويتهازلون ويتلاكمون حتى لتظنك فى قرية كبيرة من قرى الشام تبرنط أهلها فقط أى لبسوا البرانيط أوالبراطيل أو القبعات وأحسن مافيهم كثرة النسل ومنه مادة نجاحهم فى المستقبل وزيادة السكان تساعد على الانتخاب الطبيعى فى المجتمع وتضطر الناس الى العمل وتضمن النجاح الاخير للذكاء

ان الامة الاسبانية التى وحدت قواها فطردت العرب فى القرون الوسطى ثم وحدت قواها فى القرن التاسع عشر فطردت الفرنسيس على عهد نابوليون من أرضها قد اثبتت اذا انصفنا وطنيتها فى تينك الوقعتين المهمتين بيد أن من عيوبها أنها لاتستفيد من الخارج وقد أخذت الآن تفكر في مستقبلها ورقيت منذ انصرفت عن مستعمراتها لولا أن عادت لحدثتها نفسها بامتلاك الريف وحرب أهله فى مراكش ففشل جيشها وكان مؤلفاً من ثمانية عشر ألفاً أسر مع قواده وضباطه فعادت اسبانيا وأرسلت على الريفين أو بادية المغرب الاقصى مئة ألف مقاتل وما تدرى أيلتئم انتصارهم على هؤلاء البدو على مافى نفوسهم من شمم وما فيها من العجب والخيلاء فيقال لهم بعد زمن قد ظفرتم ولكن بمن ؟ واذا غلب الريفيون فليسوا أول شعب ضعيف ذل أمام قوى . واذا استولى الاسبان على الريف وخضع لسلطانهم من أقصاه الى أقصاه لايساوى جزءاً من المال والدم المهراق وأرض اسبانيا الجميلة أحق بالعناية والاستثمار

البورتقال بعد العرب

١١١

ليس بين اسبانيا والبورتقال حدود طبيعية ولما وافى العرب شبه جزيرة ايبريا لم تكن مملكة البورتقال قد تأسست ولا لغتهم قد تم تأليفها وتقدم العرب الى بلادهم فاستولوا عليها وكان شأنهم فى لشبونة عاصمتها اليوم على المحيط شأنهم في بلنسية على البحر المتوسط فرسخت حضارتهم فى لشبونة وشنترين وشنترة ويابره وبطليوس وشلب وواب وباجة وطبيرة وقلمريه وشنت مارية كما رسخت فى برشلونة وطرخونة وبلنسية ودانية وقرمونة ووادى آش وغرناطة وجيان واشبيلية وقرطبة . وكان غرب الاندلس أو أكثر بلاد البورتقال من أول ماتخلص من حكم العرب فى القرن السادس .

ولم يشتهر البورتقاليون كثيراً فى كتب العرب الاندلسيين بل كانوا يطلقون فى الغالب اسم الروم على الاسبانيين والبورتقاليين معاً كما كانوا يطلقونه على غيرهم من آجيال الفرنجة واذ كان مقام البورتقاليين فى شبه جزيرة ايبريا ثانوياً ـ بالنسبة للاسبانيين كانت تأثيرات اللغة العربية أيضاً فى اللغة البورتقالية أقل منها فى اللغة الاسبانية وتأصلت فيهم عادات العرب أقل من تأصلها فى جيرانهم

غزا العرب البورتقاليين فى الزمن الذى غزوا فيه الاسبان ففتحت بلادهم أواخر القرن الاول للهجرة على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد وجاءها أناس من جزيرة العرب وبلاد البربر فنزلوها وعمرتهم كما فعل اخوانهم فى بلاد اسبانيا حتى أصبحت كأنها مملكة اسلامية من بلاد العرب

ولما انحلت الدولة الاموية فى المشرق خضع لسلطان عبد الرحمن الداخل معظم شبه جزيرة ايبريا ومن جملتها بلاد البورتقال فاورثها هو وأخلافه عمراناً وثروة وبلغت لشبونة (اشبونة) عاصمتها أقصى مراقى العمران فى أيامهم ولم

تسكن بالبلد الطيب قبل العرب ؛ وما لبث البورتقاليون أن ألفوا حكومة لهم في بلاد الجلالقة أخذت تقوى مع الزمن وتسير على الأغلب مع مملكتي قشتالة واراغون جنباً الى جنب في قتال العرب .

قال مؤرخو الافرنج : خرب العرب بلاد البورتقال يوم خربوا افيلا وصلمنكة سنة ٣٩٩هـ وافتتح الفونس الخامس جزءاً من البورتقال سنة ٤١٨ — ١٠٢٧ وسنة ٥٤٣ أخذ ملك البورتقال لشبونة وشنترين [1] وشنترة وفي سنتي ٥٥٣ و ٥٧٣ توسع البورتقاليون في فتوحهم وفي سنة ٥٨٥ خرب العرب بلاد البورتقال خصوصاً لشبونة ثم عاد البورتقاليون في السنة التالية ٥٨٥ — ١١٩٠م فاستولوا على عدة حصون ، ويقول مؤرخو العرب ان ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس ملك سنة ٥٨٣ مدينة شلب وهي من كبار مدن المسلمين واستولى عليها فسار صاحب الغرب والاندلس بعسكره فقاتلهم حتى ذلوا وسلموا ولما كان في سنة ٥٨٥ قصد بطرو ابن الريق (؟) مدينة شلب فنزل عليها بعساكره وأعانه من البحر الافرنج بالبطس والشواني وكان قد وجه اليهم يستدعيهم الى ان يعينوه على ان يجعل لهم سبي البلد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها ثم عاد المسلمون فأخذوها وأخذوا من بلادهم حصناً يقال طرش .

تولى أمر البورتقال تسعة ملوك من الأسرة البورغونية حكموها الى سنة ١٣٨٣ م فقووا قلوب أهلها واشتغل البورتقاليون بدفع العرب عن بلادهم ؛ وعاونوا اخوانهم الاسبانيين معاونة شديدة للخلاص من العدو المشترك فقد هزم البورتقاليون المرابطين في وقعة شنترين وخلصوا جزءاً مهماً من بلادهم وغلبوا

(١) قال الاصطخري في كتاب الاقاليم : وشنترين التي على البحر المحيط بها يقع العنبر ولا يعلم ببحر الروم والبحر المحيط موضع غير الابشنترين . . . ويقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر في لون الخز لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً وهو عزيز قليل فيجمع منه وينسج منه ثياباً فيتلون في اليوم الواناً ويحجر عليها ملوك بني أمية فلا تنقل الاسرا وتزيد قيمة الثوب على الف دينار لعزته وحسنه اهـ قلنا وشنترين ليست على البحر المحيط ولكنها قريبة منه

العرب وعاونوا القشتاليين سنة ١٢١٢ فى وقعة العقاب التى أفضت كما قال ابن الأبار الى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى فى تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ، وعاون البورتقاليين سنة ١١٤٧ م ، ٥٤٣ هجيش مؤلف من الصليبيين الفرنساويين والانكليز والالمان والفلامانديين للاستيلاء على لشبونة وفتح الفونس الثالث القسم الجنوبى من البورتقال المعروف عند العرب باسم الغرب Algarve ١٢٤٩ - ١٢٥٣ بعد ان ملك العرب هذه الولاية من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر ، ومنح ملك البورتقال المغلوبين الذين بقوا فى لشبونة من العرب بعض الحرية فظلوا فيها ، وقويت بهم التجارة البحرية . وقد أسعد الحظ بلاد البورتقال فجاءها منذ استقلت ملوك الا النادر منهم على جانب من الدهاء والعقل يحسنون الغارة كما يحسنون الادارة فوسعوا حدود بلادهم وقووا الوطنية البورتقالية وعرفوا أمتهم طعم الاستقلال حتى ان أحدهم جلس على سرير الملك خمساً وستين سنة وقوى ملكه حتى قطع أمل ملوك قشتالة من بلاده وخلصها كما خلصها أخلافه من سطوة النبلاء ورجال الكهنوت فلم تترك البورتقال مجالا لجارتها القوية اسبانيا أن تأخذها .

ولما فتح البورتقاليون اقليم الغرب في اقصى الجنوب الغربي من شبه جزيرة ايبريا أخذوا يتوسعون فى فتوحهم فركبوا البحر وفتحوا بعض مدن الغرب الاقصى ولا سيما طنجه وأرسلوا الى بر العدوة من الجند بقدر ما كان أهل بر العدوة يرسلون منه نجدة لاخوانهم الاندلسيين العرب ثم شغل البرتقاليون بعد ذلك باكتشافاتهم البحرية ومستعمراتهم الجديدة فعدلوا عن التوغل فى الغرب الاقصى بل أزمعوا الرحيل منه .

وعلى ذكر الصليبيين الذين عاونوا البورتقاليين للاستيلاء على لشبونة لا بأس بأن نشير الى إن الاسبانيين والبرتقاليين كثيرا ما كانوا يستنصرون بجيرانهم من ملوك الافرنج فينجدونهم فقد جاء سنة ٤٨١ عدة أمراء فرنسويين لمعاونة اسبانيا علي العرب وكذلك شخص كثير من الطليان وكلهم بأمر البابا وفى سنة ٦٠٨ قصد

صاحب الاندلس قلعة عظيمة للافرنج تدعى شلب تره ففتحها بعد حصار تضييق عليها شديد فراع فتح هذه القلعة الروم وخامرهم الرغب فخرج الادفنش الى قاصية بلاد الروم مستنفرا عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها حتى بلغ نفيره الى القسطنطينية ووافقه صاحب ارغن وفى سنة ١٢١٠ م تحالف جميع ملوك النصرانية على التعاون على المسلمين واستنفر البابا أينوسان الثالث جميع امم أوربا الى غزو عرب الاندلس فاجتاز جبال البيرنات ستون ألف مسيحى لقتال العرب .

ولما انهزم الفونس ملك الفرنج وكان مقر ملكه طليطلة فى سنة ٥٩١ أقبح هزيمة عاد الى بلاده وركب بغلا وأقسم انه لا يركب فرساً حتى تنصره ملوك فرنجة فجمعوا الجموع العظيمة وجرت لهم مع المسلمين وقائع كثيرة الى أن ملكوا أكثر مدن الاندلس .

وهكذا كان ملوك الافرنج ينصرون ملوك قشتالة وارغن وليون خصوصاً من عرف منهم شوكة العرب اذ ذاك أمثال حكومات ايطاليا وفرنسا . ولكن الفرنج كان ملوكهم من الضعف فى تلك الازمان بحيث يعجز كل واحد عن حفظ بلاده دع استخلاص بلاد غيره ، ثم ان الحروب الصليبية التى دامت نحو قرنين أخرت قليلا اخراج العرب من الاندلس ولو سيرت عليها بعض القوة التى سيرتها الى الأرض المقدسة لما طال حكم العرب على الاندلس الى أواخر القرن التاسع للهجرة .

كانت البرتقال تعتبر شريفاً كل برتقالي أسره العرب ولم يصبأ عن دينه الى الاسلام ، وكذلك كل من حاربوا العرب فى وقعة أوريك سنة ١١٣٩ التى كتب فيها النصر للبورتقاليين ولا تعد فى الاشراف كل من ضربوا امرأة بسيف أو رمح أو كذبوا أو هربوا من معركة وقعت للبورتقال مع العرب .

وما برحت البرتقال تئن من سلطة رجال الدين أنين جارتها اسبانيا وهى فى يد البابوات كالخاتم فى يد لابسه يقلبه كما يشاء حتى نادت منذ ثلاث عشر سنة

بالجمهورية وتخلصت من سلطة الكهنوت ، وكان أول عمل لها طردها الرهبنة اليسوعية من بلادها واستصفاؤها اديارها والقضاء على الرهبان والراهبات انتقاما منهم (المقتبس م ٥ ص ٤١٠) على سعيهم فى قتل فريرا رجل الاسبان الحر وكانوا قتلوه بمساعيهم لدى الحكومة على أبشع صورة عرفت فى عصر النور والمدنية فتخلصت البورتقال كما تخلصت أختها برازيل من قبل من الحكم الملكى ولها اليوم ٣٨٥٠٠٠٠ كيلو متر من المستعمرات يبلغ سكانها عشرين مليون نسمة ويبلغ سكان البورتقال ستة ملايين نسمة ينزلون فى ٩١٩٤٨ كيلو متراً ولا تزال حصون العرب الى اليوم على قمم الجبال فى مدينة شنتره ، وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره الى الآن وعلى مقربة منه قبر دفن القوم فيه عظاما وجدوها ولم يعلموا أنها للمسلمين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال والقسم الذى كانت تسكنه العرب فى لشبونة يعرف عندهم باسم الحمة (لا بتشديد الميم) ويسميه البورتقاليون الآن من باب التحريف الفاما ومنظر هذه المدينة يشبه المدائن الشرقية ومن أمهات مدن البورتقال كويمبرا Coimbra المعروفة فى كتب العرب باسم قلمرية . وهى الآن دار العلم ومحط المعارف فى بلاد البورتقال ومنها مدينة بورتو واسمها فى كتب العرب برتقال وبها يسمى هذا القطر بورتقال . وفى هذه المدينة دار البورصة بنيت على الطراز العربى ونقشوا أعظم بهو فيها بالطراز العربى وزينوه بالزخارف وكتبوا فى ضمن رسومها اشعاراً عربية . وفى متحف لشبونة على ماحدثنى به الثقة كثير من الآثار العربية ولا سيما ما أخذه الالمان من الشام قبل الحرب الاخيرة فوقع فى أيدى الحلفاء فاعطوا السفينة الالمانية وما حوت للبورتقال لانها أسرت فى بحرها وذلك من جملة مكافأتهم لها على محاربتها فى صفوفهم وتجنيدها ثمانين ألفاً من كماة رجالها .

*

برلين

١١٢

كنت أود أن أرى انكلترا وألمانيا بعيني من عرفهما مباشرة لا بالواسطة وان اسمع الانكليزي والالماني يتكلمان بلغتهما فافهمهما وأجيب على كلامهما دون أن أعمد الى اللغة الافرنسية . واذا سهل التخاطب بهذه اللغة مع خاصة الانكليز والالمان وغيرهم من شعوب الغرب فيتعذر التفاهم مع العامة من جمهور تلك الامم الا بواسطة ترجمان والترجمة يصعب أن تؤدى الروح الحقيقية في المخاطب والمخاطب . وأن روح الامة لتتجلى للسائح بالاحتكاك بالخاصة والعامة وربما أخذ عن العامة مالا يتيسر له أخذه عن الخاصة ولذلك ساغ لنا أن نقول اننا فى البلاد التي ينطق أهلها باللغة الافرنسية كأننا فى بيوتنا وفى غيرها غرباء .

عرفنا الالمان بما كتبه عنهم الفرنساويون فى الكتب والمجلات والصحف . وفى ذلك الغناء فى معنى ادراك مقومات هذه الامة ومشخصاتها . ولكننا نشعر أن هناك أموراً يتعذر أصدار الحكم الصحيح عليها دون الوقوف على أسرار لغتهم والنزول عليهم اشهراً طويلة والاحتكاك باهل الطبقات المختلفة منهم وقد يهتم الشرقى فى الغرب بامور لا يحفل بها الغربى قال مونو المؤرخ الفرنساوى (١٨٤٤ - ١٩١٢) أن المانيا الوطن الثانى لجميع الرجال الذين يدرسون ويفكرون .

قضيت أحد وعشرين يوماً فى زيارة برلين وليبسيك وهالى ومونيخ أشاهد نموذجات من معاهدها ومشاهدها ومكاتبها ومتاحفها وما أظن هذه الأيام تكفى لاستبطان عوامل الحياة المنبثة فى هذا الشعب الذي جعل العلم رائده وقائده في كل حركة من حركاته . وبتأثيره جدد شبابه بعد الهرم . وجمع شمله وقد أنبت منذ القدم .

أثرت الحرب العامة الاخيرة فى الغالب والمغلوب من أمم الغرب على أنهم كلهم

مغلوبون فى نظر العقل الصحيح بما صرفوه من الرجال والمال وخربوه من العمران . ولقد أثرت عوامل الحرب بالمتحاربين والمتحايدين . وهل العالم الا سلسلة اذا اهتز منها جانب تأثرت له سائر الجوانب ، ولذلك ترى الضعف باديا الآن فى بعض أوضاع ألمانيا كسككها الحديدية وتراموایاتها وطرقها . فقد كانت برلين قبل الحرب تغسل شوارعها كل يوم بالماء والمطهرات وهى الآن قذرة بالنسبة لنظافتها السابقة لا قياساً لها مع عواصم الممالك الأخرى وكان بريدها وأسباب مواصلاتها مثلا سائرا فى النظام فلما كثر اعتصاب العملة لسقوط أسعار الورق المالى أصيبت بالخلل والشلل أحيانا .

كل شئ جديد فى عاصمة بروسيا بل عاصمة جرمانيا لانها هى جديدة وقل أن ترى فيها بناء عمره أكثر من عمر الانسان المعمر .

أدخل الى متحف من متاحفها يشتغل نظرك وعقلك فى أسلوب البناء أكثر مما يشتغلان بما حوى من التحف والعاديات كأن أبنيتهم الجديدة أنشئت على غير مثال وكلها نموذج من العلم العملى والنظام الغريب .

شوارع برلين وجاداتها وأسواقها على نمط متوافر متساوق لانها قامت فى وقت واحد على تخطيط جرى التصميم عليه لاول اختطاطها فلم يحيدوا عنه قيد غلوة والحال ليست كذلك فى لوندرا وباريز مثلا فانهما أنشئتا مع الزمن الطويل على أساليب مختلفة . وشتان بين ما تجده من القدم الداعى الى التفكر والتأثر وبين ما تجده من الحداثة وما يتبعها من اللطافة والنضارة . ولقد شبه أحد أصدقائنا من علماء الترك برلين وباريز بشخصين أحدهما حديث النعمة بحسن بزته وما يبدو عليه من الذهب والماس والآخر عريق فى المجد لا يبالى أي شيء اكتسى ويبعد عن الزينة ما أمكن .

قال هوره[1] لا يعتبر الالمان برلين فقط عاصمتهم بل ان كولون وليبسيك وهمبورغ ودرسله ومونيخ وجميع المدن القديمة لا تعترف لها بالارجحية

---

(١) كتاب « برلين » لجول هوره Gules Huret : Berlin.

عليها أما انا فاحب عاصمة بروسيا لانها تسر وفيها قد توفرت اسباب الحياة والظرف والقرى وابتهج بمنظرها اللامع الجديد وبشوارعها الحديثة وواجهات أبنيتها البيضاء وشرفاتها المفضضة وزهورها وبيوتها الطريفة التي أخذت بحظ وافر من الجمال والنور والتنويع والتعريش مما يأخذ كله بمجامع قلبي. أما المدن القديمة فانها أيضاً تخلب الالباب كأنها الملكات ويرغب المرء في زيارتها أحياناً للاستراحة من طفولية الشباب المفرطة. وهذا حال باريز فانها حوت المزيتين تقدم لزائريها ماخلا لطائف التاريخ والصناعة مايفتن الفؤاد ويأخذ بالقلب من أسباب السرور والتجديد. أما في المدن التي فيها مايعجب ولا سيما قدمها فان الغرباء يصرفون فيها بعض أيام عطلة سريعة ولا يسكنون فيها مختارين دع المرضى والمنهوكة قواهم ممن عساهم ينزلونها اذ يجدون فيها وفيما حوت من العاديات الميتة أو العتيقة نغمة قد تنجع في مداواة اجسامهم وقواهم. أما برلين فانها على العكس من هذا وذلك لان المدن الحديثة جداً تشبه الفتيات اللائي في السابعة عشرة من عمرهن فهن على نضارتهن وحداثتهن لم يستوفين شروط الكمال. أن من يدخل برلين من عشاق الفنون يشهد فيها مجموعة قد يأتي على رؤيتها في مدة قصيرة ولكنه مع ذلك يراها مملوءة بأسباب المرغبات في البقاء ويهتم لها كل من يحب الحياة ويعتقد في المستقبل

قال وأن برلين لتزيد كل يوم اتساعا بما ينشأ فيها كل سنة من عشرات من الشوارع الحديثة حتى أن البيت لا يكاد ينجز بناؤه حتى يسكن وحذراً من رطوبة البناء يوقدون فيه مدة ثمانية أيام ناراً كثيرة قوية فيجف البناء ويخلص النازلون فيه من الخطر. وفي برلين شوارع طولها ١٢ كيلومتراً ولا تجد من يفاخر بها. وهذا مما يعجب منه لما فيه من الجرأة والثقة بالنفس والاعتماد على المستقبل والاحتياط وحسن الاسلوب الذي يتطلبه مثل هذا العمل. اذا رأيت هذه الشوارع ظننت نفسك في أميركا تزور مدينة حديثة من مدنها. والبلدان التي كانت تعد ربضاً وضاحية لبرلين مثل شارلوتنبرغ ويلمرسدروف وبانكوف وريكسدروف

وغيرها اصبحت بما لها من الحدائق والحقول بيوتاً ومخازن وأماكن عامة حتى اغتنى من الاراضى من كان بالامس يزرع البطاطا والشوندر فى ارضه فاصبح من اصحاب الملايين بما باعه منها وقد بلغ ثمن المتر الواحدمن الأرض فى حى المخازن الكبرى خمسة آلاف فرنك ذهب والمتر الذى كان يباع فى الضواحى بعشرة ماركات اصبح يباع بثلثمائة فرنك .

***

يصرف العملة والمستخدمون أيام الآحادفى الضواحى ولذلك تغص البحيرات والغابات والشوارع بالعامة أما الخاصة ممن يحترمون انفسهم فلا يخرجون فى ذاك اليوم ليتركوا المجال لغيرهم واجور التنقل فى السكك الحديدية والتراموايات رخيصة للغاية وتجتمع الأسر البعيدة والشبان يتغنون باناشيد عسكرية حماسية والنظافة بادية على الجميع والنظام يتدفق من اطرافهم وكذلك حسن الذوق والادب . ولا يلتفت أحد الى أحد بل كل امرئ مشتغل بنفسه واذا رأى الانسان أحد معارفه من بعيد حياه أحسن تحية وربما سلموا على الغريب سلام تعظيم واحترام يفعل ذلك رجالهم ونساؤهم واولادهم وبناتهم ويحمل كل واحد مظلته ورزمة بالقماش المشمع فيها خبز وحلويات وقهوة وسكر ويبتاعون للقهوة من المطعم ماء حارا بفلس أو فلسين فيطبخون فيه قهوتهم ومنهم من يذهب الى حانات الجعة ومنها ما يسع عشرة آلاف متنزه ومن الحدائق في الضواحي ماتضرب فيه الجوقات الموسيقية .

وفى أي ساعة دخلت المطاعم والحانات والمقاهى فى برلين تجد فيها أناساً وأسرات مع أن الأسرة الالمانية عرفت بحبها لبيوتها وكنها كالأسرة الانكليزية . والحقيقة أن هذه الأسر الى نشاهدها ساكنة فى أماكن بعيدة تضرب لها موعداً فى أحد هذه المحال لتتزاور مع من تحب ثم ينصرف كل واحد من أعضائها الى عمله .

وحدثنى الثقة أن الالماني يدعو صاحبه بالحاح الى تناول الجعة معاً وعند

أداء قيمة ما يشربان يدفع كل منهما عن نفسه ولسان حالهم المثل الافرنجى : كل لنفسه والله للجميع » بمعنى أن الدعوة تكون للمباسطة والمفاكهة فقط لا ليكرم أحدهما الآخر بشيء من المال يغرمه وكأس يشربها . بل قد تأصلت فيهم هذه العادة بعد الحرب الاخيرة فاصبح الشاب والشابة اذا تصاحبا ينفق كل منهما على نفسه فى دقيق النفقة وجليلها وكلاهما يستمتع بصاحبه خلافاً لعادة الامم كلها فى ان الرجال قوامون على النساء . والرجل ولا سيما فى الغرب اذا لقى المرأة التي يعرفها معرفة بسيطة يتولى اكرامها واطعامها وليس من العادة أن تنفق هى على طعامها وشرابها اذا صحبت الرجل مهما كانت منزلته منها

الالمان يحبون الزهور للغاية فمنذ شهر ايار ترى الزهور مبسوطة على الابنية والدور والفنادق غنيها وفقيرها من أول برلين الى آخرها وفى حى العملة يتنزه الانسان في الصيف بين حائطين مزهرين علوهما عشرون مترا وكلها من الزهور المختلفة والبلدية تكافىء من يحسن زراعة الزهور ويتوفر على خدمتها أكثر من غيره ولذلك صح أن تسمى المانيا لا برلين وحدها « مملكة الزهور العطرة والورود المعرشة » لان الزهور لا تعدم منها إلا عند كلب الشتاء وتجليد المياه .

قالت مدام دى ستايل : ترى الحدائق جميلة فى بعض بلاد المانيا كما هى فى انكلترا والعناية البالغة التى تصرف أبداً فى الحدائق تدل على شدة ولوع القوم بالطبيعة . تجد فى انكلترا دوراً بسيطة للغاية قامت وسط الحدائق الأنيقة وصاحب الحديقة يهمل العناية بمسكنه ويزين حديقته وبستانه . هذا التأنق وهذه السذاجة إذا اجتمعتا فلا توجدان حقيقة على نسبة واحدة فى المانيا ولكنك ترى فى مجموع الفقراء واصحاب الاقطاعات ضربا من ضروب الحب للجمال الذى لا يلبثان يورث الحريص عليه ذوقاً ولطفاً لانه المنبع الحقيقى لهما .

هذا بعض ما عرفته وعرفه غيرى فى برلين من أسباب الراحة والهناء . أما التى يرى مثلها فى كل بلدة أوربية من التمثيل والغناء والرقص فهو نجم فى موضوعه

أيضاً فيه الروح العسكرية والنظام الغريب . وكم من دار تمثيل أو مقهى أو مرقص يشبه قصور الملوك . وأسأل الله السلامة اذا وقعت الى مسرح من مسارحهم أو مرقص من مراقصهم فترى جمال الصناعة الى جمال الطبيعة الى جمال الهندام والنظام فيبهرك ماترى وتسمع وتقدر فى نفسك حالة القوم قبيل الحرب قبل أن يفقدوا رجلا من رجالهم أو درهما من أموالهم أو شبراً من أرضهم وديارهم .

المانيا الاقتصادية

١١٣

اختلت بعد الحرب جميع القواعد الاقتصادية فى الممالك الاوربية ولحق من ذلك بلاد المانيا قسط وافر لما أخذه ولا يزال يستوفيه منها دول الحلفاء من الغرامات والتعويضات ولذلك يصعب أعطاء حكم سليم على هـذه الامة وعلى ثروتها من النقد وغاية مانحدث به من هذا القبيل شؤون لها وقعت قبل الحرب وبه يحكمون عليها. والحاضر مهما انحط تجد فيه شيئاً من روح الغابر .

قالوا ان العمل قوة توجد نجاح الامة وتزيده[1] ونعنى بذلك العمل اليدوى كما نعنى العمل العقلى الذى يقوم به العلماء .

الانسان منتج العمل وفى الحكومات هو الشعب . ونتيجة العمل انتاج الثروة ويزيد ربح العمل بقدر تنظيم الأدوات الفنية وزيادة الربح فى العمل يتجلى فى الامة بارقام محصولاتها وحركتها الاقتصادية وغاية العمل فى دائرة الاقتصاد والاستهلاك ويتألف من زيادة ريع المحصول على النفقة اللازمة مقدار دخل أمة وزيادة دخل أمة على استهلاكها يمثل زيادة ثروة الامة وطموح الامة فى اقتصادياتها

(١) نجاح المانيا الوطنى من سنة ١٨٨٨ الى ١٩١٣ لهلفريش
Helfferich : La prospérité nationale de l, Allemagne de 1888 à 1913

هو نجاحها بزيادة عملها ثم بزيادة دخلها بحيث تستطيع تحسين حالتها الحيوية وأن تقوم بحاجياتها المادية والعقلية وترفع مستوى نجاحها

ان حركة الشعب فى بلاد هو العامل الاول فى تقدمه الاقتصادى والاجتماعي والسياسي والعقلي . ونمو الشعب فى مملكة يكون بزيادة قواه العاملة وقوته السياسية وتوسعته مسائله الاجتماعية والعقلية والادبية . ونمو أمة يستلزم زيادة دخل العمل الذى يضمن لها ما يلزم لبقائها . كان سكان البلاد التى تدخل اليوم فى أراضى جمهورية المانيا سنة ١٨١٦ ـ نحو خمسة وعشرين مليونا فأصبحوا سنة ١٨٧١ أحد وأربعين مليونا وفى سنة ١٨٨٨ ثمانية وأربعين مليوناً وبلغوا فى احصاء قبل الحرب ستة وستين مليوناً ومن ذاك العهد بلغت زيادة الواردات نحو ٨٠٠٠٠٠ بالنسبة لعدد السكان . وتكثر هذه النسبة فى المانيا عن سائر ممالك أوربا ماعدا روسيا . فنشأت قلة هلاك الناس من تحسين التغذية والحالة الصحية وتقليل الاعمال الشاقة .

التفتت المانيا لاول نهضتها الى الزراعة وكانت اذ ذاك بحالة تستطيع معها أن تخرج من صادراتها ولا سيما الحنطة الى البلاد المجاورة كانكلترا وهولاندة وبلاد السكانديناڤيا فكثر المال بين أيدى المزارعين ولا سيما فى شمالى المانيا وتبسط القوم في القرى فكثرت النفوس كثرة هائلة وتوفرت المقايضات والمواصلات وزادت الطرق وكثرت سرعة البرد . وقد أنشىء فى المانيا سنة ١٨٣٥ أول خط حديدى بين نور مبرغ وفورت وبعد عشر سنين بلغ مامد منها ٢١٣١ كيلومتراً وبعد سنة ١٨٤٨ أى عقيب الازمة الكبرى التى أصيبت بها البلاد استعادت المانيا قوتها وانهال عليها المال وزادت أسعار الاراضى بعد نزولها وظلت المانيا هكذا فى ازدياد باعمالها الاقتصادية الى حرب السبعين فأسست فى خلال ذلك بعض مصارفها المهمة وعدنت مناجمها واشتغلت معاملها وأنشئت خطوطها الحديدية وبعد تلك الحرب كثرت فيها الاعمال الاقتصادية وتأسست الشركات . وكانت السنين التالية أعوام رخاء ونماء لم يعهد لها نظير فى تاريخ الاقتصاد الالماني

أن القاعدة الـكاية فى مسألة جمع رؤوس الاموال على الاسلوب الحديث والاستكثار أبداً منها وتنمية مساحة المعامل والمصانع والمعاهد على أنواعها وجمع جيوش متكاثرة من العملة واستخراج كمية أكبر من البضائع قد تحقق فى المانيا على صورة باهرة فنمت مصارفها فى برهة قليلة على نسبة خارقة للعادة وكذلك أسباب المواصلات ومشاريع صلاتها وتجارتها على الخطوط الحديدية والطرق النهرية والبحرية ومكاتب بريدها وبرقها وهاتفها وصناعاتها الـكبرى من كل نوع وكثرت خطوطها الحديدية حتى بلغت سنة ١٩٠٠ – ٩٦ الف كيلو متر كان دخلها اذ ذاك نصف مليار مارك ذهباً فى السنة وقد صرف عليها ١٤ ملياراً وهكذا نجحت فى كل فرع من فروع العمل والانتاج .

قال لشتنبرجه : ان القرن العشرين زاد فى استيلاء الانسان على الامور زيادة كبرى فعمل ونجح فى عمله مافيه ادخال الحياة تدريجيا فى طور العقل ووفر الثروة المادية توفراً كبيراً وحل مشكلة اعاشة ستين مليوناً من البشر فى أرض المانيا على حين لم يكن فى هذه البقعة نفسها أوائل القرن التاسع عشر ما يقوم باعاشة أكثر من خمسة وعشرين مليوناً وعلى صورة كانت أشق مما هي عليه اليوم فاستحالت مملكة فقيرة زراعية الى معمل كبير مجهز بالعدد الصناعية والتجارية التامة الى التي ما بعدها . وهي تقوم بفضل حذق عملتها ورؤوس أموال أغنيائها وثروتهم المحصلة والالمان يعجبون وحق لهم العجب بما فيهم من صفات الاجتهاد والثبات فى العمل والنزاهة فى العلم والنظام وحسن التدريب والترتيب خصوصاً وهي صفات مكنتهم من أحراز مقام عال بين الامم الصناعية الحديثة ومن مجاراة الممالك فى الجهاد العام اهـ .

نعم أن ارتقاء الصناعات الالمانية قد جعل المانيا المعمل الاكبر للعالم اذا وقفت حركته وقف العالم وقد ظهر ذلك عقبى الحرب فلما كانت المانيا والممالك الوسطى فى أوربا محصورة كان العالم فى ضيق شديد حتى اذا فتحت حدودها وصدرت مصنوعاتها انفرج العالم وأي فرج . خذ لذلك الكتب فان المانيا

وحدها تطبع نصف ما يطبع منها فى العالم بأسره ونصف هذا النصف أى ربع كتب العالم تطبع فى ليبسيك فلم يكن فى أوائل القرن الماضى عدد المصنفات الجديدة التى تصدر فى المانياسوى ٣٩٠٠ — فاصبحت سنة ١٩٠٠ — ٢٤٧٩٢ وفى سنة ١٩٠٥ ٢٨٠٨٦ وفى سنة ١٩٢١ — ٣٢٠٣٢٥ كتاباً على حين طبعت أميركا فى هذه السنة ٨٠٣٢٩ كتاباً وانكلترا ١١٠٦٢٦ كتاباً . وكان فى المانيا سنة ١٩٠٥ — ٧١٥٢ كتبياً يصدرون الى البلاد الخارجية كتباً قيمتها مائتان وتسعون مليون مارك . وقد أصدرت المانيا الى انكلترا فقط خلال ثلاثة أشهر عقيب الهدنة ١٨١٨ من الكتب ملايمته خمسمائة مليون مارك وفى المانيا زهاء ثمانية آلاف صحيفة يومية وشهرية وأسبوعية .

ولا عجب فقد قيل أن علم الاقتصاد كان قديماً يستند فقط الى العرف والتجربة وما النجاح الهائل الذى أحرزه العلم الاقتصادى الحديث الا منبعث من انتشار العلوم الطبيعية انتشاراً خارقاً للعادة ولتطبيق النتائج العلمية على العمل الاقتصادى فان العلوم الطبيعية والكيمياء وعلم الكهربائية وهى من متعلقات العلمين السابقين قد تسابقا فى هذا المضمار وأثر كل منهما جد التأثير في تبديل الادوات الاقتصادية وكان ذلك بفضل المفكرين والعلماء من الالمان الذين فتحوا فى هذه العلوم طرقاً جديدة وجددوا اتساع العلوم الطبيعية بما اكتشفوه من قانون حفظ القوة ولم يكتف الالمان من هذا العلم بنظرياته المجردة بل صار هذا الشعب المشهور بأنه شعب شعر وعلم خلال القرن الاخير أمة عملية موجدة وهذا الاشتراك بين الذكاء والعلم والارادة قاد المانيا الى أرقى درجات النجاح .

كان من نتائج انتشار العلوم الطبيعية وارتقاء العلم فى نواميس الحركة منذ القرن التامن عشر ان يتوسع فى استعمال الادوات كأدوات الحياكة والصناعات المكانيكية وآلات الاستخراج والتعدين والمضخات وغيرها وباستخدام القوى الجديدة المحركة من البخار أولا والكهرباء آخراً ومن استعمال القوى المفجرة عم استعمال الادوات وانصرفت الهمم الى اتقانها لاجرم أن آلة البخار اخترعت

فى القرن الثامن عشر ولكنها لم تكمل الا في القرن التاسع كما كثر معه استخدامها فى الجملة . وبعض الترقى الذى حدث فى البخار مثل زيادة احمائه والتوربين هما من مكتشفات العهد الأخير . وساعد المانيا على ارتقائها غناها بمعادنها ففيها الحديد والذهب والفضة والقصدير والكاولين وغيرها من المعادن . ولم تكن المجارى الكهربائية منتفعاً بها حق الانتفاع في الابعاد الشاسعة وبدأت الحركة باختراع التلغراف الكهربائى نحو سنة ١٨٣٠ ثم باختراع الهاتف بعد ثلاثين سنة وفي أيامنا اخترع التلغراف والهاتف اللاسلكى . وكان لعلماء الالمان وأهل الصناعات منهم اليد الطولى في هذه الاختراعات وفى اكمال البرق والهاتف واستعمالهما استعمالا عملياً وقد راعوا فى كل ذلك ولا سيما فى انتقال القوة الكهربائية والغازية والحركة الى الابعاد الشاسعة قلة النفقة والاقتصاد من عمل الايدى وبذلك بدأت المستنقعات والبطائح فى بلاد المانيا تجفف وتعود صالحة الزراعة

وأن التوفيق الذى وقع في امكان جمع قوة ضخمة وذلك باجتماع القوة البخارية وتوزيع القوة الحادثة منها من محطة مركزية الى عدد كبير من المراكز المختلفة قد فتح لصنع الآلات ميداناً للعمل لا نهاية له فأنشئت أدوات لم تكن تعرف للتعدين والحديد والنسج والورق والزراعة وما يتبعها وعمل عدة الالكحول والجعة والسكر والصناعات الكيماوية وساعد ذلك كل المساعدة على ازدياد أسباب النقل بحراً وبراً وعلى سير السيارات والعجلات الكهربائية وعربات الركاب والبضائع وأسباب النقل فى الماء فى قوارب متحركة بذاتها حتى السفن التجارية والبوارج الحربية الضخمة واختراع المحرك الخفيف ذى الوقود قد مكن من اختراق الهواء فى الطيارات والمناطيد وبهذين الاختراعين حققت الآمال التى طالما حامت حولها أفكار بنى الانسان منذ ألوف من السنين .

وانتشار الكيمياء أكمل على أنفع وجه الاختراعات الطبيعية والكهربائية فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية ودرس المادة تأليفها وتبدلها درساً علمياً قد أثر

فى الحياة الاقتصادية عندماظهر علم فسيولوجيا النبات والكيمياء الزراعية وهى الاصل فى النظرية الحديثة للسماد وبذلك ارتقت الزراعة الى حد لانهاية له فى المانيا . ولئن كان أساس هذه العلوم قد وضع فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ولكنها لم توضع موضع العمل الحقيقى الا فى الثلاثين سنة الاخيرة

ولما عرفت مكانة الحامض الفوسفورى والبوتاس والازوت لحفظ القوة المنتجة فى التربة وزيادتها وكانت هذه المواد مهملة الى ذلك العهد أصبح لها شأن مهم وقيمة غالية . وفى المانيا معادن مهمة من البوتاس تكاد تكون منقطعة القرين فى الارض . وقد شرعت المانيا تحسن الانتفاع مما ضمته افلاذ تربتها من المعادن فى الصناعة والزراعة على مقياس سارت فيه سيراً عظيما وان المانيا بما تستخرجه من المواد القطرانية هى فى الدرجة الاولى بين الامم لارتقاء أساليبها العامية وأهم ما تستخرجه من القطران ألوان الانيلين والاليزادين والمستحضرات الصيدلية مثل الاسبيرين والفيناسيتين والسكارين وسائر أنواع الزيوت القطرانية

هذه نبذة فى حال المانيا الاقتصادية وجهادها فى مضمار الحياة المادية وقد ساعدها على ماهى فيه مزج كل شىء بالعلم وكل علم بالعمل بحيث يتراءى لك ان سماء بلادها وأرضها تعمل عملا متساوقاً متقناً .

العلم والعمل

١١٤

قال أحد الالمان لرجل من الفرنساويين اننا من عدة وجوه متأخرون عنكم فقد كانت بلادنا التعسة مدة ثلاثة قرون مساحة حرب أوربا . أتذكرون أن الفرنسيس كانوا إذا فكروا فى مسألة عرش النمسا وغوستاف أدولف إذا أحب أن يصبح رئيس حزب البرتستانت ولويز الرابع عشر اذا نشأت له بعض

صعوبات مع الامبراطور كانوا كلهم ينزلون أرضنا و يقتتلون على أديمها فتخرب على الدوام فكنا فقراء بينا كنتم معاشر الفرنسيس آخذين بأسباب النجاح والترقي . قلنا ومعظم تخريبات الحرب الاخيرة لم تكن هذه المرة فى أرض المانيا بل فى بلاد الحلفاء من الفرنسيس والبلجيك والروس فتغيرت تلك النظرية .

وقد تداركت المانيا ما فيها من نقص وحمت نفسها و بسطت سلطانها بالمدرسة والثكنة . وجعل اليوم المعمل بدل الثكنة ولا يزال الالماني كما كان قبل الحرب الا قليلا يعيش موسعاً عليه ويأكل كثيراً ويؤوى الى مسكن حسن للغاية والعامل فيهم يكتسى أحسن من ثياب صاحب الاملاك فى الامم الاخرى ويستحم على الاقل مرة فى الاسبوع . ومن المدن ماتعطي لاعضاء بلدياتها رواتب الوزراء . وفى كل محل ترى صناديق الضمانة تعمل عملها مع المرضى والزمنى والشيوخ كما تشاهد ملاجئ للناقهين وعشرات من المعاهد تشبهها . وليس فى الطرق شحاذون والفقراء يؤخذ بأيديهم ويعالون بعض الشيء أو يستخدمون . ومن الناس فى المانيا من يبتاعون أحيانا بعض رفاهيتهم بالدين ولكثير من البيوت أثاث حسن لم يؤد أهله ثمنه . وكثير من مدنهم كانت تقترض ملايين لتنشئ بها دور تمثيل وتنصب فى ساحاتها التماثيل والنصب فالالمانى يستمتع بالحياة وربما تعجل الرفاهية

ولقد وضعت الحكومة يدها فى المانيا بعد الحرب على المساكن الفارغة في المدن فصارت لاتكريها إلا لمن كان له عيال تؤثرهم على غيرهم من العزب فحملت بذلك الناس على التزوج من طرف خفى ثم لما امتلأت الدور فى بعض المدن أعلنت أنها لا تتعهد بعد الآن بمسكن لصاحب أسرة يتطلبه منها فأخذ الفتيان في بعض الامارات ولا سيما فى بافاريا يتزوجون فى الثامنة عشرة من عمرهم حتى يولد لهم ويسدوا نقص الامة ويستعيضوا عمن فقدت من أبنائها فى الحرب وبذلك أصبحت المانيا تزيد فى السنة نحو مليون نسمة وناهيك بهذه الزيادة بعد عشرين أو ثلاثين سنة . وكل من يصلح للعمل فى المعمل أو فى الحقل ينال رزقه فى الحال

ولذلك قل أن ترى فى المانيا عطلا من عمل أو رجلا ضاقت عليه أوجه الحيل لاستحصال معاشه .

كانت الهجرة قبل الحرب كثيرة من ألمانيا الى أميركا وغيرها وزيادة المواليد على الوفيات كانت تسد الخلل ومازال بضعة ملايين من الالمان فى شمالى أميركا محتفظين الا قليلا بلغتهم ومشخصاتهم ولهم هناك جرائدهم ومدارسهم . وللالمانيا منذ القديم معرفة باستعمار الارض وتكثير النسل حتى أعطى ملوك بروسيا أراضى اربعمائة الف مهاجر فرنساوي وسالسبورغي وسوسفيانى ممن كانوا يغادرون أرضهم هرباً من الاضطهاد الدينى فى بلادهم الاصلية فأسكنوهم فى البلاد القليلة السكان فى بروسيا الشرقية فأصبحوا المانآ مع الزمن واليوم نرى حكام المانيا يحاولون ارجاع قسم من سكان المدن الى الارياف والارباض ليتوفروا على الزراعة ولا يحملوا المدن فوق طاقتها

من كان ينزل المانيا قبل الحرب الاخيرة لم ير غير جند يتنقل ، وضباطاً تنزل وترحل ؛ كأن البلاد فى حالة حرب فاما ثارت الحرب العامة وغلب ذاك الجيش الالمانى العجيب بتدريبه وقوته على ما شهد له بذلك خصومه أصبحت لاترى للجندية تلك الروح التى بثتها بروسيا فى ست وعشرين أمارة المانية ضمتها الى صدرها وجعلتها بعد حرب السبعين الفرنساوية الالمانية مملكة متحدة الاجزاء قوية الدعائم . بل قد عادت تلك القوة إلى الكمون فقد أوقفت المانيا بعد الحرب معامل السلاح والتدمير والاساطيل البحرية والهوائية وقلبتها معامل صناعية وارتقاء الصناعة الالمانية كان علة الحرب أو احدى عللها . وكيف تترك انكلترا الاولية فى الصنائع لالمانيا كما كانت لها الاولية بجيوشها البرية وكاد يكون لها التقدم فى البحرية لو طال السلم بضع سنين أخرى ولم تنشب تلك الحرب الضروس . والتربية كما قال ميلتون لاتعد صالحة الا متى جعلت المرء كفؤاً لجميع أعمال السلم والحرب

قال غوستاف لوبون : مامن ينكر على الالمان ذوقهم فى العمل وثباتهم وفكرهم

فى النظام ووضع الخطط اللازمة له ولا سيما فى الأعمال المشتركة . وقال بلغ من ارتقاء الالمان فى النشوء الصناعي الحديث ان برّزوا فى قليل من الزمن من مستوى منحط فى الجملة الى أول درجات المدنية . وقال أيضاً : استخدمت انكلترا الحرب لتوسع مملكتها الى أقصى ما يتصور من العظمة وعلى على الشعوب الضعيفة ارادتها وتستبدل فى أوربا فضل تصدرها بتصدر الألمان . وقال أيضاً : لا يروق انكلترا أن ترى فى قارة أوربا دولة قوية تهددها فقد كانت سنة ١٨١٥ هذه الدولة دولة فرنسا وعلى رأسها نابوليون وفى سنة ١٩١٥ كانت تلك الدولة ألمانيا وعلى رأسها غليوم .

نشأت الروح البروستية من أربعة عوامل أساسية : «الثكنة» و«المدرسة» و « تأثيرات الفلاسفة » و « حكمة المؤرخين » . عوامل رئيسة عملت عملها عدة أجيال فأتت بتأثيرات مهمة يصعب معها نزع فكرة التسليح من نفوس الألمان بعد أن أصبحت عقيدة ثابتة فيهم حتى قال لوبون : ان الألمان لا يعدلون عن هذه العقيدة عقيدة حمل السلاح أو ينزع المسلمون عن الاسلام . وليس فى تاريخ العالم شئ من المعتقدات نزع من نفوس معتقديها بقوة السلاح ولا بالبرهان العقلى فان الألمان ينسبون جزءا من تفوقهم الاقتصادى الى التسليح . يقول « لايبنز » الفيلسوف الألماني : يتأتى بالتربية تغيير ذهنية شعب فى أقل من قرن . وهذا الحكم لا يصح فى الشعوب التى ثبتت تراكيبها وكان لها ماض طويل فان روح عنصر تمثل شيئاً من معنى البقاء والديمومة وفى التربية تتوجه ملكة الأمة الى معنى معين ولكنها لا تتبدل .

بعد حرب الثلاثين سنة نزل سكان ألمانيا الى النصف وبحروب نابوليون بهظت الديون عاتق المدن قرناً من الزمن وأفلس ألوف من البيوت الكبيرة وكان العروسان بعد واقعة يينا يحملان فى يديهما خاتمين من حديد بدل الذهب علامة الخطبة وقد نقشا عليه : أعطيت الذهب لأحصل على الحديد .

***

قلنا ان أول قوة من قوى ألمانيا الحديثة قوة المدرسة فقد كان فيها بحسب احصاء سنة ١٩٠٦ - ١٩٨ر٦١ مدرسة ابتدائية فيها ٣٥٨ر٧٧٩ر٩ تلميذاً ولها الآن احدى وعشرون جامعة لا يقل تلامذتها عن ٦٥ ألفاً هذا عدا المدارس الوسطى والصناعية والزراعية والمدارس الفنية العالية ومدارس العميان والزمنى والمعتوهين والصم والبكم والمصابين بالصرع ومدارس الليل للبالغين وغيرها مما يدعو الى تعليم وتربية . وتقسم المدارس فى ألمانيا طبقتين مدارس التربية والمدارس الخاصة أو الصناعية ويدخل فى الأولى المدارس الابتدائية والوسطى للذكور والأناث وهى ثلاث درجات مدارس القرى (من الصف الأول الى الرابع) ومدارس المدن من سبعة الى ثمانية صفوف والمدارس الوسطى فى المدن الكبرى مع تعليم لغة أجنبية (٩ صفوف) . والمدارس الثانوية هى مدارس الذكور ذات تسعة صفوف وأربع لغات أجنبية ومدارس الأناث مع أربع لغات أجنبية ومدارس أخرى ذات تسعة صفوف ومنها ما يدرس ثلاث لغات أجنبية ومنها لغتين والمدارس المنظمة على طريقة فرنكفورت والمدارس الثانوية للبنات مع لغتين أجنبيتين وهى ذات تسعة أو عشرة صفوف هذا ما عدا المدارس الصناعية وما عدا مدارس المعلمين والمعلمات التى تناهز ٣٠٠ مدرسة عالية ووسطى ولا يقل تلامذة المدارس الدنيا والوسطى والعليا على اختلاف فروعها وأسمائها عن عشرة ملايين وناهيك بذلك من قوة لا مثيل لها فى المغرب اللهم الا فى الولايات المتحدة .

بدأت ألمانيا (١) فى أوائل القرن التاسع عشر بقيام الفيلسوف فيختى وهيجل لاصلاح التعليم وما أنشأه من الأوضاع العلمية التى حملت الحكومة على تولى ادارة التعليم بدل الكنيسة وأخذها على عاتقها تنسيقه ومراقبته ونشره على اختلاف درجاته ورأت الامة من واجبها أن تحمى المساكين والضعفاء خاصة وتدفع عنهم عوادى الهلاك وأسواء الفساد الادبي وتمد اليهم أيدي المعونة فى الازمات وتقيهم مقعدات العجز والزمانة فكان نجاح التعليم العام وتنظيم التضامن الاجتماعى

(١) ألمانيا الحديثة لهنري اشتنبرجه Henri Lichtenberger : L,Allemagne moderne

أول مابذلت الحكومة الالمانية عنايتها به فبعد أن كانت المدارس اللاتينية والكليات تخرج فى القرون السالفة رهباناً ولاهوتيين نزعت عن التعليم صبغته الدينية فأصبحت مجامع علمية لا يتصدر فيها اللاهوتيون ولا الفلاسفة واللغويون كما كانوا أوائل القرن الماضى بل التصدر فيها لرجال العلم والاطباء . ثم نزع التعليم من يد الكنيسة بتحريض بستالوزى أحد كبار علماء التربية فيهم (١٧٤٦ — ١٨٢٦) وأخذت تلقى فى نفوس التلاميذ الاعتماد على النفس وحب العمل وتبث فيهم القول بحب الذات أو بالشخصية الحرة المستقلة وأخذت المدارس تشرب طلبتها محبة الوطن كانه دين ثان وذلك بفضل العناية التى صرفت لتعليم اللغة الالمانية ولا يزال للكنيسة الى اليوم تأثير مهم فى ألمانيا ولا سيما فى دائرة التعليم الابتدائى والظاهر ان ألمانيا لا تنوي الآن نزع النصرانية من المدرسة حتى ان أرباب الافكار الحرة وهم بعيدون عن كل معتقد لا يرون بان نزع الصبغة الدينية من التعليم فى المانيا هو من الممكن أو مما يرغب فيه وهم معتقدون بأنه متى اصبحت المدرسة «كافرة» لا دين لها يحول قسم وافر من سكان البلاد ولاسيما الكاثوليك وجوههم عن المدارس العامة وينظمون لابنائهم مدارس خاصة لتعليمهم الدين الذى يرونه ضرورياً لهم .

زالت الحواجز التى كانت تحول دون أصناف التعليم وبطل اعتبار اللغة اللاتينية لغة اجبارية لكل من أراد التهذيب العالى وانتزع من المدرسة المدنية على التدريج ما كان لها سابقا من صبغة مدرسة لاتينية وغدا التعليم على اختلاف درجاته أكثر تشبعاً بالروح الادبية أو الفلسفية وأقل تمسكا بالنظريات وقامت بجانب المدرسة الادبية مدارس أحدث من مدارس الفلسفة الحقيقية والحسية وزادت العناية بتعليم العلوم واللغات الحية فكانت وافية بحاجات أهل المدن الصناعية أو التجارية ونشأت بالقرب من الكليات فى كل مكان مجامع علمية مازالت على ارتقاء ونماء ، وقد جرى بين الناس مجرى المثل قولهم بأن المعلم الألمانى كان هو الظافر الحقيقى فى معركتى سادونا وسيدان وأن غلبة المانيا

أنها في الحقيقة من سر تقدمها فى مضمار العلم والتهذيب . ولئن قالت فئة من العارفين بان المانيا بالغت واكثرت فى نشر العليم فان أهل الاعتدال منهم مازالوا موقنين على الجملة بانه لاتحرز المكانة العليا في ايجاد العالم نحو التفوق والسلطة الا الامم التى تحسن أن تضمن لفتيانها تعليما متيناً وتهذيباً راسخاً بما تنظمه من المدارس المتقنة وما تكونه من البيوت الناجحة فى شؤونها الاقتصادية والسالمة من شوائب مفاسد الاخلاق

يرى العارفون أن تأويل الارتقاء الذي فازت به المانيا أتى من اسراعها قبل جميع الامم فى وضع قانون التعليم الاجبارى ومن عنايتها بتخريج أساتذة عارفين ما أمكن فى جميع فروع التعليم . وبالتعليم فتحت العقول واستوت (المقتبس م ٢ ص ٤٠٤) لقبول الافكار الحديثة ورق شعور الافراد ومرنت قواهم وامتد ذكاؤهم وقويت عقولهم وقل الاختلاف بين الطبقة العالية والطبقات النازلة فى المجتمع وذلك فى الامور الذهنية فقط فخرج عاميهم من غفلته وتغفله وصقل ذكاؤه ورق احساسه وبدأ يفكر فى غير الضروريات المادية في حياته اليومية واتسع أمامه ميدان النظر وامتد أفق الغايات السامية واهتم بالاطلاع على مايحدث فى العالم وقد زادت بارتقاء المانيا فى صناعاتها وتحسين زراعتها ورفاهية الامة وحسنت الاخلاق وسعدت الحياة وأصبحت داخلية المدن الى اللطف والذوق يتوفر فيها الزخرف والبهرج والنظافة المفرطة يلبس العملة منهم أجمل الثياب وأنظفها ويسكنون فى أبنية جديدة ويعيشون مرفهين بالجملة . وانتشرت الديمقراطية فى المدن أسرع من القرى حيث يهتم السكان للزراعة والقيام على الماشية وساكن المدن أكثر علماً وحركة وحضارة . والفلاح فى العادة من المحافظين وعامل المدن ديمقراطى

هذه نتف من حال العلم والعمل فى المانيا والفضل الاول فى تسلسل العلم في أبنائها جيلا بعد جيل لما منحه امراء البيت المالك فى ساكس للآداب من أشرف أنواع المعونة والاستقلال منذ عهد الاصلاح الدينى ولا حرج اذا قلنا أن ليس

فى بلدفى الارض انتشر فيها التعليم كما انتشر فى ساكس وشمالى المانيا فهناك نشأ المذهب البرتستانتى وحرية البحث والنظر منذ ذاك العهد بشدة . قالت مدام دى ستايل هذا وأوردت أمثلة على انتشار العلم فى عهدها فى تلك البلاد يدهش لها سامعها وقالت ان الكتب منتشرة بحيث أن الحجار بل جميع طبقات العملة اذا أحبوا الراحة تجد كتابهم بأيديهم يطالعونه وان ليس من مدينة مهما صغرت الا ولها خزانة كتب مسبلة على المطالعة وفى كل مكان رجال عظام يرغب فى محادثتهم للاستفادة منهم .

وقالت : ليس للآداب الالمانية ما جرت العادة بأن يدعى بالعصر الذهبى أى القرن الذى كانت فيه الآداب مرتبة بارتقائها لحماية زعماء الامة فان ليون العاشر فى ايطاليا ولويز الرابع عشر فى فرنسا وفى القرون القديمة بركليس وأغسطس قد أطلقا اسميهما على عصريهما ولك أن تعد عهد الملكة حنه أزهر عصور الآداب الانكليزية ولكن هذه الامة الالمانية التى تقوم بنفسها ما كانت قط مدينة لملوكها برجالها الاعاظم .

مدارس المانيا

١١٥

قال أحد علماء الفرنسيس للعلم العملى عند الالمان شدة ونفوذ لاتجد مثلها فى أمة من الامم فان جميع طبقات المجتمع يشتركون فيه من الوزير الى صاحب الحانة ومن الصيرفى الجهبذ الى غلام المقهى . وقال آخران نجاح المانياالصناعى من العجائب . وقال أحدهم الالمان كجيش منظم فيه من كل أصناف العاملين فالجندى جندى والضابط ضابط والقائد قائد والطاهى طاه ولامن ينازع الآخر فى عمله أو يتطاول الى بلوغ مداه . وقال غيره : لاجدال فى أن المانيا بلد

تعمل فيه الآلات الطابعة في المطابع العامية عملا كثيراً . وذكر أحدهم [1] ان السائح الذى يجتاز المانيا يدهش فى العادة من أنه لا يرى بيتاً قائماً وحده فى الاراضى الزراعية بل ان جميع المساكن فى الحقول منضمة بعضها الى بعض بحيث يتألف منها أحياناً مدن وهذا مما يدل على فكر الاشتراك المتأصل فى العنصر الجرمانى الذى يستغرب حال شخص يريد الابتعاد عن أخيه . وهناك شيء آخر وهو أن معظم حكومات المانيا تحظر انشاء المساكن بعيدة عن مراكز القرى حتى لا يحرم الاولاد من الاختلاف الى المدرسة فى الايام الممطرة العاصفة ويسأل الوالدان عن تأخر ولدهما اذا تخلف عن المدرسة فاذا تخلف أحدهم يجب على اقربائه أن يبينوا معدرته والا فيجازون أشد الجزاء . وعلى رؤساء المعامل الذين يستخدمون فى الخلاء عملة أو موظفين أن يضمنوا لاولادهم حملهم كل يوم الى مدرسة القرية القريبة واذا كثر العملة فى بقعة بعيدة تؤسس فى الحال مدرسة عامة وتكون فى العادة باعانة من صاحب المعمل . وكان من أثر هذه العناية أن قل عدد الاميين فى المانيا بحيث لا تجد واحداً فى الالف على أنهم لم يكتفوا بتعليم المبادىء فقط بل انك لا تدخل قرية ولا معملا ولا بيتاً الا وتجد الجرائد والكتب فى الايدي تتلى ويستفاد منها بين جميع الطبقات .

للتعليم الابتدائى والاوسط فى المانيا ميزتان لا نظير لهما فى سائر الممالك وهى أنه لا يبعد المتعلم عن العيشة البيتية بين ذويه فيفضلون طريقة المدارس الخارجية على الداخلية أى أن يتعلم التلميذ فى المدرسة فى النهار ويجيء فى الليل يبيت فى دار أبيه وهذا التعليم سلم للتعليم الصناعى الذى تختلف درجاته وتراه نظرياً وعملياً فى آن واحد . هذا الى ما هناك من دروس الاشياء والمجاميع النفيسة التى تراها فى المدارس الالمانية والتعليم بالنظر وبالذهن والعمل والنزهات المفيدة وغير ذلك من أنواع التربية . وما من المانى الا ويتعلم شيئاً من التعليم الصناعى ففى هذه البلاد التى يكاد الناس كلهم يعملون قد وقع فى النفوس أنه لا يجوز

(١) من مقالة لاحد رجال الفرنسيس فى كتاب المانيا العاملة عربها لمجلة المقتبس ج٥ ص٥١٥

لأحد أن يتعاطى صناعة من الصنائع المقررة قبل أن يتعلمها بالنظر والعمل . وهذا ما أدى الى انشاء كثير من المعاهد الملوكية والامبراطورية والبلدية والخصوصية تقصدها الامة فتستقى من مواردها قوتها المنتجة والعقلية .

وأعظم هذه المعاهد وأقدمها وأشهرها جامعاتها وعددها احدى وعشرون جامعة . وكانت كل أمارة من الامارات الالمانية فيما مضى تحاول أن تكون لها جامعة فاقدمها جامعة هايدلبرغ أنشئت سنة ١٣٨٦ وأحدثها كلية فرانكفورت أسست سنة ١٩١٣ . وقدم الجامعة عنوان شرف لها . ومن أشهر جامعات المانيا جامعة ليبسيك أنشئت سنة ١٤٠٩ وهى تفاخر بان من جملة أساتذتها الفيلسوف لايبنز ومن جملة طلابها كيتى الشاعر وفاكنر الموسيقار . وكل جامعة تنقسم الى شعب أربع وهى الالهيات (على المذهب البرتستانتى والكاثوليكى) والحقوق والطب والفلسفة وهذه أربعة فروع (ا) الفلسفة المجردة وعلم التربية والمنطق (ب) علم اللغات والآداب (ج) التاريخ والجغرافيا وتاريخ الصنائع والموسيقى (د) السياسات وعلم الاقتصاد (هـ) الرياضيات والطبيعيات (وهى الرياضيات وعلم الفلك والحكمة الطبيعية والكيمياء والحيوان والنبات وطبقات الارض) وهاك أسماء هذه الجامعات وتاريخ تأسيسها : برلين ١٨٠٩ مونيخ ١٤٧٢ ليبسيك ١٤٠٩ بون ١٨١٨ هالله ١٥٠٢ برسلاو ١٧٠٢ فرايبورغ ١٤٥٧ غوتنغن ١٧٣٧ مونستر ١٧٧١ هايدلبرغ ١٣٨٦ ماربورغ ١٥٢٧ توبنغن ١٤٧٧ يينا ١٥٥٨ كنغنبرغ ١٥٤٤ كيل ١٦٦٥ ورتسبورغ ١٤٠٢ كيش ١٦٠٧ أرلانكن ١٧٤٣ كرايفسوالد ١٤٥٦ روشتون ١٤١٩ فرانكفورت ١٩١٣

وهذه الكليات [1] مستقلة حرة ولكنها منظمة بنظام واحد . والجامعات مهما كانت وجهتها في تعليمها نظرية أو عملية لا تنافس فى اعداد مهندسين وصناع والمباحث التى يستفيد منها أمثالهم يرونها فى المجامع الكيماوية والعلوم الطبيعية فى المدارس الصناعية هى التى يتخرج فيها أرباب الهندسة والصناعات وهذه

(١) الجامعات الالمانية فى القرن العشرين لكروشته
R. Cruchet : Les Universités Allemandes au X X e siècle

المدارس تابعة لكل امارة تخرج كل سنة ثلاثة آلاف مهندس يدرسون فيها أربع سنين هذا عدا من يتخرجون من المدارس الثانوية الصناعية ويحرز لقب « دكتور » تلامذة المدارس الصناعية العالية كما يحرز المتخرجون فى الجامعات. ولقب دكتور أشرف الألقاب وأعلاها فى ألمانيا . والالمان أحرص الأمم على لقب دكتور حتى انك اذا لم تطلق هذا اللقب الشريف على من ناله عدّ ذلك منك سخرية وفى ذلك دليل كبير على ميل هذا الشعب للعلم والتلقب بألقابه .

وفى هذه المدارس يتجلى ميل الألمان للأخصاء فيعلمون ما يعلمه غيرهم من الأمم فرداً واحداً لخمسة أفراد قائلين ان الذهن لا يتسع لاكثار المواد عليه . والألمان لا يحرصون على تعليم الهندسة لأذكى أذكيائهم بل يريدون أن يجعلوها قريبة المنال من كل أحد وهم يستعملون كل الطرق التى يرونها نافعة لئلا يتعبوا الفكر على غير طائل باغراقه مدة ساعات فى حل قضية ولذلك ترى الأساتذة يأخذون تلامذتهم الى معامل خاصة ليطلعوهم بالعمل على ما ينبغى لهم الاطلاع عليه من الآلات والأدوات . وكل معامل المدرسة وغرفها وحجر كتبها وصفوفها منارة بالكهرباء أو بالغاز على صورة لا تضر بصحة العيون حتى انه ليقل جداً عدد الحسر فى الألمان لشدة العناية بالعيون . وهكذا لا تمر بقرية ولا قصبة ولا مدينة ولا عاصمة فى ألمانيا الا وتجد فيها مدارس صناعية كبيرة وصغيرة على نفقة الحكومة أو البلديات تعلم الصناعات المختلفة . ومن هذه المدارس ما هو أشبه بقصور الملوك منه بالمدارس لما حوى من المرافق والردهات والاروقة والساحات والأدوات .

***

من الكليات نشأت الانقلابات الكبرى فى الفلسفة والدين والعلم (المقتبس م ٦ ص ١٣٧) ومنها نشأت الوحدة الالمانية وكان الالمان الى ذاك العهد أمة فكر وشعر يقولون في أنفسهم انهم تركوا البر لجارتهم فرنسا تتصرف فيه على

ما نشاء والبحر لانكلترا تسرح فيه وتمرح ولم يبق لهم الا الاحتفاظ بالسماء منزل العقل . والوحدة السياسية التى كان يراها بعضهم من الخيال قد تحققت من طريق العلم والعمل بفضل الجامعات التى كانت مركز الحياة الوطنية . والغاية من هذه الجامعات أن لا تخرج علماء صرفاً ولا رجال صناعات ممتازين بل ان تهذب طلابها تهذيباً يتيسر لهم معه أن يستعدوا لدخول المجتمع والتصدر فيه فليست الغاية اذاً أن تخرج تلك الكليات أساتذة وحكاماً ورجال دين للحكومة ولا أن تعد محامين وأطباء للأمة بل أن تعلمهم تعليماً عملياً وتلقنهم الخطة التى يجب عليهم أن يسيروا عليها وتفقهم على أساليب البحث والنقد وتقوى فيهم ملكة أخلاق العلماء كالعفة وخلو الغرض وسعة الفكر وتلقنهم شيئاً من العلوم المساعدة وأن يطلقوا رائد الطرف اجمالا في الميدان الذي يجب عليهم أن يجروا فيه وبالجملة تؤهلهم الى أن يتموا هم بأنفسهم ما بدأ به أسلافهم .

يتعلم الطالب المتخرج فى جامعة المانية ماهو العلم اذا اقترن بعلم خاص . فلا يكتفى بشهادة ينالها فيحق له بها أن يقضى أو يشفى أو يعلم أو يلقن الدين لمواطنيه بل ينبغى له أن يتمرن سنة فى الفرع الذى يريد الاخصاء فيه ثم يقدم فحصاً بعد أن تكون المدرسة قد أعدته للنظر الاجمالى فى الحياة العامية . ولرجال الدين والاساتذة والمحامين والقضاة والموظفين والاطباء فى المانيا الذين ينشأون من الجامعات طبقة خاصة ومنزلة سامية بين قومهم لا ينالها الا الضباط ولكن الصيارف والتجار وأرباب الصناعات والاملاك مهما بلغوا من الغنى والذكاء وخدموا المصلحة العامة هم بمنزلة دون أولئك الذين تخرجوا باساتيذ الجامعات . وتناغى القوم فى الاعمال الحرة لقن طبقات الامة الالمانية ان أرباب الصناعات والتجارات وهم من طلاب المال والغنى لا يعيشون مهما بلغوا من الذكاء الا للثروة ولذلك تكون منزلتهم فى الانظار دون منزلة العاملين بأفكارهم وعقولهم

تضمن الجامعة الالمانية للطالب فيها تهذيب العقل من جهة وتربية الارادة والخلق من جهة أخرى وذلك باطلاقها حرية الطالب فيها فتعامله معاملة رجل حر

عاقل له حق التصرف بأمواله ولسان حالها يقول : « اعمل ما يروقك واعلم فقط انك ستجني مازرعت » وفي الاناشيد الالمانية شيء كثير يشير الى أن حرية الطالب أثمن شيء وانها من أوصافه الخاصة به . فالغني لايحضر دروس الجامعة للحصول على معارف تنفعه لاحتراف حرفة في المستقبل وما هذا الطالب الا ثانوي بل ان الغاية التي يسعى وراءها في سنيه الثلاث في الجامعة هو ان يصبح رجلا وتكون له شخصية . يعينه على ذلك أساتذته وأترابه . ومن هنا نشأت فائدة جمعيات الطلبة لان الطالب يتعلم فيها أمرين مهمين الطاعة واحترام الناس له . والطلبة المتقدمون يطبعون على ذلك الطلبة المتأخرين أو المحدثين بمحافظتهم على قواعدهم يسنونها فينبعث في الطالب شعور الشرف وعزة النفس في الحياة المشتركة وتقوى ارادته على الصدمات فهو اذا خلص من سلطته في منزله بين أبويه يكون لتلك الجمعيات عليه شيء من السلطة الادبية فبالجامعة لا يصبح رجلا عالما ومهذباً فقط بل صاحب أخلاق . قال أحد العارفين أن الجامعات الفرنسوية تنقصها الحرية والجامعات الانكليزية ينقصها العلم وفي الجامعات الالمانية لا ينقص هذا ولا ذاك

قالت مدام دى ستايل : ان بلاد المانيا التي ارتقى فيها البحث والنظر ارتقاء بعيداً يسوغ أن تعد وطن الفكر ومن المحال أن لايكون كتاب الالمان وهم أكثر كتاب اوربا علماً ونظراً مستحقين ساعة من العناية للبحث في آدابهم وفلسفتهم . وذكرت أن العلماء كانوا يشتغلون في عهدها ثلاث عشرة ساعة في بعض بلاد المانيا على أسلوب ونظام وتساءلت عن النتيجة التي يحصلون عليها في بضع سنين . وقالت : امتلأ شمالي المانيا بجامعات هي أكثر كليات أوربا علماً وما من بلد حتى ولا انكلترا توفرت فيه أساليب التعلم وتهذيب القوى مثلها هناك والجامعات البرتستانتية أرقى من الجامعات الكاثوليكية وجميع المجد الادبي الذي اختصت به المانيا يرجع الى هذه المعاهد . وقال أحد كتاب الفرنسيس أن تربية الجامعات الالمانية تبتدئ حيث تنتهي تربية عدة أمم في أوربا

قام مجد المانيا قديماً بمن نبغ فيها من الفلاسفة ثم بمن نبغ فيها من القواد والجند ومجدها اليوم مناط الا قليلا بارباب الصناعة والتجارة من أبنائها . حاجة المدنية الحديثة ماسة للاخصاء فى العلوم والتفرد فى الصناعات والمانيا لاتجهل أن قوتها فى جهاد الامم السلمي بمن لديها من الاخصائيين الكثيرين الذين لا نظير لهم عند الامم الاخرى، بكثرتهم وتنوعهم . فقد كان كيتى يرى ضرورة الاختصاص الذى به فقط يصبح المرء عضواً نافعاً فى المجتمع فان حسن المعرفة واحسان عمل شيء واحد يورث ارتقاء كبيراً أكثر من أن يعمل المرء نصف عمل ويشغل نفسه فى مئة مسألة . وان أول واجب على الانسان أن يتعلم صناعة واحدة تعلما حسناً فالمتوسطون بذكائهم يكون منهم أرباب صنائع وأرباب الذكاء الواسع يصبحون رجال التفنن حتى أن النابغة نفسه يرى في الشيء الوحيد الذى يحسن القيام به رمزاً لكل ما يعمل حسناً واشارة لكل جهاد نافع ومثمر

أن ألمانيا تفاخر وحق لها الفخر بأنها موطن كبار الفلاسفة أمثال « كانت » و « ليسنغ » و « ليبنز » و « شوبنهور » و « فيختى » ومن الشعراء « كيتى » و « شيلر » وأن من ربوعها قام الاصلاح الدينى فقلب لوتيروس بدعوته الغرب كل مقلب وأنها وطن « ورتمبرغ » مخترع الطباعة أول محسن للمدنية

أخلاق الالمان

١١٦

عرفت من أخلاق الالمان فى الحرب الاخيرة كما عرف كثيرون غيرى من الاتراك والعرب يبوسة فى الطباع لم تعرف فى أخلاق النمساويين والمجريين مثلا وذلك لان معظم من وردوا على بلادنا لذاك العهد كانوا ضباطاً والجند أشداء الشكيمة صعب مراسهم ، وأهل بروسيا من بين الالمان خاصة يشتكى من شدتهم

حتى المتحدون معهم أمثال أهل بافاريا . ولعل لاختلاف المذهب دخلا فى هذا الاشمئزاز لان بروسيا برتستانتية وبافاريا كاثوليكية أو لان بروسيا هى التى سيطرت على المانيا ووحدت كلمتها . وكيف كان الحال فالامم الاوربية لايصح عليها الحكم خارج بلادها بل يحكم عليها بما ترى عليه فى أرضها وعقر دارها

قالت مدام دى ستايل : يجب على من أراد أن يعرف بروسيا أن يدرس سيرة مؤسسها فريدريك الثاني الذى كان يجمع الى خشونة الجندى رقة المدنى ويمزج روح الجندية بالعدل المدنى وكان من القيد في محل والحرية في آخر بحيث يعجب به كل من يقرأ سيرته ويرى آثاره فى أمته . كان فيلسوفا تخرج بفلسفة القرن الثامن عشر الفرنساوية فعدلت فيه الاستبداد الذى فطر عليه الحاكم المطلق . وكان لايشق عليه أن يسمع كلمة السوء توجه اليه فيترك الناس وحريتهم يقولون فيه مايشتهون . وكان هذا من غرائبه . وقد أعطى المحاكم حريتها بحيث كانت تحكم على أقرب الناس إليه وكثيراً ما تحكم فى مسائل سياسية تخالف ارادة الملك ومن المتعذر ادخال الظلم الى محاكم ألمانيا . قالت ان فى الألمان بعض الاستعداد لاختراع أساليب تؤهلهم للتخلى عن السياسة للأخذ بالعرف ولكن اذا كان يرادإحقاق حق أو ادارة مصلحة لا سبيل لأن يدخل فى عقولهم غيرمبادئ العدل فانفكر النظام فيهم دعاستقامة قلوبهم يطالب بالعدل كأنه يدخل النظام فى كل شيء .

وقالت أيضاً : الألمان هم بالاجمال مخلصون وصادقون وندران يرجعوا عن أقوالهم والغش صنعة لا أثرلها عندهم وهى غريبة عنهم واذا حدث ان تسلل الغش الى ألمانيا فذلك حسداً من أهلها للاجانب فيقتدون بأخلاقهم لكى يظهروا مثلهم فى الحذق وحتى لا يكونوا أنفسهم مغشوشين ولكن الشعور الحى وطيبة القلب تؤدى فى الحال بالالمان الى أن يشعروا بأن لا قوة الا ما جاء من طبيعة المرء وان اعتياد الحشمة لا يجعل فى الانسان استعداداً للاحتيال ولو أراده . واذا شوهدت فى الأمم اللاتينية سياسة غريبة فى الحذق للتملص من جميع الواجبات

فالامة الالمانية ولها الفخر فى ذلك ليس لها استعداد لهذه الليونة الجريئة التى تلين كل الحقائق لاجل المصلحة وتعبث بجميع العهود أمام كل النظريات . وما الالمان الا أمة عرفت بالقدرة على العمل وفطرت على حب النظر والفكر وهما خاصيتان ملازمتان لها

وقال جناب شهاب الدين : ما من صنف من الناس يحتقر الصنف الآخر فى ألمانيا بل جميع الطبقات متساندة ويحاول الالمان أن ينظروا الى أصحابهم وأعدائهم على نسبة حقيقية ويعرفون أعداؤهم معرفتهم لاصحابهم ولا ينظرون الى أحد بمجهر الشعر والحس كأن يعطوا أصدقاءهم درجة تفوق استحقاقهم ويضعوا أعداءهم الى دركة هى دون مرتبتهم الحقيقية فكما يقيس الالمانى أخاه ويفصله ويزنه ويعاينه ويحلله هكذا يعمل مع غير الالمان .

وقال لشتنبرجه : للألمان مرونة فى الفكر تسهل عليهم ادراك ما تنتجه قرائح الاجانب وعدم محاباة فطرية تميزهم امهم بقية الشعوب والحكم عليهم بأسلوب شامل ونظام عام ينظر فيه الى الكفاآت والهبات . وقال أيضاً : الالمان يعجبون وحق لهم العجب بما اتصفوا به من الجد والثبات والاستقامة فى العمل والنظام والترتيب خاصة .

وقالت مدام دي ستايل أيضاً : للالمان فى الآداب عناية بالغة بما يأتى عن طريق الاجانب كما لهم عناية بسياستهم وقليل من الأوهام الوطنية . ان من الصفات الحسنة فى المرء انكار ذاته واعتبار الآخرين ولكن وطنية الأمم يجب أن تكون الى حب الذات والانانية . ان إعجاب الانكليز بأنفسهم قد كان له شأن عظيم فى قيام جامعتهم السياسية ولطالما كان حسن ظن الفرنسيس بأنفسهم العامل النافع فى نشر نفوذهم فى أوربا . والكبر الشريف الذى عرف به الاسبانيول قد جعل منهم فيما مضى ملوكا على جزء من العالم .

ان الحس فى الالمان — على ما قاله فوليه — كالحس فى الانكليز من نوع البلغمي الحاد النصف دموى وهو بطىء التأثر . فالشعور والادراك فى الالمان

قليل مضاؤهما ورقتهما . فكما أن التأثرات تطول اثارتها في الجملة تجدها اذا هاجت الى الشدة والدوام فاحساسهم بطىء واضطرابهم شديد وهذا معدل ما يحكم به عليهم . والادراك الجرماني مزيج من الحقيقة والخيال فتجد فيه ميلا شديداً الى الماديات مثل حبه لرخاء العيش واميالا خيالية يكون منها القنوط وجمع الفكر والغناء . ان للطبيعة والمناخ تأثيراً في ادراك الشعوب يدعوهم الى السرور أو الانقباض والالماني متقلب من نفسه يستغرق ساعات في السرور القليل الغلظة وله ساعات من السويداء وكثيراً ما يكون متشائما لا متفائلا وليس في فطرته اجمالا ان الطبيعة صالحة والمرء طيب فيحذر ويراقب ويتهم غيره ونفسه ويرى الجهة السوداء في الاشياء والطبيعة الابليسية في الانسان

الالماني متشبع بفكرة الخطيئة الاصلية وبضعفنا الطبيعي عن بلوغ الخلاص والسلامة وهو على شيء من الخشونة فيه استعداد للرحمة ولا يشعر بحاجة الى الاجتماع كما هو الحال في الافرنسي بل يكتفي بنفسه مختاراً ولا يجد فيه باعثاً جوهرياً على أن يبوح بذات نفسه ويبث عاطفته وله غرام تكنه جوانحه لا على طريقة سكان الجنوب الصفراويين العصبيين بأمزجتهم وهو محصور في بعض أفكار في الحب أو البغض وفي دائرة خاصة من الطمع الشخصي . وعلى الجملة فان الالماني يولع بعمل يعلق عليه بعض الشأن أو بعض المهمات التي تختلف مكانتها أو بعض المبادىء الاخلاقية والفلسفية والدينية والوطنية

الالماني كالافرنسي متحمس ولكن بغير طريقة هذا . الفرنساوي حاد يهيج ويطفح . أما الرأس الجرماني فيحمي ويشتعل في داخله ببطء ولكن بصورة متصلة فهو كنار فحم أرضي قد ينبعث منه دخان أحياناً لا كنار أغصان تلتهب التهاباً شديداً بل كنار تبن . أما الانكليزي فان الاحساس العملي قد نظم ادراكه تنظيما بحيث ترى حماسته في شعره لا في سلوكه . الالماني يكتم حقده فهو حقود منتقم ويظهر ما في نفسه لمن يكرهه فهو يبغض البولوني والروسي واليهودي ويصرح ببغضه لهم اما بغضه لعدوه الموروث أي الفرنساوي فادهى وامر

ذكاء الألماني كاحساسه بطيء فى حركته ثابت مستقر وكثيراً ما يكون متثاقلا عارياً عن المرونة والرقة ولا يهتم للاشكال والفروق بل يبدو متيناً مقاوماً ثابتاً حراً متعلقاً كل التعلق بأهداب الحق . الألماني يعمل فيما اتجهت همته اليه بنشاط ليس وراءه غاية وبحث طويل فليس هو من أرباب البديهة بل ان فكره يدور ويرجع طويلا فى أصعب المسائل . قال كيتى : ان الألمان يحبون أن يبينوا ما عملوا. وقال شيلر : ان الألمان لا يكذب بعضهم بعضاً أصلا فمن العبث أن نقدم اليهم أطعمة جيدة فلكى يتناولوها بشهوة يودون أن يسألوا عن أسمائها . ويظهر انكماش الألماني وبحثه المتصل البارد من ذوقه فى التوسع فى العلم ودرس اللغات . والألماني كما قال روبرتسون تاجر بالجملة والمفرق فيما يختص بالعلم . وقال لايبنز ان الخلق المتأصل فى الألماني هو حب العمل وهى صفة معينة للعلم والفلسفة . ان حب البحث والاختراع والتركيب والبناء خاصة جوهرية فى العقل الجرمانى . وكم من ألماني لو ان المولى مسك بيمينه الحقيقة وبشماله البحث عنها لكان قال كما ذكر ليسنغ . يا رب انى آثرت البحث ومفتاح الحقيقة بيدك وحدك .

ان رأساً منظما كل التنظيم مضافاً الى مزاج رزق كمية صالحة من التأنى تنشأ منه حركة معتدلة فى مجرى الافكار تقوم منها الممثلات الخارجة والافكار المتممة أمام الفكر . فالتفكر فى هذه الحالة يصبح طبيعة ثانية . ولقد اشتدت حياة التفكر فى الالمانى حتى انه ليقتنع بها أحياناً . وليس الالماني ممن يكتفى بالبسائط بل يحب النظر فى القضية ونقيضها فقد كان بسمرك يقسم العالم الى قسمين مختصرين أحباب الامبراطورية الالمانية وأعداؤها . والالماني أيضاً يحب الترتيب الى طبقات ويحب منها ما كان ملتبساً مشتبكا . ويحب أن يصف أفكاره طبقات وعلى نظام بحسب المناسبات المجردة لا المعقولة ليتيسر له بعد ذلك أن ينظم أعماله على حسب مبادئه وهو فى العادة ينظر فى مبدإين أو ثلاثة فتراه لا يحب اختصار ساحة النظر بل يحب أن يرى أموراً كثيرة فى وقت واحد ونظره واسع مضطرب ويرتاح الى المتناقضات والمبهمات وأعماله تشعر بعمله وطول مراجعته الكثيرة للكتب فى الخزائن .

وأهم ما فى الخلق الألمانى الارادة وهى خلق جدير فيه بالاحترام . فان النشاط والدوؤب هما من الصفات الاولى فيه ومنها نشأ الصبر فى احتمال المصاعب الملازمة للنجاح والمواظبة والتنظيم والتعلق بالواجب وكان من ذلك منشأ الشخصية التى عرف بها الجرمانى والمصدر الاكيد لنشاطه الدائم . الالمانى مزيج من قوتين احداها وحشية والثانية بنيت على الفكر والتأمل وفيه الشدة البربرية والتعليم الراقى وفيه حب الشهوات وحب العبادة والتصوف وحب القتال وحب الدين والصلابة المعقولة والشعور العقلى فهو من المولعين بالحقائق وبالخيالات فى آن واحد أو كما قال نيتشه الفيلسوف الالمانى : « ان للروح الالمانية معابر ومجازات وفيها مغاور ومخابئ وخلوات ولها غرام بكل مجهول . الالمانى يعرف الطرق السرية التى تؤدى الى الفضاء والخلاء فكما ان شبيه الشىء منجذب اليه هكذا الالمانى يحب الغيم وكل ما هو قاتم وجديد وفيه إظلام ورطوبة وغشاوة يرى آية فى التحقيق ويتعلق بكل ما لم يبت شىء فى حقيقته وهو فى دور الجنين وعلى أهبة التأليف والنمو . وليس الالمانى موجوداً بنفسه بل يوجد ولذلك كان الايجاد هو العمل الحقيقى فى الالمانى وكماله فى الدائرة الكبرى للافكار الفلسفية .

الالمانى شخصية مفطورة على الطاعة ومن لايحترف حرفة ولا يعرف بلقب من الالقاب لا يعد فيهم شيئاً وفيه بعض جفاء حتى قال بسمرك يوماً اننا معاشر البروسيين لم نرزق قريحة تحببنا الى الخلق . وهم يحترمون كل الاحترام المعنى الداخلى فى الامور وقلما يحفلون بالصور الخارجية وكثيراً ما نرى الالمانى جلفاً فلا يصرف وقته فى الباس ما يقتنع فيه شكلا لطيفاً لانه لا يعلق مكانة مهمة على هذا الشكل وكثيراً ما أهمل الحرية السياسية لانه كان موقناً أن حرية فكره لم تمسس . قال فوليه الذى لخصنا عنه ما تقدم : لايعدم الالماني ملجأ على الدوام وأعنى به شخصيته .

مثال من مزارع المانيا

١١٧

بلغ من انتشار العلم فى المانيا بين عامة الطبقات ان خصت الزراعة بادىء بدء بالعناية الكبرى وهاك ما كتبه هوره الكاتب الفرنساوى فى وصف مزرعة أحد أشراف الفلاحين فى سيليزيا من بلاد بروسيا ومنه تدرك أن أمة بلغ غرامها هذا الحد كيف لا تغنى وتسعد قال ما ملخصه : قد يظن ظان أن أشراف الفلاحين فى المانيا هم دون أشراف المدن بمعارفهم ورقة شمائلهم ولطف مأتاهم والحقيقة أنه لا ينقصهم شيء من ذلك . توفروا على استثمار مزارعهم فكانت زراعة المانيا بهم وبفلاحيها تأتى بمورد لا يقل عن أربعين فى المئة من اللازم لعيش المانيا والباقى تناله من صناعاتها . وثلاثة أرباع سكان المانيا يعيشون فى المدن والثلث فقط يعيش فى الحقول وندر أن يكون الفلاح مالكا ولا سيما فى المانيا الشمالية حيث تكثر الاملاك الواسعة بيد شخص . هذا وثلث سكان فرنسا يعيشون فى المدن التى يربو سكانها على أربعة آلاف نسمة والثلثان الآخران يعيشان فى الحقول لان من الفلاحين أصحاب أراض .

وصلت الى المكان الذى واعدنى اليه ذلك البارون لازور مزرعته فرأيت في المحطة خادماً ينتظرنى وله عربة تساق على خط حديدى فأخذنا نقطع الحقول والمروج حتى وصلنا الى منزله الذي جمع بين لطافة الحديث وجلال القديم وفى وسطه برج قامت حواليه أربعة أبراج وسقف القصر من القرميد ومن كل جهة سرادق ذو طبقتين لها نوافذ تشرف على الحديقة وهى من أجزاء المزرعة والاشجار الضخمة تغطى بأغصانها وظلالها أبراج القصر وفى داخله ثلاث قاعات احداها حوت الظرف الجديد الساذج وهناك غرفة المائدة فرشت بالخشب الابيض ودهاليز وأدراج مزينة بعظام الايائل وحمر الوحش

انتهيت الى مكتب الشريف الريفى فرأيت بجانبه آلته الكاتبة وأوراقه فى أضابيرها وآلاته الهاتفة مربوطة مباشرة مع كل قطعة من ملكه وهناك مقويات فيها السندات والوصولات والمكاتبات والاحصاءات . وفى جانبها خزانة كتبه ومعظمها زراعى يبحث فى عمران الارض وتربية الماشية واختيار السماد وقد طبع لوحات ذات عمد ليقيد فيها الحاصلات ونحواها وصفتها وأساليب زراعة الارض وواراداتها وغلة كل بيعة من الحبوب والحيوانات . فيكفيه أن يفتح سجلا ليعرف بالدرهم ما صرفه على البذار والسماد ونفقات الحرث والحصاد والدرس والتعشيب وثمن حاصلاته والربح الصافى من أرضه .

وهناك ميزان يزن فيه القمح والجاودار وفى جانبه آلة لقطع حبات الشعير والحكم على نوعها وآلة أخرى تشبه الانبيق يتحقق بها اذا كانت الأرض تحتوى القدر اللازم من الكلس وفى فناء الدار آلة للمطر وأخرى للحرارة يراد منهما الوقوف على الجو والمقابلة بين اختلافاته ومعدل نزول الامطار التى سقطت خلال السنة مع الاشارات المشابهة لها فى أنحاء أخرى ليرى فيما اذا كانت هذه الاحداث الجوية متناسبة مع جودة المحصول . وفى جانبها لوحات كتب عليها يوماً فيوماً تبدل الحالات الجوية فى ذاك المكان منذ سنين . واذ كانت المزرعة بعيدة عن المدينة كثيراً أقام البارون صاحبها فى أحد أطرافها معملا لتوليد الغاز لاضاءة قصره بالاسيتلين .

تتألف مزرعته من ٢٠٠٠ هكتار من الارض خاصة بزراعة الحبوب كالحنطة والقرطمان والجاودار والشعير والشوندر و ٨٠٠ هكتار غابات و ٥٠٠ هكتار مروج و ٥٠٠ هكتار بحيرات و ٥٠٠ هكتار بور أى أن مساحتها تربو على أربعة آلاف هكتار من حيث المجموع .

وبعد تناول الطعام والتنزه قليلا فى أحد مماشى الحديقة الوارفة الظلال ركبنا عربة مع صاحب القصر فقال لى وهو باسم : ترى الآن اننا لا يلحقنا عار البطالة فان عملى منوع يشبه عمل وزير الدولة وادارة هذا الملك وحدها تحتاج الى عمل

متواصل فان تقارير المزارع المختلفة ترد عليّ كل أسبوع فمنها مافيه أن كمية كذا من البطاطا قد أرسلت الى معمل النشا ومنها أن كمية كذا من الشوندر تحتوى كذا من السكر ترسل غداً الى المعمل ومنها ان آلة حديثة للزراعة جرت تجربتها فى أرضنا فبعثوا يبلغونى نتيجة تجاربها ويجب على النظر فى حسابات الاستثمار والبحث في كل شيء فأكون تاجراً وزارعاً وصانعاً معاً لانى استخدم بنفسى بعض الغلات كالبطاطا مثلا ومع هذا لا أستطيع أن أتولى كل عمل فلنا مفتشون كفاة لكل فرع من فروع الزراعة تعين الحكومة أو الولاية بعضهم وآخرون تدفع لهم نقابات أصحاب الاملاك رواتبهم وندفع نحن مشاهرات بعضهم . وهكذا نجد غنمى يفتشه موظف عهد اليه تفتيش القطعان فى المملكة كلها وهو الذى يقدم لأصحاب الاملاك التيوس اللازمة للتناسل وتكون مختلفة بحسب جنس الغنم . ولى مفتش لغاباتي عينته غرفة الزراعة فى الولاية وآخر للالبان التى تجمع من عامة اصطبلاتى وحظائرى . وهذا التفتيش نافع للغاية وذلك أن لبن البقرة اذا لم يكن فيه سمن كاف يزاد فى علفها وتراح . ومفتش السقى يبحث عن أقنية السقيا وعن المجارى الكبرى وعما اذا كان الزرع جيداً أو خرجت فيه الاعشاب الرديئة القاتلة له . وهناك مفتش يبحث عن الابقار وتناسلها وآخر عن الخيول المطهمة

وصلنا الى حقول فيها أحجار من المحبب « كرانيت » فقال لى صاحبنا أنه لا يكفي خمش الارض فى الحرث بل ان السكة البخارية تخرج الى سطح الارض كل ما يتخللها من الاحجار التى نجمعها لنبلط بها الاماكن اللازمة أما السماد فانه يغير كل سنة ماعدا البوتاس الذى يبقى سنتين وثلاثاً وانى أنفق فى السنة من ٥٠ الى ٦٠ الف فرنك ثمن السماد الكيماوى والنشادر الذى نستعمله غال أيضاً

وهناك انبسطت أمامنا حقول البقول المنوعة وأرانى صاحبى عن بعد مزرعة صغيرة فقال : هذا نموذج المزارع العادية . مزرعة مساحتها السطحية ١٥٠ هكتاراً من جيد التربة زرعت كلها ولها غابة صغيرة على الرابية وفى المنحدر بيوت بعض الفلاحين وحقول الغلات والبطاطا والشوندر . ويعيش فى جوار هذا المالك كما

يعيش فى جوار معظم كبار المالكين أناس أحرار من صغار الفلاحين يملكون قطعاً صغيرة من الارض يعيشون كما يعيش القطر فى ظل بلوطة ولا من ينغص عليهم عيشهم ومن يملك من عشرة الى عشرين هكتاراً من الارض يشتغل لحسابه الخاص وتعينه أسرته ومن يملك هكتاراً أو اثنين يؤجر نفسه مياومة للسيد المالك العظيم ومن المزارع ما أثقلته الديون بحيث لا يوازى دخلها فائدة ديونها

أما الاشراف فلهم غرام بالارض ومنهم من يستطيعون أن يستثمروا أموالهم فى الصناعة وغيرها بفائدة ٦ أو ٧ فى المئة فيؤثرون أن يستثمروها بأنفسهم فى أملاكهم ولا تأتيهم بأكثر من اثنين ونصف فى المئة فترى الواحد منهم اذا ورث أباه او أخاه يبادر لحضور دروس الزراعة كاحد الطلبة سنتين ثم ينقطع بجملته الى الزراعة والى تربية البهائم ومتى مات الاب يرث البكر من أولاده ملكه . وفى الغالب ان الملك هنا لا يقسم لانه مؤلف من حظائر واهراء ومحطات يستحيل فصل بعضها عن الآخر وعلى البكر أن يقدم لاخوته وأخواته ما يوازى حصتهم نقداً واذا لم يكن عنده نقد يرهن ملكه واذا لم يجد رهنا يضطر الى بيعه ومعظم أرباب الاملاك الواسعة يورثون البكر من أولادهم فيبقى الملك كله له بمعنى ان الوالد اذا لم يكن اقتصد مالا فى حياته يبقى أولاده بدون فلس بعده وربما بقى أكثر الاولاد فقراء لانهم اذا أخذوا نقداً فيكون جزئياً لا يكفيهم ليعيشوا ومن هنا ترى معاهد كثيرة فى ألمانيا أخذت على نفسها اعاشة البنات الشريفات ممن تقدمن فى السن ولم ينلهن من آبائهن ما يستطعن به أن يعشن فلم يلبثن بعد العز والرفاهية أن يعشن عيش القلة والفاقة . وألمانيا الآن فى صدد تغيير هذا النظام الجائر .

رأينا فى طريقنا راعى الغنم وراعية البط والأوز وقال صاحب المزرعة ان جميع اللبن المستخرج من بقراته يبعث به الى المعمل القريب لاستخراج الزبدة والجبن وجميع ما عنده من البهائم يطعمه بمطعوم الامراض التى يخشى أن تصيبها ولا سيما الثيران والخنازير . وأرانى الانبار . ومما قاله ان سعر الحبوب تعينه لجنة

أحدثها الفلاحون وصادقت الحكومة عليها واللجنة تسهر على أن تكون الاسعار التي تذكر في الصحف هي الأرقام الحقيقية وتختار الحكومة لمراقبة السوق أناساً من أرباب الأملاك وآخرين من التجار .

حاذينا حقولاً واسعة مزروعة بطاطا فقال صاحب المزرعة انى أنفق فى الخريف نحو ثلاثة آلاف فرنك علاوة على المقرر فى الأجور لقلع البطاطا من مزارعى وأجرة العامل فرنك فى النهار وغلتى من هذا الصنف خمسة ملايين كيلو وبعد أن آخذ منه بذارى وما يلزم للمزارعين عندي أعمل منه نشا لأن عصارة النشا سماد للأرض ولا أعمل منه الكحولاً لأن عصارته غير نافعة وقد كثرت عليه الرسوم. وغلتى ٧٠٠ ألف كيلو من الجاودار و ٣٠٠ ألف كيلو من الحنطة والشوفان والشعير. أما الشوندر فأنا مرتبط مع نقابة زراع الشوندر وأنا من أعضائها ولها معمل سكر من أكبر المعامل فى ألمانيا فنبعث لها به بعد أن يحلل المعمل نموذجات منه يرسل لنا بكشف يبين لنا درجات السكر المستخرج من كل صنف من أصنافه وفيما اذا كنا قصرنا في تسميده وتربيته لنكون من قابل على بصيرة .

وبالقرب من معمل النشا قامت بيوت جديدة للعملة بنيت من الآجر وكل بيت فيه مخدعان أرضيان وعقد (قبو) للبن والبقول وغرفة فى الطبقة الأولى وأنبار عام لعدة من الاسر يضع فيه كل واحد فى ناحية معينة غسيله وفى مقابل هذا الحى اصطبل للخنازير والماعز

وعدد من يعملون فى هذه المزرعة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ شخص يدخلون فى ١٢٥ أسرة وفى أيام الحصاد يستجلب كثير من العملة زيادة على الموجود ويدفع لكل مزارع مئة مارك (١٢٥ فرنكا) فى السنة نقداً يتناولها على أربعة أقساط ويجب أن يكون الرجل متزوجاً والمرأة تعين زوجها فى الصيف أيام الحصاد وفي الخريف فى استخراج البطاطا وفى الشتاء فى درس القمح واذا لم يكن للعامل زوجة يجب أن يكون له ولد فى سن صالحة ليعمل ومتى عملت المرأة يدفع لها فى اليوم ٧٥ سنتيما فى الشتاء وفرنك وربع فى الصيف لان النهار يكون أطول . والعامل يأخذ

فى السنة ١٢٥٠ كيلو من الحبوب المختلفة كالشعير والحنطة والجاودار و ٣٠٠٠ كيلو من البطاطا وحطباً وفحما يساوى ٦٠ ماركا ولكل واحد ١٢٥٠ مترا مربعاً من الارض يزرع فيها بقولا من مثل الملفوف والشوندر وعلف بهائمه وتكون في العادة عنزة وبقرة وأحياناً يقوم صاحب الارض بتغذية عنزتين وبقرة لكل مزارع عنده أو يعطيه لبناً يوازى ماتخرجه له بقرتان وعنزة ويعلف كل عامل فى زريبته خنزيرين يبيع فى العادة الواحد ويملح الثانى يستعمله فى طعامه . وله الحق أن يربي دجاجاً يجمله فى محله واذا مرض المزارع أو العامل تدفع عنه أجرة الطبيب وثمن الدواء واذامات أو أحد أسرته يصنع له نجار المزرعة تابوته وخشبه من صاحب المزرعة ولا تدفع أسرته الا أجرة القس . والمزارعون ممتنون من عيشهم لان ما يأخذونه من الغلات يكفيهم ولهم غرام بأكل البطاطا والدهن وقلما يتناولون اللحم لان العملة البولونيين وأكثر المزارعين منهم لا يتناولون اللحم واذا استأجرناهم خصوصاً بعد عودتهم من الخدمة العسكرية يتطلبون اللحم اذ يكونون قد اعتادوا تناوله فى الجيش . واذا شاخ المزارع يستبقيه سيده ويطعمه ويؤويه فيدفع السيد عن كل عامل يستخدمه ١٠ دوانق (بننغ) فى الاسبوع وهو يدفع مثلها لصندوق المتقاعدين أى ٥ ماركات فى السنة وفى آخر السنة يحول هذا المبلغ لاسمه فى صندوق التوفير .

وعلى صاحب المزرعة أن يدفع ضريبة على ريع أملاكه وضريبة لمقاطعته وضريبة لمديريته ورسماً للمدارس وآخر للكنائس يدفع ثلثها السكان وثلثيها صاحب المزرعة وهو عرضة على الدوام للتفتيش والانتقاد يوجهه اليه مفتشو العمل وحذراً من وقوع حوادث فى المعمل والمزارع والحقول يجب علينا أن نضع السلالم على الجدران وأن نجعل درجاتها معققة وعربات العلف تكون مقطورة على صورة كذا ولا نجد فى ذلك غضاضة علينا لاننا نرى فى هذه العناية مبدأ حسناً . والقانون قانون تجب الطاعة له

ووصف الكاتب مزرعة بجانب مزرعة مضيفه ابتاعها منذ اثنتى عشرة سنة

وضمها الى مزرعته الاولى وجعلها لصيد الدراج وغيره . وهو يأخذ دخلا وافراً من اسماك بحيراته قال : ولقد أخذت اعلم بعد أن رأيت ما رأيت فى مزرعة هذا الشريف أن الزراعة الالمانية ليست من عمل الفلاح أو الشريف العطل بل من أعمال مثل هذا الرجل المولع بالترقى والمتوفر على تربية الماشية والنظر في الهندسة الزراعية والاحداث الجوية وطبقات الارض والعامل والمربى للصيد والاسماك والصياد والتاجر الخبير وعلمت حب البروسي لارضه وما يبذله من الجهاد العجيب الذى جعل من رمال بومرانيا وبطائح براندبورج غابات مدهشة وحقولا خصيبة وقدرت قدر الذكاء فى اختيار الاساليب النافعة والشعور بالرقي والذوق فى الابداع وفكر التضامن والجهاد الممزوج بالصبر الطويل الذي أكره الطبيعة الشحيحة فى تلك الارض على أن تعطي بعض المواد التى يكنها صدرها وكل شيء يحسن الانتفاع به فالارض غير الصالحة للزراعة تجعل فيها غابات والبحيرات تطم وتردم أو توسع وتحفر بحسب اللزوم وكل سنة يجدد صاحب المزرعة مئات الالوف من الاشجار المثمرة وغيرها ومنها ما ينتفع منه ابنه وكل يوم يعمل عملا جديداً ويبتدع أو يفكر فى طريقة يتفنن بها للانتفاع أكثر من أرضه .

قال العالم الفرنساوى وقد دامت زيارتى أرض الشريف الالمانى ست ساعات فى المركبة ولم نر كثيراً من أنحائها واثنى على حسن وفادة الالمان لضيوفهم وقال ان أقراء الضيف عندهم لامثيل له فى أوربا اللهم الا روسيا . ولا عجب فى عمل الالمانى فقد خلق وفطرته تقول له لاتقف يريد المزيد دائما . وهو يملّ من البطالة بعد قضاء بضعة أسابيع فى الراحة . أما الافرنسى فيريد أن يستمتع بالحياة بأسرع ما يمكن ويبذل لذلك جهده والانكليزى ينتظر ارثه بأن يعمل قليلا مكثراً من الالعاب الجسمية والرياضات البدنية والامريكي يود لو ينال أكثر من جاره أما الاسبانيولى فهو أشبه بالشرقي يحلم بكأس من الشكولاتا يكرعها وبلفافة من التبغ يدخنها فى كل أيام حياته

هذا ما تلقفناه من كتاب برلين وقد طبع قبيل الحرب العامة وما ندرى اذا

كانت الحرب قد زادت فى هم المزارعين من تلك الامة بعد أن اشتدت ضائقتها على مواد الغذاء يوم حصرت من جهاتها الثلاث وتعذر ارسال الغلات اليها الا من سهول المجر المشهورة بحبوبها وكانت قلة التغذية عندها من جملة الدواعى فى إلقاء السلاح وطلب الصلح من الحلفاء

الصحة فى المانيا

١١٨

الاهتمام بالنظافة ظاهر الاثر فى كل مكان من بلاد ألمانيا والحشمة وجمال الهندام العام هما جماع الشعور اللطيف الذى يحس به الغريب في مدنها . واذ كان هذا النظام عاماً فى جميع الأعمال والادارات والدور الخاصة نشأ منه شعور بالرفاهية وحسن اللقاء وجمال الذوق . تتنزه فى الشوارع اللطيفة التى تزين وتطهر كل يوم بين أناس يكتسون أجمل الثياب ولا ترى عليهم الا أمارات السعة حتى فى احياء العملة وأنت على ثقة اذا ركبت الترام والقطار من ان أحداً لا يبصق وتركب فى الدرجة الثانية والثالثة وأنت على يقين من البعد عن القذارة فى المركبات أو الاختلاط المضر بالركاب وقد اتخذت جميع أسباب الحيطة حتى لا يقع ما يكدر وقد عينت حقوق كل فرد وواجباته تعييناً صريحاً فاذا حدث اشكال يقتص لذلك النظام العادل

هذه الحالة فى النظافة العامة على كثرة حسناتها للفكر والاعصاب قد نشأت من انتباه الحكام ومن خضوع المحكوم عليهم للاوامر فلك بعد هذا أن تعلق صحيفة على حدود ألمانيا تكتب عليها : « هنا تطبق مفاصل القانون » . ومن أجل هذا أتى تفوق الالمان على غيرهم فى هذا المعنى تفوقاً لا ينازعهم فيه منازع فى أمور الصحة العامة وتطبيق القوانين لان للبلاد المتمدنة قوانين واحدة تقريباً

والاختلاف فى التطبيق فقط وهذا سببه خضوع الافراد وبفضل معاونة الامة للحكومة فى ألمانيا معاونة فائقة سريعة تقدم علم الصحة تقدماً لم يعهد فى بلد كما هو فيها . كان مونتسكيو يقول اذا دخلت بلداً لا أسأل عما فيه من الشرائع بل أسأل عما طبق منها .

وبعد فيقال على الجملة ان ليس في المدن الكبرى فى ألمانيا غبار أصلا والرش متواصل فى كل ساعة لا يقف الا ليترك المجال للكنس وكما ان ليس ثمت غبار فليس هناك وحل . ومتى أمطرت السماء تنصرف مياهها الى المجارى ويمسحها المساحون بآلات من المطاط وفى برلين وجميع المدن تجد أناساً فى الشوارع واقفين لالتقاط السرقين والقمامات . والسيارات الرشاشة ترش أربعين كيلومتراً فى الساعة من الطرق الواسعة وبدورة خفيفة ترش ساحة كبرى مهما عظمت دع الترامو ايات الرشاشة التى ترش الشوارع الرئيسة والطرق المعبدة لتسهل تنظيفها وكسحها ان كان ثمت قمامات أو ورق . ومن غفل من المارة وهو نادر جداً وألقى ورقة ولو صغيرة على الارض يجد من يرده الى الصواب وينبهه الى التقاط ورقته ولو كانت ورقة الترام ووضعها فى الصندوق الخاص بها . وفى الخريف يكنس الكناسون بمكانس ميكانيكية ما يتساقط من أوراق الاشجار فى الشوارع والحدائق والمتنزهات والاماكن العامة ويعهد بتنظيف الارصفة فى العادة الى أصحاب الاملاك فلا يخالف القانون منهم أحد وصاحب الملك مسؤول عنك اذا مررت برصيفه وتزحلقت بقشرة برتقالة أو وقعت فاندقت عنقك وتمادياً من الوقوع فى مثل هذا الخطأ يعهد صاحب الملك بتنظيف الرصيف أمامه الى شركة تتقاضاه فى الشهر ثلاثة ماركات ويضمن نفسه من كل ما يصيب انساناً أمام محله من المضار

لتسهيل النظافة العامة تتفنن البلديات فى استجادة طرق جمع القمامات ووضع لوائح منوعة دقيقة وابتداع أدوات عملية لكسح القمامات على أيسر وجه . ومن أدهش الطرق التى عمدت الى اتخاذها بلدية شارلوتنبرغ من احياء برلين انها اضطرت كل مالك أن يكون لديه على الدوام ثلاثة صناديق عالية يضع المستأجرون

فى الاول الرماد والغبار وفى الثاني الورق والعلب والمقوّى وفى الثالث جميع فضلات المطبخ من بقايا اللحم والعظام والبقول والخبز وذلك لان هذه البلدية رأت ذات يوم ان من الجنون أن تترك لادارة القمامات مثل هذه الفضلات التى يتيسر الانتفاع بها فابتاعت خنازير وهى تغذى الآن ألوفاً منها بما يفيض من السكان من هذه الفضلات والبلدية تتولى رفع هذه القمامات على حساب المستأجرين بأجرة زهيدة بواسطة عربات تطرح من صناديقها ولا يحدث منها غبار ولا غيره أما القمامات فانهم يجرون عليها تجارب ليفصلوا البوتاس عن حامض الفوسفور والنشادر لتباع من المزارعين سماداً كيماوياً .

وان مدينة برلين لتنفق مالاً طائلا على كنس المدينة ويتولى الامر عشرون ألف كناس وجنائنى ويقبض الواحد ثلاثة ماركات ونصف مارك في اليوم (وهذا قبل الحرب) وتزيد مياومته ربع مارك كل ثلاث سنين وان مدينة متوسطة الشأن مثل ميانس التى يبلغ سكانها مئة ألف نسمة لتصرف كل سنة ٧٠٠ ألف فرنك على تنظيف الشوارع . وهكذا تجد كل ادارة عامة من مثل السكك الحديدية والفنادق تنفق مبالغ على تنظيف زجاجها ومقاعدها وأثاثها ورياشها والبلديات تهتم بصحة السكان حتى انها كثيراً ما تقضى بالهدم على بناء قديم مراعاة للصحة وتنسى مكانته التاريخية أو تتناساها . وكل دار يراد بناؤها في بروسيا يقدم مصوّرها الى الشرطة أولا والناس يشكون والمهندسون يتذمرون من شدة هذه المطالب

ولذلك ترى صاحب الملك اذا أراد بناء شيء أن يرسل مصوره قبل سنة من الشروع فى بنائه واذا صادف أن المصور المقدم ليس فيها لغرفة الخادم القدر اللازم من الهواء لا يرخص ببناء البيت فيجب ان يكون لكل طبقة علو متوسط وأن يكون لصحن الدار مساحة تحسب على قدر علو الأبنية تضمن دخول الهواء ونفوذ النور وبعض الأراضى تبقى بلا بيع لانها ليست من الفساحة ليبنى بها بحسب قانون الشرطة والشرطة تتصعب اليوم بالسكنى فى الطابق السفلى تحت سطح

الأرض وكان ذلك مألوفا من قبل واذا سمح به فلا يكون الا اذا ثبت أن هناك كمية من الهواء وللسقف بعض العلو وبعض النوافذ . وتقضى أوامر البلديات أن تكون ميضآت المعامل طاهرة كافية واذا لم تكن كذلك تجبر الحكومة صاحب المعمل أن تكون كلها مستوفاة من كل وجه .

لاحظ الناظرون أن المرء كلما تقدم نحو الشمال يجد الاهتمام بالنظافة بالغاحده وأن شعوب الجنوب قذرة وأن للفلامنديين ولوعا بالغسل والمسح يكاد يكون كالمرض المستحكم ، ومع هذا فقد قضت الحال فى ألمانيا أن تستعمل الشدة فى القانون لتطبيق قواعد الصحة واذا كان استعمال الحمامات آخذا بالانتشار سنة عن سنة فذلك بفضل ما تبذله جمعية أخذت على نفسها الدعوة الى النظافةوهذه الجمعية برئاسة طبيب مشهور فى برلين وله تأثير فى جميع المانيا فتدعو جمعيته الى عقد المؤتمرات وتنشر المنشورات وتبث دعاتها تحمل من مدينة الى أخرى دعوتها وتعطى المديريات ما يلزمها لانارة العقول مجانا وتمد اليها يد المعاونة بلا مقابل ويشترك فى هذه الجمعية وزراء وأمراء وعلماء ، ويهتم بها كبار الحكام اهتماما زائداً وهى عبارة عن ١٤٠٠ عضو يدفعون تقاسيط ، وقد نجحت هذه الجمعية بأن قضت على جميع المدن الالمانية تقريباً أن تجعل لها حمامات بلدية وكثير من القرى لا تحرم من هذه الحمامات وقد أخذت الجمعية تصرف اهتمامها الى القرى

ولا تنشأ مدرسة بدون قاعات للاستحمام وقد لاحظ الاطباء انه منذ أخذ الطلبة بالاستحمام أصبح آباؤهم أكثر نظافة من قبل وأنشأوا يختلفون الى الحمامات عن رضى وشعار هذه الجمعية : « حمام فى الاسبوع لكل ألمانى » وبفضل هذا العمل الذى أسس منذ بضع سنين أنشأ كل جندى وكل نوتى يستحم مرة فى الاسبوع . وانك لترى شركات السكك الحديدية وادارات المعامل وجميع أرباب المشاريع الضخمة تبادر الى تسهيل أمر الاستحمام على العملة كل أسبوع وتعطى أنواطاً من الفضة الى كل مجموع أوفرد يستحقون المكافأة مقابل تنظفهم وقد جروا على مثل هذه الطريقة فى الولايات المتحدة وفى اسوج فأخذت الحركة نحو النظافة فى ازدياد .

وكثير من مدن ألمانيا تحتوى اليوم على محال لاستحمام الغوغاء أحدثتها البلديات وجعلت فيها أحواضاً من المـاء الجارى ومنها ما يتغير مرتين فى اليوم ومقاصير للاغتسال بالماء الحار أو البارد ومستحمات وغير ذلك .

وأماكن الاستحمام فى برلين وهمبورغ وهانوفر ومونيخ قصور حقيقية . ومن المدن الصغرى مثل غوتنغن وسكانها ٣٥ ألفاً ماله حمامات أكثر استعدادا وحسناً من حمامات العواصم ويكلف الانغماس فى ماء الأحواض عشرة بنن (أى جزءا من عشرة أجزاء من المارك) وهى أبداً فى حالة معجبة من النظافة ويبدو ماؤها الاخضر الازرق صافياً كمياه البحيرات ويقضى على من يسبحون فيه أن يعركوا أبدانهم كلها بالصابون وأن يرسلوا الماء عليها قبل نزولهم اليها والمقاصير نظيفة صحية مزينة بالستور الوردية وهناك معلمون يلقنون من يريد دروسا في السباحة ويختلف عمق الحوض فى العادة من ٧٥ سنتيمترا الى ٣ أمتار و ٢٥ سنتيمترا مما يتيسر معه الانغماس في المـاء كما يريد السابح وطول الحوض من ٤٠ الى ٦٠ مترا .

وتكون الحمامات الحارة فى مقاصير من القيشانى لها مستحمات جميلة مستحدثة والحمام يكلف ٦٠ بنن فى الدرجة الاولى و ٢٥ فى الثانية ويتولى شؤون الحمام أناس لهم مهارة فى أيديهم ورشاقة فى حركتهم ؛ ولا يجد الداخل في الدهاليز والادراج المصنوعة من الحجر والمرمر ذرة من الغبار ، وان حماماً واحدا فى برلين ليستحم فيه فى اليوم ثلاثة آلاف انسان دع المضخات (الدوش) ويبلغ فيها عدد المستحمين ليلة بعض الاعياد الكبرى سبعة آلاف وبعض الحمامات يستحم فيها كل السنة مليون شخص ويتناول أولاد المدارس فى برلين والمدن الصغرى بطاقات مجانية أو ذات أسعار طفيفة تخولهم دخول الحمامات .

وقد أوصى المسيو موللر فى مونيخ بمليونى فرنك لانشاء مكان للاستحمام العام فأضافت البلدية الى ذلك ٥٠٠٠٠٠ فرنك فتم العمل وقام البناء على شاطئ الايزير فى آخر ممشى فيه أشجار ضخمة فاذا دخلت الى هذا الحمام صرت الى مكان

فرش بالرخام وبنى بالقيشانى اللامع وفيه وفى أحواضه من التأنق واللطف شيء كثير كما أن فيه من الطهارة والنظافة ما تقر به عيون المستحمين . وأقامت بلدية مونيخ حماماً مجانياً فى الصيف استقت ماءه من الايزر وهو يتغير مرتين فى اليوم ومنها حمامات شمسية مجانية .

***

نظافة الطعام كنظافة الاجسام معتنى بها كل العناية في بلاد المانيا فلها ادارة اسمها ادارة صحة المأكل تراقب اللحوم وتفحصها بالمجهر فاذا وجدتها مريضة أو مضرة تغرم بائعها وذابحها وكذلك السكر فانك اذا أخذت قطعة منه واشتبهت فى كونها من الجنس العاطل تأخذها الى معمل مكتب الصحة وفى الحال يحللها ويحكم على بائعها بالعقوبات الشديدة . ولا يشرب أحد فى برلين الا من الآبار الارتوازية التى قد ننفق على الواحد منها ثمانية ملايين فرنك . ولا تسل عن مراقبة الصحة للالبان فكل يوم ينبث كثير من المفتشين يستوقفون مركبات الحليب فى الشوارع ويوزن فاذا رأوه مطابقاً لما قضت به الصحة فيها والا فيكفتونه فى الشارع ويعاقبون حامله بأشد العقوبة ولذلك ترى الغش قليلا جداً فى هذه الاصناف . وفى برلين معامل كثيرة للألبان منها معمل كبير يصله كل يوم من الضواحى على بعد مئة كيلو متر ١٤٠ ألف لتر من اللبن فيعقمه في معمل كبير فيه ألفا عامل وكل هذا اللبن يوزع على المنازل فى ٢٥٠ مركبة .

لم تكتف الحكومة والمجالس البلدية في المانيا بتحسين أسباب الصحة العامة والسهر على نظافة المساكن وجودة المواد الغذائية بل تراها تحمى الصحة العامة بواسطة ادارات المراقبة الطبية التى تعمل على الدوام بكل ما فيها من قوة بفضل ذمة الموظفين الذين عهد اليهم التوفر على العمل فاذا حدثت مثلا اصابة بالجدرى أو الخناق أو التيفوئيد أو الطاعون أو الكوليرا لاتلبث أن يبلغ أمرها مكتب الصحة فنى الحال يعطي الامر بالتطهير ويخف الطبيب الرسمى الى الدار الملوثة يتولى جميع أساليب التطهير فى أسرع من لمح البصر . وفى المدارس ادارة البحث

الطبي تعمل على الدوام فتفحص جميع الاولاد في كل وقت واذا لاحظت أقل مرض أو انحراف طرأ على ولد تعزله عن رفاقه وتطبه في الحال والذين تأصل فيهم المرض تبعث بهم الى البحر في الغابات أو الى المصاح . وقد انشأت جمعية الصليب الاحمر ستين مصحاً من مثل هذه وتساعد عدة جمعيات في الانفاق عليها ويمدها كثير من المدن بالمال .

والعناية بالغة في الحذر من مرض السل فتراقب المدارس جدّ المراقبة بواسطة أطباء مفتشين لهم اختصاص بهذا المرض مشهود لهم به وهم في خدمة هذا الديوان لا يسوغ لهم أن يطبوا أحداً غير أبناء المدارس يبحثون في صحة التلامذة بصورة منتظمة ويعطى كل تلميذ ورقة كل مدة تنبئ بانه سالم من هذا المرض حتى يبلغ سن الرشد ويدخل في الخدمة العسكرية وهكذا يقضي التلميذ مدة دراسته وهو يتقلب بين أيدي الاطباء يبحثون في صدره وقامته ووزنه وغدده وأسرته وما كان فيها من الامراض الى غير ذلك مما يقضي التنبه له بالقضاء على المرض من أساسه .

ويعزل المصابون بالسل وفقر الدم والخنازير وعلة القلب والصرع والهستريا كل واحد عن الآخر ويعلم في مدرسة الهواء الطلق وسط غابة في ضاحية برلين وهذه المدرسة تفتح أبوابها في نيسان وتغلقها في كانون الثاني وهي على غاية من السذاجة في بنائها ومرافقها ويكثر في ارجائها النور والهواء ولهم نوافذ متحركة ذات مقاعد من خشب جعلت بقدر قدّ الولد . والمدرسة عبارة عن أكواخ منظمة يريدون منها أن يعيش الطفل في سذاجة ويرجع الى الفطرة الاولى في حالته ويعتنون في المدرسة بتنظيف الجسم من وراء الغاية وفي هذه المدرسة يدخل الذكور والاناث على حد سواء

في المانيا ٢٥ مجمعاً علمياً لصنع مطعوم الجدري ولذلك لا يموت أحد فيها بهذا المرض ولها مجامع علمية تنظر في ارتقاء الدروس العلمية وانتشار علم الصحة دع مجامع كوخ ومجامع الصحة في المملكة التي تبحث بمن فيها من العلماء في الابحاث

البكتريولوجية المنوعة مثل فحص الشاى والقهوة ومنافعها ومضارها ومثل البحث فى المرض الزهرى الذى كانت الحكومة السبب فى اكتشاف دوائه ومنها جمعيات تبحث فى مياه الأنهار التى تلوثها المعامل

والمستشفيات فى برلين من أنظف ما رأى الراؤون وأكثرها استعداداً خذ لذلك مستشفى فيركوف العالم الكبير فانه بدئ بانشائه سنة ١٨٩٩ ونجز فى سبع سنين وكلف ٢٥ مليون فرنك على أرض مساحتها السطحية ٢٧ هكتاراً وهو على طريقة جعلت سرادق سرادق ففيه ٦٢ بناية ويسع الفى مريض وحجمه كحجم مستشفى همبورغ وهما أعظم مستشفيات المانيا وفيه ٩٥ طبيباً و٣٧٥ ممرضة وممرضاً وعدد الخدمة ٣١٢ وفيه جميع أنواع الراحة وفيه تتولد القوى الكهربائية للانارة والدفء وغير ذلك

تاريخ المشرقيات فى المانيا[1]

١١٩

كان نهوض الدروس العربية فى المانيا خلال القرن التاسع عشر وان كانت اللغة العربية قد درست فى المدارس الالمانية فى القرون السابقة ولكن تدريسها لم يكن على أسلوبنا هذا بل كانت الغاية منه تفسير الكتب العبرانية . وكان بعض المدرسين من الالمان فى القرن الثامن عشر قد ابتدأ ابتداء حسناً فى العلوم العربية ومن مشهوريهم يوحنا يعقوب ريسكه المتوفى سنة ١٧٩٧ فى ليبسيك الذي نشر تاريخ أبى الفداء ونقله الى اللاتينية وغير ذلك من الكتب العربية ومنهم أولاف غوستاف تيكسن المدرس في الجامعة الروستوقية ومؤلف كتاب جليل في النقود العربية . ولم يشتهر الالمان في هذا العهد كبير اشتهار

---

(١) كتب لنا هذا الفصل بالعربية صديقنا العلامة الاستاذ بروكلمان صاحب تاريخ آداب اللغة العربية المشهور فله منا الشكر الجزيل

في أمور الشرق غير أن النمساويين كانوا فى تجارات وصلات سياسية مع الدولة السنية العثمانية وعلى هذا نهضت فى فينا الدروس التركية التى جددها العلامة فون هامر المتوفى سنة ١٨٥٦ وكان هو أيضاً محباً للآداب العربية ونشر كتاباً جسيما فى تاريخها لكنه لم يبلغ الغاية فيه لنقص تعمقه فى أسرار العربية .

كان فى ابتداء القرن التاسع عشر العلامة المشهور سلفستري دي ساسي يدرس العلوم العربية فى المدرسة الشرقية فى باريز وهو مجدد الدروس العربية فى أوربا خصوصاً على الصرف والنحو فقصد باريز بعض الطلبة الالمان ليأخذوا عنه العربية منهم مالينوخ لبرخت فليسز (١٨٠١ – ١٨٨٨) ومالينوخ ايفلد (١٨٠٣ — ١٨٧٥) فكانا هما مؤسسى الدروس العربية الجديدة فى المانيا فقد أصبح الاول مدرساً للغات الشرقية في مدينة ليبسيك والثانى شغل مثل هذه المهمة فى غوطنغن . حرر ايفلد الكتب الجليلة فى الصرف والنحو والعروض العربي ونشر فليشر الكتب العربية مصححة غاية التصحيح منها تفسير القرآن للبيضاوى . ونقد أيضاً العلوم العربية خصوصاً كتاب النحو لشيخه دي ساسى نقداً مفيداً وألف فيه كثيراً من الرسائل الجليلة ثم أسس الجمعية الشرقية الالمانية التى نشرت مجلتها المشهورة وكثيراً من الكتب العربية المشهورة لاسيما كتاب الكامل للمبرد لمصححه ريت الانكليزى ومعجم البلدان لياقوت تصحيح وستنفيلد وشرح المفصل لابن يعيش تصحيح يان وكتاب الآثار الباقية للبيروني تصحيح سخاو

قصد طلبة الالسنة الشرقية مدينتي غوطنغن وليبسيك فكان من مشاهير تلامذة ايفلد تيودروس فولدكه المولود سنة ١٨٣٦ الذى كان مدرساً فى مدينة ستراسبورغ منذ سنة ١٨٧١ الى أن فتحها الفرنساوية سنة ١٩١٨. فالف فولدكه تاريخ القرآن الذى جدده فى الطبع الثانى فريدريك شوالى وصحح دواوين بعض شعراء الجاهلية وترجم من تاريخ الطبرى الجزء المتعلق بالدولة الساسانية وحرر غير ذلك من الكتب الجليلة في اللغات السامية خصوصاً السريانية . ومن

تلامذة فولدكه ادوارد سخاو مؤسس المدرسة الشرقية فى مدينة برلين وبروكلمان مؤرخ الآداب العربية وناشر كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة خليفة سخاو فى المدرسة البرلينية وغيرهما من المستشرقين المشهورين فى المانيا وغيرها .

ومن أشهر تلامذة ايفلد يوليوس ولهوسن (١٨٤٤ — ١٩١٨) خليفته الثانى فى مدرسة غوطنغن وله من الكتب المشهورة تاريخ اليهود وتاريخ الدولة الاموية وكتاب جليل فى دين العرب فى الجاهلية وطبع الجزء الثاني من ديوان هذيل الذى كان نشر الجزء الاول منه كوسغرتن المتوفى سنة (١٨٨٠) فكانت همة تلامذة ايفلد وهمة تلامذة تلاميذه فى نقد تاريخ العرب ودينها وآدابها لكن فليشر وتلامذته كانوا متخصصين أكثر منهم فى النحو العربى ونقد اللغة ومن مشاهير تلامذة فليشر العلامة توربكة (١٨٣٧ — ١٨٩٠) الذى نشر كتاب درة الغواص للحريرى والقسم الاول من المفضليات . ومنهم أوغست مولر (١٨٢٨ — ١٨٩٥) مؤرخ الدول الاسلامية وغيرهم كثير من المستشرقين المشهورين

ومن تلامذة دى ساسى فى المانيا ماعدا ايفلد وفليشر كثير منهم غوستاف فلوغل (١٨٠٣ — ١٨٧٠) الذى نشر كتاب كشف الظنون لحاجى خليفة وكتاب الفهرست لابن النديم وألف رسائل كثيرة في تاريخ الآداب العربية وويلهلم آلورد (١٨٣٨ — ١٩٠٢) الذى صحح دواوين الشعراء الستة والاصمعيات ودواوين الرجاز العجاج ورؤبة والزفيان وصنف فهرست المخطوطات العربية فى دار الكتب البرلينية فى عشرة أجزاء جسيمة فانتشرت العلوم العربية فى جميع المدارس الالمانية ونهضت نهضة جليلة فنشر منذ ١٢ سنة غير مجلة الجمعية المشرقية الالمانية المجلة الخصوصية فى تاريخ الاسلام التى أنشأها كارل ماينوخ بكر المولود سنة ١٨٧٦ وهو الآن من النظار فى وزارة المعارف فى برلين

الممالك الجديدة

١٢٠

قالوا ان القومية هى أن يقوم أهل عناصر من أصل واحد لهم تقاليد ولغة مشتركة فيؤلفون مملكة واحدة سياسية . وهذا المبدأ قد قلب العالم الاوربي رأساً على عقب مدة تربو على ألف سنة فتحاربت شعوبها كلها حتى تؤسس ممالك كبيرة من القوميات الصغيرة . أما السادة الجدد فى العالم فينزعون اليوم الى غاية تخالف تلك وهى أن يحرروا الممالك الصغيرة من سلطة الممالك الكبيرة التى خضعت لسلطانها . يريدون اليوم أن ينفضوا أيديهم من سلطان الغريب ليحكموا أنفسهم بأنفسهم

وحدث ان الشعوب المحكوم عليها اذا كانت مؤلفة من عناصر مختلفة أن يضطهد القوى منها الضعيف . وحوادث كثيرة تبين درجات هذا الاضطهاد فقد رأينا آخر امبراطرة النمسا لما عفا عن المجرمين السياسيين يوم جلوسه خرج من المطابق ثمانية عشر ألف سجين اعتقلهم الحكام الذين كانوا من العنصر السائد

ليس فى أوربا عنصر خالص من الدخلاء بل فيها مجموعة عناصر تكونت بالهجرة أو بالمحيط الواحد أو بالمصلحة المشتركة أو بالدين المتحد فتمازجت مع الزمن وألفت عنصراً بعينه . وأكثر هذه العناصر اختلاطاً العنصر الانكليزى الذى تألف من أجناس وأجيال مختلفة وكاذ هو ولغته المفتحة الصدر لكل جديد أول الشعوب الاوربية التى ألفت أمة منظمة تعرف نفسها [1] وقد ساعد الانكليز على ذلك أمران موقعهم الجغرافى والنظام الشديد الذى أخضعهم اليه

(١) فلسفة العهد الحديث الدكتور غوستاف لوبون Gustave Le Bon : Psychologie des temps modernes والقومية ونقيضها لرامساي موير Ramsay Muir : Nationalisme et nilernationalisme والمقابلة بين القوميات لارنولد فان كنيب Arnold van Genneb : Graite comparatif des nationalites

الفاتحون الاجانب من أهل الدول المنظمة من القرن الحادى عشر الى القرن الثانى عشر . ثم جاءت فرنسا وكونت قوميتها

بيد ان مبدأ القوميات لم يقل أحد الساسة به الا بعـد الثورة الافرنسية الكبرى أواخر المئة الثانية عشرة للميلاد وفكرة القومية حديثة والجملة والفضل للفرنسيس فى أول من دعا اليها ثم لمازينى (١٨٧٢) الايطالى أول عامل فى الدعوة الى الوحدة الايطالية وسرت دعوته الى الأمم المشتتة والقوميات المبعثرة فاستفادوا منها ثم للحركات القومية التى لفتت أنظار أوربا من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٧٠

فلا بدع اذا قلنا ان الانكليز والايكوسيين والفرنسيس كانوا فى مقدمة شعوب أوربا بل العالم الذين تشبعوا بروح القومية وانتهوا بتنظيم ممالك وتوطيد أركان جامعات وكلهم من عناصر مختلفة وأجيال من الناس كثيرة . ثم تألفت اسبانيا والبورتقال وهما أيضاً من عناصر متباينة جداً وقد أخذا درساً فى قوميتهما من حربهما الطويلة مع العرب وفهما معنى الوحدة بزعامة رؤساء مستبدين ملؤوا صدورهم كبرياء حتى حملوهم على أن يفتحوا الفتوح فى الخارج

لا جرم ان العوامل فى تأليف القوميات كثيرة منهـا الوحدة الجغرافيـة ووحدة العنصر واللغة والدين والاشتراك فى المصالح الاقتصادية وكل أمة تتحد لا بد لها من أحد هذه العناصر لقيام أمرها وليس وجود أحد منها بعينه ضربة لازب . وقد تألفت فى القرن المـاضى سبع دول ثنتان منها كبيرتان وهما ألمـانيا وايطاليا فنادى كل منهما بوحدته وقد قامت الاولى بصنع أهلها أنفسهم وقامت الثانية بمعاونة دعاة القومية فى الامم وبهمة رجالها أما الدول الخمس الصغيرة فهي اليونان وبلجيكا وصربيا ورومانيا وباغاريا

ولنا أن نقسم تاريخ أوربا السياسى الى دورين . عمر الدور الأول ألف سنة تألفت خلالهـا الممالك الـكبيرة من القوميات الضعيفة والثاني وهو حديث تداعت فيه أركان الممالك التى أسست ببطء كروسيا والنمسا والعثمانية وانقسمت الى ممالك وتجزأت أجزاء من القوميات ولقد كان اندماج الممالك الصغيرة فى ممـالك قوية

على ما يظهر من النواميس الثابتة فى التاريخ فان فرنسا وانكلترا وألمانيا وايطاليا التى كانت فيما مضى مؤلفة من ولايات منفصلة هى نموذج من هذا التمازج ولم يكن عاما على اطلاقه اذ وجدنا قرب تلك الممالك الكبيرة ممالك صغيرة كهولاندا واسوج والدانيمرك وسويسرا قد نجحت بالاحتفاظ باستقلالها ، وتزعم انها ستحتفظ به أبد الدهر .

وان الدول الثلاث روسيا والعثمانية والنمسا المستبدة التى طالما قاتلت مبادئ القومية قد قتلت بها فتمزقت كلمتها بعد ان كانت تحكم مائتين وخمسين مليوناً من أجيال الناس فى أوربا وآسيا ومن كان يظن ان الحرب العامة التى نشب أوارها سنة ١٩١٤ ووضعت أوزارها سنة ١٩١٨ تنشأ منها ممالك جديدة ، وتتألف قوميات فقد انسلخ من جسم ألمانيا والنمسا وروسيا مملكة كبرى وهى جمهورية بولونيا التى كانت تلك الدول الثلاث تقاسمتها بينها فى القرن الثامن عشر وسكانها ثمانية وعشرون مليوناً ونشأت أربع جمهوريات فى شمالى روسيا وهى جمهورية فنلندا واستونيا وليفونيا وليتوانيا ونشأت جمهورية أوكرانيا فى الجنوب الغربى على شواطىء البحر الاسود ، وكذلك جمهوريتا اذربايجان والكرج جنوبى قافقاسيا .

وانبتر من جسم الدولة العثمانية سورية وفلسطين والعراق والحجاز واليمن

ومن النمسا انفصلت المجر مؤلفة من مئه ألف كيلو متر مربع ونحو ثمانية ملايين من المجريين وكذلك جمهورية التشكوسلوفاكيا المأهولة على الأكثر من الصقالبة كالتشك فى بوهميا والمورافيين والسلوفاكيين وهى ١٤٥٥٠٠ كيلو متر مربع ونحو ١٤ مليوناً من السكان ، ومملكة اليوغوسلافيا ، وهى مؤلفة من الصربيين والخرواثيين والسلوفين - وهى مملكة الصرب القديمة أضيفت اليها مملكة الجبل الاسود والبلاد السلافية فى الجنوب من النمسا القديمة مثل البوسنة والهرسك ومساحتها ٨٠ ألفاً وسكانها ١٠ ملايين ومملكة رومانيا التى اتسع حجمها من بلاد المجر والروس التى غالب سكانها رومان ومساحتها ٣٠٠ ألف

كيلو متر وسكانها ١٣ مليوناً . وأصبحت النمسا القديمة جمهورية صغيرة ينزلها العنصر النمساوى أو الألمانى ومساحتها ٨٢ ألف كيلومتر وسكانها ٦٢٠٠٠٠٠ وهذا أفظع أنواع البتر فى الممالك .

وأخذت ايطاليا اقليمى الترانتن وفريول وجزءاً من اقليم ايستريا وتوسعت اليونان من الأراضى البلغارية والعثمانية وأضيفت الى البلجيك أراضى أو بين ومالميدي وأخــذت الدانيمرك من ألمانيا جزءاً من شلشويق هولستاين بلادها القديمة واسترجعت فرنسا ولايتى الالزاس واللورين ففقدت ألمانيا عشر ممالكها قبل الحرب . وانقلبت جمهورية بعد ان كانت ملكية مقيدة وفقدت تركيا سبعة ملايين من السكان وانفصل عنها جميع البلاد العربية وانقلبت روسيا الى جمهورية اشتراكية مؤلفة من العنصر السلافى فقط ويخرج منها بضع جمهوريات كبرى ؛ وانقرض آل رومانوف قياصرة روسيا وطرد آل هوهنزولرن امبراطرة ألمـانيا وآل هابسبورغ امبراطرة النمسا وفصلت الدولة العثمانية الدين عن السياسة فأصبح خليفة فروق ولا سلطان له على الامور الزمنية وسلطته روحية صرفة .

كان القطار قبل هذه الحرب يجتاز بنا فى الرحلتين السالفتين زهاء عشرين ساعة فى أرض امبراطورية النمسا والمجر فقطعنا المسافة من حدود بافاريا الى حدود ايطاليا هذه المرة مجتازين بأراضى النمسا فى ساعات قليـلة وفقدت النمسا بلادها الصناعية وبلادها الزراعية وأصبحت فينا الجميلة عاصمة لا ربض لها الا قليلا تجوع وتعرى وكانت عاصمة خمسة وخمسين مليوناً انفصلوا عنها باسم القوميـة وكانت تعاملهم بالشدة كلما رفع دعاتهم رؤوسهم للمطالبة بحقوقهم الطبيعية فلما أمكنتهم الفرص قلبوا لها ظهر المجن .

آثار العرب فى ايطاليا

١٢١

رسخت أقدام العرب فى جنوبي ايطاليا ولا سيما فى جزيرتى صقلية وسردانية أيام كان المسلمون كما قال ابن خلدون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر (يعنى بحر الروم) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنرقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم وكان أبو القاسم الشيعى وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية على جزيرة جنوة مرات فتنقلب بالظفر والغنيمة … والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الأكثر من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر فى أساطيلهم من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الفرنج وتثخن فى ممالكهم كما وقع فى أيام بنى أبى الحسين ملوك صقلية القائمين بدولة العبيديين وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرمانية لا يعدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الاسد بفريسته اه

ولقد أبقت العرب فى البلاد التى حكمت فيها زمناً مصانع كثيرة من قصور منيعة ومنازل شامخة شريفة كما قال الادريسى وكثيراً من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والجامع الاعظم فى بلرم عاصمة صقلية الذى كان بيعة فى الزمن الاقدم وأعيد على حالته فى سالف الازمان وصفته الآن (فى عهد الادريسى) تعزب عن الاذهان لبديع مافيه من الصنعة والغرائب

المقتملة والمنتخبة والمخترعة من أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات وذكر ابن حوقل أن فى بلرم ثلثمائة مسجد ونيفاً وقد كثرت الجوامع في أكثر المدن مثل قطانية ولم يبق الآن [1] من تلك الابنية الفاخرة التى شيدها العرب شيء غير أن في بلرم أوفى غيرها من مدن صقلية مبانى وقصوراً اقتفى مهندسوها مثال المبانى الفاخرة التى شيدتها الامم الممدنة المعاصرة للعرب ومن تلك المبانى قطران جليلان اسم أحدهما قبة واسم الآخر زيزا ولعل أصله في العربية عزيزة (أو زيزاء) فكانت مباني العرب هذه مثالا لمن خلفهم من سائر الامم لحذا الخلف في أبنيتهم حذوها

وفى متاحف ايطاليا وخزائنها سيوف وآلات نقلت من الشرق ولا تزال محفوظة فيها . وأهم ما فى ايطاليا من آثار العرب كتبهم المحفوظة فى خزائن ميلانو وورومية وغيرها من العواصم الايطالية ولم تبرح شواهد بعض القبور المكتوبة بالكوفى أو بالقلم النسخى ماثلة فى تينك الجزيرتين . نورد مثالا منها لما نشره المستشرق امارى الايطالى [2] ومنه يستدل على ارتقاء الادب العربى على ذالك العهد:

من ذلك ما كتب على شاهدة قبر فى بلرم :

لله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفناء ولكم فى رسول الله أسوة حسنة . هذا قبر ميمونة بنت حسان بن على الهذلى عرف بابن السوسى توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة وهى تشهد أن لااله الا الله وحده لا شريك له .

انظر بعينك هل فى الأرض من باقى … أودافع الموت أوللموت من راقى
الموت أخرجنى قسراً فيا أسفى … لم ينجنى منه أبوابى واغلاقى
وصرت رهناً بما قدمت من عمل … محصى علىّ وما خلفته باقى
يا من رأى القبر إنى قد بليت به … والترب غبر أجفانى وآماقى

(١) محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها بأوربا وخصوصا بايطاليا للعلامة اغناطيوس جويدى

(٢) الكتابات العربية فى صقلية Amari : Le epigrafi arabiche di Sicilia

في مضجعي ومقامي في البلى عبرٌ　　وفي نشوري اذا ماجئت خلاقي

وفي كتابة أخرى : بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة وعزاء...

وكتب على شاهدة قبر في نابلي

وكيف يلذ العيش من هو سائر　　الى جدث يبلى الشتات منازله

ويذهب رسم الوجه من بعد ضوئه　　سريعاً ويبلى جسمه ومفاصله

وكتب على قبر رجل اسمه يسين بن على بن يعيش توفى عام أربع وسبعين وستمائة :

بعـدت فما في العيش بعدك طيب　　وغبت عن الدنيا فلست تؤوب

مقيم الى أن يبعث الله خلقه　　لقاؤك لا يرجى وأنت قريب

ووجهك يبلى كل يوم وليلة　　وودك لا ينسى وأنت حبيب

عليك سلام الله ماذر شارق　　وما اهتز في دوح الاراك قضيب

وكتب على شاهدة في بلرم : هذا قبر ابراهيم بن خلف الديباجى توفى سنة أربع وستين وأربعمائة وهو يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وان الصراط حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور . على ذلك حيي وعليه توفى وعليه يبعث ان شاء الله رحم الله من دعا له بالرحمة والمغفرة آمين رب العالمين

ومن القبريات المسيحية ما كتب بالعربية أيضاً

توفيت أنه أم القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العاليـة العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعتزة بالله الملزوزة بقدرته المنصورة بقوته مالكة ينطاليه وانكبردة وقلورية وصقلية وافريقية معزة أمام رومية الناصرة للملة النصرانية صرمد الله مملكتها يوم الجمعة العشر العشرين من اوسة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ودفنت بالجامع الأعظم ثم نقلها ولدها بالمستنجيد الى هذه

الكنيسة حنت مخايله يوم الجمعة أول ساعة العشا . العشرين مائة سنة أربع وأربعين وخمسمائة وبنى على قبرها هذه الكنيسة وسمى الكنيسة حنت أنه على اسم أم مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين وفى أول الكلام اشارة الصليب .

الحضارة الغربية

١٢٣

يجدر بنا وقد انتهى بنا نفس الكلام على ممالك أوربا العشر التى زرناها وخبرناها بما رأيناه وسمعناه وقرأناه عنها منذ وعينا على أنفسنا مافصلناه للقاريء فنأتيه بنبذة تدلنا على ما قامت به فى الجملة كل أمة من هذه الامم من العمل النافع لهذه الحضارة الغربية الحديثة التى بهرنا خبرها ومخبرها وأن نبين منشأها والسر فى وصولها الى هذا الحد فنقول : يمكن ارجاع الامم الرئيسية فى أوربا الى ثلاث عناصر مختلفة . العنصر اللاتينى والعنصر الجرمانى والعنصر الاسكلافونى فالعنصر اللاتينى هم الطليان والفرنسيس والاسبانيون والبورتقاليون وقدورثوا من الرومان مدنيتهم ولسانهم . والالمان والسويسريون والانكليز والاسوجيون والدانيمركيون والهولانديون هم من الشعوب التوتونية والروس والبولونيون هم من الشعوب الاسكلافونية . قالت مدام دى ستايل أن الامم التى كان تهذيبها العقلى من أصل لاتينى هى أعرق فى المدنية من غيرها ورثت الا قليلا من ذكاء الرومان ومهارتهم فى ادارة أعمال هذا العالم وقبل أن تتأصل فيهم النصرانية قاموا بانشاء معاهد اجتماعية بنيت على أساس الوثنية ولماجاءت أمم الشمال تفتح بلادهم قبلت هذه الامم أخلاق البلاد التى افتتحتها . وهذه الملاحظات تختلف ولاشك باختلاف الاهوية والحكومات والحوادث التاريخية فقد أثرت سلطة الكنيسة مثلا فى ايطاليا آثاراً لاتمحى وكان من نتائج الحروب الطويلة مع العرب أن قويت العادات العسكرية وفكرة الاقدام على العظائم فى الاسبانيين . ويقال

بالاجمال أن هذا الجزء من أوربا الذى اشتقت ألسنته من اللسان اللاتينى وامتزج منذ الزمن الاطول بسياسة رومية تقرأ فى صفحاته آثار مدنية قديمة كانت فيما غبر من الزمن وثنية . ولما كانت الامم الجرمانية قد قاومت سلطة الرومان لم تتشبع بالمدنية الا مؤخراً ادخلتها من طريق انتشار الديانة المسيحية . فلم تلبث فى الحال أن انقلبت من نوع من البربرية الى مجتمع مسيحى . أما مدنية الاسكلافونيين فهى أحدث المدنيات وأسرعها من سائر حضارات الشعوب ولذلك لاتزال ترى فيها حتى اليوم آثار النقل والاحتذاء وتفقد فيها صفات الابداع والاختراع

لا جرم ان الحضارة عمل الأمم (1) بأسرها ومصادرها منوعة وذلك ان للأمم التى رأيناها فى هذه القارة والتى لم نرها فيها وفى غيرها تمدناً عاما نشأ من المدنية القديمة وانتقل الى جميع الممالك النصرانية وكلها تعمل على تحسينه . ولهذه الممالك بأسرها نفس الأدوات للعمل وعين الطرق فى الصناعة ومثلها فى باب وسائط النقل ، ولهم كلهم معامل وآلات بخارية وسكك حديدية وأسلاك برقية وكلهم يستثمرون معادنهم وأرضهم ، وجميع البلاد الممدنة مرتبطة بشبكات من السكك الحديدية وبطرق بحرية يمخر البخار عبابها وبأسلاك البرق والهاتف وأسلاك بحرية واتحاد بريدى عام فى البر والبحر وبريد جوى فى الطيارات ، ويتقايضون حاصلاتهم ورءوس أموالهم وهم على اتصال بينهم أبدا ، والصحف تنقل حوادث العالم أجمع يوما بيوم وساعة بساعة .

وقد كاد طرق الحياة أن يكون واحداً فى الأقطار الممدنة ففى كل مكان تجد مدناً كبرى ذات شوارع مخططة وساحات عامة وأسواقا مبلطة حفت بأرصفة وتشهد العجلات والحافلات والسيارات وأضواء الغاز والكهرباء ومجارى المياه القذرة والمياه الجيدة المجلوبة من الأماكن البعيدة ، ولئن كان بعض الفلاحين

---

(1) تاريخ المدنية الحديثة لسنيوبوس Ch. Seignobos : Histoire de la Civilisation Contemporaine وكتاب السياسة لبلونشلى Bluntschli : La Politique وكتاب الحياة الاجتماعية وتقلباتها لبرويسل Ernest van Bruyssel : La vie sociale et ses evolutions.

فى تلك الامم ولا سيا فى أوربا الشرقية قد احتفظوا بعاداتهم فان مصطلح أهل الطبقة الوسطى من الناس متحد فى اللباس والزى والتمثيل والصحافة والاندية والبورصة . والأفكار تنتقل من بلد الى آخر على أسرع وجه والعلماء فى كل صقع يعملون بأسلوب واحد ويشتركون فى خدمة العلم ويعقدون مؤتمرات علمية دولية . والتصوير والنقش والهندسة والموسيقى عامة تتناولها الشعوب كلها . ولم تبق غير الآثار الأدبية مقصورة على كل أمة برأسها لتخالف اللغات ولكن بالترجمة ينقل فى الحال ما فاضت به قريحة نابغة فامتازت به أمة على غيرها وتقتبس الأمم المتحضرة بعضها من بعض أسلوبها السياسى فقد أدخلت الامم أسلوب الحكم الدستورى مستعيرة له من حكومة انكلترا وقوانين الثورة الفرنساوية .

وقد جعل فى حكم المشاع كل ما تتألف منه حياة الشعوب المتهذبة من صناعة وتجارة وحياة عملية وعلم وفنون وأخلاق سياسية . ومع هذا لم تمتزج تلك الامم وظلت على تنافسها مدفوعة بعوامل قديمة من الاحقاد والحفائظ يتجاذبها عاملان متناقضان المدنية العامة المشتركة التى تدفع الشعوب الى أن يشعروا بالتضامن والتقارب والمنافسات والاحقاد التى تستدعيها الوطنية فتنبذ بها الى العزلة . والى معاملة الغير معاملة الاعداء . ومصير العالم مناط القوة التى يُرزقها أحد هذين التيارين .

تعيش الطبقة الوسطى فى الغرب بما بلغته من الغنى وأسباب الهناء والرفاهية عيشاً لم يحلم به أهل الطبقة العليا فى الأعصار السالفة فتتمتع بألوف من طرق الراحة من مثل سرعة المواصلات وجودة الطرق واستجادة الفنادق والحمامات البحرية والرحلات للنزهة والصحف والمجلات ودور التمثيل والغناء والمتاحف والطرق المبلطة المنارة المكنوسة. وروح هذه المدنية « العلم » الذى كان فى القديم أداة من أدوات الظرف للخواص ومنذ وضعت أساليبه وتحققت نتائجه دخل في طور عملي وأصبح قائد الصناعة والتجارة وبقواعده أخذت السياسة تنظم

وتدور وأصبح لجميع طبقات الشعب اداة تربية العقل والخلق . وغدت المدارس ودور الكتب من المعاهد العامة. والحكومات تتولى انشاء المدارس الابتدائية ولم يبق من أصول الانظمة القديمة الا نظام الأسرة والتملك وسقطت العادات التى كان يستمتع بها بعض الافراد ؛ فلم يبق لطبقة على طبقة امتياز والعالم سواء فى الاستمتاع بالحق والخضوع للواجبات وأصبح اعتبار العملة والزراع كاعتبار المالكين . وقد جعلت عامة هذه التبدلات الحياة منوعة سهلة حرة . وما قط جمعت المدنية حولها عالماً أكثر من اليوم يتناولون أسباب الهناء على السواء فتبدل كل شيء فى الحياة المادية والعقلية والاجتماعية وأصبحت جميع الامم تحكم نفسها وعليها تبعة عملها بعد ان كان معظمها تحت سلطان حاكم يدعى انه ظل الله فى الارض يستمد بزعمه من قوة سماوية تحكم عليه فيحكم بها على الناس .

فمن أين استمدت المدنية الغربية وما هى العوامل التى أثرت فيها فبلغت هذا النظام الذى لم يسبق له مثال فى المدنيات القديمة ؟ فالجواب على ذلك بحسب رأى بلونشلى الالمانى أن المدنية الحديثة التى تنشرها اليوم أوربا وابنتها أميركا فى أنحاء العالم قد اشتقت من مصادر ثلاثة وهى أولا : المدنية القديمة اليونانية الرومانية وأثر اليونان باد فى الفلسفة والشعر والهندسة والنقش . وأثر المدنية الرومانية ظاهر فى الحقوق الخاصة والسياسة والتاريخ والهندسة. والعامل الثانى النصرانية التى قوت محبة القريب وسنت الشفقة على البائسين أيا كانوا وانشأت كثيراً من ملاجىء الاحسان وكان لتأسيس الكنيسة وانتشار سلطتها تأثير بالواسطة . واذا كان الناس فى الغرب اليوم أقل تديناً وتعلقاً بالمعتقدات من أهل القرون الوسطى فان الاحسان وحب الخير عند المسيحيين أصبحا أكثر شمولا وأوفر عائدة مما كانا فى سالف الاعصار .

ثالثاً ان الجرمانيين رفعوا مستوى المصدرين السالفين وبدلوا فيهما ولا سيما ما كان له علاقة بحب الحرية وحسن الاخلاق واحترام البشر . وليست هذه المصادر الثلاثة على اتساعها هى المعول عليها وحدها فى المدنية الحديثة فان كل

امة من الامم المعاصرة قامت نحو الحضارة تبسط من العمل والنجاح ومنهم الطليان الذين ورثوا المدنية القديمة مباشرة وأوجدوا قبل غيرهم لساناً وبياناً وطنياً مجدداً وبلغوا غاية التأنق فى تزيين المدن ونشروا تجارتهم وألفوا أول قانون تجارى . ونهضة الفنون زينت ايطاليا بمصانع مخلدة من آثار الهندسة والتصوير والنقش وتغلبت على ظلمات القرون الوسطى

والمدنية مدينة بأقل من ذلك للاسبانيين والبورتقاليين فانهم اذا طردوا المسلمين خارج أوربا فذلك بثورة التعصب وبالقضاء على مدنية العرب الزاهرة . وأهم ما قاموا به من الاعمال الصالحة اكتشافاتهم ماوراء البحار ونجاحهم فى الشؤون البحرية وكان لآدابهم شأن عظيم ، بيد أن استبداد الامراء ورجال الكهنوت قد قضيا للحال على هذا الترقى الباهر وكان لتينك المملكتين شأن الى أواخر القرن السادس عشر ولم تلبثا أن هاجمتها طغمة اليسوعية المشؤومة — على قوله — فحولوا القوى التى اقتبسوها من المدنية ليحاربوها بها

قال وكان للفرنسيس من بين الشعوب الرومانية الكعب المعلى فى خدمة المدنية فان هذا الشعب العظيم يشعر من نفسه أكثر من غيره لان يعمل فى الخارج مدفوعاً بعامل فكر المدنية فقد كان لهم مما بلغوه من الرشد وعرفوا به من البديهة وحب التجدد فى الافكار وحذقهم فى بسطها للناس وسلامة ذوقهم ولطف مأتاهم وسلاسة لغتهم وغناها ما أهلهم لان يكونوا مدة قرون فى رأس المجتمع الاوربى . وقد زادت فى نفوذهم وحدة دولة وطنية قوية ذات عاصمة بديعة من بين العواصم . فالمجتمع الفرنساوى كان كالمشرف الملقن لعامة المجتمع المهذب وكان لفرنسا من آداب عصر لويز الرابع عشر والقرن الثامن عشر ومن أفكار الثورة ونبوغ نابوليون ضمانة فى هذا الشأن طال معه تفردها بالاولية فى أوربا وتؤخذ على الفرنسيس عدة عيوب مهمة وهى النظر الى الاشياء نظراً سطحياً والعجب والمزاج الذى يحملهم على الغلو وتجنهم فى الابداع والتغيير وهذه النقائص قد عبثت بمركزهم العالى ، ولكن ما انتجته قرائحهم يستحق شكر العالم

أما الشعب الانكليزى الممزوج من عناصر جرمانية ورومانية كالشعب الافرنسى ولكن على صورة معكوسة وكذلك أخته الفتاة أميركا فقد اشتهرا فى ميدان السياسة وكانت لهما اليد الطولى فى تأليف الحكومة الدستورية فسعيا لترقية المبدإ فى الحكومة الملكية المقيدة وتأليف المجالس النيابية وقيام الجمهورية لا جرم انهما كانا يهتمان خاصة بحريتهما الوطنية ومصالحهما العامة ولكنهما كانا ولا جدال المثالين الاولين فى عالم السياسة الحديث ، والى هـذين الشعبين يرجع الفضل على الحرية وما جهزت به من الأسلحة المشروعة والضمانات الحقوقية .

وكان لأميركا عمل عظيم فى باب حرية الوجدان والفصل بين الدين والسياسة والانكليز أرقى من الفرنساويين من حيث الشعور بالتقاليد واحترامها فقد بنوا بناءهم السياسى على أسس تاريخية مضمونة على حين قلما سلم الفرنسيس الا فى قلب كل ما كان لهم ليقيموا البناء من جديد ، ولانكلترا وأميركا الفضـل الأعظم فى ترقية الفنون العلمية والصناعات والبحرية والتجارة فى العالم . وما من شعب يشبهها من حيث البحث عن الطرق العملية حتى كادت تنقلب هـذه الصفة فيهم أحيانا الى أنانية باردة فى التقدير والسرد . والعـلم مدين للانكليز والأميركيين بشىء كثير من النجاح الذى بلغه . ولئن كان استعداد انكلترا للفنون الجميـلة أقل من استعداد غيرها فانها انبغت أعظم شاعر فى العالم .

قال وامتاز الشعب الألمانى خاصة بالخدمات التى خدم بها الحرية السياسية والدينية والعقلية فقضى أولا على سلطة رومية المستبدة ، وهيأ للقوميات مجالا متسعاً لتتألف جامعتها ويقوم أمرها وحال فى القرون الوسطى دون استرسال الباباوات فى تسلطهم تسلطاً عاما . ونادى فى القرن السادس عشر بحرية الوجدان وأثار العقول ببيعه وتربيته الحديثـة ، ثم ان جهاده الدائم فى البحث عن الحق وغيرته المتناهية فى العلم وعقله المستقل الفعال والميول الأدبية التى فطرت عليها نفسه وتحمسه بالجميل والجيد — كل هذا نشأت منه سلسلة من الأعمال العلمية والادبية والصناعية والفنية التى نفعت الانسانية .

وقد جاء زمن ظن فيه الناس ان الشعب الألماني الآخذ نفسه بهذه الأعمال قد نسي أن يجعل له مقاما في الحركة السياسية الجديدة . وذلك ان مملكة ألمانيا الرومانية قد تداعت أركانها وظهر أن تخالف العناصر والدول والاديان يحول دون توحيدها وتترك الأولية للغريب . وما كانت ألمانيا تظهر بأنها مثيلة لجاراتها الا في ساحة الافكار والعقل وكانت حكومتها السياسية أحط منها بكثير ، فحال دون اجتماع القوى المتفرقة وربطها برباط محكم ما فطر عليه الألماني من الجفاء في العشرة والتصلب في الرأي والشدة في الشكيمة واخلاص عدة من القبائل لامرائهم الى التي ما بعدها . وقد عرفت بروسيا الاستعداد السياسي والحربي في الأمة الألمانية فقامت الامبراطورية الألمانية مملوءة قوة ونشاطاً بين أمم أوربا وحاولت تحرير الأمم وان تنقذ العقول من تربية اليسوعيين البليدة ومن وثنية البابا المعصوم .

هذا ماقاله بلونشلي الألماني في الامم التي رأيناها وكان لها شأن في الحضارة وقال ولز الانكليزي (مجلة العرفان م ٨ ج ٢) أن نور العلم والمدنية أتانا من طريق العرب لامن طريق اللاتين . نعم أن العرب حملت للامم الاوربية كثيراً من أساليب الحضارة أبانوابها كما في دائرة المعارف الافرنسية الكبرى أنهم حذاق في صناعة الحرب وحذاق في صناعة السلم . نقلوها الى جنوبي ايطاليا وفرنسا واسبانيا ومنها انتقلت الى سائر الامم الغربية ونقل الصليبيون عن المسلمين طائفة صالحة من هذه الطرق مدة حروبهم معهم نحو قرنين في الشام ومصر

أخذ الغرب عن العرب ما وسعه أخذه والباقي اقتبسه كما قال بلونشلي من المدنيتين الرومانية واليونانية واذا أنصفنا لانجد مدنية الغرب الا تتمة المدنيات القديمة بما فيها من وثنية أقرت النصرانية بعضها ولا تزال الى اليوم ظاهرة الأثر فيها كما أقر الاسلام بعض عادات الجاهلية . وقد وصل الغربيون بالمدنيــة الى هذه الدرجة من الرقي بالعمل والثبات وحسن التنظيم ، وأهم ما أنجح مقاصدهم اضعافهم من سلطة الملوك ووضع الحكومات في نظام معين ارتقى بالزمن وتسلسل

الفكر فى أعمالهم وأنظمتهم الاجتماعية ، ثم ان لهواء بلادهم دخلا كبيراً فى رقيهم دعاهم الى العمل والانكماش والحرص والاقدام على العظائم أكثر مما كان من ابن آسيا وأفريقية .

وقد عملت كل أمة فى الغرب بحسب موقعها وتقاليدها والاحوال التى طرأت عليها . هذا فى الامم الكبرى أما الامم الصغرى فقد أحسنت الى الحضارة على قلة أسبابها فأنشأت لها امجاداً ربما كانت أعرق فيها من الامم العظيمة . وربما كانت المدنية أرسخ قدماً وأشد مرونة في الدانيمرك واسوج ونروج وسويسرا وهولاندة والبلجيك أكثر من الامم القديمة العظيمة التى شغلت بالحروب وكاد حبها يمتزج بأجزاء روحها ، وأصبحت حياتها وحياة أبنائها معلقة على تحديد سلاحها وتفننها فى سياستها لاستصفاء بلاد غيرها وتكبير رقعة سلطانها واغفال المعنويات فى الاحايين والنظر الى الماديات فقط (١)

---

(١) قال درابر الاميركى بعد أن وسع العرب ملكهم وأيدوا كلمتهم حولوا أفكارهم نحو المعارف والعلوم فامتازوا فيها وبرزوا على معاصريهم اذ كان من مبدإهم أن يرقبوا ويمتحنوا وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ومما تجدر ملاحظته انهم لم يعتمدوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر بل على المراقبة والامتحان بواسطة الآلات وذلك ماصيرهم مبتدعى الكيميا وقادهم لاختراع ادوات التصفية والتبخير ورفع الاثقال ودعاهم الى استعمال الربع والاصطرلاب فى علم الهيئة واستخدام الموازنه فى الكيمياء مما خصوا به دون سواهم والي صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة كالتى اصطنعت فى بغداد والاندلس وسمرقند وذلك جعلهم أيضا يوجدون تحسينات عظيمة فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الارقام العديدة في الحساب وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال والامتحان . ولم يقرروا في علم الهيئة لوائح فقط بل رسموا خرائط النجوم المنظورة في فلكهم أيضا مطلقين على ذوات القدر الأعظم اسماء عربية لاتزال ترد على كراتنا الفلكية وقد عرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها وعينوا الكسوف والخسوف ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة وادركوا الاعتدالين ولا حظوا أشياء بعثت نوراً بهراً على نظام العالم واختص علماء الفلك من العرب باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة وكانوا السابقين فى استعمال الساعة الرقاصة لذلك وهم انشأوا فى العلوم العملية علم الكيمياء وكشفوا بعض أجزائها المهمة كحامض الكبرتيك وحامض النتريك والكحول وهم الذين استخدموا ذلك العلم فى المعالجات الطبية اذ كانوا أول من نشر الفرمكوبيا والمستحضرات المعدنية وهم قرروا فى الميكانيكيات نواميس سقوط الاجسام وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ورأى

أما الامم التى استقلت فى العهد الاخير كاليونان ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وتشكوسلوفاكيا وبولونيا وفنلندا وغيرها فأكثرها ذات مدنيات قديمة عرض لها ما مزق شملها زمناً لسلطان جائر قبض بمخالبه على أعناقها واستعادت بعد الحرب حالتها السياسية في الجملة فأصبحت كل واحدة تحيا باسم القومية كما حييت الممالك الكبرى من قبل وكلها تحتذى مثال الدول المنظمة القديمة وتأخذ عنها أحدث الاساليب حتى أصبح بعضها موضوع اعجاب المنصفين من الباحثين مثل يونان ورومانيا وبلغاريا بأنها نهضت فى مدة قليلة ما كان منه مثال للشرق فى أمة تريد أن تحيا وقد رأينا مصر والاستانة أخذتا بحظ وافر من الحضارة الحديثة وتوشك أن تأخذ سائر البلاد المستعدة فى هذا الشرق القريب — ولاسيما بلاد العرب والفرس — حظها من مدنية تعبت أوربا قروناً طويلة فى نسج خيوطها وقادت بألوف الألوف من البشر لقيام نهضتها وقتلت عشرات الملايين من الجنس الاصفر والاحمر والاسود بل والابيض لتقيم محلهم المستعمرين من أهلها وعسى أن يكون شأن العرب والفرس من ذلك شأن يابان أخذت عن الغرب ما مست اليه حاجتها ومزجته بمدنيتها القديمة فهي خير مثال يحتذى والسلام

انتهت الرحلة الثالثة وبها انتهت الرحلات الثلاث

سديد بالقوات الميكانيكية واصطنعو فى الهيدروستاتيك الجداول الأولى للجاذبية النوعية وكتبوا مقالات على عوم الاجسام وغرقها فى الماء واصلحوا فى علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويمس المرئى فيظهره . أما هم فقالوا ان الشعاع يمر من المرئى للعين وفهموا موس انعكاس النور أو انكساره واكتشفوا طريق الشعاع المنحنى فى الهواء وبرهنوا على انا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب قال والذى يدهش كثيراً ان نتصور أشياء نفتخر أنها من مواليد وقتنا ثم لا نلبث ان نراهم سبقونا اليها فتعليمنا الحاضر على النشوء والارتقاء كان يدرس فى مدارسهم وحقاً انهم وصلوا به الى الاشياء الآلية وغير الآلية فكان المبدأ الرئيسى فى الكيمياء عندهم المظهر الطبيعى للاجسام المعدنية (انتهى معرباً من مقالة فى مجلة النعمة بقلم الاستاذ عبده كحيل)

فهرس غرائب الغرب

الجزء الثانى

الرحلة الثالثة

*

الخطأ والصواب

« وقعت بعض أغلاط مطبعية فى الجزء الأول والثانى من غرائب الغرب وها نحن أولاء نصححها و نترك بعض أشياء يهتدى القارئ اللبيب من نفسه الى وجه الصواب فيها »

« الجزء الأول »

صفحة ٧ سطر ١٢ خطأ — لحدودها — صواب لحدوها ص ٢٥ س ١٣ أى — أيا ص٣٧س ١٨ رأو — رأوا ص ٣٩ س ٥ تسعة أعشار — أحد أعشار ص ٦٨ س ١٣ Chiers Thiers ص ٦٩ س ١٤ اعاتهم — أعانهم ص٧٤س١٢ الصلاة - الصلات ص ١٠٢ س ٦ أونقلت - لونقلات ص١١٦س ٨ لويزالرابع — لويز الرابع عشر ص ١٣١ س ٢٥ La pulicité La publicité ص ١٣٩ س ٩ ستاسبورغ — ستراسبوغ ص ١٥٥ س ١٢ الا وأخذ — الا وأؤخذ ص١٦٢ س ٢٤ بها ان — بها ابن ص ١٩٦ س ٢٤ بألا يفكرون — بأنهم لا يفكرون ص ١٩٥ س ٥ تحتاج حسن — تحتاج فى حسن ص ١٩٩ س٢٤ مقدماً — مقدساً ص ٢٠١ س ٣٠و٣١ والتقين — وانتقين . والتخصب — والتخضب ص ٢٠٧ س ١٢ شاهدة — شاهد ص ٢١٧ س ٧ التثبت — التنبت ص ٢١٦ س ١ دينياً — وبينا ص ٢١٩ س ٧ مقمد - معتقد ص ٢٢٤ س ٢٠ قانون — قانوناً ص ٢٢٩ س ٢٤ ليمملا — ليعملوا ص٢٣٢ س ١٠ مازوتى — مازونى ص٢٣٣ س٦و٢١ الميتر — المنبر . عد مثلها — عن مثلها ص٢٣٤ س٦و١٤ اعانات المدارس — اعانات لمدارس . يتمخضون - يتمحضون ص ٢٤٧ س ١٣ ازدهاء — ازدهار ص ٢٤٨ س ١٦ وبيزاء — وبيزا ص ٢٤٩ س ٦ الاسلامى - الاسلام ص ٢٦٠ س ١٦ يعالجها — يعاجلها ص ٢٦١ س ١٦ ليتمثل — يتمثل ص ٢٨٨ س ١ أعمادها — اعتمادها ص ٢٨٩ س ٨ قصدوا — فصدوا ص٢٩٢ س ١٥ عاداة — عادات ص ٢٩٧ س ١ الآخريان — الأخريان ص ٣٠٩ س ٨ برنال — برنار

٣١٠و٣١١ (الصفحة ٣١٠ والاربعة الاسطر الاولى من صفحة ٣١١ تابعة للحاشية الواردة فى صفحة ٣٠٩ بالحرف الدقيق) ص٣١٤س٢٢ المجرد — المجر ص ٣٢٠ س١٩ بقضاء — بفضاء ص ٣٢٣ س ١١ الوالدين الذين — الوالدين اللذين ص٣٢٦ س ١٨ الوجود — الوجوه ص٣٢٨س٢٢ ووجدنا — ووحدنا ص ٣٢٩ س ١٥ الفلامنديين — الفلامنديين ص ٣٣٣ س ٢٥ Artin la Grèce noenelle Martin : La Grèce nouvelle ص ٣٣٤ س ٢٥ تعدنيه — تعدينه ص ٣٣٥ س ٣ الا باستخدام — الا بالاستخدام ص ٣٣٦ س ١٦ لا أنسى — لا أنس .

« الجزء الثاني »

ص ٦ س ١٨ والكوانلوب — والكوادلوب ص ١١ س ٢٤ derinés — dérivés ص ١٥ س١٢ بارتر — بارتو ص ١٧ س ٢٢ بل مقلدين أو مجتهدين — بل مقلدين و مجتهدين ص١٨س٢٠و٢١ Ram Band — Seignobses, Rambaud Seignobes ص ١٩ س ١٣ وكانت — وطافت ص ٢١ س ٢٥ فيسبوسي الملاح القلودنسى — فيسبوس الملاح الفلورنسى ص ٢٢ س ١٥ باستعمال — باستعمار ص ٢٣ س ١٥ رفعتها — رقعتها ص ٢٥ س ١٨ برناروس — برناردس ص ٢٧ س ٥و١٥ نفحة — نغمة . بضائع — بصنائع ص٢٨س٢١ تبهجتك — تبهجك ص ٢٩ س ٩ ما اشتهر بفيها — ما اشتهر فى بنيها ص ٣٠ س ١٨و١٩ وساحتها — ومساحتها . و٤٠٠٠ هكتاراً و ٤٠٠٠ هكتار ص ٣٢ س١٧ و ٢٢ غير نكير — من غير نكير . وان لم يفهها — فهو وان لم يفهمها ص ٣٤ س ١ سازه ساين — سان ساين ص ٣٩ س ١٤ مقولا — معقولا ص ٤١ س ٤ لا فرقاً — لا فرق ص٤٤س١٠و١١ مع الحياة — مع المياه وهذا — هذا ص٤٦س٧ على هنيته — على هيئته ص ٤٨ س ٢٢ L. Eneyclopéodie L' Encyclopédie ص ٥٢ س ١٧ أن يرسل — أن يرحل ص ٥٥ س ٤ علماً لمعاجم — على المعاجم ص ٥٦ س ١١و١٨ جوها لابريل — جوهان بريل . والسنكريتية . . . الآرتية — السنسكريتية . . . الآرية ص ٥٧ س ١٤ عيينة — عبيد ص ٥٨ س ٢١ بلندرا

أكثر — بلندرا كثر ص ٦١ س ١٠ غير القسيس — غير القسيسين ص ٦٣
س ٦و١٦ وتعريف — وتصريف . وبكريج — كمبريج ص ٧٠ س ١٦ الناس
أربعة — الفلس أربعة ص ٧١ س ٨ بخطر غريب — بخط غريب ص ٧٣ س ١٨
و١٩و٢٠و٢٢ Essou'd, nue Essaid'une Taine Caine
peuple ang'ais au X I X siècle peuple anglais au X L X e sieil
ص ٧٩ س ١٢ وجدت — وجوت ص ٨٠س ٢ Européens Européène
شادوا — ساووا ص ٨٧ س ٢٠ والمباهات — والمباهاة ص ٨٩ س ٢٠
والزماندليين والنرماندين ص ٩٠س٨ كأنه — كأن ص ٩٧ س ١٤ العربية —
الغربية ص٩٨س١٦و٢٤ تدفعها — يدفعها . Blene - Blene ص ١٠١ س ٣
تقي أشخاص — تقي الأشخاص ص ١٠٥ س ٦ صرحت — حرصت ص ١١٢
س ١٨ Lavisse Lauisse ص ١٢١ س ٧ فشتيلية — قشتيلية ص ١٢٥
س ١٣و١٦ وان يعدل — وأين يعدل . أنارها — أنهارها ص ١٢٩ س ٨
شاهدها — شادها ص ١٣٩ س ١٦ مائلة — ماثلة ص١٤١س٢١ Justituto —
Instituto ص ١٦٨ س ٧ و٢٣ و٢٤ طليلة — طليطلة . المتوخات — المتوخاة .
ويبوءه — ويبوئه ص١٧٤س٤ فن — فن شقائه ص ٢٠٥ س ٢٣ Cataica —
Catholica ص ٢١٨ س٥و٦ بالتصرف — بالتصوف . الامنة — الامةص٢٢٢
س ٢٤ تساعد — ساعد ص ٢٢٣ س ٤ الكتلانكيين — الكتلانيين ص ٢٢٤
س ٣و٤ وزارته — ووزارته . يقين — تعيين ص ٢٢٩ س ٢٢ غريانا — غويانا
ص٢٣٠س١٤ الشائقة — الشائعة ص ٢٣١ س٣و١٥و٢٠ الاعتناء — الاغتناء .
وطنينتها — وطنيتها . وما تدرى أيلتئم — وما ندرى أيتم ص ٢٣٨ س١٤و٢٣
و٢٤ متوافر — متواز . درسله — درسد . Jules — Gules ص ٢٤٣ س ٩
و٢٢ الواردات — الولادات . اشتغلت — استغلت ص ٢٤٦ س ١ القرن
التاسع — القرن التاسع عشر ص ٢٤٧ س١٢و١٩ والغيناسيتين — الفيناسيتين .
مساحة — ساحة ص٢٥٠س٩ البروستية — البروسية ص٢٥٢ س ١٦ سادوثا —
سادوقا ص ٢٥٦ س١٨ و١٩ و٢٤ كنغنبرغ — كنغسبرغ . كيش — كيل .

كرابفسوالد — كرايفسوالد . روشتون — روشتوت . لكروشته - لكروشه ص٢٥٩ س٣ فالفنى — فالفتى ص٢٨١ س٨ و٢٠ و٢١ فليسز — فليشر . فولدكه — نولدكه . فولدكه — نولدكه ص٢٨٢ س١٠ و٢٠ فليستر — فليشر . المعجاج — والعجاج ص٢٨٣ س ٢٢ و٢٣ nilernationalisme — internationalisme Craite — Traité ص٢٨٤ س٤ الثانية عشرة — الثامنة عشرة ص٢٨٧ س١٦ ضربت — ضريت ص ٢٨٨ س٦ قطران — قصران ص ٢٩٠ س١ حنت — سنت ص ٢٩١ س ٢٤ و٢٥ Bruyssel - Bruyssel evolutions e'volutions ص ٢٩٤ س ١ تبسط — قسط

